الجواري والغلمان في مصر

في العصرين الفاطمي والأيوبي

(٣٥٨-٦٤٨هـ/٩٦٩-١٢٥٠م)

دراسة سياسية اجتماعية

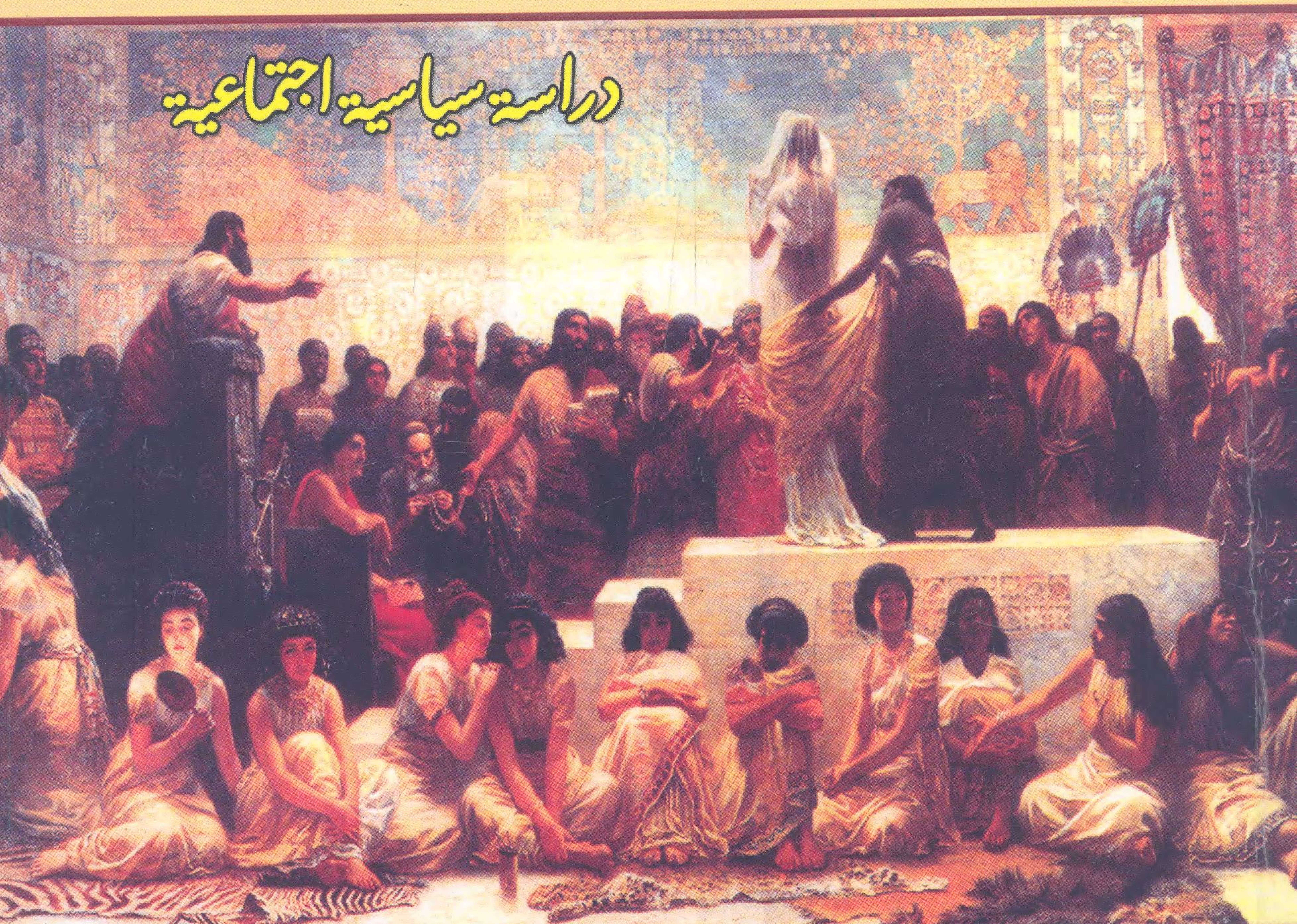

الدكتورة

نجوى كمال كيرة

الناشر
مكتبة زهراء الشرق
١١٦ شارع محمد فريد
ت: ٠٠٢٠٢٣٩١٣٣٥٤ موبايل: ٠١٢٣١٧٧٥١٠

الجواري والغلمان

في مصر

في العصرين الفاطمي والأيوبي

(٣٥٨-٦٤٨هـ/٩٦٩-١٢٥٠م)

دراسة سياسية اجتماعية

الدكتورة

نجوى كمال كيرة

الناشر

مكتبة زهراء الشرق

١١٦ شارع محمد فريد

ت: ٠٠٢٠٢٣٩١٣٣٥٤ ٠١٢٣١٧٧٥١٠٠

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

كيره، نجوى كمال.
الجواري والغلمان في مصر في العصرين
الفاطمي والأيوبي (٣٥٨ – ٦٤٨ هـ/ ٩٦٩.
١٢٥٠م): دراسة سياسية اجتماعية / نجوى
كمال كيره. – القاهرة: مكتبة زهراء الشرق
، ٢٠٠٧
٥٦٠ ص ، ٢٤ سم.
تدمك ٢ ٣٠٨ ٣١٤ ٩٧٧
١- الرقيق – مصر ٣٠١,٤٤٩٣
٢ – مصر – تاريخ – العصر الفاطمي (٩٦٩ – ١١٧١)
٣- مصر – تاريخ – العصر الأيوبي (١١٧١ – ١٢٥٠)
أ – العنوان

اسم الكتاب	:	الجواري والغلمان في مصر في العصرين الفاطمي والأيوبي
اسم المؤلف	:	الدكتورة / نجوى كمال كيره
رقم الطبعة	:	الأولى
السنة	:	٢٠٠٧
رقم الإيداع	:	٢٣٨٥٣
الترقيم الدولي	:	I.S.B.N 977 - 314 - 308 - 2
اسم الناشر	:	زهراء الشرق
العنوان	:	١١٦ شارع محمد فريد
البلد	:	جمهورية مصر العربية
المحافظة	:	القاهرة
التليفون	:	٠٠٢٠٢٣٩١٣٣٥٤ - ٠٠٢٠٢٣٩١٣٨٥٩
فاكس	:	٠٠٢٠٢٣٩١٣٨٥٩
المحمول	:	٠٠٢٠١٢٣١٧٧٥١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (١)

صدق الله العظيم

---

(١) سورة النساء آية رقم ١١٣.

إهـــــداء

إلى روح والدي الحبيب طيَّب الله ثراه وأسـكنه فسـيح جناته.

إليك فلا زلت أقتفي أثرك في الطموح وأترسم خطاك في الرقي، لا زالت كلماتك نافذة إلــى غايــات قلبــي وعقلــي، واستشعر روحك الطاهرة تحوم حولي كلما يئست أو تثاقلت خطاي.. تشجعني وتؤازرني على الوصول إلى مبتغاي الذي هو مبتغاك..

إلى مصر التي في خاطري..

إلى كل من يزعم انه أحب مصر أكثر مني..

وإلى كل من علَّمني حرفًا وساهم في تكويني العلمي..

أهدي هذا الكتاب

نجوى كيرة

المقدمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾

صدق الله العظيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد أشرف المرسلين وخاتم النبيين.

يعالج هذا الكتاب حياة الجواري والغلمان ودورهم كمماليك سياسيًا واجتماعيًا في مصر في العصرين الفاطمي والأيوبي (٣٥٨-٦٤٨هـ / ٩٦٩-١٢٥٠م).

وقد آثرت اختيار هذا الموضوع والبحث فيه لما لهؤلاء المماليك من دور مؤثر في الحياة السياسية والاجتماعية في مصر.

وقد قمت خلال دراستي بتتبع دور هؤلاء منذ شرائهم من الأسواق أو حين سبيهم في الحروب إلى أن أصبحوا أمراء وقوادًا يتحكمون في مقدرات أكبر دول العالم الإسلامي.

اهتمت الدراسات والأبحاث السابقة بنشأة دولة المماليك وبدورهم السياسي والاجتماعي في مصر في فترة العصر المملوكي حين أقاموا دولتهم في مصر . ومن ثم كانت وجاهة اختيار هذا الموضوع إذ يبدو غريبًا أن نتحدث عن المماليك ولما تقوم لهم دولة بعد.

ويجب التنويه على أن هذه الدراسة قد أوضحت أن مصطلح «المماليك» استخدم في كثير من الأحيان مرادفًا لمصطلح «الرقيق» وذلك في المصادر الفقهية والمصادر التاريخية السابقة على فترة الدراسة والمعاصرة واللاحقة لها.

ويبدو من الخطأ الشائع أن يرتبط لفظ «المملوك» بمماليك الصالح أيوب البحرية

الذين أقاموا دولة المماليك الأولى، فالمملوك هو من استرق وسبى دون والديه أو من مسته يد النخاس.

كذلك بينت خلال هذه الدراسة أن نشأة هؤلاء المماليك والبيئات المختلفة التي أتوا منها قد انعكست على تصرفاتهم تجاه المجتمع المصري، لكن اللافت للنظر أن هؤلاء المماليك، مهما تنازعوا فيما بينهم واختلفوا، كانوا، حين يداهمهم الخطر، يكونون جبهة قوية دفاعًا عن كيانهم متناسين، أحقادهم واضعين نصب أعينهم أنهم طائفة خاصة في وسط مجتمع من الأحرار يجب الحفاظ فيه على كيانهم حتى لا يلفظهم هذا المجتمع خارجه فقد ارتبطوا بأرضه واعتنقوا الشريعة الإسلامية وانتموا إليه.

وقد قسمت دراستي إلى تمهيد وخمسة فصول، أما التمهيد فقد قدمت فيه إيجازًا لتاريخ الرق عامة. وعرَّفت الرق لغة واصطلاحًا. وتحدثت عن مصادر الرقيق وأشرت إلى أهميته وكيفية التعامل معه وإلى دوره في الحضارات القديمة وموقف الديانات السماوية منه . وأكدت على موقف الإسلام من الرق وكيف جفف منابعه تدريجيًا حيث أنه كان نظامًا موجودًا بالفعل وكان من الصعب إلغاؤه مرة واحدة. لقد أعلى القرآن الكريم حرية الإنسان وجعلها قوامًا للحقوق التي منحها للإنسان كافة.

أما الفصل الأول، وعنوانه «المماليك» ، فقد تحدثت فيه عن مراكز تجارة الرقيق وأنواع المماليك وبداية دخولهم في خدمة الدولة الإسلامية.

وجاء الفصل الثاني، وعنوانه «دور المماليك السياسي في العصر الفاطمي» ، ليناقش استخدام الفاطميين للمماليك، وفيه تناولت بالدراسة عناصر المماليك التي عرفتها مصر بكثرة في تلك الفترة، وهم الصقالبة والأتراك والسودان، وتعرضت للصراع بين الطوائف المختلفة للمماليك في تلك الفترة وأثر ذلك في المجتمع المصري، ثم بينت أبرز العناصر المملوكية في العصر الفاطمي ودورها سياسيًا واجتماعيًا.

أما الفصل الثالث، والذي يحمل عنوان «دور المماليك الإجتماعي في مصر في العصر الفاطمي» ، فقد تعرضت فيه للمجتمع المصري في العصر الفاطمي شارحة

التقسيم الطبقي لذلك المجتمع في تلك الفترة وأنه كان ينقسم إلى طبقتين: الخاصة، وتشتمل على الأسرة الحاكمة والأشراف وأرباب الوظائف، والعامة، وتتشكل من التجار وأرباب الصناعات والحرف وعامة الفقراء من أهل الذمة.

ثم تحدثت عن المماليك من الجواري والغلمان والعبيد والخصيان في حياة القصور ودور كل منهم، واقتناء الخلفاء للجواري، والأعمال التي قامت بها الجواري في القصر، وعتق الخلفاء لهن وثراؤهن، وذكرت الغلمان والعبيد وحياة القصور وعتقهم وميراث الخدم من العبيد والغلمان والخصيان في القصر الفاطمي ثم الأستاذون المحنكون والأساتذة غير المحنكين، وفي نهاية الفصل، أشرت إلى علاقة المماليك بالمجتمع المصري في تلك الفترة، وامتلاك العامة للرقيق والآثار التي ترتبت على وجود الجواري في الأسرة المصرية وإعتاق العامة للجواري، ثم بينت الجوانب الإيجابية والسلبية لهؤلاء في المجتمع الفاطمي.

أما الفصل الرابع، فقد وضعته تحت عنوان «دور المماليك السياسي في مصر في العصر الأيوبي» ، وفيه تعرضت لمساندة المماليك لصلاح الدين الأيوبي في إسقاط الخلافة الفاطمية واستخدامه للمماليك، وبينت الدور الذي قاموا به في الجهاد، ضد الصليبيين حتى نهاية الدولة الأيوبية.

وتناولت بالدراسة تكوين فرقة البحرية على يد الملك الصالح نجم الدين أيوب ودورهم في التصدي للحملة الصليبية السابعة وموقفهم من تورانشاه وشجر الدر.

أما الفصل الخامس، والذي يقع تحت عنوان «الوضع الإجتماعي للمماليك في العصر الأيوبي» ، فيتعرض لنظام تربية المماليك في العصر الأيوبي والعلاقة بين هؤلاء المماليك وبعضهم البعض وعلاقة المماليك بالمجتمع المصري، ثم عرضت بعض الوظائف والمهن التي تقلدها مماليك العصر الأيوبي في قصور السلاطين كما أبرزت دور المماليك في إقامة المنشآت الدينية والإجتماعية في مصر في ذلك العصر.

وإذ أنهيت موضوع هذا الكتاب على النحو المتقدم، فقد أردت بذلك أن أضيف

لبنة إلى الدراسات التاريخية لفترة تاريخية هامة ربما لم تلق عناية الباحثين بالشكل المطلوب على الرغم من أهميتها التي نبعت من تزامنها مع أخطر حلقات الحركة الصليبية ضد العالم الإسلامي، فقد كان للمماليك دور مؤثر في التصدي لها بدافع من إيمانهم بأن الجهاد قضية مصيرية وأن الدفاع عن الإسلام ضد الغزاة الطامعين واجب كل مسلم فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمني، والخير أردت والله ولي التوفيق.

دكتورة

نجوى كيرة

تمهيـــــد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تمهيـــــد

تاريـــــخ الـــرق

- الرق لغة واصطلاحًا.
- مصادر الرق.
- الحضارات القديمة والرق.
- الرق في الديانات السماوية.
- الرق في الإسلام.

تاريخ الرق

سجل المؤرخون والرحالة في كتبهم ومشاهداتهم دورًا مؤثرًا للرقيق في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في العالم في العصور الوسطى، وذلك فضلاً عن دور الرقيق في الدولة الإسلامية، فقد استخدم المسلمون الرقيق في القيام بالأعمال المختلفة، كالزراعة والصناعة والخدمة في القصور، بالإضافة إلى الإستعانة بهم في الجيوش الإسلامية وبصفة خاصة في الدولة الفاطمية.

واختلفت مكانة الرقيق، فهم تارة عبيد مملوكة، وطورًا غلمان للتربية، منهم من استطاع بعد الحصول على حريته أن يسيطر على مجريات الأمور وصولاً إلى السلطة والحكم.

والاسترقاق قديم، عرفته البشرية منذ قيام المدنيات الأولى، وكان الاسترقاق صورة من صور البغي والتسلط عكست سيطرة القوي على الضعيف، وظلت سائدة في العالم القديم، وكان للإسلام دور أساسي في تنظيم هذا الوضع لصالح الإنسان الذي لم يخلق عبدًا إلا لله سبحانه وتعالى فقد أعلى القرآن الكريم حرية الإنسان وجعلها أساسًا للحقوق التي منحها للإنسان منذ ميلاده فقد نص على أنه ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[١].

وأنكر الإسلام على الإنسان والأقوام أن يفاخروا بجنسهم أو بفضيلة فيهم أو أن يستعبدوا غيرهم من الأجناس على سند من قوة أو تحضر أو ثراء أو زعمهم أنهم صفوة مختارة اختصهم الله دون خلقه فادعوا حقوقًا إلهية تعليهم عن غيرهم[٢].

ومع ذلك، فما زال الرق نظامًا معمولاً به في الكثير من بقاع العالم بالرغم من أن المنظمات العالمية المهتمة بحقوق الإنسان تعمل جاهدة لتخليص أولئك الذين

---

(١) سورة آل عمران: آية ٧٩.

(٢) انظر عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): مقال في الإنسان، دراسة قرآنية، القاهرة ١٩٦٩م، ص٦٣.

يئنون تحت نير الإستعباد، كما لا تزال الحكومات الحديثة تحاول جاهدة القضاء على تلك التجارة المهينة لكرامة الإنسان.

الرق لغة واصطلاحًا:

أ- الرق لغة:

عكف اللغويون والمؤرخون والفقهاء على تعريف الرق، فذكر اللغويون أن الرق «هو حرمان الشخص من حريته الطبيعية وصيرورته ملكًا للغير» أو هـو الضـعف ومنه رقة القلب(١).

واتفق اللغويون في تفسير لفظة «المملوك» أو «العبد» على قولهم: هو عبد مملكة ومملكة، وفي هذا يقول ابن الأعرابي وصاحب التهذيب أن العبد هو الذي سبي ولم يملك أبواه، أما ابن سيده فيقول: ونحن عبيد مملكة، لاقن' أي أننا سبينا ولم نملك قبل، ويقال: فهم عبيد مملكة، والعبد هو «القن» الذي ملك هو وأبواه(٢).

ويبدو أنهم اعتمدوا في رأيهم هذا على ما جاء في أي الذكر الحكيم: أيمـانكم، ملكت أيمانهم، ملكت يمينك(٣).

وعرفت لفظة «الرق» في اللغات الأجنبية، فهي في الإنجليزية «Slavery» وفي الفرنسية «Esclavage»(٤).

وجاء في تعريف «الرق» في دائرة المعارف البريطانية أنه وضع اجتماعي يعني

---

(١) أحمد شفيق: الرق في الإسلام: ترجمة أحمد زكي، القاهرة ١٩٨٢، ص٧، عبد الله حسين: الدولة الإسلامية د. ت، ص ٢٦٢.

(٢) ابن منظور: لسان العرب القاهرة ١٣٠١هـ، جـ ٦، ص ٤٢٦٧ وما بعدها مادة ملـك وقـارن سعيد عاشور: العصر المماليكي القاهرة ١٩٧٦م، ص ١، أنور زقلمه: المماليك في مصر، القاهرة ١٩٦٧، ص ١٦- ١٧، وعبد المنعم ماجد: طومان باي القاهرة ١٩٧٨، ص ١٢.

(٣) سورة النساء أيات ٣، ٢٤، ٢٥، ٣٦ وسورة النحل آية ٧١ والنور آيات ٣١، ٣٣، ٥٨، وسورة الروم أية ٢٨، والأحزاب آية ٥٠.

(٤) Encyclopedia Britannica, Vol.20, «Slavery», P/628, La grande encyclopedie Tom, 16. P.247.

العبودية الإلزامية التي تفرض على شخص من قبل شخص أو جماعة معينة(١).

كما عرفته دائرة المعارف الأمريكية بأنه نظام معين أو حالة أو وضع يكون بمقتضاه الأشخاص مملوكين، وجاء في دائرة المعارف الفرنسية أن لفظ «الرق» يطلق على وضع إنسان مملوك لإنسان آخر وهذا الوضع لا يشكل قيدًا على الحرية الشخصية فقط بل إنه يلغيها إلغاءً تاماً، فالعبد يعد شيئًا وهذا الشيء ملك لمالك الشيء، أي لسيده(٢).

ب - الرق إصطلاحًا :

ذكر الإمام مالك لفظ «مملوك» بمعنى عبد، وقيل «إنه عجز حكمي شرع في الأصل جزاء عن الكفر فيكون من حق الله تعالى، لكنه في البقاء أمر حكمي به يصير المرء عرضة للتملك»(٣).

وقيل إنه «عجز حكمي عن الولاية والشهادة والقضاء ومالكية المال وغيرها»(٤).

وقد نظم الشرع الإسلامي وضع الرقيق في المجتمع تنظيمًا دقيقًا وحدد حقوقه وواجباته، ووضع القواعد لتنظيم ذلك حتى أنه جعله مساويًا للحر في الكثير من الأمور، منها إنه أباح له إمامة المسلمين في الصلاة.

فقد كان أبو عمرو مولى عائشة، ولم يكن أعتق حينئذ، يؤم الناس في الصلاة. وقال الشافعي «ليس بضيق أن يتقدم المملوك الأحرار إمامًا في مسجد جماعة»(٥).

كما حددت النفقة على المماليك وواجب المالك في إنفاقه عليهم(٦).

---

(1) Encyclopedia Britannica Vol.20 «Slavery» P/628.

(2) La Grande Encyclopedie, Tom 16, P.247.

(٣) الإمام مالك بن أنس: المدونة الكبرى، بيروت ١٣٢٣هـ، جـ٧، ص ١٥٢.

(٤) عبدالله بن مسعود الملقب بصبر الشريعة: شرح التوضيح في متن التنقيح، القاهرة د. ت، جـ ٢ ص١٧٠.

(٥) ابن أمير حاج: التقرير والتحبير، القاهرة د. ت، جـ ٢ ص ١٨٠. انظر الشافعي الأم: القاهرة ١٢٩٧ هـ، جـ١، ص ١٤٦.

(٦) نفسه: حـ٥، ص ٩٠

كما فرض الحج على كل من الغلام إذا بلغ الحلم والجارية المحيض في أي سن بلغاها واستكملا خمس عشرة سنة. كما نظم بيع الإماء وكذلك نكاح العبد والأمــة. وحدد ميراث العبد ونظم العتق وكذلك شراء العبيد[1].

مصادر الرقيق:

تعددت مصادر الرقيق باختلاف البيئات والظروف. فكانــت الحــروب مصــدرًا رئيسيًا من مصادره كما كانت القرصنة وسيلة من أهم وسائل جلبه، وعــن طريــق الصيد والقنص والخطف كانت أسواق النخاسة تمتلئ بمختلف أنواع الرقيق وخاصة الرقيق الأسود الأفريقي[2].

كما كان البيع أحد المصادر الهامة لجلب الرقيق، فقد ذكر المقريزي في خططه «باع أهل الصعيد أولادهم من الجوع وصاروا أرقاء مملوكين»[3].

وكان الأهالي يقومون ببيع أبنائهم عندما يجتاح البلاد الوباء وترتفع الأســعار ويتهددهم الجوع، وقد أكد المقريزي ذلك بقوله «عجز الفلاحون عن البــذر ســيما أراضي الصعيد فإن أهلها بادوا موتًا بالجوع والبرد، وباعوا أولادهم بأبخس الأثمان، فاسترق منهم بالقاهرة خلائق، ونقل الناس منهم إلى البلاد الشامية ما لا يعد فبيعوا في أقطار الأرض كما يباع السبي ووطئ الجواري بملك اليمين»[4].

كذلك كان الحال عند غزو المغول لشمال آسيا تحت قيــادة «باتوخــان» حفيــد جنكيزخان حيث سيطر المغول على تلك البقاع وأذلوا أهلها الذين اضطروا للفرار من ديارهم وتشتتوا في بلاد آسيا الصغرى فعرضوا أولادهم وبناتهم للبيع، فكانت فرصة

---

(١) للمزيد انظر الشافعي الأم: جــ١، ص ١٩٩، جــ٢، ص ٩٤ – ٩٥ وجــ٣، ص ٢٧٦ – ٢٧٧، جــ٤، ص ٣، ص ٤٣، جــ٦، ص ١٩٣، جــ٧، ص ١٨٣.

(٢) عن أساليب الصيد والخطف والقنص انظر: لبيبة إبراهيم: الرقيق وتجارته في مصر والشام فــي عصر دولة سلاطين المماليك، رسالة ماجستير، كلية الآداب / جامعة القاهرة ١٩٩٣م، ص ٤٢ – ٤٣.

(٣) المقريزي: الخطط، بولاق ١٢٧٠ هــ، جــ٢، ص ٢٤٠.

(٤) المقريزي: السلوك، القاهرة ١٩٥٦، جــ٣، ق٣، ص ١١٣٥، ١١٦٧.

سانحة لتجار الرقيق والنخاسة الذين ابتاعوا ما شاء الملوك والأمراء والسلاطين «فيشب الفتى وقد نسى قومه وجنسيته واندمج في سلك أمثاله من المماليك تحت رعاية مملوك منهم أو أمير من أمراء العرب أو غيرهم يقربونهم إليهم ويحبونهم لجمالهم وذكائهم»(١).

الحضارات القديمة والرق:

عرفت الشعوب القديمة الرق بأنواعه المختلفة، جماعيًا أو فرديًا، وامتلكه الملوك والأمراء والعامة(٢) وقد استخدم الرقيق في الجيوش والمعابد والجبانات، وقد ذكرت النقوش المصرية القديمة أن كتاب ذلك العصر اعتبروا هؤلاء الأرقاء العبيد أشخاصًا منتمين إلى الطبقات الدنيا ليس لديهم قلب ينبض ولا عقل يفكر، فكانوا يعاملون معاملة الحيوانات وكانت الغالبية العظمي منهم من أسرى الحروب يؤخذون من الغنائم والأسلاب ويوزعون على الجهات المختلفة لاستخدامهم في مختلف الأعمال، كالزراعة وتمهيد الطرق وإقامة الجسور وشق القنوات والتجديف في السفن إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة، كما كان المصريون القدماء يتخذون الرقيق من ذوي الرشاقة والجمال من النساء والرجال ليزينوا مواكبهم(٣).

وعرف الرق في الشرق القديم، ففي العراق استخدم الرقيق في أعمال مختلفة، كما كان يتخذ للزينة، أما في الهند فكان الرقيق يمثل طبقة خاصة عرفت (بالشودرا)(٤).

وكان عمل الرقيق في الشرق يتلخص في خدمة السادة، شأنهم في ذلك شأن

---

(١) أنور زقلمة: المماليك في مصر، القاهرة ١٩٦٧، ص ١٦، ١٧.

(٢) إبراهيم الفلالي: لا رق في القرآن، القاهرة ١٩٦٢، ص٢٧.

(٣) انظر أدولف ارمان، ورانكه: مصر والحياة المصرية في العصور القديمة ترجمة عبد المنعم أبوبكر ومحرم كمال، القاهرة د. ت، ص ١٢٨ - ١٢٩، وإبراهيم الفلالي: لا رق في القرآن، ص ٢٧.

(٤) الشودرا: لا تزال موجودة حتى الآن وتعامل نفس المعاملة كما كانت منذ آلاف السنين، ولم تصلح محاولات المصلحين في القضاء على هذا النظام. بل إن غاندي قتل حينما اراد تحريرهم والإعتراف بآدميتهم مثل بقية المواطنين. أنظر إبراهيم الفلالي: لا رق في القرآن ص ٢١ - ٢٥.

الرقيق في الصين، فقد كان الصينيون يقومون باسترقاق أسرى الحرب، كما كان هناك من يبيع نفسه نتيجة لتعرضه للفقر الشديد أو يضطر إلى بيع نسائه وأطفاله، فقد كان الصينيون يسترقونهم ويعاملونهم بمنتهى القسوة[١].

ولم تختلف أوربا القديمة عن الشرق القديم، فقد وجد الرق والاسترقاق في اليونان، وأكد فلاسفة اليونان الكبار أمثال سقراط وأرسطو وأفلاطون على ضرورة وجوده، ومن الجدير بالذكر أن أفلاطون ذكر في جمهوريته أن بناء الجمهورية لا يستقيم إلا إذا كان هناك الرقيق الذي يكلف بالأعمال الشاقة[٢].

وكان أرسطو قد قسم الجنس البشري إلى أحرار وأرقاء وأعلن في فلسفته للعناصر الأساسية والطبيعية للدولة ولأصل السيادة والاستعباد عن ضرورة تواجد العبيد في المنازل قائلاً «إن الصناعات المحدودة تحتاج إلى آلاتها الخاصة لإنجاز العمل، كذلك الإدارة البيتية تحتاج إلى أدواتها الخاصة للقيام بشئونها. ومن الأدوات ما هو جامد ومنها ما هو حي: فهكذا الربان يستعمل الدفة وهي من الجمادات ويستعين بسائق مقدم السفينة وهو من الأحياء، إذ أن الخادم في الصناعات هو بمثابة الآلات، وعلى هذا النحو، فالقينة أداة للمعاش والإقتناء وفرة أدوات، والعبد قينة حية والخادم كأداة مقدم على كل الأدوات»[٣].

ومن فلسفته أيضًا أن القيادة والإنقياد ليسا فقط أمرين ضروريين ولكنهما نافعان أيضًا، ومن الكائنات ما يُفرز منذ نشأته للرئاسة ومنها ما يفرز للخضوع، والرؤساء كالمرؤسين أنواع شتى، والرئاسة تكتسب جودة من جودة المرؤسين»[٤].

---

(١) أحمد شفيق: الرق في الإسلام ص ١٤ – ١٦، إبراهيم الفلالي: لا رق في القرآن ص ٢٦،٢٧.

(٢) أفلاطون: جمهورية أفلاطون، ترجمة نظلة الحكيم ومحمد مظهر سعيد، القاهرة ١٩٦٩ ص ص ٤٦ – ٤٨، ص ص ٦٤ – ٦٦، ص ص ١٢٩ – ١٤٧.

(٣) أرسطو: السياسيات، ترجمة الأب أوغسطينس بربارة البولسي طبعة بيروت ١٩٧٥م، نشر اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية، ص ١٢.

(٤) نفسه ص ١٤.

ورأيه في المجتمع الإنساني أن «من حازوا في جسمهم من الجمال مقدار ما حازت تماثيل الآلهة يحق لهم أن يستعبدوا من دونهم روعة»، وأن أفراد المجتمع الإنساني تمايزوا تمايزًا جعل من بعضهم سادة والبعض الآخر عبيدًا، ويمضي بنظريته فيشمل عالم الجماد ويضرب لهذا مثلاً بالنغم الموسيقي الذي ينشأ من انسجام الأصوات وهذا الإنسجام لا معنى له إلا متابعة الأصوات الضعيفة للأصوات القوية وذوبانها فيها(١).

وكان اليونانيون يحصلون على الرقيق من الحروب الكثيرة التي كانوا يشنونها أو عن طريق الشراء، وكان أغلبهم من الفريق الثاني وكان الإسترقاق غالبًا ما يحدث عن طريق القرصنة، فيختطفون سكان السواحل لاسترقاقهم ثم أصبحت المستعمرات اليونانية في آسيا الصغرى أسواقًا عظيمة لبيع الرقيق.

وقد كان بأثينا أسواق للرقيق، وتنافست معها في ذلك أسواق قبرص وغيرها من الجزر اليونانية(٢).

وقد كان القانون يمنع السيد من أن يحسن لعبده بتحريره بشروط معقدة، فإذا خالف تلك الشروط فإنه يتعرض لغرامة مالية كبيرة يدفعها للدولة لأنه بذلك يكون قد أضاع حقًا من حقوقها(٣).

وقد حاول بعض حكام إسبرطة تقريب الهوة بين طبقات مجتمعهم، فكانوا يقيمون الموائد الجماعية لإطعام الفقراء. لكن هذا لم يكن في واقع الأمر سوى محاولات يائسة، فقد استمرت المعاملة السيئة والقسوة التي عاني منهما الرقيق في بلاد اليونان.

إن بعض حكامهم ومشرّعيهم أباحوا القرصنة، كما شجعوا السطو على الموانئ وسفن التجار وعلى خطف الناس لاسترقاقهم، وكانوا يعتبرون مهنة الاسترقاق من

(١) أرسطو: السياسيات، انظر مقدمة التحقيق، ص ١٢، ص ١٤.
(٢) إبراهيم الفلالي: لا رق في القرآن، ص ١٤ – ١٠٥، أحمد شفيق: الرق في الإسلام، ص ١٨-٢٠.
(٣) الفلالي: لا رق في القرآن، ص ١٤ – ١٥.

المهن الرفيعة التي تتمتع بها طبقة الأشراف، وكانوا يزودونهم بالسفن والأسلحة حتى كثر الرقيق لديهم.

وعندما تزيد أعدادهم لدرجة تخيفهم، كانوا يقومون بإبادتهم جماعيًا قتلا أو حرقًا، كما أقر مشرعوهم استغلال الرقيق في البغاء للانتفاع بأرباحه واعتبروه مصدرًا للدخل وبلغ جنونهم بالبغاء أنهم جعلوه قربي يتقرب بها إلى الآلهة(١).

وورث الرومان ما كان قبلهم في الشعوب القديمة، فكثر الرقيق عندهم، وتعددت وجوه الإسترقاق في روما، فضلاً عن الرقيق الذي كانوا يحصلون عليه من حروبهم، فقد كانوا يسترقون الأطفال ويخطفون النساء لارتكاب الفواحش. وكانت تجارة الرقيق تجارة ناجحة برغم اعتبارهم لها مخلة بالشرف.

وكانت أثمان العبيد المتعلمين عالية جدًا، وكذلك أثمان مشخصي الروايات. كما ارتفعت أثمان الجواري الحسان. ومثلما كان الحال عند اليونان، كان هناك أرقاء عموميون لخدمة الحكومة وخصوصيون لخدمة الأفراد وكانوا يعتبرون في نظر القانون أشياء ليس لهم الحق في ملكية أو إقامة عائلة وليس لهم الحق في صفة شخصية(٢).

وقد أباح القانون الروماني للسيد الحق في إماتة عبده أو استحيائه، وكان من حقه أن يستبد به. ثم بظهور المسيحية، تحسنت أحوال الرقيق(٣)، وسمح له بعد دخول المسيحية في الدولة الرومانية بالإشتراك في الطقوس الدينية ومساواته بالأحرار في المحافظة على قبره، ثم سمح له أن يحل محل سيده في بعض العقود التجارية وتم تحريم إلقاء الأرقاء للحيوانات المفترسة – كما كان يحدث – إلا بعد حكم قضائي. ثم تطور الأمر بمعاقبة السيد الذي يقتل رقيقه بلا سبب، ثم سمح للرقيق بتحرير نفسه من سيده نظير مبلغ من المال اكتسبه من عمله(٤).

---

(١) نفسه: ص ١٤ – ١٧.

(٢) أحمد شفيق: الرق في الإسلام ص ٢٢ – ٢٤، الفلالي: لا رق في القرآن، ص ١٧ – ١٨.

(٣) أحمد أمين: فجر الإسلام، القاهرة ١٩٦٥، ص ٨٧.

(٤) الفلالي: لا رق في القرآن، ص ١٧ – ١٨.

أما في الإمبراطورية الفارسية الأخمينية، فقد كانوا يحصلون على الرقيق من الحروب وكان الرقيق ينقسم إلى قسمين قسم يقوم بالأعمال الشاقة وكانوا ينتقون هؤلاء ممن يتمتعون بصحة جيدة، والثاني للاستخدام في مظاهر الزينة والثراء وكانوا ينتقون ممن يتمتعون بقدر كبير من الجمال. ومثلهم مثل الرومان، كان معاملتهم لرقيقهم قاسية، ثم فطنوا إلى منح هؤلاء الرقيق أوقاتًا للراحة لتجديد نشاطهم وزيادة إنتاجهم(١).

الرق في الديانات السماوية:

نظمت الديانات السماوية معاملة الرقيق وقد تمتع الرقيق في ظل اليهودية ببعض الحقوق إذ كان من حقهم الراحة سبعة أسابيع في السنة، وكان لا يجوز للرجل أن يضرب عبده ضربًا مزهقًا، ومن فعل ذلك عوقب عقابًا شديدًا وكان كثيرًا ما يميز الرجل إحدى إمائه فيتخذها خليلة له بل كان للعبد أن يتزوج بنت مولاه حينما لا يكون للمولى أولاد ذكور(٢).

وقد أجازت الشريعة الموسوية الرق ولم تضع نظامًا للتخلص منه إلا إذا كان العبد عبرانيًا في يد عبراني أو في يد غريب مستوطن بينهم(٣).

ومن أهم الأدلة على إباحة اليهودية للرق ما ورد في الإصحاح العشرين من سفر التثنية والذي يقول: «حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك وإن لم تسالمك بل عملت معك حربًا فحاصرها وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كل غنيمتها، فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك(٤).

---

(١) نفسه: ص ٢٦.

(٢) أحمد شفيق: الرق في الإسلام، ص ١٦ - ١٧، أحمد أمين: فجر الإسلام، ص ٨٧.

(٣) انظر: العهد القديم، سفر الخروج، الإصحاح ٢١، سفر التثنية الإصحاح ١٥، سفر اللاويين الإصحاح٢٥.

(٤) العهد القديم، سفر التثنية، إصحاح ٢٠.

ومع إنتشار المسيحية، ظهر الرق في البلاد التي دانت بها فمع أن المسيحية كانت تدعو بوجه عام إلى المحبة والإخاء، إلا أننا لا نجد أن العهد الجديد يحوى نصًا صريحًا ضد الاسترقاق ولم يتناول عيسى عليه السلام الأرقاء بقول معين كما لم يذكر أمر تحريرهم.

ولما جاء زمن الرسل، أمر بولس الرسول العبيد بإطاعة السادة تمامًا مثل طاعتهم للمسيح، ولأن المسيحية ليست دين تشريع، فإننا لا نقف على تشريعات خاصة تتعلق بتنظيم حياة الأرقاء، بل اكتفت المسيحية بحث العبيد على طاعة أسيادهم.

وقد ذكر بولس الرسول العبيد بطاعة أسيادهم طاعتهم للسيد المسيح، فقد ورد في رسالته إلى أل أفسوس في الإصحاح السادس قوله «أيها العبيد، أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح لا بخدمة العين كمن يرضى الناس بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب، خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس – عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبدًا كان أم حرًا، وأنتم أيها السادة افعلوا لهم هذه الأمور تاركين التهديد عالمين أن سيدكم أنتم أيضًا في السموات وليس عنده محاباة»(١).

ومع ذلك، فقد حارب رجال الكنيسة تجارة الرقيق، بل إن الكنيسة كانت تقضي بالحرمان على من يشتغل بها(٢).

ولم يكن الرق غريبًا على الجزيرة العربية قبل الإسلام، فقد عرف العرب في الجاهلية الرقيق والعبيد والسبايا من النساء، ومن ثم يمكن أن نقول إن العرب عرفوا تجارة الرقيق وكان لهم أسواق يباعون فيها وكان منهم السود والبيض، ومكان جلب البيض الممالك التي حول الجزيرة العربية، أما السود فكانوا يأتون من الحبشة وكانوا يبيعونهم في تلك الأسواق في مواسمهم، وكانت قريش تتاجر في

---

(١) العهد الجديد: رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس، الإصحاح السادس.

(٢) أدم متز: الحضارة الإسلامية، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة ١٩٥٧، جـ١، ص٢٩٥.

الرقيق كتجارتها لسائر السلع، وكانوا يتهادونهم ويتوارثـونهم كالأمتعـة، وكانـت أعدادهم كثيرة في منازل أشراف العرب(١).

وكانت موارد الرقيق لدى العرب عن طريق الحـرب أو الخطـف والقرصـنة والإعتداء على القوافل التجارية و «كانت النعرة الجاهلية تجعلهم يحتقرون الأجناس غير العربية»(٢) وكان ذلك من أشد أسباب قسوة معاملتهم للرقيق من غير العـرب، فقد كانوا يسيئون استغلالهم، وإذا غضب السيد على عبده أنـزل بـه أشـد أنـواع العقاب، وكان السيد إذا أنجب من أمته يلحق هذا الوليد برقيقـه، لكـنهم كـانوا لا يبيعون أبناءهم أبدًا إذا أصابهم إملاق فكانوا يفضـلون قـتلهم علـى أن يصـبحوا أرقاء(٣).

ورغم أن إعتاق العبيد كان يعتبر إحدى المفـاخر التـي يزهـو بهـا العـرب ويفاخرون بها غيرهم، إلا أن هذا لم يمنع من أن العبد كـان مهانًـا سـواء عمـل بالخدمة في المنازل أو عمل بالرعي. كما أنه كان معرضًا للبيع في أي وقت. ولذلك، كان منتهى أمل العبيد نيل رضا أسيادهم، لذلك كانوا يكدون ويكدحون للحصول على رضاهم، كما كانوا يعيشون في عزلة تامة فلم يكن بإمكانهم الإتصال بأوطانهم الأولى فكانوا يحيون ويموتون في هذا القاع الاجتماعي(٤).

ومن هذا يتضح لنا أن الرق قديم قدم الإنسانية ذاتها وعرف عند مختلف الأمم، وأن منابعه كانت واحدة ألا وهي الحرب والبيع وإعادة إنتاج الرقيق بالتوالد.

من كل هذا نلمس مدى الفوضى التي كانت سائدة في تلك المجتمعات ومدى ما وصل إليه الإنحلال الخلقي الذي قوض دعائم ذلك المجتمع الذي أصـبح فـي أشـد الحاجة إلى تشريع سماوي ينظم قوانينه ويدعو إلى احترام الإنسان ويؤكد على أنـه

---

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام، ص ٨٨ - ٨٩.

(٢) إبراهيم الفلالي: لا رق في القرآن، ص ٣٠.

(٣) نفسه، ص ٣٠ - ٣١.

(٤) عبده بدوي: السود والحضارة، القاهرة ١٩٧٦، ص ١٠٩ - ١١١.

لا عبودية إلا لله، فكان الإسلام خاتم الرسالات الذي قدم للبشرية ما يعينها على إحترام ذاتها واحترام أبنائها.

الرق في الإسلام:

وتستقبل البشرية مرحلة جديدة بنزول الوحي على رسول الله ﷺ، فكانت دعوة القرآن الكريم أن لا عبودية إلا لله وحده، ومن ثم كانت الدعوة إلى خلاص الرقيق المستضعف في الأرض من الذل والعبودية.

كرّم الإسلام الإنسان أحسن تكريم واختاره «للخلافه في الأرض وسخر له كل ما فيها من جبال ووهاد وزرع وضرع بل سخر له ما في السموات وما في الأرض وأعطاه من العلم قدرًا يستطيع أن يسخر له كل ما يقرب منه لمصلحة نفسه»(١).

لقد أقر الإسلام على أن المسلمين إخوة لا فرق بين عربي وعجمي ولا بين أبيض وأسود إلا بالتقوى.

وكانت الخطوة التالية التي شهدها المجتمع البشري هي تنظيم العلاقة بين الناس في وقت كان الرق فيه نظامًا مستقرًا في المجتمعات البشرية جميعًا، ولما كان الإسلام يعالج مشكلات المجتمع بالتدرج لا بالطفرة فقد نظر إلى الرق والرقيق من هذا المنطلق.

وكان نظام استخدام الرقيق أساسيًا عند العرب في الجاهلية، ولذلك، فقد كان من الصعب أن يلغى الإسلام نظامًا اعتاد عليه الناس أعوامًا طويلة وأجيالاً متتالية حتى تمكن منهم، كما كان من الصعب انتزاعه حتى لا يحمل نفوسهم ما لا تطيق في الوقت الذي بني فيه الإسلام على السماحة واليسر فإنه ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ وعلى هذا، فإن الإسلام عالج هذا الأمر بمنتهى البراعة، فقد مهد لزواله تدريجيًا حتى لا يترك مجالاً للناس لأن يلجأوا للشرائع الإلهية والوضعية السابقة،

---

(١) محمد أبو زهرة: تنظيم الإسلام للمجتمع، القاهرة ١٩٦٥، ص ٢٧، أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية، القاهرة ١٩٦٤، ص ٢٨٣.

كما أن المسلمين كانوا يسترقون من قبل أعدائهم فكيف يطلقون أسرى الأعداء في الوقت الذي يسترق فيه الأعداء أسرى المسلمين؟ وكيف يفادى المسلمون أسراهم ومن أين؟! من هنا كان التدريج في إلغاء نظام الرق دون حدوث تغيير في نظام المجتمع الإنساني[1].

وأقر الإسلام أن من أسلم من الرقيق صار حرًا له ما للمسلمين من حقوق وعليه من الواجبات ما عليهم وأن من ظل على دينه يدفع الجزية، وبذلك يدخل في ذمة المسلمين يدافعون عنه ويحمونه، أما من يعمد إلى حربهم فإنه يكون حين يؤسر ملكًا لهم يتصرفون فيه كيف شاءوا[2].

كانت حلول الإسلام عبقرية في مجال القضاء على المشاكل التي تنتج عن نظام الاسترقاق، الفكرية منها أو الإقتصادية أو الإجتماعية أو العنصرية أو الطبقية، فبدأ بالفكرية محررًا العقول والأرواح، وقضى على المعتقدات الفاسدة والفلسفات المنحرفة وقضى على الخرافات التي كان يُسترق بها الرجال والنساء وأصلح الأوضاع الاقتصادية الفاسدة وحدد الملكيات ووزع الثروات بطريقة عادلة[3] وتنزلت الآيات القرآنية تحث على تحرير الرقاب وفك أسرها وجعل ذلك من القربات إلى الله تعالى ومنها ما يحث على حسن معاملة الرقيق وطرق

---

(١) للمزيد انظر: عبد الله بن أحمد قادري، أثر التربية الإسلامية في آمن المجتمع الإسلامي، ١٩٨٨، ص ١٩١، إبراهيم الفلالي: لا رق في القرآن ص ٣٢ – ٣٣، عبد الكريم الخطيب: التعريف بالإسلام، القاهرة ١٩٥٦، ص ٣٠٤ وأبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٢٧٩ – ٢٨٣ وأحمد شفيق: الرق في الإسلام، ص ٥٤ – ٥٥، عبده بدوي: السود والحضارة العربية، ص ١١٤ – ١١٥، الشاطر بصيلي عبد الجليل: تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط، ١٩٧٢، ص ١٧.

(٢) محمد حسن عواد: محرر الرقيق، القاهرة ١٩٩٤، ص ١١٩ – ١٢٠، الفلالي: لا رق في القرآن، ص ١٥٠ – ١٥١.

(٣) عبد العزيز عبد الدائم: الرق في مصر في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٨٣، ص ١٢، الفلالي: المرجع السابق، ص ١١٤ – ١١٥.

عتقه ومنها الحديث عن ملك اليمين[١].

وقد أباح الإسلام زواج الإماء والجواري: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[٢].

فإذا أنجبت الأمة أصبحت أم ولد، وعند وفاة سيدها تعتبر حرة وأبناؤها من البنين والبنات أحرارًا[٣].

وأمر الإسلام المسلمين بعتق أمهات الأولاد: «أخبرنا مالك، أخبرنا نافع، عن ابن عمر، قال عمر: أيما وليدة ولدت من سيدها فإنه لا يبيعها ولا يهبها ولا يورثها وهو يستمتع منها فإذا مات فهي حرة»[٤].

كما أن الإسلام فضل الزواج بالمملوكة المؤمنة على ذات الحسب المشركة: ﴿ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾[٥].

وفرض للإماء حقوقًا: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾[٦].

---

(١) من الآيات القرآنية التي تعرضت للرق والرقيق وملك اليمين سورة البقرة آية ٧٧، النساء، آيات ٣، ٢٣، ٢٥، ٣٦، ٩٢، والمائدة، آية ٨٩، والتوبة، آية ٦٠، والنحل آية ٧١، المؤمنون الآيات ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، والنور آيات ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٥٨، الروم آية ٢٨.

(٢) سورة النور آية ٣٢.

(٣) عن عتق أمهات الأولاد، انظر الشافعي الأم: جـ٥، ص ٢٨٦، الشيرازي: المهذب في فقه الإمام الشافعي، د. ت، جـ٢، ص ١٩ - ٢٠.

(٤) أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي: عالم المدينة، ولد سنة ٩٣هـ وتوفي ١٩٧هـ، انظر موطأ الإمام مالك: رواية محمد بن الحسين الشيباني ط:٣ تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ١٩٨٧م، ص٢٥٦، كذلك انظر الشوكاني: نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار ط١٢٩٧هـ، جـ ٦، ص٩٦-٩٧.

(٥) سورة البقرة، آية ٢٢١.

(٦) سورة الأحزاب، آية ٥٠، وعن ملك اليمين، انظر: الكاساني الحنفي، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، بيروت ط:٢ سنة ١٩٨٣م، جـ٢، ص ٢٦٥، ٢٧٦.

وأوصى القرآن بالعدل والرحمة في معاملة الرقيق: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾[١].

نظم الإسلام إذن علاقة الرقيق بالمجتمع تنظيمًا دقيقًا فبين ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات وجعل العبد مساويًا للحر في الكثير من الحقوق والواجبات.

وفرض الإسلام الحج على كل من الغلام إذا بلغ الحلم والجارية المحيض في أي سن بلغاها أو استكملا خمس عشرة سنة[٢].

كما نظم بيع الإماء[٣] ونظم ميراث العبيد والعتق[٤] وأوجب الإنفاق على المماليك وجعله حقًا من حقوقهم على السيد تأديته[٥] وجعل من حق العبد والأمة الزواج[٦].

وعندما تنزل الأمر بالجهاد، كان حتمًا على المسلمين أن يدخلوا حروبًا مع أعدائهم دفاعًا عن كيانهم ووجودهم، ومن ثم كانت الحروب مصدرًا حصل به المسلمون على الرقيق، ولذلك، قيد الإسلام وجوب الاسترقاق عن طريق الحرب بشرطين: أحدهما أن تكون حربًا شرعية والثاني، أن يكون القتال مع القوم الكافرين. لذلك كان المسلمون قبل فتحهم لأي بلد من البلاد يبعثون الرسل في شأن الصلح وقبول الدخول في الإسلام، وعند رفضهم يعرضون عليهم دفع جزية سنوية في مقابل حمايتهم والدفاع عنهم، فإن لم يقبلوا أعلنت الحرب عليهم، وإذا قبلوا أوفى المسلمون بعهودهم تجاههم وأمنوهم، وإذا أسروا في الحرب لهم الحق في افتداء

---

(١) سورة النساء، آية ٣٦.

(٢) الشافعي الأم: جـ٢، ص ٩٤ - ٩٥.

(٣) نفسه: جـ١، ص ١٩٩.

(٤) نفسه: جـ٤، ص ٣، ٤٣ وجـ٦، ص ١٩١.

(٥) نفسه: جـ٥، ص ٩٠.

(٦) نفسه: جـ٣، ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

أنفسهم إما بالإسلام أو بالمال(١).

كما حرم الإسلام قتل السبايا إن كن من أهل الكتاب واعتبارهم سبياً مسترقًا يقسمن مع الغنائم. وإن لم يكن لهن دين (كعبدة الأوثان) ورفضن الدخول في الإسلام، فأن آراء الفقهاء قد اختلفت في شأنهن: رأي الشافعي قتلهن، أما أبو حنيفة فقد قال باسترقاقهن وبعدم التفريق بينهن وبين أولادهن، وإذا كن متزوجات بطل نكاحهن بالسبي، وإن سبين مع أزواجهن فهن على النكاح، وإن أسلمت قبل السبي فهي حرة، وإذا كانت متزوجة فنكاحها يبطل بعد أنقضاء العدة(٢).

ولما جاء الإسلام، كان العرب يمتلكون الكثير من الجواري اللاتي تم سبيهن أيام الجاهلية فأقرهم الله سبحانه وتعالى عليهن في قوله ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾(٣)، مع الدعوة إلى تحرير الرقاب واعتباره من اسمى القربات إلى الله تعالى اعترافًا بنعمه الكثيرة على الإنسان: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾(٤).

كما اختص تحرير الرقاب بسهم من ثمانية أسهم من الزكاة وفرض علي الإمام افتكاك الرقاب من أموال الزكاة، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(٥).

---

(١) أحمد شفيق: الرق في الإسلام، ص ٥٧ – ٦٦.

(٢) عن عدة الأمة، أنظر: الشافعي، الأم جـ٥، ص١٩٨ والماوردي: الأحكام السلطانية، القاهرة ١٩٦٦، ص ١١٧.

(٣) سورة النساء، آية ٣.

(٤) سورة البلد، آيات ٨ – ١٣.

(٥) سورة التوبة، آية ٦٠.

وجعل الإسلام من تحرير الرقاب كفارة عن جرائم تجترم فقال في كفارة الظهار[1].

﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾[2].

كما جعل الإسلام عتق الرقيق كفارة عن اليمين: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾[3].

وقد حبب الرسول عليه الصلاة والسلام المسلمين في العتق[4]. وقد أشارت إلى ذلك الكثير من الأحاديث، فعن عبيد الله بن عبد الله عن رجل من الأنصار أنه جاء بأمه سوداء، فقال: يا رسول الله، إن علي عتق رقبة مؤمنة فإن كنت ترى هذه مؤمنة أعتقتها، فقال لها رسول الله ﷺ: أتشهدين أن لا إله إلا الله؟ قالت (نعم) قال: أتشهدين أني رسول الله؟ قالت (نعم)، قال: أتؤمنين بالبعث بعد الموت؟ قالت: نعم، قال: فأعتقها. وعن أبي هريرة أن رجلاً أتى النبي ﷺ بجارية سوداء أعجمية فقال: يا رسول الله، إن علي عتق رقبة مؤمنة فقال لها رسول الله ﷺ: أين الله فأشارت إلى السماء بإصبعها وإلى رسول الله ﷺ وإلى السماء أي

---

(١) للمزيد عن الظهار، انظر: الكاساني الحنفي: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، جـ٥، ص ٩٦ - ٩٩، انظر: ابن تيمية: الفتاوى الكبرى، بيروت، د. ت، جـ٤، ص ٥٨٤ - ٥٨٥، والشافعي: الأم، جـ٤، ص ١١٤ وجـ٥، ص ٢٦٢، والشوكاني، نيل الاوطار، جـ٦ ص ٢٥٨ - ٢٦١.

(٢) سورة المجادلة، آية ٣.

(٣) سورة المائدة، آية ٨٩.

(٤) «العتق» مأخوذ من «السبق» يقال عتقت مني يميني أي سبقت وعتقت الفرس إذا سبقت، وعتق فرخ الطائر إذا طار واستقل وكأن المعتق خلى فذهب حيث شاء، ذكره العتيبي، يقال: «عتق» العبد «يعتق» عتاقًا وعتقا فهو «معتق» و «عتيق» ولا يقال «معتوق»، وخص الرقبة بالعتق والملك دون سائر الأعضاء لأن ملك العبد كالحبل في الرقبة وكالغل يحبس به كما تحبس الدابة بالحبل في عنقها - الشيرازي: المهذب في فقه الإمام الشافعي، جـ٢، ص ٢.

أنت رسول الله قال فأعتقها[1].

كما أن الكثير من الأحاديث تبين مدى إهتمام الرسول عليه الصلاة والسلام بحث المسلمين على عتق الرقاب، فعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضوًا من النار حتى فَرْجِهِ بفرجه» - متفق عليه[2].

وعن أبي زر، قال: قلت يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله، قال: قلت: أي الرقاب أفضل؟ قال أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمنًا[3]. وعن أبي موسى، قال رسول الله ﷺ: «أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران..»[4].

لذلك، تسابق المسلمون إلى عتق ما ملكت أيديهم تقربًا إلى الله واستعطافًا لرحمته، لذلك كان تحرير الرقاب من أسمى مواطن الخير عند الموسرين من المسلمين[5].

وكما حبب الإسلام إلى المسلمين العتق، كذلك حثهم على حسن معاملة عبيدهم والإحسان إليهم والعطف عليهم، ومن الأحاديث التي أشارت إلى ذلك المعنى عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «للمملوك طعامه وكسوته ولا يُكلف من العمل ما لا يطيق» رواه أحمد ومسلم[6].

---

(١) رواها الشوكاني: نيل الأوطار في شرح منتقى الأخبار، جـ٩، ص ٢٥١. وفي العتق عن كفارة اليمين: أنظر: الكاساني الحنفي: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، جـ٥، ص ١٠٠ - ١٠٧.

(٢) الشوكاني: نيل الأوطار، جـ٦، ص٧٨.

(٣) نفسه: جـ٦، ص٧٩.

(٤) نفسه جـ٦، ص ١٥٤.

(٥) محمد كرد على: الإسلام والحضارة العربية، القاهرة ١٩٦٨، جـ١، ص ٩٨ - ٩٩، عبد الله عفيفي المرأة العربية، مكتبة الثقافة، المدينة المنورة، د. ت، جـ٢، ص ٣١ - ٣٢، آدم منز: الحضارة الإسلامية، جـ١، ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٦) الشوكاني: نيل الأوطار، جـ٧، ص ٢.

وعن أنس، قال: كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضرته الوفاة وهو يغرغر بنفسه الصلاة وما ملكت أيمانكم - رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة[1].

وقد جرت العادة منذ بداية الإسلام على ألا يسمى العبيد عبيدًا فالعبد يسمى «فتى» والأمة «فتاة»[2].

وقد حافظ الإسلام على الكرامة الإنسانية، فكان من حق الرقيق استرداد حرياتهم مقابل مبلغ من المال يتفق عليه السيد والرقيق ويكون هنا كعتق إجباري ليس للسيد رفضه أو تأجيله ويسمى هذا بالمكاتبة[3]، ووقتها يصبح عمله عند سيده بأجر أو يكون له الحق في العمل عند غيره، وعلى هذا يكون للإسلام السبق في وضع هذا النظام، فعن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «يؤدي المكاتب بصحة ما أدى دية الحر وما بقي دية العبد»[4].

وعن علي كرم الله وجهه، عن النبي ﷺ قال: «يؤدي المكاتب بقدر ما أدى»[5].

وهكذا فإن الإسلام «ارتفع بأتباعه إلى منزلة من الإنصاف للرقيق والرفق به لم تبلغها الإنسانية بآدابها وقوانينها ودساتيرها وأنظمتها بعد أكثر من ألف سنة»[6].

---

(١) نفسه.

(٢) آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ١، ص٣٠٦.

(٣) «المكاتب» والأنثى «مكاتبة» وهو أن يتعاقد العبد مع سيده على تأديه قدر معين من المال حالاً أو مؤجلاً يصبح بعدها حرًا فيكسب ويملك ما يحصل في يده من المال فيؤدي منه بدل الكتابة لسيده، فإن عجز عن السداد أو إكماله عاد إلى الرق. انظر: وثيقة في المكاتب، الشافعي الأم: جـ٦، ص ١٩٨ - ١٩٩، وللمزيد عن المكاتب، انظر: الكاساني الحنفي: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، جـ٥، ص ١٠٧ - ١١٠ وانظر: الشوكاني: نيل الأوطار، باب المكاتب، جـ٦، ص ٩١ - ٩٢، والشيرازي: المهذب في فقه الإمام الشافعي، جـ٢، ص ١١ - ١٥ وانظر الإمام مالك: المدونة الكبرى، جـ٧، ص ٢٣٠ - ٢٧١.

(٤) الشوكاني: نيل الأوطار، جـ٦، ص ٩٣.

(٥) نفسه.

(٦) عباس محمود العقاد: المرأة في القرآن الكريم، القاهرة ١٩٧٣، ص ١٠١.

فقد شرع الإسلام العتق ولم يشرع الرق وحرم كل أنواعه وأباح ما كان موجودًا فعلاً. وإذا أمعنا التفكير، نجد أن القوانين الجديدة والتشريعات لم تأت بجديد في هذه المسألة بعد الذي تقدم به الإسلام، فما أباحه الإسلام مباح اليوم فالأسر مباح حتى يتم الصلح بين المتحاربين على تبادل الأسرى أو افتدائهم[١].

وإذا كان نظام الاسترقاق قد بقي في المجتمع الإسلامي على عهد الرسول أو الصحابة، فإنه كان في طريقه إلى التصفية والزوال لولا المتغيرات التي طرأت على المجتمع الإسلامي مع مطلع العصر الأموي[٢].

وتحاول الجبهات المعادية النيل من الإسلام فهي تدعى أن الإسلام أقر الرق ونظم قوانينه. ويرد على ذلك مفكروا المسلمين قائلين: «إن القرآن الكريم لم يرد فيه نص يبيح الرق فإقراره ثبت من كثرة أوامره بالعتق»[٣].

وقالوا إن النبي لم يقر «إنشاء رق على حر لا في حرب ولا في سلم وأن الرق الذي أنشأه الخلفاء في الحروب من بعده كان لعدم وجود نهي كما أنه لم توجد إجازة، وكان ذلك إقتداء بمبدأ المعاملة بالمثل في الحروب تطبيقًا لقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[٤].

وكان أعداء المسلمين يسترقون، فاتخذت تلك الجبهات من الرق سلاحًا لحرب تعاليم الإسلام وخاصة في أفريقية السوداء حيث اتجه مواطنوها إلى الإسلام خلاصًا من الإستعباد والإسترقاق[٥].

---

(١) عبده بدوي: السود والحضارة العربية، ص ١١٢.

(٢) عائشة عبد الرحمن: مقال في الإنسان، ص ٧٣.

(٣) محمد أبو زهرة: تنظيم الإسلام للمجتمع، ص٢٨، ٢٩، عبد الكريم الخطيب: التعريف بالإسلام، ص٢٩٣.

(٤) سورة البقرة، آية ١٩٤.

(٥) عبد الكريم الخطيب: التعريف بالإسلام، ص ٢٩٣، محمد أبو زهرة: تنظيم الإسلام للمجتمع، ص٢٨ - ٢٩.

الفصـــــل الأول

الفصل الأول

المماليك

١- مراكز تجارة الرقيق:

- تجارة الرقيق الأبيض.
- الرقيق الأسيوي.
- الرقيق الأفريقي.
- عمليات بيع الرقيق.
- نظم بيع الرقيق في الأسواق.

٢- أنواع المماليك:

- المملوك – العبد، القن، الغلام، المولي، الجواري والإماء، السراري، القيان، أمهات الأولاد، الجواري السميرات، الخصيان.

٣- دخول المماليك في خدمة الدولة الإسلامية:

- استخدام الأمويين للرقيق.
- استخدام العباسيين للرقيق.

٤- دخول المماليك في خدمة حكام مصر.

- المماليك في الدولة الطولونية.
- المماليك في الدولة الإخشيدية.

الفصل الأول

المماليك

١- مراكز تجارة الرقيق:

انتشرت تجارة الرقيق، بنوعية الأبيض والأسود، انتشارًا كبيرًا في العصور الوسطى، وذلك إما عن طريق الشراء أو الخطف. وعند انتشار الأوبئة والقحط وكان بعض الناس يضطرون إلى بيع فلذات أكبادهم، وقد كان لإقبال الخلفاء والملوك والأمراء والوزراء وتهافتهم على شراء المماليك والجواري أكبر الأثر في ارتفاع أثمانهم ومغالاة التجار في هذه الأثمان.

وقد تعددت أنواع الرقيق وأشكاله وجنسياته، فمنهم التركي أو الرومي أو الجركسي ومنهم الزنجي أو الفارسي، وتميز الرقيق التركي والجركسي وراجت تجارته لسببين، أولهما ما يتصف به هذان الجنسان من جمال وحسن، وثانيهما: ما تعرضت له بلادهم من غارات وحروب.

وقد استفحل أمر الرقيق التركي حتى استطاع هؤلاء الوصول إلى مكانة مرموقة أثرت تأثيرًا واضحًا في أمور الدولة وبصفة خاصة في تكوين الجيوش الإسلامية(١).

وكان الخلفاء العباسيون قد استبدلوا الفرس بالأتراك الذين أخذ نفوذهم في التزايد على حساب العنصر العربي الذي بدأ وجوده يتضاءل حتى فقد سيادته تمامًا في القرنين الرابع والخامس الهجريين (العاشر والحادي عشر الميلاديين) كما كان من أسباب رواج تلك التجارة نزول قبائل السلاف (الروس) شمال البحر الأسود ونهر الطونة نازحين نحوّ الغرب الجنوبي في اتجاه أواسط أوربا، وهم قبائل كثيرة سميت فيما بعد بالسلاف أو الصرب أو البوهيم والدلمات، وكانوا يحاربون الشعوب التي يمرون بها مثل السكسون والهون ويبيعون أسراهم، فنشطت هذه التجارة وظهرت

---

(١) محمود رزق سليم: عصر المماليك وإنتاجه العلمي والأدبي، القاهرة ١٩٤٧، ص ١٤ – ١٥، أنور زقلمة: المماليك في مصر، ص ١٧ – ١٨.

طبقة التجار الذين كانوا ينقلونهم إلى مصر والشام(١).

وكان لبعض أصحاب الجاه نصيب من تلك التجارة على سبيل المثال السيدة المعزية (زوجة المعز وأم العزيز الفاطمي وهي أم ولد من أصل عربي، وكان قد تزوجها المعز بالمغرب قبل انتقاله إلى مصر) كان لها نشاط في تجارة الرقيق فتبعث بالجواري والعبيد من المغرب ليباعوا في مصر على يد وكيل لها(٢).

وكان الناس يزدحمون على أسواق الرقيق لمجرد الفرجة عليهم خاصة الجواري، مما حدا بالحاكم الفاطمي إلى تخصيص يوم لبيع الجواري وآخر لبيع الغلمان وإلى وضع شروط للوجود في تلك الأسواق بحيث يكون الشخص بائعًا أو شاريًا فقط(٣).

أما في عصر الدولة الأيوبية، فقد شجعت حالة الرخاء التي شهدتها مصر أهل تركستان على بيع أولادهم وبناتهم أملاً في ارتقائهم عرش السلطنة يومًا ما وطلبًا لأن يحيوا حياة رغدة في بلاط السلاطين. وقد كثر تجار المماليك حينذاك، وكان ذلك العصر في مصر عصر الازدهار لهؤلاء التجار الذين كانوا يلقون التشجيع من قبل السلاطين والأمراء الذين كانوا يقدرون تلك البضاعة ويدفعون فيها مبالغ باهظة(٤).

في ذلك العصر السابق على قيام دولة المماليك، كان التجار الأوربيون يبيعون المماليك للعرب والبنادقة(٥)، حتى اضطر ملوك أوربا وبابواتها إلى اتخاذ إجراءات متعسفة ضد التجار المسيحيين. وقد كان للبنادقة وأهل جنوة شهرة واسعة في هذه التجارة حيث كانوا يجلبون الشبان من سواحل البحر الأسود ويبيعونهم في مصر،

---

(١) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، القاهرة ١٩٠٦، جـ٥، ص ٢٧.

(٢) نريمان عبد الكريم، أحوال المرأة في العصر الفاطمي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة عين شمس، ١٩٨٤م، ص ٤.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٢، تحقيق جمال الشيال، القاهرة ١٩٦٧، ص ٧٦، عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري في العصر الفاطمي، القاهرة ١٩٨٥، ص ٨٥ - ٨٦.

(٤) ابن عبد الظاهر: من مقدمة التحقيق لكتابه تشريف الأيام والعصور، تحقيق مراد كامل، القاهرة ١٩٦١، ص ٣٧.

(٥) سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة، د. ت، ص ١٦٨.

كما كان الترك يرسلون الأسرى من المجرمين إلى أسواق الرقيق في مصر[1].

ظهرت أسواق النخاسة في الشرق والغرب على السواء، وكانت أفريقيا وآسيا وأوربا مصادر أساسية للحصول على الرقيق.

كانت أفريقيا تمد العالم بالرقيق الأسود، وكان يتم جلب الأتراك والتركمان والجراكسة من القارة الآسيوية، أما أوروبا فقد أمدت العالم بالسلاف والصقالبة والجرمان[2].

وكان للرقيق أسواق عالمية تعد مراكز لتجمع التجار الذين ينتقون منه ما يريدون ثم يقصدون به بعد ذلك الأسواق المحلية لبيعه لمن يريد[3].

وكانت تجارة الرقيق تمر بمراحل متعددة يتم فيها تجميع الرقيق من مواطنهم الأصلية ثم يتم ترحيلهم فينتقى الجلاب ما يصلح منهم وينقلهم إلى الحواضر والعواصم المختلفة ثم يقوم النخاسون بتدريبهم وبيعهم داخل البلاد وكان هؤلاء محل رعاية واهتمام التاجر لأنهم مصدر دخله[4].

تجارة الرقيق الأبيض:

كانت أسبانيا من أهم مصادر الرقيق الأبيض، فقد كان حكامها يحصلون عليه من سبي الفرنج وجليقية، كما كان تجار الرقيق اليهود والفرنج يشترون الأسرى السلاف والجرمان من ألمانيا عند ضفاف نهر الراين وجبال الألب، ثم يسوقونهم كالحيوانات ذكورًا وإناثًا حتى فرنسا، ثم ينقلونهم بعدها إلى أسبانيا (الأندلس)

---

(١) علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، القاهرة ١٩٤٤، ص ٣٠، عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم، القاهرة ١٩٧٩، ص ١١ - ١٢.

(٢) كلود كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ترجمة بدر الدين قاسم، بيروت ١٩٨٣، ص ١١٣.

(٣) لبيبة إبراهيم، الرقيق وتجارته، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، ١٩٩٣، ص ٥٧.

(٤) صلاح شمردل: الرقيق واثره في المجتمع العراقي، رسالة ماجستير غير منشورة جامعة القاهرة ١٩٩٤م ص ٥٢.

فيستخدمهم المسلمون، الذكور للحرب والخدمة، أما الإناث فكن يعملن كجوار(١).

ووصل إلى إسبانيا صنف من الرقيق كان يأتي من خراسان، يقول ابن حوقل: «وبالأندلس غير طراز يرد إلي مصر متاعه وربما حمل منه شيء من أقاصي خراسان وغيرها ومن مشهور جهازهم الرقيق من الجواري والغلمان الروقة من سبي إفرنجة وجليقيه والخدم الصقالبة وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان فمن جلب الأندلس لأنهم عند قربهم منها يخصون ويفعل ذلك بهم تجار اليهود»(٢).

وكان طريق جنوة التجاري يتفرع إلى فرعين:

الأول تنقل منه السفن هذا الرقيق وتتجه بعضها إلى الشرق بجانب شاطئ شبه الجزيرة الإيطالية مارًا بنابولي ومضيق مسينا على جزيرة كريت ومنها شمالاً فيعبر البوسفور والدردنيل إلى القسطنطينية وموانئ البحر الأسود، والآخر يتجه غربًا فيمر بساحل فرنسا جنوبًا ثم برشلونة وفالنسيا في قطالونيا.

هذا بالإضافة إلى الطريق البحري الذي كان يخرج من جنوة ضمن أسطولها متجهًا إلى تونس محاذيًا ساحل إفريقية ويتجه من الشرق إلى الإسكندرية والشام(٣).

أما في الغرب فإن الطريق كان يصل حتى مضيق جبل طارق إلى غرب إفريقية. وعند وصول السفن إلى البحر الأسود فإنها كانت تتجه إلى الجنوب ثم إلى أنطاكية ودمشق بحذاء الساحل حتى تصل إلى القاهرة(٤).

أما سفن الرقيق الصقلبي فكانت تحمل الرقيق إلى ساحل دلماشيا المطل على

---

(١) أحمد مختار العبادي: في التاريخ الأيوبي والمملوكي ص ٥، جرجي زيدان، تاريخ التمدن، جـ٥، ص٢٧.

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض، لندن ١٩٢٩، جـ١ ص ١١٠. وانظر: YAACOV LEV. Arab History and civilization, state and society in Fatimid Egypt V.1.P/74

(٣) سوزي أباظة، السودانيون في جيش مصر، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد الدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة ١٩٨٩م ص ٦٨.

(٤) نفسه.

البحر الأردياتي وتنقله إلى أسواق مصر والشام. كما كان هناك مركز صراى[1] وهو من أكبر محطات تجارة الرقيق[2].

وقد لعب التجار اليهود دورًا هامًا في هذه التجارة بين الشرق والغرب وزادت ثرواتهم، وكان من أسباب تفوقهم في هذه التجارة أنهم كانوا يتكلمون لغات عديدة منها الفارسية والعربية[3].

الرقيق الأسيوي:

وكانت بلاد ما وراء النهر من أهم مصادر الرقيق الأبيض حيث مدينة وخان في أعالي نهر جيحون والتي كانت تعد من أشهر مراكز تجمع قوافل الرقيق الترك الآتي من أواسط آسيا، وقد كانت هذه التجارة مصدرًا هامًا من مصادر ثراء الخوارزميين، فقد كانوا يربون هؤلاء المجلوبين تربية إسلامية ثم يبيعونهم في جميع أنحاء الدولة الإسلامية واشتهرت مدينة سمرقند بأجود أنواع الرقيق الأبيض، وكذلك مدينتا نيسابور ومرو فقد اشتهرتا بأحسن أنواع الجواري والغلمان. وكان لميناء باب الأبواب أو الدربند – على بحر قزوين – شهرة واسعة في تلك التجارة[4].

واشتهرت مدينتا كفا وتانا في شبه جزيرة القرم[5] بتجارة الرقيق الأبيض، كما

(١) صراي: بفتح الصاد والراء المهملتين والف مثناة تحتيه ووقع في مسالك الأبصار بالسين المهملة بدل الصاد وهي من أعظم المدن تقع على شط نهر الإتل (الفولجاء) من الجانب الشمالي الشرقي غربي بحر الخزر وشماليه على مسيرة نحو يومين وبحر الخزر شرقيها بجنوبيها وهي «فُرْضَة» عظيمة للتجار ورقيق الترك وقد بناها بركة بن طوجي بن جنكزخان والسراى مدينة كبيرة بها أسواق وحمامات ومنها يجلب الرقيق وأهلها من خيار الترك لوفائهم وشجاعتهم وتجنبهم الغدر من حسن قامتهم وظرافة شمائلهم ومنهم معظم جيش الديار المصرية من ملوكها وأمرائها وجندها فلما رغب الصالح أيوب في شراء المماليك اشترى منهم . القلقشندي – صبح الأعشى جـ/ ٤ ص ص ٤٥٥ – ٤٥٦.

(٢) لبيبة إبراهيم: الرقيق وتجارته، ص٥١ – ٥٢.

(٣) صلاح شمردل: الرقيق وأثره في المجتمع العراقي، ص ٥٣.

(٤) أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ١٦،١٧.

(٥) سوزي أباظة، السودانيين في جيش مصر، ص ٦٩.

اشتهرت طرابيزون وسينوب وسمسون على ساحل البحر الأسود الجنوبي (آسيا الصغرى) والقسطنطينية وأدرنة وغليبولي في تركيا، وكذلك مدينة بلغار في حوض نهر الفولجا ويعد ميناء ستاليا Satalia وكاندلور Candlor من أشهر موانئ آسيا الصغرى التي تخصصت في شحن الرقيق الأبيض من الجنسين كما كانت دلهي وساحل كروماندل (ساحل الهند الشرقي) من مراكز تجمع الرقيق الهندي في هذه المنطقة والذي كان من أهم مصادره الحروب الكثيرة بين ممالك الهند وكذلك المجاعات التي كانت تضطر الأهالي لبيع أبنائهم في مقابل القليل من الطعام(١).

الرقيق الإفريقي:

شهدت القارة الإفريقية أهم الأسواق العالمية لتجارة الرقيق الأسود، وكانت النوبة وسنار وشندي ودارفور وكردفان وزويلة وبربرة أشهر تلك الأسواق(٢). وكذلك كانت غانة ومالي وتمبكتو وكانو ومدينة باداجري على ساحل العبيد غربي إفريقيا، كما أن منطقة تشاد، بلاد كانم وبرنو، وكذلك القيروان كانت من المراكز التجارية العالمية الهامة لتصدير الرقيق السوداني إلى كل من الشرق والأندلس(٣).

وقد تعددت المصادر التي وفد عن طريقها الرقيق السوداني إلى مصر، فقد قامت الصلات التجارية بين البلدين نظرًا لإتصالهما الجغرافي وكفلت اتفاقية البقط(٤)

---

(١) لبيبة إبراهيم: الرقيق وتجارته ص ٥١ - ٥٢، ص ٥٦ - ٥٧.

(٢) نهلة أنيس - العلاقات بين مصر والممالك الأفريقية، رسالة دكتوراه كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر ١٩٩٥م، ص٢٠٩.

(٣) سوزي أباظة، السودانيون في جيش مصر، ص ٦٩.

(٤) «بقط» قد تكون كلمة فرعونية قديمة بمعنى «عهد».

انظر : د. شوقي الجمل، تاريخ سودان وادي النيل، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٩، جـ١ ص٢٣٣ ويري بعض الباحثين أنها من كلمة Pactum اللاتينية ومعناها الإتفاق انظر، على سبيل المثال: الدكتور عطية القوصي تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، ط٢، دار المعارف بمصر، ١٩٨١، ص ٤٤، هامش رقم٢.

وقد عرفه المقريزي بأنه «ما يقبض من سبي النوبة في كل عام ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم»، فإن كانت هذه الكلمة عربية فهي إما من قولهم «في الأرض بقط من بقل وعشب، أي نبذ=

حرية التجارة بين مصر والنوبة، وكان الرقيق السوداني أساسًا للتبادل التجاري بين البلدين، وكانت الإماء من أثمن الهدايا التي تصل إلى مصر بخلاف البقط. وقد وجدت في اوراق البردي وثيقة بيع جارية نوبية عام ٣٦٩هـ / ٩٧٩م بخمسة وعشرين دينارًا[١].

وقد اشتهرت منطقة اللاب في بلاد النوبة[٢] بجلب الرقيق السوداني منها، وإليها ينتسب كافور الإخشيدي[٣]، وكانت نساؤهم يتميزن بالجمال الباهر فكان إقبال المصريين عليهم كبيرًا[٤].

= من مرعى» فيكون معناه على هذا نبذة من المال أو يكون من قولهم «إن في بني تميم بقطًا من ربيعة، أي فرقة أو قطعة»، فيكون معناه على هذا فرقة من المال أو قطعة منه ومنه: بقط الأرض «فرقةمنها»، وبقط الشيء فرقة. والبقط أن تعطي الحبة على الثلث أو الربع. والبقط أيضًا ما سقط من التمر إذا قطع فأخطأ المخرق فيكون معناه على هذا بعض ما في أيدي النوبة.

وكان يؤخذ منهم في قرية يقال لها القصر مسافتها من أسوان خمسة أميال فيما بين بلد لاق وبلد النوبة. وكان القصر فرضه لقوص وأول ما تقرر هذا البقط على النوبة في إمارة عمرو بن العاص لما بعث عبد الله بن سعد بن أبي سرح بعد فتح مصر إلى النوبة ٢٠هـ/٦٤٠م في عشرين ألفًا. ثم مات عمرو رضي الله عنه فنقض النوبه الصلح الذي كان بينهم وبين أبي السرح فغزاهم مرة ثانية في خلافة عثمان ٣١هـ/٦٥١م ثم تم الصلح على شروط أمنهم فيها المسلمون شريطة أن يحفظوا من ينزل بلدهم من المسلمين وأن يحفظوا المسجد الذي ابتناه المسلمون وأن يدفعوا كل سنة ثلاثمائة وستين رأسًا يدفعونها إلى إمام المسلمين إناثًا وذكورًا. للمزيد عن البقط، انظر: المقريزي، الخطط، جـ١ ص ص ١٩٩ – ٢٠١.

(١) جروهمان: أوراق البردي، ترجمة حسن إبراهيم حسن، جـ٥، ص ٣٥.

(٢) النوبة: «بضم النون وسكون الواو وفتح الباء الموحدة وهاء .. ولون بعضهم يميل إلى الصفاء وبعضهم شديد السواد وبلادهم ما يلي مصر في نهاية جنوبيها مما يلي المغرب على ضفتي النيل الجاري إلى مصر» القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥، ص ٢٦٤. ولاية النوبة جنوبي أسوان ولها ملك خاص وسكانها سود البشرة ودينهم النصرانية ويذهب إليها التجار ويبيعون الخزر والأمشاط والمرجان ويجلبون منها الرقيق. ناصر خسرو: سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٩٣، ص ٩٦.

(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت ١٩٧٧، جـ٧، ص ٣٠٨.

(٤) الإدريسي: نزهة المشتاق، ص ٣٠.

كان طريق البحر الأحمر من أهم الطرق التجارية بين الشرق والغرب وقد وصلت عن طريقه أعداد كبيرة من الرقيق الأسود من مراكز في الحبشة والنوبة إلى مصر والشام عبر البحر الأحمر أو عبر نهر النيل حتى ميناء بولاق على نهر النيل بالقاهرة ومنه إلى ميناء دمياط ثم إلى الساحل الشرقي للبحر المتوسط.

وكانت موانئ مصوع وسواكن من أشهر الموانئ التي يتم عن طريقها نقل الرقيق الأسود، سواء الوارد إليها من الحبشة أو من النوبة بواسطة القوافل، إلى مصر بطريق البحر الأحمر. وقد كان هذا الطريق نفسه يتصل بواسطة سفن التجارة الداخلية للبحر الأحمر بميناء بربرة وزيلع اللذين كانا مركزين لتجمع تجارة الحبشة والنوبة ومنها تجارة الرقيق الأسود، كما كانت أسوان المنفذ الرئيسي في جنوب مصر لتجارة النوبة وبلدان السودان وإفريقية الوسطى وبخاصة تجارة العبيد(١).

وكان أهل سنار «يعطون الرقيق بالجنزير، أي بالجماعات، لأن الأرقاء في أثناء السير تربط كل جماعة منهم بجنزير»(٢).

كما كانت مدينة زويلة، والتي كانت تعد من أهم مراكز تجمع الرقيق الأسود، يجلب إليها الأسرى من القبائل المجاورة لها. وقال الإصطخري عن هذه القبائل «الخدم السود الذين يباعون في بلدان الإسلام منهم وليس هم بنوبة ولا بزنج ولا بحبشة ولا من البجة إلا أنهم جنس على حده أشد سوادًا من الجميع وأصفى»(٣).

وكانت قوص بمثابة ميناء نهري يخدم الطريق التجاري الذي يمر عبره الرقيق، فكانت تصلها بضائع الصين والهند واليمن والحبشة من عيذاب ميناء مصر الرئيسي على البحر الأحمر منذ أواخر العصر الفاطمي وحتى أوائل دولة المماليك الجراكسة(٤).

وكانت منطقة مريس النوبية هي مصدر الرقيق النوبي في أوائل العصر

---

(١) الإصطخري: المسالك والممالك، تحقيق محمد صابر عبد العال، القاهرة ١٩٦١، ص ٤٢.

(٢) نعوم شقير: جغرافية وتاريخ السودان، بيروت ١٩٧٢، ص ٤١٥.

(٣) الإصطخري: المسالك والممالك، ص ٣٤ - ٣٥.

(٤) حسن محمود: الإسلام والحضارة العربية في آسيا، القاهرة ١٩٦٨، جـ١، ص ٨٥.

الفاطمي. وقد أغرى الربح الوفير من هذه التجارة على أن يتبارى تجار الرقيق في جلب هؤلاء حيث أباح الدين الإسلامي أسر الوثنيين وبيعهم وشرائهم وساعدهم على ذلك نظام العبودية الذي كان منتشرًا في تلك المنطقة فقد كان سكانها عبيدًا لملكهم النوبي(١).

عمليات بيع الرقيق:

وجدت تجارة الرقيق في مصر منذ بداية الفتح حيث شهدت الفسطاط سوقًا للرقيق، ثم ازدادت هذه التجارة في العصر الأخشيدي فوجد الرقيق بنوعيه، الأبيض والأسود، وكان معظم هؤلاء ممن يعملون في الأراضي الزراعية(٢)، وقد أشار ابن عبد الحكم إلى سوق الرقيق في عصر الفتوح حينما بعث عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب يخبره بأنه اختط له دارًا بالفسطاط عند المسجد الجامع فرفض عمر أن يكون بالحجاز وتكون له دار بمصر فجعلت سوقًا للرقيق(٣).

كما ذكر ابن دقماق(٤) أن أحمد بن طولون حول دار أحمد بن المدبر سنة ست وخمسين ومائتين، بعد هدمها، إلى سوق للرقيق.

ويبدو أن تجارة الرقيق كانت أكثر رواجًا في العصر الفاطمي فقد كانت هناك أسواق نشطة تحوى أجناسًا عديدة، فيصف ابن الطوير طريقة جلب هؤلاء إلى مصر في هذا العصر قائلاً «إذا وقع لهم مركب وكبسوه لا يسألون عما فيه سوى الشخوص الكبار والصغار والنساء والسلاح وما كان سوى ذلك كان للأسطول»، واتفق مرة أن قدّم عليه الأمير سيف الملك الجمل فكسب بطسة(٥) عظيمة فيها ألف

(١) المقريزي: الخطط، جـ١، ص ١٩٣.

(٢) سيدة الكاشف: دراسات آثارية إسلامية، بحث منشور بالمجلد ٢ طـ ١٩٨٢ بالمجلة العلمية الصادرة عن هيئة الآثار قطاع المتاحف ص ١٢.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٩٢.

(٤) ابن دقماق: الإنتصار لواسطة عقد الأمصار، بيروت ١٨٩٣، جـ٤، ص ٣٤.

(٥) البطسة أو بطسة، ويقال أحيانًا بطشة ويجمع على بطسات وبطس، مركب للحرب أو للتجارة بلغة الإسبان، وهي سفينة عظيمة الحجم كثيرة القلوع وقد يصل عدد القلوع في البطسة الواحدة إلى =

وخمسمائة شخص فامتنعت عليهم بالقتال على ما خلفه بعد وصولهم وأخذها الأسطول بعد أن قتل منهم نحوا من مائتين وعشرين رجلاً وأحضروهم إلى القاهرة ففرح الخليفة بذلك وركب إلى المقس وجلس بالمنظرة للقائهم وأطلقوا الأسرى بين يديه تحت المنظرة من جانب البر فاستدعيت الجمال لركوبهم وشق بهم القاهرة ومصر فما وجدت في الحال جمال كعدتهم فركبوا الرجال منهم كل اثنين على جمل ظهرًا بظهر»[1].

ومن هذا نستطيع أن نتبين مدى حرص الخلفاء على اقتناء هؤلاء الرقيق واستخدامهم كمماليك وجوار، والخليفة لم يكتف بالنظر إليهم من المنظرة بل إنه عند عودته، لفرحه الشديد بهم، اعتلى منظرة من مناظر القصر ليراهم، ثم كانوا يساقون إلى مكان يقال له المناخ يفصل الرجال عن النساء والصبيان ويستخدم كل في مجاله، أما الشيوخ أو الذين لا يرجى منهم نفع فهم يقتلون في مكان يقال له «بئر المنامة» في الخراب القريب من مصر، ولم يسمع كما أخبرنا ابن الطوير أن الدولة افتدت أسيرًا بمال أو بمثله وكانت الأعداد في ازدياد مستمر عامًا بعد الآخر[2].

وقد ذكر ناصر خسرو أن الرقيق في مصر إما نوب أو «نوبيون» وأما روم[3] كما ذكر أن أهل النوبة يعيشون في صحراء عظيمة تقع على يمين عيذاب ناحية القبلة خلف الجبل وهم قوم ليس لهم دين ولا يؤمنون بالأنبياء لبعدهم عن العمران والحضارة، وأن الصحراء التي يسكنونها طولها أكثر من ألف فرسخ وعرضها ثلاثمائة وليس بهذه المساحة سوى مدينتين صغيرتين الأولى يطلق عليها «بحر النعام» والثانية «عيذاب» وقد وصفهم بأنهم «ليسوا أشرارًا فهم لا يسرقون ولا يغيرون بل يشتغلون بتربية ماشيتهم ويسرق المسلمون وغيرهم أبناءهم ويحملونهم

= أربعين قلعًا وكانت تختص بشحن الغلال والأقوات والمير والإمدادات الحربية. أنظر: ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٩٩.

(١) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٩٨ - ١٠٠.

(٢) نفسه، ص ٩٩ - ١٠٠.

(٣) ناصر خسرو: سفر نامة، ص ٩٦.

إلى المدن الإسلامية ليبيعوهم فيها»[١].

وكانت قبائل البجة[٢] تسكن المنطقة الواقعة بين نهر النيل والبحر الأحمر وكانت ألوانهم تقرب من ألوان العرب، فهي بين السواد والبياض[٣].

وقد استخدم الفاطميون السود المجلوبين من الجنوب كفرق لها أهميتها في الجيش الفاطمي فقد ذكر ناصر خسرو أنه كانت هناك «فرقة تسمى المصامدة وهم سود من بلاد المصامدة قيل إنهم عشرون ألف رجل»، كما ذكر أنهم كانوا عماد الجيش الفاطمي[٤] وأنه كانت هناك «فرقة تسمى الزنوج يحاربون بالسيف وحده قيل إنهم ثلاثون ألف رجل»[٥].

وقد ذكرهم الرحالة بنيامين التطيلي الذي زار مصر في نهاية العصر الفاطمي

---

(١) نفسه، ص ١٣٤.

(٢) البجة أو البجا بضم الباء الموحدة وفتح الجيم وألف في الآخر، وهم من أصفى السودان لونًا وهم مسلمون ونصارى وكانوا يعبدون الأوثان ومواطنهم في جنوبي صعيد مصر مما يلي الشرق فيما بين بحر القلزم ونهر النيل وقاعدتهم سواكن. انظر القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٥، ص ٢٦٣ - ٢٦٤. ويطلق اسم بجة أو بُجّة على مجموعة من القبائل الحامية التي تعيش بين النيل والبحر الأحمر، وقد أمتد نفوذها في يوم من الأيام من القاهرة في الشمال إلى حدود الحبشة وكثيرًا ما خلط بين قبائل البجة والبلميس Blemmyesولكن هؤلاء قبائل مختلفة، فالأسم القديم بلميس» لم يحور إلى بجة وإنما تحور إلى بليميين أو البليين، وقد اعتبر المسلمون هؤلاء البجة في صدر الإسلام قبائل همجية وثنية غير جديرة بالتحالف معها ولم يبدأوا التفاوض معهم إلا في أوائل القرن الثاني للهجرة، وقد سكنت ربيعة وجهينة في أراضيهم. وبالرغم من غلبة الدم العربي عليهم، فإن، قبائل البجة قد احتفظت بشخصيتها إلى اليوم، وأهم فروعهم العبابدة ولبلادهم أهمية كبيرة لوجود الذهب والزمرد بأرضها. انظر: دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثالث (مادة بجة) ص ٣٦١ - ٣٦٢ وقارن عطية القوصي: تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، القاهرة ١٩٨١، ص ٢٥ - ٢٦.

(٣) الإصطخري: المسالك والممالك، ص ٢١، ٢٣، ٤٢.

(٤) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ١٠٩ وكان المصامدة رجالة الجيش الفاطمي وأصلهم من بلاد مصموده والتي تمتد إلى جنوب افريقيا. ماجد: نظم دولة الفاطميين ورسومهم، ص ٢١٧.

(٥) ناصر خسرو: سفر نامة، ص ١١٠.

فقال «أهل أسوان يخرجون لصيد العبيد في أراضي هؤلاء الزنوج، وهم إذا خرجوا حملوا معهم الخبز والزبيب والتين فيجتذبون الزنوج ويرغبونهم حتى يتبعونهم في أسواق النخاسة بمصر وما جاورها من البلدان»(١).

وعن أهم أسواق الرقيق بمصر يقول المقريزي في أثناء حديثه عن خان مسرور الصغير أنه علي يمين من سلك من سوق باب الزهومة(٢) إلى الجامع الأزهر كان ساحة يباع فيها الرقيق بعد ما كان موضع المدرسة الكاملية هو سوق الرقيق»(٣) ويبدو أنها كانت مفصولة عن سوق الجواري لأنه ذكر أن سوق الجواري كان «بخط المسطاح فيما بين الوزيرية وخط الملحيين»(٤) وكذلك كان خان مسرور ساحة تقام فيها أسواق الرقيق(٥).

وكانت بالقاهرة وكالة تقع بالقرب من الجامع الأزهر تسمى وكالة الجلابة فيتلقى صغار التجار الرقيق من تجار الصعيد، وقد عين الحاكم الفاطمي مشرفاً خاصاً يدعى أبو منصور الجودري للإشراف على هذه الوكالة، وتطورت هذه الوكالة في عهد الآمر حيث قام وزيره المأمون البطائحي عام ٥٦١هـ / ١١٢٢م بتطويرها فقصدها التجار من كل أنحاء العالم، وكانت أسواق الرقيق تدر على الفاطميين أرباحًا طائلة(٦).

ويبدو أن سوقاً للرقيق كان بالإسكندرية، فقد جاء في حكاية مريم الزنارية في قصة ألف ليلة وليلة، والتي تصور تصويرًا دقيقًا الحالة الاجتماعية للمجتمع

(١) بنيامين التطيلي: الرحلة، ترجمة وتحقيق عزرا حداد، بغداد ١٩٤٥، ص ٧ وما بعدها.
(٢) باب الزهومة كان في آخر ركن في القصر مقابل خزانة الورق لأن اللحوم وحوائج الطعام التي كانت تدخل إلى القصر كانت تدخل عن طريقه وكان تجاه درب السلسلة – انظر المقريزي: الخطط، جـ١، ص ٤٣٥. وجـ٢، ص ٩٢.
(٣) نفسه.
(٤) نفسه ص ٩٢.
(٥) علي إبراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية، ص ٣٠.
(٦) عبد الرازق عبد المجيد: العلاقات بين مصر والنوبة، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد الدراسات الإفريقية جامعة القاهرة، ١٩٧٨م، ص ١٨٨ – ١٨٩.

المصري في تلك الفترة، أنه كانت هناك إلى جانب سوق النجارين والصرافين والنقلية والفكهانية وسوق العطارين سوق للرقيق يقبل عليه الأعمي وهو راكب بغله وخلفه الجارية ويصيح على الدلال لينادي عليها في السوق. وتخبرنا هذه القصة أن ثمن الجارية وصل إلى ٩٥٠ دينارًا وأن بعض الجواري كانت لهن حرية اختيار من يشتريهن بحسب راحتهن إليه، فقد جاء في القصة أن الجارية رفضت أن تباع للعجوز والشيخ وذي اللحية الطويلة ولا للأحدب رغم كونه صاحب عبيد وغلمان ولا للأعمش، كما نفهم أيضًا من هذه الرواية أن أهل مصر كانت لهم خبرة بالجواري وأثمانهن وأن الجارية الإفرنجية وصل ثمنها إلى مائة دينار[١].

نظم بيع الرقيق في الأسواق:

كانت عملية البيع والشراء تتم وفق أصول معينة وكان الشخص الذي يأتي بالمماليك يدعى «التاجر» أو «الجلاب»، وهو الذي كان يجلب الرقيق من المناطق المختلفة سواء كانت محلية أو عالمية ويأتي لبيعه في السوق المحلي، وكان أغلب هؤلاء من الأجانب، كالفرس مثلاً، لا يذكر عادة اسم التاجر إلا إذا أتى بمماليك اشتهروا فيما بعد[٢]. و «هنا يتردد اسمه على أنه أول حائز للمملوك وأول أستاذ له»[٣].

وكان «الدلال» حلقة الوصل بين الجلاب والمشتري، أي السمسار، ومهمته الوقوف بالسوق والمناداة على الجارية أو العبد والإعلان عن محاسنهما لجذب المشتري لقاء مقابل مادي معين، وكان ما يتقاضاه يسمى بالدلالة أو السمسرة وقد سمي الدلال في بعض المصادر والمراجع «النخاس» وعرفه الشيزري بقوله «النخاس بائع الدواب والعبيد، على أنه لم يكن تاجرًا يشتري ويبيع بل اقتصر عمله

---

(١) رشدي صالح: ألف ليلة وليلة، القاهرة ١٩٦٩ حكاية مريم الزنارية، جـ١٧، ص ١٢٩٨ - ١٣٠٤.

(٢) عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر، دمشق ١٩٦٨ ص ١٣، السيد الباز العريني: المماليك، بيروت ١٩٦٧، ص ٧٤

(٣) الباز العريني، المرجع السابق، ص ٧٢.

على الدلالة على السلع التي يطلب إليه بيعها»[1].

وقد حدد الشيزري صفات رأى ضرورة توافرها في النخاس وهي أن يكون على جانب كبير من الثقة والعدل والعفة لأنه يتسلم جواري الناس وغلمانهم وربما اضطرتهم الظروف للبقاء في منزله أيامًا، ويجب عليه ألا يبيع جارية ولا عبدًا إلا بعد التأكد من حاله حتى لا يكون حرًا أو مسروقًا[2].

وأضاف شروطًا يجب أن يتبعها النخاس عند البيع كأن يمنع المشترين من الخلوة بالجواري، خاصة قبل عقد البيع، وعدم التفريق بين الجارية وولدها قبل سبع سنوات، ولا يباع المملوك ولا الجارية إذا كانا مسلمين لأحد من أهل الذمة إلا إذا تأكد النخاس أن المملوك ليس مسلمًا، كما أوجب توافر عدة صفات في النخاس منها أن يكون خبيراً بإبتداء العلل والأمراض، فإذا أراد بيع غلام نظر إلى جميع جسده سوى عورته قبل بيعه، ذلك حتى لا يكون «فيه عيب أو علة فيخبر به المشتري»[3]. وكان ابن رمضان أحد النخاسين في العصر الفاطمي[4].

ويضيف الجاحظ أن تجارة الرقيق من «التجارات التي يقع فيها المساومات والمشاراة بالثمن ويحتاج البائع والمبتاع إلى أن يستشفا العلج ويتأملاه تأملاً بيناً يجب فيه خيار الرؤية المشترط في جميع البياعات. وإن كان لا يعرف مبلغه بكيل ولا وزن ولا عدد ولا مساحة فقد يعرف بالحسن والقبح»[5].

ولم يكن دور الدلال مقصورًا على البيع في أيام الأسواق فقط بل كان البائع يضطر إلى اللجوء إليه أحيانًا في الأيام العادية، فقد جاء في قصة مريم الزنارية أنه لم يكن بيعها في يوم سوق كما تبين هذه القصة دور الدلال وحرصه على إتمام البيع

---

(١) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبه، ص ٨٤.

(٢) نفسه: ص ٨٤.

(٣) نفسه: ص ٨٤ – ٨٥.

(٤) المسبحي: أخبار مصر، تحقيق وليم ميلورد، القاهرة ١٩٨٠، ص ٢٢٧.

(٥) الجاحظ: رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦٤، كتاب القيان، ص ١٦١.

ومدى ضيقه عندما تفسد الجارية بتصرفاتها إتمام كل بيعة(١).

سارت عملية البيع والشراء وفق خطوات محددة تحدث عنها المؤرخون، ففي رسالة ابن بطلان العديد من الوصايا التي ينتفع بها في البيع والشراء «منتزعة من كلام الحكما ومن تفقد أجسامهم وصحة أعضائهم بحسب ما يراه الأطباء من تعرف أخلاقهم بقياس الفراسة على مذهب الفلاسفة ومن معرفة صور كل جنس وما يصلحون له من الأعمال بحسب خواص بلادهم والمنشأ ومن كشف تلبيسات يُدلس بها النخاسون الرقيق على المشتري»(٢).

وقد عدد ابن بطلان الوصايا، وهي تشمل المماليك والإماء، الوصية الأولى هي أن يكون الشاري ليس ذا فاقة لقوله «فإن الجايع يستجيد كل طعام يشبعه والعريان يستوفق كل طمر يدفيه ويستره»(٣).

والوصية الثانية التحذير من شري الرقيق في المواسم لأن النخاسين يبتدعون الحيل «فكم من قصيفة بيعت بخصبه وسمرا كمدة بيعت بصفرا مذهبة وممسوح العجز بثقيل الروادف»(٤).

لذلك، كانت الوصية بعدم الشراء في المواسم أو النظر بطريقة جيدة للمشتري، ومما يخص شراء المماليك ثلاث وصايا، منها أن يتم تحذير المشتري من شراء المملوك الذي كان يضرب كثيرًا من قبل مولاه، وكذلك السؤال عن سبب بيع المملوك فيجب فحصه جيدًا والبحث عن أسباب تركه بسؤال المملوك عن مولاه الذي يبيعه لأن من رده سواء بالذم أو بالشكر سيعرف هل سبب البيع من جهته أو من جهة مالكه، والوصية الثالثة خاصة بعدم إطماع المملوك أو تعريضه للفساد بمخالطة غيره من المماليك الفاسدين(٥).

---

(١) ألف ليلة: قصة علي نور الدين المصري مع مريم الزنارية جـ١٧، ص ١٢٨٨ - ١٣٢٨.

(٢) ابن بطلان، مخطوط رسالة في شرى الرقيق وتقليب العبيد رقم ٢٣٣٢٧، جامعة القاهرة، ص ٢.

(٣) نفسه، ص ٣.

(٤) نفسه ص ٣ - ٤.

(٥) ابن بطلان، رسالة في شرى الرقيق، ص ٦.

وكان النخاس يوصي الجواري بالتبرج وإظهار الزينة للمشتري وإخفاء القبائح والعيوب واستمالة المشايخ وأن «يتجنون على الشباب ويمتنعن عليهم ليتمكن من قلوبهم»(١).

وفي هذا يقول الجاحظ إن «مكالمة القيان ومفاكهتهن ومغازلتهن ومصافحتهن للسلام ووضع اليد عليهن للتقليب والنظر حلال ما لم يشب ذلك ما يحرم»(٢).

وأخيرًا لم تكن تجارة الرقيق تحظى بالإحترام الكافي من العامة في المجتمع الإسلامي، فقد اعتبرت هذه التجارة من التجارات المشينة، فأصبحت تقام في منزل خاص بعيدًا عن السوق، وعلى أي حال، كانت هذه التجارة تدر أرباحًا طائلة على النخاس(٣) الذي يبدو أنه لم يكن موضع احترام في المجتمع الإسلامي وعلى سبيل المثال عندما أراد محمد بن الأشعث صاحب شرطة مصر في خلافة يزيد بن معاوية(٤) سنة ٦٠هـ/ ٦٧٩م سب أحد القادة الخارجين على الخلافة فإنه وصفه بقوله «النخاس الكذاب»(٥).

أنواع المماليك:

يظهر اصطلاح «مملوك» في المصادر الإسلامية بأشكال مختلفة تترادف أحيانًا وتختلف في أحيان أخرى. وكذلك فإن اصطلاحات «عبد» «مملوك» و« قن» و «غلام» و «مولي» تتفق في مدلولاتها العامة(٦) ولكنها تختلف بحسب المراحل

---

(١) نفسه، ص ٢١ – ٣٢.

(٢) الجاحظ: كتاب القيان، ص ١٦٣.

(٣) العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص ١٩.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، طبعة دي غويه، ليدن ١٨٨١، جـ٥، ص ٣٥٠.

(٥) العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص ١٩.

(٦) عبد : الرقيق والعبد: الإنسان حرًا كان أو رقيقًا لأنه مربوب لله عز وجل – جميعها عبيد وعبد وأعبد وعبدان، المعجم الوسيط جـ٢، ط٣، مجمع اللغة العربية ١٩٨٥ ص ٦٠١، الغلام: والخادم جمعها غلمان وغلمة والغلام هو الصبي من حين يولدإلى أن يشب ويطلق على الرجال مجازاً. المعجم الوسيط، جـ٢، ص ٦٨٤.

المملوك: العبد وجمعها مماليك، المعجم الوسيط، جـ٢، ص ٩٢٢. =

التاريخية للدولة الإسلامية.

ومع أن كلمة «مملوك» تعني في دلالتها اللغوية «من يمتلك بقصد التربية والإنتفاع»، إلا أنه من الملاحظ أن المؤرخين قد اتفقوا على أن لفظ «مملوك» اتخذ معنى اصطلاحيًا في التاريخ الإسلامي فأطلق على جموع الرقيق الأبيض، على حين أن اصطلاح «عبد» (من العبودية) جرى إطلاقه على الرقيق الأسود(١).

وعند بعضهم، فإن «العبد» يولد لأبويه من العبيد، بينما يولد «المملوك» في معظم الأحوال من أبوين من الأحرار(٢).

و «القن» مملوك هو وأبوه لكنه عرف أيضًا بأنه من كان خالص الرق لمولاه رقبة ويدًا، وهذا هو الرقيق عند الإطلاق.

وتطلق الرق لغة على الواحد والجمع ويجمع على أقنان، وأقنة والقن هو العبد الذي يستخدم في فلاحة الأرض و يسمى بالمزارع المقيم، وإذا سلبت الأرض التي يعمل فيها بالبيع أو بالفتح أو غيره صار «عبدًا قنًا» ويظل قنًا ما بقي حيًا ليس لمولاه بيعه أو عتقه، وأولاده من بعده يكونون عبيدًا بالتبعية لمالك الأرض أو مقتطعها(٣).

أما «الغلام» فهي لفظة كانت تطلق غالبًا على الرقيق في سن الشباب وعلى القائمين على خدمة الخلفاء والسلاطين في القصور، ومؤنثها «جارية».

و «المولى»، وجمعه «الموالي» اصطلاح عربي عرفه العرب في الجاهلية،

= المولى: جاء في المعجم الوسيط أن المولى معناه المنعم عليه أو المعتق أو العبد أو التابع والجمع موالي، المعجم الوسيط، جـ٢، ص ١١٠٠.

القن: العبد الذي كان أبوه مملوكاً لمواليه ويقال بين القنانة والقنونة: خالص العبودة أما إذا لم يكن كذلك فهو عبد مملكة ويجمع على أقنان وأقنة. المعجم الوسيط، جـ٢، ص ٧٩٣.

(١) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ١، ٢ العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص ١١، وعبده بدوي: السود والحضارة، ص ١٠٨.

(٢) ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك، ص ١١.

(٣) جرجي زيدان: تاريخ التمدن، جـ٤، ص ٤٦.

وكانت تبعيته مرحلة وسطًا بين العبودية والحرية.

عرفت مكة العبيد والأرقاء، ودخل بعضهم في الإسلام، وكانوا ممن أعتقهم الصديق أبو بكر ﷺ، وقد ظهرت للموالي درجات فكان «المولي المعتق»، «مولى العقد»، و «مولى الرحم».

وكان الإسلام يستعين بالعبيد فينقضهم على أسيادهم بطريق الإعتاق حتى يستخدموا في الحروب ضد الكفار. فعل الرسول ﷺ ذلك عندما استعصت عليه مدينة الطائف فنادى أن أي عبد ينزل سيكون حرًا فنزل منهم جماعة كبيرة وأعتقوا وعلى هذا، فإن «المولي المعتق» هو من أطلق سراحه عن طريق المكاتبة أو التدبير، أي نال الحرية بعد موت السيد فلا يورث، أو يكون «المولي المعتق» تدبيرًا لآل المعَتق وهو يورث ولا يرث.

أما «مولي العقد» ويسمى أيضًا «مولي الحلف» أو «مولي الإصطناع»، فهو من ينتمي إلى رجل بالخدمة أو المحالفة أو الملازمة حسب شروط يتفق عليها، وهو لا يرث[١]. أما «مولى الرحم» فيكتسب ولاية ونسب القبيلة التي يولد فيها[٢].

ويمكن ان نضيف هنا أن المصادر الإسلامية استخدمت ألفاظ «السودان» و «الزنج» و «الحبشان» بمعنى «العبيد السود» على حين أنه أطلق لفظ «جلبان» أو «أجلاب» على المماليك الذين كانوا يجلبون من أسواق النخاسة من بلاد القوقاز وآسيا الصغرى وشواطئ البحر الأسود[٣].

وقد تحدث ابن بطلان في رسالته عن الرقيق شارحًا مميزاتهم واستخداماتهم فقال «ومن أراد العبيد لحفظ النفوس والأموال فالهند والنوبة ومن أرادهم للكد والخدمة فالزنج والأرمن، ومن أرادهم للحرب والشجاعة فالترك والصقالبة»[٤].

---

(١) إلياس الأيوبي: تاريخ مصر الإسلامية، ص ٢١٦ - ٢١٨.

(٢) نفسه، ص ٢١٨.

(٣) حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف، القاهرة ١٩٦٥، جـ١، ص ٢٥.

(٤) ابن بطلان: رسالة في شرى الرقيق، ص ١.

الجواري والإماء: [1].

تشير المصادر التاريخية إلى اصطلاح «الجواري» بإعتباره مرادفًا لاصطلاحات «الإماء» و «السراري» و «القيان» و «أمهات الأولاد»[2].

وتنقسم «الجواري» إلى عدة أنواع فمنها من تسترق طوال حياتها ثم تباع أو تورث، ومنها من يهبها مولاها أو يبيعها أو تلد له فتحرر بعده، ومنها ما يوصي مولاها بعتقها بعد وفاته فلا يجوز بيعها[3].

والجواري أقدم تاريخيًا من الرجال المملوكين حيث كان رجال القبائل البدوية يستطيبون الزواج من سبي القبائل الأخرى[4].

وتجئ لفظة «الأمة» مرادفة للفظة «جارية» وجمعها «جواري» وهما معاً، تختلفان بعض الإختلاف عن لفظة «القينة» ، «السرية»، فالأمة هي أنثى الرقيق. وقد كان العرب في الجاهلية يفضلون زواج الحرائر لتمسكهم الشديد بعصبيتهم ورغبة في المحافظة على نقاء عنصرهم، ولكنهم يتزوجون الإماء أو الجواري، فإن أنجبن أصبح الابن عبدًا لهم[5].

وكانت الأمة للخدمة والتسري، وكان لسيدها الحق المطلق في امتلاكها دون عقد أو مهر، ومن حقه بيعها، أي أنها كانت متاعًا خالصًا له[6].

وقد امتلك أثرياء قريش وزعماؤها الإماء والجواري، وكانوا يستخدمونهن في الغناء لإمتاع ضيوفهم في أوقات الترف واللهو حيث كانت حياة البادية تتسم

---

(١) الجارية «الأمة وإن كانت عجوزًا» والجارية «الفتية من النساء » تجمع على جوار المعجم الوسيط، جـ١، ص ١٢٤.

(٢) أنظر: الجاحظ، رسائل القيان جـ٢، ص ١٧٥ - ١٧٦، ابن بطلان: رسالة في شرى الرقيق، ص٢٥ - ٢٦.

(٣) جبور عبد النور، الجواري، القاهرة ١٩٤٧، ص ١١٦.

(٤) عباس محمود العقاد، المرأة في القرآن الكريم، القاهرة ١٩٧٣، ص ١٧٧ - ١٧٩.

(٥) عبده بدوي: السود والحضارة، ص ١٣٢، إلياس الأيوبي: تاريخ مصر الإسلامية، ص ٢٤٢.

(٦) عبده بدوي: السود والحضارة، ص ١١٨.

بالخشونة والقسوة، وعلى هذا فقد كانت تلك الأمسيات تحد من خشونتها وتضفى عليها نوعًا من المرح، وكثيرًا ما كان العربي يقوم بالغزو على جيرانه والإستيلاء على ممتلكاتهم بما في ذلك النساء(١) وكثر عدد الجواري والإماء(٢) ومع الفتوحات الإسلامية، ودخول المسلمين بلاد الفرس والروم، وانتصار الجيوش الإسلامية، كانت غنائم المسلمين من السراري والجواري والإماء كثيرة.

ولما وزعت الغنائم، تملك المقاتلون من الأفراد والقواد الكثير من السراري وتزوجوا منهن، وكان بينهن بنات الأكاسرة والقياصرة من اللواتي كن يتمتعن بالحياة المترفة في بلادهن(٣).

ومنهن من أنجبن رجالاً عظماء أثروا بدورهم في المجتمع الإسلامي وكانت لهم شهرة في التاريخ(٤).

أما عن زواج الإماء أو الجواري فإن بعض الأحرار يتزوجون جواري لسن ملك أبويهن فيدفعون الصداق لأسيادهن، وهنا يقضى الشرع بأن يكون هذا الزوج الحر غير متزوج من حرة، وألا تمكنه حالته المادية من الزواج من حرة، أو يخشى عليه

---

(١) جبور عبد النور: الجواري، ص ٢٢.

(٢) محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية، جـ١، ص ٩٩ - ١٠٠.

(٣) عبد الله عفيفي، المرأة العربية في جاهليتها جـ٣، ص ١١، ١٢ جبور عبد النور، الجواري، ص٢٣ - ٢٦. وكان قد تم أسر بنات يزدجرد بن شهريار بن كسرى على يد المسلمين الذين فتحوا بلاد فارس وسبوهن وأرسلوهن إلى المدينة فأمرعمر ببيعهن. وعندما أراد الدلال كشف وجه إحداهن، لطمته على وجهه لأنه ليس من عادة نبيلات فارس كشف وجوههن، فلما أوجعته الضربة نادى «واعمراه» . ولما علم الخليفة أراد ضربهن، لكن عليا حال دونهن قائلاً: يا أمير المؤمنين إن الرسول قال أكرموا عزيز قوم ذل وغنى قوم افتقر، وبنات الملوك لا يبعن فقوموهن، وأعطاه أثمانهن وزوج إحداهن للحسين بن علي والأخرى لمحمد بن أبي بكر والثالثة لعبد الله بن عمر، فولدن ثلاثة من مشاهير العرب هم علي بن الحسين المعروف بزين العابدين والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله، انظر جبور عبد النور، الجواري، ص ٢٣ - ٢٦.

(٤) جبور عبد النور: الجواري، ص ٢٤ - ٢٦، جرجي زيدان: تاريخ التمدن، جـ٤، ص ١٥٤.

من الفتنة والمجون، في هذه الحالة يصبح له الحق في الزواج من أمة[1].

أما إباحة الإسلام للتعدد من الإماء وملك اليمين فقد كان لها هدفان، الأول: رفع منزلة ملك اليمين لمرتبة تقرب من مرتبة الزوجات، فإن بقيت مملوكة أحاطها سيدها بعنايته وعاملها معاملة البشر لا الأشياء، والثاني فتح باب جديد لتحرير الرقيق، فاتصال السادة بإمائهم وما ينتج عن ذلك من ذرية سوف يجعل أعداد الرقيق والإماء في تزايد مستمر، لكنه إذا تحررت الأمة التي حملت من سيدها فهي أم ولد لا يجوز بيعها أو هبتها، وليس من حق ورثته التصرف فيها بعد موته إذ هي تكتسب الحرية[2].

لذلك أباح القرآن التعدد وأقر زواج الإماء ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ ﴾[3].

وقد كن في مرتبة تالية للحرائر لأن الابن يتبع أمه في الرق والحرية[4].

السراري:

السراري هن الجواري المقتنيات للتمتع بهن أو استيلادهن[5] وقد أبيح التسري في الإسلام تطبيقًا لمبدأ المعاملة بالمثل لأن مصير المسلمات حين يؤسرن كان كذلك، فأبيح ذلك حتى يمكن الاتفاق على نظام لأسرى الحرب وإن كان النظام الإسلامي أسمى لأنه يبيح الأسيرة لمن هي في يده فقط ولكن غير المسلمين يبحنها لكل من أرادها[6].

وقد كان من حق السيد أن يتسرى بجاريته، فهي مخصصة له كما لو أنها

---

(١) عبد الفتاح عاشور: منهج القرآن في تربية المجتمع، القاهرة ١٩٧٩، ص ٣٣٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٣٩ – ٣٤٠.

(٣) سورة النساء، آية ٣.

(٤) عبد الفتاح عاشور: منهج القرآن في تربية المجتمع، ص ٣٣٩ – ٣٤٠.

(٥) جرجي زيدان: تاريخ التمدن، جـ٥، ص ١١٧.

(٦) إبراهيم الفلالي: لا رق في القرآن، ص ١٥١ – ١٥٢.

زوجته ولكن باختلاف أن الزوجة مخصصة بعقد والتسري بنسب واقعة.

وعلى أي حال، فقد نتج عن ذلك خروج جيل أعمامه مسلمون وأخواله من شعوب مختلفة[1].

القيان: «القيان» جمع «قينة» والقينة في اللغة هي الأمة سواء كانت مغنية أم كانت غير ذلك، ولكنها اصطلاحًا تطلق على الأمة المغنية[2].

وقد وصف الجاحظ القينة بأنها لا تخلص في عشقها لأنها مجبولة على إيقاع الرجال في غرامها بابتزاز أموالهم «وكيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة، وإنما تكتسب الأهواء وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ، وهي تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث وصنوف اللعب والأخانيث وبين الخلعاء والمجان، ومن لا يسمع منه كلمة جد ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروة»[3]. والقيان كن يعرفن بفساد الأخلاق نظرًا لفساد البيئة التي ينشأن فيها حيث يقوم السادة بتربيتهن على فنون الخداع ليستولوا على قلوب الحاضرين الذين يطربون للخلاعة والمجون ويغدقون على هؤلاء السادة بالهدايا[4].

وقد ارتفعت أثمان القيان لدرجة كبيرة حتى أن الجاحظ قال في ذلك «والحسب والنسب الذي بلغ به القيان الأثمان الرهيبة إنما هو الهوى ولو اشترى على مثل شرى الرقيق لم تجاوز الواحدة منهن ثمن الرأس الساذج»[5].

وعن دهائهن وقدرتهن على الإيقاع بالرجال، قال «وليس يحسن هاروت وماروت وعصا موسى وسحرة فرعون إلا دون ما يحسن القيان»[6].

أما «أمهات الأولاد» فقد عرض لهن الجاحظ قائلاً «ثم هن أمهات أولاد من قد

---

(١) مصطفى كمال وصفي: مصنفة النظم الإسلامية ص ٦٧٢.

(٢) القينة: هي الأمة صانعة أو غير صانعة، جمعها قيان، المعجم الوسيط جـ٢، ص ٨٠١ واصبحت في العرف تطلق على الأمة المغنية أنظر أحمد أمين: ظهر الإسلام جـ١، ص ١٢٧.

(٣) الجاحظ: رسائل عن القيان، ص ١٧٦.

(٤) جبور عبد النور: الجواري، ص ٥٤ - ٥٦.

(٥) الجاحظ: رسائل عن القيان، جـ٢، ص ١٧٥.

(٦) نفسه.

بلغ بالحب لهن أن غفروا لهن كل ذنب وأغضوا منهن على كل عيب»[1].

و «أم الولد» هي الجارية أو الأمة التي تنجب من سيدها وهذا الإنجاب يعطيها بعض الحقوق فهي تظل ملكًا له للإستمتاع بها، ولكن لا يجوز بيعها أو توريثها، فإذا مات عنها صارت حرة ويكون طفلها حرًا منذ ولادته[2].

الجواري السميرات:

أما «الجواري السميرات» فهن نوعاً آخر من الجواري يتألف من قيان بارعات في الغناء والرقص يعشن مع أسيادهن ولكنهن لا يتمتعن بغيرة أسيادهن عليهن أو حميتهم لهن فهم يعرضونهن على زائريهم في أوقات معينة من الليل أو النهار يمتعنهم بغنائهن ورقصهن، وفي المقابل يحمل هؤلاء الزائرون إلى السيد الهدايا من أفخر أنواع الخمور وأطيب النقل والعطور الثمينة، وكانوا من مختلفي الطبقات فمنهم الشعراء والقواد والتجار والحكام وكان يستفيد من كل منهم في حل مشاكله وتصريف أموره[3]، هذا بالإضافة إلى أجناس أخرى من الجواري. فلما انتقل المسلمون من حياة التقشف إلى حياة الترف والبذخ وكثرت ثرواتهم، بدأوا يتهادون الجواري، وكان كل من أحب التقرب إلى خليفة أو وزير يهدى إليه جارية تجمع صفات كثيرة محببة إليهم[4].

واختلفت أجناس الجواري باختلاف البلاد التي فتحها المسلمون وسبوا أو استرقوا نساءها، وكذلك باختلاف أماكن شرائهن، فقد تسابق النخاسون في استجلابهن من أقاصي بلاد الترك والهند والخطا والكرج وأرمينيا والروم والبربر والنوبة والزنج والحبشة بمختلف الأعمار، كما أنهم يقومون برعايتهن وتربيتهن

---

(١) الجاحظ: رسائل القيان، جـ٢، ص ١٧٥ - ١٧٦.

(٢) حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف جـ١، ص ٩١ - ٩٢ وعبد الفتاح عاشور: منهج القرآن في تربية المجتمع، ص ٣٣٩ - ٣٤٠.

(٣) جبور عبد النور: الجواري ص ٩٣ - ٩٤.

(٤) إلياس الأيوبي: تاريخ مصر الإسلامية، ص ٢٧١.

وإظهار مواهبهن فتنبغ منهن الخدم والحواضن والولائد والمواشط والمغنيات وغير ذلك[١].

وكان النخاسون من يهود الأندلس يجدون في العرب سخاء يد ليس له مثيل، الأمر الذي شجعهم على الطواف بالبلاد الأوربية والروسية يستجلبون الجواري السلافيات والجرمانيات اللاتي أسماهن العرب صقلبيات وكانت لهن سوق رائجة لدى العرب نظرًا لجمالهن وبياض بشرتهن[٢] وكانت فيهن البيضاء والحمراء والبربرية والزنجية، بين مولده في البصرة أو الكوفة أو بغداد، كن يتعلمن العربية ومنهن من احتفظت بلغتها كلغة أصلية أساسية وتحدثت بلغة عربية ركيكة، وكانت أثمانهن تختلف حسب مواصفاتهن وما يجدنه من فنون[٣].

وفي بيوت الأمراء، اشتهرت التركيات اللائي كن يجلبن من سمرقند أهم مراكز تجارة الرقيق الأبيض حينذاك، وقد كن مفضلات لأنهن «قد جمعن الحسن والبياض والنعمة ووجوههن مايله إلى الجهامة وعيونهن من صغرها ذات حلاوة، وقد يوجد فيهن السمرا الأسيلة وقدودهن ما بين الربع والقصير والطول فيهن قليل، ومليحتهن غاية وقبيحتهن آية، وهن كنوز الأولاد ومعادن الناس قل ما يتفق في أولادهن وحش ولا ردي التركيب ولا جاف، وفيهن نظافة ولباقة»[٤].

وكذلك كان للأرمنيات حظ وافر لدى العرب والمسلمين، وكانت الملاحة للأرمن لولا ما خصوا به من وحشة الأرجل مع صحة بنية وشدة أسر وقوة لأن العفة فيهن قليلة أو مفقودة ولأن السرقة فيهن فاشية قل ما يوجد فيهن بخل، وفيهن غلظ طبع ولفظ وليست النظافة في لغتهن"[٥]. كما أن نساؤهم «لا يصلحن لمتعة»[٦].

---

(١) جرجي زيدان: تاريخ التمدن، حـ٥، ص ٢٩.

(٢) جبور عبد النور: الجواري، ص ٢٣ – ٢٦.

(٣) جرجي زيدان: تاريخ التمدن، جـ٥، ص ٢٩.

(٤) ابن بطلان: رسالة في شرى الرقيق، ص ٢٥ – ٢٦.

(٥) نفسه، ص ٢٦.

(٦) نفسه ص ٢٧،

أما الإماء أو الجواري السود، فقد كانت أسواقهن رائجة وكان الرجال يقبلون عليهن، وهن قد أخذن في تقليد البيض والسمر حتى في الإكتحال رغم أنه لا يبدو عليهن لسواد بشرتهن[1].

وقد قال ابن بطلان عن السود «من أراد الجارية للذة فليتخذها بربرية ومن أرادها للرضاع فزنجية»[2].

الخصيان:

يقول الجاحظ: «وكل خصاء في الدنيا فإنما أصله من قبل الروم»[3]. لكن يبدو أن الخصاء كان من العادات الشرقية التي شاعت بين بعض شعوب الشرق القديم[4].

وقد عرف الجاحظ الخصي بأنه ليس رجلاً ولا امرأة، فهو إنسان ممثل به وأخلاقه تجمع بين أخلاق النساء والصبيان وهو «فيه من العيوب التي لو كانت في حوراء كان حقيقًا أن يزهد فيها منه، لأن الخصي سريع التبدل والتنقل من حد البضاضة وملاسة الجلد، وصفاء اللون ورقته، وكثرة الماء وبريقه، إلى التكسر والجمود والكمود والتقبض والتجمد والتحدب وإلى الهزال وسوء الحال»[5].

كما قال عنهم أيضًا «أن لهم أقدامًا طويلة وأصابع أيديهم معوجة، وأصابع أرجلهم ملتوية، وذلك عندما يتقدم بهم السن»، ثم يقول «ترى الخصى وكأن السيوف تلمع في لونه، وكأنه مرآة صينية، وكأنه وذيلة[6] مجلوه، وكأنه جمارة[7] رطبة، وكأنه قضيب فضه قد مسه ذهب، وكأن في وجناته الورد، ثم لا يلبث كذلك إلا نسيئات يسيرة حتى يذهب ذلك ذهابًا لا يعود» والخصي «لا يصلع كما لا تصلع

---

(١) عبده بدوي: السود والحضارة العربية، ص ١٢٧.

(٢) ابن بطلان: رسالة في شرى الرقيق، ص ١.

(٣) الجاحظ: الحيوان جـ١، ص ١٢٤.

(٤) جرجي زيدان: تاريخ التمدن، جـ٥، ص ٢٦.

(٥) الجاحظ: رسائل مفاخرة الجواري والغلمان، ص ١٢٣.

(٦) «الوذيلة » هي المرأة النشيطة الرشيقة المعجم الوسيط جـ٢، ص ١٠٦٥.

(٧) «جمارة » واحدة «جمار » وهو قلب النخل، المعجم الوسيط: جـ١، ص ١٣٩.

المرأة» والخصيان «مع جودة الاتهم، ووقارة طبائعهم في معرفة أبواب الخدمة، وفي استواء حالهم في باب المعاطاة، لم تر أحدًا منهم قط نفذ في صناعة تنسب إلى بعض المشقة وتضاف إلى شيء من الحكمة، مما يعرف ببعد الروية والغوص بإدامة الفكرة»[1].

ويضيف الجاحظ أن الخصي صوته يتغير وأن ذلك يتعرض له خصيان الصقالبة أكثر من تعرض السودانيين له .. وتتبدل أخلاقه فيتصرف تصرفات النساء والصبيان من حيث اللعب واللهو ولكنه سريع الغضب والرضا أيضًا وله من أخلاق النساء حب النميمة و «يعرض له حب أن تملكه الملوك على ألا تقيم له إلا القوت ويكون ذلك أحب إليه من أن تملكه السوقة وإن ألحقته بعيش الملوك»[2].

وقد شاع استخدام الخصيان في الدولة الإسلامية شيوعًا كبيرًا، ذلك لأن الرجال كانوا يستخدمونهم في دورهم خوفًا وغيرة على النساء اعتقادًا منهم أنهم أكثر أمانًا في حماية هؤلاء النساء من الرقيق الغلمان سواء في تربية الأولاد أو في مجال تقديم الخدمات لهذا استلزم الأمر حفاظًا على هذه البيوت، أن يُستخدم هؤلاء الذكور الذين هم أقرب صورة إلى الإناث في تكوينهم العضوي في خدمة السيدات دون خوف أو خشية عليهن، وأول من استخدمهم من العرب هو يزيد بن معاوية[3] الذي اتخذ منهم حاجبًا لديوانه اسمه «فتح» ثم اقتدى به الرؤساء[4].

ثم ازداد الطلب عليهم في الدولة العباسية، وخصوصًا في عصر الخليفة الأمين (١٩٣ – ١٩٨هـ / ٨٠٨-٨١٣م)، قد بعث في طلبهم من مراكز بيعهم، واقتدى به الخلفاء من بعده حتى وصل عددهم في عهد المقتدر (٢٩٥ – ٣٢٠هـ / ٩٠٧-٩٣٢م) أحد عشر ألفًا[5].

---

(١) الجاحظ: الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦٤، جـ١، ص ١٠٦ – ١٠٧، ١١٧.

(٢) الجاحظ: المصدر السابق جـ١، ص ١١٣، ١١٤، ص ١٣٥

(٣) في الطبري أول من اتخذهم حرس، تاريخ الرسل والملوك، جـ٥، ص ٣٣٠.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ٥، ص ٣٣٠.

(٥) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٢٣ – ١٢٤.

وقد شغف العرب بهؤلاء وكثرت أعدادهم بصورة ملحوظة في القصـــور إلـــى جانب الجواري اللاتي كانت لهن الأفضلية من قبل، ويقول صاحب «آثار الأول فـــي ترتيب الدول» وقد كان في الرسم الأول ظهور الجواري غير السراري وتصرفهن في الخدمة، بارزات غير متسترات، مثل الإستئذان عليهم والوقوف بين أيديهم للترويح ومناولة ما تدعو الحاجة إليه من طعام وشراب، ثم اتخذ لذلك الخصيان ليتناولوا ذلك من النساء ويحضروه عند الرجال»(١).

وقد حرم الإسلام الخصاء وشددت السنة على تحريمه(٢) فقد ذكر أن عثمان بن مظعون استأذن النبي ﷺ في الخصاء فقال «خصاء أمتي الصوم والصـــوم وجـــاء» وكما حرم خصاء الإنسان في الإسلام، حرم أيضًا خصاء البهائم ووكل لوالي الحسبة أن يمنع ذلك ويحاسب عليه(٣).

وقد تسابق التجار وأكثرهم من اليهود - في خصاء الأرقاء لما يتكسبونه مـــن ورائهم من الربح الوفير. وكان معظم هؤلاء مـــن الصـــقالبة والـــروم، فقـــد ذكـــر القلقشندي أنهم يجلبون من بلدة تسمى هديه وأخرى اسمها وشلو وهما مـــن بـــلاد الحبشة وأن أهل وشلو هؤلاء همج وليس لهم دين، فكان التجار إذا اشتروا العبيـــد يخرجون بهم إلى وشلو فيخصونهم بها ثم يحملون إلى هديه فيعالجون بها من الآثار المترتبة على هذه العملية الفظيعة حتى يبرأوا ومنهم الكثير الذي كان يموت بســـبب نقلهم من مكان إلى مكان آخر فلو «عولجوا في مكان خصيهم كان أرفق بهم»(٤).

وأنشأ كثير من التجار أماكن مجهزة لخصاء الرقيق نظرًا لما لمسوه من رواج تجارته ومن أشهرها فردين بمقاطعة اللورين في فرنسا فكانوا يخصون هؤلاء وهـــم

---

(١) الحسن بن عبد الله: آثار الأول في ترتيب الدول، ص ١١٢.

(٢) الجاحظ: الحيوان، جـ١، ص ١٢٨ - ١٢٩، جرجي زيدان: تاريخ التمدن، جـ٥، ص ٢٧.

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٢٥٨، أنظر فتحية النبراوي: تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، دار الفكر العربي ١٩٩٧، ص ١٤٤.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥، ص ٣٢٧ - ٣٢٨ وانظر نهلة انيس مصطفى: العلاقات بـــين مصر والممالك الأفريقية، ص ٢٠٨ - ٢١٠.

أطفال فيموت أكثرهم والباقي يباع بأثمان باهظة نظرًا لقلة عدده وزيادة الطلب عليه، ثم أصبح عظماء القوم يتهادون هؤلاء الخصيان كالمتاع والأثاث، فكان ملوك الفرنج يتقربون إلى خليفة المسلمين في الأندلس أو غيرها بإهدائه الخصيان من جملة الهدايا كما فعل ملكا برشلونه وطركونة لما طلبا تجديد الصلح مع المستنصر خليفة الأندلس فقد قاما بإهدائه عشرين خصيًا من الصبيان الصقالبة[١].

وتعددت أنواعهم تبعًا للمناطق التي جلبوا منها فمنهم الصقالبة والترك والفرس والهنود، ومنهم خصيان الحبشة والنوبة والسودان الذين لم يحظوا بنفس المكانة التي للعناصر الأخرى، وقد كونوا طبقات في قصور الخلفاء منهم الأمراء ومنهم الخدم وأصبحوا زينة الإحتفالات التي تقام في قصور الخلفاء[٢]. وبخاصة الفاطميون الذين أكثروا منهم، وكانوا يلقبون بالطواشي[٣] ثم لقبوا في زمن الفاطميين بالأستاذين[٤].

وقد تمتع الطواشية بمواقع هامة في البلاط الفاطمي وأصبحوا جزءًا من دوائر الحكم ذا شأن رفيع[٥].

دخول المماليك في خدمة الدولة الإسلامية:

اعتمدت الدولة الإسلامية منذ نشأتها وحتى نهاية العصر الأموي على العرب[٦].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥، ص ٣٢٧ - ٣٢٨، نهلة أنيس مصطفى: العلاقات بين مصر والممالك الأفريقية، ص ٢١٠.

(٢) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٢٣ - ١٢٤.

(٣) «والطواشي في لغة أهل المشرق هو الخصي ويسمونه الخادم أيضًا » أنظر ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، تحقيق علي عبد الواحد، القاهرة ١٩٥٨، جـ٥ ص ٣٢٦ و «الطواشي » كلمة تركية وجمعها في العربية «طواشية » وقيل هي مفرد وجمع ويبدو أن أصلها من الطاووس للتعبير عن الرجل الجميل، أنظر: ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٢٣.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٥، ص ٤٨٩.

(5) YAACOV LEV – state and society in Fatimid Egypt., V.1.P74.

(٦) سعيد عاشور: البنية البشرية لجيوش صلاح الدين، بحث منشور بالمجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، عدد ٣٧ المجلد العاشر، ١٩٩٠م، ص ١٢.

ومع انتقال السلطة إلى العباسيين، دخلت عناصر جديدة في خدمة الدولة كالفرس والترك وغيرهم، ومع اتساع رقعة الدولة الإسلامية، دخلت أعداد كبيرة من الرقيق في خدمتها، وقد اختلف هذا الرقيق باختلاف الأراضي التي فتحت، ولم يكن امتلاكها مقصورًا على الخلفاء والقادة المحاربين بل امتلكهم من أهلته ثروته لذلك(١).

وظهرت أهمية الرقيق ودورهم في المجتمع، فاهتم الناس بهم وأولوهم الرعاية العلمية والثقافية والحرفية التي تتلاءم مع قدراتهم والتي يحتاجها المجتمع، الأمر الذي أثر على ارتفاع أو انخفاض أثمانهم حسب الحاجة إليهم، وكان المسلمون يحسنون معاملة هؤلاء الرقيق عملاً بما جاء في القرآن الكريم والسنة الشريفة، وكان الإعتاق منتشرًا لأنه اقترن بالبر والإحسان وكان المعتقون يتقلدون في بعض الأحيان مناصب هامة في الدولة فضلاً عن تأثير الجواري والغلمان على الخلفاء والوزراء(٢).

استخدام الأمويين للرقيق:

بدأ استخدام العناصر غير العربية في الجيوش الإسلامية منذ بدايات العصر الأموي، ففي عام ٤٥هـ/٦٦٥م اتجهت فرقة من الصقالبة قوامها خمسة آلاف مقاتل إلى بلاد الشام بعد أن هاجمهم الإمبراطور قنسطانز وطرد منهم عددًا كبيرًا إلى آسيا الصغرى. وقد شاركت هذه الفرقة بعد انضمامها إلى صفوف المسلمين في حربهم ضد البيزنطيين ٧٣هـ/٦٩٢ واستخدموا من قبل المسلمين كجند مرتزقة في حروبهم ضد البيزنطيين.

وكان لصراع الصقالبة مع البيزنطيين أثر سياسي كبير، فقد بدأوا يعرضون خدماتهم على القوى السياسية المتصارعة في ذلك الوقت(٣).

---

(١) العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص ١٤.

(٢) سيدة الكاشف: دراسات في المجتمع المصري، بحث منشور بمجلة هيئة الآثار ص ١٢.

(٣) سهام أبو زيد: تاريخ الصقالبة في مصر الإسلامية، بحث منشور بمجلة كلية الدراسات الإنسانية=

وعندما قامت الخلافة الأموية في الأندلس، استخدم الأمويون الصقالبة في مجالات مختلفة حتى ازداد نفوذهم وسيطروا على مقاليد الأمور(١) وكان لغنائم موسى بن نصير من فتح الأندلس ٩١هـ/٧٠٩م، والتي بلغت ٣٠٠ ألف رأس من السبي، تأثير كبير على تكوين طبقة مؤثرة في المجتمع الإسلامي من هؤلاء الرقيق(٢).

وقد جاء أغلب هؤلاء الصقالبة أطفالاً إلى إسبانيا الإسلامية، وتم تدريبهم على كل الأعمال والفنون، واحتلوا مكانة مرموقة في المجتمع القرطبي، ونبغ الأدباء والشعراء. واستطاع البعض منهم الوصول إلى الثراء وامتلاك الإقطاعات والعبيد(٣).

أما في المشرق، فقد امتد الفتح الإسلامي إلى بلاد تركستان وما وراء نهري سيحون وجيحون، وذلك في عهد الوليد بن عبد الملك ٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م، على يد قتيبة بن مسلم في نهاية القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) حتى كثر عدد الرقيق التركي نتيجة لهذه الفتوحات(٤).

وقد وصف ابن خلدون الرقيق التركي بأنهم «أهل حرب وافتراش ومعاش من التغلب والنهب إلا في الأقل .. عند الفتح لم يذعنوا إلا بعد طول حرب وممارسة أيام سائر دولة بني أمية»(٥).

كما زاد عدد الرقيق التركي في العصر الأموي نتيجة للانتصارات التي حققها قتيبة بن مسلم الباهلي في بلاد ما وراء النهر والتي نتج عنها أسر الكثير من الأتراك واستخدامهم أو جلبهم كأرقاء(٦).

= - جامعة الأزهر العدد التاسع ١٩٩١م ص ١٤٧ - ١٤٨.

(١) لبيبة إبراهيم: الرقيق وتجارته، ص ٩٨.

(٢) صلاح شمردل: الرقيق وأثره في المجتمع العراقي، ص ٣٢ - ٣٣.

(٣) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ٣٥ - ٣٧.

(٤) عبد العزيز عبد الدايم: الرق في مصر في العصور الوسطى، ص ١٦.

(٥) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ ٥، ص٣٦٩.

(٦) صلاح شمردل: الرقيق واثره في المجتمع العراقي، ص ٣٦.

وكان الأتراك من العناصر المملوكية الهامة التي دخلت في الدولة الإسلامية وأثرت فيها وتأثرت بها(١).

ولما قام المسلمون بفتح بلاد ما وراء النهر، رأوا في أهل تلك البلاد عنصرًا محاربا يمتاز بالطاعة والنظام مما شجع العباسيين على الاستعانة بهم لتقوية مركزهم في الخلافة ولكنهم أخطأوا التقدير لأن هؤلاء أنفسهم هم الذين أستبدوا بالخلفاء وتحكموا فيهم وسلبوهم سلطانهم(٢).

وقال عنهم ابن خلدون «امتلأت أيدي العرب يومئذ من سبيهم فاتخذوهم خولاً في المهن والصنائع ونساءهم فرشًا للولادة كما فعلوه في سبي الفرس والروم وسائر الأمم الذين قاتلوهم على الدين»(٣).

عظم شأن المماليك الترك وغير الترك في الدولة العباسية منهم الأفشين ومؤنس الخادم وابن طولون وابن طغج وتنامش وتوزون واياز المسعودي وكافور ولؤلؤ صاحب الموصل ومن قبله قراقوش الناصري، وقد لاحظ هذه الظاهرة صاحب كتاب «آثار الأول في ترتيب الدول» فقال: «وذلك أنه لما ركب الله فيهم من السر الإلهي والعناية الربانية، ملكهم بلاده وعباده وجعلهم حضنة بيته وخدام حرمه ونصرة دين رسوله محمد ﷺ محافظين على كتابه وسنته منفذين أحكام شريعته ملازمين على طاعته وخصهم بخصائص نالوا بها الحظ الأوفى فتقربوا بها إليه زلفى»(٤).

---

(١) في وصف موطن الترك «أنهم في بلاد البنادقة من أرض الروم وأما مواطنهم فأنهم ملكوا الجانب الشمالي من المعمور في النصف الشرقي منه قبالة الهند والعراق في ثلاثة أقاليم هي السادس والسابع والخامس» ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص ٣٦٩، وانظر سيده الكاشف: مصر في عصر الطولونيين، مكتبة الأنجلو د. ت، ص ٧.

(2) William Muir : The Mameluk or Slave dynasty of Egypt P.3

(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٥، ص ٣٦٩.

(٤) الحسن بن عبد الله: آثار الأول في ترتيب الدول، ص ١١٦.

استخدام العباسيين للرقيق:

وعندما قامت الخلافة العباسية في بغداد على أنقاض الخلافة الأموية في دمشق، وجد العباسيون نظمًا موجودة منذ أيام الأمويين وهي الاستعانة بغير المسلمين في الجيش(١).

وعندما أصبحت بغداد في العراق هي حاضرة الخلافة، بديلة لدمشق، لم يكن هذا الانتقال مجرد الإنتقال من بيت إلى بيت أو من عاصمة إلى أخرى بل كان نقلاً للدولة الإسلامية بأكملها في اتجاه العالم الآسيوي الذي سيتم ضم أراضيه بالفتح إلى الدولة الإسلامية. وقد ظلت الدولة العباسية تحكم مدة خمسمائة وثلاث وعشرين سنة تقريبًا فيها «افترقت كلمة الإسلام وسقط اسم العرب من الديوان وأدخل الأتراك في الديوان واستولت الديلم ثم الأتراك وصارت لهم دولة عظيمة وانقسمت ممالك الأرض عدة أقسام وصار بكل قطر قائم يأخذ الناس بالعسف ويملكهم بالقهر»(٢).

وعندما استخلف المنصور (١٣٦هـ- ١٥٨هـ / ٧٥٣-٧٧٤م)، بعث معن بن زائدة إلى سجستان في حملة غنمت ثلاثين ألف رأس، وكان ذلك مما قوى العنصر الفارسي(٣).

وقال عنه المقريزي أنه «أول من استعمل مواليه وغلمانه في أعماله وقدمهم على العرب فاقتدى به من بعده من الخلفاء حتى سقطت قيادات العرب وزالت رياستها وذهبت مراتبها»(٤).

ثم اتجه الخلفاء العباسيون لغزو بلاد الروم حماية لحدود الدولة الإسلامية، ففي عام ١٥٣هـ/ ٧٧٠م انتصرت الحملة التي قادها معيوف بن يحيى فأسرت ستة آلاف رأس من اللاذقية(٥).

---

(١) حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية، ص ١٣٧.

(٢) المقريزي: السلوك، جـ١ قسم١، ص ١٤.

(٣) صلاح شمردل: الرقيق وأثره في المجتمع العراقي، ص ٣٧.

(٤) المقريزي: السلوك، جـ١ ق، ص ١٦.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ٨، ص ٥٣.

وفي عهد الخليفة المهدي (١٥٨-١٦٩هـ / ٧١٤-٧٨٥م)، قاد ابنه هارون الرشيد حملة على بلاد الروم كان من نتائجها أسر خمسة آلاف وستمائة رأس[١].

وكان من نتائج نظام الصوائف والشواتي أن زادت أعداد الرقيق من الروم مما اضطر الخليفة المهدي إلى أن يسكنهم في منطقة يطلق عليها الشماسية شمالي بغداد[٢].

وقد استخدم الموالي الترك والروم والبربر ليزين بهم المواكب في المناسبات المختلفة وليكونوا عونًا لهم في حروبهم وغزواتهم[٣].

وفي عهد الهادي العباسي بن المهدي، استخدم المماليك وولع شغفًا بالجواري حتى لقد هام الهادي بجاريته غادر حبًا[٤].

وبالرغم من وصول العنصر الفارسي إلى قمة الشهرة والمجد والتسلط في عهد الرشيد متمثلاً في أسرة البرامكة، إلا أن الخلفاء بدأوا في استبدال هذا العنصر بالعنصر التركي حين أدركوا أن سلطانهم يُغتال من قبل هؤلاء الفرس. ولم يكن هؤلاءالأتراك أحسن حالاً من الفرس، فقد تغلغلوا وتحكموا في أدق أمور الدولة[٥].

وقد امتلكت السيدة زبيدة عددًا من المماليك الأتراك اختصوا بخدمتها وأطلقت عليهم اسم الشاكرية أو العسكر الشاكري[٦].

وجدير بالذكر أن الفضل بن يحيى البرمكي أنشأ فرقة كبيرة من الأتراك في خراسان بلغ عدد أفرادها نحو من خمسين ألف مقاتل بعث منهم إلى بغداد عشرين

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية بيروت ١٩٦٦، جـ١٠ مجلد ٥، ص ١٤٧.

(٢) صلاح شمردل: الرقيق واثره في المجتمع العراقي، ص ٣٧.

(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المتبدأ والخبر، جـ٥، ص ٣٧٠.

(٤) ابن الساعي: نساء الخلفاء، تحقيق د. مصطفى جواد، دار المعارف، القاهرة د. ت، جـ١، ص ٤٥.

(٥) حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول، دار الفكر، القاهرة ١٩٤٩، ص ٩٣.

(٦) صلاح شمردل: الرقيق وأثره في المجتمع العراقي، ص ٣٧.

ألفًا وسماهم الفرقة العباسية[١].

وفي عام ١٦٠هـ/٧٧٦م، توالت فتوح الإسلام في الهند فقامت الحملات وغنم المسلمون عددًا كبيرًا من السبي[٢].

وقد كان للجواري أهمية كبيرة في عهد الرشيد، وكانت له جارية تدعى هيلانة أخذها من يحيى بن خالد البرمكي وكانت رائعة الحسن فأحبها وحظيت عنده وأقامت معه ثلاث سنوات ثم ماتت فحزن عليها حزنًا شديدًا[٣].

وزاد عدد الخصيان في عهد الأمين زيادة كبيرة داخل القصر، وقد كان يرسل في طلبهم ويغالي في دفع أثمانهم ويطلق لهم الأرزاق، ويسمى البيض منهم الجرادِيَة والحبشان أو السود الغرابية، ووزع عليهم الأموال والجواهر. فلما رأت أمه تعلقه الشديد بهؤلاء، اصطنعت الجواري الحسان وعممت رؤوسهن وألبستهن الأقبية والمناطق حتى يصبحون على هيئة الغلمان وبعثت بهن إليه فسعد كثيرًا بهن وأطلق عليهن الغلاميات[٤] وفي إشارة إلى أهتمامه بالخصيان، يذكر الطبري «ولما ملك محمد، وجه إلى جميع البلدان في طلب الملهين، وضمهم إليه وأجرى لهم الأرزاق ونافس في ابتياع فره الدواب[٥]، وأخذ الوحوش والسباع والطير وغير ذلك واحتجب على أخوته وأهل بيته وقواده واستخف بهم، وقسم ما في بيوت الأموال وما بحضرته من الجواهر في خصيانه وجلسائه ومحدثيه»[٦] وهو أول من استخدم

---

(١) حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية في أسيا الوسطى، ص ١٣٧.

(٢) صلاح شمردل: الرقيق وأثره في المجتمع العراقي، ص٣٧.

(٣) ابن الساعي: نساء الخلفاء، ص ٥٤.

(٤) الغلامية: هي الفتاة تتزيا بزي الغلام وهيئته، المعجم الوسيط، جـ٢، ص ٦٨٤.

(٥) فرة (فراهة وفروهة): جمل وحسن، وخف ونشط، وحذق ومهر، فهو فاره المعجم الوسيط، جـ٢، ص ٧١٢.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ١٠، ص ٢١٤ - ٢١٦، وأنظر المقريزي السلوك جـ١، ق١، ص ١٦.

هؤلاء الترك كمماليك، وكان طولون منهم[1] فقد أرسله حاكم بخارى نوح بن أسد الساماني في جملة الهدايا للمأمون سنة ٢٠٠هـ/٨١٥م وكان طولون من الطغر الذين تعرضوا لغزو التتر فأخذه نوح الساماني[2].

وقد ابتدع المأمون إدخال فرسان الترك في الحرس الخليفي[3] لما رأي أن العرب يقفون خلف الأمين[4]، وكان لا يطمئن إلى الفرس، فرأى أن وجود العنصر التركي سيوجد نوعًا من التوازن بين العنصرين العربي والفارسي فبدأ في استخدامهم كمحاربين على نطاق ضيق[5].

وقد فتح المأمون عدة حصون وسبى عددًا كبيرًا من الرقيق ٢١٦هـ/٨٣١م[6]، وكان يشتري الأتراك من وسط آسيا لاستخدامهم في الحراسة حتى وصل ثمن الواحد منهم إلى مائتي ألف درهم وهو مبلغ باهظ في ذلك الوقت[7].

وكان المأمون يحب اقتناء الجواري فكانت له جارية رومية حظية اسمها مؤنسة المأمونية[8] وكذلك عريب وقيل إنها ابنة جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي سرقت بعد انتهاء دولة البرامكة وهي صغيرة فاشتراها الأمين وبعده المأمون وكانت شاعرة ومغنية[9].

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص ١٧٣ - ١٧٤، ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ٢٩٧ والسيوطي: حسن المحاضرة، القاهرة ١٩٧٦، جـ١، ص ٥٩٤ - ٥٩٥، أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، القاهرة ١٩٧٢، ص ١٢٨.

(٢) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٣٥، سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٢.

(٣) حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة، ص ١٣٧.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ١٠، ص ٢٥٨ - ٢٦٠.

(٥) سعيد عاشور: العصر المماليكي ص١، سيدة الكاشف: مصر في عصر الطولونيين، ص ٧.

(٦) صلاح شمردل: الرقيق وأثره، ص ٣٣.

(٧) عبد المنعم ماجد: طومان باي، ص ١٢.

(٨) ابن الساعي: نساء الخلفاء، ص ٧٩.

(٩) نفسه ص ٥٥.

أما المعتصم فقد تولى الخلافة بعد أخيه المأمون وقيل إنه أول من أدخل الأتراك الديوان لأن أمه كانت «أم ولد» تركية من السند تدعى ماردة(1)، وعلى هذا فإنه كان يميل إلى الترك ويعمل على استجلابهم والإستكثار منهم حتى بلغ عددهم ٨٠ ألفًا(2).

وقد استخدمهم المعتصم لتثبيت مركزه بعد أن فقد ثقته بالعرب والفرس الذين قامت الدولة العباسية على أكتافهم فأراد حماية نفسه بهؤلاء الجند الترك(3) واتخذ لنفسه حاجبًا تركيًا هو وصيف التركي(4).

وشغف المعتصم بحب هؤلاء الأتراك واقتنائهم وميزهم بزي معين عن سائر جنوده، ونتج عن ذلك أن ضاقت بهم بغداد، وكانوا يؤذون العامة وكثرت شكاية الناس منهم(5)، وتعرضوا للنساء وقتل الأطفال تحت أرجل خيولهم فبنى لهم المعتصم مدينة سامراء(6).

وقد كان هؤلاء الأتراك مختلفي الديانة، فمنهم المسلمون ومنهم المجوس الوثنيون الذين دخلوا في الإسلام بعد استقدام المعتصم لهم، وكانوا يتكلمون اللغة التركية ثم اقبلوا على تعلم العربية، واتصفوا بالشجاعة والمهارة في القتال، وحافظ المعتصم - نظرًا لعصبيته التركية إذ كانت أمه من جنسهم - على نقاء عنصرهم فجلب لهم نساء من جنسهم زوجهم إياهم ومنعهم من الزواج

---

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ١١، ص ٩، المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص ١٦.

(2) زبيدة عطا: بلاد الترك في العصور الوسطى ص٣٤، حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية، ص ٩٣.

(3) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٣٥، أحمد أمين: ظهر الإسلام جـ١، ص ٣، علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ٢٨.

(4) ابن العمراني: الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ١١٠.

(5) المسعودي: مروج الذهب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت ١٩٧٠ - ١٩٨٠، جـ٤، ص٥٣، ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية، بيروت ١٩٦٠، ص ٣٢١، ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص ٣٧٠.

(6) ابن العمراني: الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص ١١٠، زبيدة عطا: بلاد الترك، ص ٣٤ وحافظ حمدي: الدولة الخوارزمية، ص ٩٣، سيدة الكاشف: مصر في عصر الطولونيين، ص ٧.

من غيرهم. وقد ساعدوه على الانتصار على الروم في وقعة عمورية ٢٢٣هـ/٨٣٧م وعلى رأسهم أشناس التركي[١].

وكان حرسه الخاص من هؤلاء الترك من الصغد وفرغانة وأشروسنة والشاش، فقد كانوا دعائم الخلافة وكان يقوم بشرائهم تجار متخصصون على تخوم السهوب الروسية الآسيوية حتى غدوا عنصرًا أساسيًا للجيش وكانوا ينتقون على أساس لياقتهم العسكرية وحسن أخلاقهم[٢]. ولكنه عاد وأسف لاستخدامه هؤلاء الترك والاعتماد عليهم[٣].

وبعد عصر المعتصم، دخل عنصر الترك بقوة في بلاد الخلفاء. وأسهم النزاع القائم بين العرب والفرس في ارتفاع أسهمهم فأصبح بذلك النزاع ثلاثيًا بعد أن انضاف إليهم العنصر التركي وتزايدت قوته على حساب ضعف قوة العرب التي انهكها صراعهم مع الفرس. وبعد أن ارتبطت أهم الأحداث بأعلام الفرس كأبي مسلم الخراساني والبرامكة والحسن بن سهل والفضل بن سهل وعبد الله بن طاهر وأمثالهم[٤]، وفي عهد الواثق (٢٧٧-٢٣٢هـ / ٧٤٢-٧٤٧م) كثر المماليك والغلمان في فترة حكمه وخاصة الجواري فقد انشغل بهن واتخذ السراري[٥]. وأشهر مماليكه إيتاخ[٦].

وفي عصر المتوكل على الله (٢٣٢-٢٤٧هـ / ٨٤٧-٨٦١م)، كان قد مر حوالي اثنتي عشرة سنة على تواجد الأتراك في البلاد، وقد ذكر ابن خلكان ما يفيد أن المتوكل استخدم الأتراك بكثرة[٧].

---

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام، جـ١، ص ٥، جرجي زيدان: تاريخ التمدن، جـ١، ص ٧١.

(٢) حسن محمود: الإسلام والحضارة، ص ١٣٧، كلود كاهن: تاريخ العرب، ص ١٦٨.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ١١، ص ٨،٩.

(٤) أحمد أمين: ظهر الإسلام جـ١، ص ٥،٦.

(٥) الحنبلي: شذرات الذهب جـ٢، ص ٧٦.

(٦) المقريزي: الخطط، جـ١، ص ٣١٢.

(٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٣، ص ٢٧٢.

وفي عهده علا سلطان هؤلاء الأتراك ومسك إيتاخ قائدهم بزمام الأمور وكانوا يثيرون القلق والاضطراب ويقيمون المؤامرات والفتن، وانقسموا إلى فرق، كل فرقة تتعصب لقائدها ضد الأخرى، وجمعوا الكثير من الأموال وتآمروا على قتل المتوكل فضربه باغر بالسيف ولما حاول الفتح بن خاقان منعهم عاجلوه بضربة سيف هو الآخر فقتل وأقاموا المنتصر(٢٤٧-٢٤٨هـ / ٨٦١-٨٦٢م)[١].

واستخدم المتوكل الجواري فكانت له جارية تدعى إسحق الأندلسية وهي: مولدة وكانت للمتوكل حظية عنده وولدت له المؤيد إبراهيم والموفق أبا أحمد»[٢]، كما كانت له خمسمائة وصيفة للفراش وكانت صبيحة أم ولده المعتز هي حظيته، وكان يؤثرها على غيرها حتى أنه أراد أن يعهد بالخلافة إلى ولدها المعتز رغم كونه أصغر من المنتصر بعد أن كان قدم العهد للمنتصر ولأخويه من بعده[٣].

وقد أهدى له محمد بن عبد الله بن طاهر ثلاثمائة جارية وكان فيهن واحدة تدعى «محبوبة» ونشأت بالطائف فأحبها كل الحب وكان لا يفارقها أبدًا[٤].

وكان طبيعيًا أن يزداد نفوذ هؤلاء الأتراك بعد قتلهم المتوكل فأجبروا المنتصر على خلع أخويه المعتز والمؤيد[٥] وكان قد مات قبل أن يستخلف خليفة في الوقت الذي ازدادت فيه سطوة هؤلاء الأتراك حتى أصبحوا يقيمون الخلفاء ويعزلونهم، فقاموا بتحليف القواد على الرضى بمن يعينه بغا الكبير وبغا الصغير وأتامش، وجميعهم أتراك، فاختاروا المستعين واضطروا الناس إلى مبايعته[٦].

وبعد المتوكل، أقيم المستعين بالله أحمد بن المعتصم (٢٤٨-٢٥٢هـ / ٨٦٢-

---

(١) المسعودي: مروج الذهب، جـ٢، ص ٣٨٩ - ٣٩٠.
(٢) ابن الساعي: نساء الخلفاء، ص ٨٢.
(٣) الحنبلي: شذارات الذهب، جـ٢، ص ١١٤.
(٤) نفسه.
(٥) الطبري: جـ١١، ص ٧١ - ٧٣.
(٦) أحمد أمين: ظهر الإسلام، جـ١، ص٢٠.

وجميعهم أتراك، فاختاروا المستعين واضطروا الناس إلى مبايعته(١).

وبعد المتوكل، أقيم المستعين بالله أحمد بن المعتصم (٢٤٨-٢٥٢هـ / ٨٦٢-٨٦٦م)، فاقام ثلاث سنين وثمانية أشهر وعشرين يومًا حتى خلعه الأتراك وعذبوه ثم قتلوه بعد تسعة أشهر من خلعه(٢) ثم ما لبث الأتراك أن انقسموا على أنفسهم وحاربت كل فرقة إلى جانب قائدها فكان داغر له فرقة وبغا له فرقة ووصيف له فرقة، وقاموا بقتل داغر وأقاموا الفتن وأثاروا الاضطرابات، فلما لم يستجب المستعين إلى مطالبهم بايعوا المعتز بالله، بمعنى أنه كان هناك مقران للخلافة أحدهما في بغداد وفيه الخليفة المستعين والآخر في سامرا وعليه المعتز، لكن أهل بغداد ظلوا على ولائهم للمستعين، وكان يؤازره ابن طاهر الفارسي الأصل وبعض من الأتراك. وكانت شدة تعرضت فيها البلاد والعباد للسلب والنهب، إلا أن الأتراك تغلبوا في النهاية ودخلوا بغداد، ثم أقيم بعده المعتز بالله بن المتوكل، لكنهم سرعان ما تغلبوا عليه أيضًا وكان على الدوام يتوجس خيفة منهم فكان لا يخلع سلاحه أبدًا ليلاً ولا نهارًا خوفًا من بغا(٣).

وبعد المعتز، أقيم المهتدي بالله محمد بن الواثق (٢٥٥-٢٥٦هـ / ٨٦٨-٨٦٩م)، ثم قام الأتراك باغتياله أيضًا بعد أحد عشر شهرًا وتسعة عشر يومًا، وقد كان كغيره من الخلفاء الذين سبقوه ألعوبة في أيدي هؤلاء الأتراك، وقد روى الطبري حادثة تؤكد ذلك قائلاً «رفع المهتدي يديه إلى السماء ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: اللهم إني أبرأ إليك من فعل موسى بن بغا وإخلاله بالثغر وإباحته العدو، فإني قد أعذرت فيما بيني وبينه .. اللهم تول كيد من كايد المسلمين، اللهم انصر جيوش المسلمين حيث كانوا، اللهم إني شاخص بنيتي واختياري إلى حيث نكب المسلمون فيه ناصرًا لهم ودافعًا عنهم، اللهم فأجرني بنيتي إذ عدمت صالح الأعوان

---

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام، جـ١، ص٢٠.

(٢) المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص ١٧.

(٣) أحمد أمين: ظهر الإسلام، جـ١، ص ٢١.

ثم انحدرت دموعه يبكي»[1].

وقد قامت في عهده ثورة الزنج[2] التي هددت عرش الخلافة العباسية في بغداد وأقلقت بال الخليفة، فقد كانت مصر وشمالي إفريقية وشمالي جزيرة العرب من أهم أسواق الرقيق الأسود، وقد جلب إلى العراق الكثير من الزنج لفلاحة الأرض، وقد أدت كثرتهم إلى قيام ثورة الزنج التي دامت أكثر من أربع عشرة سنة (٢٥٥-٢٧٠هـ / ٨٦٨-٨٨٣م) وأجهدت الخلافة ماديًا واقتصاديًا[3].

وكثر شراء الزنجيات اللاتي عرفن بكثرة النسل، كما كثر شراء الجواري المغنيات واللاتي ارتفعت أثمانهن في هذا العهد ارتفاعًا كبيرًا[4].

أما الخليفة المقتدر العباسي (٢٩٥-٣٢٠هـ / ٩٠٧-٩٣٢م)، فقد استكثر من المماليك الروم والسودان حتى قالوا إن عددهم بلغ أحد عشر ألفًا وكانوا في أول عهده ألفًا ومائة، وملأت الجواري الروميات جوانب القصور لما لهن من مميزات[5] و «صارت ثمل القهرمانة إحدى جواريه تجلس للمظالم ويحضرها الوزراء والقضاة والفقهاء»[6].

وقد استخدم المقتدر الخصيان بكثرة حتى وصل عددهم في قصره إحد عشر ألف

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ/ ١١ ص ١٧٣.

(٢) «الزنج » طائفة من العبيد السود بإفريقية ثاروا على الخلافة العباسية وكان مسرح ثوراتهم المستنقعات الممتدة بين البصرة وواسط، وانضم إليهم العبيد الهاربون من القرى والمدن المجاورة تخلصًا من حالتهم، وكانوا لا يتقاضون أجرًا بل يقتاتون بقليل من الدقيق والتمر مما جعلهم على أتم الإستعداد للخروج على مواليهم، وقادهم رجل فارسي يسمى علي بن محمد من أهالي الطالقان أدعى أنه من ولد زين العابدين بن الحسين بن علي وادعى أنه العناية الإلهية قد ارسلته لتخليص هؤلاء المعذبون فانضموا إليه وثاروا علىمواليهم ثورة عارمة (للمزيد عن ثورة الزنج، انظر: حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، جـ٣، ص ٤٣٢، ماجد تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٨٩.

(٣) ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٨٩.

(٤) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، جـ٣، ص ٤٣٢.

(٥) أحمد أمين: ظهر الإسلام، جـ١، ص ٦٦.

(٦) المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص ١٨.

وقد شاع استخدامهم في المجتمع العراقي في ذلك الوقت نتيجة لشيوع استخدام الحجاب وأصبحت لهم ضرورة في القصور، وكذلك في بيوت الأثرياء، لحراسة الحريم[1].

ولما استفحل أمر هؤلاء الأتراك، استعان الخلفاء عليهم بالبويهيين[2] الذين طمعوا في السلطة ولم يقدموا العون للخلافة بالقضاء على الأتراك بل استولوا على بغداد عام ٣٣٤هـ/٩٤٥م ولقد أخطأ الخلفاء في الاستعانة بهم فكانوا «كمن استجار من الرمضاء بالنار»[3].

ثم ظلت المنازعات قائمة بينهم وبين الخلفاء العباسيين. وكان الأتراك يميلون إليهم، وكان الخلفاء ليس لهم إلا ذكر اسمهم في الخطبة ونقشه على السكة، فقد كان يتحكم فيهم البويهيون كما كانوا يعمدون إلى وضع الخلفاء ضعاف الشخصية على كرسي الخلافة حتى يستطيعوا السيطرة عليهم ويخلعوا من يحاول الخروج عن طاعتهم فضلاً عن التعذيب والقتل الذي كان يتعرض له الخلفاء المخلوعون[4].

ولم يلبث أن شاع استخدام هؤلاء المماليك في كل أنحاء الدولة الإسلامية، فكان لضعف الخلفاء العباسيين من جهة ورغبة حكام الولايات في تكوين ولايات مستقلة بهم من جهة أخرى أن اعتمد هؤلاء الخلفاء على شراء المماليك لتأليف الجيوش التي يستطيعون بها تحقيق مطامعهم، ثم لا يلبث هؤلاء بعد أن يتحرروا وتقوى مراكزهم أن يحكموا السيطرة على البلاد التي استوطنوها.

يقول ابن خلدون: «فلم يزل هذا دأب الخلفاء في اصطناعهم ودعامة سرير الملك بعمدهم وتمهيد الخلافة بمقاماتهم حتى سموا في درج الملك وامتلأت جوانحهم من الغزو وطمحت أبصارهم إلى الاستبداد فتغلبوا على الدولة وحجروا على الخلفاء

---

(١) صلاح شمردل: الرقيق وأثره في المجتمع العراقي، ص ٨٠.

(٢) لمعرفة أصل البويهيين أنظر حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، القاهرة ١٩٩١، جـ٣، ص ٤٣ - ٦٨.

(٣) حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية، ص ٩٣ - ٩٤.

(٤) نفسه، ص ٩٤.

وقعدوا بدست الملك ومدرج النهي والأمر وقادوا الدولة بزمامهم وأضافوا اسم السلطان إلى مراتبهم وكان مبدأ ذلك واقعة المتوكل وما حصل بعدها من تغلب الموالي واستبدادهم بالدولة والسلطان ونهج السلف منهم في ذلك سبيلاً للخلف واقتدى الآخر بالأول فكانت لهم دول الإسلام متعددة تعقب غالبًا دولة أهل العصبية وشوكة النسب كمثل دولة بني سامان وراء النهر وبني سبكتكين بعدهم وبني طولون بمصر وبني طغج»[1].

ومن تلك الدول المستقلة التي استخدمت المماليك في الجيوش والقصور الدولة الصفارية[2] والدولة السامانية والدولة الغزنوية وكانت الدولة الصفارية أبلغ تصوير لازدياد شوكة المماليك في دول المشرق الإسلامي، فقد اشترى يعقوب بن الليث الصفار مؤسس الدولة الصفارية في سجستان في عهد المعتمد غلمانًا صغارًا من الترك استخدمهم في الجيش والقصر وقام على رعايتهم وعلمهم فنون الحرب والخدمة[3]، كما اقتنى عمرو بن الليث الصفار ثاني ملوك الدولة الصفارية (٢٥٤-٢٩٠ / ٨٦٧-٩٠٣م) الكثير من صغار الترك وكون منهم حرسه الخاص، وكان يهديهم لقواده دون قطع رواتبهم لاستخدامهم كجواسيس يطلعونه على أسرار هؤلاء[4] كما استخدمت الدولة السامانية (٢٦١-٣٨٩هـ / ٨٧٤-٩٩٩م) الأتراك في جيوشها منذ عام (٣٠٠هـ / ٩١٢م)، وقد وصلوا إلى أعلى المناصب في تلك الدولة، ومنهم البتكين الذي قام بتأسيس دولة تركية مستقلة عام (٣٨٤هـ/ ٩٤٤م) وهي الدولة الغزنوية التي كانت ثمرة الصراع بين العنصرين الفارسي والتركي من أجل إحكام السيطرة على الأطراف الإسلامية في القرن الرابع الهجري[5].

---

(١) ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص ٣٧٠ - ٣٧١.

(٢) للمزيد عن تاريخ هذه الدول أنظر حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، جـ٣، ص ٧٢ - ٧٧.

(٣) السيد الباز العريني: المماليك، ص ٢٤٨.

(٤) العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص ٢١.

(٥) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، جـ٣، ص ٧٨ - ٨٤، العبادي: قيام دولة المماليك، ص ٢١ - ٢٢.

وكان السامانيون يقدرون قيمة هؤلاء المماليك، فقد قال نصر ابن نوح الساماني: «اتخذوا المماليك وأحسنوا تربيتهم فهم أولاد يريدون حياة والدهم»[1]، كما قال:

«التسلط على المماليك من عجز المقدرة والكلام القبيح من لؤم النفس، وإنما يجب الرفق بهم والإحسان إليهم والتوسع في نفقتهم وإطعامهم مما تأكلون والنهي عن ضرب الوجه وعن المثلة في العقوبة»[2]. وسارت الدولة الغزنوية على نهج تلك الدول في استخدام المماليك، فقد كان مؤسسها البتكين مولى تركيا أصلا عينه عبد الملك بن نوح الساماني حاجبًا في بلاطه (٣٤٣هـ- ٣٥٠هـ / ٩٥٤-٩٦١م) ثم عينه عاملاً له على هراة، ولكنه بعد وفاة مولاه أقصي من منصبه فعاد إلى مدينة غزنة التي وليها أبوه من قبل السامانيين وحل محله في حكمها بعد وفاته ٣٥٢هـ/٩٦٣م، ثم مات وتولى ابنه إسحاق حكم البلاد، ويعتبر سبكتكين زوج ابنه إسحاق وأحد مواليه هو المؤسس الحقيقي لهذه الدولة والذي مد سلطانه إلى الشرق وإلى فارس واستولى على خراسان[3].

ومن هذا نرى كيف أن هؤلاء المماليك الذين جلبوا عن طريق الشراء أو السبي وربوا صغارًا قد تغلبوا على سادتهم الذين كانوا «ينتقون أجود السبي الغلمان كالدنانير والجواري كالآلي، ويسلمونهم إلى قهارمة القصور وقرمة الدواوين يأخذونهم بحدود الإسلام والشريعة وآداب الملك والسياسة ومراسي الثقافة في المران على المناضلة بالسهام والمسالحة بالسيوف والمطاعنة بالرماح والبصر بأمور الحرب والفروسية ومعاناة الخيول والسلاح والوقوف على معاني السياسة حتى إذا تنازعوا في الترشيح وانسلخوا من جلدة الخشونة إلى رقة الحاشية وملكه التهذيب اصطنعوا منهم للمخالصة ورقوهم في المراتب واختاروا منهم لقيادة العساكر

---

(١) الحسن بن عبد الله: آثار الأول في ترتيب الدول، ص ١١٥.

(٢) نفسه.

(٣) عفاف صبره: الدولة الخوارزمية، القاهرة ١٩٨٧، ص ٢٦ – ٢٩.

في الحروب ورياسة المواكب أيام الزينة»[1]. من ذلك نرى كيف أنهم استطاعوا بمهارة وذكاء ومقدرة فائقة على تطويع كل الظروف لخدمة مصالحهم الشخصية والوثوب على عروش السلطنة بصورة متعاقبة فأقاموا الدول المستقلة الواحدة تلو الأخرى حتى خلدت أسماؤهم في سجل تاريخ تلك الفترة الهامة من فترات التاريخ الإسلامي.

ولقد أدرك هؤلاء الخلفاء جميعًا والذين كانوا يزهون بحماية هؤلاء الأتراك، ولكن بعد فوات الوقت، أنهم باستخدامهم لهؤلاء قد حكموا على أنفسهم بالإستعباد[2].

دخول المماليك في خدمة حكام مصر:

بقيت مصر منذ عصر الفتح وحتى ٢٤٥هـ / ٨٦٨م تحكم بواسطة عمال يرسلون إليها من قبل الخلفاء الراشدين ثم الأمويين ثم العباسيين، وقدم إلى مصر أول وال تركي ٢٣٢هـ/٨٤٦م، ثم توالى إرسالهم من قبل الخلفاء. وكان الخلفاء يهدون إقطاع مصر إلى المخلصين من قوادهم الذين يفضلون البقاء في حاضرة الخلافة بغداد حرصًا على مراكزهم، فكانوا يرسلون إلى مصر عمالهم، الواحد تلو الآخر، فقد وليها يزيد بن عبد الله والفتح بن خاقان ومزاحم بن خاقان وأزجور ترخان، ثم آلت إلى بابكياك[3].

المماليك في الدولة الطولونية:

ابتدع العباسيون فكرة الاستعانة بالمماليك منذ عهد المأمون[4]، وقد كان

---

(١) ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص ٣٧٠.

(٢) ستانلي لينبول: سيرة القاهرة، ترجمة حسن إبراهيم حسن، القاهرة ١٩٥٠، ص ٨٠.

(٣) سيدة الكاشف: مصر في عصر الطولونيين، ص ٨، عبد الرحمن زكي: القاهرة ١٩٤٣، ص ٢١، أحمد أمين: ظهر الإسلام، جـ١، ص ٣٥، ستانلي لينبول: سيرة القاهرة، ص ٨٠.

(٤) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٣٥.

المماليك في الدولة الطولونية:

ابتدع العباسيون فكرة الاستعانة بالمماليك منذ عهد المأمون[1]، وقد كان طولون[2] من المماليك الترك الذين أهداهم نوح بن أسد الساماني والذي كان عاملا على بخارى في جملة الرقيق والهدايا إلى الخليفة المأمون سنة ٢٠٠هـ/٨١٥م وولد ابنه أحمد في سامرا سنة عشرين ومائتين[3] ويقال في سنة أربع عشرة[4] ثم توفى طولون سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م وكفل أحمد رفقاء أبيه وربوه بدار الملك حتى ارتقى إلى خدمة السلطان وعرف صيته وذاعت شهرته وسافر إلى طرسوس وتلقى العلم على بعض علمائها ودرس العربية[5].

ولكن الأتراك قد ملكوا زمام الأمور وبرز منهم القواد ذو الصيت ومنه بابكياك وبغا ووصيف وسيما الطويل، فلما حدثت الإضطرابات وفرضوا سيطرتهم على بلاط الخلفاء اضطروا أن يقطعوهم الإقطاعات، واقطع بابكياك هذا أعمال مصر من قبل الخليفة المعتز ففكر فيمن يستخلفه على مصر ووقع اختياره على أحمد بن طولون (٢٥٤هـ/٨٦٨م) التركي الذي نشأ وتربى على نهجهم[6]. «فبعثه على مصر فاستولى عليها أولاً دون أعمالها والإسكندرية ثم قتل المعتز بابكياك وصارت مصر في إقطاع يارجوخ الترك وكان بينه وبين أحمد بن طولون مودة متأكدة فكتب إليه واستخلفه على مصر جميعها ورسخت قدمه فيها وأصارها تراثًا لبنيه فكانت لهم فيها

---

(١) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٣٥.

(٢) طولون: بضم الطاء المهملة وسكون الواو وضم اللام (وسكون الواو) وبعدها نون وهو اسم تركي – ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص ١٧٤. وقارن المقريزي: الخطط، جـ١، ص٣١٣.

(٣) ابن خلكان: وفيات، جـ١، ص ١٧٣ – ١٧٤، ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٣٥، ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ٢٩٧، السيوطي: حسن المحاضرة، جـ١، ص ٥٩٤.

(٤) السيوطي: حسن المحاضرة، جـ١، ص ٥٩٤ – ٩٥٩.

(٥) ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ٢٩٧، ستانلي لينبول: سيرة القاهرة، ص ٨١ وأحمد أمين: ظهر الإسلام جـ١، ص ٤٥ – ٤٦.

(٦) ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٢٩٥، جـ٤، ص ٢٩٨.

واستخدمهم في عسكرها»[1].

وقد أكثر أحمد بن طولون من استخدام المماليك الترك لتدعيم سلطانه لأنه كان قد فقد ثقته بالعرب كما فقد ثقته بالفرس الذين أقاموا الدولة العباسية ففكر في استخدام هؤلاء ليحمي نفسه ويكون منهم جيشًا قويًا فسار على نهجه الإخشيديون والفاطميون من بعده وقد وصل عددهم إلى أكثر من أربعة وعشرين ألف غلام من الأتراك وأربعين ألفًا من السود[2].

وعن استخدامه للسود، أشاد الحسن بن عبد الله بمعاملة ابن طولون لهؤلاء السود، فذكر أنه أحسن إليهم وأنفق عليهم وبَنى لهم المساكن والجامع وكان «يزوجهم ويكسوهم ويعتق أولادهم»[3].

ولقد برع ابن طولون في استغلال الفرصة التي واتته إلى اعتلاء السلطة في مصر عندما خرج عيسى بن الشيخ بن السليل الشيباني عامل فلسطين والأردن على الخلافة واستولى على دمشق، وقطع الخراج عن الخليفة، واستولى على أموال مصر التي ترسل إلى الخلافة، وقد استنجد المعتمد بابن طولون لتخليصه من هذا الخارج على الخلافة، فوجدها ابن طولون فرصة للإكثار من مماليكه وتقوية جيشه بطريقة شرعية فاستكثر منهم تحت سمع وبصر الخليفة، وكانت له سياسة مرسومة للسيطرة على تلك الطوائف والتعامل معها، فالتف حوله هؤلاء المماليك وأدانوا له بالطاعة والولاء[4]، ولما كثر عدد الجند من السودان والروم والترك في جيش ابن طولون

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٢٨.

(٢) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٣٥، ابن إياس: بدائع الزهور، القاهرة ١٩٧٥، جـ١، ق١، ص ١٦٢، عبد الرحمن زكي: الجيش المصري في العصر الإسلامي، ص ١٤، علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ٢٨.

(٣) الحسن بن عبد الله: آثار الأول، ص ١١٨ - ١١٩.

(٤) البلوى: سيرة أحمد بن طولون، تحقيق محمد كرد علي، دمشق ١٣٥٨م، ص ٤٧ - ٤٩.

بنى لهم مدينة القطائع[١] وعندما شكا أهل مصر لابن طولون أن هؤلاء الجند كثروا بحيث أن المسجد الجامع يوم الجمعة يضيق بهم، أمر ببناء المسجد الجامع بجبل يشكر[٢].

واستمر ابن طولون أميرًا بمصر إلى أن مات بها سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م وخلف من الأبناء سبعة عشر ومن المماليك عشرة آلاف ومن الغلمان ٢٤ ألفًا[٣]. ومن الموالي سبعة آلاف رجل[٤].

وكانت مدة ولايته سبع عشرة سنة وظل مريضًا عشرة أشهر ولما شعر بنهايته بايع لابنه خمارويه من بعده، وكان للمماليك دور كبير في توليته فقد «اجتمع الأجناد وقتلوا ولده العباس الأكبر وولوا خمارويه فاستقل بالأمر»[٥].

وقيل أنه ذبح في فراشه على يد مماليكه، وولوا بعده ابنه جيش فأقام تسعة أشهر ثم قتلوه ونهبوا داره ثم أقاموا هارون بن خمارويه الذي قتل على يد عمه شيبان وعدى ابني أحمد بن طولون، ثم ولى عمه أبو المغنم شيبان والذي خلع من قبل المكتفي بعد أن بعث بالوالي محمد بن سليمان الواثقي لاستلام ولاية مصر وانقضت الدولة الطولونية.

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ١، ص ٣٢٠.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة، جـ١، ص ٥٩٥، الإسحاقي: لطائف الأول، ص ١٥٥.

(٣) النويري: نهاية الأرب، القاهرة ١٩٩٢، جـ٢٨، ص ٢١، ابن إياس: بدائع الزهور، جـ١١، ق/١، ص ١٦٤.

(٤) المسعودي: مروج الذهب، جـ٣، ص ٢١٠.

(٥) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٢٢.

المماليك في الدولة الإخشيدية:

وبعد زوال الدولة الطولونية تأسست الدولة الإخشيدية (٣٢٣-٣٥٨هـ/ ٩٣٥/٩٦٩م)[١] وقد كون مؤسسها محمد بن طغج بن جف[٢] جيشه من الأتراك والديلم حتى بلغت عدتهم بمصر والشام أربعمائة ألف جندي بالإضافة إلى حرسه الخاص الذي بلغ ثمانية آلاف مملوك[٣]، وكان «يحرسه في كل ليلة منهم ألفا مملوك»[٤].

وكانت مصر في العصر الإخشيدي من أعظم أسواق الرقيق الأسود، كان يأتيها العبيد من الجنوب كما كان يصلها الرقيق الأبيض من بيزنطة وأرمينية وثغور البحر المتوسط[٥].

وكان الإخشيد يمتلك عددًا كبيرًا من المماليك والغلمان والأتباع، تألق منهم بعض الأسماء مثل بدر الكبير وشادن الصقلبي ومنجح الصقلبي وكافور الأسود وفاتك

---

(١) علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ٢٨.

(٢) هو محمد بن طغج بن جف بن يلتكين بن فوران الأمير أبو بكر الفرغاني التركي ولد ببغداد وولى إمارة مصر بعد خروج تكين منها ٣٢١هـ من قبل القاهر بالله. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٣، ص ٢٣٥ - ٢٣٦ والقرماني أخبار الدول وآثار الأول، ص ٢٦٤ ولم يدخلها في ولايته الأولى ودخلها في ولايته الثانية من قبل الراضي بعد عزل الأمير أحمد بن كيغلغ عنها. النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٤٨ - ٤٩، ابن تغرى بردي: النجوم جـ/ ٣ ص ٢٥١ والإخشيد معناها ملك الملوك وكان شجاعًا حازمًا وله هيبه في قلوب رعيته مع حب واحترام ووقار - ابن تغرى بردي: النجوم: جـ٣، ص ٢٥٦ وقد رسم له الخليفة الراضي بزيادة لقب الإخشيد تكريمًا له. نفسه، ص ٢٥٢.

(٣) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٣٥، عطية مصطفى مشرفه نظم الحكم بمصر، ص ١٧٠، سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٢، علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك، ص ٢٩.

(٤) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٤٩، ابن تغرى بردي: النجوم، جـ٣، ص ٢٥٦ والقرماني: أخبار الدول، ص ٢٦٤.

(٥) سيدة الكاشف: مصر في عصر الطولونيين، ص ٢١٤ ومتز: الحضارة الإسلامية جـ١، ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

الرومي وبشرى وغيرهم كما امتلأ قصره بالجواري[1].

ومما يدل على كثرتهم في ذلك الوقت عتق محمد بن علي الماذرائي[2] مائة ألف مملوك، ومما يدل على كثرتهم كذلك امتلاك الوزير لهذا العدد الذي أعتقه غير من بقي ولم يعتق فكم كان عدد مماليك هذا الوزير؟![3].

وكانت هناك أعداد ضخمة من العبيد الآباق[4] (وهم الذين كانوا يعملون في فلاحة الأرض)، كما كان السود يستخدمون في وادي علاقي وعيذاب في الصحراء الشرقية للعمل في المناجم والبحث عن الذهب، وقد استخدموا ذكورًا وإناثًا أيضًا في مناجم النحاس في الصحراء[5].

وبالمقارنة بأعدادهم في عهد الطولونيين الذي ذكرت المراجع أنه ٤٠ ألفًا بعددهم في عهد الإخشيديين (أربعة آلاف) سيتضح أن الانخفاض الكبير في استخدام هؤلاء السود إما للتدهور الاقتصادي الذي حل بمصر في عصر كافور[6] أو تسريح

(١) سيدة الكاشف: مصر في عصر الطولونيين، ص ١٦٣.

(٢) أسرة الماذرائيين نزح كثير من افرادها إلى مصر وتقلدوا المناصب الإدارية والمالية الكبرى عدة سنين حتى تغلب عليهم محمد بن طغج وقلص نفوذهم. انظر عبد الرحمن زكي: الجيش المصري ص٢٢.

(٣) سيدة الكاشف: مصر في عصر الطولونيين، ص ٢١٤.

(٤) نفسه ص ٢١٥.

(٥) لبيبة إبراهيم: الرقيق وتجارته، ص ١١٦.

(٦) هو الأستاذ أبو المسك كافور بن عبد الله الإخشيدي الخادم الأسود الخصي جلب إلى مصر ٣١٢هـ وعمره أربع عشرة سنة وبيع باثنى عشر دينارًا، اشتراه سيده الإخشيد بثمانية عشر دينارًا من مصر ورباه وقربه وأعتقه ثم رقاه فأصبح من كبار قواده، ولما مات الأخشيد، أقام كافور ابني الإخشيد الواحد بعد الآخر ثم استقل بأمور مصر بعد وفاتهما .. وكان يدنى الشعراء وتقرأ عنده كل ليلة السير وأخبار الدول. وكان له حجاب يمتنع عن الأمراء وكان كريمًا ذكيًا استطاع أن يجمع رضا المعز صاحب المغرب وبني العباس في العراق ويخدعهم جميعًا. وكان وزيره أبو الفضل جعفر بن الفرات مهتمًا بالأدب والعلم وقيل أن بلاطه احتوى الفًا وسبعون من الغلمان والترك والفين من الروم غير المولدين والسودانيين وكان مجموعهم أربعة آلاف غلام، وكانت له الجواري المغنيات. وقد توفي ٣٥٧هـ وكانت امرته على مصر اثنتين وعشرين سنة واستقل بالملك سنتان وأربعة أشهر. وقد مدحه الشعراء ومنهم المتنبي، ثم غضب عليه كافور=

أعداد كبيرة منهم أو قتل أعداد كبيرة على يد محمد بن سليمان عقابًا لهم لوقوفهم بجانب الدولة الطولونية[1].

ويبرز دور المماليك في العصر الإخشيدي من واقع أنهم سيطروا على مقاليد الحكم وأثاروا الاضطراب والشغب بعد تغلبهم على الوزير أبي الفضل و «طلبه الأتراك والإخشيدية بما لا قدرة له به من المال .. واضطرب التدبير على جعفر بن الفضل ونهبت داره ودور جماعة من حاشيته فكتب جماعة من القواد من مصر إلى المعز في المغرب يستدعون منه إنفاذ العسكر»[2].

= فهجاه ورحل عنه (مخطوط شرح اللمعة: مجهول ص ٢، النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٥٤ – ٦٠، ابن تغرى بردي جـ/ ٤، النجوم الزاهرة، ص ١، ٦، ١٠ سيدة الكاشف: مصر في عصر الطولونيين، ص ١٦٥ – ١٦٧.

(١) سوزي أباظة: السودانيين في جيش مصر، ص ٧٠.

(٢) مجهول: مخطوط شرح اللمعه من أخبار المعز، ص ٣.

الفصـــل الثانـــي

الفصل الثاني

دور المماليك السياسي في العصر الفاطمي

١- استخدام الفاطميين للمماليك:

- عناصر المماليك
- الصقالبة – الأتراك-السودان
- الصراع بين طوائف المماليك
- أهم الشخصيات المملوكية في العصر الفاطمي
- جوهر الصقلي
- برجوان الصقلبي
- بدر الجمالي
- يانس الأرمني
- بهرام الأرمني
- جوهر مؤتمن الخلافة

الفصل الثاني

دور المماليك السياسي في العصر الفاطمي

استخدم المماليك في مصر قبل العصر الفاطمي، فقد جلبوا إلى مصر وعاشوا فيها، وحصلوا على حرياتهم، وسمح لهم بالانضمام إلى الجيش، وتمكن بعضهم من الوصول إلى مراكز مرموقة في خدمة الدولة.

ويمكن القول أن هؤلاء المماليك قد امتزجوا بالمجتمع المصري في ذلك الوقت، لكنهم ظلوا يحتفظون بسماتهم الخاصة التي ميزتهم عن بقية ذلك المجتمع.

وبنهاية العصر الإخشيدي ودخول الفاطميين مصر في سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م، أعتمدوا أول أمرهم على المغاربة الذين كانوا عماد الجيش ورجال الدولة.

وقد اهتم الفاطميون بالقبائل المغربية القادمة معهم من شمال إفريقيا ومنحوهم الثقة، واستعملوهم في الوظائف العليا في الدولة، فاستفحل أمرهم حتى طغوا على سلطات الخلفاء الفاطميين، الذين بدأوا يستشعرون خطرهم. ومن ثم كان تفكيرهم في استبدال العناصر المغربية بعناصر أخرى كالصقالبة والأتراك والسودان، مما أشعل نار الصراع بين هؤلاء جميعًا.

ظهر ذلك واضحًا في تكوين الجيش الفاطمي، فيقول القلقشندي: «إن الفاطميين قد استخدموا إلى جانب المغاربة الأتراك والأكراد والغز والديلم أو من المستصنعين كالروم والفرنج والصقالبة أو من السودان من عبيد الشراء أو العتقاء وغيرهم من الطوائف ولكل طائفة منهم قواد ومقدمون يحكمون عليهم»(١).

كذلك اتخذ الوزراء قوات خاصة بهم ضمنوا ولاءهم، فاستخدموهم لتحقيق مآربهم الخاصة وكان ذلك من أهم العوامل التي أسهمت في ضعف سلطة الخلفاء واستبداد الوزراء وأمراء الجيش(٢).

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٧٨.

(٢) محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، بيروت ١٩٨٦، ص ٨٤.

بدأت العناصر المملوكية تزداد في الدولة الفاطمية ويتعاظم دورهم في خدمة الخلفاء. ويخبرنا القلقشندي أن الخلفاء كانوا يحرصون على اصطفاء ما يحلو لهم من السبي(١).

وكان يؤتى بهؤلاء الأسرى فتنضم النساء إلى حريم القصر ويلحق الصبيان بحرسه الخاص أو يعهد إلى الأستاذين بتربيتهم(٢).

وازدادت أعداد العبيد والأرقاء في الدولة الفاطمية حتى خصصت لهم حارات خاصة لسكناهم، وازداد تواجدهم أيضًا في قصور الخلافة، فيؤكد ابن الطوير مدى اهتمام الخلفاء بهم، وكيف أولوهم رعايتهم الخاصة(٣).

ولم يقتصر شراء المماليك واقتناء العبيد على الخلفاء، بل اشترك في ذلك بعض الأسر المصرية الذين تشبهوا بحكامهم، فادخلوا العبيد في خدمتهم(٤).

ويبدو أن الإشراف على هؤلاء المماليك قد آل إلى قاض مختص ويماثل ذلك إشرافه على الدواوين والخزائن، فيذكر ابن ميسر في حوادث ٥٤٠هـ / ١١٤٥م أن «فيها أعيد نظر الدواوين والأتراك والخزائن للقاضي الموفق أبي الكرم محمد بن معصوم التنيسي في جمادى الأولى» (٥).

ويذكر ابن واصل أنه عندما جاء إلى مصر كان بها أنواع مختلفة من الأجناد «عددهم كثير وسوادهم كبير وأموالهم واسعة وكلمتهم جامعة .. وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف رجل، كلهم أغتام أعجام، إن هم إلا كالأنعام، لا يعرفون ربًا إلا ساكن قصره، ولا قبلة إلا ما يتوجهون إليه من ركنه (وامتثال أمره)»(٦).

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٥٢٣ - ٥٢٤.

(٢) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص ٥٧.

(٣) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري في العصر الفاطمي، القاهرة ١٩٨٥، ص ٣٢.

(٤) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد سيد، القاهرة ١٩٨١، ص ١٣٦.

(٥) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٣، جـ٢، ص ٢٦.

استخدام الفاطميين للمماليك:

كان دخول الفاطميين إلى مصر مرحلة تحول تاريخي وحضاري شهدته البلاد، فقد أصبحت كيانًا سياسيًا مستقلاً عن الخلافة العباسية السنية، وأصبح ذلك الكيان يشكل القطب الثاني في القوى الإسلامية في ذلك الوقت(١).

ومن الجدير بالملاحظة أن الفاطميين قد اعتمدوا في بداية أمرهم على القبائل العربية المغربية الذين كان لهم الفضل في قيام دولتهم في المغرب، وقد استمر دورهم حتى نهاية القرن الثالث الهجري(٢) حيث أعلنت الخلافة الفاطمية في المغرب (٢٩٧هـ / ٩٠٨م). ومن ذلك الحين تطلع الفاطميون إلى مصر لتكون قاعدة انطلاق لدعوتهم، لكن هذا لم يتحقق إلا في خلافة المعز لدين الله الذي كان يرى أن المتملك لمصر يستطيع أن يسيطر على الأراضي المقدسة الإسلامية وبالتالي ينال زعامة العالم الإسلامي(٣).

وتطلع الفاطميون إلى مصر باعتبار أن موقعها المتميز في قلب الدولة الإسلامية يسهل الاتصال ببقية البلدان الخاضعة لسلطان الفاطميين وبالتالي تحقيق أهدافهم استراتيجيًا وسياسيًا ومعنويًا(٤).

وكان المعز يطمح إلى تحقيق ذلك الهدف وبدأ بالفعل في اتخاذ الخطوات العملية لذلك، فأرسل دعاته إلى كافور الإخشيدي يدعوه إلى الاعتراف بالسيادة الفاطمية، واستطاع الدعاة أن يقنعوا كبار رجال الدولة والقادة فيها إلى

---

(١) فتحية النبرواي: العلاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية، القاهرة ١٩٨٢ ص ٣٢.

(٢) عبد الله جمال الدين: الدولة الفاطمية، القاهرة ١٩٩١، ص ٢٧٥. وأنظر أيضًا Yaccov Lev. State and society in Fatimid Egypt V.1 P.84

(٣) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٣٥٧: ٣٥٨، أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر، القاهرة ١٩٩٢، ص ٥٣: ٥٥، محمد جمال سرور: الدولة الفاطمية، القاهرة ١٩٦٥، ص ٦١، عبد الله جمال الدين: الدولة الفاطمية، ص ٩٣.

(٤) أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر، ص ٧٤: ٧٥، عبد الله جمال الدين: الدولة الفاطمية، ص ٩٤.

مناصرة المعز وإعلان البيعة له[١].

وقد كانت الأرض ممهدة لإرساء قواعد تلك الدعوة الجديدة كما كانت الأجـواء صالحة في مصر لنجاح أي غزو يأتي إليها[٢].

لقد عانت مصر من الضعف السياسي والتفكك الإداري، ودليلنا على ذلك انفراد الوزير جعفر ابن الفرات بالسلطة بعد وفاة الإخشيد في ظل حكم طفل لم يبلغ الحادية عشرة من عمره، بالإضافة إلى تذمر الأجناد ومطالبتهم بأرزاقهم[٣].

في هذا المناخ، عمت الشدة مصر فزاد من صعوبة حالها وتدهور اقتصـادها، الأمر الذي وصفه الأنطاكي في تاريخه فقال:

«أفرطت الشدة في سنة سبع وثمان وخمسين وهلك الضـعيف مـن النـاس، وأكلوا الميتة والجيفة وكانوا يسقطون موتى من الجوع، وزاد الوباء وكثر المـوتى ولم يلحق دفنهم وكان يحفر حفرًا وينزل فيها عدة كثيرة ويردم عليهم التـراب مـن غير صلاة ولا غسل ولا كفن» [٤].

هذا إلى جانب ما عانته البلاد من غارات القرامطة المتكـررة والتـي هـددت البلاد[٥].

فلما توفي كافور، انقسم القواد وعلم المعز بذلك فجهز جيشـه، فلمـا علمـت العساكر الإخشيدية هربوا وتركوا الساحة خالية قبل وصول جوهر القائد[٦]، وما لبث

(١) محمد جمال سرور: الدولة الفاطمية، ص ٦٥، عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم بمصر، القاهرة ١٩٤٨ ص ٥٦ - ٥٧.

(٢) سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٧٠، ص ١٩٤ - ١٩٥.

(٣) يحيى بن سعيد الأنطاكي: تاريخه، تحقيق شيخو، بيـروت ١٩٠٩، جـ١، ص ٨١١ - ٨١٣، مجهول: مخطوط شرح اللمعة من أخبار المعز، ص ٣، السيوطي: حسن المحاضرة، جـ١، ص ٥٩٩.

(٤) يحيى بن سعيد الأنطاكي: تاريخه، جـ١، ص ٨١٣.

(٥) العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٢٥٩.

(٦) ابن الوردي: تتمة المختصر، بيروت ١٩٦٩، جـ١، ص ٤٠٨، السيوطي: حسـن المحاضـرة، جـ١، ص ٥٩٩.

أن أرسل الدعاة للمعز بالحضور مشيرين إلى أن الثمرة قد نضجت وحان قطافها.

وفي سنة ٣٥٨هـ /٩٦٩م، دخل أبو الحسين جوهر القائد الرومي في جيش كثيف إلى الديار المصرية وأقام الخطبة للمعز على المنابر وأمر المؤذنين أن يؤذنوا بحي على خير العمل وشرع في بناء القاهرة(١). ودخلها دون قتال أو حرب وأعطى الأمان لأهلها وخرج إليه وجوه مصر فأحسن لقاءهم(٢).

وقبض جوهر على فلول الإخشيدية والكافورية وحبسهم(٣)، ثم توجه المعز من المغرب قاصدًا مصر فوصلها سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٢م وقوبل بحفاوة بالغة من المصريين ومن قائده جوهر الذي بنى له القاهرة فجعلها دار ملكه وأطلق جميع الإخشيدية والكافورية الذين اعتقلهم جوهر من قبل(٤). وقد أصبح هؤلاء محايدين تجاه الفاطميين بل إنهم استغلوا كجنود وقت الحاجة بعد أن جُرِّدوا من أملاكهم وأسلحتهم وأصبح من الممكن الاستفادة منهم جنودا مرتزقة في خدمة الفاطميين(٥).

وكان الفاطميون في حاجة إلى جيش يستطيع خوض تلك التجارب التي غيرت موازين القوى في تلك المنطقة، وقد كانت قواتهم العسكرية تتألف أولاً من مغاربة كتامة(٦). وهم من القيروان وكان انتقالهم مع الخليفة إلى مصر شيئًا طبيعيًا وكان تعدادهم حين أتوا مع المعز حوالي ٢٠ ألف فارس ومن قبائل زويلة والباتليين الذين قدموا قبل دخول المعز إلى مصر ثم المصامدة وبلغ عددهم عشرين ألف رجل، هذا

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم، جـ٧، ص ٤٧، ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ١، ص ٤٠٨، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١١، ص ٢٦٦، الدميري: حياة الحيوان، ص ٨٥.

(٢) يحيى بن سعيد الأنطاكي: تاريخه، جـ١، ص ٨١٨: ٨٢٠، بيبرس الدوادار: مخطوط زبدة الفكرة، جـ١، ص ٢٠٠.

(٣) الأنطاكي: تاريخه، جـ٢، ص ٣٥٢.

(٤) الأنطاكي: تاريخه، جـ٢، ص ٣٥٢، ابن الجوزي: المنتظم، ج٣، ص ٦٠، والمقريزي: اتعاظ الحنفاء، جـ١، ص ١٣٤: ١٣٦، السيوطي: حسن المحاضرة، جـ١، ص ٦٠٠.

(5) Yaacov Lev, Arab history and civilization. State and society V.1 P.84.

(٦) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٣٥، علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ٢٩.

بالإضافة إلى من جاء معهم من قبائل لواته والباطلية والجودرية والبرقية وهوارة وصنهاجة ودنهاج[1].

وقد تباينت أعداد هؤلاء المماليك واختلفت أنواعهم وزاد تأثيرهم طوال العصر الفاطمي تبعًا للظروف السياسية التي أحاطت بكل خليفة من الخلفاء الفاطميين وزامنت فترة حكمه فتارة تزيد أعداد الصقالبة ويصبح لهم دور مؤثر وأحيانًا يزيد عدد الأتراك وتزيد سطوتهم بصورة كبيرة ثم نرى السودان وقد ارتفعت أسهمهم وزاد تعديهم وسطوتهم بصورة أكبر من تلك التي وصل إليها الأتراك ونراهم تمكنوا في البلاد وتأرجح هذا التباين وذلك التأثير من عصر إلى عصر ومن فترة زمنية إلى أخرى حسب المتغيرات التي تفرضها ظروف كل فترة من تلك الفترات.

ولكننا نستطيع القول أن هؤلاء المماليك قد حظوا بمكانة رفيعة لدى معظم الخلفاء الفاطميين.

فعندما استقرت أحوال الخلافة الفاطمية في مصر، رأى بعض الخلفاء استخدام عناصر جديدة، ربما كان ذلك خوفًا من استبداد البربر عند محاولة انفصال المغرب عنهم، فشرع المعز عند مجيئه إلى مصر في وضع نواة نظام استخدام المماليك حتى يضمن ولاءهم له فبدأ بالصغار من أولاد الناس المشترين من سبي الفرنجة فرتب لهم في قصره حجرًا وعرفوا بصبيان الحجر[2].

وقد ذكر القاضي النعمان أن المعز لدين الله كان يعامل الرقيق معاملة حسنة ويساويهم في كثير من الأحيان في بعض الحقوق بالأحرار وخاصة المناصرين منهم للمذهب الشيعي[3]. كما أنه استكثر من الصقالبة والسودان والأتراك[4].

---

(١) محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص ٧٢ - ٧٣.

(٢) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص ٥٧، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٨١، المقريزي: الخطط، جـ١، ص ٤٤٣ - ٤٤٤، عبدالرحمن زكي: الجيش المصري، ص ٢٧.

(٣) القاضي النعمان أبي حنيفة: مخطوط المجالس والمسايرات رقم ٢٦٠٦٠ أنظر هامش (١) ص ١٠٠، جـ٢، ص ٣٥٨ - ٣٥٩.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة ١٩٧٥، جـ١، ق١، ص ١٩١.

وقد استشعر المعز لدين الله أهمية دخول الأتراك في خدمة الدولة الفاطمية في مصر، حيث ذكر المقريزي عن جوهر الصقلي أنه قال: «لما خرجت إلى مصر وأنفذت إلى مولانا المعز من أسرته ثم حصل في يدي آخرون اعتقلتهم، وهم نيف على ثلثمائة أسير من مذكوريهم والمعروفين فيهم، فلما ورد مولانا المعز إلى مصر أعلمته بهم، فقال: اعرضهم علي واذكر في كل واحد حاله.. ففعلت، وكان في يده كتاب مجلد يقرأ فيه، فجعلت آخذ الرجل من يد الصقالبة وأقدمه إليه وأقول: هذا فلان ومن حاله، وحاله فيرفع رأسه وينظر إليه ويقول: «يجوز» ويعود إلى قراءة ما في الكتاب حتى أحضرت له الجماعة وكان آخرهم غلامًا تركيًا، فنظر إليه وتأمله، ولما ولىّ أتبعه بصره .. فلما لم يبق أحد قبلت الأرض وقلت: يا مولانا رأيتك فعلت لما رأيت هذا التركي ما لم تفعله مع من تقدمه .. فقال: يا جوهر يكون عندك مكتوما حتى ترى أنه يكون لبعض ولدنا غلام من هذا الجنس تتفق له فتوحات عظيمة في بلاد كثيرة، ويرزقه الله على يده ما لم يرزقه أحد منا مع غيره»(١).

وكان العزيز بالله أول من استعان بالأتراك واصطنعهم وأولاهم ثقته فولاهم المناصب الرفيعة في دولته(٢).

كما أنه سار على نهج والده في تمييز الصقالبة فجعل لهم الحارات الخاصة بهم لسكناهم وأطلق أسماؤهم على أحد الشوارع الفاطمية في القاهرة وهو الشارع الذي كان يمتد بين حارة زويلة وخان أبو طاقية(٣).

وقدتولى الصقالبة وظائف النظر في المظالم مما يدل على دخول هذه العناصر في الإسلام(٤)، وكان لتفضيل العزيز للترك والصقالبة أثر كبير في ظهور الحسد

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ١، ص ٣٧٨.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٢٠٦ وأنظر أيضا: عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم، ص ٦٣، عبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين، ص ٣٧٢، وجمال الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، جـ٢، ص ١٣، أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، جـ٥ ص ١١٤.

(٣) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ٦٨.

(٤) سهام أبو زيد: تاريخ الصقالبة، ص ١٦٧.

بينهم وبين المغاربة[1].

ولما تولى الحاكم بأمر الله الخلافة (٣٨٦-٤١١هـ / ٩٩٦-١٠٢٠م)، وكان صغير السن إذ لم يكن يتجاوز الحادية عشرة من عمره، تولى تدبير أمور مصر في عهده برجوان الصقلبي[2]، واتسم عهده باستخدامه لمختلف أنواع المماليك، فيذكر المقريزي أنه في ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م «قرئ عدة أمانات بالقصر للكتاميين من جند إفريقية والأتراك والقضاة والخدام السود والخدام الصقالبة لكل طائفة أمان» [3]

كما أكد ابن إياس على تنوع عسكر الحاكم فقال: «عسكر الحاكم ما بين ديلم ومصامدة وصقالبة وروم وعبيد وزنج» [4]

وقد كان الناس في عهد الحاكم يزدحمون في سوق الرقيق للفرجة، وخاصة على الإماء وليس للشراء، فأصدر الحاكم قرارًا بتخصيص يوم لبيع الجواري ويوم لبيع الغلمان، ووضع شروطًا للذهاب إلى هذه الأسواق فمن يذهب إليها إما أن يكون بائعًا أو مشتريًا[5]، كما شدد على النخاسين ومنعهم من بيع العبيد والإماء لأهل الذمة[6].

وفي عهد أبو الحسن الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١-٤٢٧هـ / ١٠٢٠-١٠٣٥م) قوى نفوذ الأتراك وملكوا زمام الأمور، إلا أن أمر السودانيين كان أكثر ظهورًا في عهد هذا الخليفة لأنه كان قد تزوج سودانية كانت أمه لدى أبي سعيد التستري اليهودي فاشتراها وتزوجها[7].

ساندت هذه المرأة أبناء بلدتها من السودانيين وقوت من شوكتهم حتى أنهم

---

(١) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، جـ٥، ص ١١٤.

(٢) أنظر ترجمته في نهاية الفصل في أهم الشخصيات المملوكية.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٨٢.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص ٢١٠.

(٥) المقريزي اتعاظ، جـ٢، ص ٧٦، عبد المنعم سلطان: المجتمع لمصري، ص ٨٥ - ٨٦.

(٦) المقريزي: اتعاظ، جـ٢، ص ٥٣.

(٧) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٢٢٦.

هاجموا قصر الخليفة عندما تعرضت البلاد للمجاعة(١).

واستمر نفوذ السودانيين في عهد المستنصر بالله معد أبي تميم (٤٢٧-٤٨٧هـ / ١٠٣٥-١٠٩٤م) حيث كثرت أعدادهم بتأثير من أمه السودانية حتى بلغ عددهم أكثر من خمسين ألفًا(٢)، ومن الملاحظ أن لفظ مملوك لم يطلق على السود بل كانوا يلقبون دائمًا بالعبيد أو الخدم وكان نصفهم من الزنوج والنصف الآخر من عبيد «الشري» ، وكان تجار الرقيق يسرقون أبناء البجة لبيعهم إلى الفاطميين ولكثرة أعدادهم عرف المستنصر في عصره باسم صاحب السودان(٣).

ويذكر ناصر خسرو الرحالة الذي زار مصر في تلك الفترة أن «الرقيق في مصر إما نوب (أو نوبيون) وإما روم» (٤).

وقد ظل هذا العنصر يحتفظ بقوته وسيطرته حتى آخر عهد الدولة الفاطمية(٥). وذكر ناصر خسرو أن بقصر الخليفة اثنى عشر ألف خادم غير الجواري والنساء فبلغ مجموع من في القصر ثلاثين ألف آدمي(٦).

وفي عهده زاد عدد الأتراك وقامت المنازعات بينهم وبين السودانيين وكانت المغاربة تساند فريق الأتراك فهزموا السودانيين برغم مساعدة أم المستنصر لهم وهجموا على الصعيد برًا وبحرًا لطرد السودانيين(٧)، مما اضطر المستنصر إلى

---

(١) المسجي: أخبار مصر، ص ٢٠٨: ٢١٠، ماجد: ظهور خلافة الفاطميين، القاهرة ١٩٦٨، ص٣٧٢.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ١، ص ٣٣٥ - ٣٣٦، جمال الشيال: تاريخ مصر الإسلامي، القاهرة ١٩٦٣، جـ٢، ص ١٣.

(٣) ماجد: ظهور خلافة الفاطميين، ص ٣٧٣.

(٤) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ٩٦.

(٥) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ٦٩.

(٦) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ١٠٤ - ١٠٥.

(٧) ابن الصيرفي: الإشارة، ص ٧٧: ٧٨، ابن الأثير: الكامل، جـ١٠ ص ٨٢، وابن القلانسي، ذيل، ص ٩٤، المقريزي: الخطط، جـ١، ص ٣٣٥ - ٣٣٦.

استدعاء والي عكا بدر الجمالي الأرمني الأصل، فقدم في ٤٦٦هـ / ١٠٧٤م[١]، لإنقاذ البلاد من الاضطرابات التي آثارها الأتراك، فاشترط عليه عند قدومه أن يجيء ومعه عسكره فأجابه المستنصر إلى ذلك فجاء من عكا في مائة مركب ونزل دمياط ودخل القاهرة وما لبث أن أوصى كل أمير من أمرائه بقتل قائد من قواد الدولة والإتيان برأسه[٢].

ويبدو أنه، بقضاء بدر الجمالي على هؤلاء القادة، لم تقم لهم قائمة في عهدي المستعلي والآمر، فقد كان الأفضل بن بدر الجمالي مسيطرًا على مقاليد الأمور هو ومن معه من الأرمن ولم يكن لهذين الخليفتين حول ولا قوة[٣].

إلا أن الأتراك استعادوا بعضًا من نفوذهم في عهد الحافظ (٥٤٠-٥٤٤هـ / ١١٤٥-١١٤٩م) حتى أنه أعيد النظر في أمورهم للقاضي الموفق أبي الكرم محمد بن معصوم التنيسي[٤].

وثمة دور ظهر للسودان في عهده أيضًا سنوضحه تفصيلاً فيما بعد.

وفي عهد الظافر (٥٤٤-٥٤٩هـ / ١١٤٩-١١٥٤م) تمتع الأتراك بنفوذ قوى مستمد من قوة الوزير العادل بن السلار الذي اصطنعهم ثم ما لبث أن تقلص دورهم حتى وصول القوات النورية بقيادة أسد الدين شيركوه[٥] كما وُجد السودانيون أيضًا في عهده[٦].

ثم تولى الفائز عيسى أبو القاسم (٥٤٩-٥٥٥هـ / ١١٥٤-١١٦٠م) وذكر

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص ٢٦.

(٢) المقريزي: الخطط جـ٢ ص ٣٠٦.

(٣) الذهبي: العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر، بيروت ١٩٨٥، جـ٢، ص ٤٠٥، الحنبلي: شذارات الذهب، بيروت ١٩٧٩، جـ٤، ص ٤٧

(٤) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ١٣٦.

(٥) محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي، ص ٨٠،٨١.

(٦) ابن ميسر: المنتقى، ص ١٤٩.

المقريزي أن عدد الجند السودانيين في عهده بلغ أربعين ألف فارس وثلاثين ألف راجل[1].

أما عهد العاضد لدين الله (٥٥٥هـ -٥٦٧هـ / ١١٦٠-١١٧١م) فقد تميز بتوافر عنصر السودانيين الذين لعبوا دورًا خطيرً في التعجيل بسقوط الدولة الفاطمية حتى أفناهم صلاح الدين[2].

وكان العاضد يؤثر مماليكه ويطلق عليهم «العساكر المنصورة، وقد أوصى بهم أسد الدين شيركوه في الوثيقة الخاصة بتقليده الوزارة قائلاً: «والعساكر المنصورة هم الذين غزوا بولاء أمير المؤمنين ونعمه وربوا في حجور فضله وكرمه واجتاحهم من لم يحسن لهم النظر واستباحهم بأيدي من أضرً لمَّا أصر وطالما شهدوا المواقف ففرجوها واصطلوا المخاوف – تولجوها، وقارعوا الكفار مسارعين للأعنة مقدمين مع الأسنة مجرين إلى غايتين إما إلى النصر وإما إلى الجنة، ودبروا الولايات فسددوا وتقلدوا الأعمال فيما تقلدوا، واعتمد أحمرهم وأسودهم وأقربهم وابعدهم وفارسهم وراجلهم ورامحهم ونابلهم بتوفير الإقطاع وإدرار النفقات وتصفية موارد العيش الموافقات وأحسن لهم السياسة التي تجعل أيديهم على الطاعة متفقة وعزائمهم في أعداد الدين مستبقة، وأجرهم على العادات في تقليد الولايات واستكفهم لما هم أهله من مهمات التصرفات، وميز أكابرهم تمييز الناظر بالحقائق، واستنهضهم في الجهاد، فهذا المضمار وأنت السابق[3].

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ١٣.

(٢) ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٧، ص ٥٠.

(٣) جمال الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية (الوثيقة العشرون)، ص ٣٩٤ - ٣٩٥.

عناصر المماليك

الصقالبة - الأتراك - السودان

أولاً: الصقالبة:

اعتمد الفاطميون على الصقالبة[1] كواحد من العناصر المملوكية، وقد عرف الجغرافيون العرب هذا النوع من المماليك باسم «الصقالبة، وهم الشعوب التي كانت تأتي على الأراضي المجاورة لبلاد الخزر بين الدولة البيزنطية وأرض البلغار طلبا للإستقرار وفرارا من الحروب والمجاعة[2] وكان العرب يجلبون من بلادهم الرقيق[3].

وكان الجرمان يقومون بسبي هؤلاء وبيعهم لمسلمي إسبانيا الذين استكثروا منهم واستعملوهم في الخدمة في القصور والجيش[4].

وقد أطلق عليهم العرب مصطلح «صقلب» و«صقلبي» والكلمة معناها عبد أو رقيق[5]، وفي الفرنسية عرفت باسم Esclave وفي الجرمانية Slave وفي الإنجليزية Slave[6].

ثم أصبح اللفظ يطلق على الرقيق الأبيض جميعه. واستخدم المؤرخون المسلمون مصطلح «الصقالبة» بمعنى أرقاء السلاف والجرمان[7]، ونتيجة للحروب

---

(١) هم جماعة حمر الألوان صهب الشعور تجاور بلادهم بلاد الخزر عند (بحر قزوين) وبعض بلاد الروم، وكانوا يصلون إلى مصر مع النخاسين تجار الرقيق. تكاثر عددهم في أيام الفاطميين حتى أصبحوا يكونون عنصرًا هامًا من عناصر الجيش والحرس. أنظر: المقريزي: اتعاظ جـ٢، ص١٢٨.

(٢) ابن فضلان: الرسالة (تحقيق سامي الدهان)، ص ٦٧.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، جـ١٤، ص ٢٥٠.

(٤) العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص ١٧.

(٥) المرجع السابق، ص ٣٥ – ٣٦.

(٦) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، جـ٥، ص ٢٧.

(٧) نفسه ص ٢٧.

الدائرة بين القوى السياسية في عالم العصور الوسطى وخاصة بين الدولة البيزنطية ودولة البلغار زادت هجرة هؤلاء وكان ملاذهم الأخير إلى بلاد الأندلس، ومنها كانت هجرتهم إلى بلاد المغرب حيث تلقفهم الفاطميون واستخدموهم في جيوشهم وقد شاركوا في أجناد جوهر التي تحركت لفتح مصر(١).

وتجدر الإشارة إلى أن الفاطميين قد استخدموا الصقالبة منذ نهاية القرن الثالث الهجري / العاشر الميلادي حيث راجت تجارة الرقيق من الصقالبة(٢). واشتهر تجار اليهود بخصاء الصقالبة وبيعهم إلى العرب، يذكر ذلك ابن حوقل قائلاً وبالأندلس غير طراز يرد متاعه وربما حمل منه شيء إلى أقاصي خراسان وغيرها، ومن مشهور جهازهم الرقيق من الجواري والغلمان الروقة من سبي إفرنجة وجليقية والخدم الصقالبة وجميع من علي وجه الأرض من الصقالبة الخصيان من جلب الأندلس لأنهم عند قربهم منها يخصون ويفعل ذلك بهم تجار اليهود» (٣).

وقد اتخذ هؤلاء التجار اليهود من فرنسا مركزًا لهذه التجارة الرابحة وصار لهم في مدينة فردان باللورين مصانع للخصاء فكانوا يخصون الأطفال الذين يتعرض الكثير منهم للموت خلال تلك العملية البشعة، وان من ينجو منهم يباع للكبراء بأثمان باهظة، وكانوا من أثمن الهدايا التي تقدم للخلفاء كما هو الحال عندما أراد ملكا برشلونة وطرقونة التقرب من المستنصر خليفة الأندلس فقد أهدياه عشرين خصيًا من الصبيان الصقالبة إلى جانب التحف والهدايا الأخرى(٤). وقد برع التجار اليهود بهذه التجارة وأثروا منها ثراء كبيرًا حتى فرضت عليهم الضرائب، فكان التاجر يدفع ضريبة على كل فرد من الرقيق المار بها. وللتحايل على ذلك، انتحى تجار الرقيق طريقًا آخر يبدأ من شرق أوربا مارًا بتشيكوسلوفاكيا وبولونيا وروسيا

(١) سهام أبو زيد: تاريخ الصقالبة في مصر، ص ١٤٦ - ١٤٧.
(٢) سهام أبو زيد: المرجع السابق، ص ١٥٦.
(٣) ابن حوقل: صورة الأرض، جـ١، ص ١٠٩ - ١١٠.
(٤) العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص ٣٦ - ٣٧. وأنظر: جرجي زيدان: تاريخ التمدن، ص ٢٧.

والقسطنطينية، وكانت براغ في القران العاشر الميلادي سوقًا للرقيق المتجه إلى البلاد الإسلامية وقد حمل بعض التجار جزءًا من هذا الرقيق من جنوب إسبانيا إلى مصر عبر بلاد المغرب ثم إلى الشام والعراق والخليج الفارسي إلى السند[١].

واستخدم الصقالبة بكثرة في الدولة الإسلامية حتى أن خلفاء القرن الرابع كان غالبيتهم من أمهات صقلبيات، فقد قال ابن حوقل: «فأما ما يجهز من المغرب إلى المشرق فالمولدات الحسان الروقة كاللاتي استولدهن بنو العباس وغيرهم وأكابر رجالهم وولدن غير سلطان عظيم كسلامة البربرية أم أبي جعفر هارون الواثق بن المعتصم وقتول أم أبي منصور محمد القاهر بن المعتضد» [٢]. وكان الصقالبة دائمًا موضع التفضيل والتمييز على أنواع الرقيق الأخرى[٣].

وكان التجار من اليهود يتوغلون في أوربا ويحملون الجواري السلافيات[٤] والجرمانيات اللاتي عرفن في بلاد العرب باسم الصقلبيات وقد كانت لهن سوق لما تمتعن به من جمال بارع[٥] ومن الطرق التجارية التي كان يمر بها الرقيق طريق البحر المتوسط، فكانت السفن تخرج من المدن الإيطالية في اتجاهين أحدها يسير غربًا نحو أوربا والآخر يتجه شرقًا إلى مصر والشام والأناضول، وبواسطة هذا الطريق كان الرقيق الصقلبي ينقل عن طريق البندقية من ساحل دلماشيا متجهًا إلى

---

(١) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ١٧.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، جـ١، ص ٩٧.

(٣) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ١٤ - ١٥.

(٤) السلاف يرجع أصلهم إلى الجنس الآري أو الهند أوربي، وقد نزحوا من آسيا وتوسعوا نحو غرب أوربا أو جنوبها في القرن العاشر، وسرعان ما تأثروا بالحضارات المجاورة لهم واعتنقوا المسيحية ثم انقسموا إلى ثلاثة أقسام: أولها السلاف الجنوبيون أو اليوجوسلاف في الجنوب والوسط ويسمون البلغار والصرب والكروات والسلوفيين، وثانيها: السلاف الغربيون في بولندا وبعض ألمانيا وبوهيميا ومورافيا وسلوفاكيا، وتسمى العناصر التي تسكن هذه الجهات البولنديون والتشيك أو البوهيميون والسلوفاك، وثالثها السلاف الشرقيون أو الروس: أنظر: سهام أبو زيد: تاريخ الصقالبة ص ١٧٤ - ١٧٥.

(٥) جبور عبد النور: الجواري، ص ٢٦ - ٢٧.

الإسكندرية في مصر[1].

استخدام الصقالبة في مصر:

ويبدو أن الصقالبة كانوا في مصر منذ عهد الدولة الإخشيدية، فقد كان للإخشيد عدد كبير من المماليك منهم شادن ومنجح الصقلبيين[2]. ومن المحتمل أن يكونوا قد شاركوا في بعض الوظائف البسيطة، لكن الأمر قد اختلف في أيام الفاطميين إذ إنهم استخدموهم في وظائف الدولة الكبرى[3] في بلاد المغرب، وكذلك في المناصب الإدارية وأحيانًا في قيادة الجنود الكتامية المغربية[4].

وقد كان الأستاذ جوذر أحد أهم الشخصيات الصقلبية التي احتلت مكانة مرموقة عند الفاطميين في المغرب ولمدة أربعين عامًا، وقد لقب «بالأستاذ» ، وهو من العبيد الصقالبة الخصيان الذين كانوا في ولاية المهدي أول الخلفاء الفاطميين في أفريقية، ثم عمل لدي القائم الذي أخلص له فوثق فيه واستخلفه على قصره وأهله عندما خرج بجيشه إلى المغرب، كذلك قربه المنصور واستخلفه على دار الملك وسائر البلاد واستأمنه على خزائن بيت المال نيابة عنه عند خروجه للمهمات وكانت له كذلك نفس المكانة لدى المعز الذي كان يحبه ويقدر ولاءه حتى أنه طلب من المعز المضي معه إلى القاهرة رغم أنه أصبح شيخًا كبيرًا ضعيفًا ولكنه مات في الطريق قبل أن يصلها[5].

وقد جاءت فرقة صقلبية قوامها أربعمائة صقلبي صحبة جوهر الصقلي عند مجيئه للاستيلاء على مصر، وقد اختطوا الحارة المعروفة باسم «درب الصقالبة» ، ولكن نفوذهم لم يتعد تنفيذ أوامر قائدهم جوهر ومساعدته، وظلوا كذلك طوال فترة

---

(١) سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى، جـ٢، ص ٩٦، ونعيم زكي: طرق التجارة، ص ١٧٨

(٢) سيدة الكاشف: مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين، ص ١٦٣.

(٣) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ٦٨.

(٤) سهام أبو زيد: تاريخ الصقالبة، ص ١٥٩.

(٥) نفسه، ص ١٥٩ - ١٦٢.

إدارته لمصر وحتى مجيء المعز ٣٦٢هـ / ٩٧٢م[١].

ومن الصقالبة الذين حضروا إلى مصر وكانوا سابقًا في خدمة الفاطميين سليمان الخادم ابن كافي وابنه مسرور وميسور الخصي وصافي ووصيف، وشفيع الذي أصبح حامل مظلة المعز، وريان وقيصر[٢]، وطارق وربيع الصقلبي وخفيف الصقلبي، ونصير الصقلبي الذي استخلفه المعز على المهدية، وأفلح بن ناشب الذي كان متوليًا على برقة وكان يحبط أي ثورات من البربر ضد المعز، وكذلك مظفر الصقلبي الذي علم المعز الخط في صغره فكان بمثابة أستاذه ومعلمه[٣].

ولكن يبدو أن هؤلاء الصقالبة، كعبيد أو مماليك، لم يرتقوا أبدًا للمكانة التي كانت للكتاميين في عهد المعز حتى أنهم عاتبوه على تفضيله للكتاميين والحقيقة أن ذلك كان لما لهم من منزلة رفيعة عنده، فقد ناصروه وأتوا معه من المغرب، فحرص على تقريبهم وكان دائم السؤال عنهم، ويحب وجودهم معه في المناسبات. نستطيع أن نتبين ذلك جليًا من نص بمخطوط المجالس والمسائرات للقاضي النعمان يذكر فيه أنه عند اقتراب عيد الأضحى: «سأل المعز عن مجيء كتامة من الأعمال لشهود العيد، قيل له هم يا أمير المؤمنين يتساربون وقد غُص القصر بهم، فقال: بارك الله فيهم وكثر أعدادهم فما أسرني بهم وباحتفالهم وما أحب إلي أشخاصهم وأزين في عيني مناظرهم... فقال بعض العبيد الصقالبة فنحن يا أمير المؤمنين فما ترى أنا قصرنا وقد كان لنا من العناء والجهاد كمثل ما كان لغيرنا فمن نازعنا ذلك فليعد مشاهدنا ووقائعنا ومقاماتنا ومن استشهد منا[٤].

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ قسم/ ١ ص ١٩١.

(٢) المقريزي: اتعاظ، جـ١ ص، وأنظر أيضًا: ١٠١

Yaacov Lev, Arab history and civilization state and society V.1 P.74.

(٣) نفسه، ويذكر المقريزي في نفس الصفحة أن المعز سمع المظفر يتكلم بكلمة صقلبية لم يفهم معناها فأخذ يعلم نفسه اللغات بدءا بالبربرية ثم الرومية ثم السودانية ثم الصقلبية، فلماعرف تلك الكلمة حزت في نفسه فقام بقتله.

(٤) القاضي النعمان أبي حنيفة: مخطوط المجالس والمسائرات رقم ٢٦٠٦٠ جامعة القاهرة ص٢.

ويتضح من ذلك أن هؤلاء الصقالبة كان لهم في مؤازرة المعز ومناصرته أيضًا دور مشهود يرون أنه لا يقل عن دور الكتاميين ولكن رد المعز عليهم يبين أنه كان يعتبرهم في مرتبة أدنى من مرتبة كتامة حيث هم مماليك والكتاميون أحرار جاءوا لمناصرته طائعين وكان لهم معه ومع أجداده من الإخلاص والوفاء ما جعل لهم تلك المنزلة الرفيعة لديه فقد قال لهم: «لا سواء بهم إنا ملكناكم ولم نملكهم بكم أرأيت لو تركت أنت وأمثالك في بلدانكم أكنتم تأتوننا قال: لا. قال: فهؤلاء أتونا طائعين وبذلوا لنا أنفسهم راغبين مضى على ذلك أسلافهم وثبت عليه أخلافهم للسلف منا وللخلف ترنا فقرنا وجيلا فجيلاً، والله ما وفت أمة من الأمم لنبي من الأنبياء ولا لإمام من الأئمة ولا لملك من ملوك الدنيا ولا وفي لها وفاءهم لنا ووفاءنا لهم .. «ثم استرضى الصقالبة قائلاً: «وليس سبقهم وفضلهم مما ينقص من جاء بعدهم من عبيدنا وأنصارنا»[1].

وكان شفيع الصقلبي حامل مظلة المعز مقربًا منه لدرجة أنه كان يجلسه معه على المنبر مع القائد جوهر في جلوس الخليفة لصلاة عيد الفطر[2] وقد استخدمهم العامة في المنازل وزاد الطلب على استخدامهم[3].

وسار العزيز على نهج والده فاستكثر من هؤلاء الصقالبة وقربهم وولاهم أعلى المناصب والتي تستوجب ثقة الحاكم أو الخليفة[4].

«فإذا دخلت الدابة لركوب الخليفة وأسندت على الكرسي الذي يركب عليه الخليفة من باب المجلس أخرجت المظلة إلى حاملها فيكشفها بإعانة جماعة من الصقالبة برسم خدمتها»[5].

---

(١) نفسه، ص ٢، ٣.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ٢ ص ٢٠٥.

(٣) المقريزي: اتعاظ جـ١ ص ١٠١.

(٤) عنان: الحاكم بأمر الله، ص ٣٦.

(٥) ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، جـ٤، ص ٨٧.

فقد ولي العزيز وفيّ (أو وفيًا) الصقلبيّ عكا[1] وولي يأنس الصقلبي الإشـراف على القصور الفاطمية[2] ثم «سيره لولاية برقة ٣٨٨هـ / ٩٨٨م وأعطاه خمسه آلاف دينار وعدة من الخيل والثياب» [3].

كما ولاهم العزيز الكثير من الوظائف الديوانية، وتقلدوا وظائف الشرطة «فقد جمعت الشرطتان لمسعود الصقلبي» [4].

وتولى الصقالبة بعض وظائف القضاء كالنظر في المظالم، وهو ما يـدل علـى دخولهم في الإسلام لأن هذه الوظائف كانت حكرًا لا يتولاهـا إلا المسـلمون لأنهـا تختص بولاية أمرهم[5].

كما خلع على خود الصقلبي وقلد الشرطة السفلى[6]، كما ولي ميسور الخـادم الصقلبي ولاية طرابلس وخلع على فائق الصقلبي وجعل على الأسطول[7].

وكان أشهر الصقالبة في عهده على الأطلاق هو خادمه برجـوان[8] الصـقلبي فكانت له الكلمة المطاعة[9]. وكان العزيز قد عهد إليه بأمر الحرم والقصور لثقتـه به[10] وقد اشتهر برجوان بالبذخ والترف وهما من سمات العصر الفاطمي في تلـك

(١) المقريزي: اتعاظ، جـ٢، ص ٣٤.

(٢) هو أبو الحسن يانس وكان صقلبيًا خصيًا من خدام العزيز بالله. ولما توفي العزيز، أبقاه الحاكم في وظيفته ثم عينه وقلد بسيف ودُفع إليه رُمح وحمل على فرس بمركب ذهب ثقيل ومائـة غـلام: المقريزي، الخطط، جـ٢ ص ١٦، اتعاظ، جـ٢، ص ١٧- ٣٤.

(٣) المقريزي: الخطط، جـ٢ ص ١٦.

(٤) المقريزي: اتعاظ، جـ٢ ص ٣٦.

(٥) سهام أبو زيد: تاريخ الصقالبة، ص ١٦٧.

(٦) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ١٧.

(٧) المقريزي: اتعاظ، جـ٢، ص ١٨.

(٨) انظر ترجمته في نهاية الفصل.

(٩) مخطوط شرح اللمعة: (المؤلف مجهول)، ص ٥، ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص ٢٧٠.
وأنظر: Yaacov Lev, Arab history and civilization. State and society 1 P.75

(١٠) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٤.

الفترة وكان من مبلغ أهميته أنه كانت له حارة تعرف باسمه[1] وكان العزيز قد وصاه على ابنه الأمير أبي علي منصور[2].

وقد ميز العزيز الصقالبة وجعل لهم الحارات الخاصة بهم لسكناهم وقد أطلق اسمهم على أحد الشوارع الفاطمية في القاهرة وهو الشارع الممتد بين حارة زويلة وخان أبو طاقية[3] وعرف باسم «درب الصقالبة» [4]. كما سمح لكل من الصقالبة والمغاربة بالسكنى في الحارات التي تخص بعضهم البعض بغرض أن يحدث تآلف بينهم[5]. كما اختط نادر الصقلبي – الذي نعته العزيز بسيف الدولة دربًا عرف بدرب نادر وبدرب سيف الدولة[6]. كان نادرًا من قبل غلامًا للمعز ولما توفي ٣٨٢هـ / ٩٩٢م[7] أرسل إليه العزيز لكفنه خمسين قطعة من الديباج المثقل، وقد ترك ثروة قدرها ثلاثمائة ألف دينار عينا وآنية من فضة وذهب وعبيدًا وخيلا قدرت أيضًا بحوالي ثمانين ألف دينار[8].

ويبدو أنه رغم استخدام العزيز للأتراك إلا أن الصقالبة كانت لهم الدرجة العليا على هؤلاء الأتراك، فيحدثنا المقريزي أنه بعد قتل برجوان عين العزيز القائد حسين بن جوهر الصقلي رغم وجود الأتراك وأنه إذ كان هذا القائد يسير يومًا رأى جماعة من القواد الأتراك قيامًا على الطريق ينتظرونه فأمسك عنان فرسه ووقف وقال لهم: «كلنا عبيد مولانا صلوات الله عليه ومماليكه ولست والله أبرح من موضعي أو

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١١، ص ٣٢٧، المقريزي: الخطط، جـ٢ ص ٢٩٠.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٥٦ والمقريزي خطط، جـ٢، ص ٢٩١٣،
Yaacov Lev. Arab history and civilization state and society V.1 P. 75.
ابن تغرى بردي: النجوم جـ٤، ص٨٧ – ٨٨.

(٣) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ٦٨.

(٤) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٤٢.

(٥) سهام أبو زيد: تاريخ الصقالبة في مصر، ص ١٦٧.

(٦) ويقع بجوار المدرسة الجمالية فيما بين درب راشد ودرب ملوخيا: المقريزي: الخطط، جـ٢.

(٧) نفسه، جـ٢، ص ٤٢.

(٨) المقريزي: الخطط، جـ٢ ص ١٤.

تنصرفوا عني ولا يلقاني أحد إلا في القصر، فانصرفوا، وأقام بعد ذلك خدما من الصقالبة الطرادين على الطريق بالنوبة لمنع الناس المجيء إلى داره ومن لقائه إلا في القصر وأمر أبا الفتوح مسعود الصقلبي صاحب الستر أن يوصل الناس بأسرهم إلى الحاكم وألا يمنع أحدا عنه(١).

وفي عصر الحاكم الذي تولى خلافة مصر وهو غلام في الحادية عشر من عمره استطاع برجوان الصقلبي أن يحمي الحاكم من مؤامرات أخته ست الملك التي كانت تود نقل الحكم إلى ابن عمها عبد الله، لكنها لم تنجح في ذلك فقد استطاع برجوان أن يحدد إقامتها حيث نقلها إلى مقرها في ألف فارس واستطاع ضبط الأمور إلى أن كبر الحاكم(٢).

ويذكر ابن تغرى بردي أنها هي التي قتلت ابن عمها بعد أن أرسلت في القبض عليه بدمشق وحمل إلى مصر وقتل فيها(٣) وضبط برجوان الأمور ونظمها إلى أن كبر الحاكم، ولذلك وجد الحاكم نفسه محاطًا بأجناس عديدة لكل منها أهداف وطموحات، ومن أجل ذلك استخدم طوائف عديدة في الجيش، فيذكر المقريزي أنه في سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م «قرئ عدة أمانات بالقصر للكتاميين من جند إفريقية والأتراك والقضاة والخدام السود والخدام الصقالبة لكل طائفة أمان» (٤).

وأكد ابن إياس على تنوع عسكر الحاكم فقال: «إن عسكر الحاكم ما بين ديلم ومصامدة وصقالبة وروم وعبيد وزنج» (٥).

وقد نجح الصقالبة في عهد الحاكم في الوصول إلى منصب الوزارة، وهو ما يدل على استحوازهم على ثقته، وعلى أنهم اعتلوا كثيرًا من الوظائف الهامة والمتنوعة في الدولة وقاموا بدور مؤثر في الأحداث.

---

(١) المقريزي: خطط، جـ٢ ص ١٤.

(٢) أبو الفداء: المختصر، جـ٢، ص ١٣١، وابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٤.

(٣) ابن تغرى بردي: النجوم، جـ٤، ص ١٨٩.

(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٨٢.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ١، ق/ ١، ص ٢١٠.

ولكن أهمهم على الإطلاق هو برجوان الذي كان له دور بارز في أحداث تلك الفترة[١]. ويقول إبن الصيرفي[٢]: «ترقت أحوال برجوان إلى أن بلغ النهاية فقصر عن الخدمة وتشاغل بلذاته وأقبل على سماع الغناء وأكثر من الطرب وكان شديد المحبة في الغناء. ثم ما لبث الحاكم أن غضب عليه وقتله.

وان برجوان الصقلبي محبوبًا من الرعية، ومما يدل على ذلك أنه لما قتل ثار الناس ولبسوا السلاح وأحاطوا بالقصر فخرج إليهم الحاكم وأسكن الفتنة[٣].

وذكرت المصادر[٤] أنه قد خلف الكثير من الأثاث والثياب منها ألف سروال ديبقي[٥] بألف تكة من حرير[٦] كما ضم ميراثه كم كبير من الكتب إلى جانب ثلاثين

---

(١) Yaacov Lev. Arab history and civilization: state and society V.1 P.75
وأنظر: سهام أبو زيد: تاريخ الصقالبة، ص ١٧٤

(٢) ابن الصيرفي: الإشارة إلى من نال الوزارة، ص ٥٧، ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ٧٤، أنظر أيضًا: أبو الفدا: المختصر جـ٢، ص ١٣١، ابن أيبك كنز الدرر، جـ٦، ص ٢٦٥، المقريزي اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٢٥.

(٣) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ١٧٥.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١١، ص ٣٢٧، والمقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٣ - ٤.

(٥) سروال معناها «الثوب»، ومما يؤكد ذلك أن تركة برجوان ذكرت في مخطوط أخبار الدول المنقطعة لجمال الدين علي بن ظافر لوحة ٥٤ فذكر أنها «اشتملت على ألف حجرة جديدة ماليست وفي كل حجرة تكة جديدة قيمتها وحدها ثلاثة دنانير» وكلمة «حجرة» جاء تعريفها في لسان العرب على النحو التالي: الحجر: بالفتح والكسر للحاء: الثور .. وحجر الإنسان وحجر الإنسان وحجره ما بين يديه من ثوب: راجع مادة حجر. أما «ديبقي» فهي نسبة إلى «ديبق»، وهي بلدة تقع بين الفرما ونيس من أعمال مصر تنسب إليها الثياب الديبقية (ياقوت: معجم البلدان، جـ٢، ص ٣٤، وقد عرفها المقريزي بأنها من قرى دمياط ينسب إليها الثياب المثقلة والعمام الشرب وقال والديبقي العلم المذهب: أنظر: الخطط، جـ١، ص ٤٢٢.

(٦) كلمة «تكة» أو يسميها العامة رباط السراويل، أنظر: Dozy Vetments chez les Arabes . P99, 203. كما يطلق عليها اسم» «تكة» Tekka، وكانت تستخدم كرباط مثبت للسراول على الجسم، أنظر: المقريزي: السلوك، جـ١، ص ٤٤، ل.أ.ماير، الملابس المملوكية (الفصل الخاص بملابس النساء)، ترجمة صالح الشيتي، ص ١٢٤: ١٢٥، وذكره ابن إياس أنها من الحرير الأحمر المزين باللؤلؤ وحبات المسك: ابن إياس: بدائع الزهور، جـ١، ص ٩١.

ألف دينار نقدًا مع العديد من الإسطبلات[1].

كما اشتهر يانس الصقلبي الذي كان أحد خدام العزيز (وكان يتولى الإشراف على القصور) ، فلما توفي العزيز أقره الحاكم بأمر الله على ولايته تلك، وقُلد بسيف ودُفع إليه رمح وحمل على فرس بمركب ذهب ثقيل وحمل إليه خمسة آلاف دينار وعدة من الخيل والثياب ومائة غلام وسار لولاية برقة[2].

وإليه تنسب طائفة العسكر اليانسية، وكانت هناك حارة للصقالبة تنسب إليه تسمى «حارة اليانسية»[3].

واشتهر أيضًا شخص يدعى خود الصقلبي وقلّد بسيف وحمل وقيد بين يديه فرس وحمل إليه ثياب وقلد الشرطة السفلى[4].

وكان ميسور الصقلبي من مشاهير الصقالبة في ذلك العصر حيث ولي ولاية طرابلس وجعل فائق الخادم الصقلبي على الأسطول[5].

كما كان للحاكم خادم يُعرف بريدان[6] الصقلبي فقر به منه وكان قد أطلعه على ما يكنه لبرجوان فقام بالإيعاز للحاكم ضده وتآمرا على قتل برجوان[7] وإليه تنسب الريدانية «التي بظاهر القاهرة خارج باب النصر» [8]، وقتله الحاكم ٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م[9].

---

(١) Yaacov Lev. Arab hisroty and civilization: state and society VP.75.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ١٧.

(٣) نفسه، ص ١٧.

(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ١٧.

(٥) نفسه، ص ١٨.

(٦) ريدان، إن كان اسما عربياً فإنه من قولهم: ريح ريدة واردةٌ وريدانة، أي لينة الهبوب، وقيل: ريح ريدة كثيرة الهبوب، وكان ريدان الصقلبي أحد خدام العزيز بالله نزار بن المعز ويحمل المظلة على رأس الخليفة واختص بالحاكم. المقريزي: المخطط، جـ٢، ص ١٣٨.

(٧) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٥٥: ٥٦.

(٨) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ١٧٨.

(٩) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ١٣٨.

ومن الصقالبة الذين برزوا في عهد الحاكم أيضًا مسعود الصقلبي الذي كان يشغل وظيفة صاحب الستر في قصر الحاكم اشتهر أمره وذاع صيته، وجمع الشرطتين، وخلع عليه في الجامع العتيق وقرئ سجله على المنبر[١].

وفي ٣٩٠هـ / ٩٩٩م، أصدر الحاكم سجلاً قرئ على المنابر بأن يلقب القائد حسين بن جوهر الصقلبي بقائد القواد[٢].

قرب الحاكم مملوكه الصقلبي «عين» أو «غين» [٣] وهو صاحب جامع الجزيرة[٤].

فعندما مرض، ذهب الحاكم لعيادته وصرف له خمسة آلاف دينار وخمسة وعشرين فرسًا مسرجة ملجمة[٥]، ثم غضب عليه فأقصاه عن الشرطتين والحسبة[٦]، ثم قام بقطع يده ثم ندم على ذلك، ثم أمر بقطع رجله فقطعت ثم ندم، ثم قطع يده الأخرى وسمل عينيه[٧] ثم بعث إليه بآلاف من الذهب وعدة أسفاط من الثياب وأمر بمداواته، ثم أمر بقطع لسانه فقطع[٨] ثم فجأة ركب قائد القواد غين إلى القصر يحوطه موكب عظيم وخلع عليه[٩]. ونال «غين» لقب أستاذ الأستاذين وكان ذلك المصطلح يطلق على رئيس الخصيان في العصر الفاطمي، ونال مكانة عالية في

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٣٠ - ٣٦.

(٢) نفسه، ص ٣٠.

(٣) ورد اسمه عند المقريزي (اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٨٩ - ٩١) على أنه «عين»، وكذلك في ابن دقماق (الانتصار، جـ٤، ص ٤٥، وصححه د.حسن الباشا إلى «غين» استنادًا إلى وجود طبق الخزف باسم «غين «مولى الحاكم بأمر الله في بحث نشره بمجلة كلية الآداب، مجلد ١٨، جـ١ ١٩٥٦.

(٤) ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٦، ص ٢٥٩.

(٥) المقريزي: اتعاظ، جـ٢، ص ٩١.

(٦) نفسه، ص ١٠٠.

(٧) ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٦، ص ٥٩.

(٨) المقريزي: اتعاظ، جـ٢، ص ١٠٢.

(٩) نفسه، ص ١٠٣.

عهد الحاكم وكان يختص بالنظر في شئون العسكر ويشرف على تسيير العمليات العسكرية[1].

كما اعتلى نسيم الصقلبي في عهد الحاكم منصب صاحب الستر والسيف، وكان يشرف على مائة رجل كانوا يعرفون بالسعدية اختصوا بركاب السُلطان، وسموا أصحاب سيوف الحلى، وبعد ذلك عهدت له السيدة ست الملك أخت الحاكم بالخروج وضبط أبواب القصر بالخدم والصقالبة ففعل[2].

كما خُلع على الخادم الصقلبي مظفر وحمل على ثلاث بغلات وعين حاملاً للمظلة[3].

كما كان لعياد الصقلبي شأن كبير، فقد أرسله الحاكم في جماعة من الجند لتسكين الفتنة بين السودان وأهل الفسطاط ٤١٠هـ / ١٠١٩م، فلما عاد إلى الحاكم أغضبه بقوله: «لو أن بسيل ملك الروم دخل مصر لما استحسن أن يفعل فيها هذا الفعل، فأمر بقتله فقتل»[4].

ومما يدل على أن الصقالبة كانوا يتبؤون وضعًا متميزًا في عهد الحاكم أنه عندما أمر بهدم جميع الكنائس وهب جميع الكنائس بكل ما فيها من ثروات لجماعة من الصقالبة[5].

ومنذ عهد الظاهر (٤١١هـ-٤٢٧هـ / ك١٠٢٠-١٠٣٥م)، بدأ نجم هؤلاء الصقالبة في الأفول إلا أن المسبحي ذكر أن الظاهر استعان بفرقة من الصقالبة خرجت من القصر للتصدي للسودانيين الذين أثاروا الذعر ونهبوا البلاد وأحرقوها[6].

لكن البعض منهم ظل محتفظًا بنفس الوظائف التي كانت لهم على عهد أبيه

---

(١) سهام أبو زيد: تاريخ الصقالبة، ص ١٩٣ - ١٩٤.

(٢) المقريزي: اتعاظ، جـ٢، ص ١٢٧.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٢، ص ٤٧٩، المقريزي: اتعاظ، جـ٢ ص ١٢٧.

(٤) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ١٩٣.

(٥) نفسه، ص ١٩١: ١٩٢.

(٦) المسبحي: أخبار مصر، ص ٨٨ - ٩٩، أمينة الشوربجي: رؤية الرحالة، ص ٤٩٢.

الحاكم[1]. وقد أنعم الفاطميون على هؤلاء الصقالبة – نظرًا لمكانتهم لديهم – بالألقاب التي كانت تمنح في معظم الدويلات الإسلامية لأصحاب المناصب الرفيعة، ففي ٤١٥هـ / ١٠٢٤م حصل مظفر الصقلبي صاحب المظلة على لقب «بهاء الدولة» [2] كما اشتهر نسيم الصقلبي في عهد الظاهر بلقب صاحب الستر[3].

ثم تولى المستنصر بالله معد أبو تميم (٤٢٧-٤٨٧هـ / ١٠٣٥-١٠٩٤م)، وباعتلاء المستنصر عرش الخلافة، بدأ دور الصقالبة في الانحسار فلم يذكر لهم في المصادر دور ملحوظ، ولم يذكر أن اعتلى أحدهم منصبًا هامًا، لازدياد شوكة الأتراك والسودان حتى جاء عهد الحافظ عبد المجيد أبو الميمون (٥٢٤-٥٤٤هـ / ١١٣٠-١١٤٩م) فبدأ نفوذهم في الظهور، فقد ذكر ابن ميسر في أخبار مصر مدى سطوتهم على الخليفة الحافظ. وقد تمثل ذلك في ممارسة الضغوط عليه حتى يتخلص من ابنه حسن الذي تمكن من الوزارة وقام بالقبض على بعض الأمراء، وهو ما أثار حفيظة الصقالبة حتى أنهم طلبوا من الخليفة أن يتخلص من ابنه بتقديم السم له. وقد انصاع الخليفة لأمرهم، وأجبر ابنه على تناول السم، بل أمعن في الرضوخ لهم بأن أدخلهم عليه ليطمئنوا من أنه قد فارق الحياة وذلك تهدئة وتسكينًا للفتنة[4].

ثم ينحسر دور الصقالبة في مصر إلى نهاية عهد العاضد وسقوط الدولة الفاطمية، فلا تشير المصادر إلى دور واضح لهم في تلك الفترة حيث ظهرت سيطرة الأتراك والسودانيين على أمور الدولة.

من كل ما سبق نستطيع القول أن هؤلاء الصقالبة كانت لهم مكانة رفيعة في عصور بعض الخلفاء الفاطميين قوى فيها نفوذهم فأثروا في مجريات السياسة والحكم وأوجدوا لأنفسهم مكانًا بارزًا بين العناصر الأخرى التي استخدمها الخلفاء الفاطميون في مصر.

---

(١) المسبحي: أخبار مصر ص ١٢.

(٢) نفسه، ص ١٨٠.

(٣) نفسه، ص ١٨٠.

(٤) ابن ميسر: أخبار مصر، جـ٢، ص ٧٨، وأنظر أيضًا المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ١٨.

الأتـــراك

الترك أمة قديمة رعوية تتألف من قبائل متعددة سكنت جبال الألطاي أو جبـــال الذهب في أواسط آسيا بين الصين والهند وسيبريا. وتعرف بلادهم باسم تركستان(١).

وخلاف القرون الأربعة الأولى من الهجرة، هاجرت تلك القبائل واستقرت فـــي إقليم ما وراء النهر وخراسان(٢).

وغالبًا ما كانت هجراتهم إجبارية بمعنى أن تلك القبائل كانت تتعرض لظـروف قاهرة تضطرها لهذه الهجرة، كسوء الأحوال الاقتصادية أو تغلب قبيلة على أخـــرى، وكانت تلك الهجرات إما متفرقة أو عامة تكتسح كل ما في طريقها وكانـــت تجـذبها حياة المدينة حيث الثروة والبعد عن شظف العيش، لذلك، فقد اســتمالت الحضـــارة الإسلامية تلك العناصر التي سكنت حـدودها ومـدت نظرهـا إلـى قلـب الدولـة الإسلامية(٣).

ونظر الخلفاء والحكام إلى هؤلاء الأتراك منبهرين بجمـالهم وقـوة أجســامهم ونشاطهم فاقتنوهم وانتشر التجار ملبين رغبات الأسياد وكلما تكاثروا اشتد الطلـب عليهم واعتمد عليهم الخلفاء، فسلبوا هؤلاء كل ما يملكون(٤).

ودخل الأتراك بأعداد كبيرة في قصور الخلفـاء والأغنيـاء كغلمـان وجـوار وأصبحوا يكونون فرق حرس خاصة لهم(٥).

ولم يكن لهؤلاء مدنية أو حضارة أثرت بشكل ما فـي الحضـارة الإسـلامية،

---

(١) زبيدة عطا: بلاد الترك، المقدمة: (أ)، جرجي زيدان: تاريخ التمدن، جـ٤، ص ١٥٥.

(٢) حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية، ص ١٧ – ١٨.

(٣) حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية، ص ١٧ – ١٨، محمود الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص ٢٥: ٢٦، كلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ص ٢٣٦ – ٢٣٧، حسـن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام جـ٢، ص ١٥٨.

(٤) ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص ٣٦٩، إستانلي، لينبول: سيرة القاهرة، ص ٨٠.

(٥) زبيدة عطا: بلاد الترك، ص ٣٤.

كالفرس مثلا، فهم بدو أو أشبه بالبدو كل اعتمادهم على مظهرهم وكمال أجسامهم وجمال هيئتهم(١).

وارتبط دخولهم في الإسلام بالفتوحات الإسلامية على أيام بني أمية حيث فتحت بلاد ما وراء النهر ودخل المسلمون بخارى وسمرقند وفرغانة وأشروسنة وغيرها من تركستان فاختلط الأتراك بالمسلمين، وأخذ المسلمون من أولادهم سبيا وكانوا يباعون كرقيق ويفرقون في بلاط الخلفاء، ثم دخلوا في الإسلام وتحمسوا له حتى أن بعضهم بدأوا يقاتلون أبناء عمومتهم الباقين على الوثنية(٢).

لكن البداية الفعلية لدخول الأتراك في خدمة الدولة الإسلامية تبدأ عندما أهدى حاكم بخارى إلى المأمون مجموعة من المماليك كان طولون(٣) واحدًا منهم، وكان ذلك ٢٠٠هـ / ٨١٥م(٤).

ولما فقد المعتصم ثقته بالعنصر الفارسي، وذلك لميلهم إلى المأمون الذي قربهم إليه لأن أمه فارسية، فكر المعتصم في الاعتماد على الترك، خاصة وأن أمه تركية الأصل (من السند) . ولما كان الدم التركي يجرى في عروقه، فقد كان طبيعيًا أن يميل إليهم فاستدعاهم لخدمته واستكثر منهم(٥).

---

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام، جـ١، ص ٤٤ - ٤٥.

(٢) كلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب، ص ٢٣٨، جرجي زيدان: تاريخ التمدن جـ٢، ٤، ص١٥٦.

(٣) وينحدر طولون من أسرة كانت تقيم في بخارى بتركستان وقد أعجب المأمون بطولون فعينه رئيسًا لحرسه، وبذلك وضع قدمه على أول طريق المجد لأبنائه وأحفاده وأنظر: العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص ١٢٩، أحمد شلبي: موسوعة التاريخ جـ٥، ص ٧٧.

(٤) ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص ٢٩٧، ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور ص ٣٥، والسيوطي: حسن المحاضرة جـ٢، ص ٥٩٤، وسعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ١، وأحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢٨.

(٥) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٣٥، خودابخش: الحضارة الإسلامية، ترجمة على حسن الخربوطلي، القاهرة ١٩٦٠، ص ٦٥، سيدة الكاشف: مصر في عصر الطولونيين، ص ٧، ٨، أحمد أمين: ظهر الإسلام جـ١، ص ٤.

ولما كثر عددهم بشكل أصبح يهدد بغداد، بنى لهم المعتصم عاصمة جديدة ونقلهم إليها وأصبحت مدينة سامراء أو (سر من رأى) مدينة خاصة بهم[1].

وقد ذكر ابن حوقل استخدام بني العباس للترك، فقال: «وهم مع ذلك أحسن الناس طاعة لكبرائهم وألطفهم خدمة لعظمائهم وفيما بينهم حتى دعا ذلك الخلفاء من بني العباس إلى أن استدعوا من أهل ما وراء النهر رجالاً، وكان الأتراك رجالهم لفضلهم على سائر الجيوش ودهاقينهم أمراء فيهم وجيوشهم من بين سائر الأجناس في البأس والجرأة والشجاعة والإقدام متقدمون على من سواهم ودهاقين ما وراء النهر قوادهم وحاشيتهم وخواص خدمهم للطفهم في الخدمة وحسن الطاعة والهيئة في الملبس والزي السلطاني حتى لصاروا حاشية الخلافة قديما ورجالها سالفًا ورؤساء عساكرهم كالفراعنة والأتراك الذين كانوا شحنة دار الخلافة» [2].

دخول الأتراك مصر:

أما بداية دخولهم مصر فكان في عام ٢٣٢هـ / ٨٤٦م حيث بدأ الخلفاء في تولية مصر لولاتهم من الترك والذين كانوا بدورهم – لكراهيتهم البعد عن بغداد مركز الخلافة – يرسلون إلى مصر نوابًا عنهم، وكانت مصر من نصيب باكباك التركي[3] الذي استخلف عليها أحمد بن طولون[4]. وقد كان باكباك هذا قد تزوج أم

---

(١) المسعودي: مروج الذهب، جـ٢، ص ٣٤٩، ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص ٣٧٠.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ق/ ٢، ص ٤٦٨.

(٣) كان من أكابر قواد الأتراك مع بغا ووصيف وسيما الطويل، ولما زاد نفوذهم وطالبوا بالإقطاعات قام المعز بإقطاع باكباك هذا أعمال مصر وبها يومئذ ابن المدبر. أنظر: ابن خلدون: العبر، جـ٣، ص ٢٩٥، عبد الرحمن زكي: القاهرة، ص ٢١، وستانلي لينبول: سيرة القاهرة، ص ٨٠.

(٤) هو الأمير أبو العباس أحمد بن طولون. كان عادلاً شجاعًا حسن السيرة صادق الفراسة، وكان محبًا للرعية وأهل العلم محبًا للخير وكانت له مائدة يحضرها كل يوم الخاص والعام وكان يتصدق بألف دينار كل شهر حافظًا للقرآن الكريم بني الجامع المنسوب إليه بين القاهرة ومصر وكان أبوه طولون قد ولد في سامرا عام، ٢٢٠هـ / ٨٣٥م، وقيل أن طولون تبناه ولم يكن ابنه ودخل مصر عام ٢٥٤هـ / ٨٦٨م، أنظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص ١٧٣ – ١٧٤، ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، جـ٣، ص ١ – ٤، السيوطي: حسن المحاضرة، جـ١، =

أحمد بن طولون فأرسل أحمد ليتولى حكم مصر باسمه ٢٥٤هـ / ٨٦٨م، ثم ما لبث أن قُتِل باكباك هذا وتولى أمير تركي آخر اسمه يازكوج فتزوج احمد ابنة هذا الأمير لتوطيد وتدعيم مركزه في مصر، فأقره صهره هذا على ولاية مصر وكتب إليه «تسلم من نفسك إلى نفسك»[١]، وبهذا أقام أحمد بن طولون أول دولة مستقلة عن الخلافة الإسلامية[٢]، وكما استطاع أن يكّون جيشًا يحوى عدة عناصر مختلفة وكان بارعًا في السيطرة على هذه العناصر، وجعل ضباط جيشه من الترك واستمالهم إليه وأغدق عليهم فقد مارس تجربة في بغداد علمته أن العنصر الواحد في الجيش يستبد بالأمر[٣].

لذلك، أكثر ابن طولون من شراء المماليك الديالمة، سكان بحر قزوين، حتى بلغت عدتهم أكثر من أربعة وعشرين ألف غلام بالإضافة إلى أربعين ألفًا من السود وسبعة آلاف من المرتزقة[٤].

وأكد القلقشندي ذلك فقال: «هو أول من جلب المماليك الترك إلى الديار المصرية واستخدمهم في عسكرها» [٥].

ولما كثر عدد مماليكه، اختار مكانًا يقع في أقصى الشمال الشرقي من العسكر، بين جبل يشكر وسفح المقطم (بالقرب من دار الإمارة)، وأسس مدينة القطائع، نسبة لكل طبقة فقطيعة السودان سكنها السودان، وقطيعة الروم والفراشين، فلكل طبقة

= ص٥٩٤ - ٥٩٥، وستانلي لينبول: سيرة القاهرة ص ٨١، على إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ٢٨ - ٢٩.

(١) البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص ٤٦.

(٢) البلوي: سيرة احد بن طولون، ص ٤٧ - ٤٨. وأنظر أيضًا: ابن خلدون: العبر، جـ٣، ص ٢٩٥، خودابخش: الحضارة الإسلامية، ص ٦٥، والعبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ١٢٩.

(٣) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٣٥، سيدة الكاشف: مصر في عصر الطولونيين، ص ٢٧، عبد الرحمن زكي: الجيش المصري، ص ١٤.

(٤) علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ٢٨ - ٢٩.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٢٨.

قطيعة تسمى باسمها[1].

واستمر ابن طولون أميرًا بمصر إلى أن مات بها ٢٧٠هـ / ٨٨٣م[2] و«خلف من الأموال والعين والورق كثيرًا ومن الغلمان أربعة وعشرين ألف غلام ومن الموالي سبعة آلاف رجل»[3].

وبعد دولة الطولونيين جاءت الدولة الإخشيدية، وهي تنتسب إلى عبد الله بن طغج بن جف بن يلتكين بن خور بن خاقان[4].

وسار محمد بن طغج الإخشيد على نفس سياسة ابن طولون فجعل جيشه من الأتراك والديلم وبلغت عدة ذلك الجيش بمصر والشام أربعمائة ألف جندي، وذلك بالإضافة إلى حرسه الخاص الذي بلغ عدده ثمانية آلاف مملوك[5] يحرسه في كل ليلة منهم ألف مملوك[6].

وقد كثر الأتراك في عصر الدولة الإخشيدية حتى أنهم أثاروا الفتن والاضطرابات مطالبين بأرزاقهم وهاجموا دار الوزير جعفر بن الفضل ونهبوا داره ودور حاشيته فكان ذلك سببًا في استدعاء المعز من المغرب إلى مصر[7].

الفاطميون واستخدام الأتراك:

انتقلت خدمة الكافورية الأتراك إلى الفاطميين عند إطلاق سراحهم من قبل

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ١ ق / ١، ص ١٦٢.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ١، ص ٥٨٩، ستانلي لينبول: سيرة القاهرة، ص ٨٢.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة، جـ١، ص ٥٩٤ - ٥٩٥.

(٤) وكان المعتصم قد جلب من فرغانة رجالاً اصطنعهم فكان جف من جملتهم ومات ليلة قتل المتوكل، وكان طغج أصغر أولاده فأعجب محمد هذا ولقب محمد بن طغج بالإخشيد وولاه الراضي العباسي مصر والشام ثم استقل بها إلى أن مات: ابن تغرى بردي : النجوم الزاهرة، جـ٣، ص٣٢٥ - ٣٢٦.

(٥) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٣٥.

(٦) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٤٩، سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٢.

(٧) مخطوط شرح اللمعة (مؤلف مجهول)، ص ٣.

المعز، ومع ذلك فقد دخل الأتراك في خدمة الفاطميين بشكل ملحوظ في عهد العزيز، فهو أول من استخدم جند الترك المماليك في جيش الفاطميين(١).

ويذكر المقريزي أنه «اصطنع الديلم والأتراك وقدمهم وجعلهم خاصته فتنافسوا وصار بينهم وبين كتامة تحاسد»(٢).

وبدخول الديالمة والأتراك في الجيش يبدأ تعدد الجنسيات فيه، فقد سمح لهم العزيز بالانضمام إلى فرق الجيش الأخرى وذلك بهدف كسر شوكة قبائل المغاربة لإيجاد توازن في الجيش(٣).

كما عمل العزيز على تقريبهم إليه، وكان له غلامان تركيان يثق بهما أحدهما يسمى منجوتكين والآخر بازتكين(٤)، وقد استعان بمنجوتكين هذا وولاه الشام ليستقطب الأتراك من مماليك سعد الدولة في حلب، وقد زاد عددهم في عهد العزيز عندما قبض على افتكين المغربي غلام معز الدين بن بويه(٥).

فكان قد خرج لحرب العزيز، فلما قبض عليه وجيء به إلى القاهرة عام ٣٦٨هـ / ٩٧٨م كان بصحبته حوالي أربعمائة من الأتراك والديلم فنزل الديلم مع أصحابهم في موقع حارة الديلم ونزل أفتكين أو هفتكين – كما سماه المقريزي – والأتراك بحارة عرفت بحارة الأتراك(٦) وكانت مختلطة بحارة

---

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكي: جـ٢، ص ٣٥٢، ابن الجوزي: المنتظم، جـ٧، ص ٦٠، والمقريزي: اتعاظ، جـ١، ص ١٣٤: ١٣٦، السيوطي: حسن المحاضرة، جـ١ ص ٦٠٠. وأنظر: محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي، ص ٧٢، وعطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم بمصر، ص ٦٣، محمد جمال سرور: الدولة الفاطمية، ص ١٤٧.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٢٠٦.

(٣) أنظر عبد الله جمال الدين: الدولة الفاطمية، ص ٢٠٧، أحمد حسين: موسوعة التاريخ، جـ٢، ص ٥٤٩.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم، جـ٤، ص ١١٦.

(٥) مخطوط شرح اللمعة، مجهول، ص ٤، ابن تغرى بردي: النجوم، جـ٤، ص ١١٦ – ١١٧.

(٦) وتقع تجاه الجامع الأزهر وتعرف بدرب الأتراك وكان نافذًا إلى حارة الديلم: المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٩.

الديلم[1] لأنهما «أهل دعوة واحدة إلا أن كل جنس على حده لتخالفهما في الجنسية»[2]، وهذا يدلنا على وجود أتراك وديلم سكنوا تلك الحارات قبل ورود أفتكين هذا، أي قبل سنة ٣٦٨هـ / ٩٧٨م.

وشهد عهد الحاكم بأمر الله تأثيرًا كبيرًا للأتراك، فعندما اشتدت قسوته على الناس وخافوا «كتب ما شاء الله من الأمانات للغلمان الأتراك خاصة وزمامهم» [3].

ومع ذلك، وقع الخلاف بينهم وبين المغاربة ووقعت بينهم وقعة عظيمة[4] فقد ثاروا حينما أبطل ابن عمار مرتباتهم وبالغ في محاباة المغاربة وقاموا بمحاصرة قصر الحاكم حينما علموا أن محمد بن إسماعيل الدرزي لجأ إليه وطالبوه أن يسلمه لهم فأخبرهم بنفسه أنه غير موجود في الوقت الذي ساعده فيه على الهرب إلى الشام[5].

وقوى الحاكم نفوذهم وقربهم إليه وولاهم المناصب العالية وأعطى قيادة الجيوش لأبي منصور أنوشتكين المملوك التركي المعروف بالدزبري ثم ولاه على دمشق[6].

وقد زاد عدد الأتراك في عهد المستنصر، فقد استكثرت أمه السودانية من العبيد واستكثر هو بالمقابل من الأتراك فتنافس كل منهما مع الآخر فقامت الحروب التي

---

(١) عرفت بذلك لنزول الديلم الواصلين مع هفتكين الشرابي حين قدم ومعه أولاد مولاه معز الدولة البويهي وجماعة من الديلم والأتراك عام ٣٦٨هـ فسكنوا بها فعرفت به: المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٨.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ١٠.

(٣) المقريزي: اتعاظ، جـ٢، ص ٥٥.

(٤) يحيى بن سعيد الأنطاكي: تاريخه، جـ٢، ص ٤٥٣، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، جـ٣، ص ٤٣٥.

(٥) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٢٠٦، اتعاظ، جـ٢، ص ١٢، ١٣، محمد جمال سرور: الدولة الفاطمية، ص ١٠٢.

(٦) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ٦٩.

كانت السبب في خراب مصر[1].

ويذكر ابن ميسر في حوادث ٤٦٠ / ١٠٦٧م أنه «قويت شوكة الأتراك وطمعوا في المستنصر وقل ناموسه عندهم»[2].

كما يذكر ناصر خسرو الرحالة الذي عاصرت رحلته إلى مصر زمن المستنصر أنه شاهد أثناء الاحتفال بوفاء النيل أو فتح الخليج، هؤلاء الأتراك ضمن فرق الجيش» فمن فرق الجيش المشارقة وهم ترك وعجم وعددهم عشرة آلاف»[3].

وبلغ الخلاف ذروته بين الأتراك والعبيد في وقعة كوم شريك التي انتصر فيها الأتراك على الرغم من مساعدة أم المستنصر للعبيد أبناء جلدتها، وقد كانت تمدهم بإمدادات لمساندتهم إلا أن أحد الأتراك ضبط تلك الإمدادات فجمع الأتراك وواجهوا المستنصر بذلك وعنفوه مما جعله يعاتبها في ذلك[4].

ويبدو أن السبب في كراهية أم المستنصر للأتراك هو قتلهم مولاها السابق أبا سعد التستري الذي استوزرته. وفي سنة ٤٦١هـ / ١٠٦٨م، ثاروا على ناصر الدولة بن حمدان لأنه انفرد بالأمور دونهم وحاربوه ونهبوا دوره وهزموه ففر إلى الجيزة[5]، ثم ما لبثوا في ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م أن اصطلحوا معه لما حدث من الشدائد على أن يسير لهم الغلال ثم نقض تاج الملوك شاذى الصلح واستبد بالأموال فدارت الحروب مرة أخرى بينه وبين ناصر الدولة بن حمدان فبعث إليه المستنصر العساكر فحاربوه ففر إلى الوجه البحري وزادت الشدة في ذلك الوقت[6] وضاعت هيبة الخليفة، فقد كان الحكام الحقيقيون هم الجند الترك الذين انفردوا بالعاصمة

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ، ص ٢٠٦، جرجي زيدان، جـ٤، ص ٢٠١.

(٢) ابن ميسر: أخبار مصر، جـ٢، ص ١٧ - ١٨.

(٣) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ١٠٩ - ١١٠.

(٤) ابن ميسر: المنتقي، ص ٢٤ - ٢٥.

(٥) ابن ميسر: المنتقي من أخبار مصر، ص ت٢٥، النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٢٢٧ - ٢٢٨، هند إسكندر عمون: تاريخ مصر، القاهرة ١٩١٣، ص ١٧٠ - ١٧١، ماجد: ظهور خلافة الفاطميين، ص ٣٨٤.

(٦) ابن ميسر: المنتقى، ص ٣٧ - ٣٨، ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ١، ص ٥٢٣.

ونهبوا قصور الخليفة والمجوهرات النفيسة مقابل رواتبهم التي تأخر دفعها كما نهبوا مدافن أجداد الخليفة بما فيها من التحف ثم عرجوا على خزانة الكتب فأخرجوا منها الآلاف ومنها ٢٤٠٠ مصحفًا(١).

واستبد ناصر الدولة بالحكم وصادر أملاك أم المستنصر وقبض عليها واستولى على ثروتها(٢)، وأجبرها على دفع دية لافتداء نفسها وأخرج الترك من خزائنها أربعة آلاف سرج فرقت فيهم، وأخذوا أدوات فضية من خزانتها وزنها ٣٤٠ ألف درهم(٣).

ولم يقتصر الصراع بين الأتراك على صراعهم مع العبيد بل تصارعوا مع أنفسهم ذلك الصراع الذي انتهى بقتل ناصر الدولة على يد ألدكز عام ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م، وبدأ ألدكز ويلدكوز القائدان التركيان يفرضان سيطرتهما على الخليفة فاستنجد ببدر الجمالي والي عكا فجاء ومعه جنده الأرمن وتمكن من القبض على الأتراك حتى قضى عليهم(٤).

ويبدو أنه بقضاء بدر الجمالي على قادتهم لم تقم لهم قائمة في عهدي المستعلي والآمر فقد كان الأفضل بن بدر الجمالي مسيطرًا على مقاليد الأمور هو ومن معه من الأرمن ولم يكن لهذين الخليفتين رأي فقد «كانا معه صورة بلا معنى» (٥).

ويذكر ابن الطوير أن الأتراك استعادوا بعضا من نفوذهم، فقد تمكن المملوكان هزبر وبرغش بمعونة الديالمة تولية الحافظ للخلافة(٦) وأخذ البيعة له، وتولى هزبر الوزارة كما ثار بعض أمراء الديالمة يساندهم الصبيان الحجرية وقاموا بنهب كل ما

---

(١) الذهبي: العبر في خبر من غبر، جـ٢ ص ٣١٧، إسماعيل أبو العينين: مصر الإسلامية، ص ٢٠، عبد الرحمن زكي، القاهرة، ص ٣٧.

(٢) ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ١، ص ٥٢٣.

(٣) وفاء محمد علي: نفوذ النساء في الدولة الإسلامية، ص ٩٢.

(٤) المرجع السابق.

(٥) الذهبي: العبر، جـ٢، ص ٤٠٥، الحنبلي: شذرات الذهب، جـ٤،ص ٤٧.

(٦) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص ٢٦ - ٢٧، ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص ٥٩.

وجدوه في طريقهم وأصروا على تولية الأفضل الوزارة بدلا من هزبر الملوك(١).

ويبدو أن شأنهم قد ارتفع في عهد الحافظ فيخبرنا ابن ميسر في أحداث عام ٥٤٠هـ / ١١٤٥م أن فيها «أعيد نظر الدواوين والأتراك والخزائن للقاضي الموفق أبي الكرم محمد بن معصوم التنيسي في جمادى الأولى» (٢). كما يخبرنا أيضًا في حوادث عام ٥٤٨هـ / ١١٥٣م أنه في عهد الظافر «وجد جماعة من الأتراك كان العادل قد اصطنعهم لنفسه» (٣) وقد بلغ عددهم ثلاثمائة فارس وكان لهم دور كبير في النزاع الذي أودى بحياة مصطنعهم الوزير ابن السلار ثم تقلص النفوذ التركي إلى حد كبير وذلك في أواخر أيام الدولة الفاطمية إذ تصمت المصادر عن الإشارة إليهم حتى وصول القوات النورية بقيادة شيركوه إلى مصر وذلك نهاية أيام العاضد بالله آخر خلفاء الفاطميين(٤) فطلب من نور الدين انسحابهم من مصر ولكنه أقنعه بالإبقاء عليهم أملاً في فتح بيت المقدس على أيديهم(٥).

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ١٧.

(٢) ابن ميسر: المنتقي من أخبار مصر، ص ١٣٦.

(٣) نفسه ص ١٣٦.

(٤) محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي، ص ٨٠ - ٨١.

(٥) أبو شامة: الروضتين، جـ١ ق، ٢، ص ٤٦، ابن الفرات: تاريخه، جـ٤، ص ٨٧.

الســـودان

ترتبط مصر ببلاد السودان بعلاقات أزلية قديمة، وكانت بلاد النوبة تمثل منطقة أمن للحدود المصرية الجنوبية، بل كثيرًا ما امتدت حدود مصر واتسعت لتشمل بلاد النوبة(١).

وحدد ناصر خسرو موقعها بأنها تقع جنوبي أسوان ولها ملك خاص وسـكانها سود البشرة ودينهم النصرانية ويذهب إليهـا التجـار يبيعـون الخـرز والأمشـاط والمرجان ويجلبون منها الرقيق(٢).

ويقول عنهم الجاحظ «والسودان يعدّون الزنج والحبشة وفزان وبربر والقـبط والنوبة وزغاوة ومروى»(٣). «ولون بعضهم يميل إلى الصـفاء وبعضـهم شـديد السواد»(٤).

---

(١) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ، جـ٦، ص ٦٢١. وجاء تعريف السودان بأنه الصقع الذي يجمع غرب أفريقية ووسطها إلى الجنوب من الصحراء الكبرى (دائرة المعارف، جـ١٢، ص ٣٣٤). كما أطلقوا على هذه البلاد في العصور المتأخرة قبل الميلاد «اسم كـوش» وهـو الاسـم الـذي اقتبسته الحبشة فعرفت به جنوب مصر وشرق أفريقيا وفي العصر الروماني، كان يطلـق علـى جنوب مصر وشمال السودان اسم «نوبيا» حسب الله محمد: قصة الحضارة في السودان ص ١٢، ويطلق لفظ النوبة حاليًا على المنطقة الممتدة على جانبي النهر بين أسوان والخرطوم (مصـطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص ١) كما عرف العرب السودان بأنها أرض النوبة جنوب أسوان وكانوا يطلقون اللفظة على كل السكان عمومًا بما فيهم البجة أي أن سكان السودان كلهم يطلق علـيهم نوبة واختلطوا بهم وتقربوا إليهم وامتزجوا بهم (حسب الله محمد: قصة الحضارة السودان، ص ١٨٦).

(٢) ناصر خسرو: سفر نامة، ص ٩٦.

(٣) الجاحظ: رسائل فخر السودان على البيضان، ص ٢١٦.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥، ص ٢٧٥. وإذا حصرنا تلـك السـلالات التـي سـكنت أرض السودان نجد النوبة وهي القبائل السمراء التي سكنت النيل أو تنهاسو أو (أثيوبيا) كمـا كانـت تسمى من قبل، فكان هذا الاسم يميز سكان الجنوب عن سكان مصر الأفتح لونًا (حسب الله محمد: قصة الحضارة، ص ٢٦). وقد استخدمت كلمة «السودان» في كثير من المصادر للدلالـة علـى العبيد السود عمومًا دون تحديد لمواطنهم، وأستخدمت كلمة «الزنج» للدلالة على الرقيق الأسود=

وكانت تطلق كلمة «السودان» عند العرب على كل ما ينتمي إلى الأحباش الذين كانت لهم صلات قديمة بالعرب ومن أشهرهم بلال الحبشي مؤذن الرسول ﷺ وسعيد بن جبير سيد التابعين(١).

وقد كان هؤلاء الأحباش قبل النبي ﷺ طبقة كادحة مقهورة ولكن مساواة الإسلام بين جميع الأجناس دون التفرقة بين ألوانهم أو أنواعهم أثر في نفوس هؤلاء تأثيرًا عظيمًا فقيل أن أحد الأحباش سأل النبي عن إمكانية دخوله الجنة مع المسلمين فلما طمأنه النبي ظل يبكي حتى فاضت روحه فدفنه الرسول بيده الشريفة(٢).

وقد كان هؤلاء مستضعفين في الأرض حتى رفع الإسلام من روحهم المعنوية وأدمجهم في حركة التجمع الإسلامي الجديد، فانشرحت صدورهم حيث احتضنهم هذا المجتمع واعترف بإنسانيتهم فانتشلهم من القاع ليصبحوا أحد أعضائه المؤثرين في نهضته فتسابقوا إلى اعتناق هذا الدين وتعصبوا له(٣). وكانت تتجه غالبية الحملات التي تتعرض لها مصر إلى النوبة(٤).

= سواء جلب من الحبشة أو غيرها، ولاستخدام لفظ «الحبشة» مدلول معين لأنها أكبر دول الساحل الأفريقي تجارة في الرقيق (لبيبه إبراهيم: الرقيق وتجارته، ص ٤٨).

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام، جـ١، ص ٧٢.

(٢) عبده بدوي: السود والحضارة العربية، ص ٩٨.

(٣) نفسه، ص ١٠٤، ١١٥، ١١٦.

(٤) ففي القرن السابع للميلاد، وعندما فتح المسلمون مصر، أرسل فاتحها عمرو بن العاص أخاه لأمه عقبة بن نافع الفهري على رأس جيش إلى النوبة سنة ٢٢هـ / ٦٤٢م، وكانت النوبة وقتها مركزًا لمملكة مسيحية هي مملكة دنقلة، واستبسل النوبيون في الدفاع عنها وأجبروا الجيش الإسلامي على التراجع، ثم غزاها العرب مرة أخرى سنة ٣١هـ / ٦٥١م على يد عبد الله بن سعد بن أبي السرح الذي وصل إلى عاصمتها دنقلة وحاصرها ثم تم الاتفاق بينه وبين ملك النوبة المسيحي قيلدوروث عام ٣٢هـ / ٦٥٢م على عقد اتفاقية البقط التي يتم بمقتضاها تقديم ٣٦٥ رأسًا من الرقيق في كل عام إلى بيت المال في مصر مقابل ألف إردب من الغلال وبعض البقول والأقمشة. أنظر: سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٧٧ – ٧٨، المسعودي: مروج الذهب، جـ٢، ص ١٩ – ٢٠، كما تم الاتفاق على عدم محاربة المسلمين للنوبة والعكس وأن يكون =

وكان الرقيق الذي يقدم تبعًا لاتفاقية البقط من النوبة إلى مصر يأتي عن طريق سبيه من «الممالك المجاورة للمسلمين من ممالك النوبة»(١).

وبعد القرن الثامن، زادت هجرات القبائل العربية على شمال المملكة السودانية واختلط العرب بأهل النوبة وسكنت بعض القبائل العربية هذا الجزء ومنهـا ربيعـة وجهينة وعكرمة وأصبح لهم وزن وشاركوهم في أعمال التجارة(٢).

وقد كان أكثر رقيق الدولة الإسلامية من السود بسبب اتسـاع رقعـة الدولـة الإسلامية وامتدادها إلى القاهرة السوداء(٣).

مع بداية دخول هؤلاء السـودانيين أو النـوبيين فـي جـيش مصـر، اتبـع أحمد بن طولون سنة المعتصم في تجنيـد العناصـر غيـر العربيـة فـي الجـيش ومنهـا العنصـر السـوداني(٤) فاسـتخدم النوبيـون واسـتجلب مـنهم أربعـين

= للمسلمين حرية دخول بلاد النوبة وتأمين أهل النوبة للمسجد الذي ابتناه المسلمون بدنقلة وعدم منع المسلمين من الصلاة فيه (حسب الله محمد قصة الحضارة، ص ١٦١).

(١) المسعودي: مروج الذهب، جـ٢، ص ٢١. وكان يتم تسليمه جنوب أسوان ويتم توزيعه فلأميـر مصر أربعون رأسًا في صورة هدية ويأخذ نائبه في أسوان عشرين رأسًا والقاضي خمسة رؤوس فهو يحضر الاستلام ولكل شاهد من أهل أسوان وعددهم اثنا عشر فردًا اثنا عشر رأسًا (سـوزي أباظة: السودانيون في جيش مصر، ص ١٦). وكثيرًا ما كان ملك النوبة ينتهز الظروف السياسية للخلافة فيمتنع عن أداء البقط كما حدث عند انتقال الخلافة من بني أمية إلى العباسيين فقد امتنع ملك النوبة عن إرسال البقط فأرسل إليه واليها من قبل أبي جعفر المنصور عام ١٤١هـ / ٧٥٨م يستحثه على الالتزام بما تعهد به. وكذلك في عهد المعتصم ٢١٨ - ٢٢٩هـ / ٨٣٣ - ٨٤٤م، امتنع ملك النوبة زكريا بن يحنس عن تقديم البقط وحرض ابنه على محاربة المسـلمين فأرسـل ابنه لمشاهدة بلاط الخليفة والإطلاع على قوة المسلمين ولكنه انبهر بما رأى من حضارة وجيش قوي، واستقبله المعتصم بحفاوة وحمله بالهدايا ووافق على دفع البقط كل ٣ سنوات بدلاً من كل سنة (سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٧٨).

(٢) حسب الله محمد: قصة الحضارة ص ١٨٩.

(٣) عبد العزيز عبد الدايم: الرق في مصر في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٨٣، ص ١٦.

(٤) فقد انتهز ابن طولون فرصة لجوء المعتمد العباسي إليه لتأديب والي فلسطين والأردن عيسى بن الشيخ الشيباني لخروجه عن طاعة الخلافة وعدم إرساله البيعة للخليفة واستيلائه على أموال =

ألفًا[1] وأسكنهم في مكان عرف بهم، وقد حصل عليهم بطريق الشراء وكان بعضهم من النوبة والبعض الآخر من أواسط السودان ابتاعهم من تجار الرقيق[2].

وفي ذلك، ذكر ابن إياس «أنه بالغ في مشترى العبيد الزنج حتى بلـغ عـددهم نحو أربعين ألفًا» [3].

وكان ابن طولون يحبهم حبًا شديدًا لإخلاصهم له، وقد وثق بهم غاية الثقة حتى أنه أناب أيمن الأسود عند خروجه إلى الشام ليتولى أمر ابنه العباس[4].

واعتق أحمد بن طولون جنده جميعًا عند تجنيدهم، فيذكر القلقشندي «أن الجند السوداني من عبيد الشراء أو العتقاء» [5] وقيل أنه خلف من العبيد الـزنج أربعـة وعشرين ألف عبد[6]. وانتشرت في عهده تجارة الرقيق، فقد حول دار أحمـد بـن المدبر سنة ست وخمسين ومائتين بعد أن قام بهدمها إلى سوق للرقيق[7].

وبعد زوال الدولة الطولونية وقيام الدولة الإخشيدية على يد محمد بن طغج بن جف الإخشيدي سنة ٣٢٣هـ / ٩٣٤م[8] أكثر من استخدام السودانيين فبلغت عـدة عساكره بمصر والشام. أربعمائة ألف فارس[9].

= الخلافة المرسلة عن طريق أحمد بن المدبر بل وعزمه على ضم مصر لبناء جيش قوي بموافقـة الخليفة فأدخل عدة عناصر منها العنصـر السـوداني أنظـر: البلـوى: سـيرة ابـن طولـون، ص٤٧ - ٤٩.

(١) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٣٥، مكي شبيكة: السودان عبر القرون، ص ٣٤، وأمنية الشوربجي: رؤية الرحالة، ص ٤٨٥.

(٢) مكي شبيكة: السودان عبر القرون ص ٣٤.

(٣) ابن إياس: بدائع الدهور جـ١ ق / ١، ص ١٦٢.

(٤) البلوى: سيرة ابن طولون، ص ٢٤٨.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٢، ص ٤٧٨.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ١، ص ١٦٩.

(٧) ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، بيروت ١٨٩٣، جـ٤، ص ٣٤.

(٨) ابن تغرى بردي: النجوم الزهرة، جـ٣، ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

(٩) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ١ ص ١٧٨، وفي عهد الدولة الإخشيدية، كثيرًا ما هـاجم ملـوك النوبة حدود مصر الجنوبية وامتنعوا عن دفع البقط، فيذكر الأنطاكي أنه في ٣٤٥هـ / ٩٥٦م =

واشتهر في عهده أبو المسك كافور الإخشيدي والذي جلب إلى مصر مع عبيد آخرين سودانيين وبيع لتاجر من تجار الزيت وقيل لرجل من أصحاب الضيع في مصر اسمه محمد بن هاشم ثم بيع لرجل يدعى محمود بن وهب بن عباس فاشتراه منه طغج الإخشيدي بثمانية عشر دينارًا فرباه وأعتقه(١)، وارتفعت منزلته عند الإخشيد لما كان يمتاز به من الذكاء والإخلاص(٢) فصار من كبار قواده وقيل أنه كان له العديد من الغلمان بلغ عددهم أربعة آلاف(٣)، و«له من الغلمان الروم السود ما يتجاوز الوصف»(٤).

وكانت مصر في العصر الإخشيدي من أعظم أسواق الرقيق الأسود الذي كان يصل إليها من الجنوب(٥).

ويبدو أنهم شاركوا في الحياة الاجتماعية في عهد كافور، فقد مر يومًا بحلقة سودان وكانوا يضربون على الطبل فيما يعرف بالدبدبة ويصيحون فطرب كافور

= خرج ملك النوبة حتى وصل أسوان وقام بأعمال التخريب فيها وسبي وقتل منها الكثير فأرسلت إليه العساكر من مصر برًا وبحرًا فهزمته وقتلت وسبت الكثير من النوبة وفر الباقون وتم فتح حصن من حصونهم يعرف بحصن ابريم (الأنطاكي: تاريخه، ص ٧٣٣ - ٧٧٤)، كما استثمروا النزاع القائم بين انوجور وكافور على الحكم سنة ٣٣٩هـ / ٩٥٠م، وأغار ملكهم على الواحات المصرية وقام بأعمال التدمير والحرق لكثير من المدن، كما أغار سنة ٣٤٤هـ / ٩٥٥م، على أسوان وقتل النوبيون الكثير من أهلها فتصدى لهم محمد بن عبد الله الخازن من قبل انوجور بن محمد بن طغج الإخشيدي سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٦م، ودارت بينهم المعارك على أرض أسوان نتج عنها هزيمة النوبيين وأسر الكثير منهم وطاردهم حتى حصن ابريم وسبى أهلها وعاد إلى مصر وفي صحبته مائة وخمسين أسيرًا: أنظر: سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٧٨.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١، ص ٢٦٦، ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، جـ٤، ص ١.

(٢) سيدة الكاشف: مصر في عصر الطولونيين، ص ١٦٥ - ١٦٦، أحمد أمين: ظهر الإسلام، جـ١، ص ٧٣.

(٣) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٥٦، مكي شبيكة: السودان عبر القرون، ص ٣٤، وحسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، جـ٣، ص ٤٣٥.

(٤) ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، جـ٤، ص ٦.

(٥) آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ١، ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

لذلك[1]. كما كانوا يشاركون في بعض الأعمال في الدولة الإخشيدية، فقد استخدم الكثير من السود في وادي علاقي وعيذاب في الصحراء الشرقية للعمل في المناجم والبحث عن الذهب، كما استخدم الذكور والإناث معًا للعمل في مناجم النحاس في الصحراء[2].

استخدام الفاطميين للسودان:

استخدم الفاطميون السودان أو العنصر النوبي تمشيًا مع السياسة التي اتبعها الإخشيديون من قبل. وكانت سياسة الفاطميين تقوم في تكوين جيوشهم على عدم الاقتصار على جنس واحد فإلى جانب المغاربة ادخلوا العنصر السوداني.

وانتشر الرق في المجتمع الفاطمي على نحو ما كان الحال عليه في بقية مجتمعات العصور الوسطى، وكانت للرقيق سوق رائجة تحوى أجناسًا متعددة ولكن العبيد السود كانوا أكثر هؤلاء عددًا نظرًا لازدياد الطلب عليهم[3].

فقد كانت تجارتهم واسعة وكانوا يجلبون من بلاد النوبة حيث يصطادهم أهل أسوان ويبيعونهم في أسواق النخاسة بمصر والبلدان المجاورة لها[4]. وكانت منطقة مريس النوبية هي مصدر الرقيق النوبي في العصر الفاطمي[5].

وقد اعتمد الخلفاء الفاطميون الأوائل على السودان إلى جانب المغاربة في تأليف جيوشهم[6].

وكان لكثرة النوبيين وازدياد نفوذهم في دولة الفاطميين أن صارت لهم في كل مدينة من مدن مصر حي خاص بهم لا يدخله أحد غيرهم إلا بإذنهم خوفًا واحترامًا لهم فقد كانوا دائمًا مصدر قلق واضطراب للفاطميين بل أثروا في النواحي السياسية

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ١ ص ١٧٨، سيدة الكاشف: مصر في عصر الطولونيين، ص١٣٨.
(٢) لبيبة إبراهيم: الرقيق وتجارته، ص ١١٦
(٣) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري، ص ٨٥.
(٤) بنيامين التطيلي: الرحلة، ص ١٧٠.
(٥) عبد الرازق عبد المجيد: العلاقات بين مصر والنوبة، ص ١٨٦.
(٦) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٢.

والاقتصادية والاجتماعية «ويخرج لطائفة من العبيد الأقوياء السودان الشباب ويقال لهم أرباب السلاح الصغير وهم ثلاثمائة عبد لكل واحد حربتان بأسنة مصقولة تحتها جلب فضة كل اثنتين في شرابة وثلاثمائة درقة بكوابج فضة، يتسلم ذلك»[1] وكانت القصور الفاطمية مكتظة بالكثير منهم سواء كانوا عبيدًا أو جواري قائمين بمختلف الوظائف[2].

وكانت هناك مجموعة من الأجناد السود يصل عددهم إلى خمسمائة رجل ومثلهم من الفرسان مهمتهم حراسة قصر الخليفة والمرور حول أسواره طوال الليل وكان يلقب مقدمهم «سنان الدولة» من واجباته نفخ البوق ودق الطبل والصنوج بعد صلاة العشاء وإغلاق باب القصر وتثبيت سلسلة لمنع المرور بين القصرين ثم يقوم برفعها عند نفخ البوق في الفجر[3].

وحدث في أواخر عهد الدولة الإخشيدية أن امتنعوا عن دفع البقط، فلجأ جوهر إلى إرسال أحمد بن سليم الأسواني لملك النوبة يطالبه بدفعها للدولة فخضع للأمر ودفع ما عليه كما أن جوهرًا دعاه لاعتناق الإسلام فلم يقبل، ومع ذلك فقد اتسم عهد الفاطميين بالسلام مع النوبة وأهلها[4].

كما حدث أن ثار عبد العزيز بن إبراهيم الكلابي أحد زعماء العرب في صعيد مصر ضد الفاطميين عام ٣٦١هـ / ٩٧٢م، فجهز له جوهر حملة سارت برًا ونهرًا بلغت عدد المراكب فيها أربعين مركبًا تحت قيادة قائد نوبي الأصل يدعى بشارة[5].

ولما جاء المعز إلى مصر عام ٣٦٢هـ / ٩٧٣م، وجه اهتمامًا كبيرًا للفرق النوبية حتى أصبحت هذه الفرق من أهم فرق الجيش في عهده وكان يشركهم في ركوبه في احتفالاته بعيد رأس السنة الهجرية ويختار منهم ثلاثمائة شاب من أشد

---

(١) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص ١٤٨ - ١٤٩.

(٢) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري، ص ٨٦.

(٣) عبد الرحمن زكي: الجيش المصري في العصر الإسلامي، ص ٢٨.

(٤) مكي شبيكة: السودان عبر القرون، ص ٢٣ - ٣٣.

(٥) المقريزي: إتعاظ، جـ١، ص ١٣١.

الشبان ويسلم كل منهم درقة[1] وحرابًا محلاة بالفضة فيسيرون في موكبه في نظام رائع كان يطلق عليهم اسم أرباب السلاح الصغير – ويبدو أنهم كانوا حرسه الخاص[2].

ولم يذكر لهم دور بارز في عهد الخليفة العزيز بالله الفاطمي، أما الحاكم فقد استكثر منهم حتى أن عددهم زاد بصورة واضحة واستخدمهم الحاكم للقضاء على شغب الأتراك[3]. واستكثر من عبيد الشراء[4].

وكان الحاكم يقرب السودانيين إليه ويثق بهم، ومنهم أبو الرضا سعد خادمه الأسود الذي جعله كاتبًا له ومنحه إقطاعًا ومالاً كثيرًا، وكان الناس يتوسطون لديه لقضاء حوائجهم لدى الحاكم[5].

وكان يستعين بهم في القصاص من أهل السوق الذين يخسرون الميزان يرقى الخدم منهم إلى الوظائف الإدارية لمسايرتهم له وعدم اعتراضهم على أفعاله بل ومساندته في القضاء على فتنة أهل الفسطاط[6].

وقد كان لهم دور بارز في الاضطرابات التي نتجت عن سياسة الحاكم، فعندما أمر في ٣٩٩هـ / ١٠٠٨م بهدم كنيسة مريم القنطرة بمصر كان فيها مقابر ومدافن للنصارى قام السودانيون والعبيد بفتحها ونبشوا الموتى والقوا بعظامهم «فأكلت الكلاب لحم من كان قريب العهد منهم» [7].

---

(١) الدرقة هي الدرع.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ١، ص ٤٤٦.

(٣) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، جـ٤، ص ٥٨٩، ماجد: ظهور خلافة الفاطميين، ص٣٢٧ – ٣٧٣، أمينة الشوربجي: رؤية الرحالة، القاهرة ١٩٩٤، ص ٤٨٥.

(٤) عبد الرحمن زكي: الجيش المصري، ص ٢١، ماجد: نظم دولة الفاطميين، ص ١٩٩.

(٥) المقريزي: اتعاظ، جـ٢، ص ١٠٤.

(٦) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ١٠٢.

(٧) الأنطاكي: تاريخه، جـ٢، ص ٤٩١.

من هذا، يتضح لنا مدى غلظة هؤلاء والروح العدوانية التي كانت تتسم بها شخصياتهم.

وكان للسودانيين دور كبير في حرق الفسطاط بأمر الحاكم واشتدوا على أهل هذه المدينة الذين ساءهم ادعاء الحاكم الآلوهية، وصنعوا تمثالاً على هيئة امرأة وفي يدها جريدة عليها ورقة فأخذها الحاكم سنة ٤١٠هـ / ١٠١٩م أثناء مروره وقرأها فإذا بها سب له ولأسلافه فغضب غضبًا شديدًا وأمر عبيده السودان بعد أن فرق عليهم السلاح بحرب أهلها وظلوا يقاتلون أهل الفسطاط ثلاثة أيام واشتد عسفهم بالأهالي قتلاً وحرقًا واستمات المصريون في الدفاع عنها[١].

وكانت من أهم الطوائف السودانية في عهد الحاكم الطائفة العطوفية (نسبة إلى عطوف الخادم الأسود الذي استخدمته ست الملك أخت الحاكم) [٢]. وكذلك في عهد الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١ - ٤٢٧هـ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤م) [٣].

تمكن السودانيون وزاد نفوذهم لزواجه من السودانية أمة أبي سعيد التستري اليهودي والتي أنجبت منه الخليفة المستنصر الذي مكث في الخلافة ستين عاماً وهي أطول مدة أقام بها خليفة في تاريخ الخلافة الإسلامية ٤٢٧ - ٤٨٧هـ/١٠٣٥-١٠٩٤م[٤].

وقد قربهم الظاهر ووثق بهم وولاهم المناصب الرفيعة في الدولة والتي تتطلب ثقة الخليفة فيمن يوليه تلك المناصب، فقد أنعم على أبي الفوارس معضاد الخادم الأسود والذي كان أستاذه يلقب عز الدولة وسماه «أبو الفوارس معضاد» ، وذلك في احتفال كبير أقامه له[٥] وذلك لأنه قائم بحقوق الخدمة ويرعى مصالح الناس، وقد بلغ مكانة كبيرة في عهد الظاهر حتى أنه عهد إليه بإدارة كافة أمور الدولة[٦].

---

(١) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ١٩٣، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٢، ص ٩-١٠، وابن تغرى بردي، جـ٤، النجوم الزاهرة، ص ١٨١ - ١٨٢، جمال سرور: الدولة الفاطمية، ص٩٦ - ٩٧.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٥٥.

(٣) عبد الرحمن زكي: الجيش المصري، ص ٣١، أمينة الشوربجي: رؤية الرحالة ص ٤٨٥.

(٤) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٣، سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص ٢٥١، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، جـ٤، ص ٥٨٩.

(٥) المقريزي: اتعاظ، جـ٢ ص ١٣٩ - ١٤٠. وأنظر

Yaacov Lev, Arab history and civilization (state and society) V.1 P P. 75: 76.

(٦) المسبحي: أخبار مصر، ص١٨، ٢٩، ٣٠، ٣١.

كما عهد إلى نافذ المعروف ببدر الدولة الخادم الأسود بولاية الشرطتين العليا والسفلي كما كان في عهده يميز السودانيين بمنحهم وظائف الحسبة والشرطة وكانتا من أخص المناصب في الدولة[١].

ومما يدل على زيادة نفوذ السودانيين على بقية الطوائف في تلك الفترة أن المقريزي ذكر أن «ركب القائد الأجل عز الدولة وسناها معضاد الخادم الأسود في سائر الأتراك ووجوه القواد، وشق البلد ونزل إلى الصناعة التي بالجسر بمن معه ثم خرج من هناك وعدى في سائر عساكره إلى الجيزة حتى رتب لأمير المؤمنين عساكر تكون معه مقيمة هناك لحفظه»[٢].

وهذا يوضح أن السودانيين كانت لهم في عهد الظاهر السيادة على الأتراك، فقد كان معضاد يترأس هؤلاء الأتراك[٣].

وقد قويت شوكتهم في عهد الظاهر بدرجة خطيرة حتى أنهم في ٤١٤هـ / ١٠٢٣م خرجوا في ألف رجل إلى جبل المقطم وانضم إليهم اللصوص والرعاع وقرروا الهجوم على مصر للنهب والسرقة فأصدر الخليفة أمرًا بمعاقبة هؤلاء والتصدي لهم وقتل كل من يتعرض منهم للأهالي فحاربهم الشعب وتصدى لهم بعد أن اتجهوا إلى إشعال النيران بالديار ونهبوا المساكن، وقد بعث لهم الخليفة بفرقة من الصقالبة طردتهم خارج البلاد وعاقب معضاد الدولة الكثير منهم[٤].

وفي عهد المستنصر، زاد عدد العبيد السودانيين زيادة ملحوظة حتى قيل أن عددهم بلغ خمسين ألفًا وذلك لأن أم المستنصر الجارية السوداء تعصبت لبني جنسها وأكثرت من شرائهم واستكثرت منهم وجعلتهم طائفة لها[٥]. وأكثرت من منحهم

---

(١) المسبحي: أخبار مصر، ص ١٨، ٢٩، ٣٠ ، ٣١.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ١، ص ٢٠٦.

(٣) سوزي أباظة: السودانيون في جيش مصر، ص ١٥٦.

(٤) المسبحي: أخبار مصر، امتداد الجزء، المقريزي: اتعاظ، جـ٢، ص ١٦٤ - ١٧٢، وأنظر:
Yaacov Lev Arab history and civilization: (state and society) V.1 P.76.

(٥) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٢٥، النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٢٢٦.

وعطاياهم حتى قوى نفوذهم و«صار العبد بمصر يحكم حكم الولاة»[1].

وفي ذلك ذكر ناصر خسرو أن «أركان الدولة والخدم من العبيد السود أو الروم»[2]، وقد كونوا بذلك عنصرًا هامًا من عناصر القوة في الجيش والقصر الفاطميين[3].

وقد اشتهرت أم المستنصر بذكاء شديد استخدمته في السيطرة على ابنها فتحكمت في كل شئون الدولة وقويت بها شوكة السودان وتحكموا في الخليفة[4].

وكان من العوامل التي ساعدتها على الإستئثار بالسلطة وفرض سيطرتها على الحكم خلو الساحة في تلك الفترة ٤٣٦-٤٦٢هـ / ١٠٤٥-١٠٧٠م من أحد الوزراء الأقوياء مما مكنها وجعلها تدبر أمور الدولة دون الخليفة الضعيف فكانت تلك الفترة محصورة بين وفاة الجرجرائي الوزير ذي النفوذ القوي والذي منعها من التدخل أو السيطرة على شئون الحكم وحتى ظهور ناصر الدولة ابن حمدان زعيم الأتراك الذي أوقف تدخلها في شئون الدولة[5].

وكان نصف السودانيين في ذلك العصر من الزنوج والآخر من عبيد الشراء وقد تضاعفت أعداد فرقة عبيد الشراء لاستكثار أم المستنصر منهم[6].

ومما يؤكد زيادة أعداد هؤلاء في تلك الفترة ما ذكره الرحالة ناصر خسرو، من مشاهدته لهم أثناء الاحتفال بعيد فتح الخليج فذكر أنه كان ضمن تشكيلات الجيش فرقة تسمى «عبيد الشراء» وهم عبيد مشترون قيل أنهم ثلاثون ألف رجل وفرقة

---

(١) المقريزي: اتعاظ، جـ٢، ص ٢٦٦: ٢٦٧، ماجد: نظم الفاطميين، جـ١، ص ١٩٩، وعبد المنعم سلطان: المجتمع المصري، ص ٨٦.

(٢) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ١٠٥.

(٣) مكي شبيكة: السودان عبر القرون، ص ٣٤.

(٤) حسب الله محمد: قصة الحضارة، ص ٢٣٤، ستانلي لينبول: سيرة القاهرة، ص ١٣٨.

(٥) ناريمان عبد الكريم: أحوال المرأة في العصر الفاطمي، ص ١٦٥ - ١٦٦.

(٦) عبد الرحمن زكي: الجيش المصري، ص ٣١، ماجد: ظهور خلافة الفاطميين، ص ٣٧٢.

تسمى «الأستاذون»[١] كلها خدم بيض وسود اشتروا للخدمة وهم ثلاثون ألف فارس[٢].

وظلت أم المستنصر تستكثر من شراء هؤلاء السودانيين، وكلما استكثرت منهم استكثر ابنها من الجند الأتراك فأصبح السودانيون والأتراك طائفتين كبيرتين اشتعلت بينهما المنافسة للاستئثار بالنفوذ[٣] وكانت أم المستنصر تتحين الفرص لإذكاء نار الفتنة بين السودان والأتراك وتعدهم دائمًا بالعطايا إذا حاربوا الأتراك[٤]. وقد أسهم هذا في حدوث الشدة المستنصرية التي عانى منها الرعية والخليفة معًا[٥]. لم يكن هذا بسبب قلة الفيضان أو قصور مد النيل فقط وإنما كان السبب الحقيقي هو محاربة الأجناد مع بعضهم البعض بصورة وحشية[٦].

وحينما زادت الشدة على الناس، يذكر ابن تغرى بردي[٧] أن السودانيين كانوا يخطفون النساء بالكلاليب من الأزقة ويقطعون لحومهم ويأكلونها «واجتازت امرأة بزقاق القناديل بمصر وكانت سمينة فعلقها السودان بالكلاليب وقطعوا من عجزها قطعة وقعدوا يأكلونها وغفلوا عنها فخرجت من الدار واستغاثت فجاء الوالي وكبس الدار فأخرج منها ألوفًا من القتلى وقتل السودان».

وقد ذكر المقريزي تلك الحادثة قائلاً: حدثتني بعض نسائنا الصالحات، قالت:

---

(١) الأستاذون هم المعروفون بالخدم والطواشية وكان لهم في دولتهم المكانة الجليلة ومنهم كان أرباب الوظائف الخاصة بالخليفة وأجلهم المحنكون وهم الذين يدورون عمائمهم على أحناكهم كما تفعل العرب والمغاربة وهم أقربهم إليه وأخصهم به، ابن تغرى بردي: النجوم، جـ٤، ص ٨٢، وعطية مشرفة: نظم الحكم، ص ١٠٧.

(٢) ناصر خسرو: سفر نامة، ص ١١٠.

(٣) المقريزي: الخطط جـ٢ ص ٢، جرجي زيدان: تاريخ التمدن، جـ٤، ص ٢٠١ – ٢٠٢.

(٤) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٢٤: ٢٥، النويري: نهاية الأرب، ص ٢٢٤ – ٢٢٧ والمقريزي: الخطط جـ٢ ص ٢٧٣: ٢٧٤، ابن تغرى بردي: النجوم جـ٥، ص ١٧، ١٨.

(٥) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ٢٢ – ٢٤.

(٦) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٥٨، أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية، ص ١٤٠.

(٧) ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ١٧.

كانت لنا من الجارات امرأة ترينا أفخاذها وفيها كالحفر، فكنا نسألها فتقول: أنا ممن خطفني أكلة الناس في الشدة فأخذني إنسان وكنت ذا جسم وسمن – فأدخلني إلى بيت فيه سكاكين وآثار الدماء وزفرة القتلى فأضجعني على وجهي وربط في يدي ورجلي سلبا إلى أوتاد حديد عريانة، ثم شرح من أفخاذي شرائح وأنا أستغيث ولا أحد يجيبني، ثم أضرم الفحم وشوى من لحمي وأكل أكلاً كثيرًا ثم كسر حتى وقع على جنبه لا يعرف أين هو .. فأخذت في الحركة إلى أن انحل أحد الأوتاد وأعان الله على الخلاص، وتخلصت وحللت الرباط وأخذت خرقًا من داره ولففت بها أفخاذي وزحفت إلى باب الدار وخرجت أزحف إلى أن وقعت إلى المأمن وجئت إلى بيتي وعرفتهم بموضعه فمضوا إلى الوالي فكبس عليه وضرب عنقه وأقام الدواء في أفخاذي سنة إلى أن ختم الجرح وبقي كذا حفرًا»[1].

ومما سبق نستطيع أن نتبين أنهم كانوا قساة الطبع غلاظ القلب ليست لديهم رحمة أو شفقة.

وفي نهاية عهد المستنصر، قاتل بدر الجمالي فلول السودان الذين استولوا على الصعيد[2].

وفي عهدي المستعلى والآمر سيطر الأرمن على كل أمور البلاد، أما في عهد الحافظ فيبدو أنهم كانت لهم بقية من قوتهم، فيذكر لنا ابن ميسر[3] أنه في سنة ٥٢٧هـ / ١١٣٢م «حشد جماعة من العبيد بالأعمال الشرقية فكانت حرب بينهم وبين العسكرية».

وقد ذكرت لنا بعض المصادر[4] أنه تم قتل الوزير رضوان بن ولخشي على يد مقدمي السودان وقبضوا ثمن قتله من الحافظ، وكان ذلك سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م، كما قتلوا معه أخاه ودخلا برأسيهما إلى الحافظ.

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ١، ص ٣٣٧.

(٢) ابن الصيرفي: الإشارة إلى من نال الوزارة، ص ٩٦، ابن ميسر: المنتقى، ص ٤١.

(٣) ابن ميسر: المنتقى، ص ١١٨.

(٤) المقريزي: اتعاظ، جـ٣، ص ١٨٤، وأنظر ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر ص ١٣٨.

وفي سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م، تطاحنت الفرقتان الجيوشية - والتي يبدو أنها كانت أرمنية تابعة لأمير الجيوش بدر الجمالي والطائفة السودانية الريحانية وقد قتل فيها العديد وانهزمت الريحانية وانسحبت إلى الجيزة[١].

كما يذكر ابن ميسر أنه من رابع شعبان من تلك السنة اجتمع بالهاوية جمع كبير من السودان والمفسدين فخرج إليهم الوزير ابن مصال فحاربهم وكسرهم[٢].

وفي عهد الفائز عيسى أبو الوفا القاسم (٥٤٩-٥٥٥هـ / ١١٥٤-١١٦٠م)، انضم السودان إلى جند مصر في ثورتهم على الوزير ركن الدين عباس وآزروا طلائع بن رزيك وقتلوا عباس عام ٥٤٩هـ / ١١٤٥م، كما استعانت عمة الفائز ست القصور بهؤلاء السودانيين على قتل طلائع فتربصوا له في دهليز القصر وقتل سنة ٥٥٦هـ / ١١٦٠م[٣]. وقد أمدنا المقريزي بعدد الجند في ديوان الجيش أيام الوزير بن طلائع (٥٥٦-٥٥٨هـ / ١١٦٠-١١٦٢م) إذ بلغ أربعين ألف فارس وثلاثين ألف رجل من السودان[٤].

وكان للسوادنيين دور بارز في عهد العاضد (٥٥٥ - ٥٦٧هـ / ١١٦٠-١١٧١م) حتى أنه يعتبر من أخطر أدوارهم على مدى تاريخ الدولة الفاطمية، فقد تسببوا في الإسراع بالقضاء على دولة الفاطميين وقيام الدولة الأيوبية واعتلاء السلطان صلاح الدين الأيوبي عرشها.

وقد ذكر ابن واصل[٥] نصًا هامًا لأنه يحدد عدد الجند السوداني في الجيش المصري أواخر العصر الفاطمي فقال: «ووصلنا البلاد وبها أجناد عددهم كثير وسوادهم كبير وأموالهم واسعة وكلمتهم جامعة وهم على حرب الكفر والحيلة وفي السر فيهم أنفذ من العزيمة في الجهر وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف

---

(١) نفسه.

(٢) المقريزي: اتعاظ، جـ٣، ص ١٦٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ١١، ص ٢٧٤، أبي شامة: الروضتين، جـ١، ص ٣١١ - ٣١٣.

(٤) المقريزي: الخطط، جـ١، ص ٨٦.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص ٢٦.

رجل كلهم أغتام أعجام إنهم إلا كالأنعام لا يعرفون ربًا إلا ساكن قصره ولا قبلة إلا ما يتوجهون إليه من ركنه وامتثال أمره»، ويقال أن عددهم في أيام صلاح الدين وصل إلى مائة ألف مقاتل[١].

كما يبدو أنهم ثاروا عليه لتجاهله لهم واستبعادهم من الجيش الأيوبي واستبدالهم بعناصر كردية وتركية وديلمية فحاولوا استعادة مركزهم الذي كان لهم في الجيش الفاطمي بتدبير مؤامرة لإقصائه ولكن سرعان ما كشفهم وقضى على غالبيتهم[٢] وقد كانت علاقة صلاح الدين بالجند السودانيين سيئة لمحاولتهم اقصاءه من الوزارة في عهد العاضد[٣].

وفي سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٢م، أمر صلاح الدين بقتل جميع السودان بالديار المصرية وسائر أعمالها[٤].

ولما خرج العبيد من النوبة لحصار أسوان وبها كنز الدولة[٥]، أعطى السلطان أوامره للشجاع البعلبكي بالخروج إليهم فرحلوا إلى أسوان فتبعهم ومعه كنز الدولة وقتل منهم الكثير وعاد إلى القاهرة منتصراً[٦].

وبذلك انحسر دور السودانيين، وبقيام الدولة الأيوبية، سيطرّ الأتراك على مقاليد الأمور.

---

(١) عبده بدوي: السود والحضارة، ص ١٤٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ٢، ص ٣٤٧، أبي شامة: الروضتين، جـ١، ص ٤٥٠ – ٤٥٢، وابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص ١٧٤: ١٧٧، ومخطوط فتوح النصر: محمد بهاء، جـ١، ص١٠١، ابن الفرات، جـ٤، ص ٧٨. جمال الشيال: تاريخ مصر، جـ٢، ص ٢١، ٢٢.

(٣) مكي شبيكة: السودان عبر القرون، ص ٣٤.

(٤) ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٧، ص ٥٠.

(٥) يسمى أيضًا " الكنز " فقط وهو مصري من الصعيد أقام بأسوان حين تشرد الجنود السودانيون على يد صلاح الدين بعد كشف مؤامرة مؤتمن الخلافة، وقد جمع هؤلاء الجنود وحاول إعادة الدولة الفاطمية: أنظر: المقريزي: السلوك، جـ١، ص ٥٠، حاشية ٩، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص ١٦ – ١٧.

(٦) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٥٦، أبو شامة: الروضتين جـ٢ ق١، ص ٥٣١، المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص ٥٠، مكي شبيكة: السودان عبر القرون، ص ٣٤.

الصراع بين طوائف المماليك

اتجه الفاطميون إلى تكوين جيش قوى يوطد مركزهم ويعاونهم في مد سلطانهم إلى بلاد الشرق وكان جيشهم في أول الأمر يتكون من قبائل كتامة المغربية والصقالبة ثم أضافوا إليه في مصر الأتراك والأكراد والغز والديلم والسودان وغيرهم[١].

وكان من الطبيعي أن يؤدي اختلاف أجناس تلك الطوائف إلى اشتداد التنافس فيما بينهم[٢].

فكان من أثر استبدال الخلفاء الفاطميين لمغاربة كتامة بالترك والسودان والصقالبة أن تنافست كل تلك الطوائف وقامت بينهم المنازعات التي أثرت على أمن البلاد[٣] فكانت تلك العناصر تتعاون حينًا وتتفاعل أحيانًا وتؤثر في السياسة وتنشأ عنها المؤامرات السرية أحيانًا والقتال الصريح أحيانًا أخرى وكان لها كلها أثر واضح في كل نواحي الحياة سواء الاقتصادية أو الاجتماعية[٤].

وقد تعددت الأسباب التي كانت تدفع تلك الطوائف إلى التصارع والتطاحن، فقد كان الخليفة أحيانًا يقرب طائفة ويميل إليها على حساب طائفة أخرى ثم يدفع الثمن في النهاية ضعفًا في دولته وانهيارًا حتى تتداعى وتبدأ في طور السقوط[٥].

وأمام كثرة اعدادهم، وتنوع انتماءاتهم واختلاف طموحاتهم، لجأ الخلفاء أحيانًا إلى ضربهم بعضهم ببعض لتحقيق مصلحة شخصية خاصة بهم[٦].

ومع أن هذا الصراع لم يكن يقصد المساس بالخلافة أو القضاء عليها فقد كان

---

(١) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٣٥.

(٢) عبد الله جمال الدين: الدولة الفاطمية، ص ١٨٩ - ١٩٠.

(٣) عبد الله حسين: الدولة الإسلامية، ص ٣٩٧.

(٤) أحمد أمين: ظهر الإسلام، جـ١، ص ٨٧.

(٥) عبد الله جمال الدين: الدولة الفاطمية، ص ١٩٢.

(٦) أمينة الشوربجي: رؤية الرحالة، ص ٤٩١.

القتال يدور تحت الإدعاء بالمحافظة على بقاء الخلافة والولاء لها[1].

وكان لاختلاف البيئات المتعددة لطوائف المماليك والتباين الواضح في عادات وتقاليد كل طائفة، والتي كانت تعبر عن سمات المجتمعات التي أتوا منها، أثر كبير في التنافر بينهم إلى جانب طمعهم في الوصول إلى السلطة وبذل الحيل في التقرب من الخلفاء للحصول على ميزات مادية أو معنوية أو وظائف قيادية.

كانوا يستخدمون كل ما يمكنهم من أساليب للوصول إلى غاياتهم على غرار السياسة الميكافيلية والتي ترفع شعار الغاية تبرر الوسيلة.

وقد أدى الصراع بين هذه الطوائف إلى انهيار الاقتصاد المصري وبالتالي إلى ضعف الدولة، كما أدى الصراع بين الوزراء في العصر الفاطمي الثاني إلى القضاء على الدولة وانهيارها واضمحلالها.

لذلك نستطيع القول أنه إذا كان الصراع على الحكم أمر فطري جُبل عليه الإنسان فإنه أصبح في عهد الدولة الفاطمية مرضًا سياسيًا ينهش في كيان مصر[2].

كما نستطيع القول أن غرض الدولة الفاطمية من استحداث نظام تعدد الطوائف في جيوشها كان لإحداث المنافسة بين تلك الطوائف ضمانًا لولائها، ولكن النتيجة جاءت عكسية تمامًا.

فلم يكن قصور الفيضان والغلاء والقحط وتفشي الأوبئة على مدى فترات العصر الفاطمي هو السبب الأساسي في انهيار اقتصاديات البلاد وإنما كان تناحر وتنافس طوائف الجند هو السبب الأساسي في إشاعة الفوضى وتدهور اقتصاديات الدولة الفاطمية التي أثرت العالم الإسلامي علمًا وثقافة فكانت القلاقل تنمو في فترات الاضمحلال السياسي التي كانت تتعرض لها مصر من وقت لآخر تبعًا لضعف الخليفة فيشتد الصراع بين الطوائف لمحاولة طائفة منهم الاستئثار بالحكم دون الأخرى أو

(١) محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي، ص ٨٦.

(٢) أحمد سيد محمد: الشخصية المصرية، ص ١٥٤.

السيطرة على الخليفة الضعيف مثيرة للشغب والاضطراب داخل المجتمع المصري[١].

وكان للوزراء المنتمين إلى تلك الطوائف، والذين تظاهروا بحب مصر التي أتوا إليها وتمصروا فيها وأبدوا حرصهم على ضبط أمورها (ومدحهم في ذلك شعراؤهم المنتمون إليهم) وادعوا حرصهم على وحدتها. دور كبير في سلبية المصريين في مواجهتهم «فالشخصية المصرية وئيدة الخطى في ثوراتها ما لم تمس جوهر عقائدها واصيل موروثها لأنها غير نزاعة إلى التمرد والثورات، وقد كان المتخاصمون مسلمين (أو هكذا كانوا يعرفون) فعلى من تثور مصر الإسلامية وهي تواجه خطرًا صليبيًا يطرق الأبواب ويحتاج إلى جمع الشتات ورأب الصدع»[٢].

وقد شهدت مصر خلال العصر الفاطمي الصراع الذي كان دائرًا بين تلك الطوائف، فعندما دخل جوهر الصقلي مصر عام ٣٥٨هـ / ٩٦٩م في عهد المعز فإن الطائفتين الإخشيدية (ويبدو أنها من الأتراك بقايا الإخشيد) والكافورية (ويبدو أنها من السودان بقايا كافور) أثارتا الفتن والقلاقل، فبعد أن اجتمع رأيهما على تسليم البلاد إليه دون قتال أو حرب بعد أخذ الأمان من جوهر، وبعد أن تم منحهم الأمان[٣]. عادوا عما اتفقوا عليه من مسالمة واتفقوا على المحاربة ونصبوا شخصاً يدعى نحرير شويزان سار بالعسكر إلى الجزيرة والجيزة وأرسل فرقًا إلى منية الصيادين ليمنع عساكر جوهر من العبور إلى الفسطاط، كما حاربوا بعضًا من جنود جوهر الذين وصلوا إلى منية الصيادين وانتهت المعركة بانهزام الإخشيدية وسارع نحرير شويزان إلى داره فحمل ما خف حمله وغلا ثمنه وهرب إلى الشام هو ومن بقي من الإخشيدية والكافورية[٤].

---

(١) أمينة الشوربجي: رؤية الرحالة، ص ٤٨٢، ٤٨٨، ٤٨٩.

(٢) أحمد سيد محمد: الشخصية المصرية، ص ١٥٤.

(٣) بيبرس الدوادار: مخطوط زبدة الفكرة، جـ٦، ص ٢٠٠، يحيى بن سعيد الأنطاكي: تاريخه، ص١٨٨. وأنظر: Yaacov Lev, Arab history and civilization (state and society) V.1 P.83 - 84.

(٤) يحيى بن سعيد الأنطاكي: تاريخه، ص ٨١٨: ٨١٩، ابن الوردي: تاريخه، ص ١٨٨، وأنظر: Yaccov Lev, Arab history and civilization: (state and society) V.1 P.83.

وفي اليوم التالي دخل جوهر القاهرة بمن معه من عساكر كتامة وغيرها وخطب للفاطميين بالفسطاط وسائر النواحي في نهاية شعبان من نفس السنة(١).

وكانت هذه القبائل هي التي دعمت الفاطميين في تأسيس خلافتهم في مصر والعنصر الأساسي الذي تشكل منه الجيش الفاطمي حين دخل الفاطميون مصر، ولذلك فقد تمتعوا بمراكز ممتازة في الدولة وتولوا المناصب المرموقة وعرفت بعض الحارات باسمهم(٢).

فلما استعان المعز لدين الله بالأتراك وبدأ سهم هؤلاء المغاربة في الهبوط عملوا على إثارة الاضطرابات لاستعادة مكانتهم السابقة مما تسبب في إضعافهم وكراهية المصريين لهم فضلاً عن الإختلاف المذهبي بينهم وبين المصريين وضعف جانبهم حينما هزمهم الأتراك واضطروهم للتوجه إلى الوجه البحري(٣).

واستكثر العزيز من الأتراك، فالمقريزي يقول: «فلما كان في أيام ولده العزيز بالله نزار اصطنع الديلم والأتراك وقدمهم وجعلهم خاصته فتنافسوا وصار بينهم وبين كتامة تحاسد»(٤). وأطلق على تلك الفرقة «المشارقة» وقد بلغ عددهم حوالي عشرة آلاف(٥).

وقد كان هذا من وجهة نظر المؤرخين خطيئة لأنه سيكون فيما بعد سبباً في اضطراب أمور الدولة وانحلالها فليس كل خلفاء الدولة الفاطمية كانت لديهم القوة بحيث يستطيعون السيطرة على تلك الطوائف(٦).

---

(١) الأنطاكي: تاريخه، ص ٨٢٠: ٨٢١، ابن الجوزي: المنتظم، جـ٧، ص ٤٧، ٦٠، ابن الوردي: تاريخه، ص ٤٠٨، المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ١٢، السيوطي: حسن المحاضرة، جـ١، ص ٥٩٩، علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ٢٩.

(٢) عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم، ص ١٧١.

(٣) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ١٢، محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي، ص ٧٢ - ٧٤.

(٤) المقريزي: الخطط جـ٢، ص ٢٠٦.

(٥) أمينة الشوربجي: رؤية الرحالة، ص ٤٨٣.

(٦) عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم، ص١٣، أحمد شلبي: موسوعة التاريخ، جـ٥، ص١١٤-١١٥.

وانحط نفوذ كتامة في تلك الفترة حيث قام الوزير يعقوب بن كلس بإسقاط المغاربة واستخدام المشارقة في ٣٧٠هـ / ٩٨٠م والاستكثار منهم[١] تنفيذًا لسياسة ورغبة العزيز. وقد سمح العزيز لوزيره هذا بتكوين فرقة خاصة تحمل اسمه مكونة من خمسمائة غلام كان قد وهبهم له. وحملت هذه الفرقة اسم الوزيرية نسبة إليه وكانت هذه بداية إنشاء الفرقة الخاصة التي تحمل اسم الخلفاء أو الوزراء وكانت تمثل الحراسة الخاصة لهم. وقد استزاد منهم ابن كلس حتى وصلت إلى أربعة آلاف حيث يخبرنا ابن خلكان أنه «وجد له من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام»[٢]. وقد ازداد عدد هؤلاء الأتراك والديالمه في عهد العزيز عندما قدم افتكين[٣] المغربي بعد هزيمة العزيز له وقبضه عليه فدخل إلى القاهرة سنة ٣٦٨هـ/ ٩٧٨م فجاء معه أصحابه من الديلم والأتراك وأقاموا بالحارات مع أبناء جنسهم[٤].

ثم بدأ الصراع الحقيقي بين تلك الطوائف المختلفة في عصر الحاكم بأمر الله سنة (٤٢٧-٤٨٧هـ / ١٠٢٠-١٠٣٥م)، فقد ظهر العنصر الصقلبي بقوة متمثلاً في برجوان الخادم الذي كان خادمًا على القصور الفاطمية في عهد العزيز بالله ثم دبر الأمور للحاكم بأمر الله[٥].

وقد تولى الحاكم الخلافة صغيرًا فكان عمره وقتها إحدى عشرة سنة فتفتحت عيناه على عناصر مختلفة يكتظ بها القصر من أتراك ومغاربة وصقالبة وسودانيين كان لكل منها هدف واتجاه ومذهب تتسابق كلها للوصول إلى أعلى مرتبة[٦].

---

(١) مصطفى مشرفه: نظم الحكم، ص ١٧١ - ١٧٢.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٧، ص ٣٣، وراجع عبد الله جمال الدين الدولة الفاطمية، ص ١٩٠.

(٣) ذكر المقريزي أن أسمه هفتكين. أنظر: المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ١.

(٤) المقريزي: خطط، جـ٢، ص ١.

(٥) ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٦، ص ١٤٢، ابن الوردي: تاريخه، ص ٣٣٥، وابن تغرى بردي: النجوم، جـ٤، ص ٤٨.

(٦) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ، جـ٥، ص ١١٧.

وفي الوقت الذي كان ينعم فيه برجوان في قصر اللؤلؤة في حديقة كافور بالراحة، كانت قوات البربر والأتراك تتقاتل في شوارع القاهرة حتى وصل الأمر إلى أن الحارس التركي أتى إلى الحاكم برأس القائد المغربي(١).

وكان الحاكم قد قرب ابن عمار الكتامي وولاه الوزارة فاستبد بالأمور وقدم كتامة وزاد في أعطياتهم في نفس الوقت الذي حط فيه من المشارقة، فاجتمعوا إلى برجوان حتى يخلصهم منه ووجدوا في نفسه هوى لتولي الوزارة(٢).

ولذلك، ثارت المغاربة وطلب من الحاكم تسليم الجاني ليفتدوا به ثم استقر الحال على دفع دية بلغت ألف دينار، ولكن الكتاميين رفضوا وانقضوا على الجاني فقتلوه، فغضبت المشارقة وقامت بينهما وقعة عظيمة سنة ٣٨٧هـ / ٩٧٧م، وظلت المعارك دامية ثلاثة أيام بينهما حتى ألزم الكتاميون ابن عمار إلى مشاركتهم حرب المشارقة، واشتعلت المعارك بينهم ونتج عنها انهزام المغاربة، ونهب المشارقة دار ابن عمار ودور المغاربة، ثم اختبأ ابن عمار في داره حتى قتل وعهد الحاكم إلى برجوان الصقلبي بالنظر في الأمور(٣).

ويصف ابن القلانسي تلك الحادثة وصفًا دقيقًا حيث يقول: «واجتمع الأتراك والديلم والمشارقة وعبيد الشرا بالسلاح على باب القصر وبرجوان يبكي ويقول لهم: يا عبيد مولانا احفظوا العزيز في ولده وارعوا فيه ما تقدم من حقه، وهم يبكون لبكائه، وركب الحسن بن عمار في كتامة ومن انضاف إليهم من القبائل وغيرهم وخرج إلى الصحراء وتبعوه، وتبعه وجوه البلد فصار في عدد كثير، وفتح برجوان خزائن السلاح وفرقه على الغلمان والرجال واحدقوا ومن معهم بالقصر من المشارقة والعامة بقصر الحاكم وعلى أعلاه الخدم والجواري يصرخون، وبرز منجوتكين وبازتكين وينال الطويل وخمسمائة فارس من الغلمان ووقعت الحرب بينهم وبين

---

(١) ستانلي لينبول: سيرة القاهرة، ص ١٣٤.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ١٢.

(٣) الأنطاكي: جـ٢، ص ٤٥٣، ابن الصيرفي: الإشارة، ص ٥٧، وانظر: Yaacov Lev, Arab history and civilization: state and society. V.1.P.75.

الحسن إلى وقت الظهر وحمل الغلمان عليه فانهزم وزحفت العامة إلى داره فانتهبوها وفتحوا خزائنه وتفرقوا ما فيها، والتجأ الحسن إلى بعض العامة فاستتر عندهم وتفرق جميع من كان معه وفتح برجوان باب القصر وأجلس الحاكم وأوصل إليه الناس وأخذ له البيعة مجددة على الجند فما اختلف عليه أحد وكتب الأمانات لوجوه كتامة وقواد الدولة وراسلهم بما تطيب به نفوسهم من إقامة عذرهم فيما كان منهم فحضرت الجماعة وأعطت إيمانها على السمع والطاعة»[1].

وبرغم أنه في بداية توليه الوساطة قد أمر بجمع الغلمان ونهاهم عن التعرض للمغاربة[2]. وقيل أن برجوان هو الذي وشى بابن عمار لدى الأتراك والديلم، فلما اعتلى برجوان الوزارة بدلاً منه أبعد المغاربة وقدم الغلمان الأتراك[3].

ثم توجس برجوان خيفة من كتامة وابن عمار وشعر أنهم يدبرون له فعاهد الأتراك على الطاعة والولاء في الوقت الذي دبر فيه ابن عمار لبرجوان حتى أنه رتب له جماعة في دهليزه للفتك به ولكن برجوان علم بالحيلة.

وعندما شعر الحاكم بخطورة كل من ابن عمار وبرجوان تخلص منهما، فبادر بقتل برجوان، وقد أثار قتله المصريين فثاروا وتجمعوا عند القصر فخاف الحاكم وخرج إليهم وحياهم وسلم عليهم ثم أخبرهم أنه قتل برجوان لعيب ظهر فيه، وطلب مساندتهم وبكى أمامهم فكثر ذلك عليهم فانصرفوا عنه[4] وكانت مدة ولايته للوزارة سنتين وثمانية أشهر تقريبًا[5] وكان مقتله سنة تسع وثلاثمائة[6].

كما تخلص من شيوخ كتامة الذين زاد نفوذهم وسببوا له القلاقل والفتن[7].

---

(١) ابن القلانسي: الذيل، ص ٤٨ - ٤٩ وأنظر: النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ١٧١ - ١٧٢.
(٢) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٣.
(٣) نفسه، ص ٢٠٦.
(٤) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ٧٤، النويري: نهاية، جـ٢٨، ص ١٧٥.
(٥) المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ٤.
(٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص ٢٧٠، النويري: نهاية، جـ٢٨، ص ١٧٤.
(٧) أمينة الشوربجي: رؤية الرحالة، ص ٤٨٤.

وفي بعض الأحيان، نجد أن بعض الطوائف تقف إلى جانب العامة من المصريين وتدافع عنهم وتؤازرهم ضد طائفة أخرى أو حتى ضد الخليفة نفسه كما حدث عام ٤٠٩هـ / ١٠١٨م، فقد ظهر أحد الأشخاص ويدعى حسن بن حيدرة الفرغاني الأخرم وهو فارسي نادي بتأليه الحاكم وإبطال النبوة، وكثر أتباعه فاستدعاه الحاكم وخلع عليه الخلع وركبه في موكبه ولكنه ما لبث أن قتل بعد ذلك بثمانية أيام على يد رجل من الكرخ. ثم ظهر في ٤١٠هـ / ١٠١٩م رجل يدعى حمزة اللباد أعجمي وقد أقام بمسجد خارج باب النصر ودعى أيضًا إلى تأليه الحاكم واجتمع له بعض من غلاة الشيعة وسموه هادي المستجيبين فقربه إليه الحاكم فارتفع شأنه لذلك وزاد أتباعه ودعاته[١].

ثم ظهر شاب من الأتراك المولدين يدعى أنوشتكين البخاري ويعرف بالدرزي[٢] سار على نهج حمزة اللباد وكثرت أتباعه وكان الحاكم يسانده واستمر الأمر على ذلك إلى ٤١١هـ / ١٠٢٠م حتى شكا أهل مصر إلى قاضيها وعرفوه بما يجرى من هؤلاء فبادر مسرعًا إلى المسجد فلقي هؤلاء الثلاثة، وجماعتهم وأصحابهم وأحرقوهم فغضب الحاكم وأمر بقتل من تعدى على أصحاب اللباد فقبض على جماعة منهم وقتلوهم في أوقات متعددة، واجتمع الأتراك وقصدوا دار اللباد فحاول مقاتلتهم من أعلاها فهدموها ونهبوا ما فيها وقتلوا حوالي ٤٠ رجلاً ممن كانوا معه، وفر اللباد فأخفاه الحاكم واجتمع الأتراك وطلبوا من الحاكم تسليمه لهم فوعدهم حتى ينصرفوا وعادوا في طلبه في اليوم الثاني فأخبرهم بقتله. وكان الحاكم قد تأكد أن أهل مصر هم الذين جرأوا العسكر عليه فسلط عليهم الرجال ومقدمي السودان أن «ينزلوا مصر على هيئة المناسر[٣] فيكبسون الحمامات ومنازل أهل مصر فكانوا

---

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكي: تاريخه، ص ٢٢٢ - ٢٢٣، المقريزي: اتعاظ، جـ٢، ص ١١٣ - ١١٨، المقريزي ١٤٠، الخطط جـ١، ص ٣٥٤، جـ٢، ص ٢٨٩.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن الدروز الذين أعلنوا تأليه الحاكم وعن تاريخهم ومذهبهم أنظر: عنان الحاكم بأمر الله، محمد كامل حسين: طائفة الدروز، " القاهرة، ١٩٦٢.

(٣) المنسر: المناسر: الجماعة من الخيل أو قطعة من الجيش بين المائة والمائتين لا تمر بشيء إلا =

يفعلون ذلك نهارًا. وتكرر ذلك منهم فاجتمع الناس ووقفوا للحاكم وسألوه أن يكف عنهم أيديهم فما أجابهم بجواب فتزايد بهم الضرر إلى أن بقيت الرجالة تكبس مساكنهم ويأخذون ما فيها ويعرّونهم في الطرقات ويفتحون دكاكين البزازين وغيرهم وينهبون ما فيها ويحرقون أبوابها بعد ذلك والناس يستغيثون فلا يغاثون»[1].

ومما استثار الحاكم ودعاه إلى تحريض السودان على نهب وحرق مصر أنه كان في موكبه سنة ٤١٠هـ / ١٠١٩م فوجد صورة امرأة تخيل أنها حقيقية تمد يدها إليه بالرقاع فإذا هي معمولة من قراطيس، وكان المصريون قد نقموا عليه بسبب أفعاله فدسوا إليه هذه الرقعة وفيها سب له ولأسلافه والدعاء عليه، فلما تقدم الحاكم وأخذها من يدها وعرف أنها تمثال عاد بسرعة إلى القاهرة ودخل قصره وجمع قواد العبيد وأمرهم أن يسيروا إلى مصر وفرق عليهم السلاح وعلم أهل مصر بذلك فقاتلوا دفاعًا عن أنفسهم واستمرت الحرب بين العبيد والرعية ثلاثة أيام[2].

ويقول السيوطي[3]: إن أهل مصر قاتلوا قتالاً عظيمًا، والنار تعمل في الدور والحريم، واجتمع الناس في الجوامع، ورفعوا المصاحف، وجأروا إلى الله، وما أنجلى الحال حتى احترق من مصر نحو ثلثها ونهب نحو نصفها، وسبي حريم كثير، واشترى الرجال من سبي لهم من النساء والحريم من أيدي العبيد.

ولما جاء اليوم الرابع اجتمع الأشراف والشيوخ، ولما رأى الأتراك حالهم وبكاءهم ورقوا لهم انضموا إلى جانبهم وقاتلوا معهم وكانوا قد اختلطوا بهم وحدثت بينهم وبين المصريين مصاهرة فاجتمعوا جميعًا ضد العبيد وراسل الأتراك

= أقتلعته النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٢٠٠.

(١) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ١٩٧ – ١٩٨، وأنظر: المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ١٦: ١٧.

(٢) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ١٩٣، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص ١٠، وابن تغرى بردي: النجوم، جـ٤، ص ١٨١.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة، جـ١، ص ٦٠٣.

الحاكم وعاتبوه على ما فعله ضد أهل مصر[1] الذين لم يفعلوا ما يستحقون عليه كل هذا وإن لم يكن هذا بأمره استأذنوه في الانفراد بالعبيد والقضاء عليهم وطلبوا منه معرفة السر في هذا حتى يستطيعوا الخروج بأموالهم وعائلاتهم إذا كان فيه خطورة عليهم فأجاب بأنه أراد ذلك واستحسن وقوفهم إلى جانب المصريين ومؤازرتهم وشجعهم على نصرتهم، لكنه لم يف بما وعد وكان يراسل العبيد سرًا حتى يستمروا فيما يفعلونه، فلما علم الأتراك وكتامة ذلك واجهوه بالحقيقة وإن لم يرتدع عما هو عليه هددوه بحرق القاهرة والاستعانة بالعرب وغيرهم عليه فنزل مسرعًا وركب حماره ووقف بين الصفين المتحاربين وطلب من العبيد الانصراف واعتذر لوجوه المصريين والأتراك وكتامة عما حدث وأنه برئ منه وحلف كاذبًا «فقبلوا الأرض بين يديه وشكروه وسألوه الأمان لأهل مصر فكتب لهم وقرئ الأمان على المنابر وسكنت الفتنة»[2].

مما سبق نستطيع أن نتبين انضمام الأتراك مع المصريين للقضاء على العبيد في مواجهة حاسمة لذلك العدو المشترك.

وكان الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١-٤٢٧هـ / ١٠٢٠-١٠٣٥م) [3] قد مال إلى الأتراك والمشارقة وتقلص في عهده نفوذ كتامة[4] ومن العجيب ظهور أمر السودانيين عندما تزوج الظاهر من سيدة سودانية[5].

فعادوا يقومون بدورهم المعهود أثر المجاعة التي حدثت في مصر، ونتج عنها أزمة اقتصادية شديدة اشتد فيها الغلاء وكثر الموت وانخفض ماء النيل فطلع حوالي

---

(١) ابن تغرى بردي: النجوم، جـ٤، ص ١٨١، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، جـ٣، ص ٤٣٥.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢ ص ١٠، ابن تغرى بردي: النجوم، جـ٤، ص ١٨٢، وعنان: الحاكم بأمر الله ص ١٢٠.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة، جـ١، ص ٦٠٣، جرجي زيدان: تاريخ التمدن، جـ٤، ص ٢٠١.

(٤) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ١٢، عطية مصطفى مشرفه: نظم الحكم، ص ١٧١ - ١٧٢.

(٥) ابن ميسر: المنتقى، ص ٢٥، والنويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٢٢٦، سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص ٢٥١، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، جـ٣، ص ٤٣٥.

ألف رجل منهم وانضم إليهم قطاع الطرق واللصوص وقرروا النزول إلى مصر للنهب والسرقة فما كان من الخليفة إلا أن أصدر أمرًا بمكافحة هؤلاء العبيد وقتل كل من يتعرض منهم للأهالي وقد أحدثوا اضطرابات شديدة وأشعلوا النيران وبثوا الفوضى(١).

وفي ذلك يقول المسبحي: «وفي يوم الأربعاء لسبع بقين منه تجمع العبيد ومن أنضاف إليهم من النهابة وخرجوا إلى دار حسب الله في أعلى الجبل بالمقطم في نحو ألف رجل وانضاف إليهم من ورد من الجوالة للتجريد من الضياع، وهموا بالنزول إلى بلد مصر لنهبه فنزل بدر الدولة(٢) نافذًا في قطعة من الغلمان والرجالة بالسلاح لحفظ البلد»(٣).

وجهز لهم الخليفة فرقة من الصقالبة لطردهم خارج البلد حتى تستقر الأمور. وعاقب معضاد الدولة الأسود صاحب الشرطة الكثير منهم وهدد الخليفة عرفاءهم بالعقاب الشديد(٤).

وكانوا قد تجرأوا وهاجموا قصر الخليفة عند حدوث المجاعة نتيجة لمساعدة زوجته السودانية لهم(٥).

إذن، فقد خرج الصقالبة لحرب السودان كما حاربهم قادة الشرطة من جنسهم لإيقاف الاضطراب والفتنة.

وقد تزايد الصراع بين الطوائف بصورة واضحة في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي سنه (٤٢٧-٤٧٨هـ / ١٠٣٥-١٠٩٤م)(٦) نتيجة لضعف الخليفة وصغر

---

(١) المسبحي: أخبار مصر، ص ٨٧، أمينة الشوربجي: رؤية الرحالة، ص ٤٩٢، وأيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية، ص ١٢٠، لينبول: سيرة القاهرة، ص ١٣٧.

(٢) وهو نوبي الأصل، عبد الرازق عبد المجيد: العلاقات بين مصر والنوبة، ص ٩٥، ٩٦.

(٣) المسبحي: أخبار مصر، ٨٧.

(٤) أمينة الشوربجي: رؤية الرحالة، ص ٤٩٢.

(٥) ماجد: ظهور خلافة الفاطميين، ص ٣٧٢.

(٦) المقريزي: الخطط، جـ٢ ص ٢٠٦، السيوطي: حسن المحاضرة، جـ١، ص ٦٠٤.

سنه وسيطرة أمه السودانية عليه وجلبها للعديد من أبناء جنسها[1] وضعف الإدارة وكثرة تغيير الوزراء والقضاة وعدم استقرارهم في مناصبهم مددًا كافية تجعلهم يستطيعون ممارسة سلطاتهم بصورة كاملة.

وقد ذكر المقريزي عن صراع الطوائف في عهد المستنصر قائلاً: «واستكثرت أمه من العبيد حتى يقال أنهم بلغوا نحوا من خمسين ألف أسود واستكثر هو من الأتراك وتنافس كل منهما مع الآخر فكانت الحرب التي آلت إلى خراب مصر وزوال بهجتها إلى أن قدم أمير الجيوش بدر الجمالي من عكا وقتل رجال الدولة وأقام له جندًا وعسكرًا من الأرمن فصار من حينئذ معظم الجيش الأرمن وذهبت كتامة وصاروا من جملة الرعية بعدما كانوا وجوه الدولة وأكابر أهلها»[2].

وفي عهد المستنصر، حدثت الصراعات الدامية بين الطوائف وخاصة الأتراك والسودان فذكر ابن ميسر في حوادث سنة ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م أنه «قويت شوكة الأتراكُ وطمعوا في المستنصر وقل ناموسه عندهم»[3].

وتبدأ تلك الأحداث بوفاة الوزير أبي القاسم علي بن أحمد الجرجرائي سنة ٤٣٦هـ / ١٠٤٤م وكان مسيطرًا على مقاليد الأمور فتحكمت والدة المستنصر في كل شيء بسبب صغر سن الخليفة وناصرت السودانيين فأشعلت الفتنة بين الطوائف المختلفة[4] «وكانت تلك السيدة أمة لدى أبي سعد إبراهيم بن سهل التستري كان يستخدمه الظاهر في ابتياع ما يحتاج إليه من صنوف الأمتعة وتقدم عنده فباع له جارية سوداء فتحظى بها الظاهر وأولدها ابنه المستنصر»[5].

---

(١) حسب الله محمد: قصة الحضارة، ص ٢٣٤، استانلي لينبول سيرة القاهرة ص ١٣٨.

(٢) المقريزي: الخطط جـ٢ ص ٢٠٦ - ٢٠٧. وفي ذلك، أنظر: سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص ٢٥١، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام جـ٣، ص ٤٣٥، وجرجي زيدان: تاريخ التمدن جـ٤، ص ٢٠١ - ٢٠٢، وجمال الشيال: تاريخ مصر الإسلامية ص ١٣.

(٣) ابن ميسر: أخبار مصر، ص ١٧، ١٨.

(٤) ابن ميسر: أخبار، ص ٢٤ - ٢٦، المقريزي: اتعاظ، جـ٢، ص ٢٦٥.

(٥) المقريزي: الخطط، جـ١، ص ٤٢٤، وراجع : ابن الأثير: الكامل جـ١٠ ص ٨٠ - ٨١، ابن ميسر: أخبار مصر، ص ٣ - ٤، المقريزي: اتعاظ، جـ٢، ص ١٩٥ - ٢٦٧.

احتدم صراع الطوائف منذ أن اعتلى المستنصر السلطة، ويذكر النويري في حوادث عام ٤٢٧هـ / ١٠٣٥م أن الوزير الجرجرائي جمع وجوه القبائل من الكتاميين وغيرهم من الأتراك حين وفاة الظاهر وأخبرهم بأنه على مشارف الموت فإذا حدث لهم اعتراض في تولية ابنه الأمير معد؟ فأجابه بأنهم على رأيه فيما يرى فأخذ البيعة منهم لهذا الأمير ولقب بالمستنصر وكان عمره إذ ذاك سبع سنوات، وفي اليوم التالي تجمع الكتاميون وعبيد الشراء على باب القصر مطالبين بأرزاقهم فأخبرهم الوزير أنه كان وزيرًا للظاهر وأنه سيحمل لهم كل ما في داره ليأخذوه ولكن الأتراك غضبوا لذلك وأعادوا ممتلكاته إلى مكانها ومنعوا أي شخص من الاستيلاء عليها، ثم اجتمع الأتراك والديلم شاهرين الأسلحة وجاء الكتاميون ودخل من كل طائفة عشرة أنفس إلى القصر فأخبرهم الوزير أن الخليفة سيدفع لهم أرزاقهم في مستهل شهر رمضان لكل واحد ثلث ما له فلم يرضوا بذلك وتحالف الكتاميون والأتراك على المطالبة بأرزاقهم واجتمعوا بباب القصر واعتدوا على الخليفة ورماه أحد العبيد بحربة فلم يصبه وفر الخليفة إلى القصر حتى اليوم التالي اجتمعوا ودخل من كل طائفة مائة نفر وعالج الوزير الموقف بحكمه وسكنت الفتنة(١).

وبعد وفاة الجرجرائي قدمت أم المستنصر أبا سعد التستري وجعلته على ديوانها فتحكم في الأمور وتقدم على الوزير الفلاحي(٢) وأخذ في تقريب اليهود وتوليتهم أعلى المناصب فكسب بذلك عداء المسلمين(٣).

وقد استغل الوزير الجديد وكان يهوديًا قبل أن يشهر اسلامه مكانه فاستمال الأتراك إليه وزاد أعطياتهم وقام بتحريضهم على قتل التستري فقتلوه(٤).

ويقال في قصة قتله أن عرب البحيرة من بني قرة والطلحيين لما أثاروا الفتن

---

(١) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٢١٠ - ٢١٢.

(٢) ابن ميسر: المنتقى، ص ٣، ٤.

(٣) ابن الصيرفي: الإشارة، ص ٧١ - ٧٢، المقريزي: اتعاظ، جـ٢، ص ١٩٥.

(٤) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ١٢٤، ابن ميسر: المنتقى من اخبار مصر، ص ٣،٤.

خرج إليهم الخادم عز الدولة ريحان وهزمهم وقتل منهم الكثير وزاد بذلك نفوذه فاستمال المغاربة وزاد في أرزاقهم على حساب أرزاق الأتراك فأشاع الحرب بين الطائفتين على باب زويلة ثم مرض ريحان ومات فاتهم أبو سعد بأنه سمه وقتله ثلاثة من الأتراك وقطعوا لحمه وأحرقوا جثته فتأكدت أم المستنصر أن الفلاحي وراء كل هذا وكان ذلك سنة ٤٣٩هـ / ١٠٤٧م(١).

وقد تكاتفت الطوائف كلها واتحدت لأول مرة في تاريخ الفاطميين في مصر عندما طلب الخليفة إحضار قاتليه فأقروا أنهم قتلوه جميعًا حتى لا يعاقب الخليفة طائفة بعينها فلم يتمكن الخليفة من معاقبتهم.

ويؤكد هذا الرأي ناصر خسرو إذ يقول: «فلما ارتكبوا هذا الجرم خشوا بطش السلطان فركب عشرون ألف فارس منهم وخرجوا إلى الميدان. وهكذا خرج الجيش إلى الصحراء حتى منتصف النهار فخرج إليهم خادم القصر ووقف بباب السراى وقال: إن السلطان يسأل إذا كنتم مطيعين أم لا، فصاحوا صيحة واحدة «نحن عبيد مطيعون ولكننا أذنبنا» فقال الخادم : يأمركم السلطان بأن تعودوا في الحال»(٢). وهذا يدل على مدى كراهية المسلمين لأبي سعد وعلى اتحادهم جميعًا ضده، على أن الخليفة لم يستطع معاقبتهم وتغاضى عن هذا الأمر(٣).

وغضبت أم المستنصر لما حدث ولسلبية ابنها تجاه هذه الواقعة ودبرت للفلاحي وقبضت عليه واعتقلته بخزانة البنود سنة ٤٣٩هـ / ١٠٤٧م ثم قتلته(٤).

واتجهت إلى الاستكثار من شراء العبيد بني جلدتها حتى وصل عددهم إلى خمسين ألف أسود كانوا بمثابة طائفة خاصة بها وكانت تمقت الأتراك حنقًا عليهم

(١) ابن الصيرفي: الإشارة، ص ٧١، ٧٢، ابن ميسر: المنتقى، ص ٣،٤.

(٢) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ١٤٢، ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ص ٣٧٥ - ٣٧٦.

(٣) المقريزي: اتعاظ جـ٢، ص ١٩٥.

(٤) ابن الصيرفي: الإشارة ص ٧١ - ٧٢، ابن ميسر: المنتقى ص ٣،٤، المقريزي اتعاظ، جـ٢، ص ٢٠٣، ابن تغرى بردي: النجوم جـ٥، ص ١٩.

لقتلهم مولاها أبا سعد(١).

كذلك كانت تحرض الوزراء المتعاقبين ضد الأتراك، فكانوا يتهربون من إجابتها خوفًا على الدولة(٢).

حتى أن أحدهم، وهو أبو الفرج البابلي، استطاعت استمالته واشتعلت الفتنة بين الأتراك والسودان(٣).

فإذا جاءت سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م، كانت والدة المستنصر قد استولت على كل الأمور في مصر وأصبحت العبيد حزبًا والترك حزبًا، وكان ناصر الدولة بن حمدان من أكابر القواد فجمع حوله الأتراك وكانت الوقائع المتتالية بينهم وبين العبيد(٤).

حتى إذا جاءت سنة ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م وكانت وقعة كوم شريك بين الأتراك والعبيد وكان سببها أن المستنصر كان من عادته أن يركب كل سنة إلى جب عميرة(٥) ليتنزه على هيئة أنه خارج للحج على سبيل الاستهزاء ومعه الخمر بدلاً من الماء ويسقيه للناس كما يفعل بطريق مكة وأخذ أحد الأتراك سيفه وهو مخمور واعتدى على عبيد الشراء فقتلوه فاجتمعت الأتراك وقتلوا جماعة بعد قتال شديد على كوم شريك وانهزم العبيد وكانت أم المستنصر تمدهم بالمال والسلاح فظفر أحد الأتراك بذلك وأعلم الأتراك بمساعدتها للعبيد فدخلوا على المستنصر وعاتبوه في ذلك

---

(١) ابن ميسر: المنتقى ص ٢٥، النويري: نهاية الأرب جـ٢٨، ص ٢٢٦، والمقريزي: خطط جـ١، ص ٣٣٥ - ٣٣٦، اتعاظ جـ٢ ص ٢٢٦، عطية مصطفى مشرفه نظم الحكم ص ١٧٢، عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري ص ٨٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ١٠ ص ٨١، ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ص ٣٧٥ - ٣٧٦.

(٣) ابن ميسر: أخبار مصر ص ٢٥، ٢٦، المقريزي: اتعاظ، جـ٢، ص ٢٦٧.

(٤) رزق الله منقريوس: تاريخ دول الإسلام، ص ٣٤١ - ٣٤٢.

(٥) أرض جب عميرة في بركة الحاج بظاهر القاهرة من بحريها وتسميها العامة " بركة الحاج " لنزول الحجاج بها عند مسيرهم من القاهرة إلى الحج في كل سنة ونزولهم عند العودة بها ومنها يدخلون إلى القاهرة ويطل عليها أيضًا جب يوسف ولكن الأصح أن اسمها " جب عميرة " وهو ابن تميم بن جزب التجيبي من بني القرناء نسبت هذه الأرض إليه فقيل لها أرض جب عميرة: المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٤٨٨، والمقريزي: خطط، جـ١، ص ٤٨٨، وجـ٢ ص ١٦٣.

فحلف لهم أنه لا يعلم شيئًا من هذا وعاتب والدته وأنكر ذلك بين الطائفتين وكانت هذه الواقعة بدايه لصراع مرير بينهما[1].

ويذكر السيوطي أنه في سنة ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م «حدثت فتنه عظيمة بين عبيد مصر والترك واقتتلوا وغلب العبيد على الجزيرة التي في وسط النيل بين مصر والجيزة واتصل الحرب بين الفريقين»[2].

حتى إذا جاءت سنة ٤٥٩هـ / ١٠٦٦م ازدادت شوكة الأتراك وطالبوا بزيادة أرزاقهم، وبالمقابل، ضاقت أحوال العبيد برغم ازدياد أعدادهم وخلت الخزائن من الأموال فراسلت أم المستنصر قواد العبيد واستمالتهم ووعدتهم بالعطايا إذا هم نكلوا بالأتراك فحضروا من شبرا دمنهور إلى الجيزة وخرج الأتراك لحربهم بقيادة ناصر الدولة الحسين بن حمدان فكانت وقعة شديدة بين الفريقين انهزم فيها العبيد إلى الصعيد ثم اجتمع من العبيد خمسة عشر ألفًا مما أقلق الأتراك فجاءوا للشكوى للمستنصر فأمرت أم المستنصر عبيدها بالهجوم عليهم وقتلهم فقتلوا عددًا منهم فلما علم ابن حمدان بذلك جاء مسرعًا إلى القاهرة ومعه الأتراك ووقعت بينهم وبين العبيد المقيمين بالقاهرة ومصر وقعات شديدة عدة أيام وانتصر عليهم ابن حمدان وبالغ في قتلهم حتى نقص عددهم في مصر والقاهرة نقصانًا شديدًا ثم سار إلى عبيد الإسكندرية الذين سارعوا بطلب الأمان[3].

وكان لهذه الانتصارات للأتراك على العبيد أثر كبير في ازدياد شوكتهم وتمكنهم من الأمور، حتى إذا حلت ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م طمعوا في المستنصر وطالبوه بالأموال، ولما اعتذر بأنه لم يبق عنده شيء طالبوه بإخراج ذخائره، فأخرجها لهم

(١) ابن ميسر: المنتقى ص ٢٤،٢٥، النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٥٢٤ – ٥٢٦، ابن تغرى بردي: النجوم جـ٥ ص ١٧ – ١٩، عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم ص ١٧٢.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة، جـ٢، ص ٢٨٧.

(٣) ابن ميسر: المنتقى ص ٣١– ٣٢، أبو الفدا: المختصر، جـ ٢، ص ١٨٩– ١٩٠، والنويري: نهاية، جـ٢٨، ص ٢٢٦– ٢٢٧، الذهبي: العبر، جـ ٢، ص ٣١٧، ابن الوردي تاريخه ص ٥٢٣.

وأخذوها بأبخس الأثمان. وخرج ناصر الدولة إلى الصعيد مع أتراكه لقتال من بقي هناك من العبيد لكنه انهزم وعادوا إلى الجيزة وأثاروا الشغب على المستنصر متهمينه بمعاونة العبيد سرًا، ثم خرج الأتراك مرة أخرة لقتال العبيد وانتصروا عليهم وقتلوا منهم الكثير واستفحل أمر ناصر الدولة(١).

وأدت هذه الأحداث إلى خلل اقتصاد البلاد وحدوث المجاعات التي عرفت بالشدة المستنصرية التي لم تنتج عن قصور فيضان النيل وإنما بسبب محاربة الأجناد بعضهم البعض(٢).

وفي ٤٦١هـ / ١٠٦٨م، حدث تطور سريع في علاقة ناصر الدولة بن حمدان والأتراك فقد علت منزلته وانفرد بالأمور دونهم نتيجة لانتصاره على السودانيين فشكوا ذلك إلى الوزير خطير الملك قائلين له «كلما يخرج من الخليفة مال يأخذ ناصر الدولة أكثره يفرقه على حاشيته ولا يصل لنا منه إلا القليل»(٣). ودعاهم إلى مفارقته حتى يضعف أمره فاتفقوا على حربه وإخراجه من مصر وطالبوا المستنصر بإخراجه فأرسل إليه يطلب منه الخروج ويتهدده إذا لم يستجب فخرج ونهبت دوره ودور أصحابه(٤).

وفي المساء تسلل ناصر الدولة سرًا واجتمع بالقائد تاج الملوك شاذي وقبل رجله وطلب منه أن ينصره على الوزير الدكز والوزير خطير الملك، وعلم الدكز بهذا الاتفاق واستجار بالمستنصر. وتمكن شاذي من قتل الوزير خطير الملك. وبعث شاذي إلى ابن حمدان ليحضر. وقام الدكز بتحريض المستنصر على لقائه بنفسه

---

(١) ابن ميسر: المنتقى، ص٣٢ – ٣٣؛ النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص٢٢٦ – ٢٢٧؛ والذهبي: العبر، جـ٢ ص٣١٧؛ المقريزي: اغاثة الأمة، ص٢٣ – ٢٥.

(٢) ابن ميسر: المنتقى، ص٥٨، المقريزي: إغاثة الأمة، ص٢٤ – ٢٥؛ وإسماعيل أبو العينين: مصر الإسلامية، ص٢٠.

(٣) ابن ميسر: المنتقى، ص٣٣ – ٣٤؛ وانظر النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص٢٢٧ – ٢٢٨؛ وهند اسكند عمون: تاريخ مصر، ص١٧٠ – ١٧١.

(٤) ابن ميسر: المنتقى، ص٣٣؛ النويري: نهاية، جـ٢٨، ص٢٢٧ – ٢٢٨.

فخرج إليه وتبعه العامة والجند في عدد كبير ودار القتال وكسر ناصر الدولة وانهزم وقتل الكثير من أصحابه فاضطر إلى الهرب إلى البحيرة وتزوج من أهلها وتقوى بهم.

وراسل ناصر الدولة سنة ٤٦٢هـ / ١٠٦٩م ألب أرسلان (السلطان السلجوقي) يستدعيه إلى مصر وعمل على إقامة الدعوة العباسية في مصر وإزالة خلافة الفاطميين منها[١].

وقطع خطبة المستنصر في الإسكندرية ودمياط والوجه البحري وخطب للقائم بأمر الله العباسي فاشتد الغلاء وكثر الوباء ونهب الجند منازل العوام ونتج عن ذلك أن وقع الصلح بين الأتراك وناصر الدولة سنة ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م على أن يظل مقيمًا بالوجه البحري ويحمل إليه مال قرره له المستنصر ويتولى شاذي الأمر نائبًا عنه فوافق وسير الغلال إلى مصر، ولم تمض إلا شهور قلائل حتى وقع الخلاف بينهم وبين ناصر الدولة مرة ثانية فجاء من البحيرة بعساكر كثيرة وحاصر مصر وأعملوا فيها السلب والنهب وأحرقوا الكثير من الدور الواقعة على الساحل[٢].

فلما علم المستنصر بذلك، أعلن الحرب عليه بقيادة ثلاثة من الأتراك أراد كل منهم أن تكون هزيمة ناصر الدولة على يديه فهزمهم وقطع الإمداد عن القاهرة ونهب أكثر الوجه البحري[٣] ولكنه لم يستطع تنفيذ ما دبر له لان زعماء الأتراك اتحدوا ضده خوفًا من ضياع نفوذهم فثار عليه الدكز وبلدكوش وقتلوه في منازل العز بالفسطاط[٤] وتتبعوا كل أسرة بني حمدان بمصر وتخلصوا منهم[٥].

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٨٧؛ ابن ميسر: المنتقى ص٣٥، ٣٦، ٣٩ والمقريزي: خطط، جـ١ ص٣٣٧؛ اتعاظ، جـ٢، ص٣٠٦ – ٣٠٧.

(٢) ابن ميسر: المنتقى، ص ٣٧ – ٣٨؛ النويري: نهاية الأرب، ص٢٣٠ – ٢٣١؛ الذهبي: العبر، جـ٢، ص٣١٧.

(٣) أبا الفدا: المختصر، جـ٢، ص١٨٩ – ١٩٠.

(٤) ابن الصيرفي: الإشارة، ص٩٥؛ ابن ميسر: المنتقى، ص٣٩؛ ابن الوردي – تاريخه، ص٥٢٣؛ المقريزي: اتعاظ، ج٢، ص٣٠٩.

(٥) ابن ميسر: المنتقى، ص٣٨ – ٣٩؛ محمد جمال سرور: الدولة الفاطمية، ص١٠٣ – ١٠٧.

وقد نتج عن تلك الصراعات بين الطوائف اختلال الأمور الإدارية للدولة حتى أن الخليفة اضطر إلى إبدال أربعين وزيرًا من وزارته في خلال تسع سنوات وكان الترك هم المتحكمون في الأمور[1].

وكانت تلك الأحداث مقدمة لوصول طائفة الأرمن إلى مصر بقيادة بدر الجمالي[2] ٤٤٦هـ / ١٠٧٣م.

لم يكن هناك بد من الاستعانة بقوة عسكرية خارجية تستطيع أن تسيطر على الأمور وتحمي الخلافة من حالة الفوضى التي أفقدت الخليفة سيطرته على الأمور، فقد سلبت منه هيبته ومكانته على يد تلك الطوائف التي سيطرت على أمور الدولة. واستقلت كل طائفة بمنطقة، فاستولى الأتراك على القاهرة والفسطاط، بينما اقتسم المغاربة والسودان سيطرتهم على الصعيد، وتمكن اللواتيون والملحية[3] من البحيرة والإسكندرية[4]. فبعث الخليفة إلى بدر الجمالي القائد الأرمني الذي كان متوليًا عكا فكاتبه سرًا عن طريق الوزير الفرج محمد بن جعفر المعزي، وكان وقتها متوليًا لديوان الإنشاء طالبًا منه الحضور لإصلاح ما فسد من امور البلاد، فصادفت تلك

---

(١) عبدالرحمن زكي: القاهرة، ص٣٧؛ ستانلي لينبول: سيرة القاهرة، ص١٤٠.

(٢) هو مملوك أرمني كان ملكًا لجمال الدولة بن عمار فانتسب إليه وقد بدأ حياته واليًا على دمشق سنة ٤٥٥هـ ولمعلومات أكثر عنه، أنظر: ابن الصيرفي: الإشارة، ص٩٤ – ٩٧؛ ابن القلانسي ذيل ص١٢٧ – ١٢٨، ابن الأثير الكامل جـ/ ١٠ ص٢٣٥ – ٢٣٦؛ وابن ميسر: المنتقى، ص ٢٨ – ٣٠، ٣٣، ٣٤، ٣٧، ٣٩، ٤٥؛ ابن خلكان: وفيات، جـ٢، ص٤٤٨ – ٤٤٩؛ ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٦، ص٤٣٩؛ والمقريزي: الخطط، جـ١، ص ٣٨١ – ٣٨٢؛ اتعاظ، جـ٢، ص٣١١ – ٣٢٩؛ السيوطي: حسن المحاضرة، جـ٢، ص٢٠٤؛ دائرة المعارف (مادة بدر)، جـ٣، ص٤٤٧ – ٤٤٨.

(٣) الملحية: طائفة من طوائف العسكر في أيام الخليفة المستنصر بالله يقال لها الملحية وهم الذين قاموا بالفتنة في أيام المستنصر حتى اشتد الغلاء وخربت البلاد ونهبت خزائن الخليفة وحضر بدر الجمالي لإنقاذ البلاد وقتل جماعة من الملحية وأتباعهم في الاسكندرية بعد أن حاصرها عدة أيام واستماتوا في الدفاع عنها حتى أخذها عنوة وقتل الكثير منهم المقريزي – الخطط، جـ٢، ص٣١ – ٣٢.

(٤) ابن الصيرفي: الإشارة، ص٩٥ – ٩٦؛ ايمن فؤاد: الدولة الفاطمية ص١٤٣.

الدعوة طموحاته وطلب من المستنصر الحضور برجاله ولا يبقى على أحد من عساكر مصر فوافق المستنصر على طلبه(1).

فقدم بدر من عكا في مائة مركب وعليها أصحابه من الأرمن وقد نصحه أصحابه بعدم ركوب البحر في الشتاء فلم يستمع(2)، وسار إلى دمياط فأقام فيها ثم سار إلى قليوب وراسل المستنصر بأنه لن يدخل مصر حتى يقبض على بلدكوز فقبض عليه المستنصر ودخل بدر الجمالي مصر وسير في الليل كل أمير من أمرائه إلى قائد من قواد الدولة فلما حضروا في الصباح كان كل منهم يحمل رأس أمير، وقبض على بقية الأتراك وعظم أمره وفر بلدكوز التركي إلى الشام سنة ٤٤٦هـ / ١٠٧٣ وقيل سنة ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م(3).

ثم عقد مجلسًا اجتمع فيه كثير من الناس وقتل أمير الجيوش جماعة من المصريين(4) وفي سنة ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م اجتمع بعض من عرب جهينة والجعافرة والثعالبة فخرج إليهم فهزمهم وقتل وغرّق الكثير منهم وغنم أموالهم وحملها إلى المستنصر وقاتل كنز الدولة الذي كان قد استطال في ثغر أسوان وكثر اتباعه فهزمه وقتله وانتهى أمره وقاتل أتسز الذي أقام بأرياف مصر فترة متحدًا مع بلدكوز الذي أطمعه في ديار مصر فهزمه أمير الجيوش.

وقد استكثر بدر من الأرمن(5) ليكونوا سندًا له ضد جيوش الترك والسودان

---

(١) ابن ميسر: المنتقى، ص٣٩؛ النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص٢٣٤؛ ابن الوردي تاريخه ص٢٤ – ٥٢٥، عبدالمنعم سلطان: المجتمع المصري ص٨٤ – ٨٥.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٢ ص٤٤٨.

(٣) ابن الصيرفي: الإشارة ص٩٥ – ٩٦، ابن ميسر: المنتقى ص٣٩ – ٤٠؛ النويري: نهاية الأرب جـ٢٨ ص٢٣٥، أبا الفدا: المختصر، جـ٢، ص١٩١؛ ابن الوردي: تتمة المختصر جـ١ ص٥٢٤ – ٥٢٥ والمقريزي: خطط جـ٢ ص٨٠ واستار جيان: تاريخ الأمة الأرمنية، ص١٧ – ١٨؛ وفاء محمد علي: نفوذ النساء في الدولة الإسلامية ص٩٥.

(٤) ابن أيبك: كنز الدرر جـ٦، ص ٣٩٩.

(٥) ذكر المقريزي أن حارة الحسنيين كانت سكنًا لهم وأن عددهم وصل فيها إلى سبعة آلاف نفس: المقريزي: خطط جـ ٢، ص ٣٢٠.

والمغاربة ولم يصبح لكتامة مكان فذكر المقريزي: أنهم صاروا من ملة الرعية بعد ما كانوا وجوه الدولة وأكابر أهلها[1] فقد دخل عنصر جديد أسهم في إضعاف الدولة بعد عهد بدر الجمالي الذي استطاع بقوة شخصيته أن يمنع ذلك طوال فترة عهده.

وقد ولى الأفضل بن بدر الجمالي الوزارة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م والسبب في ولايته دون الانتظار لوفاة أبيه أن غلامًا له يدعى صافيًا ويلقب بأمين الدولة طمع في الوزارة وكان مقربًا من مولاه فعندما مرض ويئس من شفائه تصور أنه من الممكن أن يحل محل مولاه في منصبه ويتولى زمام الأمور بعده وأخذ يعمل الحيل ويجمع الأموال واجتمع إليه بعض الناس فاستمالهم وكان يتصور أن الخليفة المستنصر سوف يؤثره على الأفضل ويستوزره فبعث إليه الأفضل أن يعود عما هو فيه، وذكره بما لوالده عليه من الحقوق ولكنه تمادى في غيه وعصيانه وجمع أتباعه وركب إلى باب الذهب فلم يستقبله المستنصر وركب الأفضل إلى باب العيد فاستوزره المستنصر بدلاً من أبيه[2].

وقد تمتعت البلاد في عهده بهدوء نسبي بين الطوائف المختلفة، وهذا يرجع إلى اهتمامه بتنظيم الأمور الداخلية للبلاد والإصلاحات الشاملة التي بدأها بدر الجمالي بمصر إلا من وقعات بينه وبين نزار فبعد وفاة المستنصر، أقام الأفضل أبا القاسم أحمد ولقبه بالمستعلى سنة (٤٨٧-٤٩٥/ ١٠٩٤-١١٠١م) [3] وكان أصغر أخوته، وأجبرهم على مبايعته فامتنعوا ورفض نزار مبايعته ذاكرًا أن والده كتب له بالخلافة ثم توجه إلى الإسكندرية[4].

وكان الأفضل يغار من نزار ويرد شفاعاته ويضع من قدره ولا يرفع رأسًا لأحد

---

(١) المقريزي: الخطط جـ ٢ ص ١٢.

(٢) ابن الصيرفي: الإشارة ص ٩٧: ٩٩، ابن القلانسي: ذيل ص ١٢٧ - ١٢٨ وأبو الفدا: المختصر جـ ٢، ص ٢٠٥ والذهبي: العبر، جـ ٢ ص ٣٥٧ وابن الوردي: تتمة المختصر، جـ ٢ ص ١٤، الحنبلي: شذرات، جـ ٣ ص ٣٨٣ وابن تغرى بردي: النجوم جـ ٥ ص ١٤١.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة، جـ١، ص ٦٠٤.

(٤) ابن ميسر: أخبار مصر، جـ٢، ص ٣٤ - ٣٥.

من غلمانه وحواشيه بل ويحتقرهم ويقصدهم بالأذى والضرر[1].

وفي ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م، خرج الأفضل بعساكره إلى الإسكندرية لقتال نزار وافتكين التركي متوليها والذي تحالف مع نزار فخرجا إليه بعد أن جهزا جيوشهما وهزماه، فرجع القاهرة وأخذ من وقتها يتجهز للقائهم ثانية واستمال عرب البحيرة وأنفق فيهم الأموال ليتخلوا عن نزار ووعدهم بالإقطاعات وخرج إلى الإسكندرية ثانية فخرجوا إليه وكانت بينهما حروب انتهت بهزيمة نزار وفراره إلى المدينة فزحف وراءه الأفضل وحاصر المدينة ومنع عنها الإمداد وقبض على نزار وأفتكين وكل من والاه وقد طلبا من الأفضل الأمان فأمنهما، ودخل المدينة وقيل أن الأفضل بني لنزار حائطين وجعله بينهما إلى أن مات وقتل أفتكين[2].

وذكر اليافعي أن الأفضل ملك زمام الأمور في عهد المستعلى بالله ولم يكن له مع الأفضل إلا الاسم[3].

وبعد وفاة المستعلي بالله، أقام الأفضل ولده أبا علي على الخلافة سنة (٤٩٥-٥٢٤هـ / ١١٠١-١١٣٠م) وأخذ له البيعة ولقب بالآمر بأحكام الله وكان طفلاً لم يبلغ السادسة من عمره فدبر الأفضل أمور الدولة[4].

وكانت للأفضل حنكة سياسية في السيطرة على الطوائف المختلفة، فلما كثرت شكاواهم بسبب اقطاعاتهم إنها خربت وقل ارتفاعها ولا يستفيدون منها وأن الإقطاعات التي بيد الأمراء زائدة عن الارتفاع استشار الأفضل وزيره فاتك البطائحي فأشار عليه بحلّ جميع الإقطاعات التي بيد الأمراء وغيرهم ويجمع الكل ويزايد عليها فلما اعترض الأمراء على ذلك بحجة أن لهم في إقطاعاتهم أملاك وبساتين ومعاصر، قال الأفضل الأملاك لملاكها يتصرفون فيها بالبيع أو بالإيجار[5] وقد قتل الأفضل على

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ١، ص ٤١٢.

(٢) ابن ميسر: أخبار مصر، جـ٢، ص ٣٦ - ٣٧، المقريزي: اتعاظ، جـ٣، ص ١٤ - ١٥.

(٣) اليافعي: مرآة الجنان، جـ٣، ص ١٥٨.

(٤) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٢٧٤، السيوطي: حسن المحاضرة، جـ١، ص ٦٠٤.

(٥) النويري: المصدر السابق، جـ٢٨، ص ٢٧٥.

يد ثلاثة من الباطنيين بايعاز من أبي عبد الله البطايحي الذي وزر بعده ولقب بالمأمون، وكان ذلك بموافقة الآمر[1].

ويذكر ابن الجوزي رواية أخرى في مقتله وهي أن الأفضل كان قد بادر لقتل الآمر «لأن قهرمانته لم تمكنه من ذلك وأقامت له اثنين من شجعان السودان بين القصرين ووعدتهما مالاً وإقطاعًا فانتظراه ليلة عيد الفطر بين القصرين فأمسك أحدهما بعنان فرسه وطعنه الآخر بسكين مسمومة فمات ٥١٦هـ / ١١٢٢م[2].

وتوفي الآمر أيضًا سنة ٥٢٤هـ / ١١٢٩م وبعد الآمر ولي الحافظ عبد المجيد أبو الميمون (٥٢٤-٥٤٤هـ / ١١٣٠-١١٤٩م) ، وكان «الحافظ» لقبه ويظهر بوضوح دور المماليك في تولية هذا الخليفة من نص ابن الطوير فذكر أنه كان هناك وجود ونفوذ فعلي وقوى للسودانيين والديلم ويتجلى دور الصبيان الحجرية في تولية ابن الأفضل، فقد كان للآمر مملوكان أحدهما لقبه هزبر الملوك واسمه جَوَامَرْد والآخر برغش ويسمى العادل فادعيا بعد مقتل الآمر أنه قبل وفاته بأسبوع كان يقول عن نفسه المسكين المقتول بالسكين وأنه أخبرهم «بأن الجهة الفلانية حامل منه وأنه رأى رؤيا تدل على أنها ستلد ولدًا ذكرًا وهو الخليفة من بعده وأن كفالته للأمير عبد المجيد أبي الميمون وأن يكون هزبر الملوك وزيرًا وأن يكون الأمير الأجل السعيد يانس متولى الباب واسفهسلار»[3] فأخذوا له البيعة وتولى هزبر الملوك جوامرد الوزارة فاجتمع بين القصرين خمسة آلاف فارس بقيادة الأمير رضوان بن

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٣ - ٢٠٤، ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٦، ص ٤٨٥ والنويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٢٧٩، الذهبي: العبر، جـ٥، ٤٠٥، الحنبلي: شذرات الذهب، جـ٤، ص ٤٧، وحسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، جـ٤، ص ٣٠٦.

(٢) ابن الجوزي: مرآة الجنان، جـ٨ ق / ١ ص ١٠٤، ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ٢٢٢.

(٣) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص ٢٦ - ٢٧، والإسفهسلار بمثابة قائد عام للجيش وزمام كل زمام وإليه أمر الأجناد والتحدث فيهم القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٧٩، المقريزي خطط، جـ١، ص ٤٠٣.

الولخشي في نفس الوقت الذي أثار فيه الأمير برغش المعروف بالعادل حنق أبي على أحمد بن الأفضل شاهنشاه وحمله عليه لحقده لأن رفيقه تولى الوزارة دونه وساهم في ذلك الصبيان الحجرية وأمراء الديلم وغلمان أبيه وجده وثاروا شاهرين السيوف ونهبوا من باب الفتوح إلى باب زويلة ونهب ما كان في القيسارية وبها كل ممتلكات أهل القاهرة حيث كانت مخزنًا لهم وأصروا على تولية الوزارة لأبي علي بن الأفضل(١)، فما كان من الحافظ إلا أن استجاب لمطالبهم وكانوا يريدونه أن يسلم لهم هزبر الملوك فقتله وألقى رأسه لهم حتى تسكن الفتنة(٢).

وبرز دور المماليك مرة أخرى، عندما تولى أبو علي ابن الأفضل الملقب «كتيفات» إمرة الجيوش، قوى مركزه وقام باعتقال الحافظ صبيحة يوم توليته وسجنه بالقصر(٣) وأعلن الدعوة للإمام المنتظر وأبطل دعوة الإسماعيلية واستولى على ذخائر وأموال قصر الخلافة لاعتقاده أنها كانت لوالدة الأفضل واستولى الخليفة عليها بعد وفاته(٤) فاتفق صبيان الخاص على قتله فقد حكم حكمًا مطلقًا واستبد بالسلطة وحاول القضاء على المذهب الشيعي بمختلف الطرق مما آثار حفيظة الأمراء وصبيان الخاص. وعند خروجه إلى ميدان البستان الكبير للعب الكرة كعادته، وثب عليه مملوك رومي وقيل من صبيان الخاص فطعنه وألقاه عن فرسه. ولما وقع، قطع رأسه وأخذها إلى القصر(٥). وبادر صبيان الخاص هؤلاء إلى القصر

---

(١) ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢ ص ٥٩، المقريزي: الخطط، جـ٢ ص ١٧، وجمال الدين الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ٨٧: ٨٨.

(٢) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص ٢٨ - ٣٠، النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨ ص ٢٩٦، والمقريزي: الخطط، جـ٢، ص ١٧، عاطف مرقص: الأرمن وعلاقتهم بالبيزنطيين، ص ٢٤٤.

(٣) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٢٩٦، المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ١٧، جمال الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ٨٩.

(٤) الحنبلي: شذرات الذهب، جـ٤، ص ٧٨.

(٥) ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨ ق / ١، ص ١٤٧ - ١٤٩.

ومعهم الأمير يانس متولي الباب وأفرجوا عن الحافظ وأجلسوه في منصب الخلافة(١).

ولما اعتلى الحافظ الخلافة بعد مقتل أبي علي بن الأفضل، أخبره قتلته من صبيان الخاص بأن نجاته كانت بتدبير الأمير يانس فكافأه بأن خلع عليه بالوزارة(٢). وكان يانس من مماليك الأفضل أمير الجيوش وكان أهداه باديس جد عباس الوزير إلى الأفضل(٣). فاتخذ الحافظ هذا اليوم وهو يوم نجاته عيدًا اسماه «عيد النصر»(٤). وقد تسبب يانس هذا في صراع انتهى بقتل الخليفة له مسمومًا، فقد بالغ في الاستهانة بالحافظ والاستبداد بالأمور دونه حتى أنه قتل أستاذًا من خواص الخليفة الحافظ دون علمه، كما أنه قام بقتل الطائفة المعروفة بصبيان الخاص فأوقع بهم بين القصرين وقتل منهم ما يزيد على ثلثمائة فارس بما فيهم قاتل أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي فخافه الحافظ كما خاف يانس منه(٥).

بدأ كل منهما يدبر للآخر وخاصة بعد أن قبض على خواص الخليفة، ومنهم قاضي القضاة وداعي الدعاة، أبو الفخر وأبو الفتح بن قادوس، وقتلهما، فشق ذلك على الحافظ واتفق مع طبيبه على سمه فمات وكانت وزارته تسعة أشهر وأيامًا(٦).

---

(١) ابن ميسر: أخبار، جـ٢، ص ٧٥، ابن أيبك كنز: الدرر، جـ٦، ص ٥٦، والمقريزي: اتعاظ، جـ٣، ص ١٤٤، الحنبلي: شذرات، جـ٤، ص ٧٨.

(٢) ابن الطوير: نزهة المقلتين ص ٣٦، الذهبي: العبر جـ ٢ ص ٤٢٨، المقريزي: الخطط، جـ ٢ ص ١٧، جمال الشيال: مجموعة الوثائق وثيقة ٦ ص ٧١ حاشية (٢).

(٣) ابن الطوير: نزهة المقلتين ص ٣٥، ابن ميسر: أخبار مصر جـ ٢ ص ٧٥: ٧٦.

(٤) ابن الطوير: نزهة المقلتين ص ٣٤ – ٣٥، وعيد النصر وهو في السادس عشر من المحرم، عمله الحافظ لدين الله لأنه اليوم الذي ظهر فيه من محبسه ويفعل فيه ما يفعل في الأعياد من الخطبة والصلاة والزينة والتوسعة في النفقة (ابن الطوير: نزهة ص ٣٤ – ٣٥، المقريزي: الخطط، جـ ١، ص ٣٥٧، ٣٥٩، وص ٤٩٠ – ١٩١.

(٥) ابن الطوير: نزهة، ص ٣٦، مخطوط شرح اللمعة: (مجهول المؤلف)، ص ١٢، ابن ميسر: أخبار جـ ٢ ص ٧٥ – ٧٦، النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨ ص ٢٩٩.

(٦) ابن الطوير: نزهة، ص ٣٦، مخطوط شرح اللمعة: (مجهول المؤلف) ص١٢، ابن ميسر: أخبار=

وفي عهد الحافظ، قامت فتنة بين الطوائف وصفها المقريزي بأنها أول مصيبة تفقد الدولة للرجال والعساكر(١).

لقد تنبه الحافظ إلى ضرورة استبعاد الوزراء لما قاسى منهم فبعد مقتل يانس الأرمني، ظل الحافظ لا يعين وزيرًا لفترة طويلة تعدت العام، وفي ٥٢٨هـ / ١١٣٣م ولى الحافظ ابنه الأكبر سليمان ولاية العهد ولكنه ما لبث أن توفى بعد توليته بشهرين. وكان المرشح بعده لولاية العهد حسن الذي يلي سليمان، ولكن الحافظ تجاهله وعين ابنه الأصغر حيدرة فقد كان غاضبًا على حسن لأنه دائمًا ما كان يخالفه فغضب حسن لذلك وقام بإثارة الفتنة سنة ٥٢٨هـ / ١١٣٣م فقد كان يتطلع لولاية العهد ويرى أنه أحق بها «لكثرة أمواله وبلاده وحواشيه وموكبه بحيث كان له ديوان مفرد»(٢).

فحاربت الطائفة السودانية الريحانية إلى جانب حيدرة والطائفة الجيوشية الأرمنية إلى جانب حسن فاضطر الحافظ إلى تولية حسن ولاية العهد حتى تهدأ الفتنة(٣).

ثم قوى أمر حسن واستقل بالأمور دون أبيه. وكان الأمراء يحبونه فطلبوا من الحافظ توليته أمورهم ففعل، وهو ماحزّ في نفس أخيه حيدرة، فجمع كل منهما جنوده واقتتلا فقتل الكثير من جماعاتهم فلما استقر حسن في الوزارة، قبض على الكثير من الأمراء الذين ساندوا أبا علي ابن الأفضل وأقام غيرهم فخافه بقية الأمراء(٤).

وقد أمدنا ابن الطوير وابن ميسر بتفاصيل مهمة لتلك الفتنة فذكرا أن حسن

= مصر جـ ٢ ص ٧٥ - ٧٦، النويري: نهاية جـ ٢٨ ص ٢٩٩ والمقريزي: اتعاظ جـ ٣ ص ١٤٥ وجمال الشيال: الوثائق الفاطمية ص ٧١ وسهام أبو زيد: تاريخ الأرمن ص ٧٥.

(١) المقريزي: اتعاظ جـ ٣ ص ١٤٩.

(٢) ابن الطوير: نزهة ص ٣٧.

(٣) المقريزي: اتعاظ، جـ٣، ص ١٤٩.

(٤) ابن ميسر: أخبار مصر، جـ٢ ص ٧٧ - ٧٨.

بعث إلى الأمراء في نصرته على أبيه وأراد اعتقاله ليستطيع السيطرة على الأمور ووعد الناس بالخلع والأرزاق إذا ملك زمام الأمور فالتفوا حوله وبعث إلى الأمراء يستقطبهم في صفه فوشوا به عند أبيه وأطلعوه على مكاتباته لهم فأرسل له الحافظ بها قائلاً له «لا تعتقد أن معك أحدًا» مما أثار حسن على الأمراء فقتلهم ونهب ممتلكاتهم وأرسل إلى بهرام يستدعيه بالحضور بالأرمن ليتقوى بهم ضد الطوائف الأخرى وكانوا أكثر من ألفي رجل(١).

وقد التجأ إلى أبيه بعد أن ثار بقية الأمراء عليه لما فعله بإخوانهم، فأخبرهم الحافظ بمكانه خوفًا منهم فأصروا على قتله. وتجمع بين القصرين عشرة آلاف نفس من الفرسان والرجالة فبعث إليهم الخليفة يعتذر ويرفض قتل ولده ووعدهم بعدم تعرضه لهم أبدًا ووعدهم بزيادة أرزاقهم فأبوا إلا قتله أو يخلعوا الخليفة وقاموا بإحضار الأحطاب والنيران ليحرقوا القصر وتجرأوا عليه جرأة بالغة فلم يجد أمامه بدًا من قتل ابنه وبعد أن أخذ رأي طبيبه ابن قرقه(٢) أحضر له سم وأجبرته طائفة من الصقالبة على شربه فمات فبعث إلى الأمراء بخبر قتله فأصروا على إرسال مندوبين عنهم للتأكد من موته، فلما شاهدوه ميتًا سكنوا وتفرقوا وكان ذلك سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤م(٣).

وتدل هذه الحادثة على مدى ما وصل إليه نفوذ تلك الطوائف وسيطرتهم على الخلفاء حتى أنهم يجبرون الخليفة على قتل ابنه أو خلعه من الخلافة، ولولا علمه بقدرتهم على ذلك لما أقدم على قتل ابنه.

---

(١) ابن الطوير: نزهة، ص ٤٣، ابن ميسر: أخبار، جـ٢ ص ٧٧: ٧٨، وابن أيبك: كنز الدرر، جـ٦، ص ٥١٤، النويري، جـ٢٨، ص ٣٠٠.

(٢) ابن قرقة: كان يتولى الاستعمالات بدار الديباج وخزائن السلاح وكان ماهرًا في علم الطب والهندسة ونحو ذلك من علوم الأوائل وقتله الحافظ بعد أن دبر السم لابنه حسن فاعتقله بخزانة البنود وقتله سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤م (المقريزي: الخطط جـ٢ ص ٦٢).

(٣) ابن الطوير: نزهة المقلتين ص ٤٣، ابن ميسر: أخبار، جـ٢، ص ٧٧ - ٧٨، ابن أيبك: كنز الدرر جـ٦ ص ٥١٤، النويري، نهاية الإرب، جـ٢٨، ص ٣٠٠.

وبعد مقتل حسن بن الحافظ بالسم، ثارت الفتنة بين الأجناد والسودان وطردهم الخليفة من القاهرة، وكانوا يميلون إلى حسن فانتقموا ممن أجبَروا أباه على سمه. فلما حضر بهرام من الصعيد بالأرمن، وجد أن حسن قد قتل مسمومًا وتقابل مع الأجناد بالقرب من القاهرة فتمسكوا بتوليته الوزارة وألزموا الحافظ بذلك فاضطر إلى موافقتهم حتى لا تثور فتنة أخرى وخلع عليه بالوزارة سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤م وهو باق على دين النصرانية فكان أول نصراني يتولى وزارة تفويض للفاطميين[١] فقد ذكر المقريزي أن الوزارة من حين تولاها بدر الجمالي أصبحت «وزارة تفويض»[٢].

و «صار وزير السيف من عهد أمير الجيوش بدر الجمالي إلى آخر الدولة هو سلطان مصر، وصاحب الحل والعقد، وإليه الحكم في الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية، وهو الذي يولي أرباب المناصب الديوانية والدينية»[٣] كما ذكر أنه كان من عادة الدولة أنه إذا كان وزير رب سيف، فإنه يقلد القضاء رجلاً نيابة عنه، وهذا إنما حدث من عهد أمير الجيوش بدر الجمالي[٤]. وقد اعترض المصريون على تولية نصراني الوزارة حيث ذكر المسبحي أن الحافظ أخذ يستشير كل من يثق به في ذلك فلم يشر به أحد عليه، وقيل: أولاً هو نصراني فلا يرضاه المسلمون، والثاني من شرط الوزير أن يرقى مع الإمام المنبر في الأعياد ليزرر عليه المزرة الحاجزة بينه وبين الناس، والثالث أن القضاة نواب الوزراء من زمن أمير الجيوش ويذكرون النيابة عنهم في الكتب الحكمية النافذة إلى الآفاق وكتب

---

(١) ابن الطوير: نزهة، ص ٣٨ - ٤٤، ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر ص ١٢٣، ابن أيبك كنز جـ٦، ص ٥٧، النويري: نهاية جـ٢٨، ص ٣٠٠ - ٣٠٢، المقريزي: اتعاظ جـ٣، ص ١٥٥، جمال الشيال مجموعة الوثائق الفاطمية (الوثيقة الخامسة عشرة)، ص ١٤٤ - ١٤٩، أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية ص ١٩٣.

(٢) المقريزي: الخطط جـ١ ص ٤٣٩.

(٣) نفسه ص ٤٣٩.

(٤) نفسه ص ٤٠٣. وأنظر: جمال الدين الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية (الوثيقة الخامسة عشرة)، ص ١٤٩.

الأنكحة، فلم يصغ لذلك وقال إذا رضيناه نحن فمن يخالفنا وهو وزير السيف. وأما صعود المنبر فكان يستنيب عنه قاضي القضاة، وأما ذكره في الكتب الحكمية فلا حاجة إلى ذلك، ويفعل ما كان يفعل قبل أمير الجيوش واستوزره والناس ينكرون عليه ذلك[1].

ولما ثبتت مكانة بهرام في الوزارة طلب من الحافظ السماح له بإحضار إخوته فاذن له فأحضرهم من تل باشر ومن بلاد الأرمن حتى وصل عددهم بمصر إلى ثلاثين ألف إنسان فأساءوا إلى أهل مصر وجاهروا بنصرانيتهم وبنوا الكنائس واشتدت غيرة أهل مصر على الإسلام، واشتكوا بهرام إلى الخليفة وخاصة عندما استبد أخوه الباساك والي قوص بأهلها ونهب أموالهم فشق ذلك على الأمراء المصريين وبعثوا إلى رضوان بن الولخشي والي الغربية يطلبون منه الحضور لإنقاذهم[2].

يقول المقريزي: لما تولى بهرام، اشتد ضرر المسلمين وكثرت أذيتهم، فحين ولى بهرام رضوان بن ولخشي ولاية عسقلان وجد فيها الكثير من الأرمن وصلوا عن طريق البحر يريدون الوصول للقاهرة فتحرش بهم ومنع الكثير منهم، فلما علم بهرام غضب لذلك وصرفه عن عسقلان واستدعاه إلى القاهرة فالتف حوله الناس ممتنين له لمنعه الأرمن من الوصول إلى القاهرة فغار منه بهرام وقصد إبعاده عن القاهرة فولاه الغربية سنة ٥٣١هـ / ١١٣٦م[3].

فلما وصلته مكاتبات الأمراء كان منتهى أمله أن يرتقي منصب الوزارة فاعتلى المنبر وخطب خطبة مدوية حرض فيها الناس على الجهاد فأجابوه والتفوا حوله دفاعًا عن الإسلام من الأرمن النصارى وانضم إليه ثلاثون ألفا من العرب والجند[4]

---

(١) ابن ميسر: المنتقي من أخبار مصر، ص ١٢٣.

(٢) ابن ميسر: المنتقى، ص ١٢٤، النويري جـ٢٨، ص ٣٠١ - ٣٠٢، المقريزي اتعاظ جـ٣، ص١٥٦: ١٥٩، جمال الشيال: الوثائق (الخامسة عشرة)، ص ١٤٤.

(٣) جمال الشيال: الوثائق الفاطمية (الوثيقة الخامسة عشرة)، ص ١٤٤ - ١٤٥.

(٤) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص ٤٤ - ٤٧، ابن الأثير: الكامل حـ١١، ص ٤٨، ابن ميسر: =

فلما أصبح على مشارفها جمع بهرام الأرمن وابلغهم أنهم أصبحوا غير مرغوب فيهم برغم خدماتهم التي أدوها للدولة وأنه يأبى محاربة قوم كان عبدًا لهم من قبل وحلف ألا يضرب بسيف في وجوههم أبدا(١).

ثم اجتمع بهرام بالخليفة، ولكن الخليفة كان ضعيفًا أمام ثورة المسلمين فقال لبهرام «غلبني الإسلام عليك» ففهم بهرام على الفور أنه تخلى عنه فجمع الأرمن وسار إلى بلاد الصعيد، أما رضوان فقد انضم إليه الأمراء والجنود ووقف بهم بين القصرين، وقد رفع جنود رضوان المصاحف على أسنة الرماح ليعبروا أنهم ما جاءوا إلا دفاعًا عن الإسلام، فلما رأى جند بهرام ذلك انضم المسلمون منهم إلى جيش رضوان وكانت خطة مدبرة من رضوان والأمراء وتم عزل بهرام(٢) وانتظر أوامر الخليفة فأمره بالنزول في دار الوزارة وخلع عليه وتولى الوزارة سنة ٥٣١هـ / ١١٣٦م(٣).

ولم تكن ثورة المصريين على طائفة الأرمن لكونها جنسًا غريبًا عنهم فقد رحب المجتمع المصري بمختلف الطوائف وتعايش معهم وتصاهر منهم، سواء المغاربة أو السودانيين أو الصقالبة أو الأتراك وغيرهم ولكنهم تمادوا في تصرفاتهم إلى حد التطاول على المسلمين وكان هذا تحديًا سافرًا لمشاعر شعب رحب بهؤلاء وامتزج بهم. ومما يدل على ذلك أن سجل تولية رضوان بن ولخشي والذي كتبه ابن الصيرفي ونقله لنا كل من ابن الطوير والمقريزي قد جاء فيه «لأنك أذهبت عن الدولة عارها وأمطت من طرق الهداية أوعارها، واستعدت ملابس سيادة كان قد

- المنتقى، ص ١٢٤ - ١٢٥ والنويري: نهاية جـ٢٨، ص ٣٠٢، المقريزي: الخطط جـ١، ص ٢٠٥، اتعاظ جـ٣، ص ١٦١.

(١) ابن القلانسي: ذيل ص ٢٦٢.

(٢) ابن ميسر: أخبار جـ٢، ص ٨٠، ابن الوردي: تتمة المختصر جـ٢، ص ٦٤، المقريزي: خطط جـ١، ص ٢٠٥، اتعاظ جـ٣، ص ١٦١.

(٣) المقريزي: اتعاظ جـ٣، ص ١٦٢، مجموعة الوثائق: جمال الشيال (الوثيقة الخامسة عشرة)، ص ١٤٥.

دنسها من استعارها»[1].

فكانت الثورة عارمة ضدهم أطاحت بكل ما هو منتسب للأرمن حتى أنهم نهبوا حارة الوزيرية التي كانت كلها سكنًا للأرمن وكذلك حارة الحسينية بالقرب من باب الفتوح ونهبوا كنائسهم وقبورهم[2].

ويذكر القلقشندي أن الحسينية كان يسكنها الطائفة المعروفة بالوزيرية والريحانية من الأرمن والعجمان وعبيد الشراء[3].

وكانت أخبار بهرام قد وصلت إلى أهل قوص فتجرأوا وقتلوا أخاه الباساك وألقوه في النهر فاضطر إلى النزوح بالأرمن أصحابه إلى أسوان ليضم أهل النوبة النصارى إليه ضد رضوان الذي ما أن علم بذلك حتى أرسل إليه جيشًا على رأسه أخيه ناصر الدين الأوحد إبراهيم لمطاردة بهرام ولكن الخليفة سارع وأمنه على نفسه وأقاربه وأصحابه وأوقف هذه الحملة ووافق على إقامته في الأديرة البيض بالقرب من أخميم بقى بها إلى سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٨م وأقام معه بعض أقاربه وهاجر البعض الآخر إلى تل باشر[4].

وقد انقلب الخليفة على رضوان واستاء من تصرفاته فأرسل في ٥٣٣هـ / ١١٣٨م في طلب بهرام وأسكنه معه في القصر وأخذ بمشورته في كل أمور الدولة مما أثار رضوان فآثر الهرب[5] وما لبث بهرام أن توفى سنة ٥٣٥هـ / ١١٤٠م بالقصر فحزن عليه الحافظ حزنًا كبيرًا[6].

---

(١) ابن الطوير: نزهة المشتاق ص ٤٨، المقريزي: اتعاظ جـ٣ ص ١٨٤.

(٢) ابن ميسر: أخبار جـ٢، ص ٨٠، المقريزي: اتعاظ جـ٣، ص ١٦١، ابن تغرى بردي: النجوم جـ٤، ص ٤٦.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى جـ٣، ص ٣٥٩: ٣٤٠.

(٤) ابن ميسر: أخبار مصر جـ٢، ص ٧٩: ٨٠، المقريزي: اتعاظ جـ٣، ص ١٦٢.

(٥) ابن القلانسي: ذيل، ص ٢٧٠ ابن ميسر: المنتقى، ص ١٢٦.

(٦) ابن ميسر: المنتقى ن ص ١٣٣ ابن أيبك: كنز الدرر جـ٦، ص ٥١٨، المقريزي اتعاظ جـ٣، ص ١٧٥.

وبوفاته أسدل الستار على فترة هامة من فترات التاريخ الفاطمي في مصر استطاع فيها العنصر الأرمني أن يلعب دورًا سياسيًا وعسكريًا وحضاريًا بارزًا في الدولة، فقد حافظوا على وجود الخلافة وأقاموا إنجازات حضارية متعددة شهد لها تاريخ تلك الفترة التي بدأت ببدر الجمالي فالأفضل ثم أحمد بن الأفضل ثم يانس وانتهت ببهرام الأرمني.

وفي ٥٤١هـ / ١١٤٦م، ذكر ابن ميسر أن «فيها خرج على الحافظ أمير من أمراء المماليك يعرف ببختيار طالبًا للوزارة بأرض الصعيد فندب إليه عسكرًا عليه سلمان بن يونس اللواتي فمضى إليه وحاربه فانهزم فأتبعه حتى أخذه أسرًا وقتله وصلبه» (١).

وفي سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م، خرج رضوان من الموضع الذي كان معتقلاً فيه في القصر من نقب نقبه فيه وهرب إلى الجيزة واستنجد بالعربان وسار إلى القاهرة فخرج إليه عسكر الحافظ ودارت الحرب بين الفريقين عند جامع ابن طولون. ولما هزمهم سار وراءهم إلى القاهرة ونزل بالجامع الأقمر فغلق الحافظ أبواب القصر ولم يسمح له بالدخول، فاستولى رضوان على الأموال وأنفقها في طوائف العسكر وطلب مالاً من الحافظ فبعث إليه بعشرين ألف دينار وأمر الحافظ مقدمي السودان بقتال رضوان فنفذوا الأمر فقتل على يد أحدهم وقتل معه أخاه وأخذ السودان رأسيهما للحافظ وسكنت الفتنة سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م(٢).

وفي سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م، وقع خلاف كبير واحتدم الصراع بين الطائفة الجيوشية والطائفة السودانية الريحانية(٣) وقامت بينهما وقعات كبيرة حتى امتنع الناس من القدوم إلى القاهرة وظلت الحروب بينهما فترة إلى أن انهزمت الريحانية

---

(١) ابن ميسر: المنتقى، ص ١٣٧.

(٢) ابن ميسر: المنتقى، ص ١٣٧، رزق الله منقريوس: تاريخ دول الإسلام، جـ١، ص ٣٤٨.

(٣) ذكر القلقشندي في صبح الأعشى جـ٣، ص ٣٥٩، أن الريحانية من الأرمن ولكننا نرجح رأى ابن ميسر بأنهم من السودان والجيوشية من الأرمن نسبة إلى أمير الجيوش بدر الجمالي لأنه ليس من الممكن أن تنشأ الحرب بين الأرمن وبعضهم فقد كانوا متحدين.

إلى الجيزة، ويبدو أن الصراع كان بسبب خلع الحافظ من الخلافة ثم انشغل النـاس بوفاة الخليفة[1].

بويع بعده بالخلافة ابنه الأصغر أبو المنصور إسماعيل وتلقب بالظافر بالله (٥٤٤هـ-٥٤٩هـ / ١١٤٩-١١٥٤م)[2].

وفور مبايعته بالخلافة، عين الأمير نجم الدين أبا الفتح سليم بن محمد بن مصال اللكي وخلع عليه بالوزارة تنفيذًا لوصية أبيه، ولم يكن وزيرًا في عهد الحافظ وإنما كان متوليًا للأمور والمصالح دون أن يطلق عليه لقب وزير[3].

وقد نجح في تأديب السودانيين في صعيد مصر[4] ولم يقبل على بن السلار والي الإسكندرية والبحيرة أن يلي ابن مصال الوزارة وهو شيخ كبير فاتفق مع الأمير عباس الصنهاجي والي الغربية، وكان ابن زوجته على التوجه للقاهرة وإجبار الخليفة على توليته في الوزارة بدلاً من ابن مصال. وقد كان له ما أراد رغم أن ابن مصال جمع جيشًا كبيرًا من بربر لواته ومن السودان والعربان وكاد أن ينتصر لولا أن ابن السلار بعث إليه جيشًا على رأسه الأمير عباس الصنهاجي هزمه وقتل عند مدينة دلاص قرب البهنسا عام ٥٤٤هـ / ١١٤٩م[5].

وبعد محاصرة ابن السلار للقصر الفاطمي، اضطر الظافر على غير رغبة منه إلى توليته الوزارة ولكنه لم يكن على وفاق معه فقد تحرز كل منهما للآخر حتى أن ابن السلار الذي كان أحد الصبيان الحجرية كون جماعة من الحرس الخاص به

---

(١) ابن ميسر: المنتقى، ص ١٤٠.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة جـ١، ص ٦٠٨.

(٣) ابن الطوير: نزهة، ص ٥٤.

(٤) ابن ميسر: المنتقى، ص ١٤٢، المقريزي: اتعاظ: جـ٣، ص ١٩٦.

(٥) ابن القلانسي: ذيل، ص ٣١١، ابن الطوير: نزهة، ص ٥٥: ٥٩، ابن الأثير الكامل، حـ١١، ص ١٤٢، أبو شامة: الروضتين جـ١، ص ١٩٥، ابن ميسر المنتقى، ص ١٧٢، المقريزي: اتعاظ جـ٣، ص ١٩٦: ١٩٧، محمد جمال سرور: الدولة الفاطمية، ص ١٢٤.

عرفوا بـ «صبيان الزرد»[1] وكانوا من الأتراك اصطنعهم لحمايته[2] وبلغ عددهم ٣٠٠ ألف فارس وكانوا دائمًا ما يثيرون الشغب والاضطرابات[3] وقام العادل بن السلار سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م بإغلاق أبواب القاهرة والقصور وأمسك صبيان الخاص وقتلهم جميعًا[4].

وفي عام ٥٤٨هـ / ١١٥٣م، قتل أبو الحسن علي بن السلار والذي نعته ابن ميسر بسلطان مصر[5] على يد ربيبه عباس الذي كان مع الأمراء في عسقلان لحمايتها من الفرنج وكان معه أسامة بن منقذ وضرغام فجلسوا يتسامرون ويتذكرون مصر وما فيها من خيرات وطيب ونظروا إلى حالهم في السفر ولقاء العدو، فأخذ عباس يتحدث عاتبًا على العادل لأنه أوفده لهذا فأوعز إليه أسامة بقتل العادل وأن يكون هو سلطان مصر بدلاً منه، فأحضر عباس ابنه نصر وحكا له ما دار بينه وبين أسامه وسيّره إلى مصر لتأدية المهمة وتنفيذ الخطة، وبالفعل قام نصر بقتل العادل ومضى برأسه إلى الظافر بالقصر وأرسل في استدعاء عباس الذي جاء إلى القاهرة فوجد الغلمان الأتراك الذين اصطنعهم العادل بن السلار في قمة ثورتهم لما حدث وحاول تسكينهم فلم يفلح وقد تركوا القاهرة متجهين إلى دمشق[6].

استوزر الظافر عباس هذا الذي أخذ في تقريب أسامة بن منقذ اعترافًا بفضله ولكن ما لبث أن قتل الخليفة الظافر على يد نصر بن عباس بإيعاز من أبيه عباس

---

(١) ابن الطوير: نزهة، ص ٥٩، ابن خلكان: وفيات جـ٣، ص ٤١٦، النويري: نهاية جـ٢٨، ص ٣١٢، المقريزي: اتعاظ جـ٣، ص ١٩٧ - ١٩٨.

(٢) ابن الطوير: نزهة، ص ١٦٥.

(٣) محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي، ص ٨٠.

(٤) ابن ميسر: المنتقى، ص ١٤٣.

(٥) نفسه، ص ١٤٦.

(٦) ابن القلانسي: ذيل، ص ٣١٩ - ٣٢٠، ابن الطوير: نزهة، ص ٦٢ - ٦٦، وابن الأثير: الكامل جـ١١، ص ١٨٤، أبو شامة: الروضتين، جـ١، ص ٢٢٦ - ٢٢٧، ابن ميسر: المنتقى، ص١٤٦ - ١٤٧، المقريزي: الخطط، جـ٢ ص ٥٥: ٥٦، اتعاظ، جـ٣، ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

وأسامة بن منقذ سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م[١] فثارت فتنة وانقلب السودان والأمراء عليه لقتل الخليفة فحاربهم عباس وقتل الكثير منهم[٢]. وتولى بعده الفائز عيسى أبو القاسم (٥٤٩-٥٥٥هـ / ١١٥٤-١١٦٠م) وتولى وزارته العباس[٣].

واستدعت نساء القصر والي الأشمونين طلائع بن رزيك وارسلن إليه شعورهن لإنقاذ الخلافة[٤].

وعند مجيء طلائع سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م دخل إلى القاهرة والتف حوله الناس. فلما رأى عباس ونصر وأسامه بن منقذ ذلك وتأكدوا من كراهية العامة لهم هربوا بأموالهم إلى الشام[٥] وقد خلع عليه الفائز بالوزارة وكان أول وزير يلقب بالملك[٦].

وقد قتل عباس على يد الفرنج بتحريض من أخت الخليفة وبذلها الأموال لهم في ذلك[٧] وفر أسامه إلى الشام[٨]، أما نصر فقد تسلمته جماعة الداوية في فلسطين مقابل ثلاثين ألف دينار وأرسل في قفص حديد إلى نساء القصر بالقاهرة فقمن بتعذيبه ثم صلب حيًا على بابا زويلة[٩].

---

(١) ابن القلانسي: ذيل، ص ٣٢٩ - ٣٣٠، ابن الطوير: نزهة، ص ٦٧، ابن الأثير: الكامل، جـ١، ص١٩١، أبو شامة: الروضتين، جـ١، ص ٢٤٣ - ٢٤٥، ابن ميسر: المنتقى، ص ١٤٧، المقريزي: خطط جـ٢، ص ٣٠، اتعاظ، جـ٣، ص ٢٠٨.

(٢) ابن ميسر: المنتقى، ص ١٤٩.

(٣) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ١٧٠.

(٤) ابن ميسر: المنتقى، ص ١٤٩، ابن خلكان: وفيات جـ٢، ص ٥٢٦، المقريزي: اتعاظ، جـ٣، ص ٢١٥.

(٥) ابن الأثير: الكامل، جـ١١ ص ١٩٣، ابن ميسر: أخبار، ص ١٤٩ - ١٥٠، ابن خلكان: وفيات جـ٢ ص ٥٢٦، المقريزي: اتعاظ، جـ٣، ص ٢١٥ - ٢١٧، والخطط، جـ٢، ص ٢٩٣ - ٤١٠.

(٦) ابن ميسر: المنتقى، ص ١٥٠ - ١٥١، المقريزي: اتعاظ جـ٣، ص ٢١٨ - ٢١٩.

(٧) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ١٧٠.

(٨) ابن ميسر: المنتقى، ص ١٥٠.

(٩) نفسه، المقريزي: اتعاظ جـ٣، ص ٢٢٠.

وبعد وفاة الفائز، أقام الوزير طلائع مكانه العاضد لدين الله عبد الله أبو محمد سنه (٥٥٥ -٥٦٧هـ / ١١٦٠-١١٧١م) وزوجه ابنته طمعاً في ملك البلاد إذا أنجبت منه ولدا[١].

ولما ضيق طلائع على العاضد واستبد بأمور الدولة وتحكم في الخليفة وفي نساء القصر، دبرت له ست القصور وحرضت الخدم النوبيين على قتله فتربصوا له وطعنوه سنة ٥٥٦هـ / ١١٦١م[٢] ويذكر ابن خلكان أن العاضد هو الذي دبر لقتله جماعة من أجناد الدولة يقال لهم أولاد الراعي وأخفاهم في مكانه بالقصر حتى إذا مر الصالح قتلوه، وقد تمت المؤامرة، فجاء أصحاب الصالح وقتلوا الذين قتلوه وتوفي سنة ٥٥٦هـ / ١١٦١م[٣].

ارتبطت نهاية تلك الصراعات بين الطوائف المختلفة ارتباطًا وثيقًا بنهاية الدولة الفاطمية في مصر إن لم تكن هي التي عجلت بنهايتها فقد ذكر ذلك ابن الفرات فقال: «جوهر هذا سبب زوال دولة العبيديين، وكان سبب خلافتهم بالديار المصرية أولاً جوهر القائد، وبين الجوهرين بون كبير» [٤] كما قال المقريزي و«تلاشى من هذه الواقعة أمر العاضد» [٥].

كان بالقصر الفاطمي أعداد كبيرة من السوادنيين قيل أن عددهم وصل إلى خمسين ألف سوداني كان يقودهم أو يشرف عليهم خصى سوداني أسود يدعى جوهر مؤتمن الخلافة شق عليه استئثار صلاح الدين الأيوبي بالأمور واستشعر أن نهاية الدولة الفاطمية قد حانت وأنها دخلت طور الاحتضار فحاول إنقاذها بشتى السبل فاتفق مع جماعة من المصريين وكاتبوا الفرنج واستدعوهم لينصروهم على

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ١١، ص ٢٥٥، ٢٧٤، ابن خلكان: وفيات، جـ٢، ص ٥٢٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ١١، ص ٢٧٤، أبو شامة: الروضتين، جـ١، ص ٣١١ – ٣١٣، ٤١٠، المقريزي: خطط، جـ٢، ص ٢٩٤، اتعاظ، جـ٣، ص ٢٤٧ – ٢٤٨.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٣، ص ٥٢٦.

(٤) ابن الفرات: تاريخه، جـ٤، ص ٧٨.

(٥) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٣.

صلاح الدين ومن معه وبعثوا بهذه الكتب خفية مع شخص يأتمنونه ويثقون به[١].

وكان الغرض من تلك الحيلة أن يأتي الفرنج فيخرج صلاح الدين وأصحابه للقائهم وقتالهم فيتخلص مؤتمن الخلافة ومن معه من أصحابه المتبقين ثم يخرج في إثر صلاح الدين ويقوضونه فلا يجد مفرًا، فالفرنج أمامه ومؤتمن الخلافة ومن معه من الخلف فيفنى هو وأصحابه وينتهي أمره[٢].

وكان مؤتمن الخلافة يخطط للتخلص من صلاح الدين إلا أن خطته فشلت وكشف الأمر على يد رجل تركماني من أنصار صلاح الدين رأى مع هذا الشخص المبعوث من قبل مؤتمن الخلافة نعلين جديدين ليس بهما أثر مشي فشك في أمره وأخذهما إلى صلاح الدين ففتقهما واضطلع على مكاتبة الفرنج وذكر أبو شامة أنه وجد مكتوبًا فيها «من أهل القصر يرجون بحركتهم حصول النصر» [٣] فطلب صلاح الدين معرفة كاتب هذا الخط والقبض عليه فقبضوا على أحد اليهود، فلما أحضروه لسؤاله، نطق بالشهادة واحتمى بالإسلام ثم اعترف أن هذا لم يكن إلا بأمر مؤتمن الخلافة فلما تأكد السلطان من إسلامه، سكت عن الأمر مضمرًا في نفسه الشر لمؤتمن الخلافة، والذي شعر بما حدث فظل مقيماً بالقصر لا يبارحه أبدًا خوفًا من صلاح الدين، وكان له قصر في قرية يقال لها الخرقانية قرب قليوب[٤]. فذهب إلى

---

(١) مخطوط شفاء القلوب: (مجهول الكاتب)، ص ١٩، ابن الأثير: الكامل جـ١١، ص ٣٤٥، أبو شامة: الروضتين، جـ١ قسم٢، ص ٤٥٠، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص ١٧٤ - ١٧٥، ابن الفرات: تاريخه جـ٤، ص ٧٧، ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص ٢٨٣، المقريزي: خطط، جـ٢، ص ٢، ٤.

(٢) مخطوط شفاء القلوب: مجهول ص ١٩، ابن الأثير: الكامل جـ١١، ص ٣٤٥ - ٣٤٦ وأبو شامة: الروضتين، جـ١ قسم٢، ص ٤٥٠ - ٤٥١، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص ١٧٤ - ١٧٥، ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص ٢٨٣، جمال الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، جـ٢، ص ٢١، نظير حسان سعداوي: جيش مصر، ص ١٤.

(٣) أبو شامة: الروضتين جـ١، ق٢، ص ٤٥٠ - ٤٥١.

(٤) مخطوط شفاء القلوب، ص ١٩، أبو شامة: الروضتين جـ١، ق٢، ص ٤٥١، ابن واصل: مفرج الكروب جـ١، ص ١٧٥، وابن الفرات: تاريخه، جـ٤، ص ٧٧، ابن خلدون: العبر جـ٥، =

قصره بها للنزهة، فبعث إليه صلاح الدين من قتله وجاء برأسه سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م[١] فلما قتل، ثار السودانيون من عبيد القصر وكان عددهم قد تعدى الخمسين ألفًا[٢] وكانوا «إذا قاموا على وزير قتلوه واجتاحوه وأذلوه واستباحوه واستحلوه فحسبوا أن كل بيضاء شحمة وأن كل سوداء فحمة»[٣].

ودارت الحرب بين القصرين بين أصحاب صلاح الدين ومقدمهم أبي الهيجاء وبين العبيد لمدة يومين انتصر فيها صلاح الدين عليهم وأحرق محلتهم المعروفة بالمنصورة وفيها أموالهم وأولادهم، فلما علموا بذلك ضعف أمرهم وانهزموا وطلبوا الأمان بعد أن قتل الكثير منهم فأجيبوا إليه، وكانوا كلما ذهبوا إلى مكان أحرقه عليهم جنود صلاح الدين حتى فروا إلى الجيزة[٤].

وقد علق ابن واصل على تلك الواقعة بقوله: «ولما وقعت هذه الواقعة، تلاشى

- ص٢٨٣، المقريزي خطط جـ٢، ص ٣.

(١) مخطوط شفاء القلوب: مجهول، ص ١٩، محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر جـ١، ص ١١، ابن الأثير: الكامل، جـ١١ ص ٣٤٦ - ٣٤٧، أبي شامة: الروضتين جـ١، ق٢ ص ٤٥١، وابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص ١٧٥ - ١٧٦، وابن الفرات: تاريخه جـ٤، ص ٧٨، وابن خلدون: العبر، جـ٥، ص ٢٨٣، المقريزي: خطط، جـ٢، ص ٣.

(٢) ذكر ابن الفرات أن عدد السودانيين عشرة آلاف، وذكر ابن خلدون أنهم خمسة آلاف، ولكن المقريزي ذكر نصًا له أهميته في توضيح ذلك الخلاف فقال: فغضب العسكر المصري وثاروا بأجمعهم في سادس عشرية وقد انضم إليهم عالم عظيم من الأمراء والعامة حتى صاروا ما ينيف على خمسين ألفًا وعلى هذا، يبدو أن عددهم كان عشرة آلاف على قول ابن الفرات، ولما نضم إليهم بقية الأمراء والعامة وصلوا إلى خمسين ألفًا، ولكن هذا لا يمنع أن عددهم كان كبيرًا في قصر العاضد الفاطمي. للمزيد أنظر: ابن الفرات: تاريخه، جـ٤، ص ٧٨، ابن خلدون: العبر جـ٥، ص ٢٨٣، المقريزي خطط، جـ٢، ص ٣، ٤.

(٣) أبو شامة: الروضتين جـ١، ق٢، ص ٤٥١ - ٤٥٢.

(٤) مخطوط شفاء القلوب مجهول، ص ١٩، مخطوط فتوح النصر: محمد بهادر، جـ١، ص ١١، ابن الأثير: الكامل جـ١١، ص ٣٤٧، ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص ٢٨٣، المقريزي: خطط، جـ٢، ص ٣، جمال الشيال: تاريخ مصر جـ٢، ص ٣٢.

أمر العاضد خليفة مصر، إلا أن الخطبة باقية له وبعده لنور الدين»[١].

ويذكر المقريزي أن العاضد كان يتابع المعركة من منظرة القصر، وأن أهل القصر لما رأوا أن السودانيين قد أشرفوا على الهزيمة «رموا على الغز من أعلى القصر بالنشاب والحجارة حتى أنكوا فيهم وكفوهم عن القتال وكادوا ينهزمون»[٢]. لولا أن صلاح الدين أمر بإحراق المنظرة، وشاهد العاضد بنفسه النفاطين يستعدون لتطييب قارورة النفط ويصوبون بها على المنظرة التي يشرف منها العاضد على الميدان وخاف وأمر أحد الأستاذين أن ينادى بصوت عال قائلاً: «أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول: «دونكم والعبيد الكلاب أخرجوهم من بلادكم» . فلما سمع السودان ذلك، تراخت قواهم فهجم عليهم الصلاحية وتحصنوا بمكان كان للأرمن قريبًا من بين القصرين ووقف الأرمن بجانبهم وكانوا رماة بارعين ومنعوا الصلاحية من السير إلى العبيد فأحرق شمس الدولة ديارهم بما فيها ومن فيها وتتبع العبيد كلما دخلوا مكانًا أحرقه عليهم وقتلوا فيه حتى وصلوا إلى باب زويلة فوجدوه مغلقًا فحصروا هناك وتم قتل الكثير منهم[٣].

ثم بعث صلاح الدين أخاه تورانشاه في إثرهم وشرع يقتل فيهم ثم أرسل أوامره إلى ولاة البلاد بقتل من وجد منهم[٤]، وكان السودانيون قد كرهوا صلاح الدين لأنه لم يكن يستخدمهم في الجيش الأيوبي واستبدلهم بعناصر أخرى تركية وديلمية وكردية[٥].

وكان من نتيجة هذه الوقعة أن زاد ضعف الخليفة العاضد أمام قوة صلاح الدين وتلاشى نفوذه حتى أن ابن واصل أورد لنا نصًا إن دل على شيء دل ووضح مدى

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص ١٧٦.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٣ ، ٤.

(٣) المصدر السابق، جـ٢، ص ٣، ٤.

(٤) مخطوط فتوح النصر: محمد بهادر جـ١، ص ١١، ابن الفرات جـ٤، ص ٧٨، ابن خلدون: العبر جـ٥، ص ٢٨٣، المقريزي: خطط جـ٢، ص ٣، جمال الشيال: مصر الإسلامية جـ٢، ص١٢.

(٥) مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص ١٢٦.

ما آل إليه الخليفة العاضد من الضعف في أواخر أيامه مما أدى إلـى سـرعة زوال الدولة الفاطمية، وانفراد صلاح الدين بالأمر، فقد خلا له المسرح السياسـي تمامًـا وكان مهيأ لقيامه على رأس الدولة الأيوبية.

ذكر ابن واصل «فحكى لي الأمير حسام(1) الدين بن أبي علي، قال : كان جـدي في خدمة الملك الناصر صلاح الدين فحكى أنه لما وقعت هذه الواقعة شرع صـلاح الدين كل يوم يطلب من العاضد شيئًا من الخيل والرقيق والأموال ليقوى بذلك ضعفه، قال : فسيّرني يومًا إليه أطلب منه فرسًا ولم يبق عنده إلا فرس واحد فأتيـت إليـه وهو راكب في بستانه المعروف بالكافوري الذي يلي القصر الغربي فقلـت: صـلاح الدين يسلم عليك ويطلب منك فرسًا فقال: ما عندي إلا الفرس الذي أنا راكبه ونـزل عنه وشق خفيه ورمى بهما وسلم إليّ الفرس فأتيت به صلاح الدين ولزم العاضـد بيته ولم يعد لركوب حتى كان منه ما كان»(2).

وهكذا كان لتضافر العوامل الخارجية ممثلة في التهديدات الصليبية على مصر، والداخلية ممثلة في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بها أثر كبير في التعجيل بنهاية الدولة الفاطمية التي استمر حكمها لمصر أكثر من قرنين من الزمان كـان لمصـر خلالها دور رائد في المنطقة بالإضافة إلى الكثير من الإنجـازات الحضـارية التـي أولاها خلفاء الفواطم عناية كبيرة.

وورث الأيوبيون حكم مصر لتستمر في دورها الريادي في العـالمين العربـي والإسلامي، فقد قامت مصر بإمكاناتها البشرية والمادية بدور كبير في التصدي للغزو الصليبي إلى أن تم استعادة القدس كما تمكنت أيضًا من وقف المد المغولي وإنقـاذ الحضارة الإسلامية بل والحضارة الإنسانية من براثنه.

---

(1) كان الأمير حسام الدين بن أبي علي قائدًا من كبار قواد الدولة في عهد الملك الصالح نجم الـدين أيوب ونائب السلطنة في عهده، كما كان صديقًا حميمًا للمؤلف ابن واصل وينقل عنه الكثير مـن أخبار الدولة وأسرارها وخاصة في عهد الصالح نجم الدين، وهذا أول حديث ينقله عنه وهو من الأخبار التي ينفرد ابن واصل بإيرادها (ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص ١٧٨، حاشية٢).

(2) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص ١٧٨ - ١٧٩.

أهم الشخصيات المملوكية في العصر الفاطمي

استطاعت الشخصيات ذات الأصول المملوكية التي دخلت في خدمة الدولة أن تثبت جدارتها وتؤثر في الدولة والمجتمع، وأن تترك بصمات واضحة في الحكم والسياسة.

وكان من أهم تلك العناصر القائد جوهر الصقلي وبرجوان الصقلبي وبدر الجمالي ويانس الأرمني وبهرام الأرمني وجوهر مؤتمن الخلافة.

أولاً: جوهر الصقلي

وهو أبو الحسن جوهر بن عبد الله المعروف بالكاتب الرومي، المتوفي سنة ٣٨١هـ / ٩٩١م كان من موالي المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي صاحب إفريقية[١]، كما اتفق المؤرخون على أنه رومي الجنسية[٢] ووصفه الذهبي بأنه «القائد أبو الحسن الرومي مولى المعز بالله وأتابك جيشه وظهيره ومؤيد دولته وموطئ الممالك له» [٣].

ومسقط رأسه جزيرة صقلية[٤]. ويبدو أن والده كان مسلمًا، فقد انتشر الإسلام

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص ٣٧٥، أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، جـ٢، ص١٠٩، ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٦، ص ١٣٨، ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، جـ٤، ص ٢٨.

(٢) الذهبي: العبر في خبر من غبر، جـ٢، ص ١٥٨، ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص ٣٧٥، أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، جـ٢، ص ١٠٩، ابن أيبك، كنز الدرر، جـ٦، ص ٢٨.

(٣) الذهبي: العبر في خبر من غبر، جـ٢، ص ١٥٨.

(٤) صقلية: هي من جزر البحر الأبيض المتوسط بينها وبين إفريقية مائة واربعون ميلاً، وهي جزيرة خصبة كثيرة البلدان والقرى، وبها نحو ثلاث وعشرين مدينة وثلاثة عشر حصنًا، وبها جبل النار الذي يزعم الروم أن كثيرًا من الحكماء كانوا يدخلون إلى الجزيرة لمشاهدة عجائبه واجتماع النار والثلج فيه (ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ٥ن ص ٣٧٣: ٣٧٦)، وكانت تلك الجزيرة تحت حكم الرومان إلى أن قام الأغالبة بفتحها سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧م على يد أسد بن الفرات قاضي القيروان وذلك في عهد المأمون، وقد انتشرت اللغة العربية انتشارًا واسعًا نتيجة لانتشار الإسلام بين أهالي تلك الجزيرة حتى أصبحت لغة التخاطب واللغة الرسمية للبلاد، وترجمت في هذه الجزيرة أهم مؤلفات افلاطون وارسطو إلى اللغة العربية، كذلك انتشر الشعر العربي بين أهلها، وقد أثرت هذه البيئة الثقافية على النشأة الثقافية عند جوهر فقد أتقن اللغة العربية وكذلك اللاتينية=

في هذه الجزيرة سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧م، أي قبل اتصال جوهر بالمعز بأكثر من قرن، ومما يؤكد ذلك الافتراض أن والده كان يدعى عبد الله وهو اسم من أسماء المسلمين[1] وقد شب جوهر في كنف الدولة الفاطمية في بلاد المغرب واستطاع أن يكسب ثقة المعز الذي قربه إليه لما بدا عليه من مظاهر الثقافة والعلم وتدرج لديه في الوظائف حتى أصبح كاتبًا له ٣٤١هـ / ٩٢٣م ولقب منذ ذلك الحين بجوهر الكاتب[2] وهو أحد المناصب الرفيعة في الدولة وكان الطريق الموصل إلى منصب الوزارة الذي اعتلاه بالفعل سنة ٣٤٧هـ / ٩٥٨م، تميز جوهر بالأدب الجم في كتابته، ويتبين هذا من أسلوبه في كتابة عهد الأمان الذي كتبه للمصريين عقب دخوله إلى مصر سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م[3] وفيه «لتحمدوا الله تعالى على ما أولاكم وتحمدوه على ما حباكم ولتدأبوا فيما يلزمكم وتسارعوا للطاعة العاصمة لكم العائدة بالسعادة عليكم المضية بالسلامة لكم .. ولم يكن إخراجه هذه العساكر المنصورة والجيوش المظفرة إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم إذ قد تخطفتكم الأيدي واستطال عليكم المشرك وأطمعته نفسه بالاقتدار على بلادكم والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما فعله في غيركم من أهل بلدان المشرق وتأكد عزمه واشتد كلبه فعالجه مولانا وسيدنا أمير المؤمنين... بإخراج العساكر المنصورة وبادره بإنقاذ الجيوش المظفرة لتقاتله دونكم وتجاهده عنكم وعن كافة المسلمين ببلد المشرق[4].

كان جوهر من ذلك النوع من الرجال ذوي الكفاية والمقدرة الحربية والإدارية

= وتأثر بالحضارتين الإسلامية والرومانية مما أثر في حنكته السياسية ومهارته الحربية (علي إبراهيم حسن: تاريخ جوهر الصقلي، ص ١٩ – ٢٨).

(١) علي إبراهيم حسن: تاريخ جوهر الصقلي، ص ٢١.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١، ص ٣٧٥، ابن تغرى بردي: النجوم جـ٤، ص ٢٨.

(٣) الأنطاكي تاريخه، جـ١، ص ٨١٩، ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ١، ص ٤٠٨..

(٤) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ١٢٤ – ١٢٦. وفيه «أيضا بسم الله الرحمن الرحيم، وصل كتاب الشريف أطال الله بقاءه وأدام عزه وتأييده وتمكينه يهنئ بما هيأه الله من الفتح المبارك وهو أيده الله المهنأ بذلك لأنها دولته ودولة أهله وهو المخصوص بذلك، وذلك ردًا على القاضي الشريف عندما طلب إعادة الأمان للمصريين» النويري: نهاية الأرب، جـ٢٢، ص ١٢٨.

مما جعله «خصيصًا عند استاذه المعز وكان من كبار قواده» بل ولاه قيادة جيوشه ولقبه بقائد القواد(١).

وكانت حملته على بلاد المغرب في سنة ٣٤٧هـ / ٩٥٨م هي أول أعماله الحربية التي أظهرت كفاءته وحسن إدارته وشجاعته. ولقد كان هدف تلك الحملة هو توسيع المد الفاطمي ليشمل الشمال الأفريقي كله إخضاع البربر المناهضين للخلافة الفاطمية، فاستطاع جوهر الذي أثبت أنه يستحق وبجدارة ثقة المعز به تحقيق هذه المهمة الخطيرة بأن أعاد فتح سجلماسة، وتيهرت كما تمكن من الاستيلاء على فاس واخضاع سبته وطنجة حتى وصل إلى المحيط مسجلاً مجده الحربي في التاريخ وشهرته العسكرية التي جعلت المعز يعهد إليه بالمهمة الخطيرة ألا وهي فتح مصر وتحقيق أمل الفاطميين في إقامة مركز للخلافة الفاطمية فيها(٢).

وعندما فكر المعز في فتح مصر، ورأى أن الجو ممهد تمامًا لذلك، أخذ في تجهيز العساكر وإصلاح الطرق المؤدية إلى مصر، وأمر بحفر الآبار على طول الطريق الموصل إليها وبعث المعز قائده جوهر لتأمين أحوال المغرب وحشد العساكر وترتيب الولاة على كل ناحية فيها، وأثناء التجهيز، ورد الخبر من مصر بوفاة كافور، فأرسل المعز في استدعاء جوهر فجاء بعساكر وحشود كبيرة من كتامة وغيرها(٣).

وكان جوهر قد أصيب بمرض قبيل إرساله لفتح مصر ويئسوا من شفائه، فلما زاره المعز قال لمن حوله لا تحزنوا لأنه سيشفي ويفتح مصر بمشيئة الله، فلما

---

(١) ابن تغرى بردي: النجوم، جـ٤، ص ٢٨، وأنظر: القرماني، آثار الأول ص ١٩٠. وانظر أيضًا: عبد الله جمال الدين: الدولة الفاطمية، ص ١٢٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ٨، ص ٥٢٤: ٥٢٥، المقريزي: الخطط، جـ١ ص ٣٧٧ - ٣٧٨، والمقريزي: اتعاظ، جـ١، ص ٩٣: ٩٤، وعلى سبيل المقارنة، أنظر: عبد الله جمال الدين: الدولة الفاطمية، ص ١٢٤ وأيمن فؤاد: الدولة الفاطمية، ص ٦٤.

(٣) ابن خلكان: وفيات، حـ١ ص ٣٧٥، ابن الوردي: تاريخه، جـ١ ص ٤٠٨، ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، جـ٤ ص ٢٨.

شفى، جهزه المعز[١] وأكرمه وأمره بالرحيل إلى مصر لفتحَها «فرحل من المنصورية ومعه ألف حمل مال ومن السلاح والكراع مالا يوصف[٢].

وبعد تجهيزه التفت المعز إلى المشايخ الذين وجههم معه وقال: «والله لو خرج جوهر هذا وحده ليفتحن مصر وليدخلنها بالأردية من غير حرب ولينزلن في خرابات ابن طولون ويبني مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا» [٣] وكان رحيله من إفريقية يوم السبت الرابع عشر شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة[٤].

ووصل جوهر بجيوشه إلى منية الصيادين[٥] بمصر، وقد طلب أهل مصر منه الأمان على أن يسلموا له دون قتال أو حرب، وخرج إليه أكابر أعيانها، فقابلهم بالترحاب وطلبوا منه الأمان فأجابهم إليه وكتبه لهم وشهدوا عليه وعادوا إلى الفسطاط وأعلموا أهل مصر بذلك ولكن جماعة الإخشيدية والكافورية عادوا عما اتفقوا معهم عليه وقرروا الخروج لحربه وأمروا عليهم شخصًا يدعى نحرير الشويزاني[٦] سار بالعسكر إلى الجيزة ولكنه ما لبث أن انهزم هزيمة منكرة وهرب حاملاً أمواله ونفائسه ليلاً إلى الشام، ونهب العامة داره فبعث الوزير أبو الفضل بن الفرات غلمانه يدورون في البلد رافعين بنودًا عليها

---

(١) مخطوط شرح اللمعة من أخبار المعز: مجهول، ص ٣.

(٢) ببيبرس الدودار: مخطوط: زبدة الفكرة: جـ٦ ص ٢٠٠، وأنظر أيضًا: ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١ ص ٣٧٥، وابن الوردي: تاريخه، جـ١، ص ٤٠٨، وابن تغرى بردي: النجوم، جـ٤، ص٢٨.

(٣) مخطوط شرح اللمعة: مجهول، ص ٣ – ٤، ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٦، ص ١٣٨، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٤٩.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم جـ٧، ص ٤٧، ابن خلكان: وفيات، جـ١، ص ٣٧٥، ابن الوردي: تاريخه جـ١، ص ٤٠٨، وابن كثير: البداية، جـ١١، ص ٢٦٦.

(٥) منية الصيادين من القرى القديمة وهي حاليًا جزء من وراق الحضر: مركز إمبابة بالجيزة: القاموس الجغرافي: ق٢ جـ٣ ص ٦٥.

(٦) نحرير الشويزاني في ابن خلكان: وفيات الأعيان، في ترجمة جوهر جـ١، ص ٣٧٨.

اسم المعز ومناديًا ينادي بالإيمان[١].

يقول ابن خلكان: دخل جوهر والعساكر إلى مصر يوم الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م وشق البلد وسار ضاربًا بخيمه بحذاء جنان كافور والتي أصبحت موقع القاهرة وكانت صحراء وقتها[٢].

فلما جاء يوم الجمعة، خطب للمعز على منابر مصر كلها، وأمر جوهر المؤذنين أن يؤذنوا بحي على خير العمل[٣]، وكذلك ضربت السكة للمعز[٤]. وقد أرسل جوهر سنة ٣٥٩هـ / ٩٧٠م مع البشرى هداياه إلى المعز ومعها المعتقلون في القيود وأهداه: تسعًا وتسعين بختيه وإحدى وعشرين قبة عليها الديباج المنسوج بالذهب ولها مناطق ذهب مكللة بالجوهر ومائة وعشرين ناقة بأجلّة الديباج وأعنة محلاة بالفضة وخمسمائة جمل عرابًا وستة وخمسين جملاً وثمانية وأربعين دابة، منها بقلة واحدة وسبعة وأربعون فرسًا بأجلة حرير منقوش وسروج كلها ما بين ذهب وفضة ولجمها كذلك وعودان كأطول ما يكون العود الذي يتبخر به[٥].

ونزل مكان يسمى المناخ واختطه وحفر أساس القصر في نفس الليلة التي وصل فيها وشرع في بناء القاهرة سنة ٣٦١هـ / ٩٧١م[٦].

ثم أرسل جوهر يهنئ مولاه المعز بذلك ويبشر بفتح مصر[٧] ففرح فرحًا شديدًا، وقال شاعره ابن هانئ في ذلك :

يقول بنو العباس هل فتحت مصر   فقل لبني العباس قد قضى الأمر

---

(١) الأنطاكي: تاريخه، جـ١، ص ٨١٩ – ٨٢١، ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ١، ص٤٠٨.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص ٢٧٦، ابن تغرى بردي: النجوم، جـ٤، ص ٢٨.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم، جـ٧ ص ٧٤، ابن خلكان، وفيات، جـ١، ص ٣٧٦، ابن كثير البداية والنهاية، جـ١١، ص ٢٦٦، القلقشندي: وصبح الأعشى، جـ٤ ص ١٦٤.

(٤) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ١٣١.

(٥) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ١ ص ١٢١، خطط، جـ١، ص ٣٨٥.

(٦) ابن خلكان: وفيات حـ١، ص ٣٧٦، ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ١، ص ٤٠٨، المقريزي: الخطط، جـ١ ص ٣٦، والدميري: حياة الحيوان، جـ١ ص ٨٥.

(٧) ابن خلكان: وفيات، جـ١، ص ٣٧٦.

ومـــذ جـــاوز الإســـكندرية جـــوهر تصاحبه البشرى ويقدمه النصـــر[1]

وأمر جوهر بالقبض على فلول الإخشيدية والكافورية، فلما اجتمع منهم حوالي ألف غلام، قبض عليهم وقيدهم وحبسهم سنة ٣٦١هـ / ٩٧١م[2]، الأمر الذي يدل على أن جوهر كان لا يزال إلى ذلك الوقت يتمتع ببعض النفوذ قبل أن يبعده المعـز عن ساحة الحكم فقد استأثر بكامل النفوذ حتى انتهى الأمر بعزلـــه عـــن الـــدواوين وجباية الأموال والنظر في أحوال الرعية سنة ٣٦٤هـ / ٩٧٤م[3].

وكان حريصًا على أن تخرج هذه المدينة في أبهى صورها بحيث تليق أن تكون عاصمة للدولة الفاطمية في مصر، فأحضر الفلكيين وأمـــرهم أن يلاحظـــوا النجـــوم فتكون ساعة إرساء أول حجر أساس للمدينة ساعة حظ[4].

وفي صفر سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٢م، غادر المعز مدينة القيروان إلى مصر التـــي وصلها في شهر رمضان من نفس السنة[5].

ولما جاء عيد الفطر، خلع المعز على جوهر خلعة مذهبة وعمامة وقلده سـيفًا وأعطاه فرسًا مسرجة ملجمة ومنحه خمسون ألف دينار ومائتي ألف درهم مكافأة له وتعبيرًا عن امتنانه له وإعجابًا به وبنجاحه في فتح مصر[6].

ولم يترك المعز لجوهر مجالاً لزيادة نفوذه ويبدو أنه كان يخشى من منافســـته وحب المصريين له فعمل على أقصائه من أمور الحكم واحتفظ به مشيرًا له في أغلب الأمور وكان المنتظر منه أن يقدمه ويكافئه اعترافًا بفضـــله لفـــتح مصـــر والشـــام

---

(١) ابن تغرى بردي: النجوم، جـ٤ ص ٣١.

(٢) الأنطاكي: تاريخه، جـ٢ ص ٣٥٢.

(٣) ابن خلكان: وفيات، جـ١، ص ٣٧٦، ابنتغرى بردي: النجوم، جـ٤ ص ٣٧٦.

(٤) المقريزي: الخطط جـ١، ص ٣٧٦، منقريوس الصدفي: تاريخ دول الإسلام، ص ٣٢٩.

(٥) الأنطاكي: تاريخه، جـ٢ تاريخ، ص ٣٥٢، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١١ ص ٢٨٣، ابـن تغرى بردي: النجوم، جـ٤، ص ٢٣، الدميري: حياة الحيوان جـ١ ص ٨٥.

(٦) رزق الله منقريوس الصدفي: تاريخ دول الإسلام، ص ٣٢٩.

وفلسطين وتثبيت دعائم الفاطميين ونشر دعوتهم ولكن المعز يضطر في نهاية سنة ٣٦٤هـ / ٩٧٤م إلى اللجوء إلى مساعدة جوهر حين تفاقم خطر افتكين والحسن بن أحمد القرمطي، ولم يفلح قواد جيش المعز في محاربتهما فلجأ إلى جوهر وولاه قيادة الجيوش، وكان جوهر على إخلاصه ووفائه للمعز ثم لابنه العزيز من بعده فأنجز المهمة على أكمل وجه لكن المعز خشى أمره ثانية وعزله. وظل جوهر مخلصًا لمولاه فيذكر المقريزي أنه لما مرض المعز سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٥م، ظل ثمانية وثلاثين يومًا يمرضه جوهر وطبيبه موسى بن العازار، كما كان لجوهر الفضل في توليه ابنه العزيز الخلافة وأخذه البيعة له من إخوته وعمومته وسائر الرعية(١).

وكان من أهم إنجازات جوهر ذلك الأمان الذي كتبه هذا السياسي البارع بخطه للمصريين، فقد استطاع أن يكتسب به تأييدهم له إذ تعهد أن يترك لهم الحرية الدينية وآداء مناسكهم بما يتناسب مع مذهبهم السني في الآذان وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه والزكاة والحج والجهاد على أمر الله وكتابه وسنة نبيه ﷺ كما أقر أهل الذمة على ما كانوا عليه وأن يجرى في المواريث طبقًا لما جاء بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وإسقاط الرسوم الجائرة وترميم المساجد وتزيينها بالفرش الفاخر والإيقاد «وإعطاء مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس أرزاقهم»(٢).

وكانت فترة حكمه لمصر قبل مجيء المعز والتي مهدت لمجيئه فترة تغيير في الأمور المذهبية والإدارية بطريقة سلسة دون إثارة مشاعر أهالي البلاد، وأبقى جوهر المناصب الإدارية على حالها دون أن يحدث تغييرًا أو إبدالاً للأشخاص المعينين قبل مجيئه فقد أراد أن يقتنص الفرصة لدراسة الأنظمة حتى إذا ماتم له ذلك «لم يدع عملاً إلا جعل فيه مغربيًا شريكًا لمن فيه»(٣).

---

(١) المقريزي: اتعاظ، جـ١، ص ٢٢٨.

(٢) أنظر المقريزي: اتعاظ، جـ١، ص ١٠٣ - ١٠٦، الخطط: أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص٧٤- ٧٧، الخطط، جـ٢، ص ٢٤٠.

(٣) المقريزي: اتعاظ، جـ١، ص ١١٩، انظر: النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ١٣٣.

وقام بقطع الخطبة للعباسيين من على منابر مصر وحذف أسمهم من على السكة وأحلّ اسم المعز بدلاً منهم وأزال السواد، شعار العباسيين، وألزم خطباء الجوامع بلبس الثياب البيض شعار الفاطميين(١) وأمر بفتح دار الضرب بالفسطاط التي كانت معطلة على أيام الإخشيديين، وأمر بضرب سكة جديدة من الذهب تحمل اسم المعز لدين الله(٢).

وقد أدخل جوهر بعض التغييرات على النظام الديني في مصر بمجرد دخوله والتي أثارت مشاعر المصريين السنيين فقد أذن في جميع المساجد «حي على خير العمل» وأعلن بتفضيل علي بن أبي طالب على غيره وجهر بالصلاة عليه وعلى الحسن والحسين وفاطمة الزهراء رضوان الله عليهم .. وأمر الإمام بجوامع مصر أن يجهر بالبسملة في الصلاة وزيد في صلاة الجمعة القنوت في الركعة الثانية وأمر في المواريث بالرد على ذوي الأرحام وألا يرث مع البنت أخ ولا أخت ولا عم ولا جد ولا ابن أخ ولا ابن عم وغيرها مما غيره في نظام المواريث وصار صوم شهر رمضان والفطر طبقا لحساباتهم» فانقطع طلب الهلال من مصر وصام القاضي وغيره مع القائد جوهر كما يصوم وأفطروا كما يفطر» (٣).

وطوال حكم الفاطميين، لم يخرج أحد من القضاة أو الدعاة لرؤية الهلال، وأزال جوهر التكبير بعد صلاة الجمعة(٤) وكان يشجع الناس على الدخول في المذهب الشيعي بإسناد الوظائف الهامة لمعتنقيه من مصريين ومغاربة(٥).

ويقول بعض المؤرخين بأن جوهر قد أدخل إلى جانب الإصلاحات الدينية العديد من الإصلاحات الاقتصادية والمالية وغيرها، وهذه في الواقع ليست إصلاحات

---

(١) نفسه، أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية، ص ٧٧ - ٧٨.

(٢) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨١، ص ١٣٢ - ١٣٣.

(٣) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٣٣٩ - ٣٤٠.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم، جـ٧ ص ٤٧، ابن خلكان: وفيات، جـ١، ص ٣٧٦، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١١، ص ٢٦٦، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ١٦٤.

(٥) علي إبراهيم حسن: تاريخ جوهر، ص ١٢١.

بالمعنى المفهوم، وإنما تنظيمات جديدة أدخلت لتلائم الوضع الجديد، فقد كانت مصر تمر بأزمة اقتصادية طاحنة منذ عام ٣٥٢هـ / ٩٦٣م قبل وصول جوهر إلى مصر واستمرت ثلاث سنوات بعد دخول الفاطميين إليها[١]. وقد تمكن جوهر من السيطرة على الموقف فبعث مناديًا نادى في الناس «من عنده قمح فليخرجه وفرق الصدقات على الناس»[٢] ثم ولى الحسبه إلى سليمان بن عزه الذي ضرب الطحانين وطاف بهم البلد[٣] وجمع القماحين وحصر مكان البيع وجعل له طريقًا واحدًا حتى يستطيع معرفة مقدار القمح الخارج[٤].

إلا أن الظروف التي مرت بها البلاد وبصفة خاصة نقص فيضان النيل وما ترتب عليه من تفشي الوباء وكثرة الأمراض وموت الناس وضعت جوهر أمام مسئولية جسيمة في محاولة جادة منه للسيطرة على الموقف فاتخذ الإجراءات العديدة، لذلك حتى ظهرت بوادر الانتعاش الاقتصادي في سنة ٣٦١هـ / ٩٧٢م[٥] واهتم جوهر بإصلاح أحوال الزراعة في مصر، فقد أدرك ذلك القائد المحنك أن الاهتمام بالزراعة هو أقصر الطرق لجلب الرخاء لمصر، كما أنه أصلح الجسور والقناطر[٦] وقام بمضاعفة ضريبة الخراج حتى يتمكن من الإنفاق على متطلبات الإصلاح الاقتصادي[٧].

أما بالنسبة لإصلاحاته للنظام النقدي، فقد وعد المصريين في أمانه بإصلاح العملة المصرية وضربها على نفس عيار العملة الفاطمية في إفريقية ذلك أن المصريون استخدموا وغيرهم من المسلمين منذ زمن الفتح نقودًا ذهبيةوفضية ونحاسية إلى جانب أخرى مخلطة وكانت الدنانير لا تستخدم إلا عند المدفوعات

---

(١) المقريزي: إغاثة الامة بكشف الغمة، ص ١٢ - ١٤.

(٢) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ١٣٠.

(٣) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ١٢ - ١٤.

(٤) أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية، ص ٨٠.

(٥) المقريزي : إغاثة الأمة، ص ١٣: ١٤.

(٦) ابن إياس : بدائع الزهور، جـ١١، ص ١٩١.

(٧) المقريزي : الخطط، جـ١ ص ٨٣: ٩٩، أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية، ص ٨١.

الضخمة وخاصة العقارات، أما في استخدام النقود في الحياة اليومية فكانت تستبدل القطع الفضية مقابل الدنانير وذلك بواسطة الصيارفة وعند الفتح الفاطمي، كان «الدينار الراضي»(١) هو العملة المتداولة بين الناس، كما كانت تستخدم دنانير من الفضة المذهبة تسمى «الدينار الأبيض»(٢).

فلما ضرب جوهر «الدينار المعزي»(٣) سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م، عمل على تثبيت قيمة الدينار الراضي عند خمسة عشر درهمًا بينما بلغت قيمة الدينار المعزى خمسة وعشرين درهمًا. ومنع الناس من التعامل بالدينار الأبيض ثم خفض قيمته من عشرة دراهم إلى ستة دراهم مما تسبب في إفلاس بعض الناس فأعاد تقدير قيمته سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٣م فرفعت ثمانيه دراهم وبعد وصول المعز لدين الله كان الدينار المعزي هو العملة الرسمية(٤) واهتم جوهر بالناحية المعمارية وما زالت آثار الفاطميين قائمة إلى يومنا هذا تشهد على عظمة مبانيهم وفخامتها وأبهتها تلك التي بدأها القائد جوهر الصقلي فقد حفر أساس قصر المعز في نفس الليلة التي وصل فيها(٥).

كما أنه اختط القاهرة و«قرر كل جانب منها على أمير من أمراء عسكره وأرصده لبناء تلك الحارة حسبما أمره المعز لدين الله فسميت كل حارة باسم مقدمها أو الطائفة التي نزلت بها وابتدأ بالعمارة في شهر رمضان من السنة»(٦) فأصبحت

(١) الدينار الراضي: هو الدينار الذي ضربه العباسيون المقريزي : الخطط، جـ٢، ص ٦ والاتعاظ جـ١، ص ١٢٢، النقود الإسلامية، ص ٦٥.

(٢) الدينار الأبيض: وهو دينار منخفض القيمة حيث ترتفع فيه نسبة الفضة وكان مستخدمًا في التداول قبل وصول المعز إلى مصر شأن الدينار الراضي المقريزي : النقود الإسلامية ص ٦٥، الاتعاظ جـ١ ص ١٢٢ - ١٣٢.

(٣) الدينار المعزّي: وقد ضربه جوهر الصقلي سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م وقد بلغت قيمته خمسة وعشرين درهمًا، المقريزي : النقود الإسلامية، ص ٦٥.

(٤) أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية، ص ٨١: ٨٢.

(٥) المقريزي : الخطط، جـ١، ص ٣٦٠، النويري : نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ١٣٠.

(٦) النويري : نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ١٣٠.

من أكبر العواصم الإسلامية وابرزها وقاعدتها الحضارية التي خـرج منهـا العلـم والثقافة والفنون والأدب إلى سائر دول الإسلام، واصبحت مقصد الشعراء والكتـاب واختطت كل قبيلة خطة عرفت بها: فزويلة بنت الحارة المعروفـة بهـا، واختطـت جماعة من أهل برقة الحارة البرقية، واختطت الروم حـارتين: حـارة الـروم الآن وحارة الروم الجوانية بقرب باب النصر(١)، كما شرع جوهر في بناء الجامع الأزهر سنة ٣٥٩هـ / ٩٧٠م وأكمل بناءه سنة ٣٦١هـ / ٩٧٢م وأقيمت فيه أول صـلاة جمعة في شهر رمضان من نفس السنة(٢).

وعمل جوهر على تأمين حدود مصر عسكريًا فكان غرضه بإختطاط القاهرة في ذلك الموضع الذي اختاره لها أن تكون حصنًا يحمى مصر من القرامطـة، وأحـاط المناخ الذي نزل فيه بعسكره بسور من اللبن وأنشأ من داخل السور جامعًا وقصـرًا لتكون بمثابة معقلا يتحصن به ويقيم به عساكره وقام بحفر خندق من جهه الشـام ليمنع اقتحام عساكر القرامطة إلى القاهرة وما وراءها(٣) وبني على هذا الخندق بابًا كبيرًا وركب عليه بابًا من الحديد كان على الميدان الإخشيدي وبنـي عليـه بـابين آخرين(٤).

وفي سنة ٣٦٠هـ / ٩٧٠م، بني جوهر سورًاعلى القصور التي بناها من قبل وجعلها بلدًا وسماها المنصورية. ولما جاء المعز سماها القاهرة(٥) ثم شـرع سـنة ٣٦١هـ / ٩٧١م بحفر خندق يحمى طريق الحج من ناحية بحر القلزم(٦).

كما قام بتأمين حدود مصر من جهة النوبة وأخضع ملكهم(٧) وقام بتوطيد سلطة

---

(١) ابن خلكان : وفيات، جـ١، ص ٣٧٦، ابن الوردي : تتمة المختصر، جـ١، ص ٤٠٨.

(٢) المقريزي : الخطط، جـ١، ص ٣٦٠ - ٣٦١.

(٣) نفسه: جـ٢، ص ٢٧٢.

(٤) المقريزي : الخطط، جـ١، ص ٣٦٠.

(٥) النويري : نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ١٣٦.

(٦) نفسه ص ١٣٧.

(٧) المسعودي : مروج الذهب، جـ٢، ص ١٢٩ - ١٣٠، أيمن فؤاد سيد: الدولـة الفاطميـة، ص ٨٣- ٨٤.

الفاطميين في بلاد الشام وفلسطين بعد هزيمة جعفر ابن فلاح لأن جنده قد خذلوه فسقط قتيلاً في الميدان، فلم تكن له الصفات السياسية والقيادية التي عند جوهر فجاء هذا وقضي على القرامطة ولولاه لتم لهؤلاء دخول مصر وإزالة الفاطميين منها(١).

وكان يجلس بنفسه للنظر في المظالم ويعدل بين الناس ويرد إليهم حقوقهم يرد أي ظالم يتعدى على حقوق الغيرحتى ولو كان أقرب خاصته، وكثيرًا ما كان يعاقب الجند المغاربة بالقتل إذا تعدوا على الأهالي(٢).

واشتهر جوهر بالتواضع وحسن الخلق، فقد ذكر المقريزي حوارًا بين جوهر وابن عمار في عهد العزيز الذي اصطنع منجوتكين التركي وقدمه وخرج من القصر راكبًا وحده وهذا يدل على ارتقائه مكانة عاليه في عهد العزيز، وخرج جوهر وابن عمار ومن دونهما من أهل الدولة مشاة في ركابه فثقل ذلك على نفس ابن عمار لأن الناس كانوا يمشون من قبل في ركاب جوهر ولكن جوهر كان حكيمًا حين رد عليه قائلاً: «يا أبا محمد ، لكل زمان دولة ورجال .. أتريد نحن أن نأخذ دولتنا ودولة غيرنا .. لقد أرجل لي مولانا المعز لما سرت إلى مصر أولاده وإخوته وولى عهده وسائر دولته فتعجب الناس من ذلك وها أنا اليوم أمشي راجلاً بين يدي منجوتكين .. أعزونا وأعزوا بنا غيرنا»(٣). ومن يقرأ رد جوهر يتبين مدى حكمته وتواضعه وكذلك مدى اخلاصه للعزيز الفاطمي ولقد أحب المصريون جوهر لأنه أحب مصر فأحبته ولما توفي رثاه شعراؤها أبلغ الرثاء بل لم يبق بها شاعر إلا رثاه(٤).

وقد وصفه الذهبي فقال: «كان عاقلاً سائسًا حسن السيرة وفي الرعية على دين

---

(١) العبادي : في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٢٥٧، علي إبراهيم حسن : تاريخ جوهر ص١٢٠.

(٢) علي إبراهيم حسن : تاريخ جوهر، ص ١٢١.

(٣) المقريزي : الخطط، جـ١، ص ٣٧٨.

(٤) ابن خلكان : وفيات، جـ١، ص ٣٧٦، المقريزي : خطط، جـ٢، ص ٧٥، ابن تغرى، النجوم، جـ٤، ص ٣٣.

مواليه ولم يزل عالي الرتبة نافذ الكلمة إلى أن مات»[١].

وقد مرض جوهر سنة ٣٨١هـ / ٩٩١م وزاره العزيز وبعث إليه بخمسة آلاف دينار ومزينة بمثقل، كما بعث إليه منصور ابن العزيز خمسة آلاف دينار أخرى[٢].

وتوفي جوهر الصقلي سنة ٣٨١هـ / ٩٩١م بمصر[٣] فكفن في سبعين ثوبًا ما بين مثقل ووشى مذهب وصلى عليه العزيز وولى ابنه الحسين رتبة أبيه ولقبه بالقائد بن القائد[٤].

---

(١) الذهبي : العبر في خبر من غبر جـ٢، ص ١٥٨.

(٢) المقريزي : اتعاظ جـ١، ص ٢٧٢.

(٣) ابن خلكان : وفيات جـ١، ص ٣٧٦، ابن الوردي : تتمة المختصر جـ٣٤١.

(٤) المقريزي : اتعاظ جـ١، ص ٢٧٢.

برجوان الصقلبي

هو الأستاذ أبوالفتوح برجوان وكان خصيًا صقلبيًا أبيض تام الخلقة[(١)]، ربي في دار الخليفة العزيز بالله وكان من خدام العزيز، فلما حضرته الوفاة وصاه على ابنه الأمير أبي على منصور الملقب بالحاكم لثقته به ، فلما مات العزيز بالله أقيم ابنه منصور في الخلافة من بعده وكان عمره وقت توليه الخلافة إحدى عشرة سنة[(٢)].

وكان برجوان مدبر مملكة الحاكم، فضبط الملك وحفظه له حتى كبر[(٣)]. وقد سنحت الفرصة لبربر كتامة لاستعادة نفوذهم الذي تقلص بسبب سياسة الوزير ابن كلس تجاههم وشرطوا على الحاكم أن يولى الحسن بن عمار المغربي الوساطة[(٤)].

وكان الخلاف مستحكمًا بينه وبين برجوان الذي كان «يختص بطوائف من العسكر دونه إلى أن أفسد أمر ابن عمار»[(٥)].

وكان ابن عمار قد انحاز إلى المغاربة وزاد في أعطياتهم وأساء إلى الأتراك

---

(١) وقد وصفه ابن خلكان بأنه كان أسود وفيات جـ١، ص ٢٧٠ وأنظر: أبو الفدا : المختصر جـ٢، ص ١٣١، المقريزي : الخطط جـ٢، ص ٣.

(٢) مخطوط شرح اللمعة ص ٥ مجهول، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٤ أبو شامة : الروضتين، جـ١، ق ٢، ص ٤٩٤ حاشية ٢، ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص ٢٧٠، أبو الفدا : المختصر، جـ٢، ص ١٣١، ابن أيبك : كنز الدرر، جـ٦، ص ١٤٢، ابن كثير : البداية والنهاية جـ١١، ص ٢٣٧، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٥٦، المقريزي الخطط، جـ٢، ص ٣، ابن تغرى بردي : النجوم، جـ٤، ص ٤٨.

(٣) أبو الفدا : المختصر، جـ٢، ص ١٣١، ابن أيبك : كنز الدرر، جـ٦، ص ١٤٢، ابن الوردي : تاريخه، ص ٤٣٥، ابن تغرى بردي : النجوم، جـ٤ ص ٤٨، وأنظر أيضًا: : Yaacov Lev, ..Arab history and civilization. state and society V.1 P.75

(٤) ابن الصيرفي : الإشارة ص ٥٦ - ٥٧ ابن القلانسي : ذيل ص ٤٤ - ٤٥، ابن ميسر : المنتقى، ص ١٧٧ والوساطة معناها : الوزارة انظر المقريزي : الخطط، جـ٢، ص ١١ - ٣٠.

(٥) المقريزي : الخطط، جـ٢، ص ٣.

والمشارقة حتى اضطر جماعة منهم إلى الهرب من مصر فرّدوا قبل أن يغادروها[1].

وسيطر الكتاميون على الدولة، وحدثت مناوشات بينهم وبين المشارقة انتهت بقتل احد المغاربة فطلبوا القاتل للثأر منه، وبعد الاتفاق على أخذ دية قدرها ألف دينار منه وتركه وثب الكتاميون على الجاني فقتلوه. وثار المشارقة وقامت بينهم وبين المغاربة معركة كبيرة سنة ٣٨٧هـ / ٩٧٧م استمرت ثلاثة أيام أصروا فيها على أن يشاركهم ابن عمار الحرب ولكنهم انهزموا علىّ يد المشارقة ونهبت ديارهم ودار ابن عمار فولى برجوان الوساطة مكانه سنة ٣٨٧هـ / ٩٧٧م[2].

واستطاع أن يكسب ثقة الحاكم حتى أنه صار الواسطة بينه وبين الناس، وطلب من الغلمان عدم التعرض للمغاربة في نفس الوقت الذي عمل فيه على إقصاء هؤلاء المغاربة من الوظائف الهامة تدريجيًا وإحلال الصقالبة محلهم[3].

ويبدو أن برجوان هو الذي دبر الوقيعة بين ابن عمار والأتراك، وقد خاف على نفسه من كتامة والحسن بن عمار، فاتفق مع الأتراك والمشارقةواستقطبهم إلى جانبه وشرع هو وابن عمار كل منهما يدبر للآخر، فرتب له الحسن بن عمار جماعة في دهليزه للإيقاع به وبشكر خادمه، وكان لبرجوان عيون كثيرة ترقب الحسن بن عمار فعلم بهذه الحيلة فاتفق كل من برجوان وشكر على التأكد مما قيل ولما تأكدوا عادوا مسرعين وجرّد الغلمان الذين رافقوهم من سيوفهم[4].

ويصف كل من ابن القلانسي والنويري[5] تلك الواقعة بأنهما «دخلا إلى قصر الحاكم يبكيان لديه ويستصرخان به وثارت الفتنة واجتمع الاتراك والديلم والمشارقة

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٨ - ٤٩، ابن ميسر : المنتقى، ص ١٧٧، ١٧٨، ١٨٨، المقريزي : الخطط، جـ٢ ص ٣٦، اتعاظ، جـ ٢، ص ٤، ١٠، ص ١٢، ١٣.

(٢) الأنطاكي : تاريخه، جـ٢، ص ٤٥٣، ابن الصيرفي : الإشارة، ص ٥٧، المقريزي: خطط، جـ٢، ص ٣، عنان : الحاكم بأمر الله، ص ٤٧.

(٣) المقريزي : الخطط، جـ٢ ص ٣، عبد الله جمال الدين : الدولة الفاطمية، ص ٢١٠.

(٤) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص٤٨-٤٩، النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص١٧١-١٧٢.

(٥) المصدرين السابقين.

وعبيد الشرا بالسلاح على باب القصر، وبرجوان يبكي ويقول لهم يا عبيد مولانا احفظوا العزيز في ولده وارعوا فيه ما تقدم من حقه، وهم يبكون لبكائه».

وانتهت الأزمة بفرار ابن عمار ومن معه إلى الصحراء، وفتح برجوان خزائن السلاح وفرقهاعلى الغلمان ونهبت دار ابن عمار، وفتح برجوان باب القصر وأجلس الحاكم وأخذ له بيعة مجددة على الجند وكتب الأمانات للمغاربة من وجوه كتامة وقواد الدولة فجاءت جماعة منهم وأعطت الإيمان وتعهدت بالسمع والطاعة[1].

وقد كثر مال برجوان وعظم شأنه[2] واشتهر بالبذخ والترف، فقد تميز العصر الفاطمي بهما وإليه نسبت حارة برجوان بالقاهرة[3].

وقد حفظ وصية العزيز في ولده وكان حريصًا على رعاية مصالح الحاكم فكان «لا يدعه يركب لغيرضرورة أو يعطى أحدًا عطية دون استحقاق»[4].

وكان ذلك من أسباب ضيق الحاكم ببرجوان فقد شعر أنه يحجر عليه كما أن المحيطين به أعداء برجوان أوعزوا للحاكم أنه يريد التسلط عليه وأنه يستبد بالأمور دونه[5].

وقد زاد برجوان من استقلاله بأمور الدولة حتى ضاق به الحاكم ذرعًا فيقول المقريزي «وجعل كاتبه أبا العلاء فهد بن إبراهيم النصراني يوقع عنه فجلس لذلك في القصر وصار يطالعه بجميع ما يحتاج إليه ورتب الغلمان في القصر وأمرهم بملازمة الخدمة وتفقد أحوالهم» ... وكان برجوان يجلس في دهاليز القصر ويجلس

---

(١) مخطوط شرح اللمعة : مجهول، ص ٥، ابن أيبك : كنز، جـ٦، ص ١٤٢، ابن كثير : البداية والنهاية، جـ١١، ص ٣٢٧، القلقشندي : صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٥٦.

(٢) أبو شامة : الروضتين، جـ١، ق٢، ص ٤٩٤ حاشية ٢.

(٣) ابن خلكان : وفيات، جـ١، ص ٢٧٠، ابن أيبك : كنز، جـ٦، ص ١٤٢، ابن كثير : البداية والنهاية، جـ١١، ص ٣٢٧، المقريزي : الخطط، جـ٢، ص ٣.

(٤) ابن العبري : تاريخ الزمان، ص ٧٤، النويري : نهاية جـ٢٨، ص ١٧٤.

(٥) النويري : نهاية الأرب جـ٢٨، ص ١٧٥.

الرئيس فهد بالدهليز الأول يوقع وينظر ويطلع برجوان ما يحتاج إليه مما يطالع به الحاكم فيخرج الأمر بما يكون العمل به.. وترقت أحوال برجوان إلى أن بلغ النهاية فقصر عن الخدمة وتشاغل بلذاته، وأقبل على سماع الغناء وأكثر من الطرب وكان شديد المحبة في الغناء فكان المغنون من الرجال والنساء يحضرون داره فيكون معهم كأحدهم(١).

فلما تزايد الأمر وكثر استبداده بعد أن أبعد والدة الحاكم من شئون الحكم، لم يتح لها الفرصة للتدخل أو حماية ابنها من وصاية برجوان الخطرة(٢) إلى جانب إغراء ريدان الصقلبي خادم الحاكم الذي حقد على برجوان فأوعز للحاكم أنه يريد الإستبداد بالأمور دونه وكان من جملة ما قاله له: «إن هذا يقصد أن يفعل بك كما فعل كافور الأخشيدي مع أولاد سيده»(٣).

وأدرك الحاكم رغم صغر سنه حجم الخطر الذي يتعرض له من استبداد برجوان فما لبث أن تبدلت مشاعره نحوه حتى أنه اتفق مع ريدان الصقلبي هذا على قتله، وتناسى أنه هو الذي حفظ له ملكه حتى شب يافعً، وكانت له بصماته وإضافته رغم قصر مدة ولايته للوزارة فهو إلى جانب أنه حفظ له ملكه فقد حفظه له أيضًا وحماه من عمته ست القصور التي كانت قد دبرت لأقصائه وإحلال ابن عمها عبد الله مكانه إذ «كانت مشتهاة عليه» فقبض عليه برجوان وأرسلها في حراسة ألف فارس إلى قصرها بالقاهرة وجدد بيعة الناس للحاكم وأحلفهم على الطاعة له سنة ٣٨٦هـ/٩٦٦م(٤).

وفي أحد الأيام، حينما كان الحاكم وبرجوان في بستان اللؤلؤة، باغته ريدان الصقلبي بسكين ضربه بها في ظهره وأخرجها من صدره، فقال برجوان للحاكم

---

(١) المقريزي : الخطط، جـ٢، ص٣، وأنظر: الصيرفي : الإشارة إلى من نال الوزارة، ص ٥٧.

(٢) عنان : الحاكم بأمر الله، ص ٤٨.

(٣) النويري : نهاية الأرب، جـ٢٨ ص ١٧٥، المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص ٢٦ حاشية ١.

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٤.

«غدرت»، فصاح الحاكم على خدمه وأمرهم أن يفصلوا رأسه عن جسده[1] فخرج عقيق الخادم يصيح على الناس: قتل مولاى وكان مقربًا إلى برجوان ومتوليًا خزاناته الخاصة[2] فكان مقتله سنة ٣٩٠هـ / ٩٩٩م[3].

فثار الناس وتسابقوا إلى القصر ووقفوا عنده فخافهم الحاكم[4] وصاح فيهم أن من كان على طاعة الخليفة فلينصرف ويأتي في الصباح الباكر إلى القصر المعمور[5]. ثم اعتلى الحاكم مكانًا عند أحد أبواب القصر والقى السلام على المتجمهرين وابلغهم أنه «قد استبان لي عذر من برجوان فقتلته»، وطلب منهم الطاعة وبكى أمامهم[6] فترجلوا وقبلوا الأرض[7] وتركوه وانصرفوا وأطلق فيهم الأرزاق حتى تسكن الفتنة[8].

ومما يدل على أن برجوان كان يتمتع بحب العامة واحترامهم، خروجهم متذمرين لحظة علمهم بمقتله وخروج الحاكم إليهم واستدرار عطفهم وإطلاق الأرزاق لهم وإيجاد مبرراته لقتل برجوان واستجدائه لهم قائلاً أرجو أن تكونوا معى لاعلى لأني فتى بعدُ .. وبكى أمامه ولا طفهم فتركوه وانصرفوا .. وبعد هذا استدعى الحاكم فهد النصراني الكاتب ووشحه بحلية ملكية ترطيبًا لقلوب الأهالي وقال له: كن مطمئنًا وتولّ توزيع ارزاق الدولة»[9].

---

(١) ابن خلكان : وفيات، جـ١، ص ٢٧٠، النويري : نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ١٧٥، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١١، ص ٣٢٧، المقريزي : اتعاظ، جـ٢ ص ٢٥، ٢٦

(٢) المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص ٢٥، ٢٦.

(٣) ابن الصيرفي : الإشارة ص ٥٧، ابن خلكان : وفيات، جـ١، ص ٢٧٠.

(٤) ابن العبري : تاريخ الزمان، ص ٧٤.

(٥) المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص ٢٥٨، ٢٥٩

(٦) ابن العبري : تاريخ الزمان، ص ٧٤.

(٧) النويري : نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ١٧٥.

(٨) ابن العبري : تاريخ الزمان، ص ٧٤.

(٩) نفسه.

وقد خلف من الأموال والجواري ما لا يمكن حصره «ومن سائر الأجناس ما لا يحصى»[١] فقيل أنه خلف ألف سروال ديبقي بتكة حرير[٢] وعدد كبير من الآلات الموسيقية[٣] وألف نافجة مسك ومن الجواهر والأواني والملابس والمتاع ما قيمته خمسمائة ألف دينار واربعة آلاف دابة[٤]، ومن الخيل الركابية مائة وخمسين فرسًا وخمسين بغلة ومن بغال النقل ودواب الغلمان نحو ثلثمائة رأس ومائة وخمسين سرجًا منها عشرون ذهبًا ومن الكتب شيء كثير وحمل لجاريته من مصر إلى القاهرة رحل على ثمانين حمارًا[٥].

ومن أعماله أنه في سنة ٣٨٧هـ / ٩٩٧م «جدد بياض المسجد الجامع وقلع شيئًا كبيرًا من الفسيفساء الذي كان في أروقته وبيض مواضعه ونقشت خمسة ألواح وذهبت ونصبت على أبوابه الخمسة الشرقية» ويذكر ابن دقماق: إن اسمه كان ثابتا في الألواح، فقلع بعد قتله[٦]، ومما يدل على مدى تسلطه واستئثاره بالأمور إلغائه لوجود الحاكم تمامًا حتى أن الإنشاءات التي تمت في عصر الحاكم يحفر عليها اسم برجوان دون الحاكم.

وعن أعماله العسكرية تجدر الإشارة إلى أنه سير جيشًا إلى الشام وعلى رأسه حبيش بن الصمصامة ليحل محل سليمان بن جعفر الكتامي وذلك لاستعادة دمشق والقضاء على الثورات والاضطرابات التي ثارت في الشام، وانتصر على الروم في شمال الشام واستطاع استعادتها كما سير جيشًا إلى برقة وعلى رأسه يانس الصقلبي

---

(١) مخطوط شرح اللمعة مجهول، ص ٥.

(٢) أبو شامة : الروضتين، جـ١، ق٢ ص ٤٩٤ حاشية ٢، ابن أيبك : كنز الدرر، جـ٦، ص ٢٦٥، ابن كثير : البداية، جـ١١، ص ٣٢٧، القلقشندي : صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٥٦.

(٣) أبو شامة : الروضتين، جـ١، ق٢ ص ٤٩٤، حاشية ٢.

(٤) ابن أيبك : كنز الدرر، جـ٦، ص ٢٦٥.

(٥) المقريزي : الخطط، جـ٢، ص ٤.

(٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٤.

للقضاء على الثورات هناك[1].

وكانت مدة وزارته للحاكم سنتين وثمانية أشــهر. فقــد تــولى فــي رمضــان ٣٨٧هـ / ٩٧٧م وقتل في ربيع الآخر ٣٩٠هـ / ٩٩٩م[2].

---

(١) ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ق١، ص ٦٨.

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ١، ص ٢٧٠ أنظر: ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٤، المقريزي : الخطط، جـ٢ ص ٤، وأبو شامة الروضتين، جـ١، ق٢، ص ٤٩٤.

بدر الجمالي ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م

كان من مماليك جمال الدولة بن عمار صاحب طرابلس الشام وتربـي عنـده، وكان من الرجال المعدودين من ذوي الآراء والشهامة وقوة العزم فظل يتدرج في المناصب لدى مولاه إلى أن ولى دمشق سنة ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م و«انفصل بعد عام ثم وليها والشام كله في سنة ثمان وخمسين» بعد ان قضى على بعض المناوشات[١] التي أثارها الجند مع العامة واضطر على أثرها إلى الخروج من دمشق ثم جمع الجند وكون جيشاً وقدم إلى الشام فاستولى عليه بأسره سنة ٤٥٦هـ / ١٠٦٧م ثم خالفه أهل دمشق مرة أخرى ففارقهم سنة ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م إلى عكا وقام الجند والعامة بتخريب قصر الأمارة فيها[٢].

وفي سنة ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م، أرسل المستنصر الفاطمي في استدعاء بدر الجمالي من الشام[٣] لإصلاح أحوال البلاد التي تدهورت في مصر فقد كان المماليك من الأتراك يقاتلون الجنود السودان في مصر، وحل القحط بالبلاد لمدة سبعة أعوام استنفذت مواردها وتلاشت هيبة الحكومة أمام نزاع الطوائف. وأطاح الجوع والمرض بالناس، وقضى التخريب والعنف على ازدهار البلاد[٤].

وقد وصف ابن الصيرفي حال مصر في تلك الفترة أبلغ وصف قائلاً: «وكانت الأحوال يومئذٍ بالحضرة قد فسدت والأمور قد تغيرت وطوائف العسكر قد تبعثرت

(١) ابن الصيرفي : الإشارة، ص ٩٤، ابن الأثير : الكامل، جـ١٠، ص ٢٣٥، ابن خلكان : وفيات، جـ٢ ص ٤٤٨، أبو الفدا : المختصر، جـ٢، ص ١٩١، الذهبي : العبر، جـ٢، ص ٣٥٧، المقريزي خطط، جـ١، ص ٣٨١، ابن تغرى بردي : النجوم، جـ٥، ص ١٤١، الحنبلي: شذرات جـ٣، ص ٣٨٣، استارجيان : تاريخ الأمة الأرمينية، ص ١٧.

(٢) ابن الصيرفي : الإشارة، ص ٩٤، ابن الأثير : الكامل، جـ١٠، ص ٢٣٥.

(٣) ابن خلكان : وفيات، جـ٢ ص ٤٤٨، أبو الفدا : المختصر، جـ٢ ص ١٩١، النويري : نهاية جـ٢٨، ص ٢٣٤، ابن الوردي : تاريخه، ص ٥٢٤، ابن تغرى بردي : النجوم، جـ٥، ص ١٤١.

(٤) المقريزي : اغاثة الأمة، ص ٢٤ – ٢٦.

وتخربت والفتن بينهم قد اتصلت وتأكدت والوزراء يقنعون بالاسم دون الأمر والنهي والرخاء قد أيس منه والصلاح لا يطمع فيه، ولواته قد ملكت الريف، والصعيد بأيدي العبيد، والطرقات قد انقطعت برًا وبحرًا بالخفارة الثقيلة والكلفة الكبيرة مع ركوب الغرر وشدة الخطر والمارقون ينوى بعضهم لبعض الاحتيال والغدر ويضمر كل منهم لصاحبه الاغتيال والبغي»(١).

لم يجد المستنصر الفاطمي بدًا من استدعاء ذلك القائد الشجاع لإنقاذ مصر الفاطمية من براثن الفوضى، فقد كانت شهرته ذائعة في بلاد الشام ولكنه كان صارمًا مع جنده الذين لم يتعودوا على تلك الصرامة مما أدى إلى تذمرهم، وقد اصبح من أكبر قواد عكا وحارب جند ملكشاه حين زحف السلاجقة على الشام وكان له حرس خاص من الأرمن المخلصين له وكانوا في صحبته عند استدعاء الخليفة له سنة ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م(٢).

وحين أرسل إليه المستنصر الدعوة لإنقاذ مصر، صادفت هذه الدعوة هوى في نفسه فقد كان وهو بالشام يتحسر على ما يبلغه من أمرها ويتلهف علىكونه بعيدًا عنها وينتظر فرصة ينتهزها في المهاجرة إليها»(٣).

وأرسل بدر يطلب من المستنصر القبض على بلدكوز قائد الأتراك، واشترط عليه الحضور بجنوده الأرمن فوافق المستنصر على ذلك وقبض على بلدكوز واعتقله في خزانة البنود(٤).

ووصل أمير الجيوش مصر في شهر ربيع الآخر سنة ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م(٥)

---

(١) ابن الصيرفي : الإشارة ص ٩٥ وراجع ابن ميسر: أخبار، جـ٢، ص ٢٢، ابن تغرى بردي جـ٥، ١٤١، استارجيان : تاريخ الأمة الأرمنية، ص ١٧.

(٢) استارجيان : تاريخ الأمة الأرمنية، ص ١٨، دائرة المعارف جـ٣، (مادة بدر) ص ٤٤٨.

(٣) ابن الصيرفي : الإشارة، ص ٩٥.

(٤) نفسه ص ٩٦، ابن ميسر : المنتقي ص ٣٩، النويري : نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٢٣٤، ابن الوردي : تتمة المختصر، جـ١ ص ٥٢٤.

(٥) ابن الصيرفي : الإشارة، ص ٩٦، ابن خلكان : وفيات، جـ٢، ص ٤٤٩.

وقيل في ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م[١] وقد أصر على ركوب البحر في الشتاء وكان من المتعارف عليه عدم السفر بالبحر في هذه الفترة من السنة لخطورته[٢]، وهذا يدل على شدة لهفة بدر للحضور وانتظاره لهذه الفرصة فجاء في مائة مركب ووصل إلى دمياط وأقام فيها واقترض من تجار تنيس مالاً ثم سار فنزل في قليوب[٣]، ثم وصل إلى مصر وعقد مجلسًا عظيمًا يوم وصوله وجمع الناس واستفتح قارئًا ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾[٤] وقطع الآية، فقال المستنصر: لو أتمها لأمرت بضرب عنقه[٥].

وقد قلده المستنصر الوزارة في احتفال مهيب ففي وصف توليته ذكر صاحب السجلات أن المستنصر خرج من حجرات قصره إلى الإيوان وهو القاعة ذات الأعمدة، حيث أقيم حفل تولية بدر بحضور رجال الدولة وكبرائها ودعاتها وقضاتها فقدم الخليفة سجل تولية بدر والذي لم يكتب مثله من قبل، ذكر فيه بعضًا من أعماله، وكان نصه: «وقد قلدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره وناط بك النظر في كل ما وراء سريره، فباشر ما قلدك أمير المؤمنين من ذلك مدبرًا للبلاد ومصلحًا للفساد ومدمرًا أهل العناد»[٦].

وكان السجل قد وضع في لفافه مذهبه وقبله الخليفة أمام الحاضرين ليمنحه البركة ومنح المستنصر بدرًا خلع الوزارة البيضاء شعار الفاطميين كما خلع ثوبه وأعطاه له للبركة، كما خلع عليه بالطيلسان[٧] وزيد في القابه كافل قضاة المسلمين،

---

(١) أبو الفدا : المختصر، جـ٢، ص ١٩١، ابن الوردي : تاريخه، ص ٥٢٤.

(٢) ابن ميسر : أخبار، جـ٢، ص ٢٢، ابن خلكان : وفيات، جـ٢ ص ٤٤٩، أبو الفدا: المختصر، جـ٢، ص ١٩١، ابن الوردي : تتمة المختصر، جـ١، ص ٥٢٥.

(٣) ابن ميسر : المنتقي، ص ٣٩، النويري : نهاية، جـ٢٨، ص ٢٣٤.

(٤) سورة آل عمران آية ١٢٣.

(٥) تمامها «وأنتم أذلة»: فإذا أتمها كان المستنصر قتله، أنظر : كنز الدرر : ابن أيبك، جـ٦، ص ٣٩٩.

(٦) السجلات المستنصرية سجل رقم ٥٩ ص ١٩٤ - ١٩٥، ابن خلكان : وفيات، جـ٢ ص ٤٤٩، المقريزي : خطط، جـ١ ص ٤٣٩.

(٧) الطيلسان هو ثوب يلبس على الكتف مثل الطرحة وغالبًا ما يكون خاليًا من التفصيل والخياطة =

كما نعت بالسيد الأجل كافل أمير المؤمنين وهادي قضاة المسلمين وناصر دعاة الدين أمتع الله ببقائه أمير المؤمنين[1].

وولي وزارة السيف والقلم[2] وقد كان قبوله منصب الوزارة مرحلة جديدة في تاريخ الدولة الفاطمية فقد كان ذلك بداية عصر تحكم الوزارء أرباب السيوف وأصبحوا هم الحكام المسيطرين على الدولة[3] حتى أنه أصبح يسمى عصر نفوذ الوزراء أو عصر الوزراء العظام[4].

فقد أصبح الوزير هو قائد الجيش وقاضي القضاة وداعي الدعاة ولم يكن هذا يعني أنه يجلس للقضاء بنفسه وإنما جعل القاضي والداعي نائبين عنه، وكان ذلك يذكر في الكتب الحكمية وكتب الأنكحة ومجالس الدعوة[5] ولما وصل مصر بعث كل أمير من أمرائه مكلفاً برأس قائد من قواد الدولة ليلاً ويأتي بالرأس إليه فلما أصبح

= القلقشندي : صبح الأعشى جـ١ ص٤٢٨، وأنظر: Dozy: vet P278. والطيلسان المقور هو نوع من الطيالس كانت تخيط وتعمل بها فتحة تسع الرقبة وتسدل على الأكتاف، فالمقصود بالقوارة ما قورت من الثوب أي قطعت بقصد التفصيل وقال عنه المقريزي «الطيلسان المقور يسمى اليوم بالطرحة» وقد كان الطيلسان المقور زي قاضي القضاة المقريزي : الخطط جـ١ ص ٤٣٩ و Dozy: vet P219.

(١) ابن ميسر: المنتقى، ص ٣٩، ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ١، ص ٥٢٥، ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٦، ص ٣٩٩، النويري : نهاية، جـ٢٨، ص ٢٣٨، المقريزي : الخطط، جـ٢، ص ١٢.

(٢) وزارة السيف والقلم تعني أن تكون الأمور كلها مردودة إليه ومنه إلى الخليفة دون سائر خدمة وأول من تولاها بدر الجمالي للمستنصر الفاطمي وصار وزير السيف من عهد أمير الجيوش بدر إلى آخر الدولة هو سلطان مصر وصاحب الحل والعقد وإليه الحكم في الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية وهو الذي يولي أرباب المناصب الدنيوية والدينية : المقريزي خطط جـ١، ص ٤٣٩.

(٣) ابن خلكان : وفيات، جـ٢، ص ٤٤٩، الذهبي : العبر في خبر من غبر، جـ٢ ص ٣٥٧ والحنبلي: شذرات الذهب، جـ٣، ص ٣٨٣.

(٤) جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية : الوثيقة الحادية عشر ص ١٣٠.

(٥) أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية، ص ٢٤٨، ابن الطوير : نزهة المقلتين، مقدمة التحقيق ص٤٣.

الصباح كان عنده الكثير من رؤوس أمراء الدولة وقبض على الأتراك وفر ابن بلدكوز إلى الشام(١) وفي ذلك قال المقريزي «إلى أن قدم أمير الجيوش بدر الجمالي من عكا، وقتل رجال الدولة، وأقام له جندًا وعسكرًا من الأرمن فصار من حينئذ معظم الجيش الأرمن، وذهبت كتامة، وصاروا من جملة الرعية، بعد ما كانوا وجوه الدولة وأكابر أهلها(٢).

وقد قام بدر الجمالي بالعديد من الإنجازات في مصر شملت النواحي العسكرية والإدارية والمعمارية وغيرها مما ساعد على إستقرار الأمور بالبلاد فعلى الصعيد العسكري نجده قام بقمع حركات التمرد والعصيان التي قامت ضده فقد اجتمع بمدينة طوخ العليا(٣) من صعيد مصر جماعة كثيرة من عرب جهينه والثعالبة والجعافرة للقاء أمير الجيوش بدر الجمالي فسار إليهم وحاربهم وانتصر عليهم وقتل منهم عددًا كبيرًا وغرق الكثير من الذين حاولوا الفرار وغنمت أموالهم وعاد بها إلى المستنصر(٤)

كما أحبط ثورة كنز الدولة بأسوان «وكان قد عظم شأنه هناك وكثر أتباعه فسار إليه وقاتله وقتله وبذلك يكون قد قضى على مفسدى الديار المصرية ثم افتتح بعد ذلك بلاد الصعيد وجعل الأعداء بين قتيل أو شريد أو طريد»(٥) كما رد هجوم أتسز ملك الروم الذي كان ابن بلدكوز قد التجأ إليه وأهدى إليه الجواهر الثمينة التي كان

---

(١) النويري : نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٢٣٦، ابن الوردي : تتمة المختصر، جـ١ ص ٢٥٢.

(٢) المقريزي : الخطط، جـ٢، ص ١١.

(٣) طوخ العليا يوجد بصعيد مصر ٢١ موضع كل منها يحمل إسم طوخ مضافًا إلى اسم آخر وهذه قرية في صعيد مصر الأعلى على غربي النيل وتعرف بإسم طوخ دمنو من أعمال قوص - القاموس الجغرافي، ق٢ جـ٤، ص ١٨٧.

(٤) ابن ميسر : أخبار، جـ٢، ص ٢٤ - ٢٥، النويري : نهاية، جـ٢٨، ص ٢٣٧، جمال الدين الشيال: الوثائق الفاطمية الوثيقة الحادية عشر ص ١٣٠.

(٥) ابن الصيرفي : الإشارة، ص ٩٦ وراجع ابن ميسر: أخبار، جـ٢، ص ٢٤ - ٢٥، النويري : نهاية، جـ ٢٨، ص ٢٣٧، استارجيان : تاريخ الأمة الأرمنية، ص ١٨، إسماعيل أبو العينين : مصر الإسلامية ص ٢٠ - ٢٥.

أبوه قد استولى عليها من خزائن المستنصر وأطمعه في ملك مصر وعلم أمير الجيوش بمسير أتسز إليه وكان ابن بلدكوز قد نصح أتسز بملك الريف قبل أن يملك القاهرة فجمع أمير الجيوش العساكر وخرج من القاهرة في ثلاثين ألف وسير المراكب في البحر حاملة المؤن والعتاد، وكان أتسز في خمسة آلاف فلما علم خروج بدر خاف لكن ابن بلدكوز شجعه على عدم الرجوع عما نواه ودارت الحرب بين الفريقين وانهزم آتسز وقتل أخوه وجماعة من أصحابه وهرب إلى غزة ثم إلى دمشق وأسر أمير الجيوش بقية عساكر أتسز(١).

وفي سنة ٤٧٧هـ / ١٠٨٤م خلف الأوحد بن أمير الجيوش والده واجتمع معه العربان واستولى على الإسكندرية فسار إليه والده وحاصره بها وفتحها وقبض على ولده(٢).

وأعاد تنظيم الجيش فزاد من استخدام جنود الحجرية الذين اهملوا لفترة بسبب صراع الطوائف المختلفة.

وفور انتهاء بدر من إعادة النظام اتجه بعد ذلك إلى النظر في الأوضاع الداخلية للبلاد من أجل إعادة الرخاء والإستقرار فدبر الأمور وأرخص الأسعار فأمر بإخراج الغلال وبيعها وضرب بيد من حديد على كل من يخفى غلة خزين، وإذا ثبت على شخص ذلك طلبه وأعطاه ما يكفيه منه وأهله مدة سنة كما أمر أن يباع المتبقي فكان له الفضل في رخص الأسعار بعد الغلاء الفاحش الذي تعرضت له البلاد(٣) و«أطلق الخراج للمزارعين ثلاث سنين حتى ترفعت أحوال الفلاحين واستغنوا في أيامه واحضر جماعة من التجار إلى مصر»(٤).

وعم العدل أنحاء البلاد وعادت الطمأنينة إلى قلوب الفلاحين فزاد الدخل وعم

---

(١) ابن ميسر : أخبار، جـ٢ ص ٢٥.

(٢) نفسه ص ٢٦ – ٢٧، النويري : نهاية، جـ٢٨، ص ٢٣٨، المقريزي: خطط، جـ١، ص٣٨١.

(٣) ابن أيبك : كنز الدرر، جـ٦، ص ٣٩٩.

(٤) ابن أياس : أخبار مصر، جـ٢، ص ٢٠، ابن أيبك: كنز، جـ٦ ص ٣٩٩، المقريزي : خطط جـ١، ص ٣٨١.

الرخاء وعادت للخليفة هيبته وعادت مكة إلى مبايعة المستنصر بعد أن أثرت الأحداث على ولائهم له فظلت خمس سنوات تخطب للخليفة القائم بأمر الله العباسي في بغداد(١).

ووجه اهتمامه إلى ضرورة تحصين مدينة القاهرة لحمايتها من الغزوات الخارجية أو الفتن والثورات الداخلية التي يقوم بها الجند في الداخل وكان سور القاهرة قد تهدم وزحفت المباني خارج أبوابها الثلاثة التي بناها جوهر فهدم بدر تلك الأبواب، وأعاد بناءها من الحجارة سنة ٥٧٣ - ٥٨٧هـ / ١١٧٧ - ١١٩١م وجعل المدينة تضم مساحة أكبر(٢).

كما بني جامع المقياس والجامع العتيق بإسنا وعمر المسجد العمري بالمحلة الكبرى(٣) كما بني جامع العطارين بثغر الإسكندرية(٤) وجمع الأموال لهذا من أهلها وعمَّره سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م وأقام به الخطبة وظلت به إلى آخر أيام العاضد(٥).

وفي سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م بني باب زويلة الكبير وأمر أن يجعل له عطفة كمثل أبواب الحصون وكان المقصود من ذلك أن يمنع هجوم العساكر عليه في أوقات الحصار فلا يستطيعون الدخول جملة وقد أشار عليه مهندسوه أن يعمل في بابه زلاقة من حجر الصوان فعمل برأيهم، كما نقل باب النصر من موضعه فصار قريبًا من مصلى العيد وكذلك باب الفتوح فقد وضعه بدر الجمالي(٦).

كما بني جامع الجيوشي على ظهر المقطم ونسب إليه(٧) وبني دار الوزارة أيضًا

---

(١) عبد الرحمن زكي : القاهرة، ص ٣٨ - ٣٩.

(٢) نفسه، ص ٣٨ - ٣٩.

(٣) عاطف مرقص : الأرمن وعلاقاتهم، ص ٢٤١.

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ٢، ص ٤٥٠، ابن كثير البداية والنهاية، جـ١٢، ص ١٤٧.

(٥) ابن ميسر : المنتقى ص ٤٦، النويري : نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٢٣٨، ابن كثير : البداية والنهاية، جـ٢، ص ١٨٩.

(٦) ابن ميسر: المنتقي، ص ٥١، النويري : نهاية، جـ٢٨، ص ٢٣٩، المقريزي : خطط، جـ١، ص٣٨٥.

(٧) ابن ميسر : أخبار مصر، جـ٢ ص ٢٩، ماجد: ظهور خلافة الفاطميين، ص ٤٠١.

وظل يسكنها كل من يلى إمرة الجيوش حتى جاء بني أيوب فسكنوا القلعة.

كما أمر بإصلاح وترميم العديد من الجوامع فزاد في جامع الحاكم وجدد باب مسجد ابن طولون وعمر ضريح السيدة نفيسة وانتهى منه ٤٨٩هـ / ١٠٩٦م(١).

كذلك اهتم بتأمين الطرق حماية للتجارة وقوافل المسافرين، وأقام العديد من التحصينات لحماية البلاد وأدخل بعض الإصلاحات على نظام الحكم في مصر فقام بتقسيم البلاد إلى أربع ولايات رئيسية هي: قوص والشرقية والغربية والإسكندرية بالإضافة إلى القاهرة والفسطاط، قد بدأ هذا التنظيم سنة ٤٧٠هـ / ١٠٧٨م.

ولم يغفل بدر الجمالي رعاية أحوال المذهب الفاطمي ويبدو أنه كان متشيعًا فانتسب للإمام واصبح يدعى بدر المستنصري فأمر بإعادة الآذان الشيعي بحي على خير العمل ودعا إلى التكبير على الجنائز ونظم دروسًا في المذهب ولذلك عرف بباب الدعوة وهي مرتبة من مراتب الدعوة يقصد بها أنها فصل الخطاب(٢).

وقد شملت رعايته أمور المسيحيين من الأرمن واستقدم بطريركًا يرعى شئونهم(٣).

وقد شملهم بكل عناية حتى أن البعض وصف عهده بعهد هدوء الأديرة الشامل واقيم في عهده ديران لطائفتين مختلفتين هما الأرمن والأحباش ويبدو أنهما كانا ملحقين بدير القديس يؤنس القصير ومن الأدلة علىوجود رهبان أرمن في أديرة شيهيت بكثرة في عهده وجود مخطوطتين بلغة أرمينية وبعض أجزاء من الإنجيل مقسمه إلى خمسة أعمدة كل عمود بلغة مختلفة وتتصدر اللغة الأرمينية أولى هذه اللغات ثم تليها العربية فالقبطية والسريانية والحبشية(٤).

وتبارى المؤرخون في وصف بدر الجمالي فذكر ابن كثير أنه «كان عاقلاً كريماً

---

(١) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ص ٤٠١.

(٢) عاطف مرقص : الأرمن وعلاقاتهم بالبزنطيين والمسلمين ص ٢٤٠.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٤٠.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٤٠ – ٢٤١.

محبًا للعلماء ولهم عليه رسوم داره»(١).

ووصفه ابن إياس بأنه كان «شديد الهيبة مخوف السطوة كبير البطش قتل في سلطته من الخلق ما لا يمكن حصيه وقتل أكـابر المصـريين وقـوادهم وكتـابهم ووزرائهم خلقًا كثيرًا وعلى يده صلحت الديار المصرية بعد فسادها وعمـرت بعـد خرابها»(٢).

وكان قد جمع ثروة طائلة(٣) نتيجة جهده وذكائه وكانت قدرته الفائقة سببًا فـي رفع شأنه وتوليه ارفع المناصب(٤).

ثم مرض بدر الجمالي واشتد عليه المرض فمات سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م بعد أن جاوز الثمانين(٥) وآل الأمر من بعده لأبنه الأفضل(٦).

وبذلك انتهت حياة أحد وزراء مصر العظام ومصلحي أحوالها ذلك الرجل الـذي دانت له البلاد وأحبه العباد وكان قد بلغ من القوة والسطوة أن الخليفة أصبح بجانبه اسمًا بلا معنى.

وتحكم في البلاد تحكم الملوك ولم «يبق للمستنصر معه أمر واسـتبد بـالأمور فضبطها أحسن ضبط وكان شديد الهيبة وافر الحرمة مخوف السطوة»(٧).

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية، جـ١٢، ص ١٤٧.

(٢) ابن إياس : أخبار مصر، جـ٣٠، راجع النويري : نهاية، جـ٢٨، ص ٢٣٨.

(٣) ابن تغرى بردي : النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ١٤١.

(٤) ستانلي لينبول : سيرة القاهرة، ص ١٤٥.

(٥) ابن القلانسي : ذيل، ص ١٢٧، ابن الصيرفي : الإشارة، ص ٩٧، أبو الفدا : المختصر، جـ٢، ص٢٠٥، النويري : نهاية، جـ٢٨، ص ٢٣٩، ابن الوردي : تتمة المختصر، جـ٢، ص ١٤، ابن تغري بردي : النجوم، جـ٥، ص ١٤١، وابن إياس: أخبار مصر، جـ٣ ص ٣٠، أحمد شـلبي : موسوعة التاريخ، جـ٥، ص ١٢٣، قال ابن كثير أنه مات سنة ٤٨٨هـ : البداية والنهاية جـ١٢، ص ١٨٩، ذكر ابن أيبك أن وفاته كانت سنة ٤٨٦هـ كنز الدرر، جـ٦، ص٤٣٩.

(٦) ابن القلانسي : ذيل ص ١٢٨، أبو الفدا : المختصر، جـ٢، ص ٢٠٥ الذهبي : العبر، جـ٢، ص ٣٥٧، ابن كثير : البداية والنهاية، جـ٢، ص ١٨٩، الحنبلي : شذرات جـ٣، ص ٣٨٣.

(٧) المقريزي : الخطط، جـ١، ص ٣٨١.

يانس الأرمني ٥٢٦هـ / ١١٣١م

مولى رومي من غلمان الأفضل الكبير شاهنشاه ابن بدر الجمالي كان قد أهداه له باديس[١] جد العباس الوزير فترقى في الخدم إلى أن ولى الباب وهي أعظم رتب الأمراء[٢] و«كنى بأبي الفتح ولقب بالسعيد ثم نعت في وزارته بناصر الجيوش سيف الإسلام[٣].

وقام يانس بدور بارز في خلافة الحافظ الفاطمي فحين قتل الآمر وأقيم الحافظ كان الأكمل بن الأفضل بن بدر الجمالي مسجونًا بعد قتل أبيه الأفضل فلما أقيم الحافظ أخرجوا الأكمل هذا وولى وزارة السيف والقلم فتمكن وحجر على الحافظ[٤]، واستبد بالأمور دونه واستولى على ما في خزائن القصر وأهمل شئون الخلافة ومذهبها فقد كان سنيًا كأبيه وأبطل من الأذان «حي على خير العمل» فكرهه الدعاة والقواد وتآمر عليه يانس الأرمني مع صبيان الخاص فعندما خرج للعب الكرة في المحرم سنة ٥٢٦هـ / ١١٣١م وثبوا عليه وطعنه مملوك الحافظ بحربة وأخرجوا الحافظ[٥] من الأعتقال وأخذوا إليه رأس الأكمل[٦].

وكان يانس قد استغل وظيفته كمتولي للباب في تزعم هؤلاء من صبيان الخاص والتآمر معهم[٧] فلما تم قتل الأكمل أخرجوا الحافظ من حبسه وجلس في الشباك في

(١) باديس : أبو المناد بن المنصور بن يوسف بن بلكين بن زيرى صاحب إفريقية على زمن الحاكم بأمر الله نيابه عنه : المقريزي : اتعاظ، جـ٣، ص ١٤٥.

(٢) ابن الطوير : نزهة المقلتين، ص ٣٥، المقريزي : اتعاظ، جـ٣، ص ١٤٥، خطط، جـ٢، ص١٦.

(٣) المقريزي : اتعاظ، جـ٣، ص ١٤٥، ص ٥٠٦، وأنظر الخطط، جـ٢، ص ١٦.

(٤) ابن أيبك : كنز الدرر، جـ٦، ص ٥٠٦، الذهبي : العبر، جـ٢، ص ٤٢٨، والمقريزي، الخطط، جـ٢، ص ١٧.

(٥) ابن الجوزي : مرآة الزمان، جـ٨، ق١ ص ١٤٦، السيوطي: حسن المحاضرة، جـ٢، ص٢٠٥.

(٦) ابن أيبك : كنز، جـ٦، ص ٥٠٦، ابن الوردي : تتمة المختصر، جـ٢، ص ٥٩.

(٧) جمال الشيال : الوثائق الفاطمية : الوثيقة السادسة ص ٧٣، سهام أبو زيد: تاريخ الأرمن، ص٧٣، ووظيفة متولي الباب من أهم الوظائف ويقال لصاحبها صاحب الباب وينعت بالمعظم وأول من خدم=

منصب الخلافة وشكر صبيان الخاص هؤلاء الذين انقذوه فقالوا: «والله ما حركنا إلا الأمير السعيد يانس» فأنعم عليه الحافظ بالوزارة سنة ٥٢٦هـ / ١١٣١م وخلع عليه ولقبه بأمير الجيوش سيف الإسلام(١).

ولما خلع عليه بالوزارة هدأت الأمور وصلحت الأحوال وتمكن الحافظ من الخلافة وحمل يانس جميع ما تم نقله إلى دار الوزارة من الأموال وكانت ثلاثمائة ألف دينار والأشياء الثمينة وأعاده إلى قصر الخلافة(٢).

ثم قام يانس هذا ببعض الأفعال نتج عنها تغير الحافظ عليه وخشيته منه وأولها أنه قام بقتل استاذ من خواص الخليفة نتيجة لوشاية وصلته عنه فقام باعتقاله في خزانة البنود وضرب عنقه(٣) دون الرجوع إلى الحافظ فاستوحش منه كما أن يانس قام بقتل الطائفة المعروفة بصبيان الخاص الذين سبق أن اتفق معهم وقاموا بقتل أحمد بن الأفضل وذلك لأنه خشي سطوتهم وخاف أن ينقلبوا عليه ويكون مصيره كمصير أحمد بن الأفضل «فخافه الحافظ وتخيل منه وتخيل يانس أيضًا من الحافظ فدبر كل واحد منهما على صاحبه»(٤).

ويذكر المقريزي واقعة قتل صبيان الخاص قائلاً: «فركب في خاصته، وأركب

= بها المعظم خمرتاش في أيام الخليفة الحافظ وتسمى الخدمة فيها بالنيابة الشريفة لأنها مميزة ولا يليها إلا أعيان العدول وارباب العمائم وينعت أبدًا بعدي الملك : المقريزي : الخطط، جـ١، ص٤٠١

(١) ابن الطوير : نزهة المقلتين، ص ٣٥ - ٣٦، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان، جـ١، ق١ ص ١٤٧، ابن أيبك : كنز الدرر، جـ٦، ص ٥٠١، الذهبي : العبر، جـ٢، ص ٤٢٨، المقريزي: خطط جـ٢، ص ١٧.

(٢) ابن الجوزي : مرآة الزمان، ق١، جـ٨، ص ٤١٧، الذهبي: العبر جـ٢، ص ٤٢٨، المقريزي : اتعاظ، جـ٣، ص ١٤٤، الحنبلي : شذرات، جـ٤، ص٧٨.

(٣) ابن الطوير : نزهة المقلتين، ص ٣٦.

(٤) النويري : نهاية الأرب، جـ٢٨ ص ٢٩٩، أنظر ابن ميسر : أخبار مصر، جـ٢، ص ٧٥، وراجع ابن الطوير : نزهة المقلتين، ص ٣٦ والمقريزي: الخطط، جـ٢، ص ١٦.

العسكر، وركب صبيان الخاص، فكانت بينهما وقعة قبالة باب التبانين بين القصرين، قوى فيها يانس وقتل من صبيان الخاص ما يزيد على ثلثمائة رجل من أعيانهم فيهم قتله أبي علي كتيفات، وكانوا نحو الخمسمائة فارس، فانكسرت شوكتهم وضعف جانبهم»[1].

ومما عجل بنهايته أنه قبض على بعض حاشية الخليفة ومنهم قاضي القضاة وداعي الدعاة أبو الفخر وأبو الفتح بن قادوس وقتلهما فاشتد ذلك على الحافظ واستدعى طبيبه وقال له: «اكفني أمره بمآكل أو مشرب» أي أن يأتيه بنوع من السم يدسه له في أكله أو شربه فأبى الطبيب ذلك خوفًا أن يقتله الحافظ بنفس ما علمه له[2] وظل الحافظ يلح عليه في ذلك إلى أن اتفقا على سمه في ماء المستراح[3] وعولج وكاد أن يبرأ[4] فشاور الحافظ خواصه من الأطباء وأوعز الطبيب إلى الخليفة بزيارته وتهنئته بالعافية لأنه سينهض لاستقباله وفي هذا نهايته لأن مرضه يحتاج إلى السكون فالحركة ستعجل بوفاته ففعل الخليفة وقام بزيارته وما أن رآه يانس حتى قام للقائه وخرج عن فراشه وأطال الخليفة الجلوس عنده فسقطت أمعاؤه ومات في ذي الحجة سنة ٥٢٦هـ / ١١٣١م[5].

وقد وصفه المؤرخون ومنهم ابن الطوير وابن ميسر والمقريزي بأنه كان عاقلاً وله هيبة وكان يتماسك في الأمور ويحفظ القوانين ولم يحدث شيئًا ولا خرج عما يعنيه.

---

(١) المقريزي : خطط، جـ٢، ص ١٦، اتعاظ، جـ٣، ص ١٤٥.

(٢) مخطوط شرح اللمعة ص ١٢، وراجع المقريزي الخطط، جـ٢ ص١٦ جمال الشيال الوثائق الفاطمية : وثيقة ٦ ص ٧١.

(٣) ابن الطوير : نزهة، ص ٣٦، مخطوط شرح اللمعة : مجهول ص ١٢، ابن ميسر: أخبار مصر، جـ٢ ص ٧٦، النويري : نهاية، جـ٢٨، ص ٢٩٩، المقريزي خطط، جـ٢، ص ١٦.

(٤) ابن الطوير: نزهة، ص ٣٦، مخطوط شرح اللمعة: مجهول، ص ١٢، ابن ميسر: أخبار مصر، جـ٢، ص ٧٦، النويري: نهاية، جـ٢٨، ص ٢٩٩، المقريزي: خطط، جـ٢، ص ١٦.

(٥) ابن الطوير : نزهة، ص ٣٦، مخطوط شرح اللمعة مجهول ص ١٢، ابن ميسر: أخبار مصر، جـ٢، ص ٧٦، النويري : نهاية، جـ٢٨، ص ٢٩٩، المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ١٦.

كما ذكروا أنه «كان عظيم الهمة بعيد الغور كثير الشر شديد الهيبة، وقد مكث في الوزارة تسعة أشهر وأيامًا وخلف ولدين كفلهما الحافظ وأحسن إليهما وكانا مكرمين عنده»(١). وقام يانس الأرمني ببناء مسجد سمى مسجد يانس(٢).

---

(١) أنظر: ابن الطوير : نزهة المقلتين، ص ٣٦، ابن ميسر: أخبار، جـ٢، ص ٧٦، النويري : نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٢٩٩، المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ١٦، اتعاظ، جـ٣، ص ١٤٥، جمال الشيال : الوثائق الفاطمية : الوثيقة السادسة ص ٧١.

(٢) المقريزي : الخطط، جـ٢، ص ٤١٠.

بهرام الأرمني ت ٥٣٥هـ / ١١٤٠م

استوزر الحافظ أبو المظفر بهرام الأرمني النصراني بعد وفاة يانس ولقب بسيف الإسلام تاج الدولة سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤م[١].

وقد اختلف المؤرخون في سبب توليه الوزارة للحافظ فذكر كل من ابن ميسر والنويري أن سبب وصوله من الغربية إلى الديار المصرية «أن القائم بأمر الأرمن مات وكان بهرام أحق بمكانه ممن ولي بعده فتعصب عليه جماعة من الأرمن ورفضوه وولوا عليهم غيره فخرج من تل باشر[٢] مغضبًا وقدم إلى القاهرة فندب للوزارة بها»[٣] على حين يذكر كل من ابن الطوير والمقريزي أن سبب توليه الوزارة أن الأمير حسن بن الحافظ قد أرسل بهرام ليحشد له طائفة الأرمن من الصعيد وكانوا يزيدون على ألفي فارس يدينون لبهرام بالطاعة وكان حسن بن الحافظ يريد التقوى بهم على الأجناد فقتل حسن بالسم قبل مجيء بهرام بالحشود فلما جاء وجد الآمر قد انتهى «فقبض الأجناد على بهرام بظاهر القاهرة وادخلوه وزيرًا للحافظ وقبل ذلك منهم ليُشغِل به ويُسكن الدهماء. وأخلع عليه بهيئة الوزارة في هذه السنة على كراهية منه»[٤].

وكان عمره وقت توليه الوزارة ثمانين عامًا ومات بعدها بخمس سنوات حينما جاوز الخامسة والثمانين[٥]، بعد أن ظل يرتقى في الخدم لمدة خمسين عامًا حتى وصل إلى رتبة واليًا على الغربية[٦].

---

(١) ابن ميسر : المنتقى من أخبار مصر، ص ١٢١ - ١٢٢، ابن أيبك: كنز، جـ٦، ص ٥٠٧، النويري : نهاية الأرب جـ٢٨، ص ٣٠٠، ابن الوردي : تتمة المختصر، جـ٢، ص ٥٩، المقريزي : اتعاظ جـ٣، ص ١٥٥، السيوطي : حسن المحاضرة حـ ٢، ص ٢٠٥.

(٢) تل باشر: حصن وكورة شمالي حلب وأهلها من النصارى، ياقوت: معجم البلدان، جـ١.

(٣) ابن ميسر : المنتقى، ص ١٢١ - ١٢٢، النويري : نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٣٠٠ - ٣٠١.

(٤) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص ٤٤، المقريزي : اتعاظ، جـ٣، ص ١٥٥ - ١٥٦.

(٥) أيمن فؤاد السيد : الدولة الفاطمية، ص ١٩٤.

(٦) ابن ميسر: المنتقى، ص ١٢٣.

ويذكر المؤرخون أنه حينما اجتمع بالحافظ اقتنع به وأعجب بآرائه وعقله ودهائه في الحرب والسياسة[1] ولكن الحافظ حينما استشار المقربون منه والذين يثق في ارائهم فامتنعوا جميعًا عن الموافقة علىتولي بهرام الوزارة[2] لأنه نصرانيًا فلا يصح أن يرقى المنبر مع الإمام في الأعياد ليزر عليه المزرة الحاجزة بينه وبين الناس وقد كان ذلك من شروط الوزارة فأجاب الحافظ بأنه من الممكن أن يستنيب عنه قاض القضاة في صعود المنبر[3].

وقال آخرون «أن القضاة هم نواب الوزراء من زمن أمير الجيوش بدر الجمالي ويذكرون في النيابة عنهم في الكتب الحكمية النافذة عنهم إلى الآفاق وكتب الأنكحة فقال الحافظ: إذا رضيناه نحن فمن يخالفنا وهو وزير السيف؟ .. وأما ذكره في الكتب الحكمية فلا حاجة إلى ذلك واستوزر والناس ينكرون عليه ذلك»[4].

فكان لاستوزار الخليفة له رغم اعتراض العامة[5] أبلغ الأثر في إثارة سخطهم وحنقهم ولكنه رغم ذلك أصبح أول نصراني يعتلي وزارة تفويض للفاطميين[6].

ولم يستقر بهرام طويلاً في الوزارة، إذ كانت سياسته سببًا في التعجيل بنهاية وزارته، فقد عمل على استجلاب الكثير من الأرمن إلى مصر وتم ذلك بموافقة الخليفة الحافظ وقلدهم أرقى المناصب في الدولة فتمكنوا واستبدوا واستطالوا على المسلمين[7] فثار المسلمون وكانت ثورتهم في تلك المرة مختلفة لأنها كانت دفاعًاعن الإسلام ضد النصرانية، فأخذوا في التدبير لإبعاد بهرام عن منصبه وكان زعيمهم في

---

(١) نفسه ص ١٢٢، النويري : نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٣٠٠.

(٢) ابن ميسر : المنتقى ص١٢٢، المقريزي : اتعاظ جـ٣، ص ١٥٥ : ١٥٦.

(٣) النويري : نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٣٠١، المقريزي : اتعاظ جـ٣، ص ١٥٦.

(٤) النويري : نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٣٠١، المقريزي : اتعاظ جـ٣، ص ١٥٦.

(٥) ابن الطوير : نزهة ص ٤٤، ابن ميسر : المنتقى، ص ١٢٣، النويري : نهاية الأرب، جـ٢٨، ص٣٠١، المقريزي : اتعاظ، جـ٣، ص ١٥٦.

(٦) ابن الطوير : نزهة ص ١٤، ابن ميسر : المنتقى، ص ١٢٢.

(٧) ابن ميسر : المنتقى ص ١٢٤، جمال الشيال : الوثاق الفاطمية، الوثيقة الخامسة عشرة، ص١٤٤ – ١٤٥.

هذا رضوان بن الولخشي الذي لم يكن راضيًا عما وصل إليه بهرام، ويبدو أن التنافس كان على أشده بينهما، وتعود جذور ذلك إلى وقت تعيين بهرام واليًا على عسقلان حتى يبعده ويأمن جانبه فلما وصل إلى عسقلان وجد جماعة من الأرمن وصلوا بحرًا في طريقهم إلى القاهرة فمنع الكثير منهم من ذلك فلما علم بهرام استدعاه وصرفه عن عسقلان، فقدم إلى القاهرة وامتن له الناس كثيرًا لمنعه الأرمن من الوصول إلى القاهرة فلما رأى بهرام التفاف الناس حوله أبعده وولاه الغربية وأخذ بهرام يمعن في استجلاب الأرمن بني جلدته حتى وصل عددهم إلى ثلاثين ألف قدموا من تل باشر ومن بلاد الأرمن(١).

فعظم أمرهم واستطالوا على المسلمين وجاهروا بنصرانيتهم واكثروا من بناء الكنائس والديارات و«صار كل رئيس منهم يبني له كنيسة بجوار داره»(٢) فخاف الناس أن يغيروا الملة الإسلامية فاستنجد المسلمون بوالي الغربية رضوان بن الولخشي(٣).

وخاصة بعد أن وردت الأخبار من قوص أن الباساك شقيق بهرام قد جار على الناس واستباح أموالهم وظلم واستبد(٤)، كما وصل إليه ابن أخيه وكان يلقب بالسبع الأحمر وكثرت الشكاية منه للخليفة عندما أطلق أسيرًا من أكابر الفرنج(٥).

ويبدو أنه اضطهد انصار حركة الجهاد ضد الصليبيين حيث أنه كان نصرانيًا فسارع رضوان لنجدتهم وحشد العربان واستجاب واعتلى المنبر وخطب في الناس

---

(١) النويري : نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٣٠١، المقريزي : اتعاظ، جـ٣، ص ١٥٩، جمال الشيال : الوثائق الفاطمية، الوثيقة الخامسة عشرة ص ١٤٥.

(٢) المقريزي : اتعاظ، حـ٣، ص ١٥٩، النويري : نهاية الأرب جـ٢٨، ص ٣٠١، سعيد عاشور : مصر في العصور الوسطى، ص ٢٠٨.

(٣) ابن ميسر : المنتقى، ص ١٢٤، النويري : نهاية، جـ٢٨، ص ٣٠٢، أحمد شلبي: موسوعة التاريخ، جـ٥، ص ١٣٥.

(٤) المقريزي : اتعاظ، جـ٣، ص ١٦٠.

(٥) نفسه ص ١٥٦.

خطبة بليغة حرض فيها على الجهاد في سبيل الله فاستجاب له ثلاثون ألف شخص[1] واتجه للقاء بهرام الذي جمع الأرمن إليه وقال لهم: «اعلموا أننا قوم غرباء لم نزل نخدم هذه الدولة والآن فقد كثر بغضهم لأيامنا وما كنت بالذي أكون عبد قوم وأخدمهم من حال الصبا فلما بلغني الكبر أقاتلهم، لا ضربت في وجوههم بسيف أبدًا، سيروا»[2].

وسار العسكر والأمراء شيئًا بعد شيء إلى رضوان واجتمع بهرام بالخليفة ليعرف موقفه مما يحدث ولكن يبدو أن الخليفة لم يشأ أن يقف ضد تيار النزعة الدينية وكان أضعف من أن يقاوم ثورة المسلمين الطاغية فقال لبهرام: «غلبني الإسلام عليك» ففهم بهرام من هذه الجملة أن الخليفة قد تخلى عنه وآثر الإنقياد لشعور المسلمين فجمع على الفور بهرام الأرمن الذين كانوا طوعًا له لا يخالفونه في أمر وسار بهم نحو الصعيد حيث يقيم أخاه الباساك بقوص[3].

وكان مقصده من الإتجاه نحو الصعيد أن يجتمع بأخيه ويمضون إلى أسوان ليتملكونها ويتقوون بالنوبة لأنهم أهل ملة واحدة[4].

وأن الباساك هذا قد ولى الأعمال القوصية وإليه تنسب المنية التي بالقرب من أطفيح وقد ظلم ظلمًا كبيرًا واستباح الأموال فضج الناس بالشكوى[5].

ويذكر المقريزي ما يدل على كراهية الناس لبهرام الأرمني وثورتهم العارمة ضده أن بهرام عندما شعر بالهزيمة وأن الخليفة الحافظ قد تخلىعنه عاد إلى

---

(١) النويري : نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٣٠٢، المقريزي : اتعاظ، جـ٣، ص ١٦٠، جمال الشيال : الوثائق الفاطمية، الوثيقة الخامسة عشر، ص ١٤٥ - ١٤٦.

(٢) المقريزي : اتعاظ، جـ٣، ص ١٦٠، جمال الشيال: الوثائق، الوثيقة الخامسة عشر، ص ١٤٥ - ١٤٦.

(٣) المقريزي : اتعاظ، جـ٣، ص ١٥٩ - ١٦٠، جمال الشيال : الوثائق، الوثيقة الخامسة عشر ص١٤٦.

(٤) المقريزي : اتعاظ، جـ٣، ص ١٦٠ - ١٦١.

(٥) ابن ميسر : المنتقى ص ١٢٤، النويري : نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٣٠٢، المقريزي : اتعاظ جـ٣، ص ١٦٠ استارجيان : تاريخ الأمة اللأرمنية، ص ١٩.

القاهرة وأخذ ما خف حمله وخرج من باب البرقية سنة ٥٣١هـ / ١١٣٦م وعندما رحل «اقتحم رعاع الناس وأوباشهم إلى دار الوزارة فنهبوها وهتكوا حرمتها وعملوا كل مكروه فكان هذا أول نهب وقع في دار الوزارة، وامتدت الأيدي إلى دور الأرمن التي كانوا قد عمروها بالحسينيه خارج باب الفتوح فنهبوها ونهبوا كنيسة الزهرى[١] ونبشوا قبر البطرك أخي بهرام[٢]، وطار خبر انهزام بهرام في سائر أقليم مصر فوصل الخبر بذلك إلى قوص قبل وصول بهرام فثار المسلمون بها على الباساك وقتلوه ومثلوا به وجعلوا في رجله كلبًا ميتًا والقوه على مزبلة[٣].

وعزل بهرام عن الوزارة سنة ٥٣١هـ / ١١٣٦م[٤] ووليها ابن الولخشي فبعد وصول رضوان إلى القاهرة والتفاف الناس حوله وانضمامهم إليه خاصة عندما رأوه وجنده رافعين المصاحف فوق أسنة الرماح ووقف بين القصرين واستأذن الحافظ فيما يفعله فأمره الحافظ بالنزول في دار الوزارة فنزلها وخلع عليه خلع الوزارة ولقب بالسيد الأجل الملك الأفضل[٥].

أما بهرام فقد وصل إلى قوص وكان وصوله بعد مقتل الباساك بيومين فلما علم أمر قتل أخيه ثار وأعمل القتل في أهل قوص ونهبها هو ومن معه من الأرمن وكانوا نحو الألفي فارس رماة ثم سار إلى أسوان ونزل بالأديرة البيض وهي أماكن حصينة تقع غربي أخميم فتفرق عنه جماعته إلى بلادهم ومنعه كنز الدولة من دخول

---

(١) كنيسة الزهرى كانت في بر الخليج غربي اللوق في الموضع الذي عرف بإسم البركة الناصرية بجوار حكر أقبغا ما بين السبع سقايات وقنطرة السد وقد هدمت هذه الكنيسة سنة ٧٢٠هـ زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون الذي أنشأ بركة الناصرية إلى جوارها : المقريزي : الخطط، جـ٢، ص ٥١١.

(٢) كان شقيقه البطرك الأرمني أغريغوريوس الذي وصل إلى مصر في فترة وزارة بدر الجمالي ٤٧٢هـ / ١٠٧٩م : أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية، ص ١٩٣.

(٣) المقريزي : اتعاظ، جـ٣، ص ١٦١ - ١٦٢.

(٤) ابن الوردي : تتمة المختصر، جـ٢، ص ٦٤، قارن جمال الشيال : الوثائق الفاطمية : الوثيقة الخامسة عشرة، ص ١٤٥ - ١٤٦.

(٥) المقريزي : اتعاظ، جـ٣، ص ١٦١ - ١٦٢.

أسوان فاضطر إلى الإقامة بالأديرة البيض[1] ومعه أهله وأولاده ثم ترهب[2].

وفي شهر رمضان سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٨م أحضر الحافظ بهرام الأرمني من الصعيد وأكرمه وجعل له سكنا في القصور مما أثار حنق الأفضل وزاد من ذلك رفض الحافظ طلبه أن يسكن في القصور[3] مما يدل على عظم منزلة بهرام لدى الحافظ وأنه كان قد تخلىعنه مضطرًا فقد أنزله الحافظ عنده في القصر ولم يمكنه من التصرف في شيء ولكنه كان دائمًا ما يستشيره في تدبير أمور الدولة[4] إلى أن مات بهرام ٥٣٥هـ / ١١٤٠م فحزن عليه الحافظ حزنًا كثيرًا ووصفه ابن ميسر قائلاً بحيث ظهر على القصر كمده «وأمر بغلق الدواوين لمدة ثلاثة أيام وأحضر بطرك الملكية بمصر وطلب منه تجهيزه» و«أخرج عند صلاة الظهر في تابوت عليه الديباج وحوله النصارى يبخرون باللبان والسندروس والعود. وخرج الناس كلهم مشاة بحيث لم يتأخر أحد من أعيان الوقت عن جنازته وخرج الحافظ راكبًا بغلته خلف التابوت وعليه عمامة خضراء وثوب أخضر بغير طيلسان، فما زال الناس سائرين والأقساء يعلنون بقراءة الإنجيل والحافظ على حالته إلى دير الخندق بظاهر القاهرة فنزل الحافظ عن بغلته وجلس على شفير القبر يبكي بكاءًا شديدًا»[5].

فيبدو أن الحافظ قد أحبه لما رأى منه من طاعة له فقد حزن عليه كل الحزن بعد أن كان كارهًا لتعيينه أولاً كما أخبرتنا المصادر.

وبوفاته انتهت مرحلة من أهم مراحل التاريخ الفاطمي في مصر تلك المرحلة التي سيطر فيها العنصر الأرمني على الحكم وهي المرحلة التي بدأت باعتلاء بدر

---

(١) ابن القلانسي : ذيل ص ٢٦٢، النويري : نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٣٠٣، المقريزي : اتعاظ، جـ٣، ص ١٦٢.

(٢) ابن الوردي : تتمة المختصر، جـ٢، ص ٦٤.

(٣) النويري : نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٣٠٤، المقريزي : اتعاظ، جـ٣، ص ١٧٥.

(٤) ابن ميسر : المنتقى، ص ١٣٣، النويري : نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٣٠٦ - ٣٠٧.

(٥) ابن ميسر : المنتقى، ص ١٣٣، النويري : نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٣٠٦ - ٣٠٧، المقريزي : اتعاظ جـ٣، ص ١٧٥.

الجمالي وزارة السيف والقلم وما نتج عن ذلك من تحكمه في كل أمور الدولة والتي انتهت بوفاة بهرام الأرمني.

ورغم ما قيل عنه من أنه كان حسن السيرة ساس الأمور ببراعة نادرة وكان مطيعًا للخليفة وزاد من أرزاق الجند فراسله الملوك وانتشر الأمن وزالت الفتن مدة وزارته وأنه لم يكن هناك اعتراض إلا على كونه نصرانيًا وكان يوم الجمعة يتوارى في أحد الدكاكين بمفرده حتى ينتهي الخليفة من الصلاة بالناس[1] وكان رجلاً سليم الباطن جيدًا في نفسه»[2] إلى أنه ومما لا شك فيه لم يكن سياسيًا محنكًا كما لم يكن ذا نظرة ثاقبه فلو كان كذلك لما استثار مشاعر المسلمين بتصرفاته ولوضع حدًا لاستطالة أبناء جنسه الذين جلبهم على عهده حتى قيل أنه «استعمل الأرمن على الناس»[3] فقد أثار حنق المسلمين عليه كما أغضب الخليفة عليه لتسلطه وتسلط الأرمن الذين عينهم في أرفع وأرقى مناصب الدولة[4] وبذلك يكون قد أقام في الوزارة سنة واحدة وعشرة أيام[5].

---

(١) المقريزي : اتعاظ، جـ٣، ص ١٥٦.

(٢) ابن أيبك : كنز الدرر، جـ٦، ص ٥٠٧.

(٣) ابن الوردي : تتمة المختصر، جـ٢، ص ٥٩.

(٤) سهام أبو زيد : تاريخ الأرمن، ص ٨١.

(٥) ابن أيبك : كنز الدرر، جـ٦، ص ٥٠٧.

جوهر مؤتمن الخلافة ت ٥٦٤هـ / ١١٦٨م

هو جوهر بن عبد الله مؤتمن الخلافة وهو خصي كان بقصر العاضد، وكان له الحكم على أهل القصر فقد كان أحد الأستاذين المحنكين ولقب بزمام القصر كما لقبه بعض المؤرخين بمقدم السودان وكان إليه الإشراف الكامل على شئون القصر الفاطمي(١).

وكان قد ثقل عليه زوال خلافة الفاطميين عن مصر فاتفق مع جماعة من المصريين على مكاتبة الفرنج واستدعائهم إلى مصر لمساعدتهم في القضاء على صلاح الدين وإنقاذ الخلافة المتداعية(٢)، فقد ضايق صلاح الدين هؤلاء وشدد عليهم واستبد بأمور الدولة وقبض على أكابر أهلها(٣).

وقد اتفقوا على استدعاء الفرنج(٤) إلى البلاد منفذين خطة محكمة للإيقاع بصلاح الدين وأصحابه وحصرهم بين فكي كماشة وكانت ترتيبات تلك الخطة أنه عند قدوم الفرنج إلى البلاد فسوف يسارع صلاح الدين وأصحابه لمنعهم من دخول البلاد في تلك اللحظة يثور مؤتمن الخلافة بمن معه على جند صلاح الدين الباقين فإذا ما انتهوا من القضاء عليهم تتبعوا صلاح الدين وأصحابه وقوضوهم والتفوا حولهم فيكون الفرنج أمامهم وهم وراءهم فيتم القضاء عليهم واستئصالهم واستعادة سيادة الفاطميين على البلاد(٥).

---

(١) ابن الأثير : الكامل، جـ١١، ص ٣٤٥ - ٣٤٦، محمد بهادر : مخطوط فتوح النصر، جـ١، ص١١، أبو شامة الروضتين جـ١ ق٢ ص ٤٥٠، ابن الفرات: تاريخه، جـ٤، ص ٧٧ - ٧٨ حاشية ٢٤٠، ابن خلدون : العبر، جـ٥، ص ٢٨٣ المقريزي : اتعاظ، جـ٣، ص ٣٠٧، حاشية ٣ والخطط جـ٢، ص ٢، ٣.

(٢) ابن الأثير : الكامل، جـ١١، ص ٣٤٦، ابن الفرات، جـ٤ ص ٧٧، المقريزي : الخطط، جـ٢، ص٢، ٣.

(٣) المقريزي : الخطط، جـ٢، ص٢.

(٤) أبو شامة : الروضتين، جـ١، ق٢، ص ٤٥، ابن الفرات، جـ٤، ص ٧٧.

(٥) أبو شامة : الروضتين، جـ١، ص ٢ ص ٤٥٠ : ٤٥١، ابن الفرات: تاريخه، جـ٤، ص ٧٧،=

وقد أرسلوا مكاتبتهم للفرنج مع «إنسان ذي خلقان نعلين جديدين ليس بهما أثر مشي»[1] فلاحظ أحد التركمان الصلاحية أن النعلين جديـدين رغـم أن الرجـل رث الهيئة»[2].

فشك فيه وأتى بالرجل إلى صلاح الدين وتم فتق النعلين واكتشـاف المـؤامرة حيث وجد فيها مكاتبة للفرنج من أهل القصر «يرجون بحركتهم حصول النصر»[3].

وطلب صلاح الدين احضار كاتب هذه الرسالة وتبين له أنه أحد اليهود فلما تـم سؤاله سارع بالنطق بالشهادة واحتمى بالإسلام قبل أن يتكلم حتى يضمن النجاة من عقاب صلاح الدين ثم اعترف أن مؤتمن الخلافة هو المحرض على ذلك[4].

فكان سلوك مؤتمن الخلافة هذا أبلغ دليل على اصراره على التخلص من صلاح الدين وجنوده النورية[5].

وأطلق صلاح الدين سراح الرجل اليهودي وتربص بمـؤتمن الخلافـة الـذي استشعر غدر صلاح الدين، رغم أن صلاح الدين لم يظهر له الغدر، وتركه مدة حتى يشعر بالأمان ويأخذ على حين غرة فخرج مؤتمن الخلافة بعد أن التزم القصر فتـرة محتميًا فيه واتجه إلى قصره[6] بالخرقانية بقليوب فأرسل إليه صلاح الدين جماعـة فقتلوه وأتوا برأسه سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م[7].

= ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص ٢٨٣، المقريزي : الخطط، جـ٢، ص ٢، ٣.

(١) أبوشامة الروضتين، جـ١، ق٢، ص ٤٥٠.

(٢) النويري : نهاية، جـ٢٨، ص ٣٦٠، المقريزي : الخطط، جـ٢، ص ٣.

(٣) أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص ٤٥١، المقريزي : الخطط، جـ٢، ص ٣.

(٤) أبو شامة : الروضتين، جـ١، ق٢ ص ٤٥١، المقريزي : الخطط، جـ٢، ص ٣.

(٥) المقريزي : اتعاظ، جـ٣، ص ٣٠٧.

(٦) أبو شامة : الروضتين، جـ١، ق٢ ص ٤٥١ - ٤٥٢، ابن خلدون : العبر، جـ٥، ص ٢٨٣.

(٧) ابن الأثير : الكامل، جـ١١، ص ٣٤٦، أبو شامة : الروضتين، جـ١، ق٢، ص ٤٥١ - ٤٥٢، ابن الفرات : تاريخه، جـ٤، ص ٧٧ : ٧٨، ابن خلدون : العبر، جـ٥، ص ٢٨٣، المقريـزي: خطط، جـ٨، ص ٣.

وقام صلاح الدين بعزل جميع خصيان القصر وولي أمور القصر بهاء الدين قراقوش الخصي الأبيض[١]، والذي كان من أخلص خدمه وعهد إليه بكل أمور القصر[٢].

وكان لقتل جوهر مؤتمن الخلافة ردود أفعال قوية لدى المصريين والأجناد وازمة القصر من السودان[٣] «لأنه كان يتعصب لهم»[٤] فثاروا وانضم إليهم الكثير من الأمراء والعامة حتى زاد عددهم على خمسين ألف[٥] وساروا إلى دار الوزارة التي كان يسكنها صلاح الدين ومعهم الأسلحة فاستنفر شمس الدولة توران شاه عساكر الغز وصرخ فيهم والتفت أهل صلاح الدين وأقاربه وكل جنوده[٦] وعلى رأسهم الأمير أبو الهيجاء[٧] وكانت بينهم وقعة كبيرة بين القصرين انهزم فيها السودان ومن معهم وقتل الكثير وأخرجوا إلى الجيزة وعبر إليهم توران شاه شقيق

---

(١) بهاء الدين قراقوش: أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي الملقب بهاء الدين كان خادم صلاح الدين وقيل خادم أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين فاعتقه ولما استقل صلاح الدين بسلطان مصر جعله زمام القصر وكان يثق به فناب عنه مدة بالديار المصرية وكان ذا همة فبنى السور المحيط بالقاهرة ومصر وبنى قلعة الجبل وبنى القناطر التي بالجيزة وعمر بالمقس رباطا وله خان سبيل ووقف كثير لا يعرف مصرفه توفي ٥٩٧هـ ودفن بسفح المقطم : ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ٤، ص ٩١ : ٩٢ وسبط ابن الجوزي : مرآة الزمان، جـ٨، ق٢ ص ٥٠٤، ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٧، ص ١٥١، الأصفهاني : الفتح القسي، ص ٢٠٩، وأبي شنامه: الروضتين، جـ١، ق٢، ص ٤٨٨، الحنبلي : شذرات الذهب، جـ٤ ص ٣٣١ - ٣٣٢، المقريزي : الخطط، جـ٢، ص ٩٣، ١١٠، ابن تغرى بردي : النجوم، جـ٦، ص ١٧٦ - ١٧٧.

(٢) محمد بهادر : مخطوط فتوح النصر، جـ١، ص ١١، ابن الأثير: الكامل، جـ١١، ص ٣٤٦، ابن الفرات تاريخه جـ٤، ص ٧٧ - ٧٨، ابن خلدون : العبر، جـ٥، ص ٢٨٣.

(٣) محمد بهادر : مخطوط فتوح النصر جـ١، ص ١١.

(٤) ابن الأثير : الكامل، جـ١١، ص ٣٤٧.

(٥) ابن الأثير : الكامل، جـ١١، ص ٣٤٧، أبو شامه : الروضتين، جـ١، ق٢ ص ٤٥١.

(٦) المقريزي : خطط، جـ٢، ص ٣.

(٧) أبي شامة : الروضتين، جـ١، ق٢، ص ٤٥٢.

صلاح الدين وقضى عليهم[1].

وذكر ابن الفرات أن قتل جوهر هذا كان سبب «زوال دولة العبيديين وكان سبب خلافتهم بالديار المصرية أولاً جوهر القائد وبين الجوهرين بون كبير»[2].

---

(1) ابن الأثير : الكامل جـ١١، ص ٣٤٧، أبي شامة : الروضتين جـ١، ق٢ ص ٤٥٢.

(2) الأول جوهر القائد غلام المعز لدين الله والثاني جوهر بن عبد الله مؤتمن الخلافة الخصي استاذ الدار عند الخلفاء المصريين العبيديين، ابن الفرات : تاريخه جـ٤، ص ٧٨.

الفصـــل الثالث

الفصل الثالث

دور المماليك الإجتماعى في مصر في العصر الفاطمى

المجتمع المصرى في العصر الفاطمى

- الخاصة:الأسرة الحاكمة – الأشراف – أرباب الوظائف.
- العامة:التجار – أرباب الصناعات والحرف – العوام – أهل الذمة – العبيد.

المماليك من الجوارى والغلمان والخصيان:

- الجوارى: حياة القصور ودور الجوارى فيها – اقتناء الخلفاء للجوارى – الأعمال التى قامت بها الجوارى في القصور – عتق الخلفاء للجوارى – ثراء الجوارى – الغلمان وحياة القصور – عتق الغلمان – ميراث الخدم من الغلمان – الخصيان في القصر الفاطمى – الأساتذة المحنكون – الأساتذة غير المحنكين.

علاقة المماليك بالمجتمع المصرى:

- امتلاك العامة للرقيق.
- الأثار التى ترتبت على تواجد الجوارى في الأسرة المصرية.
- عتق العامة للجوارى.
- إيجابيات وسلبيات تواجد الرقيق في المجتمع الفاطمى.

الفصل الثالث

دور المماليك الإجتماعى في مصر في العصر الفاطمى

تسهم عوامل متعددة في تشكيل النمط الأجتماعى لأى مجتمع باعتبـاره نتاجـاً حتمياً للظروف البيئية المحيطة به، كـذلك تسـهم العوامـل ذاتهـا فـي التركيـب الأجتماعى، وتشكيل الشخصية المميزة لذلك المجتمع.

من ذلك الأحداث التاريخية والظروف البيئية التى ينشأ فيها الأفراد الذين يمثلون نسيج ذلك المجتمع.

وتتأثر شخصية المجتمع بطبيعة الحال بالتراث الحضارى المـادى والمعنـوى والنفسى والأجتماعى، هذا بالأضافة إلي العوامل الأقتصادية والسياسية والعمرانيـة والتقاليد والعادات وغيرها مما يشكل ملامح البيئة الخاصة بذات المجتمـع ويتضـح فيما تخلفه أقلام الأدباء والكتاب والمؤرخين فيما دونوه من أدب اجتماعى أو سياسى خلال الملاحظات والمشاهدات التى يعاصرونها.

ويمكن للباحثين أن يضعوا تصوراً لحالة مصر الأجتماعية في العصر الفـاطمى من خلال ما كتب في أدب السياسية ونظم الحكم حيث يعكس صورة واضحة للأوضاع السياسية والأجتماعية.

وقد قام عدد من مؤرخى تلك الفترة بتسجيل مشاهداتهم لأحداث العصر، فكانوا شهود عيان لما جرى في مصر على أيام الفاطميين.

لقد دخل المجتمع المصرى اعداد ضخمة من الجلبان الذين حملوا من الأسـواق أو جاءوا مع المسترقين في المعارك، فتعايشوا مع أفراد المجتمع الذى منحهم حـق الحياة، والمشاركة في فعاليات وأنشطة ذلك المجتمع[1].

لقد منح الشعب المصرى للدولة الفاطمية التى قامت على أرضه ولاءً كان ناتجاً

---

[1] ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص ٩٨ – ٩٩؛ المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ١٩٣ – ١٩٤.

عن إدانة شعبية للأنهيار الاجتماعي والأخلاقي الذي اتسمت به مرحلة ما قبل دخول الفاطميين مصر، وخاصة بين طبقته الحاكمة، حتى أن هناك من يميل إلى القول بأن ذلك الولاء لم يكن انحيازاً للمذهب الشيعى أو انسلاخا عن المذهب السنى وإنما محاولة للخلاص من الانحدار الذى ظهر في أخلاقيات المجتمع في تلك الفترة(١).

وقد تباينت ظروف المجتمع المصرى الاجتماعية في عصر الدولة الفاطمية من حين إلى آخر. فتارة تبلغ الدولة ذروة الثراء وقمة المجد الحضاري وتمتلئ الخزائن الفاطمية وأخرى تصل إلى درجة متدنية من الفقر نتيجة لضعف الخلفاء سياسياً حتى أنهم في بعض الأحيان لا يستطيعون صد خطر العناصر الأجنبية التى جلبوها واشتروها لحمايتهم فيقوضونهم داخل قصورهم دون حيلة. ويصل الحال بأحد خلفاء الدولة وهو المستنصر الفاطمى٤٦٤هـ/١٠٧١م «أن يجيء إليه رسول ناصر الدولة ابن حمدان فإذا هو جالس على حصير وفي رجله قبقاب من خشب أبيض من غير دهان ولاسير وحوله ثلاثة من الخدم ولم ير شيئاً من آثار المملكة».ولما طلب من المستنصر مالاً لابن حمدان قال له المستنصر:«ما يكفى ناصر الدولة أن أجلس في مثل هذا البيت على هذا الحال:فبكى الرسول وعاد فأخبر ناصر الدولة بالحال، فأطلق للمستنصر كل شهر مائة دينار»(٢).

---

(١) محمد عمارة: عندما أصبحت مصر عربية، ص ٣٢.

(٢) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٣٨.

المجتمع المصرى في العصر الفاطمي

تكون المجتمع المصرى في العصر الفاطمى من أخلاط مختلفة من العناصر البشرية، فكان القبط والعرب والروم والبربر والأكراد والديلم والسودان والحبشان.

وقد شهد المجتمع المصرى في ذلك الوقت دخول العناصر الأجنبية بشكل ملحوظ في خدمة الدولة التى حكمت مصر، فانصهرت تلك العناصر في الحياة المصرية وتأثرت بعادات المصريين وتقاليدهم حتى انتسب الجميع إلي مصر، حتى الخلفاء أنفسهم. ودخلت بعض تلك العناصر في الجيش الفاطمى بمختلف طوائفه وأجناسه فأطلق عليه العساكر المصرية «جند المصريين»[١].

ومن المهم أن نوضح أن المؤرخين لم يعنوا بدراسة المجتمع عنايتهم بدراسة أحوال الحكام والأمراء ولذلك فمن الصعوبة بمكان أن نجد تقسيمات واضحة لطبقات السكان.

كان المجتمع المصرى أو بالأحرى مجتمع مصر في العصر الفاطمى يشمل طبقتين كبيرتين شأنه شأن العصور السابقة والعصور اللاحقة.

أما الطبقة الأولى فهى طبقة الخاصة. وأما الثانية فكانت طبقة العامة. الأولى تمتعت بكل الأمتيازات المتاحة في ذلك الوقت. أما الثانية فقد أهمل شأنها بشكل ملحوظ بالرغم من أهميتها كقاعدة للمجتمع.

وقد أورد القاضى النعمان تقسيماً لطبقات المجتمع المصرى على أيامه فذكر خمس طبقات ، هى:

١) الجند.

٢) أعوان الوالى من القضاة والعمال والكتاب.

٣) أهل الخراج من ملاك الأراضى.

---

(١) ابن الصلت : الرسالة المصرية جـ١، ص ٢٣، ٢٤: ناصر خسرو: سفر نامة، ص ١٠٥: المقريزي: اتعاظ جـ١، ص٢٠٢ –٢٠٣: وانظر عبد المنعم سلطان : المجتمع المصرى، ص٢٣.

٤) التجار وذوو الصناعات.

٥) الطبقة السفلى وهم أصحاب الحاجة[1].

ويقول المقريزي في كتابه «إغاثة الأمة بكشف الغمة «في فصل بعنوان» فصل في ذكر أقسام الناس وأصنافهم وبيان جمل من أحوالهم وأوصافهم «أعلم حرسك الله بعينه التى لا تنام وركنه الذى لا يرام أن الناس في مصر في الجملة على سبعة أقسام»

القسم الأول ، أهل الدولة. والقسم الثانى، أهل اليسار من التجار وأولو النعمة من ذوى الرفاهية. والقسم الثالث، الباعة وهم متوسطو الحال ويقال لهم:أصحاب البر، ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة والقسم الرابع، أهل الفلح، وهم أهل الزراعات والحرث سكان القرى والريف. والقسم الخامس، الفقراء، وهم جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم. والقسم السادس، أرباب الصنائع والأجراء أصحاب المهن، والقسم السابع، ذوو الحاجة والمسكنة الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم[2].

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى تقسيم المجتمع المصرى في عهد الفاطميين إلى طبقتين[3]:

طبقة الخاصة وتضم خمسة أقسام:

١) الأسرة الحاكمة.

٢) الأشراف.

٣) أرباب الوظائف بالقصر.

---

(١) القاضى النعمان: افتتاح الدعوة، ص ٣٠٦، دعائم الإسلام، جـ ١، ص ١٤٣: المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ٧٢، ٧٣، السجلات المستنصرية ص ١٢٧.

(٢) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ٧٢، ٧٣.

(٣) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى، ص ٢٦.

٤) أرباب الوظائف الدينية.

وطبقة العامة وتضم:

١) التجار.

٢) أصحاب الصناعات والحرف.

٣) العوام.

٤) أهل الذمة.

٥) العبيد.

طبقة الخاصة:

أولاً: الأسرة الحاكمة:

كانت على رأس طبقات المجتمع في العصر الفاطمى. ويأتى الخليفة على قمتها. وكان يتمتع بالتوقير والأحترام. وكانت له هيبة وعظمة لمكانته الدينية، فكان الخلفاء الفاطميون يعتقدون أن لهم الأولوية في حكم العالم الأسلامى مستندين إلى حقهم الألهى في الحكم. وقد استمدوا هذا الحق من نسبهم إلى السيدة فاطمة بنت الرسول عليه الصلاة والسلام. واتبع الكثير مذهبهم واعتنقوه ودافعوا عنه(١).

وتميزت حياة الخلفاء الفاطميين بمصر بالثراء الفاحش على النقيض تماماً من حياتهم في المغرب التى غلب عليها طابع التقشف والزهد والبعد عن الأسراف(٢) لذلك كانت أولى المهام الموكلة إلي القائد جوهر من الخليفة المعز عند فتحه مصر أن «يبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا»(٣) وما أن وصل إلى مصر إلا وشرع في بناء القاهرة المعزية(٤).

---

(١) أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية تفسير جديد، ص ٧٤.

(٢) المقريزي: اتعاظ جـ ١، ص ٩٥ – ٩٦.

(٣) مخطوط شرح اللمعة: مجهول، ص ٤ " ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٦، ص ١٣٨: القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣ ص ٣٤٩.

(٤) ابن الوردى: تتمة المختصر جـ١، ص ٤٠٨. الحسن بن عبد الله: آثار الأول، ص ٣٣.

ومن نص الحسن بن عبد الله[1] نستطيع أن نتبين أنها كانت معدة لتكون مدينة للملوك يسكنونها هم وأهلهم وجنودهم وحاشيتهم فيقول «لما أستولى جوهر المعزى على مصر بنى لسيده القاهرة المعزية والقصور ليكون هو وأصحابه بمعزل عن العامة». «وهكذا بنيت المدينة التى قل نظيرها»[2].

كما أشار إلى ذلك المعنى قائلا: «ولم تزل القاهرة دار خلافه، ومنزل ملك، ومعقل قتال لا ينزلها إلا الخليفة وعساكره وخواصه الذين شرفهم بقربه فقط»[3].

وكانت لهذه الأسرة الحاكمة قصور غاية في الجمال والأبهة كان أهمها على الأطلاق، القصر الكبير الشرقى الذى اختطه جوهر عند بداية بنائه القاهرة وكان مقراً لخلافة المعز ومن جاء بعده من الخلفاء حتى زوال الدولة[4].

وكانت به قاعة الذهب ويقال لها قصر الذهب وكانت مثار دهشة وعجب كل من يراها، وكان يدخل إليها من باب الذهب أو من باب البحر، وجدد هذا القصر من بعد العزيز الخليفة المستنصر في سنة ٤٢٨هـ/١٠٣٦م وكان يجلس بها الخلفاء يومى الأثنين والخميس ويمد بها سماط شهر رمضان والعيدين للأمراء، وكان بها سرير الملك كما كانت لأستقبال السفراء والزوار لأطلاعهم على مدى أبهة الفاطميين[5]، كما كان الخلفاء يقيمون المآدب في العيدين للخواص والعوام و«تنصب مائدة الخواص في حضرته ومائدة العوام في سرايات أخرى»[6].

---

(١) الحسن بن عبد الله: أثار الأول، ص ٣٣.

(٢) ناصر خسرو: سفر نامة، ص ١٠٤.

(٣) المقريزي: الخطط، جـ ١ ، ص ٣٦٣.

(٤) المصدر السابق، جـ ٢ ص ٣١٤.

(٥) انظر المسجى: اخبار مصر، ص ٤٩: المقريزي: خطط، جـ١، ص ٣٨٥.

(٦) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ١٢٢.

وعن ثروة الخلفاء يروى ناصر خسرو أنه شاهد في القاهرة حوالى عشرون ألف دكان كلها ملك السلطان كان يقوم بتأجير البعض منها، كما كان يمتلك كل الأربطة والحمامات والأبنية وليس من حق أحد امتلاك شئ غير المنازل أو ما يبنيه الشخص لنفسه، فكان للسلطان ثمانية آلاف بيت في القاهرة ومصر يؤجرها للعامة(١)، كما كان لهؤلاء الحكام الدور والمناظر في مختلف الأماكن التى يخرجون إليها للتنزه. ومنها على سبيل المثال منظرة الجامع الأزهر التى شيدت ليجلس عليها الخليفة لمشاهدة الأحتفال الدينى بليالى الوقود(٢)، ومنظرة اللؤلؤة التى شيدت في عهد العزيز. وكانت تقع على الخليج ومحاطة بالبساتين الزاهرة ، وكانت من أجمل القصور حتى أن المقريزي وصفها بأنها «أحد منتزهات الدنيا المذكورة»(٣)، وقد بناها العزيز بالله (٣٦٥هـ - ٣٨٥هـ /٩٧٥ - ٩٩٦م)(٤).

ومع ذلك فقد كان الخلفاء الفاطميون يقومون بأعمال البر والأحسان وينفقون بسخاء على إقامة المنشآت الدينية (٥).

كما كان هؤلاء الخلفاء الفاطميون يحيطون أنفسهم في المواكب بأرقى مظاهر الأبهة، فيصف الرحالة ناصر خسرو ركب الخليفة في عيد فتح الخليج قائلاً و «يسير في ركاب السلطان عشرة الأف فارس على خيولهم سروج مذهبة وأطواق وألجمة مرصعة وجميع لبد السروج من الديباج الرومى والبوقلمون نسجت لهذا الغرض خاصة فلم تفصل ولم تخط وطرزت حواشيها بأسم سلطان مصر وعلى كل حصان درع أو جوش وعلى قمة السرج خوذة جميع أنواع الأسلحة الأخرى. وكذلك تسير جمال كثيرة عليها هوادج مزينة وبغال عماريتها (هوادجها) كلها مرصعة بالذهب

(١) ناصر خسرو: سفر نامه ص ١٠٤.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ١، ص ٤٦٥.

(٣) نفسه ص ٤٦٧: أنظر عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى، ص ٣٣.

(٤) ناصر خسرو: سفر نامة حاشية (٢)، ص ١٠٧.

(٥) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى، ص ٣٣.

والجواهر موشاة باللؤلؤ»[1].

ثانياً: الأشراف:

حظيت طبقة الأشراف بمكانة مرموقة واحترام كبير في المجتمع الفاطمى وكثيراً ما كان يأتى ذكر هؤلاء قبل الأمراء والقادة كما كانوا يتقدمون غيرهم في المواكب ومجالس الخلفاء.

فعندما حضر المعز إلى القاهرة ودخل الناس للسلام عليه والتهنئة بوصوله «أذن بدخول الأشراف أولاً»[2].

وكان الأشراف في العصر الفاطمى ينقسمون إلى قسمين «الأول، وهم الأشراف الأقارب أي المنتسبون إلى الفرع الفاطمى وكان يقوم أحد الأساتذة المحنكين برعاية مصالحهم العامة والخاصة ويحافظ على أنسابهم[3]، وكان يسمى نقيب الأشراف «أو زم الأقارب»[4].

وكان الخليفة يمنحه الخلع عند تنصيبه ويتقدم موكبه الطبالون وأصحاب البوق والبنود مثل الأمراء وله ديوان وموظفون يعملون تحت إمرته. وكان يسانده في مباشرة مهامه اثنا عشر نقيباً[5]. وكان هناك القسم الأخر من الأشراف وهم الطالبيون وسموا كذلك نسبة إلى أبى طالب عم الرسول صلى الله عليه وسلم وكان يشرف على شئونهم أحد الأساتذة غير المحنكين أو أحد الأشراف المميزين [6].

وكان القسم الأول وهو الأشراف الأقارب لهم التميز على الطالبيين عند الدخول

---

(1) ناصر خسرو: سفر نامة، ص ١٠٩.

(2) المقريزي: خطط، جـ ١، ص ٣٨٤.

(3) عبد المنعم سلطان: المجتمع، ص ٣٦.

(4) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ١، ص ٣٩٥ – ٣٩٦.

(5) المقريزي: خطط، جـ ١ ، ص ٤١١.

(6) المصدر السابق، جـ ١، ص ٣٨٦.

إلى مجلس الخليفة «ثم يسلم بالأشراف الأقارب زمامهم وهو من الأستاذين المحنكين وبالأشراف الطالبيين نقيبهم وهو من الشهود المعدلين وتارة يكون من الأشراف المميزين(١).

ويبدو أن عدد الأشراف كان كبيراً في الدولة الفاطمية ولكنهم لم يقيموا جميعاً في قصر الخلافة فقد ذكر المقريزي عددهم في روايتين مختلفتين، فذكر عددهم في القصر الفاطمى عند وفاة العاضد سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م واستيلاء صلاح الدين على القصر قائلاً:«عدة الأشراف في القصور مائة وثلاثين والأطفال خمسة وسبعون وجعلهم في مكان أفرد لهم خارج القصر، وجمع عمومته وعشيرته في إيوان بالقصر وأحترز عليهم، وفرق بين الرجال والنساء لئلا يتناسلوا، وليكون ذلك أسرع لأنقراضهم(٢).

ثم عاد وذكر « حدثنى الأمير عضد الدين مرهف بن مجد الدين سويد الدولة بن منقذ أن القصر أغلق على ثمانية عشر ألف نسمة عشرة ألاف شريف وشريفة وثمانية ألاف عبد وخادم وأمة ومولدة وتربية»(٣).

أرباب الوظائف:

وكانوا يعدون ضمن طبقة الخاصة لما يحظون به من رعاية الخلفاء، ولما يتمتعون به من مراكز مرموقة في المجتمع الفاطمى، ولما وصلوا إليه من سلطة في عصور الدولة المختلفة كالوزراء، أو الذين شغلوا الوظائف العسكرية ويسمون أرباب السيوف، أو أولئك الذين قاموا على الوظائف المدنية وهم أرباب الأقلام، ثم يأتى أصحاب الوظائف الدينية.

---

(١) نفسه، ص ٣٨٥ – ٣٨٦: وللمزيد عن الأشراف أنظر المقريزي: نقلاً عن ابن زولاق: اتعاظ جـ١، ص ١٤٧: نص تقليد زم الأقارب وهو التقدمة على أقارب الخليفة. القلقشندى، جـ ١، ص ٣٩٤.

(٢) نفسه ص ٣٩٦.

(٣) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى في العصر الفاطمى ص ٣٧.

الوزراء:

كان الوزراء على قمة الهرم الإدارى للدولة وكان بعضهم من الذميين كما نلاحظ أن بعض المسلمين منهم لم يكونوا إسماعيليين[1].

وكانت وظيفة الوزير لا تتعدى تنفيذ أوامر الخليفة. وكانت الوزارة في العصر الفاطمى الأول سنة (٣٥٨هـ - ٤٦٥هـ/٩٦٩- ١٠٧١م) وزارة تنفيذ فقد كان الخلفاء أقوياء أداروا شئون بلادهم بأنفسهم وحرصوا على إنتقاء وزرائهم ممن يصلحون لإدارة شئون البلاد اقتصادياً ويستطيعون تدبير الأموال وكان حاكم الولاية أو كبار موظفى الدولة كثيراً ما يرتقون إلي منصب الوزارة إذا توافرت لديهم الكفاية لتولى ذلك المنصب[2].

ولم تظهر تسمية الوزير وزيراً بوضوح إلا في عهد العزيز وكان يعقوب بن كلس من أشهر وزرائه وكان يستقبل الناس كل يوم بعد صلاة الصبح فينظر في مظالمهم وأنشأ في قصره العديد من الدواوين بعضها تعنى بأمور الجيش المالية والسجلات والبعض الأخر يعنى بجباية الخراج، وعين لكل ديوان موظفين لإدارة شئونه[3].

ثم ضعف شأن الوزارة بعد وفاة يعقوب بن كلس وأطلق عليها تسمية الوساطة حرصاً على منع ازدياد نفوذ الوزراء.

وفي عهد الحاكم بأمر الله قام بعزل عيسى بن نسطورس لأنه قام بمحاباة المسيحيين اهل ديانته، وأسند إليهم المناصب الهامة في الدولة، وعين الحسن بن عمار زعيم الكتاميين بدلاً منه ولقب بأمين الدولة[4].

---

(١) محمد حمدى المناوى: الوزارة والوزراء في العصر الفاطمى، ص ٣١٤.

(٢) محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر، ص ١٤١.

(٣) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٢٧٢.

(٤) محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر، ص ١٤٢.

ومن أشهر وزراء العصر الفاطمى أبو الحسن على بن جعفر بن فلاح الذى لقب وزير ذا الرياستين وأبو القاسم على بن أحمد الجرجرائى الذى اسندت إليه الوساطة في أوائل خلافة الظاهر ولكنه لم يتولى الوزارة إلا بعد وفاة الظاهر، فولاه المستنصر الوزارة رسمياً، ثم وليها بعده أبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحى[١] ثم ما لبث أن تقوض نفوذه بعد استفحال نفوذ أبى سعد التسترى اليهودى[٢].

ثم تغير الأمر في النصف الثانى من ذلك العصر بعد أن ولى بدر الجمالى السلطة للمستنصر فبدأ الأمر يأخذ شكلاً جديداً، فأصبح وزير السيف والقلم ، وفاق نفوذه نفوذ الخليفة. وكانت الوزارة تسمى وزارة تفويض[٣] ، ومن ثم تحولت الوزارة إلي سلطة استبدادية استأثر فيها الوزير بكل كبيرة وصغيرة من أمور الدولة. ويظهر ذلك من سجل تولية بدر الجمالى الوزارة «وقد قلدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره وناط بك النظر في كل ما وراء سريره»[٤] ، واستفحل أمر هؤلاء الوزراء وكلما ازداد ضعف الخلفاء ازداد هؤلاء الوزراء قوة حتى سمى العصر بعصر الوزراء العظام[٥] . وأصبحوا يتحكمون في تعيين الخلفاء وعزلهم وبلغ من ازدياد نفوذ بدر الجمالى أن نقل الدواوين إلى داره التى بناها سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م وجلب إليها الكثير من النفائس[٦].

---

(١) محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر، ص ١٤٢.

(٢) والمقريزي: الخطط، جـ١، ص ٤٣٩ وحسن ابراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ص ٢٧٦، ٢٧٧.

(٣) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٤٥ -٥٢.

(٤) جمال الشيال: السجلات المستنصرية سجل رقم ٥٩، ص ١٩٤ - ٥١٩: ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٢، ص ٤٤٩، والمقريزي، خطط، جـ ١، ص ٤٣٩.

(٥) جمال الدين الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية، وثيقة رقم ١١، ص ١٣٠.

(٦) محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية ص ١٤٣.

وكان من ألقاب وزراء التفويض:

أمير الجيوش، وكافل قضاة المسلمين، وهادى دعاة المؤمنين، ثم أضيف إليها لقب ملك بعد أن ولى رضوان بن الولخشى في عهد الخليفة الحافظ[١].

ويتجلى بوضوح مدى قوة الوزراء وضعف الخلفاء في إقصاء الأفضل بن بدر الجمالى نزار بن المستنصر عن العرش رغم أنه كان ولى عهده وأكبر أبنائه وقيامه بمبايعة أخيه الصغير الأمير أبى القاسم أحمد الذى لقب بالمستعلى ٤٨٧هـ/١٠٩٤م والذى كانت أمه أبنة بدر الجمالى وأخت الأفضل وماطل الأفضل المستنصر قبل وفاته في أخذ البيعة لنزار حتى مات[٢]. ما لبث الأفضل أن استبد بأمور مصر دون المستعلى وصار «هو سلطان مصر وصاحب الحل والعقد وإليه الحكم في الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية وهو الذى يولى المناصب الديوانية والدينية»[٣].

وبلغ من نفوذ الأفضل أنه لما توفى المستعلى سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م بايع ابنه أبا على بالخلافة وأقامه مكان أبيه ولقبه (الآمر بأحكام الله) ولم يكن قد بلغ من العمر خمس سنوات[٤].

وزاد نفوذه حتى أنه مال كل الميل إلى السنيين والغى الأحتفال بمولد النبى صلى الله عليه وسلم ومولد ابنته فاطمة ومولد الخليفة القائم بالأمر، مما حدا بالآمر بعد أن بلغ سن الرشد إلى التخلص منه، فاتفق مع أحد خواصه المقربين وهو ابى عبد الله محمد بن البطائحى بتدبير مؤامرة لأغتياله، فقتل الأفضل وخلفه ابن البطائحى في الوزارة سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م [٥].

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ١، ص ٤٣٩.

(٢) النويرى: نهاية الأرب جـ ٢٨، ص ٢٤٣ -٢٤٤.

(٣) المقريزي: الخطط، جـ ١، ص ٤٤.

(٤) ابن ميسر: اخبار مصر، ص ٤٠.

(٥) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٠٣ - ٣٠٤.

وفي عهد الحافظ نهج الوزير أبو على أحمد بن الأفضل نهج أسلافه فمنع الحافظ من التصرف في شئون الدولة وسجنه في خزانة، وحذف اسمه من الخطبة، واستولى على نفائس قصره وأمواله. واستأثر بالسلطة والنفوذ، ولكن كان لسياسة المناهضة للمذهب الإسماعيلى وتقديم مذهب الإمامية أبلغ الأثر في نفوس الإسماعيلية الذين تزعمهم يأنس الأرمنى. وتم اغتيال أبى على هذا سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م (١).

وتم تعيين يأنس الأرمنى في الوزارة ثم توفى فوليها بهرام الأرمنى الذى تمتع - رغم كونه نصرانياً - بمكانة عالية في عهد الحافظ (٢).

ووزر بعده رضوان بن الولخشى ٥٣٠هـ/١١٣٥م الذى تلقب (بالسيد الأجل الملك الأفضل) وكان أول من لقب بالملك من وزراء مصر(٣).

وفى عهد الظافر تنافس مع المظفر على بن السلار على منصب الوزارة ودارت بينهما المعارك وانتهت بفوز ابن السلار بالوزارة ولكنه ما لبث أن قتل سنة ٥٤٨هـ/١١٣٥م لتعصبه للمذهب السنى دون المذهب الشيعى. ثم ولى الوزارة بعد ذلك طلائع بن رزيك والى الأشمونين فاستدعته نساء القصر بعد مقتل الظافر ووزر للفائز، فلما توفى الفائز سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م أقام طلائع العاضد خليفة على البلاد في نفس السنة وكان أخر الخلفاء الفاطميين(٤).

ومما سبق يتضح لنا مدى استفحال نفوذ الوزراء في مصر في العصر الفاطمى

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ١٧.

(٢) النويرى: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٣٠٠- ٣٠٢.

(٣) المقريزي: خطط، جـ ١، ص ٤٢٩.

(٤) جمال الدين الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ١٢٠- ١٢٢.

حتى أصبحوا يتدخلون في تولية الخلفاء وعزلهم مما أدى إلى زوال الخلافة الفاطمية وسقوط الدولة بعد أن تصارعوا دون أن يشعر المصريون - الذين لم يعتبروهم غرباء عنهم - بخطورتهم فقد أعلنوا حرصهم على أصلاح أمورها وتغنى شعراؤهم هذه المعانى في مديحهم[١].

وكان الوزراء في عصر الدولة الفاطمية يتمتعون بثراء كبير، فقد كان الوزراء يتقاضون مرتبات عالية إذ بلغ راتب الوزير في الشهر خمسة آلاف دينار هذا بخلاف ما فرض لأبنائه وأخوته، وذويه فقد تراوح ما يصرف للولد ما بين ثلاثمائة إلى أربعمائة دينار مضافاً إليها الأقطاعات [٢].

وقد خلف الكثير من الوزراء ثروات طائلة تحدثت عنها الكثير من المراجع. وتعجب مؤرخوها لحياة الثراء التى كان يعيشها هؤلاء الوزراء والهبات السخية التى كان يغدقها عليهم الخلفاء. فقد كان للوزير يعقوب بن كلس ثروة هائلة [٣]. ووجد له من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام[٤].

كما تمتع برجوان الصقلبى بمكانة عالية[٥] في عهد العزيز وخلف ثروة هائلة تحدثت عنها الكثير من المراجع بإستفاضة[٦].

وكذلك كان بدر الجمالى من أجل وزراء الفاطميين فقد «قامت بوصوله الحرمة وأصلح الدولة وكان وزير السيف والقلم وإليه قضاء القضاة. والتقدم على الدعاة،

---

(١) أحمد سيد محمد: الشخصية المصرية، ص ١٥٤.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ ١، ص ٤٠١.

(٣) مخطوط شرح اللمعة: مجهول، ص ٥: وجمال الدين على بن ظافر: مخطوط أخبار الدولة المنقطعة، ص ٤٥.

(٤) ابن خلكان: وفيات، جـ٧، ص ٣٣.

(٥) ابن الصيرفى: الإشارة إلى من نال الوزارة، ص ٥٧.

(٦) مخطوط شرح اللمعة: مجهول، ص ٥: أبو شامة: الروضتين. جـ١، ق٢ ص ٤٩٤: والقلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٥٦.

وساس الأمور أحسن سياسة[1]. وقد وصفه ابن كثير أنه كان «عاقلاً كريماً محبـاً للعلماء»[2] وقال عنه ابن ميسر «كان يحكم بمصر تحكم الملوك ولم يبق للمستنصر معه أمر»[3].

وكذلك تمتع ابنه الأفضل بمكانة عالية حتى «لم يكن للمستعلى مع الأفضل حـل ولا ربط بل كان الأفضل أمير الجيوش هو الكل»[4] وقد مدحه الشعراء وكان عهـده من أزهى العهود الأدبية وكان يغدق على الناس المنح والعطايـا[5]. وكـان عـادلاً كريماً ولما قتل حزنت عليه الرعية وبكاه الناس[6].

وقد خلف الأفضل بعد قتله سنة ٥١٥ هـ/١١٢٢م من «الأموال ما لم يسـمع قبلها»[7]. كما ترك أربعة ألاف قطعة من البسط والستور وسبعة ألاف سرج تقـدر بملايين الدنانير وأنواعاً مختلفة من الحرير المذهب وأربع حجرات ملأى بالوسـائد والمنسوجات وثلاثة عشر ألف ملعقة من الذهب والفضة وستة ملايين من الـدنانير وخمسة وسبعون ثوباً من الديباج وآلاف من التحف النادرة [8].

---

(١) ابن خلكان: وفيات جـ٢، ص ٤٤٨ -٤٤٩: انظـر ابـن الصـيرفى الأشـارة، ص ٩٤ -٩٥: والذهبى: العبر، جـ٢، ص ٣٥٧ والحنبلى: شذرات، جـ٣، ص ٣٨٣.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص ١٤٧- ١٤٨.

(٣) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٥٢: وانظر ابن اياس: أخبار مصر، ص ٣٠.

(٤) اليافعى: مرآة الجنان، جـ ٣، ص ١٥٨: وانظر النويرى: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٢٧٤.

(٥) أحمد مختار العبادى: في التاريخ العباسى والفاطمى، ص ٣٠٧.

(٦) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٤.

(٧) العينى: السيف المهند، ص ١٦٣.

(٨) جمال الدين على بن ظافر: مخطوط الدول المنقطعة، ص ٧٩: علـى إبـراهيم حسـن: عظمـة الفاطميين، ص ٩٦ – ٩٨.

ثانياً : وظائف القصر:

وقد تعددت الوظائف المختلفة في القصور الفاطمية فإلى جانب وظيفة الـوزير وجدت وظائف أخرى كان يتولاها الغلمان والخصيان الـذين تربـوا فـي القصـور الفاطمية ومنحوا ثقة الخلفاء فتقلدوا تلك الوظائف[1] والتى من أهمها:

وظيفة زمام القصور:

وهو المشرف على القصور ويقف على يمين الوزير فـي مجلـس الخليفـة[2] وغالباً ما يكون من الاستاذين المحنكين[3] وأشهرهم مؤتمن الخلافة[4]. كمـا كـان يلقب بالأمير الثقة لأنه كان من شروط تولى تلك الوظيفة أن يكون من حائزى ثقـة الخليفة وكان له نواب أربعة [5].

وظيفة متولى بيت المال:

وكان مسئولا عن الخزانة ويقف عن يسار الوزير في مجلس الخليفة[6]، وذكر المقريزي له مهمة أخري غير الأشراف على خزائن بيت المال أنه في يوم عيد الفطر «تقدم على الرسم لفرش المصلى فيفرش الطراحات على رسمها في المحراب مطابقة ويعلق سترين يمنة ويسرة:في الأيمن البسملة والفاتحة ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ

---

(1) أنظر في ذلك المسبحى: أخبـار مصـر ص ٣٢، ١٧٦، ١٨٠، ١٨٥، ١٩٠ وص ٢٣٥: وابـن الطوير: نزهة ص ٢٨، وابن خلكان: وفيات، جـ١، ص ٢٧٠ – ٢٧١ ، والمقريـزي: خطـط، جـ١، ص ٤٠٣، ٤١١، ٤١٢، ٤٤٨، وجـ ٢ ص ١٧، واتعاظ، جـ٢ ص ١٧، ١٧٢ وجـ ٣، ص ١٤٥، وابن تغرى بردي: النجوم، جـ٤، ص ٨٨ وسهام أبـو زيـد:الصـقالبة، ص ١٦٧، وعطية مشرفة: نظم الحكم، ص ١٠٩. وزكى حسن: كنوز الفاطميين، ص ٢٠٩ – ٢١٢.

(2) المقريزي: خطط، جـ ١، ص ٣٨٦.

(3) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٣، ص ٤٨١، ص ٤٩٥– ٤٩٦ وص ٥٠٠، ص ٥٠١.

(4) المقريزي: اتعاظ، جـ٣، ص ٣٠٧ حاشية(٣).

(5) المقريزي: خطط، جـ ١، ص ٤١٠.

(6) المقريزي: الخطط، جـ١، ص ٣٨٦.

ٱلْأَعْلَى ﴾ وفي الأيسر مثل ذلك و ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴾[1]».

وظيفة مقدم خزانة الكسوة:

وهو الذى يتسلم ما يختص بالخليفة من كسوة وملابس «ولها رتبة عظيمة في المباشرات وهما خزانتان فالظاهرة يتولاها خاصة أكبر حواشى الخليفة أما أستاذ أو غيره وبها كل ما غلا ثمنه من الملابس الملونة رجالية ونسائية أما خزانة الكسوة الباطنية فيها ما هو خاص بلباس الخليفة نفسه»[2].

وظيفة حامل المظلة:

وكانت لصاحبها مكانة مرموقة في القصر لقرب موقعه من الخليفة[3] وهو الذى يتولى حمل المظلة للخليفة وكان يلقب بالأمير عظيم الدولة وسيفها[4]، ففى وصف موكب الخليفة ذكر المقريزي أنه «إذا دخلت الدابة لركوب الخليفة وأسندت إلى الكرسى الذى يركب عليه من باب المجلس أخرجت المظلة إلى حاملها فيكشفها مما هى ملفوفة فيه غير مطوية فيتسلمها، بإعانة أربعة من الصقالبة برسم خدمتها فيركزها في آلة حديد، متخذة شكل القرن وهو مشدود في ركاب حاملها الأيمن بقوة وتأكيد، فيمسك العمود بحاجز فوق يده فيبقى وهو منتصب واقف»[5].

ومن أشهر حاملى المظلة في العصر الفاطمى «ريدان الصقلبى» عصر الحاكم[6] ومظفر الصقلبى الملقب ببهاء الدولة[7]، وغالباً ما كانوا من الطواشية الصقالبة

---

(1) نفسه، ص ٣٨٦ ، ٤١٠.

(2) نفسه، ص ٤١٠، ٤١٢.

(3) المقريزي: خطط، جـ ١، ص ٤٠٣.

(4) المقريزي: خطط، جـ ١، ص ٤٤٧- ٤٤٨.

(5) نفسه.

(6) ابن خلكان: وفيات، جـ ١ ص ٢٧٠.

(7) المسبحى: أخبار، ص ١٨٠ – ١٨٥.

وخاصة في أوائل العهد الفاطمى في مصر[١].

حامل السيف:

ويحمله أحد الأمراء العظام وكان سيفاً مصنوعاً من الصاعقة يوضع في غلاف محلى بالذهب[٢] «ثم يخرج بالسيف فيتسلمه حامله فإذا تسلمه أرخيت ذؤابته ما دام حاملاً له»[٣].

حامل الرمح:

وهو أمير مميز يتمتع بمكانة مرموقة [٤].

وظيفة شد التاج:

ويتولى صاحبها شد التاج على رأس الخليفة في المواكب العظيمة وله مكانة متميزة لأنه يلمس ما يضعه الخليفة على رأسه[٥] ويقال له شدة الوقار «وهو من الأستاذين المحنكين وله ميزة للممارسة ما يعلو تاج الخليفة. فيشدها شدة غريبة لا يعرفها سواه ثم يحضر إليه اليتيمة وهى جوهرة عظيمة لا يعرف لها قيمة فتنظم هى وحواليها ما دونها من الجواهر وهي موضوعة في الحافر وهو شكل الهلال من ياقوت أحمر ليس له مثال في الدنيا فتنظم على خرقة حرير أحسن وضع ويخيطها شاد التاج بخياطة خفيفة ممكنة.. فتكون بأعلى جبهة الخليفة»[٦].

وظيفة صاحب الرسالة:

وهو المكلف بأستدعاء الوزير من داره لحضور مجلس الخليفة فيمضى إلى

---

(١) Yaacov Lev Arab history and civilization' State and society v. lp'74.

(٢) المقريزي: خطط، جـ ١ ص ٤٤٨.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه.

(٥) نفسه ص ٣٨٦.

(٦) المقريزي: الخطط، جـ ١ ص ٤٤٧.

إستدعائه في هيئة المسرعين على حصان دهراج امتثالاً لأمر الخليفة بالإسراع على خلاف حركته المعتادة، فإذا عاد مثل بين أيدى الخليفة وأعلمه بالاستدعاء[١].

وظيفة صاحب الدفتر:

وهو الذى يشرف على الدواوين التى تخص أمور الخلافة[٢].

وظيفة زم الأقارب:

ولصاحبها الإشراف على مايخص طبقة الأشراف من أقارب الخليفة[٣].

وظيفة صاحب المجلس:

ومهمته ترتيب مجلس الخليفة في المناسبات، ويلقب بأمين الملك، ويعلن للحاضرين عن جلوس الخليفة، ويبشر إلي الأستاذين برفع الستر عن مجلسه. وفي ذلك يقول المقريزي «فيشير صاحب المجلس إلى الأستاذين، فيرفع كل منهم جانب الستر، فيظهر الخليفة جالساً بمنصبه المذكور»[٤].

وظيفة مقدم الشراب:

وكان أثناء مد السماط يحمل في يده إناء من الذهب بغطاء مرصع بالجوهر والياقوت به الشراب الخاص بالخليفة[٥].

وظيفة متولى خزائن الإنفاق:

ويقف فى الأحتفالات أثناء مد السماط يحمل حقيبة مملوءة بالدنانير ليوزع منها الخليفة ما يشاء على من يشاء من الحاضرين على سبيل الصدقة[٦].

---

(١) نفسه، ص ٤٤٦ – ٤٤٧.

(٢) نفسه ص ٤١١.

(٣) المقريزي: الخطط، جـ١، ص ٤٤٨.

(٤) نفسه ص ٤٤٨.

(٥) نفسه ص ٣٨٦، ص ٤١٠، ص ٤٥٤.

(٦) نفسه ص ٤٥٥.

وظيفة حامل الدواة:

«إذا انتصب الخليفة على المرتبة وضع أمين الملك مفلح أحد الأستاذين المحنكين الخواص الدواة مكانها من المرتبة» فكانت تلك الوظيفة لأحد خواص الخليفة لأهميتها[1] فقد كان صاحبها مختصاً بأمر دواة الخليفة فيقوم بوضعها على المرتبة في مجلس الخليفة ويحملها أمامه على السرج ويسير بها في المواكب الخلافية[2].

وظيفة حامل خزائن السروج:

وهو من الأستاذين المحنكين ويشرف على مركبات الحلى الخاصة بموكب الخليفة[3].

الفراشون:

ذكر المقريزي أن لهم تخصصات متنوعة، فمنهم فراش الخاص وفراشو المجلس وفراشو خزائن الكسوة وخزائن الكتب[4].

عرفاء الفراشين:

وهم مرتبة أدنى من الفراشين فقد خصصوا لمساعدتهم[5].

وظيفة مشرف خزانة الطيب:

«وكانت من الخدم الجليلة وكان بها أعلام الجوهر التى يركب بها الخليفة في الأعياد ويستدعى منها عند الحاجة ويعاد إليها عند الغنى عنها وكذلك السيف والثلاثة رماح المعزية» [6].

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ ١، ص ٣٨٦، ٤٤٨.

(٢) نفسه ص ٣٨٦.

(٣) نفسه، ص ٣٨٦، ٤٤٨.

(٤) نفسه، ص ٤١١، ٤٤٨.

(٥) نفسه ص ٤١١، ٤٤٨.

(٦) نفسه، ص ٤٤٨.

الأجناد أو أرباب السيوف:

وينقسمون إلى عدة تخصصات، ودرجاتهم العسكرية متفاوتة، ولكن لهم جميعاً مرتبات محددة تصرف من الدولة، ويشرف على شئونهم عدة دواوين، فديوان الجيش كان عمله تنظيم الأجناد وصرف ما يحتاجونه من العتاد والخيل وتسجيل أسمائهم [١].

وكانت تختلف مسمياتهم حسب وظائفهم، فمنهم (صاحب الباب) وهى أعظم وظائف أرباب السيوف وكان يطلق على صاحبها «المعظم»[٢] وكذلك الأسفهسلار[٣] وقد وصفه المقريزي «أنه زمام كل زمام وإليه أمر الأجناد والتحدث فيهم[٤]. وهذا يعنى أنه صاحب مركز مرموق[٥] وقد تنوعت وظائف الأمراء في الجيش بعد ذلك يجمعهم رعاية الخلفاء لهم وإغداق الأموال والهدايا عليهم»[٦].

الكتاب وأرباب الأقلام:

وهؤلاء هم الذين يعملون في دواوين الدولة المختلفة وكان على رأسهم صاحب ديوان الإنشاء الذى غالباً ما كان من كبار رجال العلم والأدب البارعين في فن اللغة والبلاغة وكان دائماً موضع ثقة الخلفاء وكان يجلس على مرتبة عظيمة بالمخاد والمسند [٧].

---

(١) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى ص ٤٢.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ١ ص ٤٠٣.

(٣) وهو اصطلاح عسكرى مركب من كلمتين أسفه وتعنى مقدم وهى كلمة فارسية وسلار وتعنى عسكر وهى كلمة تركية معناها مقدم العسكر – انظر القلقشندى: صبح الأعشى جـ٣، ص ٤٧٩.

(٤) المقريزي: خطط، جـ ١، ص ٤٠٣.

(٥) نفسه، ص ٤٤٢.

(٦) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى، ص ٤٥– ٤٦.

(٧) القلقشندى – صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٤٨٦.

وقد تعددت أنواع الدواوين في الدولة الفاطمية وكان لكل منها كاتب يتمتع بمكانة مرموقة يعاونه مجموعة من الحجاب والكتاب وجميعهم تصرف لهم المرتبات والمنح [١].

أرباب الوظائف الدينية:

كان لرجال الدين في ذلك العصر أهمية كبيرة ونوع من الإجلال والوقار، وكان يطلق عليهم لقب (أرباب العمائم) والتى كانوا يلبسونها وكانت كبيرة الحجم ليتميزوا بها عن غيرها من الطوائف الأخرى، ومنهم القضاة والدعاة والشهود العدول وقراء الحضرة والخطباء والقراء والمؤذنون في الجوامع [٢]. وكان على قائمتهم قاضى القضاة وكانت وظيفته من أجل الوظائف الدينية وأرفعها شأناً [٣]. وكان الخلفاء غالباً ما يمنحون هؤلاء القضاة مرتبات كبيرة حتى لا يطمعون في أموال الناس، فقد ذكر ناصر خسرو أن قاضى القضاة يتقاضى «ألفى دينار مغربى في الشهر ومرتب كل قاضى على قدر مرتبته وذلك حتى لا يطمع القضاة في أموال الناس أو يظلمونهم» [٤].

وكان قاضى القضاة يتمتع بمكانة رفيعة في البلاط الفاطمي فقد كان يتقدم ركب الخليفة في الأحتفالات إلى جانب الوزير وكبار رجال الدولة[٥] وكان مجلسه في المسجد الجامع[٦].

---

(١) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى ص ٤٨.

(٢) نفسه ص ٥١.

(٣) المقريزي: الخطط، جـ١ ص ٤٠٣.

(٤) ناصر خسرو: سفر نامة ص ١٢٥.

(٥) ناصر خسرو: سفر نامه ص ١١٢.

(٦) نفسه ص ١١٨.

ومن الوظائف الدينية أيضاً داعى الدعاة، وهو أقل رتبة من قاضى القضاة وأحياناً كان يتولاها قاضى القضاة إلى جانب وظيفته، وكان من شروطها أن يكون ملماً بأصول المذهب الشيعى، ويعمل بين يديه اثنا عشر نقيبا، وله نواب في كل الأقاليم، ثم قراء الحضرة الذين يقرأون القرأن في مجلس الخليفة ومؤذنى الجوامع[١].

وتأتى وظيفة المحتسب ولا يعين بها إلا أشخاص اشتهروا بالعدل[٢]، وكان عليه مراقبة الأسواق والأخلاق العامة ومراقبة الموازين والمكاييل [٣].

أما وكيل أعمال الخليفة فهو الذى يشرف على ممتلكات الخليفة وينوب عنه في التصرف في أملاكه سواء بالبيع أو بالشراء وعتق العبيد وتزويج الإماء[٤].

ثم تأتى وظيفة النائب، أى نائب صاحب الباب، وتعرف بالنيابة الشريفة ويتولاها أحد كبار الأعيان ومهمته استقبال الرسل القادمين على الخليفة ويصطحبهم مع صاحب الباب لاستقبال الخليفة[٥].

الحرفيون وأرباب الصنائع بالقصر:

فقد تعددت أنواعهم، فمنهم الخياطون والرفاؤون[٦] وكانوا يحظون في عهد المعز بكل عناية، فقد خصص لهم حجر للإقامة في القصر الفاطمى[٧].

كما وجد الأطباء فكان للخليفة أكثر من طبيب خاص إلي جانب الأطباء

---

(١) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى، ص ٥٥.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ ١، ص ٤٦٣.

(٣) نفسه، ص ٤٦٣ - ٤٦٤.

(٤) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٤٨٣-٤٨٤.

(٥) نفسه، ص ٥٢٢.

(٦) المقريزي: خطط، جـ ١، ص ٣٩٩.

(٧) نفسه، ص ٤٤٣.

المخصصين لأهل القصر والذين ذكرهم المقريزي ضمن موظفى القصر الذين يمنحون الخلع من خزانة الكسوات، فقد ذكر من الأطباء الشديد أبو الحسن على بن أبى الشديد، ابو الفضل النسطورى وقد خلع على كل منهم ببدلة حريرية وذلك في سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م في عهد الخليفة الأمر بأحكام الله الفاطمى(١).

من ذلك يتضح لنا أن طبقة الخاصة والتى كانت تسكن القاهرة وبعضها كان يسكن داخل قصر الخلافة نفسه قد تمتعت بهبات وعطايا الخلفاء حتى يحتفظون بولائهم للخلافة وإخلاصهم لها.

ثانياً : طبقة العامة:

وهم عامة الشعب الذين يزاولون المهن الحرة. أصحاب الدخل المتواضع وكانوا يقيمون في الفسطاط التى كانت مقرهم الرئيسى ورغم أن هؤلاء العامة كانوا يمثلون الغالبية العظمى من السكان فقد كان لهم دور مميز في الكثير من الأحداث. ومن هؤلاء التجار وأصحاب الصناعات والحرف والعوام من الفقراء وأهل الذمة ثم العبيد.

أولاً :التجار:

كانت التجارة من أهم الأنشطة في الحياة الأجتماعية في مصر في تلك الفترة. وكان يتمتع كبار التجار بمكانة مرموقة في ذلك العصر فيدعوهم الخليفة لحضور الأحتفالات وللتهنئة بالأعياد أسوة بكبار رجال الدولة(٢).

وكان التجار يتعاملون بالبيع والشراء في كل أنحاء مصر، فيذكر ناصر خسرو أنهم كانوا يتبادلون السلع مع ولاية النوبة يبيعون لسكانها الخرز والأمشاط والمرجان ويجلبون منها الرقيق(٣).

وكان التجار في مصر يتصفون بالصدق والأمانة، ومن يكذب منهم أو يغش

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ ١، ص ٤١١.

(٢) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى، ص ٧٤- ٧٥.

(٣) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ٩٦.

يتعرض للتشهير بوضعه على جمل ويطاف به في المدينة وبيده جرس يدقه وينادى «قد كذبت وها أنا أعاقب وكل من يقول الكذب فجزاءه العقاب»(١).

وكانت توزع عليهم الأوعية اللازمة لما يبيعون سواء كانوا بقالين أو عطارين أو بائعي خردوات. وكانت مصنوعة من الزجاج أو الخزف أو الورق تخفيفاً على المشترى(٢)، وكان التجار من الجوهريين والصيارف والصاغة البزازين أثناء مرور موكب الخليفة في الأعياد يزينون الطريق «بما تقتضيه تجارة كل منهم ومعاشه لطلب البركة بنظر الخليفة»(٣).

وكان التجار يتمتعون بالثراء «فكانت دكاكين البزازين والصرافين وغيرهم مملوءة بالذهب والجواهر والنقد والأمتعة المختلفة والملابس المذهبة والمقصبة بحيث لا يوجد فيها متسع لمن يريد أن يجلس»(٤).

وقد بلغ من ثرائهم أنهم كثيراً ما كانوا يقرضون الدولة وقت المجاعة أو القحط أو نقص النيل مثلما حدث في عهد المستنصر، فقد أقرض أحد التجار الأغنياء النصارى الدولة من الغلة ما أمكن به «إطعام أهل مصر الخبز ست سنوات»(٥).

وقد تمتعت مصر في هذه الفترة بالأمن حتى أن البزازين وتجار الجواهر والصيارفة كانوا يسدلون الستائر على دكاكينهم ولا يغلقون أبوابها(٦).

وكان التجار يرتدون الملابس الواسعة والعمائم المدورة ويضعون على أكتافهم الطيالس الطويلة وكانوا لا يستخدمون الخيول في تنقلاتهم حيث كان ركوبها مقصوراً

---

(١) نفسه، ص ١٢٠.

(٢) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ١٢٠.

(٣) المقريزي: خطط، جـ ١، ص ٤٤٥.

(٤) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ١٢٠.

(٥) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ١٢١.

(٦) نفسه، ص ١٢٤.

على الجند والعسكر والعلماء بل كانوا يركبون الحمر وعليها «برادع مزينة»[1].

أرباب الصناعات والحرف:

وكانوا يعدون ضمن طبقة العامة وتشتمل على الصناع بمختلف صناعاتهم فقد كانت هناك مدن بأكملها في مصر تشتهر بصناعات ذات شهرة عالمية مثل مدينة تنيس[2] التى أشتهرت بنسج القصب الملون من عمامات وما ترتديه النساء ولا ينسج في أى جهة غيرها «حتى أن ملك فارس أرسل رسله إلي تنيس بعشرين ألف دينار ليشتروا له حلة من كسوة السلطان، وقد بقى رسله هناك عدة سنين ولم يستطيعوا شراءها»[3].

والأبيض منه كانت تشتهر بنسجه مدينة دمياط وقد نسج عامل عمامة السلطان فكان أجره خمسمائة دينار ذهب مغربى قيل إنها تساوى أربعة ألأف دينار[4].

كما تشتهر تنيس بإنتاج قماش البوقلمون وهو نوع من الأقمشة يتغير لونه بتغير ساعات النهار[5].

ووصف صناع تنيس أنهم يعملون برضاهم للسلطان، ولا يسخرون كما في البلاد الأخرى ويضعون أستار هوادج الجمال ولبود سروج الخيل الخاصة بالسلطان من البوقلمون كما تصنع بها آلات الحديد كالمقارض والسكاكين[6].

كما اشتهرت بمصر صناعة الفخار بكل أنواعه وهو شفاف بحيث تظهر اليد إذا

---

(1) المقريزي: خطط. جـ ١، ص ١٢١.

(2) تنيس من أجمل المدن وتقع بالقرب من دمياط للمزيد عنها أنظر ناصر خسرو: سفر نامه، ص ٩٢ حاشية ١.

(3) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ٩٢.

(4) نفسه.

(5) نفسه.

(6) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ٩٢.

وضعت عليه من الخارج فتظهر من الداخل وتصنع منه الكؤوس والأقداح والأطباق ويتم تلوينه بكل الألوان(١).

وانتشرت الأسواق في كل أنحاء مصر وكان كل سوق متخصصاً في صناعة معينة(٢).

العوام:

وهم طبقة كان الخلفاء ينفقون عليها بسخاء لجذبهم إلى المذهب الشيعى وترك المذهب السنى وكانت توزع عليهم الصدقات في المناسبات والأعياد، أو عند خروج الخلفاء للنزهة، فيتصدق الخليفة علي الفقراء والمحتاجين على أمتداد طريق سيره من قصره حتى المكان الذى يذهب إليه للنزهة وكذلك في العودة(٣).

وأول من سلك تلك السياسة جوهر الصقلى عند دخوله مصر، وكانت تعانى من القحط، ووزع على الفقراء والمحتاجين الصدقات(٤).

وسلك الخلفاء الفاطميون نفس السياسة وحرصوا على القيام بأعمال البر والخير خاصة في المناسبات فيذكر المقريزي أنه كان يقام سماط في شهر رمضان بالقصر يحضره القاضى والأمراء والوزير والأستاذين و«يصل منه شئ إلي أهل القاهرة من بعض الناس لبعض ويأخذ الرجل الواحد ما يكفى جماعة»(٥). وكذلك سماط عيد الفطر(٦).

و«كان لهم في كل من فصلى الشتاء والصيف كسوة تفرق على أهل الدولة وعلى أولادهم ونسائهم»(٧).

---

(١) نفسه ص ١١٩.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ ١، ص ٣٧٣ – ٣٧٥.

(٣) نفسه، ص ٤٨١ – ٤٨٤.

(٤) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص ٢٠٤.

(٥) المقريزي: الخطط، جـ ١، ص ٣٨٦.

(٦) نفسه، ص ٣٨٤.

(٧) نفسه، ص ٤٩٢.

وفي الأعياد المختلفة كعيد الغدير مثلاً يذكر المقريزي أنه «صار موسماً يرصده كل أحد ويرتقبه كل غني وفقير»(١).

وذكر المقريزي أنه في احتفال رأس السنة الهجرية كان صبيان الخاص يخرجون في الموكب الأحتفالى حاملين أكياساً تحوى أموال الصدقة ليوزعها الخلفاء على الفقراء اثناء مرور الموكب(٢).

كما كانت توزع الصدقات أثناء مرور موكب الخليفة لصلاة الجمعة(٣). وفي عهد الحافظ في سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م «هاجر إلي باب الأجل يعنى الوزير المأمون البطائحى الضعفاء والمساكين من البلاد ومن انضم إليهم من العوالى والأدوان على عادتهم في طلب الحلال وتزويج الأيامى» فقد كان الخلفاء في ذلك العيد يكثرون من أعمال البز ومن الذبائح ومن عتق الرقاب(٤).

وفى سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م اى في عهد الخليفة الآمر ذكر المقريزي أنه في موسم أول العام خرج الخليفة من باب الفتوح «والعساكر فارسها وراجلها بتجملها وزيها، وأبواب حارات العبيد معلقة بالستور، ودخل من باب النصر، والصدقات تعم المساكين والرسوم تفرق على المستقرين»(٥).

---

(١) عيد الغدير يحتفل به الشيعة في اليوم الثامن عشر. من ذى الحجة ويوافق ذكرى " نزول الرسول عليه الصلاة والسلام اثناء سفره بغديرخم ونودى الصلاة جامعة وصلى الظهر بالناس وأخذ على حد قول الشيعة بيد على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال " الستم تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم " قالوا بلى فقال من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه " وغديرخم على ثلاثة أميال من الجحفة يسرة الطريق وتصب فيه عين وحوله شجر كثير. المقريزي: خطط. جـ ١. ص ٣٨٨.

(٢) المقريزي: خطط، جـ ٢، ص ٢٨١.

(٣) نفسه، جـ ١، ص ٤٩٤.

(٤) المقريزي: خطط، جـ ١، ص ٣٨٨.

(٥) المصدر السابق، ص ٤٤٥.

وبرغم ذلك كان هؤلاء يعيشون عيشة قحط ولم تكن تكفل لهم تلك الهبات حياة كريمة مستمرة وكثيراً ما كان هؤلاء يعرضون شكواهم على الخلفاء مطالبين بأرزاقهم أو رفع الظلم عنهم وكان بعض الخلفاء يقتربون من الناس ويتعاطفون مع مشاكلهم، ويعملون على إيجاد حلول لها، وكان الخليفة العزيز يقرأ مظالم الناس أثناء سيره في الموكب(١).

وكثيراً ما كان العوام يواجهون الخلفاء بأخطائهم عندما يتضجرون مما وصل إليه حالهم من الفقر والجوع وكثيراً ما كان ذلك يثير حنق هؤلاء الخلفاء عليهم ومن ذلك ما فعله العامة عند مرور موكب الحاكم سنة ٤١٠هـ/١٠١٩م. فقد وضعوا في طريقه «صورة امرأة عملت من قراطيس وفي يدها جريدة عليها ورقة فيها سب للحاكم وأسلافه بقبيح الفعال» (٢).

فقد استثاروا الحاكم فأمر العبيد بنهب مصر وحرق بعض دورها وفرق عليهم السلاح فتبادروا إليها ونفذوا أوامره فكانت وقعة عظيمة (٣).

وكانت العوام في مصر تمجد الخلفاء لدرجة السجود والدعاء لهم عند الأقتراب منهم في الموكب كما كانوا كثيراً ما يستمتعون بالفرجة على المواكب في الأحتفالات والأعياد (٤).

وكان الخلفاء يقيمون المآدب في الأعياد وتنصب مائدة العوام في إحدى سرايات القصر الفاطمي (٥).

---

(١) المصدر السابق، جـ ٢، ص، ٢٨٠م.

(٢) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ١٩٣، ابن تغري بردي: النجوم، جـ ٤، ص ١٨١، وعنان: الحاكم بأمر الله، ص ١١٩ – ١٢٠.

(٣) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ١٩٣. ابن كثير: البداية، جـ ١٢، ص٩، ١٠.

(٤) ناصر خسرو: سفر نامة، ص ١١٢ – ١١٣.

(٥) المصدر السابق، ص ١١٢.

وكان العوام يمثلون قوة هامة في المجتمع حيث كان يلجأ إليهم الخلفاء والقواد طمعاً في معاونتهم ضد أعدائهم. ومن أمثلة ذلك عندما ما نشب الصراع بين جند الترك والمغاربة في عهد الظاهر سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م تغلب الأتراك أولاً ولكن وبمساعدة العوام لجند المغاربة تمكنوا من قتل الكثير من الأتراك، فقد كان المغاربة أكثر قرباً للمصريين من جند الأتراك، فقد تعايشوا معهم وامتزجوا بهم منذ فتح الفاطميين لمصر [١].

كما كان هؤلاء العوام يتصدون للعبيد عند خروجهم لنهب البلاد أيام الشدة مثلما حدث في عهد الظاهر سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م عندما هاجموا منازل أهل الساحل ونهبوها. فقد استبد بهم الجوع حتى أكلوا الكلاب «فخرج إليهم عامة المصريين بالسلاح وحاربهم الرجال والنساء من أعلى المنازل بالحجارة والطوب والجرار. وخرج إليهم العتالون والنفاطون فهزموهم» [٢].

أهل الذمة:

وهم النصارى واليهود، فقد شعر الخلفاء الفاطميون بحاجتهم الشديدة إلى معاونة أهل الذمة لهم حيث إنهم جاءوا إلي مصر بمذهب شيعى مخالف للمذهب السنى الذى اعتنقه المصريون أنصار الخلافة العباسية فقام الخلفاء الفاطميون بتقريب أهل الذمة وتسامحوا معهم وعينوهم في أرقى المناصب [٣].

وقد دفع طمع الكثير منهم في الحصول على الهبات والمنح والمناصب إلى اعتناق المذهب الشيعى وقد تقلد البعض منهم الوزارة. وكانوا طبقة مستقلة في ذلك

---

(١) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى، ص ٨٤.

(٢) محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر، ص ٨٦.

(٣) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام جـ ٣، ص ٤٣٥.

المجتمع، فقد تميزت حياتهم بالخصوصية وكانت لهم أعياد دينية ومناسبات اجتماعية خاصة بهم، فقد كان التعصب الدينى بين الأديان المختلفة سمة من سمات العصور الوسطى، كما كان هناك أيضاً تعصب في المذاهب بين أصحاب العقيدة الواحدة [١]، ويبدو أن القبط كانوا يعتقدون أن لهم الأولوية في اعتلاء المناصب الإدارية فتكتلوا وساندوا بعضهم البعض وتماسكوا، وأعطاهم النظام الإدارى في مصر الكثير من المزايا فلم يستطيعوا إخفاء شعورهم تجاه المسلمين [٢].

وعندما وصل المعز إلي مصر اتبع سياسة التسامح مع أهل الذمة والتى بدأها جوهر فقد استأذنه افرهام السريانى البطرك الثاني والستون في بناء كنيسة أبى مرقورة في الفسطاط، وكذلك الكنيسة المعلقة بقصر الشمع، فكتب له سجلاً من ذلك وأطلق له من بيت المال ما يستلزمه عمارتها وعندما حاول المسلمون منعهم جاء المعز وأشرف بنفسه على بناء الكنيستين وأمر ببناء كل ما تحتاجه الكنائس من عمارتها [٣].

وقد استخدم الخلفاء الفاطميون الكثير من الأطباء اليهود ، وأصبحوا ذوى شأن في البلاط الفاطمي أمثال موسى بن العازار اليهودى [٤] (بلطيال بن شفطيا) الذى بلغ شأناً كبيراً أنه بعد وفاة المعز «خرج القائد جوهر وموسى بن العازار الطبيب بالعزيز فأجلسوه وخرج إليه اخوته وعمومته وسائر أهله فبايعوه» [٥] مما يوضح المكانة التى وصل إليها ذلك الطبيب في القصر الفاطمى.

وكان يخلع على الطبيب عند تعيينه ويخرج في موكب مثلما خرج منصور بن مقشر النصرانى طبيب العزيز في موكب فخم إلي الكنيسة وحوله الشموع الموكبية والتى يصل وزن الواحدة منها اكثر من قنطار [٦].

---

(١) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى، ص٩٥.

(٢) O.Leary: Ashort history of the Khalifate (London 1923.p.114).

(٣) ساويرس بن المقفع: تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، جـ ٢، ق٢، ص ٩٦ – ٩٧.

(٤) المقريزي: اتعاظ، جـ ١، ص ٢٢٨.

(٥) نفسه.

(٦) نفسه، ص ٢٨١.

أما عن علاقة أهل الذمة بالدواوين والنظم الإدارية، فقد كان كتـاب الـدواوين وموظفى الخراج من أهل الذمة فقد آثر جوهر تركهم في مناصبهم حتـى لا يحـدث خلل في الأجهزة الإدارية للدولة وحتى تستقيم له الأمور ويتعرف جيداً علـى تلـك الأنظمة ، حيث كانت أكثر تعقيداً وتحضراً عما كانت عليه في أفريقية [١]. ولكن بعد أن استقرت له الأمور «لم يدع عملاً إلا جعل فيه مغربياً شريكاً لمن فيـه» [٢] فقـد أشرك «المغاربة والمصريين فجعل في كل ديوان مغربياً ومصرياً» [٣].

وقد اتسمت سياسة المعز بالتسامح مع أهل الذمة وولاهم المناصب الإداريـة. وكان أشهرهم على الإطلاق يعقوب بن كلس الذى تدرج في المناصب حتـى اعتلـى منصب الوزارة أيام العزيز وكان كثيراً ما يحابى أهل دينه و«أذل كتامه وقهرهم وقدم الأتراك وعزل القائد جوهر عن الوزارة وكان العزيز يستشيره في الباطن» [٤]

وقد أظهر العزيز سياسة التسامح مع أهل الذمة حتى اعتلوا في عهـده أرقـى المناصب وأطلق لهم حرية بناء وتجديد الكنائس غير مبال بمشاعر المسلمين. فقـد كانت احدى الكنائس قد تهدمت وتحولت إلي مخزن للقصب لأحد تجـار المسـلمين. فأمر العزيز بإعادة بنائها من أموال الدولة ولما احتج المسلمون وحاولوا التجمهـر ومنع بنائها أرسل العزيز «جماعة من جنده ومماليكه أن يخرجوا يقفوا على عمارة البيعة وأى من يعرض لهم في ذلك يردعوه ويقابلوه بما يستحقه» [٥].

وقد وطد العزيز علاقته بالنصارى بعد أن تزوج منهم وكانت زوجتـه جاريـة مسيحية رومية تسلطت عليه واستطاعت تولية أخويها المناصب الكنيسـية الهامـة فكان أحدهما بطريركا على بيت المقدس ٣٧٥هـ/٩٨٥م وتولى الثانى مطراناً على

---

(١) أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية، ص ٧٧.

(٢) المقريزي: اتعاظ، جـ ١، ص١١٩.

(٣) بيبرس الدوادار: مخطوط، زبدة الفكرة، ص ٢٠٤.

(٤) المقريزي: اتعاظ جـ ١، ص ٢٢٨.

(٥) أبى صالح الأرمنى: تاريخه، ص ٤٥ – ٤٦.

القاهرة ومصر ثم بطريكاً للملكانيين بالأسكندرية[١].

وكان لها تأثير بالغ في سياسته المتسامحة مع المسيحيين حتى أنه شاركهم في أعيادهم الدينية[٢].

وعندما توفى يعقوب بن كلس أسند العزيز تولى الدواوين إلي عيسى بن نسطورس النصرانى ٣٨٤هـ/٩٩٤م بإيعاز من زوجته، فمال النصارى وقلدهم أهم وظائف الدواوين، واستناب العزيز على الشام منشأ أبن إبراهيم القزاز مما مكن لأهل الذمة واستثار مشاعر المسلمين السنيين[٢] حتى أن أهل الفسطاط جعلوا إمرأة تعترض ركب العزيز وتقدم له ورقة فيها «بالذى أعز اليهود بمنشأ والنصارى بابن نسطورس وأذل المسلمين بك إلا نظرت في أمرى؟» [٤].

فتألم الخليفة و«عاد إلي قصره منقسم الفكر»[٥] وقبض عليهما وصادر أموال ابن نسطورس التى بلغت ثلاثمائة ألف دينار[٦] وأموال سائر اليهود والنصارى في مصر والشام ورد وظائف الدواوين التى كان يشغلها أهل الذمة إلي الكتاب المسلمين[٧] ولكن حدث أن تحايلت زوجة العزيز النصرانية عليه ليرجع عن قراره وكذلك ابنته منها ست الملك[٨] فعفا عنه العزيز وأعاده إلى مناصبه بعد أن شرط عليه أن يولى المسلمين فى الدواوين[٩].

---

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكي: ص ١٤٤، ١٤٥، ساويرس بن المقفع: تاريخ بطاركة الأسكندرية، جـ٢، ق٢، ص ١١٢.

(٢) جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية، ص ٨٦.

(٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٣. المقريزي: اتعاظ، جـ ١، ص ٢٩٧.

(٤) جمال الدين على بن ظافر: مخطوط أخبار الدول المنقطعة. ص ٥٤.

(٥) نفسه ص ٥٥.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١، ق١، ص ١٩٦.

(٧) جمال الدين على بن ظافر: مخطوط أخبار الدول المنقطعة. ص ٥٥.

(٨) نفسه ص ٥٥.

(٩) يحيى بن سعيد الأنطاكى: تاريخه، ص ١٨٠.

ولما مات العزيز بويع ابنه المنصور أبو على الحاكم بأمرالله بعهد من أبيه وتولى الخلافة وعمره إحدى عشرة سنة(١).

ففتحت عيناه على قصر «يموج بالكثير من العناصر والأديان فأمه مسيحية وزوجة أبيه أم أخته ست الملك مسيحية كذلك وبالقصر عناصر يهودية وشيعية وسنية ولا دينية محايدة ولا دينية هدامة متطرفة. والقصر صورة مما في المجتمع الفاطمى من اتجاهات وأديان ومذاهب»(٢).

وكان للحاكم كاتب نصرانى يدعى فهد النصرانى استدعاه عندما غضب عليه المصريون بعد قتله برجوان الخادم «ووشحه بحله ملكية ترطيباً لقلوب الأهالي وقال له:كن مطمئناً وتول توزيع أرزاق الدولة»(٣) ويبدو أنه فعل ذلك لكى يكسب أهل الذمة إلى جانبه بعد قتله برجوان.

وتميز عصر الحاكم باضطهاد لأهل الذمة ، فقد أمرهم بلبس الغيار ومنعهم من دخول حمامات المسلمين وقام بهدم كنائسهم ومحلاتهم وخيرهم بين اعتناق الإسلام أو الخروج إلي بلاد الروم. فاضطرت الغالبية منهم إلى اعتناق الإسلام عن كره(٤).

وأمر الحاكم سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م بهدم جميع الكنائس الموجودة في مصر ووهب كل ما فيها إلي جماعة من الصقالبة والفراشين والسعدية(٥) وأحرق حارة

---

(١) أبو الفداء: المختصر، جـ٢، ص ١٣١، أبن الوردى: تاريخه، ص ٤٣٤.

(٢) أحمد شلبى: موسوعة التاريخ، حـ٥، ص ١١٧.

(٣) ابن العبرى: تاريخ الزمان، ص ٧٤.

(٤) ساويرس: تاريخ البطاركة ، جـ٢ ق٢، ص ١٢٥-١٢٦-١٣٣، ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٦، ص ٢٩٨: المقريزي: اتعاظ، جـ ٢، ص ٤٨، ٥٣، ٧٥، ٩٣ وص ص ٩٥ - ١٠٠ وخطط، جـ٢، ص ٢٨٧، ٤٩٥.

(٥) المقريزي: اتعاظ، جـ ٢، ص ٩٤ وخطط، جـ ٢، ص ٤٩٥.

الجودرية الخاصة بسكن اليهود على أهلها لأنهم كانوا يسخرون من المسلمين[1].

وقد ولى في سنة ٣٩٠هـ/٩٩٩م فهد بن إبراهيم النصرانى الوساطة بعد قتل برجوان[2] ثم ولى منصور بن عبدون النصرانى الوزارة ويذكر كل من الأنطاكى والمقريزي أن هذا الوزير هو الذى أشار على الحاكم بهدم كنيسة القيامة في القدس[3].

ثم ولى الوساطة سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م الكاتب أبو الخير زرعة بن عيسى بن نسطورس[4] ثم ولى صاعد بن عيسى بن نسطورس الوزارة سنة ٤٠٩هـ/١٠١٨م[5].

كما منع النصارى من الأحتفال بأعيادهم على شاطئ النيل، وحرم الألعاب الخاصة بهم في هذا اليوم على ضفاف النيل والخليج وألغى الأحباس المرصودة على الكنائس والأديرة وضمت إلي الديوان، وأدت تلك السياسة مع الذميين إلي دخول غالبيتهم في الإسلام. وكذلك الكثير من النصارى.

وفي الوقت نفسه هاجر الكثير إلي الدولة الرومانية الشرقية والحبشة والنوبة. ولم يمنعهم الحاكم وسمح لهم بحمل أموالهم معهم[6]. وحرم الحاكم على أهل الذمة ركوب الخيل وأستخدام المسلمين في أعمالهم ودورهم ومنعهم من شراء العبيد والإماء[7].

ويبدو أن أهل الذمة قد أستاءوا من تلك القرارات وذلك الأضطهاد فكانوا

---

(١) المقريزي: خطط، جـ ٢، ص ٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٦.

(٣) يحيى بن سعيد الأنطاكى: تاريخه، ص ١٩٤. والمقريزي: خطط، ص ٢٨٦.

(٤) المقريزي: أتعاظ، جـ ٢، ص ٨٥.

(٥) نفسه، ص ١١٤.

(٦) جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية، ص ٨٨.

(٧) المقريزي: اتعاظ، جـ ٢، ص ٥٣ وخطط: جـ ٢، ص ٢٨٦ -٢٨٧.

يقومون بأعمال العنف والتخريب في أماكن المسلمين، فيذكر المقريزي أنه في سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م «تزايد وقوع النار وكثر الحرق في الأماكن فأمر النـــاس بأتخـــاذ القناديل على الحوانيت.. وأزيار الماء مملوءة ماء.. وعظم الحريق ووقعـت فـــي أمره شناعات من القول فقرئ سجل في الجوامع بزجر السفهاء والكف عن أحــوال تفعل وأن يدخل الناس إلي دورهم من بعد صلاة العشاء. فأغلقت الدور والحوانيـت والدروب من بعد صلاة المغرب»(١).

وقد استخدم الحاكم الأطباء من اليهود والنصارى أمثال أبو الفتح منصور بـــن مقشر النصراني ويعقوب بن نسطاس النصراني وصقر اليهودي(٢).

ثم عدل الحاكم سنة ٤١١هـ/١٠٢٠م عن سياسته في اضـطهاد أهـل الذمـــة فأطلق حرية الشعائر للنصارى واليهود ورد كل ماسلب من أوقاف الكنائس والأديرة وسمح لهم بتجديد كنائسهم ومنحهم أماناً يحمل هذا المعنى(٣) وكان عنـــد خروجـــه للصيد يقيم في دير يسمى دير شهران كان به قصر الحاكم(٤).

وبعد اعتلاء الظاهر عرش الخلافة كانت عمته ست الملك تجمع مقاليد الأمـــور في يدها فبادرت إلي إلغاء قرارات أخيها الحاكم ضد أهل الذمـــة، وأعـــادت إلـــيهم الأمتيازات التى كانوا يتمتعون بها من قبل(٥) وأعيد بناء الكنائس والأديـــرة. وعقـــد الظاهر اتفاقية مع بيزنطة بإعادة فتح جامع القســـطنطينية مقابـــل إعـــادة كنيســـة القيامة(٦) ، فقد حاول منذ اعتلائه عرش الخلافة أن يتقرب من أهل الذمة، وأصـــدر بياناً حررهم فيه في عقائدهم وشعائرهم وخيرهم في دخول الإسلام أو البقاء علـــى

---

(١) نفسه، ص ١٠٥. خطط، جـ٢، ص ١٠٨.

(٢) نفسه.

(٣) انظر نص الأمان في تاريخ الأنطاكى، جـ ٢، ص ٢٣٢.

(٤) أبي صالح الأرمنى: تاريخه، ص ٦٠.

(٥) يحيى بن سعيد الأنطاكى: تاريخه، ص ٢٣٧ وما بعدها.

(٦) نفسه، ص ٢٧٠ – ٢٧١ ، المقريزي: اتعاظ، جـ ٢، ص ١٧٦.

دينهم دون التظاهر بدخول الإسلام[1].

ومن مظاهر التسامح مع أهل الذمة أن الخليفة الظاهر كان يشاركهم الأحتفالات بأعيادهم مثل عيد الغطاس وكان ينزل فيه الخليفة إلي قصر جده الإمام العزيز على البحر لنظر الغطاس[2].

وتميز عهد المستنصر بالاعتدال في معاملة الذميين، فقد كانت أمه جارية عند أبي سعد التسترى اليهودى قبل أن يأخذها الظاهر ويتزوجها، فولدت له المستنصر[3] ولما تولى ابنها الخلافة عظم شأن أبى سعد هذا وتولى كل ما يخص السيدة الوالدة. وأصبح ينظر في كل أمور الدولة[4] وقد كره المسلمون نفوذ هذا اليهودى لأنه رفع من شأن اليهود الذين أساءوا بدورهم معاملة المسلمين[5].

وقد تمتع بعض النصارى في عهده بالثراء الفاحش حتى أن أحدهم أقرض الدولة من الغلة الكثير لإطعام أهل مصر حين نقص النيل واشتد الغلاء[6].

كما تمتع اليهود بالثراء وكانوا يتاجرون بالجواهر وكان أحدهم يحتفظ على سعف داره بثلاثمائة جرة من الفضة زرع في كل منها شجرة كأنها حديقة[7].

وفي عهد المستنصر تولى بدر الجمالى الوزارة وقد عمل هذا الوزير كل ما يمكن عمله لرعاية أهل الذمة حتى أن عصره شهد نوعاً من التسامح وهدوءاً

---

(1) يحيي بن سعيد الأنطاكى: تاريخ، ص ٢٣٥. ساويرس: تاريخ البطاركة، ق٢، جـ ٢، ص ١٣٥. وأبو صالح الأرمنى: تاريخه، ص ٦٠. المقريزي: خطط، جـ ١، ص ٣٥٥. واتعاظ، جـ ٢، ص١٧٦.

(2) المسبحى: أخبار مصر، ص ١٩٠.

(3) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٣.

(4) ابن الصيرفى: الأشارة إلي من نال الوزارة، ص ٧١-٧٢.

(5) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، جـ٢، ص ٥-٧.

(6) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ١٢١.

(7) نفسه، ص ١٢٤.

ملحوظاً في معاملة أهل الذمة وبنيت الأديرة فتم بناء ديران لطائفتين مختلفتين هما الأرمن والأحباش ويبدو أنهما كانتا ضمن القلالى الملحقة بدير القديس يونس القصير[1] وفي عهد ابنه الأفضل استخدم أهل الذمة في الأعمال الإدارية مما أدى إلي ازدياد شكاية أهل مصر سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م للمستنصر من تسلط وتعالى أهل الذمة وإساءة معاملتهم للمسلمين، فأصدر أوامره بإلزامهم بلبس الملابس المميزة لهم (الغيار والزنانير) و«تعليق الدراهم الرصاص في أعناقهم مكتوب على الدراهم "ذمى" وأن تجعل هذه الدراهم أيضاً في أعناق نسائهم في الحمامات ليعرفن بها وأن يلبسن الخفاف فرداً أسود وفرداً أحمر وجلجلاً في أرجلهن»[2].

كما اتسمت سياسة الآمر (٤٩٥- ٥٢٤هـ/١١٠١-١١٣٠م) مع أهل الذمة بالتسامح وظهر منهم الراهب أبو نجاح بن قنا الذى تولى رياسة الدواوين سنة ٥١٩هـ/ ١١٢٥م وقد أساء إلى الناس واستولى على أموالهم الكبير منهم والصغير حتى أنه «صادر رجلاً حمالاً فأخذ له عشرين ديناراً»[3] وخلف ثروة طائلة عند وفاته[4].

وكثيراً ماكان يتقرب الآمر من رهبان النصارى ويزورهم وخاصة في دير «نهيا بالجيزة» وقد كان يبيت فيه في بعض الأوقات وينزل أحياناً في ضيافة الرهبان ويطلق لهم الهبات والعطايا في كل مرة حوالى ألف دينار[5] وأجاب طلبهم في منحهم

---

(١) عاطف مرقص بطرس: الأرمن وعلاقاتهم بالبيزنطيين، ص ٢٤٠. وفي عهد بدر الجمالى وجدت مخطوطتان بلغة أرمينية وبعض أجزاء من الانجيل مقسمة إلي خمسة اعمدة كل عمود بلغة مختلفة وتتصدر اللغة الأرمينية أولى هذه اللغات ثم تليها اللغة العربية فالقبطية والسريانية والحبشية. عاطف مرقص: الأرمن وعلاقتهم بالبيزنطيين، ص ٢٤٠.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم، جـ ٥، ص ١٣١.

(٣) جمال الدين على بن ظافر: مخطوط أخبار الدول المنقطعة، ص ٧٧.

(٤) نفسه ص ٧٨.

(٥) ابى صالح الأرمنى: تاريخه، ص ٧٨.

أرضاً في الجيزة تقارب الثلاثين فداناً للزراعة. ووافق أن يقوم النصـــارى بتعميـــر كنائسهم وأصلاحها[١].

وفي عهد الحافظ ٥٢٤-٥٤٤هـ/١١٣٠-١١٤٩م تمتع أهـــل الذمـــة بـــالأمن والأمان وتكاثرت أعدادهم بفضل الوزير الأرمنى بهرام[٢] فقد عمل على اســـتجلاب عدد كبير من الأرمن إلي مصر وولاهم أرفع المناصب حتى كثر عـــددهم وضـــايقوا المسلمين[٣].

وكان أهل الدولة قد كرهوا تعيينه في الوزارة لأنه نصرانى وإن مـــن شـــروط الوزارة أن الوزير يرقى المنبر مع الإمام في الأعياد، فأصر الحافظ على تعيينه ووجد حلاً لصعود المنبر أن يستنيب عنه قاضى القضاة[٤].

و «بنيت في أيامه كنائس كثيرة وديرة حتى أن كل رئيس من أهلـــه بنـــى لـــه كنيسة وخاف أهل مصر منهم أن يغيروا الملة الإسلامية»[٥].

وقد طلب من الحافظ السماح له بإحضار إخوته وأهله فأذن له وأحضرهم من تل باشر حتى صار منهم بالديار المصرية حوالى ثلاثين ألف إنسان[٦]، «فاستطالوا على المسلمين وأصاب المسلمين من النصارى جور عظيم»[٧] واكثروا من بناء الكنائس والديارات وصار كل رئيس منهم يبنى كنيسة بجوار داره[٨].

---

(١) نفسه، ص ٧٨.

(٢) السيوطى: حسن المحاضرة ص ٢٠٥ ، وجمال الشيال: الوثائق الفاطميـــة، الوثيقـــة الخامســـة عشرة، ص ١٤٤-١٤٥.

(٣) النوٌيرى: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٣٠٢، وجمال الشيال: الوثائق الفاطمية، الوثيقة الخامســـة عشرة، ص ١٤٤-١٤٥.

(٤) النويرى: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٣٠٠- ٣٠٢.

(٥) نفسه، ص ٣٠٢.

(٦) المقريزي: اتعاظ، جـ ٣، ص ١٥٩-١٦٠.

(٧) نفسه.

(٨) نفسه.

وقد تولى أخوه الباساك ولاية قوص فظلم المسلمين وصادر أملاكهم فشكوا إلي رضوان بن ولخشى والي الغربية فاستجاب لهم وجاء على رأس جيش كبير لمحاربة بهرام ففر بهرام إلي القاهرة ودخلها رضوان وتولى الوزارة[1] ولما استعفى بهرام وترهب أمر الخليفة ببناء مكان له يتعبد فيه داخل القصر[2]. وذلك كان قمة التسامح والمحاباة حتى أن خليفة المسلمين يقبل إقامة طقوس الدين المسيحى في مكان بقصره. وقد أباح الحافظ لهم استعمال طقوسهم في المناسبات الخاصة فلما توفى بهرام حزن عليه الحافظ كثيراً[3].

وبعد وفاة بهرام وتولى الوزير رضوان بن الولخشى الوزارة ضيق رضوان على النصارى وصادرهم وأبادهم بالسيف وصرف ابن زكريا الأخرم عن ديوان النظر[4].

وأصدر سجلاً بمنع النصارى واليهود من «إرخاء الذوائب وركوب البغلات ولبس الطيالسة وأمر النصارى بشد الزنانير المخالفة لألوان ثيابهم وألا يجوزوا على معابد المسلمين ركباناً فما رئى في أيامه يهودي ولا نصراني يجوز على الجامع راكبًا لكنه ينزل ويقود دابته وأمر أن يؤخذ الجزية من فوق مساطب وهم وقوف أسفلها ومنعهم من التكني بأبي الحسن وأبي الحسين وأبي الطاهر وأن يبيضوا قبورهم»[5].

ونزل الفائز على رغبة رهبان دير طور سيناء فقد أصدر منشورًا إلى رجاله في شبه جزيرة سيناء يوصيهم خيرًا برهبان دير طور سيناء وكان تصرفه هذا ناتجًا عن

---

(١) المقريزي: اتعاظ جـ ٣، ص ١٦٠- ١٦١.

(٢) ابن ايبك: الدره المضية، جـ ٦ ص ٥٠٧.

(٣) النويرى: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٣٠٦-٣٠٧، المقريزي: اتعاظ جـ ٣ ص ١٧٥.

(٤) المقريزي: اتعاظ، جـ ٣ ص ١٦٥.

(٥) المصدر السابق: ص ١٦٥.

شكوى تقدم بها أسقف الدير من الضريبة التي فرضت على رهبان الدير وكان مقدارها عشرة دنانير، فأصدر الخليفة أوامره بمنع مثل هذه الضريبة [١].

ومن هذا تتضح سياسة الخلفاء الفاطميين المتسامحة مع أهل الذمة، فقد كان اليهود يمارسون نشاطهم التجارى في ذلك العصر بمنتهى الحرية وخاصة في الإسكندرية التى كانت تعد من أهم مراكز التجارة الداخلية والخارجية في ذلك الوقت وكان بطريرك النصارى يشارك كبار موظفي الدولة في تهنئة الخليفة بالأعياد [٢]. ونستطيع القول إنه بإستثناء عصر الحاكم بأمر الله الذى تعرض فيه هؤلاء إلى الإضطهاد فإن العصر الفاطمى كان يعتبر عصر أهل الذمة الذهبى الذى امتزجوا فيه في الحياة السياسية العامة للدولة في مصر[٣].

وكما امتزجوا في الحياة السياسية امتزجوا أيضاً في الحياة الإجتماعية وكانوا يشاركون المسلمين في أفراحهم. فكان النصارى يشاركون بالحضور في تلك الأفراح مهنئين[٤].

العبيد:

اكتظت أسواق الرقيق في المجتمع الفاطمى بأنواع متعددة من الرقيق ولكن العبيد السود المجلوبين من بلاد النوبة كانوا يمثلون العدد الأكبر منهم «واركان الدولة والخدم من العبيد السود أو الروم»[٥].

وانتشر السودانيون داخل المجتمع المصرى على هيئة أفراد أو جماعات، ولكن يبدو أن ذلك المجتمع نظر إليهم نظرة إمتهان وتعامل معهم على أنهم من الطبقة الدنيا. فكانت لهم مساكن خاصة بهم وحارات كاملة لهم وذلك بسبب كثرة أعدادهم

---

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٢١٦ - ٢١٧.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ ١، ص ٣٨٨ - ٣٨٩.

(٣) أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية. ص ١٠٦.

(٤) ابو صالح الأرمنى: تاريخه، ص ١٢٩.

(٥) ناصر خسرو: سفر نامة، ص ١٠٥.

حتى قال المقريزي «كان لهم بديار مصر في كل قرية وضيعة مكان مفرد لا يدخل وال ولا غيره احتراماً لهم»[1].

وأهم تلك الحارات حارة المنصورية وقد ضمت مساكن عديدة للسودان وكان لهم عرفاء يشرفون على شئونهم ويسلمونهم الأسلحة[2] وقد استعان بهم الحاكم على الأتراك فقاموا بحرق القاهرة[3].

وكثيرا ماكانوا ينهبون البلاد ويثيرون القلق والذعر لدى العامة في الحارات والدور[4]. ويدخلون البيوت فينهبون ما فيها، فيذكر المسبحى أن العبيد تجمعوا «ونزلوا وقصدوا السواحل ونهبوا دارست ياقوت التى بساحل الشعير ودار الكاتبة وطرحوا فيها النار ونهبوا ما وجدوه من القمح والشعير والحبوب وغير ذلك في الدكاكين ودخلوا إلى منازل من أمكنهم الدخول إليه من أهل الساحل فنهبوها»[5].

كما أنهم كانوا يخرجون لنهب قوافل الحجاج كما حدث ٤١٥هـ/١٠٢٤م واستخدمهم الخلفاء وقربوهم إليهم فكان للحاكم خادم وكاتب أسود كناه بأبى الرضا سعد أعطاه المنح وأغدق عليه بالجواهر والأموال والإقطاعات وكان يقوم بدور الوسيط بين الحاكم والرعية[6].

وبلغ من شغبهم في عهد الظاهر أن أصدر مرسوماً بإباحة قتلهم في حالة

---

(١) المقريزي: خطط، جـ٢، ص ١٨-١٩.

(٢) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص ١٤٨-١٤٩.

(٣) النويرى: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ١٩٣-١٩٥. أبن كثير: البداية والنهاية. جـ ١٢، ص ٩-١١. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، جـ٣، ص٤٣٥.

(٤) المسبحى: أخبار مصر، ص ٢٠٣.

(٥) المسبحى: أخبار مصر ص ٢٠٨.

(٦) المقريزي: اتعاظ جـ ٢، ص ١٠٤.

تعرضهم للشعب أو قيامهم بإعمال الشغب [1]. وفي عهد المستنصر كانت أمه تغريهم ضد الأتراك وتمدهم بالمال والسلاح فاضطربت الأمور على المستنصر [2]. واستخدم الفاطميون النوبيين في الشرطة فكانوا يقومون بحراسة القصر وتنظيم الأعياد وكان يتولى الشرطتين في عصر الظاهر (٤١١-٤٢٧هـ/١٠٢٠- ١٠٣٥م) الأمير بدر الدولة وهو نوبى الأصل [3]. وكان لهم دور بارز في الإشتراك في احتفالات وفاء النيل حيث يسيرون في أعداد ضخمة مع بقية الفرق الأخرى [4] وكان الخلفاء يعتقون الكثير من عبيدهم في المناسبات والأعياد حتى أن الحاكم أعتق سنة ٤١٤هـ/١٠٢٣م كل ما كان يمتلكه من العبيد والأماء وأعطاهم كل ما كانوا يمتلكونه من أموال اقتنوها منه ومن أبيه. وأطلق لهم حرية التصرف فيه [5]. وكان للعبيد دور كبير ابان سقوط الخلافة الفاطمية فقد تصدوا لصلاح الدين بقيادة مؤتمن الخلافة الخصى الأسود واجتمع خمسة ألاف منهم لحرب صلاح الدين وانقاذ الخلافة الفاطمية فأحرق صلاح الدين حارتهم المعروفة بالمنصورية على من فيها من أهليهم ثم تتبعهم بعد فرارهم وقضى عليهم وعلى رأس هؤلاء الطائفة الفرحية [6] ثم أنضمت لها بقية الطوائف [7].

---

(١) ابن ميسر: أخبار مصر ص ١٦: المقريزي: الخطط، جـ ١ ص ٩٤. وسعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص ٢٥١.

(٢) النويرى: نهاية الإرب جـ ٢٨ ص ٢٢٤، والذهبي: العبر جـ ٢ ص ٣٧، وابن الوردى: تاريخه ص ٥٢٣، المقريزي: خطط، جـ ٢، ص ٢٧٣-٢٧٤ وسعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى ٢٥١.

(٣) المسبحى: أخبار مصر، ص ١٩٠.

(٤) ناصر خسرو: سفر نامة، ص ١٩٠.

(٥) الأنطاكى: تاريخه، جـ ٢، ص ٢٠٦، ابن أيبك: كنز الدرر، جـ ٦، ص ٢٦٥

(٦) الفرحية: كانت طائفة من طوائف عبيد الشراء مثل الحسينيين والميمونيين نسبة إلى ميمون الخادم. المقريزي: الخطط، جـ ٢. ص ١٤.

(٧) المصدر السابق، جـ ٢ ص ٣.

ثالثاً: المماليك من الجوارى والغلمان والخصيان في حياة القصور

الجوارى:

حياة القصور ودور الجوارى فيها:

يعد وجود الجوارى في القصور الفاطمية ظاهرة عامة استحقت اهتمام الكتاب والشعراء الذين تباروا في الحديث عنها، فعددوا الجوارى والقيان والوصائف والمولدات والسرارى والإماء والمحظيات[1]، وقد ظهرت هذه الطائفة من النساء في قصور الملوك من العرب والعجم، وكثر نسلهن فظهرت طائفة من الأبناء عرفوا بأبناء السرارى[2].

وشهد العصر الإخشيدى كثرة الجوارى، إذ كان قصر الإخشيد يعج بهن، وقد لمس المؤرخون تأثيرهن السلبى في المجتمع وسجله العديد منهم وشجع بعضهم الناس على اقتناء الجوارى كقول الجاحظ «من أراد قلة المؤونة وخفة النفقة وحسن الخدمة وارتفاع الحشمة فعليه بالأماء دون الحرائر»[3].

ولما قامت الدولة الفاطمية في مصر، جلب الخلفاء الجوارى من شتى بقاع الأرض، وتباروا في أقتنائهن بشكل لافت للنظر فقد وصلت أعدادهن في بعض الأحيان إلي الألاف. وقد علل الجاحظ سبب تعلق الخلفاء بهن لأسباب منها أن «ريح الجارية أطيب وثيابها أعطر ومشيتها أحسن ونغمتها أرق والقلوب إليها أميل»[4].

وعلى الرغم من انتقاد الخلفاء الفاطميين لبنى العباس في اقتنائهم للجوارى

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، جـ ١٢، ص٣٨٣: الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص ٢٣٠. القيان، ص ١٥٨

(٢) أحمد أمين: ظهر الإسلام، جـ ١، ص ١٢٤.

(٣) الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص ٢٣٠، كتاب القيان، ص ١٥٨، والمقريزي: اتعاظ، جـ ١، ص ١٠٠.

(٤) الجاحظ: رسائل مفاخرة الجوارى والغلمان، ص ٩٧.

وأنهم «ملكوا الجوارى زمام أمورهم وقوام سياستهم»[1] فإن نفوذهن قد أزداد بصفة خاصة على عهد الظاهر الفاطمى الذى تزوج من جاريته السودانية وانجب منها المستنصر الذى سار على نهج والده فقد اعتلى عرش الخلافة صغيراً، ومال إلى اللهو وتعلق بالجوارى، مما شغله عن الأهتمام باحوال البلاد التى عانت في عهده من الشدة العظمى[2].

وكانت الجوارى اللاتى تسبى من بلاد الأعداء وتنقل إلي بلاد المسلمين في سن متقدمة يصعب تعليمهن العربية أو فناً من الفنون أو أخلاق البلاط وكانت أثمانهن تختلف عن غيرهن من الصغيرات فتحول إلي أعمال المنزل أو القصور أما الصغيرات فينشأن نشأة عربية يتعلمن خلالها اللغة العربية ويتقنن فنونها، فظهر منهن الشاعرات والمغنيات اللاتى أجدن فن الشعر والغناء.

ونظرا لزيادة أعدادهن فقد أثرن في حياة القصور تأثيراً واضحا، وكان الخلفاء الفاطميون يستخدمونهن ويستولدونهن، وأحيانا يبيعونهن ويتصرفون فيهن تصرف المالك لملكه[3].

وكانت الجوارى يأتين ضمن السبى الذى يحصل عليه المسلمون فيأخذ منهن الخليفة ما يروق له ثم يهب وزراءه وأقاربه منهن العدد فيقمن بالخدمة وتربية الأولاد[4].

ويقول ناصر خسرو أن أعداد جوارى القصر الفاطمى أكثر من أن يقدر إذ بلغن الألوف في العدد مما يدل على أن الخلفاء قد اقتنوا أعداداً ضخمة منهن[5].

---

(1) عبد الله عفيفى: المرأة العربية، ص ٦٢.

(2) نفسه، ص ٦٢-٦٣.

(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ١، ص ٣٢٠، وانظر: جبور عبد النور: الجوارى، ص ٥٨-٥٩.

(4) المقريزي: الخطط، جـ ٢ ص ١٩٣، ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٨٠.

(5) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ١٠٤.

اقتناء الخلفاء للجوراى:

لم يقتصر أقتناء الجوارى على الخلفاء فقط وان كان الخلفاء قد اكثروا منهن بشكل كبير. ومن الملاحظ أن الخليفة المعز لم يكن له غير زوجة واحدة وكان دائماً يحث حاشيته على عدم الأستكثار من النساء، فقد جمع شيوخ كتامه وحثهم على الألتزام بزوجة واحدة قائلاً لهم «ولا تشرهوا إلي التكثير منهن والرغبة فيهن فيتنغص عيشكم وتعود المضرة عليكم وتنهكوا أبدانكم وتذهب قوتكم وتضعف نحايزكم فحسب الرجل الواحد الواحدة ونحن محتاجون إلي نصرتكم بأبدانكم وعقولكم»(١).

وكان له من أبنائه من شغف بالجواري أمثال ابنه تميم الذى كان يتصف بالوفاء والكرم والفصاحة. اشتريت له جارية كانت رائعة الجمال والغناء ودعاها إلي مجلس به أصحابه وأمرها بالغناء فغنت:

فبدا لينظر كيف لاح فلم يطق ... نظر إليه وصده سجانه

فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه ... والماء ما سمحت به أجفانه

فطرب طرباً شديداً هو ومن حضر معه ثم غنت:-

أستودع الله في بغداد لى قمرا ... بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه

« فأشتد طرب تميم وافرط جداً ثم قال لها تمنى ما شئت فلك مناك...فقالت أتمنى أن أغنى هذه النوبة ببغداد، فأستنقع لون تميم وتغير لونه وتكدر المجلس»(٢).

فيبدو أن قلبها كان متعلقاً بأحد في بغداد وأرادت الذهاب اليه مما أحزن تميم وهذا يدل على مدى تعلقه بهذه الجارية.

أما عبد الله بن المعز فقد تعلق بجارية تدعى عليه «وكانت من وجوه عجائز

(١) المقريزي: اتعاظ، جـ ١، ص ٩٦. خطط، جـ ١، ص ٣٥١.

(٢) المسبحى: أخبار مصر، ص ٢٢٨. المقريزي: أتعاظ، جـ ٢، ص ١٧٣.

القصر وعقلائهم» فلما توفيت صلى عليها داعى الدعاة قاسم بن عبد العزيز النعمان.

وكان عبد الله قد ختم على كل ما خلفته. وتقدر ثروتها بأربعمائة ألف دينار مما يدل على مدى ثرائها في ذلك الوقت. وبلغ من شدة ولعه بها أن دفنت عند رجلى مولاها في داره[١].

وكان للعزيز الكثير من الجوارى[٢] وأمهات الأولاد. فقد تزوج من جارية رومية ومسيحية أنجبت له أبنه الحاكم[٣].

وقيل إنه بعد وفاته وجد له عشرة ألاف جارية[٤] كما قيل كان لأبنته ست الملك ثمانية الاف جارية يقمن على خدمتها[٥] وذكر ابن إياس أن جواريها كن أربعة ألاف جارية منهن ألف وخمسمائة من الأبكار والباقى من الثيبات[٦].

كما تزوج الحاكم من أحدى جوارى أخته ست الملك. وتزوج الظاهر من جارية سوداء سودانية ولدت له ابنه المستنصر بالله[٧].

فكانت الجارية تدخل القصر فتصبح بعد فترة وجيزة سيدته بزواجها من الخليفة وإنجابها له الأبناء فتتسلط على أمور الدولة. وكان للحاكم جارية يحبها تدعى راشدة فلما ماتت بنى لها جامعاً سمى جامع راشدة كانت قد أوصت ببنائه قبل وفاتها[٨].

فقد انتشر في القصر الفاطمى نظام التسرى الذى كثيراً ما يعقبه التزوج فإذا

---

(١) نفسه، ص ٢٢٨، وكانت جارية ابى على بن الحسن بن بكار.

(٢) Yaacov Lev , Arab history and Civilization state and society'V.I.P.75.

(٣) الأنطاكى: تاريخه، ص ١٦٤.

(٤) ابن القلانسى: تاريخه، ص ٤٤-٤٥ Yaacov Lev , Arab history and Civilization 'state and society'V.I.P.75

(٥) مخطوط شرح اللمعة: مجهول ص ٩ ، المقريزي: خطط، جـ ١، ص ٤٥٨.

(٦) ابن اياس: بدائع الزهور، جـ ١، ص ٥٨.

(٧) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، جـ ٣، ص ٤٥٧.

(٨) بيبرس الدوادار: مخطوط زبده الفكرة، ص ٢٨٣.

ولدت الجارية له إبنًا تزوجها[١] ولم يكن قاصراً على الخلفاء وكبار رجال الدولة فقط بل كان يستطيع التسرى كل من يملك ثمن الأمة[٢]. وتلك كان يطلق عليهـا أم ولـد وقد قال عنهن الجاحظ» «ثم هن أمهات أولاد من قد بلغ بالحب لهن أن غفروا لهن كل ذنب وأغضوا منهن على كل عيب»[٣].

فأم الولد هى الجارية أو الأمة التى تنجب من سيدها فيكفل لها هـذا الإنجـاب بعض الحقوق فلا يجوز بيعها أو توريثها. وعند وفاة مالكها تصبح حرة. ولا يعتبر ابنها رقيقاً بل حراً منذ ولادته وكثيراً ما حظيت أمهات الأولاد بكل التقدير والأحترام ويدلنا على ذلك بعض الكتابات الأثرية التى تحمل أسماء أمهات الأولاد وقد تمـتعن بألقاب الحرائر من زوجات الخلفاء والسلاطين لأنهن أنجبن أولاداً أحـراراً[٤] ومـن هذه الكتابات كتابة أثرية بنص جنائزى بتاريخ ١٥ المحرم سنة ٢٢٥هـ/١٦ نوفمبر ٨٣٩م على شاهد رخام من مصر محفوظ بمتحف الفن الإسـلامى بالقـاهرة بأسـم «حوراء ابنت مؤنسة أم ولد عبد الواحد بن سليم الحسنى «وكتابة بـنص جنـائزى بتاريخ شهر ذى الحجة سنة ٢٤٢هـ/ ابريل ٨٥٧م على شاهد مـن الرخـام مـن الفسطاط محفوظ بالمتحف نفسه[٥] باسم «عنبر أم ولد كاتب بن موسى السعدى».

ونلاحظ أن هذين النصين سبقا العصر الفاطمى معنى ذلك أن هؤلاء وجدن فـي عصر الطولونيين والإخشيديين.

ومما يبين ما تمتعن به من منزلة لدى الخلفاء أن كان للعزيز أم ولـد اسـمها درزان[٦]، ماتت فحملت إلي القصر وصلى عليها العزيز وصرف على كفنهـا مبلـغ

---

(١) وهو اقتناء الجوارى للتمتع بهن واستيلادهن. جرجى زيدان: تاريخ التمدن، جـ ٥، ص ١١٧.

(٢) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى، ص ١٨٩.

(٣) الجاحظ: كتاب القيان، ص ١٧٥-١٧٦.

(٤) حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف، جـ ١، ص، ٩١-٩٢.

(٥) متحف الفن الإسلامى؛ سجل رقم ٩١١٧.

(٦) نفسه سجل رقم ٢٧٢١/٢١١.

عشرة آلاف دينار. ولما أخذت الغاسلة ما كان تحتها من الفرش وما عليها من ثياب وصلت قيمته ستة آلاف دينار وتصدق عليها للفقراء بألف دينار. وللقراء الذين قرأوا على قبرها ثلاثة آلاف دينار وللشعراء الذين رثوها خمسمائة دينار وقد أقامت ابنتها على قبرها شهراً تقيم العزاء والعزيز يأتيها كل يوم والناس تطعم كل ليلة أصناف الأطعمة والحلوى وفرق في الشعراء ألفي دينار(١).

وكان للحاكم عدد من أمهات الأولاد. وقد قام بإغراق بعضهن بعد وضعهن في صناديق مغلقة وإلقائهن في البحر مما حدا بالسيدة ست الملك أخته إلي استضافة إحداهن مع ولدها الظاهر (أبي الحسن على) خوفاً عليهما منه وظلا في قصرها بعيدين عنه إلي أن فقد (٢) ومنع الحاكم بيع الإماء لأهل الذمة (٣) وبلغت عدة جواريه عشرة آلاف جارية (٤).

ويذكر ابن خلكان أن الحاكم كان يزوج مماليكه لجواريه بعد أن يعتقهما وأمر ولى الدولة بن خيران أن «أخطب فيهما خطبتين حسنتين وأنسق الصداق والمهر بعد ذلك على ما تقتضيه صناعة الوراق»(٥) وقيل عن الظاهر «إنه كان مشغوفاً باللهو محباً للغناء، فتأنق الناس في أيامه بمصر واتخذوا المغنيات والرقاصات وبلغوا من ذلك مبلغاً عظيماً»(٦).

وكانت زوجة الظاهر جارية سودانية سوداء شديدة البطش قوية الشخصية وصفها المقريزي أنها «إذا قالت قولاً وفت به وثبتت عليه»(٧) فقد طغت تلك السيدة طغياناً كبيراً بسبب ضعف شخصية ابنها (٨) وكان قد باعها أبو سعيد التسترى

---

(١) المقريزي: اتعاظ، جـ ١، ص ٢٨٨- ٢٨٩.

(٢) يحيى بن سعيد الأنطاكي: تاريخه، جـ ٢ ص ٢٠٦.

(٣) المقريزي: اتعاظ، جـ ٢، ص ٥٣.

(٤) نفسه، جـ ١، ص ٢٩٤. ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١، ص ٥٨.

(٥) ابن خلكان: وفيات، جـ ٥، ص ٢٩٥.

(٦) المقريزي: الخطط. جـ ١، ص ٣٥٤.

(٧) المقريزي: اتعاظ، جـ ٢، ص ٢٠٧.

(٨) ناريمان عبد الكريم: أحوال المرأة في مصر، ص ١٦٥-١٦٦.

اليهودى إلي الخليفة الظاهر فملكت عليه قلبه ومشاعره وأصبحت أثيرة عنده وولدت له المستنصر[١].

وقد استولت تلك السيدة على مقاليد الأمور في مصر واستكثرت من أبناء جنسها وتولى أبو سعيد التسترى كل مايخصها وعظم شأنه وأصبح العبيد حزباً والأتراك حزباً وكانت تمد هؤلاء العبيد بالمال والسلاح لأنهم أبناء جنسها وأشتعلت الحروب واشتد الأمر وغلت الأسعار [٢].

وزاد من ذلك انخفاض النيل وانتشار المجاعات والأوبئة وقد تسبب نفوذها في زيادة أعداد الجند الذين اصطدموا بالأتراك ودارت بين الفريقين حروب طاحنه دفع ثمنها الشعب المصرى جوعاً ووباء وقحطاً [٣].

وكان الآمر من الخلفاء الذين عشقوا الجوارى عشقاً فظيعاً وكان يرسل بعيونه إلي البوادى يبلغنه بأجملهن فبلغه أن بالصعيد جارية من أجمل الجوارى وهى شاعرة ظريفة فتخفى في زى ثرى أعرابى وصار يجول في الأحياء حتى وصل حيها ولما رأها طار عقله ورجع إلي قصره وأرسل إلي أهلها يخطبها فوافقوا وزوجوها منه فلم تطق حياة القصور بعد أن اعتادت حياة البادية فلما رأها حزينة بنى لها في جزيرة الفسطاط الهودج على شاطئ النيل ولكنها كانت متعلقة بأبن عم لها يعرف بابن مياح فكتبت إليه:

يا أبن مياح إليك المشتكى	مالك من بعدكم قد ملكا
كنت في حيى مرأ مطلقا	نائلا ماشئت منكم مدركا
فأنا الأن بقصر مؤصد	لا أدرى إلا حبيساً ممسكا

---

(١) ابن ميسر: أخبار مصر، جـ ٢ ص ١.

(٢) ابن الصيرفي: الإشارة، ص ٧١. ابن ميسر: المنتقى، ص ٢٥. أبو الفدا: المختصر، جـ ٢١ ص ١٨٩. ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ ١، ص ٥٢٣. المقريزي: اتعاظ، جـ ٢، ص ٢٦٦-٢٦٧. ابن تغرى بردى: النجوم جـ ٥، ص ١٧- ١٩.

(٣) أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية، ص ١٣٨-١٤٠.

كـــم تثنينـــا بأغصـــان اللـــوا	حيـــث لا نخشـــى علينـــا دركـــا
وتلاعبنـــا بـــرملات الحمـــى	حيثمـــا شـــاء طليـــق ســـلكا

فأجابها:

بنـــت عمـــى والتـــى غـــذيتها	بـــالهوى حتـــى عـــلا واحتنكـــا
نجت بالشـــكوى وعنـــدى ضـــعفها	لوغـــدا ينفـــع منهـــا المشـــتكى
مالـــك الأمـــر إليـــه يشـــتكى	هالـــك وهـــو الـــذى قـــد هلكـــا
شـــأن داود غـــدا فـــي عصـــرنا	مبـــديا بالتيـــه مـــا قـــد ملكـــا

ولما بلغ الآمر تلك الأبيات قال: «لولا أنه أساء الأدب في البيت الرابع لرددتها إلي حيه وزوجتها به»[1]

كما كانت له جارية تجيد الكثير من العلوم والثقافة ولها معرفة بعلـوم الطب والموسيقى والنجوم كانت تحب الآمر حباً جمًا وكانت تحتاط له من المؤامرات التـى يدبرها وزيره الأفضل وكانت لها يد في تدبير اغتيال الأفضل[2].

وكانت إحدى زوجات الحافظ من الجوارى المغنيات وكانت تعزف على العود من جملة الجوارى المغنيات في مجالس الغناء والطرب بالقصر الفاطمى. وقـد أحبهـا الحافظ وتزوجها بعدما تحققت رؤية منامه وهو في السجن لما اعتقله كتيفات ابـن الأفضل. فقد رآها الخليفة وكأن الخلافة أعيدت إليه وهى تغنى بين يديه قـول أبـى العتاهية:

أتتـــه الخلافـــة منقـــادة	إليـــــه تجـــــر أذيالهـــــا
فلـــم تـــك تصـــلح إلا لـــه	ولـــم يـــك يصـــلح إلا لهـــا
ولـــو نالهـــا أحـــد غيـــره	لزلـــــزت الأرض زلزالهـــــا

---

(1) المقريزي: خطط، جـ ٢، ص ١٨١–١٨٢.

(2) ابن تغرى بردى: النجوم جـ ٥، ص ٢١٨.

فلما استيقظ أخرج من حبسه ورأى نفس الجارية تغنى فأعطاها الكثير من الجواهر النفيسة وتزوجها (١). كذلك كان الفائز يحب «التفرد بالجوارى واستماع الأغانى»(٢).

وعند وفاة العاضد وجد في القصر الكثير من الجوارى بيع جزء منهن وعتق ووهب الباقون (٣).

ومن الملفت للنظر أنه برغم المكانة التى تمتعت بها الجوارى لدى الخلفاء في ذلك العصر فأن بعضهم كان يستعمل منتهى القسوة مع هؤلاء الجوارى، وأصبحت ظاهرة إبادتهن جماعياً شائعة في عصر الحاكم وابنه الظاهر، فقد كان الحاكم يمر على أحدى حمامات النساء فسمع غناءهن ومرحهن وصياحهن فأمر أن يبنى باب وسد عليهن الحمام فمتن جميعا (٤)، كما أنه أخرج جواري وأمهات أولاده ووضعهن في صناديق بها حجارة وأغلقها عليهن وأمر بالقائهن في النيل (٥).

وأعتقد أن تلك الروايات مبالغ فيها وناتجة عن كراهية العامة للحاكم لتشديده في الكثير من الأمور عليهم فمن الممكن أن يكون المؤرخون نقلوها عن هؤلاء العامة دون التأكد من صحتها فإذا كان أمر الجوارى لا يعنيه فعلى الأقل كان يرأف بأمهات أولاده مراعاة لهؤلاء الأولاد.

كما يذكر كل من السيوطى وابن إياس أن الظاهر جمع كل جوارى القصر ووعدهم بقضاء يوم حسن. وأمر كل من كانت عنده جارية أن يحضرها مزينة مرتدية أجمل ما عندها وجمعهن في مجلس وأمر البنائين فبنوا أبواب المجلس

---

(١) المقريزى: خطط، جـ ٢، ص ٤٤٨.

(٢) ابن خلكان: وفيات، جـ ١، ص ٢٣٧.

(٣) مجهول: مخطوط شفاء القلوب ص ٢٠. ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ٢، ص ١٢٢. والمقريزي: خطط، جـ ٢، ص ٢٨٤.

(٤) ابن أيبك: الدرة المضية جـ ٦، ص ٢٥٨.

(٥) الأنطاكى: تاريخه، ص ٢٠٦.

عليهن حتى متن جميعاً وكانت عدتهن ألفين ستمائة وستين جارية وبعد ستة شهور أحرقهن بما عليهن من ثياب وحلى (١).

وقد أقتنى الوزراء والكتاب وأرباب الرتب عدداً من الجوارى، فكان ليعقوب بن كلس ثمانمائة حظية غير جوارى الخدمة (٢).

وكان لمحسن بن بدوس متولى بيت المال في عهد الظاهر الكثير من الجوارى حتى أنهن بعد وفاته أخفين أمواله فاشتدت معاقبتهن و «ضربن ضرباً شديداً(٣) «كما كان لعمدة الدولة أمير المطالبين خادم المستنصر الكثير من الجوارى خلف منهن عند وفاته «ثلاثمائة جارية أكثرهن كالبدور وبعضهن سراريه»(٤) «كذلك ترك الأفضل ثمانمائة جارية منهن حظايا خمس وستون ولكل جارية حجرة خاصة وخزانة مملوءة بالكساوى والألات والديباج والذهب والفضة (٥).

وكانت الجوارى من أنفس الهدايا التي تقدم للتقرب من الخلفاء أو كمنحة للأدباء والشعراء وكان تهاديهن مرآة تصور مدى ما وصل إليه ذلك العصر من الترف والبذخ ، فكثيراً ما كان العمال والأمراء يتقربون إلي الخلفاء بأمثال تلك الهدايا(٦).

وكانت الجوارى المغنيات المدربات في قصور الفاطميين من أثمن الهدايا التى تهدى إلي كبار رجال الدولة وعمال الولايات، فقد أهدى الظاهر إلي والى المغرب

---

(١) السيوطى: حسن المحاضرة، جـ ٢، ص ٢٨٥- ٢٨٦. ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١ ق١، ص ٢١٤.

(٢) مجهول: مخطوط شرح اللمعة، ص ٥، ٦. ابن أيبك: الدرة المضية، جـ ٦، ص ٢٦٦.

(٣) المسبحى: أخبار مصر، ص ١٩٠

(٤) ناصر خسرو: سفر نامة، ص ١٢٩ –١٣٠.

(٥) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى. ص ٤١.

(٦) إلياس الإيوبى: تاريخ مصر الإسلامية. ص ٢٧١.

المعز بن باديس سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م جوارى مغنيات وراقصات فاتنات[١].

كما أهدى الظافر إلي والى صقلية سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م الجوارى الحسان[٢]. وكثيراً ما اشتركت الجوارى في المؤامرات والدسائس عند خلع خليفة ومبايعة أخر[٣]، وقد كن عيوناً على الوزراء والقواد فيهب الخليفة احدى جواريه إلي من يريد التجسس عليه. فتقترب منه وتتعرف علي جلسائه وتنقل كل ما رأت أو سمعت للخليفة[٤].

---

(١) ابن الزبير: الذخائر والتحف، ص ٧٠.

(٢) المقريزي: اتعاظ، جـ ٢، ص ١٣٦.

(٣) جبور عبد النور: الجوارى، ص ٨٢.

(٤) عبد الله عفيفى: المرأة العربية، ص ٤٧.

الأعمال التي قامت بها الجوارى في القصر

أولا: الجوارى المغنيات والراقصات:

انتشر الغناء والطرب بين كافة طبقات المجتمع المصرى في العصر الفاطمى انتشاراً كبيراً وكانت مجالس الخلفاء وكبار الأمراء لا تخلومن سماع الغناء والتمتع برقص الجوارى. وقد صور الفاطميون العديد من مظاهر الفن في مجالسهم على جدران القصور ، وحفروها على أبوابها ورسموها على قطع الخزف التى كانوا يستعملونها فما زالت أثار ذلك العصر تدلنا على الكثير من تلك المعانى. من ذلك مجموعة التحف الخشبية الثمينة المتبقية من القصر الفاطمى الغربى والتى تجسد مجالس الفاطميون وأحوالهم من غناء وطرب في تلك المجالس (١).

فكان الخلفاء الذين يسمعون الغناء «يحضرون الندماء في مجالسهم والجوارى يغنين من وراء الستائر»(٢).

وكان الخلفاء الفاطميون يقبلون على الغناء والطرب ويزهون في مجالسهم بجواريهم المغنيات فكان للعزيز الكثير من الجوارى الحسناوات والراقصات اللاتى يقضى معهن أمتع الاوقات وهو يحتسى الخمر، ويشاركهن المرح والغناء، ويغدق عليهن أنفس الجواهر وأثمنها (٣).

كما كان برجوان شديد الشغف بالجوارى المغنيات، ويجمعهم ويتباسط معهم كأحدهم (٤).

---

(١) انظر زكى حسن ، كنوز الفاطميين لوحة ٤٧ ص ٢٠٤. ٢٠٥. ٢٠٩. ٢١٠. ٢١٢. ٢٢٣. ودليل متحف الفن الأسلامى ، ص ١٦٥.

(٢) الحسن بن عبد الله: أثار الأول، ص ١١٢.

(٣) ابن الزبير: الذخائر والتحف، ص ١٣ ، ١٤.

(٤) المقريزي: خطط، جـ ٢ ص ٤، اتعاظ، جـ ٢ ص ٢٦.

وفي عهد الحاكم صدرت عدة قرارات بمنع الغناء ونهى عن بيع المغنيات [١].

وجاء الظاهر فأباح كل ما منعه والده وأقبل على مجالس الغناء والطرب ، وفعلت مثله الرعية واتخذوا المغنيات والرقاصات [٢].

وكان المستنصر محباً للغناء والطرب وأشهر المغنيات في عهده نسب الطبالة «وكانت تقف تحت القصر الفاطمى تردد الأغانى في المناسبات، كما تسير بفرقتها في ركاب الخليفة، تنشد أعذب الألحان [٣] وقد أقطعها الخليفة الأرض المجاورة للمقس مكافأة لها حتى أنتسبت إليها وعرفت بأرض الطبالة [٤]. كذلك كانت زوجة الحافظ إحدى الجوارى المغنيات في القصر[٥].

كذلك ولع الظافر بالجوارى الحسان[٦]، وكذلك وزيره الأفضل الذى اشتهر بإقتناء الكثير من الجوارى المغنيات والراقصات [٧]. كما اشتهر الآمر بحبه لاقتناء الجوارى المغنيات والراقصات [٨].

وكان لهؤلاء الجوارى المغنيات والراقصات ملابس خاصة، وغالباً ماكانت عارية، لإبراز مفاتنهن فكانت المغنيات ترتدين ثوباً طويلاً أكمامه واسعة مزينة بالزخارف وتغطى رأسها بعصابة تشبه العمامة [٩] وأحياناً تضع على رأسها تاجاً أو

---

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكى: تاريخه، ص ٢٠٠-٢٠٢.

(٢) المقريزي: خطط، ، جـ ١، ص ٣٥٤.

(٣) المقريزي: الخطط، ، جـ ٢ ص ١٢٥ ، اتعاظ: جـ ٢، ص ٢٥٤.

(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ ٥، ص ١٢.

(٥) المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ٤٤٨.

(٦) المقريزي: اتعاظ، جـ ٣ ص ٢٠٩.

(٧) نفسه ص ٧١.

(٨) ابن تغرى بردى: النجوم، جـ ٥، ص ٢١٨.

(٩) سيد محمد خليفة: دليل متحف الفن الإسلامى، ص ٨٦.

تترك مرصعة بالجواهر تتدلى من عصابتها كذوابه [1] وإلي جانب أعمال الغناء والرقص تقلدت الجوارى العديد من الوظائف بالقصر نذكر منها:

وظيفة القهرمانة:

والقهرمان هو المسيطر الحفيظ على من تحت يده، وهو من أمناء الملك وخاصته، والقهرمان لفظ فارسى معرب معناه القائم بالأمور[2] وفي القصور الفاطمية كان عمل القهرمانة الإشراف على أمور الجيش ويجب أن تتوفر فيها شروطاً معينة، منها أن تكون كاتبه على قدر من الثقافة في شتى العلوم مثل الطب والموسيقى والنجوم وكان هناك قهرمانات للخلفاء وأخريات لسيدات القصر. وأشهرهن قهرمانة الخليفة الأمر بأحكام الله (٤٩٥-٥٢٤هـ/ ١١٠١-١١٣٠م) [3].

مقدمة المائدة الشريفة:[4]

تشرف صاحبة هذه الوظيفة على مائدة الخليفة، تحمل إلي جانب لقب مقدمة المائدة الشريفة لقب المعلمة ومن أهم واجباتها أن تتسلم ما يصرف شهرياً لاستهلاك دار الخلافة من التوابل والراتب الشهرى لذلك يتكون من:المسك وماء الورد والفستق ويساعدها في عملها مقدم الفراشون الذى كان يعمل تحت خدمتها[5].

وقد دعت الحاجة إلي استخدامهن «فقد كان في الرسم الأول ظهور الجوارى غير السرارى وتصرفهن في الخدمة بارزات غير مستترات مثل الإستئذان عليهم

---

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) ابن منظور: لسان العرب، جـ ١٥، ص ٣٩٨..

(٣) ناريمان عبد الكريم: أحوال المرأة في مصر، ص ٨٦.

(٤) المقريزي: الخطط، جـ ١، ص ٤٢٠.

(٥) ناريمان عبد الكريم: أحوال المرأة في مصر ، ص ٨٧

والوقوف بين أيديهم للترويح ومناولة ما تدعو الحاجة إليه من طعام وشراب»[1].

مقدمة خزانة الشراب:

وكانت تلقب بالمعلمة مقدمة خزانة الشراب ، وكانت تختص بالخليفة حيث أن خزانة الشراب كان عليها أحد كبار الأستاذين [2].

صاحبة دواة الخليفة[3]:

وتعتبر من أهم الوظائف التى تقلدتها الجوارى في القصر نظراً لموقعها القريب من الخليفة وكان يقوم على خدمتها موظف يلقب بالاستاذ، وكانت تختص بإعداد الأقلام والدواة للخليفة ومنهن ست غزال جارية الحافظ [4].

مقدمة زين الخزان[5]:

وتعمل بالخزانة الباطنة، [6] وتتولى الإشراف على ملابس الخليفة، ويقوم على خدمتها ثلاثون جارية إلي جانب عشر جاريات يطلق عليهن وقافات يساعدنها أثناء أرتداء الخليفة لملابسه ، وكانت تصرف لها حلة مذهبه ويصرف لمن تحت يدها حلة حريرية [7] ولا يرتدى الخليفة ثيابه إلا في تلك الخزانة وليس عند أحد من زوجاته أو جواريه ثياب له، وتجلب لتلك الخزانة يومياً الزهور العطرة لتوضع في صناديق الثياب حتى تكتسب رائحة طيبة قبل ارتدائه لها [8].

---

(1) الحسن بن عبد الله: آثار الأول ، ص ١١٢.

(2) المقريزي: خطط، ، جـ ١، ص ٤٢٠.

(3) ناريمان عبد الكريم: أحوال المرأة، ص ٨٧.

(4) ا لمقريزى: خطط، – جـ ٢، ص ٤٤٩.

(5) خزن الشئ يخزنه خزنا واحرزه وجعله في خزانه والخزانة اسم الموضع الذى يخزن فيه الشئ والخزانة عمل الخازن. ابن منظور: لسان العرب، جـ ١٦، ص ٢٩٦-٢٩٧.

(6) المقريزي: الخطط، جـ ١، ص ٤١٠.

(7) نفسه. ص ٤١١.

(8) المصدر السابق، ص ٤١٣.

الطباخات:

وكن يعملن في مطبخ القصر والذى كان يقع خارج القصر قبالة القصر الغربى وله طريق تحت الأرض يصله بالقصر ويعمل فيه خمسون شخصاً[1]. من بينهم الطباخات اللاتى ذاع صيتهن في صناعة أصناف الأطعمة والحلوى [2].

العاملات في الإصطبل:

وهن القائمات على خدمة البغال والحمير، وكانت تلك المهمة تتطلب السهر ليلا، حتى إذا ما أراد الخليفة الركوب في أى وقت يكن في خدمته وكانت وظيفة شاقة بالنسبة لطبيعة المرأة ورقتها فقال المقريزي «وله في الليل شدادات من النساء يخدمن البغلات والحمير الأناث للجواز في السراديب القصيره الأقباء والطلوع على الزلاقات إلى أعالى المناظر والأماكن»[3].

كما كانت هناك بعض الوظائف المختلفة التى تعمل بها الجوارى في القصر وكان يطلق عليهن «المستخدمات أرباب الصنائع» [4].

المستخدمات عند الجهات العالية[5]:

وهن خدم نساء الخلفاء وزوجاتهم وحظاياهم. وكانت تستخدم النساء النوبيات المشهورات بالرحمة والحنين في تربية الأطفال «ولأنهم أصلح أحدب الإناث على

---

(1) ناصر خسرو: سفر نامة، ص ١٢٣.

(2) المقريزي: خطط، جـ ١، ص ٤٦٢.

(3) نفسه، جـ ١، ص ٣٨٦ ، وناريمان عبد الكريم: أحوال المرأة، ص ٨٥.

(4) المقريزي: الخطط. جـ ١، ص ٤١٠.

(5) المقريزي: الخطط، جـ ١، ص ٤١٠.

أبنائهن وهن أصلح للتوليد»[1] إلي جانب حرارتهن التى تدر اللبن بغزارة لإرضاع الأطفال مما جعل للنوبيات سوقاً رائجة في ذلك المجتمع لا كمربيات فقط بل كزوجات أيضاً. ووصلن إلي أعلى مراتب القصر الفاطمى وأشهرهن زوجة الظاهر وأم المستنصر[2] كما كان يعمل البعض منهن لدى أمراء القصر والأستاذين المحنكين[3].

عتق الخلفاء للجوارى:

وكان الخلفاء كثيراً ما يبادرون إلي عتق الجوارى وكان مظهراً من مظاهر الإحتفال ببعض الأعياد كعيد الغدير وغيره، فيذكر الأنطاكى أن الحاكم «اعتق سائر مماليكه بأسرهم من الإناث والذكور والخدم وحررهم جميعاً لوجه الله تعالى وملكهم أمر نفوسهم والتصرف فيما يملكونه واقتنوه منه ومن أبيه وفوض إليهم التصرف في جميعه بحسب اختيارهم»[4]. كما اعتقت زوجة الحاكم وهى على فراش الموت اثنتين من جواريها[5].

ويبدو أن عتق الجوارى كان سمة عامة فكان يقوم الأمراء ووجهاء الناس بعتق جواريهم مثلما اعتق ابن عمار الجوارى التركيات اللاتى استزاد منهن العزيز والموجودات بالقصر وباع الباقيات ليقتصد من مصاريف المطابخ ومن الأرزاق التى كانت تصرف عليهن مبلغاً كبيراً ينتفع به صنائعه من المغاربة[6].

---

(١) عبده بدوى: السود والحضارة، ص ١٣٠.

(٢) عبد الرازق عبد المجيد: العلاقات بين مصر والنوبة، ص ١٩١.

(٣) المقريزي: الخطط، ص ٤١١.

(٤) الأنطاكى: تاريخه جـ ٢، ص ٢٠٦.

(٥) Levi- Provencial: Arabica Slave and slavegirls Tom Ix –1962 P.8 –

(٦) المقريزي: اتعاظ، جـ ٢، ص ١٢، ١٣ ، وعطية مصطفى مشرفه: نظم الحكم بمصر، ص ٩٩.

ثراء الجوارى:

وقد تمتعت الجوارى في القصر الفاطمى بمكانة مرموقة وكثيراً ما أغدق الخلفاء على جواريهم وحظاياهم بنفيس الجواهر والعطايا حتى تضخمت ثروة هؤلاء بشكل واضح.

ومنهن عليه جارية الأمير عبد الله بن الإمام المعز لدين الله فقد خلفت بعد وفاتها أربعمائة ألف دينار(١). كما كان لهذا الأمير جارية تدعى عانة كانت تمتلك داراً. وكانت لسرية الحاكم بأمر الله داراً خاصة وكانت معروفة بالبرجوانية إلي جانب قصر السيدة العمة(٢).

ويذكر المسبحى دليلاً على تمتع هؤلاء الجوارى بما يمتلكون ووفرة الثروة في أيديهم أنه «نزلت طائفة من جوارى القصر ومعها طائفة من الخدم إلي دار الجوهر ودار الصرف ودار الأنماط(٣) فابتاعوا من جميعها رحلا وعادوا إلي القاهرة المحروسة»(٤).

وقيل أن ناصر الدولة بن حمدان استولى على أموال جمة من أم المستنصر السيدة رصد(٥). وقد أخرج الأتراك من خزائنها أربعة ألاف سرج فرقت فيهم كما أخذوا من الخزانة الخاصة بها أدوات فضية وزنها ٣٤٠ ألف درهم تساوى ستة دراهم بدينار(٦).

وبلغ من ثراء البعض منهم أنهن كن يقمن ببناء المساجد والأربطة أمثال

---

(١) المسبحى: أخبار مصر، ص ٢٢٨.

(٢) نفسه.

(٣) دار الجوهر ودار الصرف ودار الأنماط أسواق مشهورة كانت تقع شرق جامع عمرو وجنوبه بالقرب من درب المعاصير بالفسطاط. المقريزي: خطط، جـ ١، ص ٤٧٧-٤٨٤.

(٤) المسبحى: أخبار، ص ٥٩.

(٥) ابن ميسر: المنتقى، ص ٣٨.

(٦) وفاء محمد على: نفوذ النساء في الدولة الإسلامية، ص ٩٢.

الجارية فوز التى بنت مسجداً ورباطاً بالقرافة الكبرى وأوقفته على أم الخير الحجازية[1]. وامتلك الكثير من الجوارى الدور والإقطاعات[2]. لقد تمتعت الجوارى بحياة القصور ببذخها وترفها وعشن فيها كسيدات لهن نفس حقوق الحرائر.

الغلمان وحياة القصور:

استخدم الفاطميون في قصورهم الغلمان وكانوا يدفعون بهم إلي الأستاذين لتربيتهم وتعليمهم الفنون المختلفة فمنهم من يصبح أميراً من صبيان الخاص وتلك أعلى الدرجات ويطلق عليهم الترابى فقد كانوا «إذا وقع مركب وكسبوه لا يسألون عما فيه سوى الشخوص الكبار والصغار»[3]. و«اصطفى الخليفة لنفسه السبى الذى فيه من رجال أو نساء أو أطفال»[4].

ويذهب بهم إلي مكان يسمى المناخ فيضاف الرجال إلي من فيه ويدخل بالنساء والصبيان إلي القصر لاستخدامهم وما يزيد يوزع على الجهات والأقارب[5].

واستخدم الفاطميون السود الزنوج وغالباً ما كانوا يحصلون عليهم طبقاً لمعاهدة البقط أو عن طريق الشراء وقد بلغ عددهم ثلاثين ألف رجل[6]. وكان للخلفاء الفاطميين أعداد كبيرة من الحرس يقومون بحراسة القصر الفاطمى ذكر ناصر خسرو في وصف ذلك القصر قائلاً: «يقع قصر السلطان في وسط القاهرة وهو طلق من جميع الجهات ولا يتصل به أى بناء وقد مسحه المهندسون فوجدوه مساوياً

---

(1) المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ٤٥٤.

(2) الأنطاكى: تاريخه، ص ١٩٥.

(3) ابن الطوير: نزهة، ص ٩٨-٩٩. المقريزي: خطط، جـ ٢، ص ١٩٣-١٩٤. ما جد تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٨٠، محمد مصطفى زيادة: بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك، ص ٨٢.

(4) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٥٢٣-٥٢٤.

(5) ابن الطوير: نزهة، ص ٩٨-٩٩ ، العبادى: قيام دولة المماليك، ص ٧٠-٧١.

(6) أمينة الشوربجى: رؤية الرحالة، ص ٤٨٥.

لمدينة ميافارقين وكل ما حوله فضاء ويحرسه كل ليلة ألف رجل وخمسمائة فارس ينفخون البوق ويدقون الطبل والكوش من وقت صلاة المغرب ويدورون حول القصر حتى الصباح»(١).

وكان لقب مقدمهم «سنان الدولة» ومن واجباتــه نفــخ البــوق ودق الطبــل والصنوج بعد صلاة العشاء ثم اغلاق باب القصر وتثبت سلسلة لمنع المــرور بــين القصرين وترفع عندما ينفخ البوق مرة ثانية في الفجر(٢).

أما عن عدد الخدم به فقد ذكر أن به اثنى عشر ألف خادم مأجور غير النســاء والجوارى(٣) وهذا يدل على ضخامة أعداد الغلمان المملوكين في ذلك القصر فقد كان لكل من أفراد الأسرة الفاطمية حاشية وخدم يلازمونهم لقضاء مطالبهم وكانوا عادة ما يسكنون القصر(٤).

وكانوا أحياناً يأتون في صورة هدية ضمن الهدايا، فيخبرنا المسبحى أنــه فــي سنه ٤١٤هـ/١٠٢٣م «وصلت هدية ابن مكارم ابن ابــى يزيــد مــن المحدثــة(٥) بأسوان وهى عشرون رأساً من الخيل وثمانون بختياً وعدة مــن الســودان الإنــاث والذكران وفهد في قفص وغنم نوبية وطيور ونسانيس وأنياب الأفيلة وعبر خلــف هديته بنفسه وولده يحجبه وشق البلد إلي أن وصل إلي حضــرة أميــر المــؤمنين يعرض ما معه وأمر بإنزاله في بعض الدور بالقاهرة» وفى سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م وصلت هدية من بلد النوبة وفيها عبيد واماء وخشب الأبنوس وفيلة وزرافات وغير ذلك(٦).

---

(١) ناصر خسرو: سفر نامة، ص ١٠٤.

(٢) عبد الرحمن زكى: الجيش المصرى في العصر الإسلامي، ص ٢٨.

(٣) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ١٠٤.

(٤) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى، ص ٣٢ -٨٦.

(٥) المحدثة: مدينة لربيع محادة لأسوان من جهة الشمال.

(٦) المسبحى: أخبار مصر، ص ٣١.

وقد تمتع الغلمان بعطف الخلفاء وأهل القصر وكان لكل فرد من أفراد الأسرة الفاطمية حاشية وخدم ملازمين له لتلبية احتياجاته[1].

وكان الخلفاء غالباً ما يعاملونهم معاملة طيبة ويغدقون عليهم الكثير من الهبات والعطايا وبخاصة في المناسبات والأعياد ، فقد ذكر المقريزي «أنه في أول أيام رمضان يمنح الخدم أطباق الحلوى لهم ولأسرهم وبوسط كل طبق صرة من ذهب»[2] كما حرص الخلفاء على ارتباط هؤلاء الغلمان والخدم بطوائفهم فكان الخليفة يأمر عساكره في العيد أن يصلوا صلاة العيد مع أزمتهم في حاراتهم[3]. وكان العزيز هو أول من قرر العطاء للغلمان والخدم وأولادهم وبناتهم ونسائهم وكساويهم[4].

فقد كانت تسد جميع احتياجاتهم من الغذاء والكساء والعلاج بحيث لا يحتاج أحدهم أن يصرف شيئاً من راتبه إلا فيما ندر لذلك استطاع الكثير منهم تكوين الثروات[5]، فكان يصرف لهم من خزانة الطعام بالقصر ما يحتاجونه[6] ، إلي جانب الصدقات التى كانت تجرى على العبيد السودان[7]، وقد كثرت أموال برجوان لدرجة أنه نسبت إليه حارة بأكملها يبدو أنه امتلكها[8].

كما يذكر المسبحى أن القائد عنبر المصطنع الأسود انتقل إلي دار خاصة به عرفت بدار غبن و«حمل إليها من بيت المال من الفروش والستور والآلات كل قطعة

(١) المقريزي: اتعاظ، جـ ٣، ص ١٢.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ ١، ص ٤٠٩ - ٤٢٢.

(٣) المسبحى: أخبار مصر، ص ٢٠١.

(٤) جمال الدين بن ظافر: مخطوط أخبار الدول المنقطعة، ص ٥٣. المقريزي: خطط، جـ١، ص٤٠٢.

(٥) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى، ص ٥٧.

(٦) المقريزي: الخطط، جـ ١، ص ٤٠٩ - ٤٢٢.

(٧) نفسه، ص ٤٦٥.

(٨) ابن أيبك: الدرة المضية، جـ ٦، ص ١٤٢.

طريقة معجزة ونصب فيها من خدمه حراساً وجماعة من عبيده وخزانه»[١].

ومما يدل على ضخامة حجم ثروة هؤلاء امتلاكهم للخدم والحراس والعبيد فكان عطوف وهو أحد خدام القصر الفاطمى وكان مختصاً بخدمة ست الملك أخت الحاكم قد انتسبت إليه حارة العطوفية التى وصفها المقريزي فقال إن بها الدور العظيمة والحمامات والأسواق والمساجد مالا يحصى كثرة[٢].

وكان الخلفاء يسمحون لغلمانهم وعبيدهم بالتحدث في شكاواهم فقد ذكر المسبحى أنهم تجمعوا في حضرة الخليفة الظاهر، لاعتراضهم على منح أحد إخوة حسان بن جراح العطايا والمنح وفي الوقت الذى كان يعانى منه هؤلاء القيصرية والعبيد والأتراك الفقر والجوع، وأبلغوه أنه كان الأجدر به أن يوزعها عليهم[٣].

وكان الخلفاء عندما يثقون بأحد الخدم يطلقون يده في تدبير الأمور، فقد اصطنع الحاكم كاتباً أسود كناه بأبى سعد أعطاه من الجواهر والأموال الكثير، وأقطعه اقطاعات كثيرة وكانت له مكانة عالية فقد كان يقصده الناس لقضاء حوائجهم، ويقوم بدور الوسيط لهم لدى الحاكم لقضاء مطالبهم[٤].

كما قرب الخليفة الظاهر الخادم معضاد الأسود. ومما يدل على ذلك ماجاء في سجل تلقيبه من كلمات تدل على مدى قربه من الخليفة والثقة التى أولاها إياه، كما نلحظ تلقيبه بالظاهرى نسبة إلي الخليفة، فقد أمر الخليفة سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م بغلق الأسواق وأن تجتمع كافة الرعية في صحن الأيوان وخرج القائد أبو الفوارس معضاد الخادم الأسود. والذى بدأ حياته في خدمة ست الملك وكان أشهر الأساتذة المحنكين[٥] خرج وعليه «ثوب طميم حسن وعلى رأسه عمامة شرب مطائره كثيرة

---

(١) المسبحى: أخبار مصر، ص ٥٩.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ١٣.

(٣) المسبحى: أخبار مصر ص ١٧١.

(٤) المقريزي: اتعاظ، جـ ٢، ص ١٠٤.

(٥) Yaácov Lev , Arab history and civilization state and society v.l p.75

الذهب خمرية اللون ومعه سجل قرئ على العامة والخاصة بتلقبه بالقائد عز الدولة وسنانها أبى الفوارس معضاد الظاهرى وأن أمير المؤمنين لقبه وكناه»[1].

ومما جاء بالسجل «إن أولى من رفع أمير المؤمنين له ذكره وعظم محله وشرف قدره وأوجب تقديمه وأعز أمره من عرف سداده وصوابه وألف في الخدمة اجتهاده وانتصابه توكيداً لحرمة أواصره وأسبابه وكان إلي حضرة الإمامة والخلافة اعتزاؤه وانتسابه. ولما وجدك أمير المؤمنين بحقوق خدمته قائماً ولألفة رجال دولته ناظماً وفي مصالح الجماعة ساعياً وعلى سنن الإخلاص في الطاعة جارياً وألفاك نقى الجيب تقى الغيب برياً من العيب محمياً من الريب ألوفاً للعفاف والصيانة معروفا بالورع والديانة مع سوالفك التى تزيد على السوالف اختصاصاً وفضلاً ورسائلك التى تحكم لها الرعاية بتمام الإيجاب قسطاً وعدلاً وسوابقك المرضية عوداً وبدءاً . المشكورة قولاً وفعلاً، راى أمير المؤمنين – وبالله التوفيق – أن يرفعك عن التسمية ويشرفك بالتكنية ويلقبك بالقائد الأجل عز الدولة وسنانها لما أوجبه الله لك من الإجلال والإعزاز والتسنية وأمر بأن تدعى بذلك وتخاطب وتكتب به عن نفسك وتكاتب. ورسم ذكره فيما يجرى من ذكرك في المكاتيب وإثباته فيما يتعلق باسمك من السجلات والتوقيعات لتثبت هذه التكرمة بثبوت الأستقرار ويتقى عليك حالها بقاء الليل والنهار»[2].

«ولما قرئ سجله حمل على أربعة من الخيل بسروج مصفحة ثقال وعليه سيف ذهب مقلد به وخرج جميع المصطنعة يحجبونه وسائر القواد والناس إلى داره»[3].

ويبدو أن ذلك بداية تقريب الظاهر للسودانيين بتأثير من زوجته السودانية. كما

---

(١) المسبحى: أخبار مصر، ص ٤٤.

(٢) المصدر السابق. ص ٤٥-٤٦.

(٣) نفسه، ص ٤٨.

قرب الآمر مملوكين اصطفاهما. أحدهما يسمى هزبر الملوك واسمه جوامرد والأخر برغش وينعت بالعادل. وكان الآمر يـؤثره لرشـاقته وكـان الخلفـاء الفـاطميون يستخدمون هؤلاء الغلمان في الكثير من مظاهر الأبهة والعظمة لإضفاء نـوع مـن الفخامة على المواكب الإحتفالية في المناسبات المختلفة. فكان الخاصة منهم والعبيد من الخدم يخرجون مع الخليفة في ركبه إلي صلاة الجمعة في الجامع الأزهر «ركـب بين يديه سائر عبيده وخواص دولته»[١].

وكذلك في موكب الإحتفال بعيد الفطر سار الخليفة في «عساكره ورجال دولتـه وكان بين يديه فيل واحد قد بقى من الفيلة والزرافات والبنـود المذهبـة بالقصـب الفضة وغيرها والطبول وسيق بين يديه أصـناف الجنائـب بالسـروج المجـوهرة والمعتبرة الثقال وجميع قواد الأتراك والخدم المصطنعة في السلاح وغيرهم.. وعلى رأسه المظلة المذهبة المثقل يحملها مظفر الصقلبى على رسمه وخرج في أحسن زى وأكمل هيئة وأجمل عدة وبين يديه عبيده الخدم السودان وعليهم أصناف المـذهبات والمثقلات والإستعمالات الجليلة القدر»[٢].

وفي موكب الاحتفال بعيد الأضحى «يخرج الخليفة في عبيده وعساكره وخدمـه ورجال دولته وبين يديه الجنائب الحسنة والبنود المذهبة بالقصب الفضة واللـوأين والزرافات والفيل الباقى من الفيلة وبين يديه عبيده الأتراك بالثياب المثقل والسـلاح الحسن وعبيده الخدم المقودون المصطنعة بأحسن زى وأفخره»[٣].

وكذلك وصف المقريزي خروجهم مع الخليفة في أحتفال أول الموسـم بشـكل تفصيلى[٤]. وكان الخلفاء يتباهون بهؤلاء المماليك أمام سفراء الدول الأخرى ليلقوا

---

(١) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص ٢٦-٢٧.

(٢) المسبحى: أخبار مصر، ص ١٨٥.

(٣) نفسه، ص ٢٠١.

(٤) انظر المقريزي: الخطط، جـ ١، ص ٤٤٨-٤٤٩.

في قلوبهم الرهبة من أبهة الملك. فيذكر المسبحى أنه عندما حضر رسول من خراسان استحضر الخليفة «أمراء الأتراك وأمروا أن يلبسوا أفخر ثيابهم فلبس جميعهم المثقل والطميم» وأصدرت الأوامر للجميع باتخاذ أماكنهم و«كافة عبيد الدولة قياماً والأشراف ولم يجلس أحد بين يديه وعلى سائر الخدم المصطنعة الثياب الطميم والعمائم المطائرة »[1].

وكان هؤلاء الغلمان والعبيد كثيراً ما يسببون القلق في جنبات القصر ولكن نجد أن طوائف منهم كانت تتصدى لطوائف أخرى إذا بدر منها أى خطأ، من ذلك عندما كبس عبيد القصر أثناء سماط عيد الأضحى سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م وصاحوا الجوع الجوع نحن أحق بسماط مولانا قام الصقالبة بضربهم بالعصى ولكنهم لم يبالوا وهجموا فدخلوا القصر وتهافتوا على الطعام وضرب بعضهم بعضًا ونهبوا جميع ما أصلح من الأخباز والأشوية والحلوى ونهبوا القصاع والطنافير والزبديات وكان أمراً صعباً. وأخذوا ثلاثمائة زبدية ولم يصدق الحاضرون أنهم تخلصوا منهم ولا يخرجوا سالمين[2] وقيل عن الظاهر أنه «اتخذ حجر المماليك وعلمهم أنواع العلوم وسائر فنون الحرب واتخذ خزانة البنود وأقام فيها ثلاثة آلاف صانع»[3] وامتلك الوزراء أيضاً الغلمان. فكان لهم نصيب من الأسرى الذين يؤسرون[4] فقد خلف يعقوب بن كلس بعد وفاته من العبيد المماليك أربعة آلاف غلام عرفوا بالطائفة الوزيرية[5].

واستخدم بدر الجمالى الغلمان ، وكان له غلاماً مفضلاً يدعى صافياً ويلقب بأمين الدولة كان مقرباً إليه «استخلفه وقدمه وفخمه وعظمه وذخره لعقبه وأسلفه

---

(١) المسبحى: أخبار مصر، ص ٤٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٠٢ -٢٠٣.

(٣) المقريزي: الخطط، جـ ١، ص ٣٥٤.

(٤) ابن الطوير: نزهة، ص ٩٨ - ٩٩. العبادى: قيام دولة المماليك، ص ٧٠-٧١ وعبد العزيز عبد الدايم: الرق في مصر، ص ٢٣-٢٤.

(٥) ابن الصيرفى: الإشارة، ص ٥٢ والمقريزي: خطط، جـ ٢، ص ٧.

حسن الظن به»[1].

حتى أنه تخيل أنه من الممكن أن يعتلى منصب سيده بعد وفاته، ويختاره ويؤثره على أبنه الأفضل[2].

وكثيراً ما كان الوزراء يكونون فرقاً من هؤلاء المشترين وتنسب إليهم «كالوزيرية نسبة إلي يعقوب بن كلس»[3] والجيوشية من بقايا أمير الجيوش بدر الجمالى وولده الأفضل.. ولكل طائفة منهم قواد يحكمون عليهم[4].

وكذلك كانت فرقة اليانسية نسبة إلي يانس والعطوفية نسبة إلي عطوف خادم ست الملك أخت الحاكم[5]، كما اصطنع العادل بن السلار جماعة من الأتراك[6].

وكذلك للقواد أيضاً غلمان يحظون بمكانة رفيعة في القصر. مثلما يحظى أسيادهم بتلك المكانة ومنهم خادم يعرف بملهم من غلمان القائد عنبر المصطنع حدثت له حادثة قتل على أثرها من فرسه. فكانت له جنازة عظيمة حضرها كبار رجال الدولة[7].

ويذكر المسبحى استخدام الولاة للغلمان، فقد كان لبدر الدولة نافذ الخادم متولى الشرطتين في عهد الظاهر غلاماً يدعى حكل «سرق من مال مولاه فضرب بالعصى عقاباً له»[8].

وكان الغلمان والعبيد بعد دخولهم القصر كغلمان أو مشترين وبعد اندماجهم

---

(1) نفسه، ص ٩٨.

(2) نفسه.

(3) المقريزي: خطط، جـ ٢، ص ٧. عبد الرحمن زكى: الجيش المصرى، ص ٢٨

(4) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٤٧٥. محسن محمد حسين: الجيش الأيوبى، ص ٨٣.

(5) عبد الرحمن زكى: الجيش المصرى، ص ٣٠-٣١.

(6) ابن ميسر: المنتقى، ص ١٤٦-١٤٧.

(7) المسبحى: أخبار مصر، ص ٢١٢.

(8) نفسه، ص ٤٠.

للخدمة فيه وتعيينهم بمختلف الوظائف سرعان ما يشكلون فرقاً أو طوائف وينضم كل منهم إلي طائفته، سواء كانت من جنسه أو انتمى إليها تبعاً لانتمائه لسيده ، فكان هناك عبيد الشراء وهم عبيد مشترون بالمال قيل أنهم ثلاثون ألف رجل من السودان(١) وكانت تشتمل على طائفة الفرحية(٢) والميمونية نسبة إلي ميمون أحد الخدام(٣) وكانت لهم الحارة الوسطى بأسمهم(٤)، ولم يكونوا العنصر الأساسي في جيش الدولة الفاطمية ولم يعتمد عليهم إلا في عهد المستنصر(٥).

وكان عبيد الشراء كثيراً ما يثيرون الشغب مطالبين بأرزاقهم مثلما حدث منهم مع الوزير الجرجرائى حتى أنهم أجبروه على حمل ما في داره لهم حتى أعاده الأتراك(٦).

وكان هؤلاء ضمن بعض العناصر من مختلف الاجناس التى دخلت الجيش الفاطمى(٧). وقد بقيت فرقة عبيد الشراء حتى آخر أيام الفواطم(٨) كما كانت هناك فرقة تسمى المشارقة كانوا ترك وعجم قيل أن عددهم عشرة آلاف شاهدهم ناصر خسرو في أحتفالات فتح الخليج(٩).

كما كان هناك فرقة تدعى صبيان الزرد ، وهم الذين اجتمعوا إلي الحسن بن

---

(١) ناصر خسرو: سفر نامة، ص ١١٠.

(٢) وكانوا من السودان يجيدون الطبل ويجوبون البلد في الإعياد انظر المسبحى، ص ١٨٤ ١٢٠.

(٣) المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ١٤.

(٤) ابن تغرى بردى: النجوم، جـ ٤، ص ٤٥.

(٥) عبد الله جمال الدين: الدولة الفاطمية. ص ٢٣٤.

(٦) النويرى: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٢١٠-٢١١.

(٧) ماجد: نظم الفاطميون ، جـ ١، ص ١٩٩.

(٨) المقريزي: الخطط. جـ ٢، ص ٣' عبد الرحمن زكى: الجيش المصرى، ص ٣١.

(٩) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ١١٠.

الحافظ في صراعه مع أبيه ففرق فيهم الزرد وجعلهم خاصته[1] كما كان هناك المفاردة ، وهم المماليك الخواص للسلطان ، وأطلقت عليهم هذه التسمية لأنهم يأخذون مرتباتهم من الديوان المفرد[2] وطائفة أرباب السلاح الصغير وهم «ثلثمائة عبد لكل واحد حربتان بأسنة مصقولة تحتها جلب فضة كل أثنتين في شرابه وثلاثمائة درقة بكوابج فضة يتسلم ذلك عرفاؤهم على ماتقدم فيسلمونه للعبيد لكل واحد حربتان ودرقة»[3].

أما طائفة صبيان الحجر ، فقد أطلق عليهم هذا الاسم لأنهم كانوا يقيمون في حجر منفردة بالقرب من القصر، وهم جماعة من الشباب ، جهزوا ليكونوا وقت استدعائهم على أتم حالة وكان عددهم أكثر من خمسة آلاف ولكل حجره من الحجر اسم تعرف به مثل المنصورة والفتح والجديدة وغير ذلك وعندهم سلاحهم ولهم حجر مفردة عليهم «أستاذون يبيتون عندهم وخدام برسمهم» [4].

وكانت حجرهم بمعزل عن القصر داخل باب النصر[5] وكان من أشهرهم العادل بن السلار[6] و«هم جماعة كانوا يكونون في جهات مفردة لكل واحد منهم يعلم فنا من أنواع الحرف والعلوم التى تحتاج الدولة إليها من الشجاعة والفروسية وغير ذلك. فإذا كبر منهم الصبى سلم إليه سلاح كامل يكون عنده متى جرد لا يكون له عائق وهم على نمط داوية الفرنج فإذا ظهر أثر الواحد منهم ونبغ في شئ مما أخرج

---

(1) ابن الطوير: نزهة، ص ١٤٨ –١٤٩.

(2) النويرى: نهاية الأرب، جـ ٢٩، حاشية ١ ص ٢٤.

(3) ابن الطوير: نزهة، ص ١٤٨، ١٤٩.

(4) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ ٣. ص ٤٨١. والمقريزي: الخطط. جـ ١، ص ٤٤٣- ٤٤٤. وعطيه مشرفه: نظم الحكم، ص ١٠٩ ، والعبادى، قيام دولة المماليك، ص ٧١-٧٢.

(5) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٤٨١.

(6) ابن ميسر: المنتقى، ص ١٥٣. ابن خلكان: وفيات جـ ٣، ص ٤١٦. النويرى: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٣١٢.

إليه صير أميراً وولى مكاناً»[١].

معنى ذلك أن صبيان الحجر من يظهر منهم النجابة يرتقى إلي درجة صبيان الخاص ويختص بخدمة الخليفة[٢] أما صبيان الخاص وهم أولاد الأجناد والأمراء وعبيد الدولة الذين يتوفى أباءهم فيحمل الأبناء إلي القصر ويؤخذ في تعليمهم الفروسية[٣]. ويكونون في خدمة الخليفة متى أحتاج إليهم[٤]. وكان عددهم حوالى خمسمائة فارس بعضهم يرتقى حتى يصل إلي رتبة أمير ، وكانوا يحملون الرايات الحريرية المكتوب عليها «نصر من الله وفتح قريب» في موكب الخليفة[٥] وفي عيد رأس السنة الهجرية يخرج منهم نحو عشرون رجلاً يحمل كل منهم تلك الراية[٦].

وكان بعض الوزراء يتخوفون من سطوتهم فيذكر ابن ميسر أن العادل بن السلار وهو أحدهم قد أبادهم عن آخرهم سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م. وكذلك فعل يانس الأرمنى سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م فقد قام بقتلهم تخوفاً منهم بعد أن قتلوا أبو على أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالى عندما طعنه أحدهم أثناء لعبه بالكرة[٧].

أما صبيان الركاب: وعددهم كان أكثر من الفى رجل ولهم اثنا عشر مقدما[٨]، وكانوا يتزينون في مواكب الخليفة فيرتدون العمائم الكبيرة ويشدون أوساطهم

---

(١) ابن الطوير: نزهة، ص ٥٧.

(٢) عبد الرحمن زكى: الجيش المصرى، ص ٢٧-٢٨.

(٣) النويرى: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٣١٢.

(٤) المقريزي: اتعاظ، جـ ٣، ص ١٩٩. حاشية ١.

(٥) نفسه، جـ ١، ص ٤٤٨ ؟

(٦) نفسه.

(٧) ابن ميسر: المنتقى، ص ١١٥. النويرى: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٢٩٩. والمقريزي: اتعاظ، جـ٣، ص ١٤٤-١٤٥.

(٨) ابن تغرى بردى: النجوم. جـ ٤، ص ٧٩ حاشية ٢.

بالمناديل، ويشهرون سيوفهم المصقولة المذهبة في أيديهم وهم يحيطون بالخليفة من كل جانب[١].

فكانوا يخرجون في احتفال رأس السنة الهجرية محيطين بالخليفة حاملين الأسلحة المحلاة بالذهب والفضة والجواهر[٢]. وكانوا في حوالي ألف رجل[٣]. كما كانوا يحملون اكياس تحوى أموال الصدقة ليوزعها الخلفاء اثناء مرور الموكب[٤].

أما فرقة القيصرية وهم جماعة من الجند كانوا في خدمة ست الملك ابنة العزيز وسموا كذلك لأنهم ساروا معها إلى القصر بعد موت أبيها[٥]. وكانوا كثيراً مايثيرون الشغب مع الطوائف الأخرى فقد حدث أن أحدهم تعرض لأحد الغلمان الأتراك فدارت معركة بين الأتراك والقيصرية وأمر الخليفة الظاهر بعدم تدخل بقية الطوائف بينهم «فلم يجسر أحد من الطائفتين على الإيقاع بالأخرى فتكافيا جميعاً»[٦].

وكانت أحياناً تستخدم تلك الفرقة لضبط الأعمال وتنظيم الأمور فذكر المسبحى أن رفق الخادم الملقب بعدة الدولة أرسل أبن سرحان القيصرى في جمع كبير من القيصرية وراء خمسة آلاف من الرجال الجوالة المقيمين في الأرياف خوفاً من نهبهم للديار[٧].

---

(١) المقريزي: خطط، جـ ١، ص ٤٤٦-٤٤٩.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم جـ ٤، ص ٤. المقريزي: الخطط. جـ ١، ص ٤٤٦. ٤٤٧.

(٣) المقريزي: خطط، جـ ١، ص ٤٤٦- ٤٤٧.

(٤) المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ٢٨١.

(٥) المسبحى: أخبار مصر، ص ٤٠ حاشية ١.

(٦) نفسه، ص ٢٧١.

(٧) نفسه، ص ٣٩-٤٠.

عتق الغلمان والعبيد:

كان الخلفاء يقومون بعتق العبيد في المناسبات المختلفة فقد اعتق الحاكم ٤١٤هـ/١٠٢٣م جميع ماكان يمتلكه من العبيد والإماء وملكهم ما كان تحت أيديهم[١] وقد عتق زيدان «صاحب المظلة»[٢] ، وكان يطلق على الغلمان المعتوقين «الأمراء العتق» فقد أشار إليهم النويرى ضمن أحداث قتل الحسن بن الحافظ[٣].

ويذكر ابن القلانسي أنه بعد وفاة العزيز «كان في القصر عشرة آلاف جارية وخادم فبيع منهم من اختار البيع وأعتق من سأل العتق»[٤] وعند سقوط الدولة الفاطمية وجد صلاح الدين في القصر الكثير من العبيد والإماء فباع البعض واعتق ووهب الباقين[٥].

ميراث الخدم من العبيد والغلمان:

رغم أن العبيد ليس من حقهم الإرث ولا تجوز لهم الوصية شرعا لأن أموالهم ملكا لمولاهم لا يرثهم أحد إلا أن الخلفاء الفاطميين كانوا يستثنون العبيد المناصرين لدعوتهم الشيعية من هذا الشرط، «ذلك العتق لم يجزه إلا فيمن أخذ عليه عن أمره فأما من صار إلى ذلك عن غير أمره فهو بحسب ما كان على الأصل»[٦] فكانوا من حقهم الإرث وتقبل شهادتهم ويسمح لهم بالبيع والشراء والتصرف فيما يملكون[٧].

---

(١) الأنطاكى: تاريخه، ص ٢٠٦.

(٢) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى، ص ٨٧.

(٣) النويرى: نهاية الأرب، جـ ٢٨، ص ٣٠٠.

(٤) ابن القلانسى: تاريخة، ص ٤٤.

(٥) مجهول: مخطوط شفاء القلوب، ص ٢٠. ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ ٢، ص ١٢٢.

(٦) القاضي النعمان: مخطوط المجالس والمسايرات، ص١٠، ١١، ص ٣٥٨، ٣٥٩.

(٧) نفسه.

ويذكر القلقشندي أن الدولة الفاطمية قررت توريث أهل من يموت من خدم القصر، فيذكر أنهم «يراعون من يموت في خدمتهم في عقبه وإن كان له مرتب نقلوه إلى ذريته من رجال أو نساء»[1] من ذلك ما يذكر المسبحي. أن بنت أبي عبد الله بن نصر وزوجة أبي جعفر بن قائد القواد حسين بن جوهر قد توفيت وأن القائد معضاد والجرجراني ومحسن بن بدوس صاحب بيت المال قد ذهبا لإثبات تركتها وزعموا أن للسلطان ثلث مالها لأن ابن جوهر أصله عبدا للدولة فقضوا يومهم بأكمله في إثبات مالها من طواحين بللور وبرادات مكللة بالجوهر ومال وجواهر كثيرة وآلات[2].

الخصيان في القصر الفاطمي :

وجد الخصيان من الرقيق بكثرة في القصر الفاطمي لخدمة حريم القصر أو الخليفة نفسه يحوطون بالخليفة مطلقين البخور على جانبي طريقه إذا خرج في موكب من المواكب الاحتفالية[3].

فقد اتجه الخلفاء إلى شراء الخصيان واستجلابهم لخدمة حريمهم في القصر، أو لمناولة الطعام والشراب من النساء، وإحضاره عند الرجال وكذلك غيرة على النساء من خدمة الرجال لهم[4].

فتكاثرت أعداد الخصيان في بلاط الخلفاء حتى تألفت منهم فرق الحراسة الخاصة فإذا أقيم احتفال في القصر كان المماليك والخصيان زينة ذلك الاحتفال[5].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣ ص، ٥٢٠.

(٢) المسبحي: أخبار مصر، ص ٥٤، ٥٥.

(3) Yaacov lev, Arab history and civilization – state and society, v. 1 , p.74.

(١) الحسن بن عبد الله: آثار الأول، ص ١١٢، جرجي زيدان: تاريخ التمدن، جـ ٥، ص ٢٧.

(٥) جرجي زيدان: تاريخ التمدن، جـ٥، ص٢٧.

ويبدو أن أشهر أنواع الخصيان كانوا من الصقالبة[1] أو الروم[2]، أو السودان وقد قال عنهم الجاحظ أن «الخصاء يأخذ منهم ولا يعطيهم، وينقصهم ولا يزيدهم، ويحطهم عن مقادير إخوانهم كما يزيد الصقالبة عن مقادير اخوتهم لأن الحبشي متى خصي سقطت نفسه وثقلت حركته وذهب نشاطه ولا بد أن يعرض له فساد»[3].

وقد أطلق عليهم لقب الطواشي وهو «في لغة أهل المشرق هو الخصي»[4] وقد حرص الخلفاء المسلمين في مصر على معاملة الصقالبة الخصيان معاملة طيبة، ولقبوهم بأفخم الألقاب وحرصوا على عتقهم وولوهم بعض المناصب الدينية فقد تولى غبن الصقلبي الحسبة من قبل الحاكم بأمر الله[5].

وقد اشتهر عن الصقالبة الخصيان حبهم لخدمة الملوك[6]، والعمل في القصور فكان «جوهر المعزي خصيا صقلي الجنس وكانت له حرمة وافرة وكلمة نافذة»[7]، وكان الذي علم المعز فن الكتابة طواشي صقلبي[8].

وكان يأنس الصقلبي الخصي خادما من خدام العزيز بالله، وكان متوليا أمور القصور وخلع عليه وحمل على فرسين سنة ٣٨٨هـ / ٩٩٨م وتولى ولاية برقة، وأعطى خمسة آلاف دينار والكثير من الخيل والثياب، وإليه تنسب حارة اليانسية وطائفة العسكر اليانسية[9].

---

(١) ومن أهم صفات الصقالبة الخصيان، اللعب بالطير والفخ ... البيهقي: المحاسن والمساوئ، جـ٢، ص٣٩٥؛ وأما الصقالبة فقد صنع منهم الخصيان لحبهم في خدمة الملوك، نفسه

(٢) وكل خصاء في الدنيا فإنما أصله من قبل الروم، نفسه.

(٣) الجاحظ: الحيوان، جـ١، ص١١٩.

(٤) ابن خلدون: العبر جـ٥، ص٣٦٢.

(٥) سهام أبو زيد، الصقالبة، ص ٢٠٦

(٦) البيهقي، المحاسن والمساوئ، جـ٢، ص٣٩٥.

(٧) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص ١٨٩.

(8) Yaacov lev, Arab history and civilization. state and society v.1,p.74.

(٩) المقريزي: خطط، جـ٢ ص١؛ اتعاظ: جـ٢، ص٣٤، حاشية ١.

وكان برجوان الصقلبي متوليا لأمر القصور في عهد العزيز[1]، وكان خصيا أبيض قام بتدبير ملك الحاكم بعد وفاة أبيه وحفظه له إلى أن كبر [2] وأغراه عليه زيدان الصقلبي خادمه فقتله سنة ٣٨٩/٩٩٨م [3] رغم أن هذا الخصي كان مخلصا فقد حفظ الملك للحاكم وكان «يعطف عليه ولا يدعه يركب لغير ضرورة أو يعطي أحدا عطية دون استحقاق» [4]ولكن وشى به لدى الحاكم مما دفع الحاكم إلى قتله.

وكان لهذا الخصي مكانة كبيرة لدى المصريين الذين تأثروا تأثرا شديدا وثاروا وتجمعوا على باب البلاط غاضبين لدرجة أخافت الحاكم حتى أنه صعد إلى مكان عال بالقصر وقال لهم «قد استبان لي عذر من برجوان فقتلته، والآن أرجو أن تكونوا معي لا علي لأني فتى بعد. وبكي أمامهم ولاطفهم فتركوه وانصرفوا» [5]

وقيل عنه أنه كان مهتمًا بلذاته مقبلا على سماع الغناء يقرب المطربين والمطربات ويتباسط معهم فيكون معهم كأحدهم، وإليه تنسب حارة برجوان بالقاهرة[6].

وقد خلف ثروة طائلة من السراويل الديبقي وألف نافجة مسك وجواهر وأواني وملابس بلغت قيمتها خمسمائة ألف دينار وأربع آلاف دابة[7]، إلى جانب ثلاثين ألف

---

(١) مجهول: مخطوط شرح اللمعة، ص٥. المقريزي: خطط، جـ٢ ص٣ ؛ ابن تغري بردي النجوم جـ٤، ص ٤٨.

(٢) ابن القلانسي: تاريخ، ص٤٨، ٤٩؛ أبو الفداء: المختصر، جـ٢، ص١٣١؛ وابن الوردي، تاريخ ص٤٣٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١١، ص٣٢٧.

(٣) مجهول: مخطوط شرح اللمعة، ص٥، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٧٤ ؛ النويري: نهاية جـ٢٨، ص١٧٤؛ ابن كثير البداية جـ١١، ص ٣٢٧؛ والمقريزي: خطط، جـ٢ ص٢٩٠.

(٤) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٧٤.

(٥) المصدر السابق.

(٦) مجهول: مخطوط شرح اللمعة، ص٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١١، ص٣٢٧ ؛ والمقريزي: خطط، جـ٢، ص٢٩٠.

(٧) مجهول: مخطوط شرح اللمعة، ص٥؛ ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٦، ص ٢٦٥.

دينار نقدا[١]، وقد كانت له أعمال جليلة تذكر له منها تجديد بياض المسجد الجامع العتيق، وقلع شيئا كثيرا من الفسيفساء الذي كان في أروقته وقام ببياض مواضعه، ونقشت ألواحه وذهبت ونصبت على أبوابه الخمسة الشرقية، وكان اسمه ثابتا على الألواح التي قلعت بعد قتله[٢].

واشتهر كذلك من بين الصقالبة الخصيان غبن الصقلبي أحد خدام الخليفة الحاكم بأمر الله، وقد نال لقب أستاذ الأستاذين الذي كان يطلق في العصر الفاطمي كمصطلح يدل على رئيس الخصيان[٣].

وقد تمتع بمكانة مرموقة لدى الخليفة، وتولى عدة مناصب وتلقب بقائد القواد، وترقى حتى تولى الشرطتين في مصر والقاهرة سنة ٤٠٢هـ/١٠١٢م[٤] وكانت له أعمال جليلة فقد عرف باسمه جامع مشهور بالروضة هو جامع غبن[٥] وكانت أعدادهم قليلة وأثمانهم مرتفعة مما يفسر سبب تبادل الحاكم لهم كهدايا [٦].

ثانيا : الأستاذون المحنكون

وكانت طبقة الحاشية والخدم فئة يطلق عليها الأستاذون المحنكون وهم المعروفون بالخدم الطواشية وكان لهم في دولتهم المكانة العالية[٧] وكانوا يختصون بالخليفة، وأهمهم المحنكون وهم الذين يدورون عمائمهم على أحناكهم كما تفعل العرب والمغاربة وهم أقرب وأخص الناس بالسلطان[٨].

وكان لكل منهم مائة دينار شهريا، وكانوا أقرب الناس إلى السلطان وهم

(١) Yaacov Lev ,Arab history and civilization. state and society v.1,p.75.

(٢) سهام أبو زيد: الصقالبة، ص١٥٨.

(٣) حسن الباشا: طيق غبن، ص٧٣.

(٤) نفسه.

(٥) ابن أيبك: الدره المضية، جـ٦، ص ٢٥٩.

(٦) Yaacov Lev, Arab history and civilization. state and society v.1,pp.77 - 88.

(٧) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ١٧.

(٨) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص٣٥، ٣٦ المقريزي: الخطط جـ٢، ص ص ١٧ – ١٨.

المطلعين على أسراره وكان إذا ترشح أحدهم للتحنيك حمل إليه كل واحد من المحنكين قبله بدلة كاملة من ثيابه ومنديلاً وفرساً وسيفاً، فيصبح لاحقاً بهم وفي يده ما بأيديهم وإذا حضروا بين يدي خليفة يحضرون بوقار[1].

ويصف المسبحي حفل التحنيك أنه في ذي القعدة سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م «حُنك ثلاثة من الخدم المقودين وألبسوا العمائم القطن والبيض الشرب بالأحبال وتشبهوا بمن تقدم من مقدمي قواد الخدم كميمون دنه ونصبر وغيرهم وهؤلاء المقودون هم معضاد ونبا ورفق وأضيف إليهم فتك ومرتجى وسرور النصري ورامق، وذكر أن أمير المؤمنين يجلسهم بحضرته وهنئوا بذلك»[2] وكانوا يرتدون البدل المذهبة ويلفون عمائمهم حول أحناكهم[3].

وقد ذكر ناصر خسرو أن عددهم كان ثلاثون ألف فارس وقد اشتروا للخدمة وفيهم البيض والسود[4].

ومن وظائفهم أيضا خلال الاحتفالات عندما تجتمع الناس قرب طاقات المنظرة في القصر لرؤية الخليفة يخرج أحد الأستاذين المحنكين يده من طاقة أخرى ويشير بكمه قائلا: أمير المؤمنين يرد عليكم السلام وبعد انتهاء الاحتفال يخرج يده من الطاقة للقاضي وجماعته مشيرا برد سلام الخليفة[5]، وفي أثناء مد السماط يقف أربعة من الأستاذين المحنكين لخدمة الخليفة[6].

---

(١) عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم، ص١٠٧.

(٢) المسبحي: أخبار مصر، ص١٩١.

(٣) المقريزي: الخطط جـ١، ص ٤١١.

(٤) ناصر خسرو: سفر نامه، ص١١٠.

(٥) المقريزي: الخطط، جـ١، ص ٤٣٣.

(٦) نفسه، ص ٤٥٤، ٤٥٥.

الأستاذة غير المحنكين:

ومنهم نقيب الطالبيين وهم الأشراف من غير الأقارب[١] وأحيانا كان يسند إلى هؤلاء وأولئك مناصب كبيرة مثل ولاية الشرطة والحسبة[٢].

وكثيرا ما كان الخلفاء يغدقون عليهم المنح والهبات، وقد اشتهر الكثير منهم في العصر الفاطمي أمثال الأمير عظيم الدولة وسيفها، وكان من أشهر حاملي المظلة، والأمير صارم الدولة صافي متولي الستر، ووفي الدولة إسعاف متولي المائدة، والأمير افتخار الدولة جندب والذي كان متوليا لخزانة الكسوة ويعمل تحت يده ستة أستاذين[٣].

كان عظيم الدولة الصقلبي حامل مظلة الخليفة الحافظ، ويقال أنه كان صاحب الستر للخليفة الحافظ وكان له مسجدا باسمه «مسجد عظيم الدولة»[٤].

وكذلك كان مؤتمن الخلافة الخصي أحد أشهر الأستاذين المحنكين في قصر الخليفة العاضد، وكان له دور كبير في مقاومة سقوط الدولة الفاطمية، إلا أن صلاح الدين استطاع القضاء عليه هو ومن معه من الخدم والسودان[٥].

كما كان بهاء الدين قراقوش الخصي الأبيض الذي استعمل على القصر بعد قتل مؤتمن الخلافة[٦].

وأحيانا ما كان يتعرض هؤلاء الخصيان على اختلاف درجاتهم إلى السخرية والاستهزاء، برغم ما وصلوا إليه من المناصب في خدمة الخلفاء فكانت تحاك حولهم

---

(١) نفسه، جـ١، ص٣٨٥، ٣٨٦.

(٢) نفسه، جـ١ ص ٢٩٧.

(٣) سهام أبو زيد: الصقالبة، ص ٢٠٣.

(٤) نفسه، ص ٢٠٤، ٢٠٥.

(٥) ابن الأثير: الكامل، جـ١١، ص ٣٤٥، ٣٤٦ ؛ أبو شامه الروضتين: جـ١، قسم ٢ص ٤٥٠، ٤٥١؛ ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص ٢٨٣؛ المقريزي: خطط، جـ٢، ص ٢، ٣؛ ومحمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ١، ص ١١.

(٦) ابن الأثير: الصقالبة، ص ٢٠٦.

القصص والنوادر، وكان تقليد صوتهم وحركاتهم مما يجذب النــاس[1]. فقــد ذكــر الجاحظ أن الخصي يتعرض لتغير صوته بعد عملية الخصاء فيشبه صوت النساء[2].

وكانت حالات الإساءة إلى هؤلاء الخصيان نادرة، فقد كانوا يعاملون في مصــر بكل تقدير واحترام، وقد حرص الخلفاء على عتقهم ومنحهم أفخم الألقــاب، وتــولى بعضهم المناصب الدينية ومنهم غبن الصقلبي الذي تولى الحسبة من قبل الحــاكم[3] وقد كون البعض منهم ثروات عظيمة إلى حد أن أطلق اسم أحــدهم وهــو «ســيف الدولة نادر الصقلبي المتوفى سنة ٣٨٢هـــ / ٩٩٢م، أطلق اســمه علــى إحــدى الطرق، وخلف ٣٠٠ ألف دينار نقدا وأملاك قدرت ب ٨٠ ألف دينار ضمت الخيــول والعبيد[4].

---

(١) سهام أبو زيد: الصقالبة، ص ٢٠٦.

(٢) الجاحظ: الحيوان، جـ١، ص ١١٣، ١٣٦.

(٣) سهام أبو زيد: الصقالبة، ص ٢٠٦/

(٤) yaacov Lev - Arab history and civilization state and society v.1,p.p 76 – 77.

علاقة المماليك بالمجتمع المصري

امتلاك العامة للرقيق :

تملك العامة الرقيق شأنهم في ذلك شأن الوزراء والقواد وغيرهم من أرباب الوظائف[1].

فقد استخدم العامة هؤلاء الرقيق في الخدمة في المنازل، أو لتربية الأبناء أو للتسري وأحيانا كوصيفات، فقد وجد لدى أحد العامة ويدعى العدني المسلماني سبعين وصيفة[2].

وكان العصر الفاطمي هو العصر الذهبي لاستخدام الرقيق النوبي في مختلف الأعمال بمصر، فقد اشتهر رجالهم بالأمانة والإخلاص في العمل وحسن النظام والطاعة وعظمة الخلق وقوة البأس وكمال الأجسام[3].

إلى جانب أن هؤلاء اشتهروا بمهارة فائقة في بعض الصناعات مثل صناعة الجلود، وقد علموا المصريون فن تلك الصناعة وتميزوا بها في القرن الرابع الهجري [4]. واستخدم الذكور منهم والإناث في الخدمة بالمنازل.

ولكن يبدو أن استخدام الإناث كجواري كان أكثر من استخدام العبيد، ويبدو أن الجارية النوبية كانت مفضلة على سائر الأجناس للخدمة في المنازل، وكانت لصغيرة السن الأفضلية أيضا، وكذلك التي ليس لديها أبناء حتى لا يشغلونها عن تأدية عملها، فقد ورد في إحدى عقود بيع الجواري عقد بيع لجارية نوبية في مدينة إدفو اتضح منه أن الأمة البكر كانت مفضلة عند الشراء[5]، وكانت تلك الشروط تحدد من

---

(١) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري، ص ١٨٩.

(٢) المسبحي: أخبار مصر، ص ٢٣٢.

(٣) عبد الرازق عبد المجيد: العلاقات بين مصر والنوبة، ص ١٩٠، ١٩١.

(٤) سيده الكاشف: مصر في عصر الإخشيديين، ص ٢٧٩.

(٥) جروهمان: أوراق البردي، جـ٥، ص ٣٥.

قبل ربة البيت التي غالبا ما كانت تشرف على أعمال الجارية[١].

ومما يدل على امتلاك العامة لهؤلاء أنه عندما أمر الظاهر بجمع كل جواري مصر والقاهرة و«صار كل من كان عنده جارية يلبسها من أحسن الأثواب الفاخرة ويحضر إلى قصر الخليفة» فأبادهن الظاهر حرقا ويذكر ابن اياس أن عددهن كان ألفين وستمائة جارية[٢] ويبدو أن هؤلاء بينهن جواري القصور لأنه لم يرد ذكر ذلك في نص ابن إياس.

وكان البيع يتم على يد سماسرة بعد مساومة في أسعارهن وكان أعلى سعر وجد في أوراق الجنيزة لبيع جارية كان ٨٠ دينار بيعت به إحدى الجواري الروميات سنة ٣٨٥هـ/٩٩٥م [٣] وأقل سعر لجارية وجد في وثائق الجنيزة أيضا كان ٠,٥ ١دينار[٤] فقد اختلفت أسعار الجواري باختلاف أنواعهن، ولكن يبدو أن الجواري الزنجيات كان سعرهن منخفض، فقد بيعت نوبية مع ابنتها الصغيرة سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م في مصر القديمة لأحد الأشخاص ويدعى جوزيف بن سلمان كوهين ب ٢٨ دينار، ثم بيعوا مرة أخرى سنة ٤٩٩هـ/١١٠٥م لأثنين أشقاء أولاد هما موسى كوهين ويعمل في الحكومة العليا ثم بيعوا لأختهم بـ٢٠ دينار، ويبدو أن تلك الجارية كانت تتمتع بمهارات خاصة، فقد لقبت بالماهرة، وقد تعدد امتلاكها في نفس العائلة عدة مرات من سنة ٤٨٧هـ/٤٤٩هـ - ١٠٩٤-١١٠٥م وبالتالي تغيرت شخصيتها كما تعددت ألقابها ولقبت بالسماوية نظرا للون بشرتها الفضي [٥].

وكان يتفق مع السودانيات على منحهن ٣٠ قطعة ذهب، ولكن ما يحدث هو أنهن لا يحصلن سوى على ١٥ قطعة فقط وكانت توجد منافسة بين الجواري

---

(١) ناريمان عبد الكريم: أحوال المرأة، ص ٩٣.

(٢) ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٢١٤؛ السيوطي: حسن المحاضرة، جـ٢ ص ٢٨٥، ٢٨٦.

(٣) Goitein, mediterranean society v.1 p.138.

(٤) نفسه.

(٥) Levi –Provencal; Arabica; slave and slave girls v. 9 p.10.

السودانيات والنوبيات، وكانت تباع النوبية بـ ١٥ دينار، كما كانت هناك منافسة بين النوبيات وبعضهن، فبيعت إحداهن بعشرين دينار وكانت تدعى بلاجـر فقد بيعت لإحدى الأرامل سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م(١).

وكان السعر الرسمي في تلك الفترة عشرين دينارا للجارية، فبيعت إحدى الهنديات بـ ٢٠ دينارا (٢) كما بيعت جارية ٥٤٣هـ/١١٤٨م كانت تصحب سيدها منذ ٤٠ عاما وقد دون سعر هذه الجارية في عقد زواج ذلك السيد وهو ٢٠ دينار(٣).

وفي ٥٥٢هـ/١١٥٧ بيعت جارية تدعى فيروز ولدت في بيت مخدومها بـ ١٢ دينار فقط (٤).

وكانت الأمهات تباع مع أطفالهن لا يفرق بينهم، وعندما يصبح الطفل له القدرة على العمل حسب السن القانوني يباع منفصلا (٥) ومما يدل على ذلك أن إحدى الجواري بيعت مع ابنها ٤٨٧هـ/١٠٩٤م وكان عمره ١٠ سنوات، ولكن تذكر وثائق الجنيزة أنها بيعت مرة أخرى ٤٩٩هـ/١١٠٥م ولم يكن بصحبتها، معنى ذلك أنه عندما كبر بيع منفصلا فقد كان انفصام الأم الجارية عن أبنائها شيئا غير قانونيا(٦).

وتذكر إحدى الوثائق مذكرة لأحد القضاة المشهورين في ذلك الوقت دون فيها أن إحدى الجواري وتدعى حبيبة كان لها ابنة سنتان مودعة عند تاجر الرقيق، وأن اسم البنت فضيلة، وكانت أمها قد ولدتها عنده أيضا وشاريها لم يدفع من مجموع ثمنها الذي وصل ٣٤ دينار غير جزء فقط من المبلغ وكان من المفروض أن يدفع

---

(١) op. cit.

(٢) Goitein, mediterranean society v.1 p.138.

(٣) Levi – provencal, Arabica, slave and slave girls v. 9 p. 10.

(٤) Goitein : mediterranean society, v.1 p.138

(٥) Levi – Provencal, Arabica, slave and slave girls Leiden. 1962 v. IX p.9 and Goitein - mediterranean society v. 1 p.138

(٦) Levi - provencal : Arabica – slave and slave girls. v. IX p. 10

باقي الثمن في نفس الشهر، وعندما لم يدفع رغم أن البائع والشاري كانوا جيران احتفظ التاجر بالابنة الصغيرة لديه كرهن حتى يدفع باقي الثمن(١).

وغالبا ما كان يتم الشراء بوثيقة شراء، فقد احتوت إحدى وثائق شراء الجواري المؤرخة سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩ والتي خصصت لشراء جارية نوبية تدعى فاطمة ابنة نصر الفتح على عدة إشارات تدلنا على أسس بيع هؤلاء في ذلك الوقت فهي تدل أولاً على بيع هؤلاء الجواري المسلمات إلى الرجال المسلمين ثانيا تحتوي على وصف شامل لملامح الجارية وأوصافها، وتحتوي الوثيقة على الثمن الذي اشتريت به الجارية وهو ٢٥ دينارا وتوثق باليوم الذي يتم فيه الشراء(٢) ويبدو أن ذلك كان ينطبق على العبد أيضا.

وكانت الجواري من ضروريات البيت المصري في ذلك الوقت، وكانوا محط اهتمام رجال العامة في ذلك العصر، يدلنا على ذلك إحدى أوراق البردي التي يرجع تاريخها إلى عام ٣٩٣هـ/١٠٠٢م وهي عبارة عن وثيقة عقد زواج اشترطت فيها الزوجة على زوجها أنه في حالة إذا ما اتخذ جارية عليها يكون بيعها بيد امرأته إن شاءت عتقت وإن شاءت بيعت فعتقها وبيعها جائز عليه ولازم له(٣).

من هذا يتضح حرص المرأة في ذلك الوقت على جعل زمام تواجد الجارية في المنزل بيدها حتى إذا ما شعرت بالغيرة منها، أو أصبحت أثيرة لدى زوجها مما يهدد مركزها عنده قامت مسرعة ببيعها أو عتقها حرصا على حياتها الزوجية.

وكان الدلال يمتلك الجواري والغلمان في منزله ويدربهم على الغناء وفنونه، فيخبرنا المسبحي أن الدلال المخنث البغدادي كان يجيد الرموز ويدرب جواريه في منزله على الغناء(٤).

كما يذكر المسبحي أنه سنة ٤١٤هـ/١٠٣٢م توفي العدني المسلماني الساكن

---

(١) op. cit.

(٢) وثيقة غير منشورة بمتحف الفن الإسلامي تحت رقم ٢١١٩١، مؤرخة سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م.

(٣) جروهمان: أوراق البردي، جـ١، ص ٨٩ عقود الزواج رقم ٤١.

(٤) المسبحي: أخبار مصر، ص٢٢٦.

في زقاق زبان في دار أبي العقلين وخلف من الأموال العين والآلات والأمتعة مـــا لا يحصى كثره ومن الغلمان الروم والجواري أمرا عظيما[١].

وكانت لهن بعض الوظائف المختلفة، فيدلنا أحد الأطباق الخزفية التي عثر عليها من بقايا حمام أبي السعود بمصر القديمة، - ويرجع للعصر الفاطمي -، على قيـــام الجواري ببعض أعمال التجميل في الحمامات، ففيه إحدى الســـيدات ممـــدة الأرجـــل وتقوم جاريتين بتدليكهما[٢].

كما أن السودانيات كن أفضل مربيات، وقد ظهر ذلك من خطاب سيده مريضـــة لأختها توصيها خيرا بابنتها الصغيرة، وكذلك توصيها بمربيتها السودانية «ســـعادة» وابنها، وتذكر لها أن الابنة تعلقت بتلك الخادمة وابنها ممـــا يـــدل علـــى اســـتخدام الجواري ومعهن أبنائهن الصغار، ومعايشة هؤلاء الأبناء لأبناء أسيادهم، وقد لعنـــت تلك السيدة في نهاية الخطاب من يفرق بين ابنتها وبين الجارية مما يدل على تعلق الابنة الشديد بتلك الجارية [٣].

---

(١) نفسه، ص٢٣٢.

(٢) متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، لوحة رقم ١٣٠٨٠.

(٣) Goitein: Amediterranean society v.1.p. 135.

الآثار التي ترتبت على تواجد الجواري في الأسرة المصرية:

كان لتواجد الجواري في بيوت العامة أثر كبير على حياة الأسرة المصرية، فقد أثرت في المرأة بكثرة الأجناس المختلفة بخصائصها المتباينة فتولدت الغيرة لدى النساء من جمال هؤلاء، فقد غزون البيوت(١)، وكان يوجد في كل منزل من منازل الطبقة المتوسطة خادمة أو خادمتين لمساعدة الزوجة في أعمالها(٢).

فقد استعانت إحدى العرائس وكانت ثرية بجارية وخادمتين ودفعت ثمنا للثلاثة مائة دينار(٣)، كما يوجد في وثائق الجنيزة خطاب من سيدة من الطبقة المتوسطة ومقيمة في الفسطاط تطلب من قريب لها يعمل في وظيفة حكومية في البهنسا في مصر الوسطى تطلب منه أن يشتري لها جارية سمراء عمرها من ٥-٦ سنوات لتربيتها فقد كانت الجواري الصغيرات مفضلات(٤) وقد تشبهت النساء بالجواري ليحصلن على رضا الزوج وسعادته وخاصة في ملابسهن فكانت الجواري والراقصات يرتدين الملابس الخليعة التي تبرز مفاتنهن فكانت العازفة والمغنية ترتدي ثوبا طويلا واسع الأكمام محلى بالزخارف وفوق رأسها عصابة تشبه العمامة وأحيانا تضع على رأسها تاجا(٥)، وكانت الراقصة ترتدي ثيابا واسعة الأكمام وسراويل واسعة(٦) فقلدتهن نساء العامة وكن يرتدين على رؤوسهن العصائب وانتشر لبس السراويل بالإضافة إلى القميص مما كان يعد خروجا على الآداب ومنافيا لتقاليد ذلك المجتمع مما حدا بالخليفة العزيز سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م أن يمنع النساء من لبس السراويل الكبار(٧).

---

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام، جـ١، ص٨٨.

(٢) Goitein: Amediterranean society v.1. P.135.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه.

(٥) سيد محمد خليفة: دليل متحف الفن الإسلامي، ص ٨٦.

(٦) نفسه، ص١٦٠.

(٧) المقريزي: اتعاظ جـ١، ص٢١٤.

فقد استطاعت بعض الجواري استمالة الأزواج إليهن وجذبهم والإيقاع بهم في حبائلهن، ومما يدل على ذلك ما دون في وثائق الجنيزة من قصص مثل حكاية شخص يدعى إبراهام ميموندز الذي كان متزوج وعنده أطفال وأحب جاريته فأهمل زوجته وعائلته من أجلها، وكانوا يقيمون في الإسكندرية والجارية التي أحبها في مصر القديمة واشترى لها ملابس ثمينة وعاش معها في إحدى قرى الفيوم، وحالة أخرى لرجل يدعى كوهين ترك زوجته العروس والتي تزوجها حديثا وأحب جارية مسيحية وأخذها إلى قريته في البحيرة[١] ومما هو جدير بالذكر أن طبقة العبيد والجواري في تلك الفترة لم تكن شيئا هامشيا في المجتمع، ولكن تمتع العبيد والجواري ببعض الحقوق، وكان لهم الحق في الدفاع عن حقوقهم المسلوبة فتذكر وثائق الجنيزة أن إحدى الجاريات ظهرت أمام المحكمة الإسلامية تشكو سيدتها التي تعمل عندها لأنها ضربتها ضربا ميرحا، وطلبت من المحكمة الدخول في الدين الإسلامي حتى تضطر سيدتها اليهودية لبيعها فلم يكن يسمح لغير المسلمين بامتلاك عبيد أو جواري مسلمات فأرادت تلك الجارية الاحتماء بالدين الإسلامي، مما يبين تمتع هؤلاء الرقيق في ذلك الوقت بالإرادة وتحديد المصير فكان يستطيع كل منهم أن يميز حقوقه لدى سيده ويدافع عنها، كما نرى مثالا آخر لرجل ترك زوجته وابنته الصغيرة أمانة لدى جاريته وخيرها بين البقاء معهم أو ترك خدمتهم وقتما شاءت[٢].

---

(١) Goitein: Amediterranean society v.1P.135.

(٢) Goitein - Amediterranean society v.I , p.142

عتق العامة للجواري:

كان يتم عتق الجواري من قبل السيد أو من قبل زوجته حسب ما يتم اشتراطه في عقد زواجهما. (١)

فقد عتقت في رمضان ٣٩٣هـ/١٠٠٢م سيدة تدعى اسطورهيوه جاريتها التي تحمل اسمان اسم عربي وهو صفراه، واسم قبطي وهو دجاشه، ونص صك العتق على عدم تعرض أحد أولاد سيدها لها بعد عتقها (٢).

كما يوجد في أوراق الجنيزة أنه في سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م عتقت جارية تدعى ست الروم – أوروبية – من قبل سيدها قبل وفاته، وظهرت أمام محكمة الإسكندرية العليا لتوكل محامي لجمع ميراثها (٣)، وكانت الجارية التي تعتق تكافأ من سيدها بعد عتقها بالكثير من المعونات التي تعينها على الزواج شرط أن تظل على دينها إذا كانت لدى أهل الذمة(٤)، ومثال لذلك وجد في وثائق الجنيزة أن سيده على فراش الموت قامت بعتق اثنين من جواريها العذارى، ويبدو أنهما كانتا صغيرات وأعطت لهن المال واشترطت عليهن أن يبقوا على الشريعة اليهودية وإحداهن تدعى دهب(٥).

وكان من الممكن أن تظل الجارية بعد عتقها وزواجها في منزل سيدها، وكانت في هذه الحالة تحمل لقب مولاة، وتنسب إلى عاتقها وكذلك العبد يحمل لقب مولى وكذلك أبناؤه يحملون لقب ابن مولى أو ابنة مولى، فقد وجدت تلك الألقاب على بعض شواهد القبور في الفسطاط وأسوان والتي دلت على مكانة هؤلاء في المجتمع وقد أقام البعض منهن المساجد التي حملت أسماءهن ودلت على مدى الثراء الذي تمتعن به مثل مسجد الحجر بالقرافة الكبرى الذي بنته مولاة علي بن يحي سنة

---

(١) جروهمان: أوراق البردي جـ١ ص٨٩ عقد زواج رقم ٤١.

(٢) نفسه، كتاب العتق رقم ٧٣.

(٣) Arabica: salve and salve girls v,IX , p.9.

(٤) جروهمان: أوراق البردي، جـ٦٧، عقد زواج رقم ٣٧.

(5) Goitein: Amediterranean society v. IP.153.

٤٣٠هـ/١٠٣٨م[١].

وكانت جواري العامة ضمن المتاع الذي يرثه الخليفة إن لم يكن لصاحبه وريث فقد ذكر المسبحي أن أحد الدلالين قتل ولم يعرف له أحد فنقل ما في منزله من المال والمتاع والجواري المغنيات إلى قصر الخليفة[٢].

وجدير بالذكر أن تلك الجواري الموروثات كن يخيرن في أغلب الأحيان بين العتق أو الزواج[٣].

كما كانت العامة تتهادى الجواري في المناسبات، فتذكر إحدى وثائق الجنيزة أنه في سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م أهديت جارية هندية لعروس بمناسبة زواجها[٤].

إيجابيات وسلبيات تواجد الرقيق في المجتمع المصري في العصر الفاطمي:

كان لتواجد الرقيق في المجتمع بعض الإيجابيات كما كان له بعض السلبيات.

لقد امتزج رقيق ذلك العصر بالمجتمع وأفراده، فتركوا أثارا حسنة خاصة في نفوس الفقراء منهم، فكان عند وفاة أحدهم وخاصة من كانت له مكانة كبيرة تفرق الأطعمة والحلوى على الناس حينما يأتون لتقديم واجب العزاء، من ذلك ما ذكره المقريزي عند وفاة أم ولد العزيز «أقامت ابنتها على قبرها شهرا تقيم العزاء والعزيز يأتيها كل يوم والناس تطعم كل ليلة أصناف الأطعمة والحلوى» وكان العزيز قد دفع للفقراء ألفا دينار[٥].

وكان للبعض منهم تأثير كبير في نفوس العامة لدرجة أنهم كانوا يشاركون في تشييعهم عند وفاتهم، من ذلك أن جميع الناس من العامة شاركوا في تشييع بهرام

---

(١) المقريزي: خطط، جـ٢، ص٤٤٩، ٤٥٠.

(٢) المسبحي: أخبار مصر، ص٢٢٦.

(٣) ناصر خسرو: سفر نامة، ص ص١٣٠،١٢٩.

(5) Goitein - A mediterranean society vI.138.

(٥) المقريزي: اتعاظ، جـ١، ص٢٨٩،٢٨٨.

الأرمني وساروا في جنازته مشاة وهم يضجون بالبكاء[1].

كما شارك الرقيق العامة في أحزانهم فقد أصبح لبعضهم مكانة بارزة في المجتمع المصري، وأصبحوا محل تقدير واحترام حتى أن حضورهم لجنازة أحد المتوفين يعتبر نوع من الشرف له ولأهله فكانوا يقدمون واجب العزاء ويشاركون في تشييع جنازة المتوفين، فقد نزل معضاد الأسود وسائر الخدم المقودين والمصطنعة في عهد الظاهر لتشييع جنازة الشريف الموسوي الساكن بمسجد الأخضر [2]، وعندما توفى إسماعيل الخصفي كاتب بيت المال شارك القائد معضاد في جنازته [3].

وكثيرا ما كان هؤلاء يدخلون البهجة في الأعياد على أفراد ذلك المجتمع، فكان السودانيين من الفرحية يعزفون أعذب الألحان على الطبل أثناء عبور السماط في الأعياد حيث يقف الناس في الشارع لمشاهدته [4]، وكان لهؤلاء المماليك مكانة في قلوب المصريين من العامة سواء كانوا قوادا أو مماليك عاديين، فقد تعلقت بهم قلوب العامة خاصة الذين تركوا أثارا حسنة أفادت هؤلاء العامة، وكانوا يعبرون عن تلك المشاعر حين يتعرض أحد هؤلاء المماليك لأزمة من الأزمات، فقد ثاروا عندما قتل برجوان وبكوا كثيرا حزنا عليه مما حدا بالحاكم إلى الخروج إليهم والاعتذار لهم وامتصاص غضبهم ومناشدتهم مساندته، وكان ذلك لحبهم له وارتباطهم به والخدمات التي أداها لهم [5].

كما كانوا كثيرا ما يقومون بالتوسط للعامة لدى الخلفاء لإقطاعهم الإقطاعات أو لانتزاع موافقة الخلفاء على مطالبهم فيذكر المقريزي أن الحاكم كان له خادما وكاتبا

---

(١) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص٣٠٧ ؛ والمقريزي: اتعاظ جـ٣، ص ١٧٥.

(٢) المسبحي: أخبار، ص٢٤٣.

(٣) نفسه: ص٢١٩.

(٤) نفسه، ٢٠١.

(٥) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٧٤ ؛ النويري: نهاية الأرب جـ٢٨، ص ١٧٤ - ١٧٥؛ وابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، جـ١ ص ٦٨.

أسود كنى بأبي الرضا سعد كان قريبا منه أثيرا لديه، وكانت الناس تقصده لقضاء حوائجهم فلم يرد الحاكم سؤاله في شئ وكان يسأله في اقطاعات للناس تجاوزت الخمسين ألف دينار[1].

وكان لبعضهم الكثير من الأعمال الخيرية، منها بناء الجوامع وجامع راشدة أبرز دليل على ذلك فقد كانت جارية للحاكم وأوصت أن يبني لها جامع فلما ماتت أمر الحاكم ببنائه وسمى باسمها[2].

وكذلك مسجد الحجر بالقرافة الكبرى والذي بنته مولاة علي بن يحي [3] كما بنت إحدى الجواري وتدعى فوز مسجدا ورباطا بالقرافة الكبرى وأوقفته على أم الخير الحجازية[4] كما أقامت إحدى الجواري المغنيات والتي تزوجها الحافظ مسجد سمي مسجد جهة بيان نسبة إليها على يد رجل عرف بابن الموفق[5].

كما كان بعض الرقيق يصل إلى منزلة رفيعة ويتمتع بثراء كبير، وكانوا يتصدقون من أموالهم ويتعاطفون مع عامة الشعب، ولا يتهاونوا في تقديم المساعدة للمحتاج، فقد حدث أن مرض الحسين بن مفلح بن أبي صالح القلعي الملقب بعصب الدولة نتيجة لقطع الإقطاع عنه من الشام، وساءت حالته فسار إليه بهاء الدولة مظفر الصقلبي، متولي المظلة حاملا إليه من ماله ألف دينار كما حمل له القائد معضاد جملة دنانير من ماله ولكنه رفضها تعففا حتى أنه لم يستطع إيجاد الدواء لعلته ولما رثى غلمانه لحاله، ذهب أحدهم إلى منزل معضاد وأحضر له قنينه مملوءة شرابا فأصر على معرفة مصدرها، ولما علم «نتف لحيته ولطم وجهه بيديه ودق صدره وأحل بنفسه العظائم من البكاء.. وكان ذلك سبب موته» وبعد وفاته قام

(١) المقريزي: اتعاظ، جـ٢، ص١٠٤.

(٢) بيبرس الدوادار: مخطوط زبدة الفكرة رقم ٢٤٠٢٦، جـ٦، ص٢٨٣.

(٣) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٤٥٠.

(٤) نفسه، ص٤٥٤.

(٥) نفسه، ص٤٤٨.

معضاد بالوفاء له بدينه من ماله الخاص وكان حوالي ألفا ومائة وثلاثين دينارا[١].

كما كانوا يبذلون من أموالهم الصدقات للفقراء وأصحاب الحاجة الغرباء، مثلما فعل مظفر الصقلبي صاحب المظلة، فقد بذل من ماله ألف دينار لوفد الحجازيين الذين أتوا إلى مصر سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م والذين كانوا يتولون إقامة الدعوة للفاطميين بمكة والحجاز وطالبوا بأرزاقهم من الخليفة، فلما لم يجابوا بذل لهم ذلك المبلغ من ماله الخاص، إلا أنهم فرقوها على خمس مائة نسمة من ضعفائهم وعبيدهم فصار لكل شخص ديناران [٢]. وفي الشدائد كانوا يقرضون الدولة، مما يدل على ما وصل إليه ثراءهم أن الأمير بهاء الدولة مظفر الصقلبي حين حل الوباء والقحط أقرض الدولة عشرة آلاف دينار[٣].

كما كانوا يشاركون عامة الشعب في الاحتفال بالأعياد والمناسبات، فكانوا يقيمون أسمطة في منازلهم للعامة على غرار سماط الخليفة ومن هؤلاء معضاد ونافذ وعنبر الذين عملوا الأسمطة في ديارهم في عيد الفطر سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م[٤].

أما عن سلبيات تواجد هؤلاء الرقيق في المجتمع الفاطمي، فقد كانوا كثيرا ما يثيرون الفوضى والشغب خاصة أيام المجاعات والأزمات فكانت أعمالهم تروع الناس الآمنين.

فعندما دفع الحاكم بمقدمي السودان ونزلوا لمهاجمة ديار مصر كبسوا الحمامات والمنازل يأخذون ما فيها ويعرون الناس في الطرقات ويقتحمون الدكاكين وينهبون ما فيها ويحرقون أبوابها حتى كانت تغلق الدروب قبل الغروب، واقتحموا أسواق النحاسين والسكريين ودار الشمع وغيرها وأخذوا ما بها، وأتلفوا الباقي لدرجة أنهم كانوا يخلطون العقاقير والأصناف بعضها ببعض والمياه بالزيت ويفسدون مالا

(١) المسبحي: أخبار مصر ص ٢٢١، ٢٢٠.

(٢) المصدر السابق، ص١٩٢

(٣) المصدر السابق، ص١٩٢.

(٤) نفسه، ص١٨٦.

يستطيعون حمله، ويضمرون النيران في الأبواب حتى ضج الناس بالدعاء إلـــى الله لتخليصهم مما هم فيه من بلاء[١].

كما ذكر المسبحي أن معضاد الخادم الأسود متولى الشرطة عهد الظاهر ضرب رقاب تسعة أنفس وجدهم من العبيد الذين نزلوا لنهب مصر وألقى بجثثهم للكلاب[٢]، كما ضرب حطي الصقلبي رقاب اثني عشر رجلا من العبيد الذين تجمعوا لنهب مصر أيضا ورمى بجثثهم للكلاب[٣].

وقد أدت المجاعة التي حدثت في تلك الفترة إلى دفع بعض العبيد إلـــى السـطو على ممتلكات الغير، وكانوا يخرجون لمهاجمة قوافل الحجـاج ويقطعـون علـيهم الطريق وينهبون ما معهم من مؤن وسلاح [٤]. وقد خرج سنة ٤١٤هـ/١٠٢٣م إلى جبل المقطم حوالي ألف رجل من العبيد إلى جانب من انضم إليهم من قطاع الطـرق واللصوص وقرروا النزول إلى مصر لنهبها وسرقتها، وأحدثوا الكثير من الاضطراب في المجتمع، فقد نهبوا البضائع التجارية المعدة للتصدير إلى الخـارج والتـي تـم وضعها على ساحل مصر، كما أشعلوا النيران في الدور الموجودة على الساحل وبثوا الفوضى بالمناطق التجارية ونهبوا المساكن، مما دفع العامة إلـى الاتحـاد ضـدهم ومحاربتهم والقضاء عليهم ولكن بعد أن توقفت مظاهر الحيـاة وأغلقـت الـدكاكين وتوقف العمل في الأسواق نتيجة خوف الناس واختبـائهم، وتعـذر وجـود الخبـز والدقيق[٥] «فخرج إليهم عامة المصريين بالسلاح وحاربهم الرجال والنساء من أعلى المنازل بالحجارة والطوب والجرار، وخرج إليهم العتـالون والنفـاطون فهزمـوهم وأغلق الناس دروبهم واستعدوا وحفروا دون الدروب الخنادق فلم يقرب أحد مـنهم

---

(١) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ١٩٩ – ٢٠٠.

(٢) المسبحي: أخبار مصر، ص٢٣٥.

(٣) نفسه.

(٤) المسبحي، أخبار مصر، ص١٩٤؛ المقريزي: اتعاظ، جـ٢، ص١٦٥.

(٥) النويري: نهاية، جـ٢٨، ص٢٠٦.

شارعا ولا زقاقا ولا تجاوز الساحل المعروف بالبيما»(١).

ومن هذا يتضح أن هؤلاء كانوا عندما يثورون يروعون الآمنين من الرعية لدرجة أنهم أوقفوا الحركة التجارية نتيجة لالتزام الناس منازلهم، واضطروا الناس إلى حفر الخنادق للاختباء فيها مما أثر سلبا على الناحية الاقتصادية في أغلب الأحيان واضطرت العامة إلى اقتناء السيوف والسكاكين وخاصة «العوام والصناع» دفاعا عن أنفسهم(٢).

كما كان الخلاف بين طوائف هؤلاء الرقيق أو المماليك تنطبع آثاره السيئة على العامة دائما ففي سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م عهد المستنصر «نهبت الجند دور العامة»(٣) ووقفوا حجر عثره في سبيل الزراعة، فقد انتشروا في الدلتا وأفسدوا نظام الري، وتسببوا في هلاك الفلاحين، وفي أثناء ذلك كان الأتراك يجردون قصور الخلفاء الفخمة مما فيها ويشتتون مجموعات التحف الفنية والأحجار الكريمة والمجوهرات، وأسوأ ما فعلوا اقتحامهم للمكتبة النفيسة التي ليس لها مثيل والتي احتوت على مائة ألف نسخة خطية استخدموها لإصلاح أحذيتهم وإشعال النيران فيها وإلقائها في القمامة(٤).

وكثيرا ما كان هؤلاء يستمدون قوتهم من أنهم عبيد للخلفاء ويحظون بمؤازرة القواد فقد ذكر المسبحي أن الجوالة من العبيد نزلوا ونهبوا بلدا بالأشمونين بالكامل حتى أن أحد الأفراد نهب منه تسع مائة رأس من البقر، وثلاثة آلاف رأس من الضأن وعندما التجأ دواس بن يعقوب متولى ديوان العرائف إلى معضاد الخادم الأسود أجاب «متقبل من عبيد مولانا»(٥).

---

(١) انظر: المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٤٣، ٣٤٤.

(٢) المقريزي: اتعاظ، جـ٢، ص٩٣.

(٣) الذهبي: العبر، جـ٢، ص٣١٧.

(٤) عبد الرحمن زكي: القاهرة، ص٣٧؛ حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، جـ٤، ص٥٨٩؛ ستانلي لينبول: سيرة القاهرة، ص١٤١،١٤٠.

(٥) المسبحي: أخبار مصر، ص٢٠٣، ٢٠٤.

فكان جوابه يعد دعما لهؤلاء العبيد في استمرار نهب البلد(١)، كما يوضح رد معضاد محاباته للسودانيين العبيد أبناء جنسه، وفي نهاية الدولة الفاطمية ثار حوالي عشرة آلاف من العبيد لقتل مؤتمن الخلافة مما أشاع الفوضى في المجتمع وألقى الرعب في نفوس الرعية(٢).

وقد قال عنهم المقريزي «فكان الضرر بهم عظيما لامتداد أيديهم إلى أموال الناس وأهاليهم فلما كثر بغيهم وزاد تعديهم أهلكهم الله بذنوبهم»(٣).

وأحيانا كان هؤلاء المماليك يقفون إلى جانب المصريين في الشدائد ضد إحدى الطوائف منهم فعندما حرض الحاكم السودان على حرق مصر سنة ٤١١هـ/١٠٢٠م ونهب ما فيها من أموال ومتاع وحريم، وقف الترك والمشارقة بجانبهم وعنفوا الخليفة واستحثوه على رحمة الشعب من هذا الخراب، ولكن بعد أن احترقت ثلث مصر ونهبت وسبى النساء والبنات (٤)

وفي النهاية نستطيع القول بأنه على الرغم من أن الإسلام يساوي بين معتنقيه أحرارا كانوا أم غير ذلك إلا أن نظرة المجتمعات الإسلامية المختلفة إلى هذا الرقيق كانت غالبا دون الحر.

ولكن الرقيق في المجتمع الفاطمي تمتع بعطف السادة غالبا، فكان كثير من الأرقاء يحظون بحب السادة واحترامهم، فلم يكن هناك حواجز تمنع اتصال هؤلاء بطبقات الشعب المختلفة، فكانت العلاقة بين العبد وسيده علاقة شخصية فللسيد امتلاك بدنه ولكن ليس له سلطان على قلبه إلا بالمودة وحسن المعاملة فكثير من الرقيق كان يعامل معاملة حسنة، إلا إذا أساء الأدب فعلى سيده تأديبه فقد كان لبدر الدولة نافذ الخادم غلام يدعى حكل أدبه بضربه ثلاث مائة عصا، لأنه سرق تسعة

---

(١) ابن الفرات: تاريخه، جـ٤، ص ٧٧، ٧٨.

(3) Yaacov lev - state and society v.1 p.76.

(٣) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٣١٩، ٣٢٠.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص ص٩، ١٠.

آلاف دينار ولما تمت مواجهته بما فعل شتم وقذف فكان جزاؤه الضرب بالعصى [١].

وتظهر ملامح المعاملة الحسنة لهؤلاء الرقيق من إغداق السادة عليهم بالمنح والعطايا ثم عتقهم في الكثير من المناسبات أو تقربًا لوجه الله تعالى.

وأخيرا فالعبد هو العبد مهما ارتقى من وظائف، ومهما اعتلى من سلطه، فكما كان ثواب ولائه العتق كان عقابه في أحيان كثيرة القتل، ولم تختلف نظرة الحكام لهؤلاء العبيد مهما تقربوا منهم فعندما يستلزم الأمر تظهر المشاعر الحقيقية من احتقار هؤلاء كعبيد. فبعد وفاة برجوان رغم ما كان يتمتع به من سلطة في عهد العزيز ثم في عهد ابنه الحاكم إلا أن الحاكم خاطب الناس حيث ثاروا قائلا «كان برجوان عبدي وقد وظفته وعاملني بإخلاص فأحسنت معاملته ثم أشغب فقتلته» فكانت الرسالة واضحة ضمن سطورها أن العبد هو العبد وقتله شيء تافه لا يهم الآخرين والمشاعر تجاه العبيد لا تختلف عبر العصور فأشعار المتنبي ضد كافور الخصي عكست وترجمت مشاعر الناس تجاه العبيد[٢].

---

(١) المسبحي، أخبار مصر ص٤٠.

(1) Yaacov Lev , Arab history and civilization. «state and socity» V.1, P - 78.

الفصل الرابع

دور المماليك السياسي في مصر في العصر الأيوبي

الفصل الرابع

دور المماليك السياسي في مصر في العصر الأيوبي

مساندة المماليك لصلاح الدين في إسقاط الخلافة الفاطمية

لم يكن القضاء على الخلافة الفاطمية مهمة شاقة أمام صلاح الدين الأيوبي ومن ناصره من المماليك في مصر، ذلك أن الخلافة الفاطمية كانت قد وصلت إلى نهاية المطاف طبقا لنظرية قيام الدول وانهيارها التي شرحها ابن خلدون، ويمكن القول أن الدولة الفاطمية كانت قد وصلت في تلك الحقبة من عمرها إلى مرحلة الشيخوخة فأصبحت هشة سهلة السقوط.

ومع ذلك فقد قام المماليك بدور أساسي في مساندة صلاح الدين في إسقاطها، وقيام الدولة الأيوبية في مصر.

لكننا يجب أن نوضح أن هناك عدة عوامل تضافرت على إضعاف الخلافة الفاطمية في مصر منها عوامل داخلية وأخرى خارجية، كلها أسهمت في الإسراع بالقضاء عليها وزوالها.

أما في الداخل فقد اسلم الخلفاء الفاطميون الأواخر زمام الأمر إلى وزرائهم، وأصبح للوزراء اليد الطولى في تعيين الأئمة وخلعهم، بالإضافة إلى اهتمام خلفاء الفاطميين بمشكلات الوراثة مما شغلهم عن القيام بواجباتهم الأساسية في إدارة شئون البلاد.

أما العوامل الخارجية فقد كان من أهمها ظهور الخطر الصليبي الذي داهم بلاد الإسلام، واقتطع أجزاء منها دون أن يدرك الفاطميون خطورته عليهم، بل أن الجيوش الفاطمية في فلسطين لم تقو على أن تصد ذلك الخطر ولا أن تدافع عن حدود مصر، وكان على الدولة الفاطمية أن تتحمل تبعات ذلك فقد تقاعست عن الدفاع عن البلاد والخلافة جميعا[1].

ومما لاشك فيه أن المماليك قاموا بدور بارز في تلك الفترة وأولئك هم الذين

---

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٣، ص١١٠؛ سعيد عاشور: مصر والشام عصر الأيوبيين والمماليك، ص٩ - ١٣.

أتوا مع أسد الدين شيركوه وصلاح الدين من قبل الملك العادل نور الدين زنكي وكانوا من الأتراك والأكراد فقد أدى النورية خدمات جليلة للإسلام ولفتوا نظر صلاح الدين بشجاعتهم وفروسيتهم كما أن شيركوه كانت له فرقة تألفت من خمسمائة من المماليك الترك والكرد أطلق عليهم الأسدية وهم الذين ظهر دورهم في القضاء على شاور وتمكين أسد الدين من الوزارة، كما استطاعوا فيما بعد القضاء على فتنة مؤتمن الخلافة وإسقاط دولة الفاطميين.

كان نور الدين يتطلع إلى مصر خاصة وقد سهل له هذه المهمة وزراء مصر فقد استنجده شاور وزير العاضد الفاطمي ضد ضرغام، الذي أبعده عن الوزارة واستدعى أمراء مصر وضرب رقابهم جميعا وكان عددهم أربعين أميرا، ثم نهب دورهم، وكان شاور قد وعد نور الدين أن يعطيه ثلث أموال مصر إذا ساعده في استعادة الوزارة[1]. واستجاب نور الدين لهذا الطلب فأرسل معه عساكره وعلى رأسهم أسد الدين شيركوه اكبر أمرائه وأشجعهم[2] فهزم أسد الدين عساكر ضرغام وقتله عند قبر السيدة نفيسة وأعاد شاور إلى وزارة العاضد وكان ذلك في سنة ٥٥٩هـ/١١٣٦م وقيل سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م[3].

لكن شاور سرعان ما نقض عهده مع نور الدين وأسد الدين وأرسل إليه يطلب منه العودة إلى بلاد الشام فما كان من أسد الدين إلا أن استولى على بلبيس والشرقية مما حدا بشاور إلى الاستنجاد بالفرنج لإخراج أسد الدين من البلاد، وانتهز هؤلاء الفرصة وساروا إلى مصر وانضم إليهم عسكرها وحصروا شيركوه ببلبيس

---

(١) ابن خلكان: وفيات، جـ٢، ص٤٤٤؛ وابن الأثير: الكامل جـ١١، ص٢٩٨ - ٢٩٩، ابن شداد: النوادر، ص٢٦؛ وابن العبري: تاريخ مختصر الدول، جـ٢، ص٢١٢؛ أبو الفدا: المختصر جـ٣، ص٤١ والقلقشندي: صبح الأعشى جـ٣، ص٤٣٢؛ المقريزي: اتعاظ جـ٣، ص٢٦٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ١١ ص٢٩٨؛ القلقشندي: صبح الأعشى: جـ٣، ص٤٣٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ١١ ص٢٩٩؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٣٦؛ البنداري: سنا البرق الشامي، ص١٩؛ أبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص٤١؛ المقريزي: اتعاظ جـ٣، ص٢٧١ - ٢٧٢.

لمدة ثلاثة أشهر الأمر الذي جعل نور الدين يسارع بالاستيلاء على حارم[١] حتى يخلص شيركوه من حصارهم وفعلا راسل الفرنج شيركوه واتفقوا على الصلح فعاد إلى الشام سالما[٢].

وكان من أهم نتائج تلك الحملة أن لفتت أنظار نور الدين وأسد الدين إلى أهمية مصر «فقد عاد منها وقد غرس في قلبه الطمع في البلاد وعرف أنها بلاد بغير رجال تمشي الأمور فيها بمجرد الإيهال والمحال» فأقام بالشام يفكر في كيفية الرجوع إلى مصر وأخذ يعمل على ترغيب نور الدين فيها ويطمعه في العمل على امتلاكها حتى نجح في إقناعه فجهزه بالعساكر والحشود سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م وأصر على أن يرافق صلاح الدين عمه أسد الدين رغم كراهية صلاح الدين لذلك[٣].

ولما علم شاور ذلك داخله الخوف على البلاد من الأتراك فراسل الفرنج يستغيث بهم فخرجوا لملاقاة شيركوه في الطريق فغير شيركوه خط سيره ووصل إلى مصر وعبر النيل ونزل الجيزة واستولى على الغربية فاستنجد شاور بالفرنج فأسرعوا إليه طمعا في ملك مصر[٤]، ورحل شيركوه نحو الصعيد، وجرت بينهم حروب شديدة[٥].

ورحل شاور والفرنج في أثره فخشي شيركوه أن ينهزم فاستشار أمراء

---

(١) حارم: حصن حصين وكورة جليلة في اتجاه إنطاكية وهي الآن من أعمال حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٢، ص٢٠٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ١١، ص٢٩٩؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، جـ١، ص٢١٢ - ٢١٣ وتاريخ الزمان ص١٧٧؛ أبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص٤١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٢، ص٢٤٧ -٢٤٨؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص٤٣٣.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٣٦ - ٣٧ وانظر ابن خلكان: وفيات، جـ٢، ص٤٤٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص١٤٨؛ ابن تغري بردي: النجوم، جـ٥، ص٣٤٦ - ٣٤٨ وفتحية النبراوي: العلاقات السياسية، ص١٩٠ - ١٩١.

(٤) أبو شامة: الروضتين، جـ١، ص٣٦٤ - ٣٦٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص١٤٩؛ فتحية النبراوي: العلاقات السياسية، ص١٩٢.

(٥) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٣٧؛ المقريزي: اتعاظ جـ٣، ص٢٨٢ - ٢٨٥.

المماليك النورية، فنهض شرف الدين برغش[1] معارضا قائلا أنه من خاف من الأسر أو القتل فلا يخدم الملوك ويأكل رزقهم ويكون في بيته عند امرأته. وقال: والله لا نزال نقاتل إلى أن نقتل عن آخرنا أو ننتصر فوافقه أسد الدين وأعاد ترتيب عسكره[2].

وراسل أسد الدين نور الدين وأخبره بالأمر فجرد عساكره إلى بلاد الفرنج وأخذ المنيطرة[3] فخاف الفرنجة على بلادهم وعادوا بعد أن هزمهم أسد الدين «وطحطحهم الأتراك وكسروهم وانهزم من أمكنه الانهزام»[4] وقد أحرز أسد الدين ورجاله النصر رغم قلتهم إذ لم يتجاوز عددهم ألفي مقاتل، بينما كان عدد أجناد الفرنج والمصريين عشرة آلاف[5].

وعاد شيركوه إلى مصر، واتجه إلى الإسكندرية فاحتلها دون قتال وترك فيها صلاح الدين ابن أخيه، ورجع إلى الصعيد فملكه وأخذ الخراج من أهله في الوقت الذي أعاد فيه المصريون والفرنج ترتيب عسكرهم وحاصروا صلاح الدين بالإسكندرية واشتد الحصار فسار أسد الدين من الصعيد مسرعا لنجدته فطلب منه المصريون الفرنج الصلح على أن يؤدوا له خمسين ألف دينار[6] ويعود إلى بلاده وتبقى الاسكندرية للمصريين ويؤدي المصريون للفرنج مائة الف دينار ويعودوا إلى بلدهم ويبقوا بها حامية تحرس أبوابها حتى لا يطمع بها أصحاب نور الدين فيما بعد

---

(1) شرف الدين برغش هو أحد المماليك النورية الذي اشتهروا بالشجاعة والجرأة وكانت له الكلمة المسموعة لدى أسد الدين وصلاح الدين، انظر أبي شامة: الروضتين، جـ١، ق١، ص٣٦٤.

(2) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص٣٣٠ - ٣٣٦؛ انظر ابن الأثير: الكامل، جـ١١ ص٣٤٢ - ٣٢٥؛ وأبي شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٣٦٥؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٧٨ – ١٧٩، وابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص١٥٠ – ١٥١.

(3) المنيطرة: حصن بالشام قريب من طرابلس. ياقوت: معجم البلدان جـ٤، ص٦٧٣.

(4) ابن شداد: النوادر، ص٣٧؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٧٩ وللمزيد انظر ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص١٥١.

(5) قارن ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص١٤٨؛ أبي الفدا: المختصر، جـ٣، ص٤٣.

(6) ابن الأثير: الكامل، جـ١١ ص٣٢٦؛ أبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص٤٣؛ الوردي: تتمة المختصر جـ٢، ص١١١.

واصطلحوا وعادوا جميعا إلى الشام وتسلم المصريون الإسكندرية في شوال سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م[١].

كان من نتائج تلك الجولة الثانية أن ازداد طمع أسد الدين في البلاد المصرية وكذلك خوفه الشديد من الإفرنج، فقد علم «أنهم كشفوها لما كشفها وعرفوها من الوجه الذي عرفها فأقام في الشام على مضض وقلبه مقلقل والقضاء يجره إلى شئ قد قدر لغيره»[٢].

وعاد الفرنج لمهاجمة مصر وذلك عام ٥٦٣هـ/١١٦٧م ناقضين العهد، فأرسل الخليفة الفاطمي العاضد إلى نور الدين يستنجده وأرسل إليه شعور نسائه طي الكتب[٣]. كما قام شاور بحرق مصر لمنع عموري من دخولها حتى قدوم أسد الدين، فأمر الناس بالجلاء عنها، وأرسل عبيده بالمشاعل والنفوط وأوقدوا النيران لمدة أربع وخمسين يوما واستدعى نور الدين أسد الدين من حمص وجهزه بمائتي ألف دينار[٤] سوى الثياب والسلاح، واختار أسد الدين ألفي فارس من الأقوياء وستة آلاف من العسكر التركمان الذين يبدو أنهم من قبيلة الياروقي كان مصاحبا لشيركوه ومنح نور الدين كل فارس عشرين دينارا وكان مصاحبا له من المماليك النورية عزالدين جرديك[٥] مملوك نور الدين وشرف الدين برغش. وعين الدولة

---

(١) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٧٩؛ أبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص٤٣؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص١١١؛ ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص٢٨١؛ المقريزي: اتعاظ جـ٣، ص٢٨٧.

(٢) ابن شداد: النوادر، ص٣٧؛ انظر ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص٢٨١.

(٣) محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ١، ص٩؛ ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق١ ص٢٦٨ - ٢٧٥؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٢، ص٤٤٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص١٥٨، والنويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص٣٤٠ - ٣٤١؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص١١٥.

(٤) ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص١١٥؛ ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص٢٨١. والمقريزي: اتعاظ، جـ٣، ص٢٩١ - ٢٩٣؛ وانظر
Gibb - Armies of Saladin p.74.

(٥) عز الدين جرديك النوري: كان من أكابر الأمراء النورية وخدم صلاح الدين في جميع غزواته وهو الذي قتل شاور بمصر واتصف بالشجاعة والشهامة توفي سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م. سبط =

الياروقي[1] وغيرهم[2].

مقتل شاور: واجتمع رأي المماليك النورية على القضاء على شاور رأس الحربة وقتله، لأنهم تأكدوا أنه يلعب بهم تارة وبالإفرنج تارة أخرى، وان الطريقة الوحيدة التي يستطيعون بها الاستيلاء على البلاد هي القضاء عليه، فقد كان يتحين الفرص للتخلص من شيركوه[3]. فقبض صلاح الدين والنورية ومنهم جرديك على شاور في غفلة منه، وأدخلوه في خيمة منفردة وقطعوا رأسه وأرسلوها إلى العاضد على رمح وتم تولية أسد الدين الوزارة وخلع عليه سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م ولقبه العاضد الملك المنصور أمير الجيوش[4].

وكان صلاح الدين مباشر الأمور مقرر لها وزمام الأمر والنهي مفوض إليه لمكان كفايته ودرايته وحسن تأنيه وسياسته[5]، وكان حضوره إلى مصر على كره منه فقد أحب نور الدين مسيره وفيه ذهاب الملك من بيته وكره صلاح الدين المسير وفيه ملكه[6].

وما لبث أسد الدين أن توفي في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة

- ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق٢، ص٥٤٦؛ م مخطوط فتوح النصر: محمد بهادر، جـ١، ص٩؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٦١؛ الأصفهاني: الفتح القسي، ص٤٠٤.

(1) عين الدولة الياروقي: كان من التركمان عرفت باسمه محلة كبرة بظاهر حلب كان قد نزل بها فسميت الياروقية- ياقوت: معجم البلدان، جـ٥، ص٤٢٥ وقد كان من أكابر الأمراء النورية وخدم صلاح الدين وكان يتصف بالشجاعة والكرم. الأصفهاني: الفتح القسي ص١٧٠.

(2) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص١٥٨؛ محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ١، ص٩ والنويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص٣٤١ و .Gibb - Armies of Saladin p.74

(3) ابن الأثير: الكامل، جـ١١، ص٣٣٩؛ ابن شداد: النوادر، تتمة المختصر، جـ٢، ص١١٥.

(4) ابن خلكان: وفيات، جـ٢، ص٤٤٧ - ٤٤٨؛ ابن شداد: النوادر، ص٤٠، وابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٨٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص١٦١ - ١٦٣ والنويري: نهاية الأرب، جـ٢٨ ص٣٤٣؛ محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ١، ص٩ والبنداري: سنا البرق، ص٤١؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص١١٦ وابن كثير: البداية، جـ٢، ص٢٥٦ - ٢٥٧؛ المقريزي: اتعاظ جـ٣، ص٣٠١.

(5) ابن شداد: النوار السلطانية، ص٤٠.

(6) ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص١١٥.

٥٦٤هـ/١١٦٨م[1] وبعد مرور أقل من ثلاثة أشهر فقط على توليه الوزارة وبعد وفاته ظهر بجلاء دور المماليك النورية والأسدية ومطالبتهم بأحقيتهم في الوزارة ومنهم الأمير عين الدولة الياروقي وقطب الدين خسرو بن تليل[2]. وسيف الدين الهكاري[3] واختلفوا على شخص صلاح الدين، ولكن الأسدية ساندوا صلاح الدين[4] ونادوا له بالوزارة فعاد النورية الذين رفضوه أولا إلى الموافقة وأعلنوا ولاءهم له إلا عين الدولة الياروقي فقد سار بجنوده إلى الشام[5].

واجتمع المماليك الأسدية وكان عددهم خمسمائة على طلب الوزارة لصلاح الدين وذكروا أن أسد الدين أوصى إليه ومال العاضد إلى هذا الرأي قائلا لهم «إني لأستحي من تسريح صلاح الدين وما بلغت غرضا في حقه لقرب عهد عمه «وخلع عليه بالوزارة ونعت بالملك الناصر»[6].

كان لهؤلاء المماليك الأتراك دور متميز في مساندة صلاح الدين للقضاء على الدولة الفاطمية ومناهضيها وبرز ذلك الدور حين اكتشف أحد هؤلاء الأتراك مؤامرة مؤتمن الخلافة[7] الخصي الأسود والذي كان زماما لقصور العاضد الفاطمي وهذا يدل

---

(١) أبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص٤٦ - ٤٧؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص١١٦ والمقريزي: اتعاظ، جـ٣، ص٣٠٤.

(٢) قطب الدين خسرو ابن تليل هو أحد أكابر الأمراء النورية وهو ابن أخي أبا الهيجاء الهذياني الذي كان صاحب اربل. أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٠٦.

(٣) سيف الدين علي بن أحمد الهكاري هو أحد أكابر الأمراء النورية وكان جده صاحب قلاع الهكارية. أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٠٦.

(٤) عفاف صبرة: بهاء الدين قراقوش الوزير المفترى عليه، بحث بمجلة الدارة السعودية- العدد الثاني، السنة الثالثة عشر محرم ١٤٠٨هـ / أغسطس ١٩٨٧م ص١٣٩.

(٥) ابن الأثير: الكامل، جـ١١، ص٣٤٣، أبى شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٠٦ - ٤٠٧ وابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢١٣، وابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص١٦٨ - ١٦٩ و Gibb. The Armies of Saladin p.74.

(٦) المقريزي: اتعاظ جـ٣، ص٣٠٧ - ٣٠٨ وانظر أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢ ص٤٠٧؛ وابو الفدا: المختصر جـ٣، ص٤٧.

(٧) تفاصيل المؤامرة- انظر ابن واصل : مفرج الكروب جـ١، ص١٧٤ - ١٧٥ وابن الفرات: تاريخه جـ٤، ص٦٨ – ٦٩؛ المقريزي: اتعاظ جـ٣، ص٣١١ - ٣١٢.

على مدى يقظتهم وذكائهم في فهم الأمور.

وكانت طبقة السود قد زادت في أخريات الدولة الفاطمية لاستعانة الخلفاء الفاطميين بقوات كثيرة من السودانيين والأحباش وصل تعدادهم في أيام صلاح الدين إلى مائة ألف مقاتل(١).

وقد شعر هؤلاء السودانيون بمدى الخطر المحدق بهم من ازدياد نفوذ صلاح الدين، فحاك زعيمهم تلك المؤامرة فثار أكثر من خمسين ألفا منهم (٢) ووصلوا إلى باب صلاح الدين بأسلحتهم فأسرع إليه فخر الدين شمس الدولة توران شاه وأخبره بما يجرى، ودار القتال بين القصرين وكادوا أن يغلبوا العساكر الشامية(٣).

وكان العاضد يتطلع من منظرة القصر ويراقب الموقف وكان سعيدا لما يحدث لمماليك صلاح الدين الأتراك وأمر جماعة عنده في القصر من السودان أن يرموا العساكر الشامية بالنشاب(٤) والحجارة فأمر شمس الدولة النفاطين أن يحرقوا منظرة العاضد(٥)، فاستدرك العاضد الأمر وفجأة انفتح باب المنظرة ونودي أن أمير المؤمنين يأمركم أن تخرجوا هؤلاء السودان من بين أظهركم، ومن بلادكم، فقوى الشاميون وضعف جأش السودان(٦). وكان العبيد مشتدين الأنفس بأن العاضد راضى بأفعالهم فلما سمعوا ذلك فت في أعضادهم فجبنوا وتخاذلوا عند سماع هذا القول(٧). وفروا وتتبعتهم العساكر الشامية وقتلوهم وأسروهم وكلما ذهبوا إلى مكان أحرقوه

---

(١) عبده بدوي: السود والحضارة العربية، ص١٤٦.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية، جـ١٢ ص٢٥٨؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٢٤٠.

(٣) ابن الفرات: تاريخه، جـ٤، ص٧٠ وانظر ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص١٧٥ - ١٧٦.

(٤) النشاب: هو ما يرمى به عن القسي الفارسي وهو يعكس النبال التي يرمي بها عن القسي العربي - انظر القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٢، ص١٤٢.

(٥) ابن كثير : البداية، جـ١٢، ص٢٥٨.

(٦) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٧) ابن الفرات: تاريخه، جـ٤، ص٧٠ وابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١ ص٢٤٠؛ جمال الشيال: تاريخ مصر، جـ٢، ص٢١ – ٢٢.

عليهم إلى أن خرجوا إلى الجيزة فنهب المماليك الأتراك أموالهم وديارهم[١].

ولما هزم السودان وتم القضاء عليهم نهائيا ضعف أمر العاضد الفاطمي فلم يبق له غير الخطبة، وخلا لصلاح الدين المسرح السياسي مما مهد لقيامه على رأس الدولة الأيوبية، ومات العاضد فأسقطت الخطبة سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م وزالت دولة الفاطميين التي امتدت مائتين وثماني سنوات وكسرا[٢] فصاروا كأمس الذاهب كأن لم يغنوا فيها[٣].

فقد اتسعت أطراف تلك الدولة وحكمت مدة من الزمان حتى كادت أن تملك ملكا عاما وان تدين الأمم لها وإليها[٤].

ومما يؤكد دور هؤلاء الأتراك البارز في مساندة صلاح الدين للقضاء على تلك الدعوة تخوف العاضد منهم، فبعد رحيل الفرنج عن ثغر دمياط كتب نور الدين إلى العاضد يهنئه بذلك وكان العاضد قد كتب إليه بتخوفه من ولاء الأتراك وطلب منه مغادرتهم الديار، ويبقى صلاح الدين وخواصه فقط ولكن الملك العادل رد عليه بالمدح في هؤلاء وأنه لم يرسلهم ولم يعتمد عليهم إلا لعلمه بأن[٥] قنطاريات الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك، وأن الفرنج لا يخافون إلا منهم ولولاهم لزاد طمعهم في البلاد والديار المصرية[٦].

فقد شعر ذلك الخليفة بحسه السياسي أن في وجود هؤلاء المماليك الأتراك زوال ملكه فحاول إبعادهم ولكن كان الوقت قد فات.

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب، جـ١، ص١٧٥ - ١٧٦؛ ابن الفرات: تاريخه، جـ٤، ص٧٠؛ مخطوط شفاء القلوب، ص١٩؛ المقريزي: اتعاظ، جـ٣، ص٣١٣ - ٣١٤.

(٢) محمد بهادر : مخطوط فتوح النصر، جـ١، ص١٢-١٣؛ ابن العبري: مرآة الزمان، ص١٨٧ وابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص١٧٨ - ١٧٩؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص١٢٢ والمقريزي: اتعاظ جـ٣، ص٣٢٧ – ٣٢٨.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية، جـ١٢، ص٢٦٧.

(٤) ابن طباطبا: الفخري في الآداب، ص٢٦٢.

(٥) القنطارية نوع من الرمح وهي لفظ من أصل يوناني وسميت هكذا لأنها تصنع من مادة الخشب يحمل هذا الإسم باليونانية- انظر ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص١٨٣، حاشية٢.

(٦) ابن الفرات: تاريخه، جـ٤، ص٨٧.

وقد ذكر ابن الفرات حادثة تؤكد مساندة هؤلاء المماليك لصلاح الدين في إسقاط الخلافة الفاطمية فقد ذكر أنه اجتمع بهم سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م واتفق معهم على أن يوكل كل واحد من مماليكه بواحد من أمراء المصريين فإذا خرج للخدمة يقبض عليه ويستولي على ما يخصه من اصطبل وخزائن وذخائر وإقطاع وعين لكل واحد من أمراء الشام أميرا من أمراء مصر فتجهزوا ولبسوا أسحلتهم وأحاط كل أمير منهم وعساكره ببيت أمير من أمراء مصر فلما أصبح أمراء مصر وخرجوا كعادتهم للخدمة قوضوهم من كل الجهات وقتلوهم[1] واستولوا على ممتلكاتهم من أهل ومال وخيول وعبيد وجوار فمن لم يقتل منهم أصبح أسيرا فآل أمرهم إلى أن صار الأمير منهم بوابا على الدار التي كان يسكنها وصار آخر منهم سائس فرس كان يركبها وصار آخر وكيل القبض في بلد كانت إقطاعا له[2].

وكان ذلك قبل موت العاضد بمدة قليلة فاستاء لذلك وسأل صلاح الدين عن سبب ذلك فأخبره أنهم عاصيين للأوامر ففضل قتلهم والاستعانة بأمرائه الذين يمتثلون للأوامر[3].

وعين صلاح الدين قراقوش الخصي وهو أحد مماليك عمه أسد الدين شيركوه زماما على القصور حتى يطلعه عما يدور فيها «فما كان يدخل إلى القصر شئ ولا يخرج منه إلا بمرأى منه وسمع»[4].

فاحتاط هذا الخصي على أهل القصر وكانت عدة الأشراف مائة وثلاثين والأطفال خمسة وسبعين وأفرد لهم مكانا خارج القصر وجمع أقارب العاضد في إيوان بالقصر وفرق بين الرجال والنساء لئلا يتناسلوا وينقرض الفاطميون في أسرع وقت[5].

---

(١) ابن الفرات: تاريخه، جـ٤، ص١٢٩ - ١٣٠ والمقريزي: اتعاظ، جـ٣، ص٣٢١ و- Gibb Armies of Saladin p.74.

(٢) المقريزي: اتعاظ، جـ٣، ص٣٢١.

(٣) ابن الفرات: جـ٤، تاريخه ص١٢٩ - ١٣٠؛ المقريزي: اتعاظ، جـ٣، ص٣٢١.

(٤) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢١٥؛ أبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص٥٠ - ٥١ والنويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص٣٦١ المقريزي: اتعاظ جـ٣، ص ٣٩٢؛ ابن الفرات: تاريخه، جـ٤، ص١٣١، وانظر: عفاف صبرة: بهاء الدين قراقوش، ص١٤٠.

(٥) ابن الفرات: تاريخه، جـ٤، ص١٦٦؛ المقريزي: خطط جـ١، ص٤٩٦.

ويذكر ابن أيبك أنه في سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢ أصدر السلطان صلاح الدين أمرا بقتل جميع السودانيين بالديار المصرية وسائر أعمالها[١]، ويبدو أن ذلك أثار النوبيين الذين استفزهم أيضا عزوف صلاح الدين عن استخدامهم في الجيش الأيوبي واستبدالهم بالعناصر التركية والكردية فقاموا بعدة محاولات لاسترداد مركزهم الذي فقدوه بعد زوال الخلافة الفاطمية[٢].

فخرج في تلك السنة العبيد من بلاد النوبة لحصار أسوان وكان بها شخص يدعى كنز الدولة[٣] فأرسل لهم السلطان الشجاع البعلبكي على رأس العساكر فسار إلى أسوان سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م فرحل عنها العبيد فتبعهم هو وكنز الدولة الذي كان وقتها مواليا للسلطان وقتلوا منهم الكثير وعاد إلى القاهرة[٤].

ثم حدث أن قام هذا الرجل الذي يدعى كنز الدولة سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م بجمع أهل الصعيد لخلاف بينه وبين صلاح الدين الذي اتهم الكنز بتشيعهم للعلوية ومناصرة الفاطميين روحيا[٥] فخيل له أنه يستطيع تملك البلاد، واجتمع عليه الكثير من السودانيين[٦] وسار متجها إلى القاهرة في مائة ألف[٧] وسار حتى قصد قوص فأرسل إليه صلاح الدين الكثير من العساكر وعلى رأسهم أخيه الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب[٨].

---

(١) ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٧، ص٥٠.

(٢) مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص١٣٦؛ مكي شبيكة: السودان عبر القرون، ص٣٥.

(٣) كنز الدولة من مقدمي المصريين نزح إلى أسوان وجمع السودانيين وأوهمهم أن باستطاعته ملك البلاد وإعادة الدولة المصرية فاجتمع عليه ناس كثيرين والتفوا حوله فجرد له السلطان عسكرا عظيما وقدم عليهم أخاه العادل سيف الدين فاستأصلهم سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م. ابن شداد: النوادر ص٤٧ - ٤٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص١٦ – ١٧.

(٤) أبى شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٢٣١؛ المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٥٠؛ ابن تغري بردي: النجوم، جـ٦، ص٢٤٠؛ مكي شبيكة: السودان عبر القرون، ص٣٤.

(٥) مكي شبيكة: السودان عبر القرون، ص٣٤ - ٣٥.

(٦) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٤٧ - ٤٨.

(٧) اليافعي: مرآة الجنان، جـ٣، ص٣٩٧؛ ابن تغري بردي: النجوم، جـ٦، ص٧٨.

(٨) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص١٦ – ١٧.

وكان لمماليك الأتراك دور كبير في القضاء على كنز الدولة، فقد وصفهم ابن شداد أنهم عسكرا عظيما شاكين في السلاح من الذين ذاقوا حلاوة ملك الديار المصرية وخافوا على فوت ذلك منهم(١) فقاموا بالقضاء على الكنز وقتله هو ومن معه واستأصلوا شأفتهم وكان الكنز قد فتك بأخ لأحدهم وهو حسام الدين أبي الهيجاء السمين وبمن معه فقام العسكر عليهم في قرية طود(٢) فأبادوا الكنز وأصحابه بالسيف حتى أجهزوا عليهم في سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م(٣).

كانت كل تلك الأسباب مجتمعة هي التي دعت صلاح الدين إلى تصفية الجيش الفاطمي واستبداله بالفرق الخاصة من المماليك النورية والأسدية والصلاحية(٤).

وجدير بالذكر أن صلاح الدين استعرض كل قواته في سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م سواء القديم منها والجديد أثناء وجود رسل من اليونان والفرنجة وكان العدد يقدر بحوالي ١٧٤ وحدة وكل وحدة أو كتيبة تتكون من قائد، وهو حامل العلم والرمح، ثم حامل البوق ثم عدد من الفرسان يتراوح ما بين مائتين إلى مائة أو سبعين وكل إجمالي الوحدات أربعة عشر ألف فارس غالبيتهم من الطواشية والقراغلامية واستعرض القوات العربية التي كانت في خدمة السلطان وقدر عددهم بسبعة آلاف فارس ثم تحدد بعد ذلك عددهم بألف وثلاثمائة فارس فقط(٥).

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٤٧ - ٤٨.

(٢) طود: بليدة في الصعيد الأعلى فوق قوص ودون أسوان بها مناظر وبساتين انشأها الأمير درباس الكردي في عصر صلاح الدين. ياقوت: معجم البلدان، جـ٣، ص٥٥٦.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص١٧؛ المقريزي: السلوك، جـ١، ق١ ص٥٧ - ٥٨؛ ابن تغري بردي: مصدر سابق، جـ٦، ص٧٨.

(٤) محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص٩٠ - ٩١؛ العبادي: قيام دولة المماليك ص٨٣.

(٥) Gibb. The armies of Saladin p.75.

استخدام صلاح الدين للمماليك

استطاع صلاح الدين أن يقضي على الخلافة الفاطمية وأن يعيد مصر إلى المذهب السني وأن يقيم فيها دولة جديدة هي الدولة الأيوبية.

وقد سار صلاح الدين على نهج النظام السلجوقي[1] الحربي والعسكري فقد نشأ صلاح الدين في كنف نور الدين بن زنكي الذي اعتمدت دولته في سياستها ونظمها على أنظمة دولة السلاجقة[2].

وكان نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي (٤٦٥-٤٨٥هـ/١٠٧٢-١٠٩٢م) هو أول من ابتدع نظام الإقطاع الحربي[3] ذلك النظام الذي كان يعتمد في قوته العسكرية على قوات مأجورة أو مشتراه تدفع رواتبها من مستغلات الإقطاعات والأراضي والقصور والمون وكان سلاطين السلاجقة لا يولون الوظائف القيادية في الدولة لرجال من الأحرار شكا منهم في إخلاصهم، كما أنهم لم يعتمدوا في تكوين جيشهم على جنس واحد بل اعتمدوا على أجناس متعددة فكان الحرس الخاص للسلطان من الأرقاء وأصبح منهم كبار الموظفين الذين كان يتم تعيينهم وفقا لمعايير خاصة تبين قدراتهم ومواهبهم، ومدى استعدادهم ثم يتدرجون في سلك الوظائف إلى أن يعتقوا في النهاية ويصيروا أحرارا، وبذلك يظهر أن الجيش قد تكون من نوعين من الجنود هما:

المرتزقة والأرقاء، ومنهم ظهر معظم القواد الذين أعدهم السلاطين السلاجقة لولاية زمام الأمور الحربية وغير الحربية اعتقادا منهم أن نشأتهم في البلاط السلجوقي تزيد في إخلاصهم لهم[4] أما الوظائف المختلفة فكانت توكل إلى من يؤدي

---

(١) نظير حسان سعداوي: جيش مصر، ص٢٠١، والعبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص٧٣ -٧٦.

(٢) فتحية النبراوي: العلاقات السياسية الإسلامية، ص١٩٩ - ٢٠٠.

(٣) سعيد عاشور: البنية البشية لجيوش صلاح الدين، بحث منشور بالمجلة العربية للعلوم الإنسانية ص٩، ١٠.

(٤) سعيد عاشور: البنية البشرية لجيوش صلاح الدين ص٩ - ١٠، محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص١٥٠ - ١٥١.

منهم خدمات هامة للدولة، أو يظهر من الكفاءة والإخلاص ما يؤهله للوصول إليها سواء كان ذلك في الجيش أو البلاط أو حكم إقليم من أقاليم الدولة السلجوقية المترامية الأطراف وكان هؤلاء الأرقاء غالبا ما يتمردون على سادتهم ويستقلون بحكم تلك الأقاليم حتى تفككت عرى الدولة السلجوقية وانقسمت إلى دويلات، واستولى هؤلاء المماليك أو الأتابكة[١] مثل أتابكية كيفا وماردين ودمشق والدانشمند والموصل والجزيرة وسورية وغيرهما على النفوذ والسلطان، وأطلق على هذه الدويلات فيما بعد دول الأتابكة كما أن السلاجقة أطلقوا يد القواد في أماكن مختلفة من بلاد السلاجقة وعرفوا بالشاهات كشاهات خوارزم وشاهات أرمينية وقد أورثوا هذا لأبنائهم[٢].

كانت تلك الإقطاعات التي أنشأها السلاجقة بقصد الدفاع عن إمبراطوريتهم سببا في القضاء عليهم، فقد تحول حكامها وأمراؤها من أوصياء على أبناء السلاطين عن طيب خاطر إلى سلطة فعلية وراثية شكلت خطرا قويا على السلاجقة.

وعلى ذلك الأساس قامت الكثير من الأسر الحاكمة بالشرق الأدنى وغالبا ما كان هؤلاء من الرقيق الذين نشأوا في ذلك البلاط وظهروا على أيدي أولئك السلاطين فأتابكة الموصل ينتمون إلى عماد الدين زنكي بن أقسنقر مملوك ملك شاه وأتابكة دمشق ينتهي نسبهم إلى ظهير الدين طغتكين أحد مماليك تتش بن الب ارسلان، وقد جاء قيام تلك الدويلات والأسر الحاكمة مثلا حيا أمام كل من كانت له طموحات في تكوين بيوتا حاكمة مثلهم ومن أولئك نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه وجميع الأسر الأيوبية[٣].

---

(١) الأتابك: وتتألف من كلمتين: هما «أطا» بمعنى أب و«تبك» بمعنى أمير. المقريزي: السلوك، جـ١، ص١٤٦ وكانت مهمته الوصاية على أولاد السلطان ورعايتهم وتربيتهم وكانت غالبا مقصورة على أمراء الترك وأول من لقب بها نظام الملك. حسن الباشا: الفنون والوظائف، جـ١، ص٣.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، جـ٤، ص٦١ - ٦٢ وانظر Gibb - The Achievement of Saladin p.95.

(٣) Gibb - The Achievement of Saladin p.95.

وبما أن البيت الأيوبي نشأ في كنف السلاجقة وأن نجم الدين أيوب وأخاه أسد الدين شيركوه كانا من أمراء عماد الدين زنكي أحد رجال السلطان محمود السلجوقي فقد أقطعها زنكي سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م عدة إقطاعات في شمال العراق، وكذلك عندما خلف نور الدين محمود أباه عماد الدين زنكي في حكم الموصل وحلب دخل الأخوان أيوب وشيركوه في خدمته فزاد نور الدين محمود من إقطاعاتهما بعد أن صارا من جملة اتباعه واعتمد عليهما في كثير من المهام الصعبة [١]، فقد ادخل عماد الدين زنكي وولده العادل نور الدين نظام الإقطاع الحربي تأثرا بأنظمة الدولة السلجوقية وسار صلاح الدين على نفس النهج وأدخل ذلك النظام في مصر فقد كانت تقسم الأراضي والقرى على قواد جيشه[٢].

فلما أرسل نور الدين محمود حملاته الحربية الثلاث إلى مصر بقيادة شيركوه وبصحبته ابن أخيه صلاح الدين سنة ٥٥٩-٥٦٤هـ/١١٦٤-١١٦٨م كانت تلك الجيوش جيوشا إقطاعية تتألف من عدد من الأمراء المقطعين لكل منهم أجناده ومماليكه وعلى رأسهم جميعا شيركوه أكبر الأمراء المقطعين لنور الدين[٣] فقام صلاح الدين بعد سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م بالتخلص من الأمراء المصريين الفاطميين والعبيد السود وبدأ في استجلاب عسكرا من الأتراك والأكراد[٤].

وعلي أحمد بيومي: قيام الدولة الأيوبية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة ١٩٤٦ ص١٢.

(١) ابن خلكان: وفيات جـ١، ص٢٦٠، فتحية النبراوي: العلاقات السياسية الإسلامية، ص١٩٩ - ٢٠٠.

(٢) ستانلي لينبول: سيرة القاهرة، ص١٧٢، Gibb - The Achievement of Saladin p.75 - 76.

(٣) سعيد عاشور: البنية البشرية لجيوش صلاح الدين، ص١٣ - ١٤.

(٤) نظير حسان سعداوي: جيش مصر ص٦، ٧ و Gibb - The Achievement of Saladin p.74.

فقد أدرك مدى أهمية توحيد القوى الإسلامية لمواجهة الخطر الصليبي وقد كلفه هذا الأمر الكثير من الجهد والوقت ولكن إيمانه بتلك القضية كان يدفعه للتغلب على الكثير من الصعاب(١)، وأهمها استبعاد العناصر التي تمثل خطورة على مركزه، أولئك الذين أتوا معه مثل عين الدولة الياروقي وغيره ممن اعترض على تعيينه في الوزارة الفاطمية(٢).

وقام بشراء مجموعة من المماليك الأتراك بلغ عددهم اثني عشر ألف مملوك وكون لنفسه منهم فرقة لقبت بالصلاحية أو الناصرية نسبة إليه(٣) وكان من أشهرهم علم الدين كرجي وسيف الدين سنقر الدوري وأيبك الساقي وركن الدين منكورش وفارس الدين ميمون القصرى (٤) وكان قائدهم أبا الهيجاء السمين(٥).

---

(١) فتحية النبراوي: العلاقات السياسية والإسلامية، ص١، ٢ و Gibb - The Achievement of Saladin p.100.

(٢) نظير حسان سعداوي: جيش مصر، ص٦ – ٧.

(٣) أنور زقلمة: المماليك في مصر، ص١٤؛ أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها، جـ٢، ص٧ حاشية ١ و Gibb - The Achievement of Saladin p.74

(٤) كانوا من كبار أمراء الصلاحية الذين شاركوا صلاح الدين في حروبه ضد الصليبيين وقد كان لهم من الإقدام والشجاعة ما تغنى به الكثير من المؤرخين- انظر عماد الدين الأصفهاني- الفتح القسي ص٤٧٢ وقد ذكر ابن العديم أنهم خدموا بعد صلاح الدين= =الملك الأفضل وبعد فساد أحواله اتصلوا بالعزيز لخدمته. انظر بن العديم: زبدة الحلب، جـ٣، ص١٣٠ وقارن ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٦، ص٢١٨.

(٥) كان من كبار أمراء صلاح الدين اتصف بالكرم والشجاعة شارك صلاح الدين في حروبه ضد الصليبيين ثم أقامه العزيز على القدس ثم عزله فسار إلى بغداد وأصبح من جملة أمراء الخليفة وسيره إلى همذان فلم يتم له أمر ثم سار إلى الشام ومرض في الطريق ومات وهو نازل على تل بالشام ودفن فيه سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م انظر ابن شداد: النوادر، ص١٣٤ وقارن ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، جـ٤، ص٣١٧ وعبد العزيز عبدالدايم: الرق في مصر، ص٢٦.

كما اشتهر منهم أيضا المبارز بن يوسف بن خطلخ وايبك فطيس[(١)] وجهاركس الصلاحي[(٢)] واياز الطويل[(٣)] وسيف الدين بن المشطوب[(٤)] وسنقر الخلاطي[(٥)] وأيبك الأطرش[(٦)] وصارم الدين قايماز النجمي[(٧)]

---

(١) وهما من كبار أمراء الصلاحية اتصفوا بالشجاعة والإقدام. الأصفهاني: الفتح القسي، ص٤٧٢.

(٢) جهاركس بن عبد الله الصلاحي: ويكنى ابا المنصور ويلقب فخر الدين كان عالي الهمة شديد العزم وهو أحد أمراء الدولة الصلاحية الناصرية توفي سنة ٦٠٨هـ/١٢١١م ببانياس – ابن الفرات: تاريخه، جـ٥، ص١٢٢ وقارن المقريزي: السلوك، ق١، ص١٧٥.

(٣) اياز الطويل: كان من مماليك صلاح الدين وهو من الموصوفين بالشجاعة والشهامة حتى وصفه ابن الأثير «أنه لم يكن في زمانه مثله » وتوفي في ٩ شعبان سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م انظر ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، وقارن ابن شداد النوادر السلطانية، ص١٨٠.

(٤) هو أبو عباس أحمد بن الأمير سيف الدين أبي الحسن علي بن أحمد بن أبي الهيجاء ابن عبد الله بن أبي الخليل ابن مرزبان الهكاري المعروف بابن المشطوب الملقب عماد الدين والمشطوب لقب والده وقيل له ذلك لشطبه كانت بوجهه كان أميرا كبيرا وافر الحرمة عند الملوك معدودا بينهم مثل واحد منهم وكان كبيرا شجاعا وكان من أكابر أمراء الصلاحية كانت له وقائع كثيرة في الخروج على ملوك الأيوبيين إلى أن توفي في الاعتقال في ربيع الآخر سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م- انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص١٨٠ - ١٨١ والنويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص٩٠ حاشية ١ وهو صاحب العبارة المشهورة التي قالها صلاح الدين عندما حاصر الفرنج بيت المقدس سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م أستحث صلاح الدين مماليكه لحربهم ونجدة المسلمين فرد عليه ابن المشطوب قائلا «يا مولانا:- نحن مماليكك وعبيدك وأنت الذي أنعمت علينا وكبرتنا وعظمتنا وأعطيتنا وأغنيتنا وليس لنا إلا رقابنا وهي بين يديك والله ما يرجع احد منا عن نصرتك إلى أن نموت» انظر ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢١٦؛ ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢، ص٣٨٥ - ٣٨٦.

(٥) سنقر الخلاطي: هو حسام الدين أحد مماليك صلاح الدين المعدودين توفي في رجب سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م، الأصفهاني: الفتح القسي، ص٢٠٢، حاشية ١، وص٢٣٨.

(٦) ايبك الأطرش أحد شجعان الصلاحية وكان مملوكا لصلاح الدين موصوفا بالشهامة قتل اثناء حربه ضد الصليبيين وحصار الفرنج لصيدا في جمادي الأولى سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م- الأصفهاني: الفتح القسي، ص٢٩٠ وابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٢٨٤ – ٢٨٥.

(٧) قايماز النجمي: صارم الدين أحد مماليك صلاح الدين الشجعان شارك في حصار قلعة كوكب إلى أن فتحها السلطان وكان شجاعا مقداما، الأصفهاني: الفتح القسي ص١٧٨ - ١٧٩ وص١٩٢.

وشمس الدين بن المقدم(١).

اهتم صلاح الدين بشراء المماليك الترك على اختلاف أجناسهم والـذين ترجـع جذورهم إلى منطقة سهوب وسط آسيا وغربها وكان معظمهم من الأتراك والأكـراد والتركمان(٢)، وكان عليهم التصدي للحروب والغزوات وصيانة الحدود والحصون ولا يغادرون العاصمة إلا مع السلطان ويطلق على رؤسائهم لقـب «مقـدموا المماليـك السلطانية» وكل مقدم يترأس خمسين مملوكا(٣) وكانوا «إذ ذاك لا يجلـبهم التجـار ببيعهم أو التطرق إليهم»(٤).

وكانوا بمثابة حراس للسلطان، لا يفارقونه حتى عندما يتفرق العساكر للراحـة في فصل الشتاء(٥)، وقد وصفهم القلقشندي أنهم «أعظم الأجناد شأنا وأرفعهم قـدرا وأشدهم إلى السلطان قربا وأوفرهم إقطاعا ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة»(٦).

أما جند الحلقة فهم «عدد جم كثير وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند مـن المتعممين وغيرهم بواسطة النزول عن الأقطاعات... ولكل أربعين نفسا منهم مقدم منهم ليس له عليهم حكم إلا إذا خرج العسكر في الحرب كانت مواقفه معهم وترتيبهم في موقفهم إليه(٧).

وقد استخدم تعبير أبناء الحلقة هذا في عهد صلاح الدين واختلف تفسيره لـدى المؤرخين فقيل أنهم سموا كذلك لإحاطتهم بالسلطان وتأليفهم حرسه وقيل أنه اسـم مشتق من تكتيك عسكري استعمله الأتراك في الهجوم وذلك بأن يحيطـون بعـدوهم

---

(١) شمس الدين بن المقدم: أشهر مماليك صلاح الدين وأحد كبار أمرائه. النويري: نهايـة جـ٢٩، ص١٢٢.

(٢) سعيد عاشور: البنية البشرية، ص١٧، ١٨ و Gibb - Armies of Saladin p.74

(٣) نظير حسان سعداوي: جيش مصر، ص٢٧

(٤) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص٤٥١.

(٥) محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي، ص١٤٨-١٤٩.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص١٥-١٦.

(٧) المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢ ص٢٨١ حاشية ٥ وقارن جوانفيل: القديس لـويس، ص١٣٨-١٣٩.

على شكل حلقة لشل حركته[1].

وبازدياد الاعتماد على المماليك في الجيش تضاءل نفوذ أبناء الحلقة نظرا لأنهم كانوا من غير المماليك ويضمون أو يتألفون عادة من أبناء المماليك أو أفرادا من سكان مصر الذين احترفوا الجندية كما أطلق عليهم لقب أولاد الناس حتى ولو كانوا من نسل المماليك الذين ولدوا في مصر مسلمين فهم أحرارا وليسوا مماليك وكان أولاد الناس ويسمون الأسياد أو أولاد الملوك[2]. وقد انتشر الارتزاق بالجندية انتشارا واسعا في العصور الوسطى في الشرق والغرب وبمرور الوقت أصبح معظم هؤلاء من أهل مصر ومن أصحاب الحرف والصناعات فلم يكن تغيير هذه الطبقة مرتبطا بتغيير السلاطين وإنما بقيت أساسا دائما للجيش في مصر وكان جند الحلقة يتم تنظيمهم تنظيما دقيقا فكانوا يقسمون إلى مائة ويطلق على رئيسهم باش أو باش العسكر أو يقسمون إلى أربعينات عليهم مقدم الأجناد وكان جند الحلقة يسجلون في ديوان الجيش ولهم الحق في الإقطاعات وذلك باسم امرائهم[3].

وعلى ذلك يمكن القول أن الجيش النوري المكون من ثمانية آلاف جندي[4] والذي شارك في الحملة الثالثة بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين كان بمثابة النواة الحقيقية للجيش المصري في عصر الأيوبيين فقد شارك هؤلاء في تأسيس الدولة الأيوبية والتمكين لصلاح الدين بها فرأى أن يقرب المماليك الأسدية المنتسبين إلى عمه المتوفي وعدتهم نحو خمسمائة مملوك وكانوا من الأتراك والأكراد والتركمان تحت قيادة مجموعة من الأمراء لكل منهم اتباعه ومماليكه[5]

---

(١) عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر، ص١٨-١٩.

(٢) عبد الرحمن زكي: الجيش المصري في العصر الإسلامي من عين جالوت إلى رشيد، ص١٠-١١، وعبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر ص١٨-١٩.

(٣) عبد الرحمن زكي: الجيش المصري في العصر الإسلامي ص١٠-١١، وقارن عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم، ص١٤٩.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص١٥٨

(٥) سعيد عاشور: البنية البشرية، ص٢٤؛ محمد أمين علي: السلطان الملك الصالح، رسالة ماجستير جامعة القاهرة سنة ١٩٦٨م، ص١٥٥-١٥٦.

وقام بالاستغناء عن كبار قادة المماليك النورية، وسمح لهم بالعودة إلى الشام ثم عمل على تكوين فرقة من المماليك خاصة به اطلق عليها لقب الصلاحية أو الناصرية نسبة إليه وأحيانا كان يطلق عليهم المماليك الخواص ومن هاتين الطائفتين الأخيرتين كانت نواة جيشه الحقيقي(١).

وقد أغدق عليهم صلاح الدين الإقطاعات(٢) المختلفة ليضمن ولاءهم له فخاضوا معه الكثير من المعارك ضد الصليبيين وكان لهم دور بارز في فتح الساحل وقلاع الصليبيين(٣).

---

(١) نفسه ١٥٥-١٥٦.

(٢) قام هذا النظام الإقطاعي على أساس فكرة الحقوق والواجبات المتبادلة بين الأمير أو السيد الإقطاعي من ناحية وأفصاله المقطعين من ناحية أخرى بمعنى أن الأرض أو المدن أو القلاع والحصون التي يتم إقطاعها للأفصال والأتباع تكون مقابل خدمات حربية يلتزمون بتقديمها لسادتهم الإقطاعيين متى طلب منهم. سعيد عاشور: البنية البشرية، ص١٣ وجدير بالذكر أن نظام الإقطاع اختلف في ظل الدولة الأيوبية فقد كان يعطي الجند حق الانتفاع بدخل الإقطاعات دون امتلاكها وليس لهم حق الوراثة في الانتفاع بها. أحمد سيد محمد: الشخصية المصرية، ص٣٩.

(٣) محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص١٤٨ -١٤٩ و Gibb – Armies of saladin p.p. 77-78.

مساندة المماليك لصلاح الدين

في حروبه ضد الصليبيين

وقد تزامنت الحروب الصليبية مع دخول عناصر جديدة من شعوب آسيا الوسطى في الإسلام وكانت لهم حماسة شديدة لحماية عقيدتهم وأمد هؤلاء المسلمون الجدد من الأتراك السلاجقة أو التركمان والأكراد الدولة الإسلامية بطاقات متعطشة للدفاع عن دينها وكيانها مما أعطاهم الفرصة للحلول محل البيوت العربية المتداعية ففرضوا سيادتهم على بعض الأقاليم حاملين لواء التصدي للخطر الصليبي والزود عن الإسلام(١).

واختلف المؤرخون حول تسمية جنود صلاح الدين بعساكر مصر فمنهم من يرى أن العساكر الأسدية من بقايا أسد الدين شيركوه ومماليكه والصلاحية لقبوا بعساكر مصر حيث أنهم تمركزوا فيها وأقاموا بها وأنهم من الأكراد والأتراك وليسوا من أبناء مصر الأصليين (٢)، ويرى فريق آخر أن العساكر المصرية هم مصريون أصلا وليسوا مماليك مشترون ويذكر أن صلاح الدين عندما قضى على الفاطميين فقد جعل من مصر وأهلها ركيزة لجيوشه فجنده الملقبون بالصلاحية أو الخاصكية أو أبناء الحلقة هم الذين ساعدوه في بداياته ولم يتعد عددهم الآلاف أما بالنسبة للمعارك الكبرى المصيرية فإن صلاح الدين اتخذ من المصريين ركيزة جيشه ووصل عددهم إلى مئات الألوف مستندين في ذلك الرأي إلى العماد الأصفهاني في الفتح القسي بأنه كان يقاتلهم بعسكر مصر التي جاءته «بأهلها السمر» وأن طوائف الصلاحية لم يتعد دورها حراسة السلطان(٣).

ويمكن أن نرجح الرأي الأول لعدة أسباب منها: أنه لو كان المصريون اشتركوا

---

(١) سعيد عاشور: البنية البشرية لجيوش صلاح الدين، ص١.

(٢) نفسه ص٢٥.

(٣) عبد المنعم ماجد: المصريون وحدهم استردوا بيت المقدس من الصليبيين. الموسم الثقافي، الجمعية التاريخية ١٩٧٨-١٩٨٣ طبعة ١٩٨٤م ص٩٦-٩٧.

بالفعل في تلك الحروب لذكرت المصادر المعاصرة أسماء من لمعوا مع مجاهدي الحركة الصليبية في تاريخ تلك الفترة ضمن ذكرها لأسماء هؤلاء فقد ذكر الأصفهاني: علم الدين كرجي وسيف الدين سنقر الدوري وهم من «المماليك الناصرية والمساعير الأسدية» أنهم جماعة من عسكر مصر والقاهرة [١]، وقوله بعد تحرير الكرك[٢] «وأقفر بلد الشرك وامتلأ من الكرد والترك»[٣].

كما أنه لو كان عدتهم بمئات الألوف لما احتاج الأيوبيون إلى شراء واستجلاب المماليك من الأتراك وغيرهم.

كما ذكر ابن شداد بعض أسماء برزت في المعارك ومن قوله «أن مملوكا للسلطان يدعى سراسنقر وكان شجاعا قد قتل من أعداء الله خلقا عظيما وفتك فيهم فأخذوا في قلوبهم من نكايته فيهم فمكروا به وتجمعوا حوله وكمنوا له وخرج إليه بعضهم وتراءوا له فحمل عليهم حتى صار بينهم ووثبوا عليه من سائر جوانبه فأمسكوه وأخذ واحد بشعره وضرب الأخر رقبته بسيفه فإنه كان قتل له قريبا فوقعت الضربة في يد الماسك بشعره وقطعت يده وخلى عن شعره فاشتد هاربا حتى عاد إلى أصحابه وأعداء الله يشتدون عدوا خلفه فلم يلحقه منهم أحد وعاد سالما والحمد لله»[٤].

فقد عكس نجاح القوى الصليبية في أواخر القرن الخامس الهجري مدى ضعف المسلمين في تلك الفترة حيث انشغلوا بمشاكلهم وتصارعهم على الحكم وكان لانقسامهم أثر كبير في تحقيق الصليبيين الإنتصار تلو الآخر حتى ضاع بيت المقدس وتم سيطرتهم على فلسطين.

ولما استقر الصليبيون في الشام بدأوا يفكروا في توسيع حدودهم وتطلعوا إلى

---

(١) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص٤٧٢.

(٢) الكرك: قرية في جبل لبنان بينه وبين القدس مسيرة يوم. رحلة ابن جبير: ص٢٦٠، ط بيروت ١٩٦٤م، ص٢٦٠.

(٣) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص٥٩.

(٤) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١١٧.

السيطرة على مصر والبحر الأحمر تمهيدا للأستيلاء على الأراضي المقدسة الإسلامية مما حدا بالمسلمين إلى إحياء روح الجهاد واستطاع عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود من بعده أن يبعثوا في المسلمين روح الجهاد ويوحدوا الصفوف ويكونوا الجبهة الإسلامية للتصدي لخطر الصليبيين.

لقد أخذت الدولة الأيوبية على عاتقها مواجهة الخطر الصليبي وأخذت تعد العدة لمواجهته وقد استطاع صلاح الدين أن يسخر امكانات مصر الاقتصادية والبشرية بالإضافة إلى إمكانيات الشام والجزيرة من أجل خدمة ذلك الهدف.

وقد ساعد صلاح الدين في سرعة تحقيق هذا الهدف قيامه على رأس السلطة السياسية في مصر ثم تحسين علاقاته بالخلافة العباسية في بغداد مما أضفى على تحركاته شرعية وتأثيرا اسلاميا عاما، ثم وهب صلاح الدين نفسه للجهاد وقد أكد شداد[١] هذا بقوله: «وقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما بحيث ما كان له حديث إلا فيه ولا نظر إلا في آلته ولا كان له اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه».

وفي سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م قرر صلاح الدين مهاجمة الفرنج وتطهير بلاد المسلمين منهم، فخرج إليهم قرب عسقلان والرملة[٢] وحاربهم فيها ثم عاد إلى مصر ثم خرج إلى آيلة [٣] وحصرها برا وبحرا وفتحها في نفس

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٤٤.

(٢) عسقلان: هي مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين يقال لها عروس الشام. ياقوت: معجم البلدان، جـ٦، ص١٧٤، والرملة: مدينة عظيمة بفلسطين وكانت العاصمة الحربية لها في عهد عمر بن الخطاب ثم انشأها هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥/١٢٥هـ لتقوم بدور رئيسي في حماية الثغور والدفاع عن المدن الساحلية حتى استولى عليها الصليبيون في نهاية القرن الخامس الهجري ثم استعادها المسلمون مرة اخرى. انظر محمد عبد الهادي شعيرة، الرملة ورباطاتها السبعة – بحث بمجلة الجمعية التاريخية، مجلد ١٥، ١٩٦٩، ص٣٧ – ٤٨.

(٣) ايلة: على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام. ياقوت: معجم البلدان، جـ١، ص٤٢٢

السنة واستباح أهلها [١].

كما يذكر ابن واصل من نوادر واقعة الكمين: أن مملوكا من مماليك السلطان يقال له أيبك أثخن بالجراح حتى وقع بين القتلى وجراحاته تشجب دما وبات ليلة أجمع على تلك الحال إلى صبيحة يوم الثلاثاء فتفقده أصحابه فلم يجدوه فعرفوا السلطان فقده فأنفذ من يكشف حاله فوجده بين القتلى فحملوه إلى المخيم وداووه وعافاه الله تعالى وعاد السلطان إلى المخيم عاشر جمادى الآخرة فرحا مسرورا [٢].

وكان مماليك صلاح الدين الأتراك قد وصلوا لدرجة من التمكن والقوة بحيث أنهم باتوا يعارضوه وهو بدوره يحترم آرائهم ويستمع لمشورتهم [٣].

وقد أبلى هؤلاء بلاء حسنا في معارك تحرير بيت المقدس سنة ٥٧٠هـ-٥٨٢هـ/١١٧٤م-١١٨٦م فقد توجه صلاح الدين برجاله لتحرير بيت المقدس «فإنه مكث في يد الكفر إحدى وتسعين سنة لم يتقبل الله فيه من عابد حسنة ودامت همم المملوك دونه متوسنة [٤] وخلفت القرون عنه متخلية وحلت الفرنج به متولية، فما أخر الله فضيلة فتحه إلا لآل أيوب ليجمع لهم بالقبول القلوب.

«وخص به عصر الإمام الناصر لدين الله ليفضله به على الأعصار ولتفخر به مصر وعسكرها على سائر الأمصار» [٥] ورافق صلاح الدين في معاركه العساكر النورية والأسدية والصلاحية فقتلوا من الفرنج الكثير وأسروا مائة أسير «فرجعوا ناكصين على أعقابهم خائفين منه غاية المخافة ولا زال جيشه خلفهم يقتل ويأسر» [٦] فقد «أقبل السلطان بإقبال سلطانه وأبطال شجعانه وإقبال أولاده وإخوانه

---

(١) أبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص٥٠، محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ١، ص١٩.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٢٨٨.

(٣) العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص٨٨.

(٤) متوسنة: أي مسترخية غير يقظة. العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ١٢٢ حاشية (١).

(٥) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص١٢٢.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢، ص٢١٤.

وأشبال مماليكه وغلمانه وركام أمرائه وعظائم أوليائه»[1].

وقد وصفهم مكسيموس مونروند أحد معاصري الحروب الصليبية بأنهم «اندفعوا من كل جهة بصراخات مرعشة المفاصل» فشمل الخوف الصليبيون وفروا هاربين[2].

وفي سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م انتصر جند صلاح الدين في مرج العيون[3] واستولوا على حصن رعنان[4] بقيادة سيف الدين ابن المشطوب على رأس ثمانمائة فارس[5] وقيل ألف فارس[6] وكان يفتخر ويقول هزمت بألف عشرين ألف فارس[7].

وفي سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م انتصر صلاح الدين بمماليكه النورية أمثال عز الدين جرديك النوري والأسدية أمثال جاولي الأسدي فحاربوا الفرنج وأسروا منهم مائة فارس ثم ساروا طالبين عكا والسلطان في أثرهم[8]. وفي نفس السنة توجه سعد الدين كمشبه الأسدي وعلم الدين قيصر إلى الداروم[9] فقاتلوا الفرنج في

---

(١) العماد الأصفهاني: الفتح القسي ص١٢٠.

(٢) مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب المقدسة في الشرق، جـ٢، ص٨٤-٨٥.

(٣) المرج هي الأرض الواسعة فيها نبت كثير ومروج العيون بسواحل الشام ياقوت. معجم البلدان: جـ٨، ص ١٥، ١٦.

(٤) حصن رعنان: مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات وتعتبر من العواصم وهي قلعة تحت جبل خربتها الزلازل سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م فأعاد سيف الدولة بناءها. انظر ياقوت: معجم البلدان، جـ٣، ص٥١.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص٣٠٢-٣٠٣.

(٦) محمد بن بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ١، ص٢٠.

(٧) نفسه، جـ١، ص٢٠.

(٨) سبط الجوزي: مرآة الزمان: تاريخ الأعيان، جـ٨، ق١، ص٣٧٧، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٦١-٦٢.

(٩) الداروم: قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر الواقف فيها يرى البحر خربها صلاح الدين لما ملك الساحل سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م. ياقوت: معجم البلدان، جـ٤، ص١٣.

الداروم وقتلوهم وقدموا بالرؤس إلى القاهرة[1].

وفي سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م في معركة حطين[2]، طهر الله الأرض المقدسة من المشركين على أيدي صلاح الدين ورجاله[3]، وتباري المؤرخون في وصف شجاعة بعض الشخصيات المملوكية التي شاركت في تلك الحروب أمثال دور «قايماز النجمي» في فتح القدس فقد ذكره الأصفهاني قائلا[4] «فثبت قايماز النجمي في صدورهم وأشرع الأسنة إلى نحورهم وروى اللهاذم[5] من تامورهم [6] ومما يدل على ثقة السلطان ذكر ابن كثير أنه لما حاصر السلطان صلاح الدين حصن كوكب[7] سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م ورآه صعبا منيعا وكل به الأمير قايماز النجمي في خمسمائة فارس وقد وصفه العماد الأصفهاني أنه «الصارم المخذم والحازم المقدم والغضب[8] البتار والندب المغوار[9] والأسد الأسد[10] فسد الطريق بمضايقتها عنها ومنع الدخول إليها والخروج منها ولم يزل عليها مقيما ولحصرها مستديما إلى أن يسر الله فتحها وسهل للآمال فيها نجحها[11] كما وكل للصفد[12] خمسمائة فارس مع طغريلك

(١) المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٨٠.

(٢) عن واقعة حطين: انظر سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص٧٩٦-٨١٠.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٧٩٩-٨١٠.

(٤) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص٦٣.

(٥) اللهاذم: جمع لهزم وهو القاطع من الأسنة، نفسه حاشية ٢.

(٦) التامور: النفس وحياتها والقلب وحياته ودمه – العماد: الفتح القسي، ص٦٣ حاشية ٤.

(٧) حصن كوكب: هو قلعة حصينة تقع على الجبل المطل على طبرية وتشرف على الأردن وهي من فتوح صلاح الدين، انظر البغدادي: مراصد الاطلاع، جـ٣، ص١١٨٨.

(٨) السيف القاطع: الأصفهاني، الفتح القسي، ص١٧٨، حاشية ٧.

(٩) الندب: المغوار من الرجال الكثير الغارات السريع إلى الفضائل الخفيف في الحاجة لأنه إذا ندب اليها خف لقضائها، نفسه حاشية ٨.

(١٠) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص١٧٨، ١٧٩.

(١١) نفسه، ص١٧٩، انظر ص١٩٢.

(١٢) الصفد: مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص بالشام وهي من جبال لبنان – ياقوت: معجم البلدان، جـ٣، ص٤١٢.

الجامدار ليمنعون المؤن أن تصل لتلك الحصون ويضيقون على أهلها[1].

واستبسل بهاء الدين قراقوش في الدفاع عن عكا ضد الفرنج[2] كما ذكر ابن شداد بعض الأمراء والمماليك الأسدية والناصرية ضمن ذكره لترتيب الجيش في معركة عكا سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م فذكر أسماء كبار المماليك الأسدية كسيف الدين يازكج ورسلان بغا ووصفهم بأنهم «يضرب بهم المثل»[3].

واستشهد في نفس السنة أحد المماليك الخواص «أيبك الأطرش» ووصفه العماد بأنه «شهما بالوقائع لا يتحرش وثبتا بالروائع لا يتشوش وأنيسا بالحوادث لا يتوحش»[4].

ووصفه ابن واصل أنه «كان شجاعا فارسا مقداما فتقنطر به فرسه، فلجأ إلى صخرة فقاتل بالنشاب حتى فنى نشابه ثم بالسيف حتى قتل جماعة، ثم تكاثروا عليه فقتلوه»[5].

كما يصف ابن شداد قايماز النجمي وأصحابه بأنهم «أسود الإسلام [6]» وذلك سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م حينما وصل ملك الألمان وهاجم الخيم العادلية التي كان المسلمون قد تنبهوا إلى هجومهم عليها فأخلوها قبل وصولهم ووقف الملك العادل أخو صلاح الدين وحوله المماليك أمثال: صارم الدين قايماز النجمي وعز الدين جرديك النوري وجماعة من المعروفين بالشهامة الموصوفين بالصرامة[7] ويسترسل الأصفهاني في وصف شجاعتهم واستبسالهم حتى أوقعوا للعدو عشرة آلاف قتيل[8].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص٣٢٩.

(٢) المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص١٠٥.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٠٠ وانظر بن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٢٩٥-٢٩٦.

(٤) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص٢٩٠.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٢٨٤-٢٨٥.

(٦) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٢٩.

(٧) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص٤٠٤.

(٨) نفسه، ص٤٠٤، انظر ابن شداد: النوادر، ص١٢٩ - ١٣٤.

وفي نهاية تلك السنة يذكر الأصفهاني دور بهاء الدين قراقوش الأسدي وثباته عندما ضجر الأمراء وطلبوا الخروج «أقام ولم يرم ولم ينحل عقد ثباته ولم ينخرم»[١].

واستطرد قائلا في وصف المماليك وشجاعتهم «والمماليك الخواص من خصهم وعمهم الاستخلاص يغادون القتال ويراوحون ويكافئون العدو ويكافحونه ويجارونه ويجارحون ويبرحون به ولا يبارحونه»[٢].

وفي سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م ترد اشارة باسم اياز الطويل مملوك صلاح الدين وقتله بعد استبسال كبير في عكا ووصف بأنه «كان فارسا عظيما في دبوسه عشرة أرطال حديد وكان يضرب الفارس ويهشمه فقاتل في ذلك اليوم قتالا عظيما وقتل من الفرنج جماعة فتقنطر به فرسه فقتلوه فحزن عليه السلطان[٣]. كما قتل في تلك الواقعة مقدم عساكر سنجار[٤] وخلق كثير من المماليك الترك»[٥].

وكان بعض هؤلاء قد خرج عن طوع السلطان فقطع عنهم الأعطيات المقررة لهم وغضب عليهم ومنهم عز الدين أرسل وحسام الدين تمرتاش بن جاولي وسنقر الوشاقي من الأسدية ثم توسلوا إليه أن يعفوا عنهم[٦].

ويبدو أن المؤرخين المعاصرين دأبوا على وصفهم بصفات كثيرة تدل على شجاعتهم في تلك الحروب التي عاصروها ورأوا وشاهدوا بسالتهم فيها فمما قيل عنهم «المماليك الناصرية والمساعير الأسدية أسد العرين

---

(١) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص٤٦٠.
(٢) نفسه، ص٤٦٦ وانظر عفاف صبره: بهاء الدين قراقوش، ص١٦١-١٦٦.
(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق٨، ص٤٠٨ - ٤٠٩؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٨.
(٤) سنجار: مدينة من بلاد الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام. ياقوت: معجم البلدان، جـ٣، ص٢٦٢.
(٥) ابن ايبك: كنز الدرر، الدر المطلوب، جـ٧، ص٩٩ - ١٠٠.
(٦) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص٥٠٦.

الشم العرانين الغر الميامين»[1].

وفي سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م يذكر المقريزي تفصيلا شجاعة الأسدية وعلى رأسهم يازكج الأسدي وغيره في قتال الفرنجة على عسقلان[2].

كما ذكر العماد الأصفهاني المملوك الصلاحي حسام الدين سنقر الخلاطي كأحد مماليك صلاح الدين المعدودين ويذكر أنه من ثقة صلاح الدين به أن ولاه أحد القلاع لحسن سيرته وسلوكه[3].

---

(١) نفسه، ص٤٧٢.

(٢) المقريزي:السلوك، جـ١، ق١، ص١٠٨؛ انظر العماد الأصفهاني - الفتح القسي، ص٥٨٣.

(٣) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص٢٠٢ وحاشية ١ نفس الصفحة وص٢٣٧-٢٣٨.

خلفاء صلاح الدين والمماليك

تعرضت السلطنة الأيوبية للتفكك بعد وفاة صلاح الدين الذي قسم المملكة بين أبنائه وأقاربه، فميز أبناءه واختصهم بالممالك الهامة فجعل مصر للعزيز عثمان بوصاية ابن أخيه المظفر تقي الدين عمر صاحب حماه، وأن تكون الشام لأبنه الملك الأفضل بوصاية أخيه الملك العادل، ولم يحدد أمر الوصاية بمدة(١).

ويمكن القول أن ذلك كان من أسباب تفكك السلطنة إذ اختص أبناءه بحكم الأجزاء الرئيسية واستبقى لإخوته وأقاربه المناصب الثانوية(٢)، بعد أن كان يعتمد على إخوته وأبناء عمومته في بداية توطيد سلطانه فكان يختصهم بالمناصب الكبرى والولايات الرئيسية، فلما عاد وفضل أبناءه عليهم زرع الفرقة في نفوسهم(٣).

فقد كان صلاح الدين يعتمد على أخيه سيف الدين العادل(٤) في تدبير شئون مصر عند خروجه من القاهرة بجيشه سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م ثم ولى بعد ذلك العادل على حلب سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م وعهد صلاح الدين بأمر مصر إلى ابن أخيه تقي الدين عمر(٥).

---

(١) العبادي: قيام دولة المماليك، ص٨٨؛ السيد الباز العريني: مصر في عصر الأيوبيين، ص١٠٦.

(٢) منى الشاعر: جهاد البيت الأيوبي في شمالي الشام والجزيرة ضد القوى الصليبية والمسيحية المجاورة. رسالة ماجستير، كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر ١٩٩٢م ص٢٥.

(٣) سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين، ص٦٧-٦٨.

(٤) هو أبو بكر محمد بن أبي الشكر أيوب بن شاذي بن مروان الملقب بالملك العادل سيف الدين أخو صلاح الدين وكان ينوب عنه في غيابه بالشام ولما ملك السلطان حلب سنة ٥٧٩هـ اعطاها لولده الظاهر ثم أخذها منه واعطاها للعادل الذي تنازل عنها له مرة أخرى وكان ملكا عظيما حسن السيرة عاقلا حازما متدينا ولد سنة ٥٣٨هـ وتوفي صنة ٦١٥هـ ودفن بالقلعة بدمشق ثم دفن بتربة مدرسته المعروفة به: ابن خلكان وفيات الأعيان، جـ٥، ص ٧٤-٧٥، الملطي: نزهة الأساطين، ص٥٦-٥٧.

(٥) السيد الباز العريني: المماليك، ص٣٤-٣٥.

وسرعان ما حل العادل محل أبناء صلاح الدين على رأس دولة موحدة[1].

وتجب الإشارة إلى أن الأفضل نور الدين استقر في دمشق وبمصر الملك العزيز عماد الدين عثمان وبحلب وبلادها الملك الظاهر غيات الدين غازي وباليمن عمهم الملك العزيز سيف الإسلام ظهر الدين طغتكين بن أيوب وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقية الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب وبحماه وسلميه[2] والمعرة[3] ومنبج[4] وقلعة نجم الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين وبحمص والرحبة[5] وتدمر[6] الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه وببعلبك[7] وأعمالها الملك الأمجد مجد الدين بهراشاه بن فرخشاه ابن شاهنشاه بن أيوب وبيد الملك الظافر خضر بن السلطان صلاح الدين بصرى وهو في خدمة أخيه الملك الأفضل ... والملك الأفضل هو أكبر أبناء السلطان[8].

وقد استطاع العادل توحيد هذه الممالك تحت جبهة واحدة وسار على سياسة

---

(١) العبادي: قيام دولة المماليك، ص٨٨؛ ومنى الشاعر: جهاد البيت الأيوبي في شمالي الشام والجزيرة، ص٢٢.

(٢) سلمية: بلدة صغيرة من أعمال حماه بينهما مسيرة يومين وكانت من قبل من أعمال حمص. ياقوت: معجم البلدان، جـ٣، ص٢٤٠.

(٣) المعرة: هي معرة النعمان وهي مدينة كبيرة قديمة مشهورة تقع بين حلب وحماة. ياقوت: معجم البلدان، جـ٥، ص١٥٦.

(٤) منبج: بينها وبين حلب مسيرة يومين والى ملطية أربعة أيام والى الفرات يوم واحد وهي لصاحب حلب في هذه الفترة. ياقوت: معجم البلدان، جـ٥، ص٢٠٦-٢٠٧.

(٥) الرحبة: قرية من قرى دمشق بينها وبين دمشق ميل. ياقوت: معجم البلدان، جـ٤، ص٢٣٥.

(٦) تدمر: مدينة مشهورة في الشام بينها وبين حلب خمسة أيام. ياقوت: معجم البلدان، جـ٢، ص٣٦٩.

(٧) بعلبك: مدينة قديمة فيها ابنية عجيبة وآثار عظيمة وقصور على أساطين الرخام بينها وبين دمشق ثلاثة أيام. ياقوت: معجم البلدان، جـ٢، ص٦٧٣.

(٨) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص٣-٥؛ النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص٤٤٠-٤٤١؛ القلقشندي: صبح الأعشى جـ٣، ص٤٣٢؛ السيوطي: حسن المحاضرة، جـ٢، ص٢٢-٢٦.

الوفاق مع خلافة بغداد حتى يأمن جانبها[1].

كان طبيعيا أن ينتج عن ذلك التقسيم وتلك المنازعات ازدياد أعداد المماليك وخاصة الترك فقد استجلب بنو أيوب الرقيق واكثروا من شراء المماليك وعنوا بتدريبهم وتنشأتهم لتقوية جيوشهم مما استنزف الأموال الطائلة لهؤلاء السلاطين وبدأت الفرق المملوكية تتكون الواحدة تلو الأخرى كل فرقة حاملة لاسم السلطان الذي جلبها كالمماليك العزيزية نسبة إلى العزيز بن صلاح الدين والعادلية نسبة إلى العادل والأشرفية نسبة إلى الأشرف بن موسى بن العادل والكاملية نسبة إلى الكامل بن العادل والصالحية نسبة إلى الصالح أيوب[2].

وقد فاقت قوتهم كل الحدود حتى أصبحوا يتوغلون في إقامة سلطان وعزل آخر وكان معظمهم قد جلب من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز والقفجاق وما وراء النهر إلى جانب من جلبوا من أوربا[3].

وإلى هؤلاء المماليك يرجع الفضل في احتفاظ خلفاء صلاح الدين خاصة العادل والكامل بتفوقهم حربيا على الصليبيين ومنافسيهم من أمراء المسلمين حتى أن هؤلاء المماليك شعروا بمدى أهميتهم لدى سلاطين الأيوبيين وعدم قدرتهم على الاستغناء عنهم مما أدى إلى تزايد نفوذهم السياسي وتحكمهم في مقاليد الأمور[4].

ومن الواضح أن نفوذهم ازداد بضعف الملوك الأيوبيين الذي نتج عن

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشي، جـ٣، ص٤٣٢؛ عبد الحميد الدسوقي: موقعة عين جالوت، رسالة ماجستير: كلية دار العلوم، جامعة القاهرة ١٩٥٥م، ص٩٨.

(٢) انظر سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص٤٢٥؛ العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص٨٨، ٩٢؛ قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الإجتماعي، ص٩؛ حسنين ربيّع: النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، ص١٠٧.

(٣) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٤ وقارن زبيده عطا: بلاد الترك في العصور الوسطى، ص١٣٨، حاشية ١؛ عبد العزيز عبد الدايم: الرق في مصر في العصور الوسطى، ص٢٧.

(٤) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٤ قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي ص٩، إبراهيم العدوي: التاريخ الإسلامي، ص٣٤٧، محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك، ص٢٢.

صراعاتهم وأطماعهم من أجل السلطة والتملك مما أتاح لهؤلاء المماليك الذين يمثلون القوة الفعالة في ملاقاة هذا الضعف وفض ذلك النزاع أن زادهم ذلك قوة وسلطانا.

وكان السلطان الأيوبي عند توليه يقوم بإبعاد مماليك سلفه ويجعل مماليكه بدلا منهم مما أدى إلى الإكثار من جلب الرقيق من هؤلاء الذين خضعوا للتتار على يد التجار الذين وجدوا في أبناء البيت الأيوبي مصدرا كبيرا لدخلهم لكثرة اقتناء هؤلاء الرقيق واستخدامهم في جيوشهم وصراعاتهم وحروبهم الداخلية، وقد جاءت طائفة من المماليك الأتراك القفجاق إلى الشام ومصر في أواخر الدولة الأيوبية واشتراهم ملوك بني أيوب بأبخس الأثمان ليزينوا بهم مواكبهم في البلدان وليساندوا في حروبهم وقت الحاجة(١).

وأدت الظروف السياسية في تلك الفترة إلى ازدياد أعداد المماليك في العصر الأيوبي فقد كان التجار الأوربيين ينافسون زملاءهم الشرقيين في تجارة المماليك فقد اعتبروا ذلك العصر عصر ازدهار تلك التجارة مما اضطر ملوك أوربا وبابوات روما إلى توقيع العقوبات ضد التجار الذين يبيعون المماليك للمسلمين(٢).

---

(١) العيني: عقد الجمان، جـ١، ص٦٤-٦٥.

(٢) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٣٧.

دور المماليك في الصراع بين العزيز والأفضل

كان للمماليك الصلاحية دور واضح في الخلاف الذي احتدم بين العزيز عثمان والأفضل أبناء صلاح الدين، بل نستطيع القول أنهم هم الذين وضعوا بذرة هذا الشقاق بين الأخوين منذ البداية حينما زينوا للعزيز مهاجمة دمشق وانتزاعها من أخيه وضمها إلى مصر(١).

وكان الملك العزيز قد قرب منه مماليك والده وأمرائه وأحسن إليهم فأحبوه وأخلصوا له في حين أن الأفضل كان يسئ معاملة هؤلاء و«يقدم عليهم من استجده ولا ينبغي الاعتماد عليه»(٢).

ففي سنة ٥٩٠هـ/١١٩٣م استحكمت الوحشة بين العزيز والأفضل وحرض المماليك الصلاحية العزيز على الاستئثار بحكم المملكة كلها وأشاروا عليه بالتوجه إلى الشام وامتلاكها وخاصة أن ثغر جبيل (٣) وهو من جملة فتوح صلاح الدين كان عليه رجلا كرديا اغراه الفرنج بالمال فسلمهم الثغر ولم يستطع الأفضل استخلاصه منهم فقالت الصلاحية للعزيز «توانيت فطرقت البلاد واستولى عليها الفرنجة» فصمم على قصد الشام(٤).

ووصف الأفضل بأنه كان ميالا إلى اللهو والخمر وكان لإبعاده امراء أبيه ومماليكه الصلاحية، بإيعاز من وزيره ضياء الدين بن الأثير أكبر الأثر في إضعاف جانبه ففارقوه إلى العزيز ومنهم الأمير فخر الدين جهاركس وفارس الدين ميمون

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص٢٦.

(٢) نفسه، ص١٢.

(٣) مدينة حصينة من أعمال دمشق ليس لها ماء جار وشرب أهلها من الآبار. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، دمشق، ١٩٦٢م، جـ٢، ص٩٦.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص ٢٦؛ أبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص٩٠.

القصري وشمس الدين سنقر الكبير[١] فرحب بهم العزيز وأكرمهم وتقوى بهم فالتفوا حوله وانضموا إليه إلى جانب الأسدية وقاموا بمحاصرة دمشق حتى استنجد الأفضل بأبناء البيت الأيوبي فاستنجد بعمه العادل وبالظاهر صاحب حلب والمنصور صاحب حماه والمجاهد صاحب حمص والأمجد صاحب بعلبك فاضطر العزيز إلى الانسحاب لعدم قدرته على مواجهة كل هؤلاء وبعث فخر الدين جهاركس الصلاحي إلى عمه العادل ليقرر معه قواعد الصلح ويوقع الاتفاق[٢].

وقيل أن أمراء الصالحية كانوا يتمتعون بمنزلة كبيرة لدى العزيز فحسدهم الأسدية لذلك وأخذت كل طائفة تنافس الأخرى واستثمر الملك العادل ذلك الخلاف لصالحه فعمل على الإيقاع بينهما وكذلك الإيقاع بين الأسدية والعزيز فكاتب العزيز سرا يحذره من الأسديه ويحثه على إبعادهم وكاتب الأسدية ينفرهم منه ويستميلهم إليه حتى أن العزيز استشعر كراهيتهم له ولم يثق فيهم ولم يثقوا به فعزموا على مفارقته[٣].

وحقيقة الأمر أن العزيز لم يقرب الصلاحية بصورة دائمة بل كان يثق بالأسدية حتى أنه أناب بهاء الدين قراقوش الأسدي عنه في القاهرة أثناء تواجده بالشام فبقى هو والأسدية بالقاهرة على العهد[٤]. وكان العزيز قد استصحب معه ٢٧ أميرا على رأس ألفي فارس وألف من جنود الحلقة وكان معه جهاركس وميمون القصرى وسنقر الكبير والشجاع الخادم وجرديك[٥]، فيبدو أن بعضا من الأسدية فقط هم الذين كانوا يبغضون العزيز ويحقدون عليه، ولم يقم كلهم بالتآمر عليه مع العادل والأفضل

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص٤٠٤-٥؛ ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٧، ص١٢٤ والنويري: نهاية جـ٢٨، ص٤٤٢؛ المقريزي: السلوك جـ١، ق١، ص١١٤-١١٥؛ ابن تغري بردي: النجوم، جـ٦، ص١٢٠.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص٢٨-٣١؛ المقريزي:السلوك ج١، ق١، ص١١٦-١١٧.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص٤٦؛ النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص٤٤٧ والمقريزي:السلوك ج١، ق١، ص١٢٤.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص٤٨؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص١٢٣.

(٥) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص٤٤٤-٤٤٥.

وكان سبب انقلاب بعض هؤلاء الأسدية على العزيز استمالة العادل لهم ببذله الأموال وكان مقدمهم أبو الهيجاء السمين الذي عزله العزيز عن ولاية القدس، فانقلب عليه وتقدم الأسدية سيف الدين جرديك وركب أبو الهيجاء وجموعه ومعه أزكش في الليل قاصدين دمشق فلما أصبح العزيز لم ير في خيام الأسدية أحد فكان ذلك سبب عودته إلى مصر في الوقت الذي حرض فيه أزكش وأبو الهيجاء السمين والأسدية العادل على أخذ مصر واستحثوه على سرعة الرحيل إليها حتى لا تفوته الفرصة بعد أن فارق العزيز اكثر العسكر وحرصت الأسدية على أن يسبقوا العزيز في الوصول إلى مصر(١).

مما سبق يتبين لنا أن العادل هو الذي بادر بالإتصال بهم وقدم لهم العهود والوعود بدليل أن الإبقاء عليهم وإرجاعهم للخدمة كان أول شروط صلحه مع العزيز(٢).

وعندما علم العادل والأفضل بعودة العزيز إلى مصر اجتمعا وتحالفا على أن يقسما البلاد فيما بينهم فتكون ثلث الديار المصرية من نصيب العادل ويكون الثلثين للأفضل(٣).

وسارا معا إلى مصر وانضم إليهما المنصور صاحب حماه(٤) وعز الدين بن المقدم صاحب بعرين(٥) وسابق الدين عثمان صاحب شيزر(٦) وفي الطريق انضم إليهما الأمراء الخارجون على العزيز ووصلوا إلى القدس واستولوا عليه ثم ما لبثوا

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص٥٠.

(٢) منى الشاعر: جهاد البيت الأيوبي، ص٣٩.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص٥١.

(٤) حماة: مدينة كبيرة عظيمة كثيرة الخيرات تحيط بها سور محكم وتقع على نهر العاصي. ياقوت: معجم البلدان، جـ٢، ص٣٣٠-٣٣١.

(٥) بعرين: بليدة بين حمص والساحل ولفظ بعربن خطأ والصواب بارين. ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٤٥٢.

(٦) شيزر: كورة بالشام قرب المعرة بينها وبين حماة يوم. البغدادي: مراصد الإطلاع، جـ٢، ص٨٢٦.

أن وصلوا إلى بلبيس وحاصروها[١].

وقد فرح الملك العادل لما علم باستقرار العزيز بمصر فقد كان متخوفا أن ينازعه الملك وراسل العزيز وهو على بلبيس ليجتمع بالقاضي الفاضل[٢] ليقوم بالصلح بينه وبين أخيه الأفضل[٣] فقد كان القاضي الفاضل رافضًا للتدخل في نزاعهم[٤] لحزنه على ما آل إليه أبناء صلاح الدين من نزاع وكان قد أقام في داره[٥] فألح عليه العزيز فوافق وسار إلى العادل وأرسل معه العزيز ابنيه فرق العادل لهما وأعاد العزيز الأمراء الأسدية إلى الخدمة وأبقاهم على إقطاعاتهم تلبية لرغبة عمه العادل وتضمن الاتفاق على بقاء العادل بمصر لتقرير قواعد ملك العزيز فيها مقابل استقرار العزيز والأفضل على ما بأيديهم من بلاد ويلي أبا الهيجاء ولاية القدس[٦]، من قبل الأفضل واجتمع الملوك الثلاثة وتم عقد الصلح بينهم وبقى العادل بمصر فحكم وأمر ونهى في كل الأمور[٧].

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص٥١؛ وابن أيبك: الدر المطلوب، ص١٢٥.

(٢) القاضي الفاضل: أبو علي عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف بهاء الدين أبي المجد على ابن القاضي السعيد أبي محمد الحسن بن الحسن بن أحمد بن الفرج بن أحمد اللخمي العسقلاني المولد المصري الدار المعروف بالقاضي الفاضل الملقب مجير الدين ولد في خامس عشر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة بمدينة عسقلان التي ينتسب إليها دفن بالقاهرة في السابع عشر من شهر ربيع الثاني عام ٥٩٦هـ/١١٩٩م ودفن في تربته بسفح المقطم بالقرافة الصغرى وقد نشأ في بيسان بفلسطين لذلك لقب بالبيساني حيث تولى أبوه قضاءها ثم انتقل إلى مصر في نهاية حكم الفاطميين وترجم له ابن خلكان وفي وفياته والسبكي في طبقاته وابن العماد في شذراته وقد برز في صناعة الإنشاء وتقدم فيها، انظر ابن خلكان – وفيات، جـ٧، ص١٥٨-١٦٣؛ فتحية النبراوي – إنشاءات القاضي الفاضل، ط القاهرة ١٩٨٠م، ص٩-١٢.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص٥٣.

(٤) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص٤٤٧.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص٥٣.

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص٥٤؛ المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص١٢٨؛ وابن تغري بردي: النجوم جـ٦، ص١٢٤؛ محمود الحويري: العادل الأيوبي: ص٥٨-٥٩.

(٧) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص٥٤.

ثم توالت الأحداث بحدوث خلاف بين العزيز والأفضل بسبب ازدياد حماقة وزيره ابن الأثير وأفعاله السيئة وانقياد الأفضل له فاستاء المماليك الصلاحية وأغروا العزيز بأخيه الأفضل(١)، وكاتبوا العادل الذي حاول بدوره نصح ابن أخيه فلم ينتصح حتى بعد أن أرسل إليه قائلا له «ارفع يد هذا الأحمق السئ التدبير القليل التوفيق فلم يلتفت» (٢) فما كان من العادل إلا أن اتفق مع العزيز على التوجه إلى الشام سنة ٥٩٢هـ/١١٩٦م فخاف الأفضل وأراد مصالحتهما إلا أن وزيره أشار عليه بالعصيان فاستعد للقتال وجهز الجند غير أن الظروف خدمت العزيز والعادل فدخلا البلد دون حرب بمساعدة أحد الأمراء الذي فتح لهم أبواب دمشق فخاف الأفضل وذهب اليهما وبكى بكاءا شديدا فأمره العزيز بمفارقة دمشق إلى صرخد(٣).

وكان العزيز قد اتفق مع عمه العادل أن يكون نائبه بمصر ويقيم العزيز بدمشق ولكن ما لبث أن ندم على ذلك(٤).

وفي سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م امتلك الفرنج قلعة بيروت وقاموا بأعمال القتل والسبي للمسلمين في أطراف بلاد القدس فاستنجد العادل بالعزيز فخرج العزيز بنفسه لقتالهم ونزل على الرملة ومعه الصلاحية والأسدية وعليهم الأمير شمس الدين سنقر الدوادار وسراسنقر(٥).

وتوفي العزيز عثمان بن صلاح الدين سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م وكان قد أوصى بملك مصر لأكبر أولاده وهو ناصر الدين محمد (٦) وأوصى مقدم الأسدية بهاء الدين

---

(١) النويري: نهاية الأرب، ج٢٨، ص٤٤٤-٤٤٥.

(٢) ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٤، ق٢، ص٤٤١.

(٣) صرخد: مدينة قديمة من أعمال دمشق وقلعتها محدثة أنشئت قبل الشهيد نور الدين محمود بن زنكي. العمري: مسالك الأبصار، ص١٢٠.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق٢، ص٤٤١؛ وابن خلدون: العبر، جـ٥، ص٢٢٣؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص١٢٥ والسيد الباز العريني: المماليك، ص٣٥-٣٦.

(٥) المقريزي: السلوك ق١، ص١٤٠-١٤١.

(٦) محمد بن عثمان بن يوسف بن أيوب الملك المنصور أبو الفتح ابن العزيز بن الناصر – تسلطن يوم الاثنين سابع عشر محرم ٥٩٥هـ وخلف ٥٩٦هـ. الملطي: نزهة الأساطين، ص٥٣-٥٤.

قراقوش أن يكون مدبره حتى يكبر وكان عمره وقتها عشر سنوات (١).

وهنا يبرز دور الصلاحية والأسدية بوضوح في تولية ابن العزيز الحكم (٢) فقد أشار بذلك فخر الدين جهاركس ولكن سيف الدين ايازكوش من الأسدية اعترض لصغر سنه لكنهم عادوا واتفقوا على توليته تحت كفالة عمه الأفضل وأيدهم في ذلك القاضي الفاضل وأرسل أيازكوش يستدعى الأفضل من صرخد وقد كان سيف الدين ايازكوش مقدم الأسدية يميل إليه هو ومن معه من الأسدية على حين كرهه الصلاحية الذين اشترطوا على الأفضل أن لا يرفع فوق رأسه السنجق ولا يذكر له اسم في الخطبة ولا السكة وأن يدبر أمر الملك المنصور لمدة سبع سنوات فقط ثم يسلم إليه الأمر، فقد خاف هؤلاء الصلاحية والأسدية من تطلع العادل إلى الاستيلاء على مصر فأسرعوا باستدعاء الأفضل وسلموه مقاليد الأمور سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م(٣).

ومن سياق الأحداث نستطيع أن نتبين أن الصلاحية لم يكونوا يميلون إلى الأفضل لأنه يؤثر الأسدية فقالوا «إن ملك حكموا علينا» ولكنهم لم يستطيعوا مخالفتهم فتظاهروا بالموافقة ومن ناحية أخرى أرسلوا إلى أصحابهم بدمشق أن يمنعوا الأفضل من المجئ فركب عسكر دمشق ليمنعوه ولكن كان قد علم بذلك فسارع إلى مصر(٤).

وحضر الأفضل وخرج جمع من الأمراء للقائه ببلبيس وحدث أن استوحش منه فخر الدين جهاركس الصلاحي وأحس منه الغدر فغادر بلبيس إلى القدس وامتلكها

(١) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣، ص٨٧-٨٨.

(٢) ابن الوردي: المختصر جـ٢، ص١٧٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص١٤٠-١٤١؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق٢، ص٤٥٩؛ ابن العديم: زبدة الحلب جـ٣، ص٨٨٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص٨٧-٨٨ والمقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص١٤٦-١٤٧؛ سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص٤٢٦.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق٢، ص٤٦١.

وتبعه بعض الصلاحية منهم قراجا وقراسنقر وميمون القصري واتفقوا على عصيان الأفضل وأرسلوا للعادل يستدعونه ويرغبونه في امتلاك مصر فلاطفهم وطلب منهم العودة فرفضوا[1]، فكانوا قد تخوفوا منه واستشعروا منه الغدر فتركوه وساروا إلى القدس[2].

فقد خشوا أن يكون قد كشف حيلتهم في مكاتبة الصلاحية في دمشق لمنعه من المجئ إلى مصر[3].

وسار الأفضل من بلبيس إلى القاهرة فخرج المنصور للقائه[4] وقبض الأفضل على من بقي من الصلاحية ونهب أموالهم ثم أقام في بركة الجب[5] أربعة أشهر وحلف الأمراء والأجناد بها ثم قصد دمشق للإستيلاء عليه بناء على استدعاء الظاهر غازي صاحب حلب واستخلف على القاهرة سيف الدين ايازكوش الأسدي[6].

فقد استغل الأفضل فرصة وجود عمه على حصار ماردين فأراد الاستيلاء على دمشق ووصل إليها وسانده الأسدية والظاهر غازي صاحب حلب فعلى الفور استنجد العادل بالمماليك الصلاحية الذين كانوا على بيت المقدس فساروا إليه فتقوى بهم وأرسل العادل إلى ولده الكامل يأمره بالحضور إلى دمشق عن طريق البر فرحل الأفضل عنها [7].

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص١٤٠-١٤١؛ ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٣، ص٨٨٨ وابن الساعي: الجامع المختصر، جـ٩، ص٣، الحموي: التاريخ المنصوري، ص٢١٨ وابن خلدون: العبر، جـ٥، ص٣٣٥ والمقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص١٤٦ وابن تغري بردي: النجوم، جـ٦، ص١٤٦.

(٢) المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص١٤٧.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق٢، ص٤٦١؛

(٤) محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ١، ص٣٩.

(٥) بركة الجب: من ديار مصر وهي بركة الحجاج كانت مساحتها ٥٠٠ فدان. انظر ابن الجيعان: التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، ط١٩٧٤م، ص٦.

(٦) المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص١٤٨-١٤٩.

(٧) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق٢، ص٤٦١؛ ابن الساعي: الجامع المختصر، جـ٩، ص٣؛ الحموي: التاريخ المنصوري، ص٢١٩-٢٢٠ والمقريزي: السلوك جـ١، ق١، ص١٤٩؛ ابن تغري بردي: النجوم، جـ٦، ص١٤٧.

وأرسل الملك العادل خلفه العسكر ودار القتال بين الفريقين وكسر الأفضل وسار العادل خلفه إلى القاهرة وبقي فيها وملكها وحلف للأفضل على ميافارقين[1] ورأس عين الخابور[2] وسميساط[3] وحاني[4] وجبل الجود[5].

وظل النزاع قائما بين الطائفتين الصلاحية والأسدية حتى تمكن العادل ووحد كلمة الأيوبيين فكان ذلك نصرا للأسدية وقد خلع عليهم العادل الخلع ورد إليهم اقطاعاتهم بمصر.

أما الصلاحية فإنهم ضعفوا كما ضعف أبناء صلاح الدين وأحفاده ومما زاد من ضعفهم وفاة بعض زعمائهم أمثال جهاركس سنة ٦٠٨هـ/١٢١١م وعز الدين أسامة إلى جانب استيلاء العادل على حصون وإقطاعات من بقي من زعمائهم[6].

---

(١) ميافارقين: مدينة عظيمة من مدن الجزيرة تقع على حدودها وعلى حدود بلاد أرمينية الكبرى – ابن الوردي: خريدة العجائب، ص٤٢، ياقوت: معجم البلدان جـ٤، ص٧٠٣.

(٢) عين الخابور: اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة ويطلق اسمه على ولاية واسعة: ياقوت معجم البلدان، جـ٢، ص٣٣٤.

(٣) سميساط: مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات. ياقوت: معجم البلدان، جـ٣، ص٢٥٨.

(٤) حاني: اسم مدينة معروفة بديار بكر بها معدن الحديد ويجلب منها إلى سائر البلاد. ياقوت: معجم البلدان، جـ٢، ص٢٠٨.

(٥) جبل جود: اسم بلورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحي أرمينية. ياقوت: معجم البلدان، جـ٢، ص١٠٢.

(٦) العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص٨٨.

دور المماليك الصلاحية والأسدية في سلطنة العادل على مصر

كان للمماليك الصلاحية والأسدية دور بارز في اعتلاء الملك العادل سلطنة مصر وتصادف ذلك مع هوى العادل الذي كان يعد العدة في دمشق لتحقيق أهدافه، فاستنجد بولده الكامل الذي حضر إلى دمشق ومعه الكثير من التركمان لنصرته [1].

أما الأفضل فقد استوحش من المماليك الصلاحية ورفض الصلح مع العادل وطلب استبعادهم وغادر دمشق إلى مصر.

ولما علم الصلاحية بذلك غضبوا وحرضوا العادل على المسير وراء الأفضل لامتلاك مصر وساروا خلفه إلى بلبيس حيث قامت بينهما المعارك وتقاتلوا فهزم الأفضل ورحل إلى القاهرة وأغلق أبوابها ووصل العادل إلى البركة وتوسط سيف الدين جهاركس بين العادل والأفضل وأعطوا الأفضل ميافارقين وجبل جور وديار بكر وأخذ العادل مصر سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م واستدعى ولده الكامل وأنزله في دار الوزارة ولكنه لم يقطع الخطبة لولد العزيز[2].

وبذلك فقد تقرر أن يكون الملك المنصور بن الملك العزيز هو السلطان والملك العادل يكون أتابكه فحلف له الملك العادل على ذلك نزولا على رغبة المماليك الصلاحية وسلطنه ثم ما لبث أن عاد الملك العادل وطمع في ملك مصر والاستئثار به[3]، فأرسل رسله إلى البلاد واستحلف الناس لنفسه وخطب لنفسه وضرب السكة باسمه[4] فأجابه الناس جميعا لحكمته ووقاره ودينه واحضر العادل ابنه الكامل وجعله ولي عهده وحلف الناس له [5]، فقد كان تقبل العادل للأمر الواقع وهو أن يكون أتابكا للملك المنصور أمر في غاية الصعوبة وقد ظهر ذلك من رده على أمراء

---

(١) أبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص٩٧ وابن الوردي: تاريخه، جـ٢، ص١٦٥.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٢، ق٢، ص٤٧٠؛ ابن الوردي: تاريخه، جـ٢، ص١٦٥؛ ابن تغري بردي: النجوم، جـ٦، ص١٤٩-١٥١؛ محمود الحويري: العادل، ص٦٢-٦٣.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص١٠٠-١١١؛ المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص١٥١.

(٤) ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص٣٣٧.

(٥) الحموي: التاريخ المنصوري، ص٢٢٢-٢٢٣؛ حسنين ربيع: النظم المالية، ص٣٠.

الدولة مبررا خلعة للسلطان الأيوبي الصغير قائلا «أنه قبيح بي أن أكون أتابك صبي مع الشيخوخة والتقدم والملك ليس هو بالإرث وإنما لمن غلب»(١).

وفي حقيقة الأمر أنه خالف ذلك فقد طبق نظام الإرث هذا عندما أوصى لابنه الملك الكامل محمد ملك مصر والمعظم عيسى ملك دمشق والأشرف موسى ملك الجزيرة(٢).

وكان تخوف العادل من انحياز الصلاحية للمنصور محمد بن العزيز من أقوى الأسباب التي دفعته لإخراج المنصور من مصر تخوفا من أن يعيده الصلاحية لينازعه في ملك مصر(٣) وأخرج معه والدته واخوته وساروا إلى الرها(٤) ثم وصلوا حلب فأقاموا عند الملك الظاهر الذي أحسن استقبالهم(٥).

ويذكر الحموي أن الصلاحية أسفت لما حدث وحلف ابن المشطوب وجهاركس وقراجا وميمون القصري على أن يولوا الملك الأفضل وراسلوه ليطلعوه على ما جرى بينهم لثقتهم به فأظهر السرور ولكنه سرعان ما كاتب العادل يخبره بما حدث وسارع إلى ديار مصر وأخبره تفصيلا بما سمع(٦).

وقيل أن سبب ذلك غيرة الأسدية من الصلاحية لأنهم هم الذين ادخلوا العادل إلى مصر وأخرجوا منها الأفضل فخافوا من ازدياد نفوذ هؤلاء الصلاحية فأطمعوا العادل في الاستقلال بحكم مصر وعزل المنصور تقربا إليه وحلفوا له فلما بلغ الصلاحية ذلك استاءوا وعزموا على خلع العادل وطلبوا من الأسدية مساندتهم في ذلك فلم

---

(١) المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص١٥١-١٥٢.

(٢) جمال الشيال: تاريخ مصر الإسلامية جـ٢، ص٩٥-٩٦؛ السيد الباز العريني: المماليك، ص٣٧-٣٨.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص١٤٠.

(٤) الرها: مدينة عظيمة مشهورة واسعة الأقطار ديارها عامرة وتتصل بأرض حران ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب ط القاهرة ١٢٧٦م ص٤٢ ودائرة المعارف جـ١٠، ص٢٧٩.

(٥) ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٧، ص١٥٣.

(٦) الحموي: التاريخ المنصوري، ص٢٢٢-٢٢٣.

يفعلوا وأجبرت الصلاحية على الموافقة فحلفوا له وامتلك الديار المصرية[1].

وحاول العادل استرضاء الصلاحية لكي يأمن جانبهم فجهز فخر الدين جهاركس مقدمه إلى بانياس [2] لحصارها والاستيلاء عليها فنجح في مهمته[3].

ويبدو أن حدس العادل قد صدق فقد أرسل فارس الدين ميمون القصرى إلى العادل يطلب منه أن يعيد المنصور محمد إلى ملكه ويبلغه أنهم لم يدخلوا في طاعته إلا مراعاة لولد العزيز وخوفا على ملكه فرد عليه العادل ردا غليظا فأعاد ميمون الرد قائلا أنه لو لم يوافقهم على ما طلبوا فسوف يفارقونه وطلب ميمون القصرى من زملائه الصلاحية أن يقوموا معه على العادل فأجابوه «بأنا قد افتضحنا بين الناس بأنا نقيم كل يوم ملكا ونعزل ملكا ثم إلى من نسلم الأمر؟ الأفضل ما فيه رجاء وباقي اخوته غير الظاهر ليست لهم في النفس عظمة والظاهر فما يمكنه أن يخلي بلاده ويصير إلينا[4].

يفهم من تلك العبارة مدى النفوذ الذي وصل إليه هؤلاء المماليك وتملكهم زمام الأمور وتحكمهم في تولية الملوك وعزلهم بل إننا عندما نتأمل تلك العبارة جيدا نستطيع أن نتبين أن اختيار هؤلاء المماليك للملوك كان يتحدد حسب هيبة وعظمة ومكانة هؤلاء الملوك في نفوس المماليك والعامة وهل باستطاعة هذا الملك أن يملأ كرسي الملك فيولونه ويساعدونه أم لا فيستبعدونه؟

وفي سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م ظهر دور الصلاحية بارزا في الخلاف الذي وقع بين ملوك الأيوبيين في الشام في الوقت الذي كانت معاملة العادل قد بدأت تتغير

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص١١٠-١١١؛ محمد بهادر: مخطوط الفتح النصر، جـ١، ص٤٠ والمقريزي: السلوك جـ١، ق١، ص١٥٢-١٥٣.

(٢) بانياس: كانت قصبة جولان ويضم إليها القدس المدينة التي في الغور على الحدود بين حولة والجبال في إقليم دمشق ويصفها بأنها مدينة كثيرة الخيرات وأنها بمثابة سوق لدمشق – دائرة المعارف ج٣، ٣١٧.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص١١٧.

(٤) نظام الدين الأصفهاني: وزير الملك الظاهر الأيوبي. ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص١١٤.

بالنسبة لهم فيقول ابن واصل وفي هذه السنة وصل إلى مصر الأمير شمس الدين محمد بن قلج، ونظام الدين محمد بن الحسين الأصفهاني[1]، وزير الملك الظاهر رسولين منه إلى الملك العادل في أن يحلف للملك الظاهر على ما بيده من البلاد ويقيم الملك الظاهر للملك العادل بحلب الخطبة والسكة فطلب العادل من الرسولين إن كانا يحملان رسالة إليه أن يسلماها لقاضي بلبيس ويسلمها هو له بدوره فرجعا وقد تغيرا عليه واجتمعا بميمون القصري ورغباه في الانحياز للظاهر فوافقهما واستاء الظاهر من تصرف عمه واعتبره إهانة له فكاتب الصلاحية يستميلهم إليه كما كاتبهم ميمون القصري فأجاب عدد منهم وظلت المكاتبات والرسائل بينهم وبين الأفضل وبينهم وبين الظاهر [2].

فما كان من الظاهر صاحب حلب إلا أن أرسل إلى ابن عمه الملك المنصور صاحب حماه بعده بإعطائه قلاعا إذا اتفق معه على عمهم العادل بمصر فاعتذر له صاحب حماه أن بينه وبين عمه يمين فسار صاحب حلب إلى المعرة وهي في حكم حماه وأقطع بلادها واستولى على كفر طاب [3] ثم إلى فاميه [4] وزحف على حماه وحاصرها وقاتل قتالا شديدا فجرح في ساقه بسهم ثم صالح صاحب حماه بعد أن بذل له ثلاثين ألف دينار ثم رحل صاحب حلب إلى دمشق وكان عليها المعظم عيسى بن عمه الملك العادل صاحب مصر فحاصرها وأخوه الملك الأفضل الذي فقد دمشق وآلت إلى المعظم عيسى وانضم إليهما صاحب نابلس والأمراء الصلاحية واتفق الأفضل والظاهر انهما إذا تغلبا على دمشق وملكاها يتسلمها الأفضل كما كانت له ثم يسيران إلى العادل في مصر فيستوليان عليها ويأخذها الأفضل منه ويسلم دمشق

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص١١٥.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص١٨٨-١٩٩؛ ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص٣٢٧؛ المقريزي: السلوك، جـ١، ق١ ص١٥٤-١٥٥.

(٣) كفر طاب: بلدة صغيرة تقع على الطريق بين المعرة وشيزر. أبو الفدا: تقويم البلدان، ص٢٦٣.

(٤) فاميه: مدينة كبيرة وكوره من سواحل حمص. ياقوت: معجم البلدان، جـ٣، ص٨٤٦.

لصاحب حلب وبذلك تكون مصر للأفضل والشام كله للظاهر صاحب حلب[1].

واستقطبا الصلاحية واغدقا على جهاركس المال فأعطاه الأفضل ثلاثين ألف دينار [2]، ولما علم العادل بحصارهم لدمشق وبها ابنه خرج بالعساكر وأقام بنابلس وخاف من مقاتليهم. ثم اختلف الأخوان الأفضل والظاهر بمكيدة من العادل عمهما فأطمع الظاهر في دمشق وأنه أراد امتلاكها دون الانتظار لتملك الأفضل لمصر وتقاتل عسكرها مع الأمراء الصلاحية الذين ناصروا الأفضل ليعيدوه إلى ملكه ومن ثم أوقف الأفضل ذلك القتال وتفرقت الجنود ورحل كل من صاحب حلب إلى بلده وسار الأفضل إلى حمص[3] فحصل الوهن في العسكر بعد أن شارفوا على امتلاك دمشق للأفضل[4] وبعث العادل في السر إلى الأفضل يعده بالبلاد التي منحت له بالشرق وهي رأس عين[5] والخابور[6] وميافارقين وغيرها فانخدع الأفضل وأذن إلى الصلاحية في العودة إلى العادل وهم جهاركس وقراجا وعلاء الدين شقير وسعد الدين بن علم الدين قيصر[7].

وكان من أشد أسباب انقلاب الصلاحية على العادل أن مقدمهم جهاركس علم أن العادل ندم على تمكينه لجهاركس من أخذ بانياس فاجتمع بزملائه من الصلاحية واتفقوا على إطماع الأفضل لامتلاك دمشق[8] ومنهم زين الدين قراجا[9].

---

(١) محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ ص٤١؛ المقريزي: السلوك، جـ١، ق١ ص١٥٥.

(٢) الحموي: التاريخ المنصوري، ص٢٢٤، المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص١٥٥.

(٣) محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ١، ص٤١؛ المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص١٥٦.

(٤) المقريزي: السلوك جـ١، ق١ ص١٥٦.

(٥) رأس عين: هي إحدى مدن الجزيرة تقع بين حران ونصيبين ودنيسر وبها عيون كثيرة. ياقوت: معجم البلدان، جـ٤، ص١٢.

(٦) الخابور: اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة ويطلق اسمه على ولاية واسعة كبيرة. ياقوت: معجم البلدان، جـ٢، ص٣٣٤.

(٧) الحموي: التاريخ المنصوري، ص٢٢٤-٢٢٦

(٨) نفسه، ص٢٢٤-٢٢٦.

(٩) هو زين الدين قراجا أحد كبار المماليك ا لصلاحية وأحد مقدميها كان له دور بارز في أحداث =

ولما توفى الملك العادل سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م توارى دور الأسدية والصلاحية وبدأ ينشط دور الكاملية والأشرفية فقد كرهت العادلية تولية ابن الكامل وأرادوا تولية أخاه المعظم مما حدا بالكامل بعد سلطنته أن قبض على كثير من أمرائهم وصادر أموالهم ثم توفي الكامل سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٨م وخلفه في السلطنة على مصر ابنه الأصغر العادل الثاني وبقى ابنه الصالح أيوب على الولايات الفراتية وكان ذلك نتيجة تدخل أم العادل لرغبتها أن يكون ابنها سلطانا(١).

غير أن المماليك الكاملية لم يرضوا وحالفوا الأشرفية ومقدمهم عز الدين أيبك الأسمر(٢) انتهزوا فرصة خروج العادل الثاني الصغير لحرب قريبه صاحب الكرك (٣) فقبضوا عليه في بلبيس وخلعوه سنة ٦٣٧هـ/١٢٤٠م ولم يتحرك لنصرة العادل إلا الأكراد الذين تمت هزيمتهم على يد المماليك الكاملية والأشرفية من الأتراك مما يبين تفوق القوى المملوكية التركية على قوة الأكراد في الدولة الأيوبية(٤).

ولتفصيل ذلك نبدأ بحادثة موت السلطان الملك العادل سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م، فلما علم العسكر ومنهم عماد الدين أحمد بن سيف الدين على بن المشطوب وهو من الأكراد الهكارية(٥). اتفق مع الجند والأكراد على خلع الكامل وتولية الفائز ابن العادل

= تعيين سلطانا على مصر بعد وفاة العزيز. ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص١١٨ وسبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٦، ق٢، ص٤٦١.

(١) العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص٩٢.

(٢) عز الدين أيبك الأسمر أحد كبار أمراء المماليك الأشرفية وقد كان له دور فعال مع باقي الأشرفية في خلع الملك العادل الثاني وأحاطوا بدهليزه انتبهوا ما حوله وجعلوه في خيمة صغيرة ووكلوا به من يحفظه وأرسلوا في استدعاء الصالح أيوب للقدوم إلى مصر ليولونه عليها. ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٥، ص٢٦٣.

(٣) الكرك: قرية في أصل جبل لبنان بينه وبين القدس مسيرة يوم، انظر. رحلة ابن جبير، ص٢٦٠.

(٤) العبادي: قيام دولة المماليك، ص٩٢-٩٣.

(٥) الهكارية إحدى قبائل الأكراد وعاشوا في أعالي الجزيرة حياة مستقلة في تحصيناتهم الجبلية وسط غيرهم وقد حاول أتابك زنكي إخضاعهم واستولى على الكثير من تحصيناتهم ومنهم من دخل في خدمته. ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، حاشية ٤، ص١٦.

حتى يتمكنوا في البلاد ولما شعر الكامل بتلك المؤامرة ترك العادلية ليلا وتوجه إلى أشمون طناح[1] فنزلها تاركا خيامه وخزائنه[2] فلحق بـه العسكر ممـا أدى إلـى استيلاء الفرنج على دمياط وامتلاكهم لها[3] وتلك الحادثة تدل على مدى قوة هؤلاء المماليك وخشية السلاطين منهم حتى أن الكامل يترك مكانه لـيلا ويتـرك خيامـه وأمواله خوفا منهم.

وقد كان الكامل محاصرا لدمياط وكان والده قبل وفاته يرسل لـه الإمـداد أولا بأول فكان مانعا لها من الفرنج الذين نزلوا على دمياط ورابط الكامل قبالتهم أربعـة أشهر كاملة وقاتلهم ودفعهم عنها حتى توفي والده واختلف العسـكر عليـه فتـرك العادلية فامتلك الفرنج دمياط[4].

وفي سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م أرسل الكامل إلى إخوته لنجدته من الفرنج ورابـط حتى سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م بالمنصورة[5].

ثم حدث في تلك السنة أن تقدم الفرنج إلى مصر ووصلوا المنصـورة واشـتد القتال بين الفريقين وتوافد إلى مصر من الشام ملوك الأيوبيين لتخلـيص دميـاط[6] ونصرة الكامل وأطلق النفير العام في كل نواحي مصر لدعوة أهلها إلى الزود عـن البلاد وقد خرج الأمير علاء الدين جرديك وجمال الدين بن صيرم وجمعوا خلق كثير من كل النواحي وجهزوا ألفين من الفرسان مع آلاف من العربان حتى يمنعوا الفرنـج ويحولوا بينهم وبين دمياط وهنا عبر أحد المماليك وهو بدر الدين بن حسون إلـى رأس بحر المحطة وحفر ومن معه حفرة عظيمة من النيل وكان متزايدا فغرق الماء

---

(١) اشمون طناح: قرية قرب دمياط. ياقوت: معجم البلدان، جـ١، ص٢٦٠.

(٢) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص٨٩.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٤، ص١٦ - ١٧؛ ابن الفرات: تاريخه، جـ٥، ص٢٤٧ - ٢٤٨.

(٤) محمد بهادر: فتوح النصر، جـ١، ص٤٥؛ ابن الوردي: تتمة المختصر جـ١، ص٢٠٠ وابـن الفرات: تاريخه جـ٤، ص ٢٤٩.

(٥) أبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص١٢٢.

(٦) ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص٣٤٩-٣٥٠؛ المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص١٩٧.

تلك الأرض ومنع الفرنج من الوصول إلى دمياط وانقطع عنهم المدد فكادوا يموتون جوعا وطلبوا الصلح على أن يتنازلوا عن كل ما أخذوا من المسلمين وعن دمياط(١).

واتسع ملك الكامل حتى قال خطيب مكة مرة عند الدعاء لــه «ســلطان مكــة وعبيدها واليمن وزبيدها ومصر وصعيدها»(٢).

ويذكر ابن أيبك أنه سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م قبض على مماليـك والـده العـادل وأودعهم الجب الكبير(٣) وفي سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م قبض على بعض منهم ممـن انحاز إلى أخيه المعظم(٤). وفي سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٦م وصل الخلاف بين الأخـوين الكامل والمعظم صاحب دمشق إلى ذروته حتى أن الكامل استدعى ملك الألمان إلـى الشام ووعده بإعطائه القدس وبعض السواحل واستدعى المعظم السلطان جلال الدين خوارزم شاه ليعينه على أخيه الكامل في مقابل الطاعة له والخطبة له على المنـابر وضرب السكة باسمه وقطع خطبة أخيه الكامل فخرج الكامل لحربه قاصـدا دمشـق وكان ذلك ناتجا عن وقيعة بين الملكين الشقيقين من جهة بعـض المماليـك ولكـن المعظم استطاع استمالة أخيه ليعود عن قصده فلما عاد إلى مصر قبض على هؤلاء المماليك العادلية وهم فخر الدين الطنبا الجيشي وفخر الدين الطنبا الفيـومي أميـر جاندار وعشرة من الأمراء العادلية وصادر أموالهم(٥) وفي تلك الفترة وبالتحديد عام ٦٢٦هـ/١٢٢٨م حدث تحول خطير كان بداية النهاية للدولة الأيوبية فقد أوعزت أم ولد السلطان الكامل له وهي أم ولده الملك العادل أبي بكر(٦) بأن ولده الملك الصالح

---

(١) محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ١، ص٤٩-٥٠؛ ابن الوردي: تتمة المختصر جـ٢، ص ٢١١ وابن خلدون: العبر، جـ٥، ص٣٥؛ المقريزي: السلوك جـ١، ق/١، ص٢٠٢ - ٢٠٣.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة، جـ٢، ص٣٤.

(٣) الجب الكبير: هذا الجب كان بقلعة الجبل يسجن فيه الأمراء. المقريزي: الخطط، جـ٢، ص١٨٨.

(٤) ابن أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص٢٦١؛ المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٢١٥.

(٥) النويري: نهاية الأرب جـ٢٩، ص١٤٠-١٤١؛ المقريزي: السلوك جـ١، ق١، ص٢٢١-٢٢٢.

(٦) أبو بكر بن محمد بن أبي بكر بن أيوب العادل بن الكامل بن العادل سيف الدين أبو الفتح تسـلطن سنة ٦٣٥هـ، وخلع ٦٣٧هـا فقد أقام سنتين وشهرين وثمانية عشرة يوما. الملطي: ص٦١ نزهة الأساطين، ص٦١.

نجم الدين أيوب[1] نائب أبيه في الملك بالديار المصرية وولى عهده يريد الوثوب على السلطنة وعزل أبيه وانه اشترى جماعة كثيرة من المماليك الترك وعددهم ألف مملوك[2] وأخذ أموالا كثيرة من بيت المال فغضب الكامل على ابنه الملك الصالح وقبض على بعض مماليكه واعتقلهم وصادر أموالهم وعهد لابنه الملك العادل سيف الدين بالسلطنة من بعده[3].

وفي سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م أنعم الكامل على ابنه الصالح نجم الدين أيوب بحصن كيفا فسار إليه وجعله ولى عهده في ممالك الشرق ورتب معه الطواشي شمس الدين صواب العادلي[4] الذي كان من كبار المماليك العادلية وأكثرهم ثقة لدى الكامل وأمسكه زمام الأمور ولا يكون الصالح سوى صورة معه[5].

وعندما توفي الملك الكامل سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م اجتمع الأمراء ومنهم الأمير سيف الدين على بن قليج وعز الدين أيبك وركن الدين الهيجاوي وعماد الدين بن موسك وغيرهم[6] واتفقوا في النهاية على تولية العادل بن الكامل على أن يتولى الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل أبي بكر بن أيوب نيابة دمشق وحلفوا على ذلك[7].

---

(١) هو أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب الملك الصالح نجم الدين أبو الفتح بن الكامل بن العادل صاحب المدارس الصالحية بين القصرين وباقي قلعة الروضة وهو الذي جلب المماليك إلى مصر بكثرة وتسلطن في عاشر شوال سنة تسع وثلاثين وستمائة وهو غائب حلف له الأمراء وسلطنوه وتوفي سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م فأمضى عشر سنين في الملك. الملطي: نزهة الأساطين، ص٦١.

(٢) النويري: نهاية، جـ٢٩، ص١٦٠؛ المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٢٣٨.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، ص٢٧٧-٢٧٨؛ المقريزي: السلوك جـ١، ق١، ص٢٤٠-٢٤٧.

(٤) شمس الدين صواب العادلي: مقدم المماليك السلطانية، عهد العادل توفي في ثامن رجب سنة اثنتين وأربعين وستمائة ودفن به وكان خيرا دينا فيه صلاح، المقريزي: خطط، جـ٢، ص٤١٣.

(٥) ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٧، ص٣٢٨؛ المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٢٦١؛ السيد الباز العريني: المماليك، ص٣٩.

(٦) ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٧، ص٣٢٨.

(٧) المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٢٦١؛ السيد الباز: المماليك، ص٣٩.

وكان نفوذ المماليك قد زاد وسيطرتهم قد استحكمت في تلك الفترة وأصبحت لهم سيطرة كبيرة على السلاطين وظهر ضعف هؤلاء السلاطين تجاه مماليكهم فيذكر النويري أنه عند اجتماع الأمراء أشار عماد الدين بن موسك أن لا يولوا الملك الجواد نيابة دمشق وكانت وجهة نظره أن تولية أحد الخدام نائبا عن العادل بن الكامل تجعل من السهولة عزله في أي وقت أما إذا تولاها أحد من بيت الملك فلن يستطيعوا عزله بسهوله ومن الجائز أن يطمع ويستقل بالملك فلما علم الجواد حضر إليه «وتحدث معه وذكر له سالف صحبه ومودة وترفق له ووعده أن يعطيه إقطاع مائة وخمسين فارسا وعشرة آلاف دينار فقال: والله لا وافقت إلا على ما فيه مصلحة لإبن استاذي»(١).

وبعد أن أقر هؤلاء المماليك أمر دمشق واستقر بها الملك الجواد نائبا عن العادل الصغير باتفاقهم جميعا عادوا إلى القاهرة، فركب العادل للقائهم وأرسل إليهم في منازلهم الأموال والخلع والخيول فامتلك بذلك قلوبهم فعاهدوه على الإخلاص له وأكثر من بذله الأموال لهم وللجند حتى بدد في مدة يسيرة ما جمعه أبوه في مدة متطاولة(٢).

ولكن المماليك الأشرفية ومقدمهم عز الدين أيبك الأسمر لم يرضوا عن تولية العادل الثاني فقبضوا عليه في بلبيس وخلعوه سنة ٦٣٧هـ/١٢٤٠م وحاول الأكراد نصرته ولكنهم انهزموا بعد تحالف المماليك الكاملية والأشرفية الأتراك عليهم مما يبين زيادة سطوة الأتراك على القوة الكردية ثم اختلف هؤلاء على من يقوم في السلطنة فمال الأشرفية إلى إسماعيل بن العادل الكبير صاحب دمشق وعم الصالح أيوب على حين مال الكاملية وهم الأقوى إلى الصالح أيوب فاضطر الأشرفية إلى

---

(٢) النويري: نهاية الأرب جـ٢٩، ص٢٨٨ - ٢٩٩.

(٣) المقريزي: السلوك جـ١، ق١ ص٢٦٧.

الخضوع واستدعى الملك الصالح أيوب وتولى السلطنة ودخل مصر سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م(١).

ومن هنا تبدأ مرحلة جديدة يظهر فيها نفوذ المماليك بشكل يغاير ما كان عليه في أيام العادل والكامل، مما سيمهد إلى تغير سياسي كبير في السنوات القليلة القادمة.

(١) النويري: نهاية الإرب، جـ٢٩، ص٢٥٠-٢٥١؛ المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٢٨٠-٢٨١ والعبادي: قيام دولة المماليك ص٩٢-٩٣.

دور المماليك الأشرفية والكاملية

في تولية الصالح أيوب

وفي سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م خرج جماعة من الأمراء الترك عن طاعة الملك العادل «لما ظهر من ترفه ومجونه وتقريبه جنود الحلقة والترابي ومنحهم الإقطاعات والأموال»(١).

كما تطلع الناصر داود صاحب الكرك لمصر التي سار إليها ومعه الجواري الجنكيات(٢) والعوديات والراقصات وأواني للشرب فاحتفل العادل بقدومه وقبل هديته من الجواري وغيرها(٣).

فخرج بعض هؤلاء الأتراك عن طاعة العادل وأرسلوا إلى الصالح يستدعونه لملك مصر، كما خرج جماعة من جند الحلقة من القاهرة من باب النصر متجهين إلى الشام بلغ عددهم ألف فارس من الأتراك فما كان من العادل إلا أن حرض الأكراد على قتالهم فقاتلوهم وانهزموا وانسحبوا إلى الشام ودخلوا في خدمة الملك الصالح أيوب(٤).

وكان على رأس هؤلاء الأمراء سبعة عشر أميرا منهم الأمير نور الدين على بن فخر الدين عثمان الاستادار والأمير علاء الدين بن الشهاب أحمد، والأمير عز الدين أيبك الكريدي العادلي، والأمير عز الدين بلبان المجاهدي، والأمير حسام الدين لؤلؤ السعودي، والأمير سيف الدين بشطر الخوارزمي والأمير عز الدين قضيب البان العادلي، والأمير شمس الدين سنقر الدنيسري فخرجوا في عدة كثيرة من أتباعهم

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٥، ص٢٦٢؛ المقريزي: السلوك، جـ٢، ق٢، ص٢٧٥.

(٢) هن الجواري اللاتي يلعبن على الجنك وهو من آلات الضرب وهو لفظ فارسي معرب. المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٢٧٥ حاشية ٣.

(٣) نفسه، ص٢٧٥.

(٤) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص٢٥٠-٢٥١.

وأجنادهم والكثير من مقدمي الحلقة والمماليك السلطانية فسربهم الملك الصالح كثيرا وتقوى بهم[1].

وكانت تتوالى عليه كتب الأمراء تعده بالمساندة إن قدم لتولي سلطنة مصر[2] فخرج من دمشق قاصدا مصر وجعل نايبه فيها ولده الملك المغيث عمر[3]، ويذكر ابن واصل أن الأمير عز الدين أيبك الأسمر كان يميل إلى الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق ولكن المماليك الكاملية ومنهم جوهر النوبي وشمس الخواص كانت تميل إلى الصالح نجم الدين أيوب ولما كانوا كثرة فلم يستطع أيبك مخالفتهم[4].

وبقي الصالح أيوب يكاتب عمه صاحب بعلبك الملك الصالح إسماعيل ليعاونه على ملك مصر، ولكنه كان ينوي استرجاع دمشق لحوزته وسار وهاجم دمشق وحصر قلعتها وتسلمها واعتقل نايبها المغيث عمر بن الصالح أيوب واستمر بها حتى مات عنده، وأما الصالح أيوب فلما علم وهو بنابلس خبر انتزاع دمشق واعتقال ابنه ضعف وتخلى عنه عساكره وتفرقوا خوفا على أهلهم بدمشق[5]، فعادوا إليها ولم يبق معه غير مماليكه وهم نحو الثمانين وطائفة من خواصه عددهم نحو العشرين فانتقل من نابلس إلى الغور[6]، ثم رجع إلى نابلس ثم اعتقله الناصر داود صاحب الكرك ولم يترك معه غير مملوك واحد وهو ركن الدين بيبرس وجاريته شجر الدر[7] وظل

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص٢٨١-٢٨٣.

(٣) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٢٢٦؛ ابن تغري بردي: النجوم، جـ٦، ص ٣٠٥-٣٠٦.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٥، ص٢٦٣.

(٥) المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص٢٨٤.

(٦) الغور: هو غور الأردن بالشام يقع بين بيت المقدس ودمشق وسمى غور لأنه منخفض من أرض دمشق وأرض بيت المقدس. ياقوت: معجم البلدان، جـ٤، ص٢١٧.

(٧) هي شجر الدر بنت عبد الله الملكة عصمة الدين أم خليل سرية الملك الصالح التركية وقيل بل أرمينية اشتراها الملك الصالح وحظيت عنده ثم اعتقها وتزوجها وكان لا يفارقها «سفرا وحضرا» وكانت معه في حبسه لدى الناصر صاحب الكرك وقاست معه أهوال كثيرة وولدت له ولد سمي خليل مات صغيرا وهي صاحبة التربة بطريق المشهد النفيسي بالقاهرة وقد ماتت مقتولة على يد=

معتقلا عاما ونصف وتركه باقي مماليكه وأرسل العادل أخاه إلى صاحب الكرك يطلب منه إرساله إليه في قفص مقابل مائة ألف دينار ولكنه رفض وأفرج عنه وعاد مماليك الصالح أيوب إليه فعظمت مكانتهم عنده (١) وتحالف مع صاحب الكرك في القدس عند قبة الصخرة على أن تكون ديار مصر للصالح أيوب ودمشق والبلاد المشرقية للناصر صاحب الكرك ويعطيه مائتي ألف دينار ثم رجعا إلى غزة (٢).

فلما علم بذلك العادل خرج بعساكره إلى بلبيس لقتال أخيه الصالح ٦٣٦هـ/١٢٣٨م(٣) إلى أن قام الأشرفية بالاتفاق مع أكابر الكاملية بالقبض على الملك العادل «فركبوا وأحاطوا بدهليز الملك العادل وانتهبوا ما حوله ورموا الدهليز وجعلوا الملك العادل في خيمة صغيرة ووكلوا به من يحفظه فلم يتحرك أحد من الأمراء ولا غيرهم ولزم كل وطاقة(٤).

وكان مع أيبك الأسمر مقدمي الحلقة الطواشي مسرور الكاملي، وكافور الفائزي، وجوهر النوبي وقاموا بنهب ممتلكات الأكراد مؤيدي العادل فاضطروا إلى

= أمراء البحرية انتقاما منها لمقتل زوجها المعز ايبك – أبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص١٩٢ والمقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص٣٦١-٣٦٢ وابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٢٩٥؛ الملطي. نزهة الأساطين، ص٦٧-٦٨ وقد ذكرتها بعض المصادر على انها شجر الدر والبعض الآخر شجرة الدر ولكن يبدو أن شجر الدر هو الأصح لأنه اللقب الذي أطلقته عليها المصادر المعاصرة وأيده المؤرخون الأوربيون أمثال دائرة المعارف ولين بول وجاستون فييت وكنج وغيرهم. العبادي: قيام دولة المماليك، ص١٠٥ حاشية ١.

(١) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص٢٦١-٢٦٤؛ محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ١، ص٥٨. والمقريزي: الخطط، جـ٢، ص٢٣٦؛ السلوك، جـ١، ق٢، ص٢٨٨، ٣٣٩.

(٢) أبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص١٦٦؛ ابن الوردي: المختصر، جـ٢، ص٢٤٢؛ محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ١، ص٥٩؛ المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص٢٩٣-٢٩٤.

(٣) محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ١، ص٥٨-٦٠؛ النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص٢٤٩-٢٥٠.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٥، ص٢٦٢-٢٦٣؛ انظر محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ١، ص٦١؛ أبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص١٦٦؛ ابن الوردي: تاريخه، جـ٢، ص٢٤٣ وابن ايبك: كنز الدرر، جـ٧، ص٢٣٩.

الموافقة على تولية الصالح واستولى الأتراك على خيامهم وأثقالهم وخيولهم وانهزم الأكراد كما قبض هؤلاء الأمراء على خواص العادل أيضا [1].

وقيل في سبب كراهية الأشرفية والكاملية بمقدمهم على العادل تخوفهم منه فقد قرب خواصه وبلغهم أنه قال «عن قليل تشربون من دم أيبك الأسمر وهؤلاء العبيد السود فلان وفلان وسماهم فاجتمعوا على خلعه»[2].

وكذلك فانهم تخوفوا غدره فغدروا به قبل أن يتمكن منهم فذكر النويري أن ثلاثة من المماليك خنقوه بشاش ... وعلقوه بعمامته وأظهروا أن شنق نفسه وخرجت جنازته كجنازة الغرباء[3].

ووصل الصالح أيوب إلى بلبيس في ذي القعدة سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م ونزل في خيمة العادل وجلس على سرير الملك واستحلف الأمراء وزينت القاهرة ومصر[4].

وكان أول ما فعله أن قبض على أمراء الأشرفية واعتقلهم لما بلغه تغيرهم عليه وتخوفه منهم فهم الذين قبضوا على أخيه وقطع أخبازهم وأعطاها لمماليكه[5].

وقام الملك الصالح بعد القبض عليهم واعتقالهم بما فيهم مقدمهم عز الدين أيبك الأسمر بقتل الكثير منهم وأودع الباقي في السجون، كما قبض على جوهر النوبي وشمس الخواص مسرور وهم من الكاملية الذين ساعدوا في خلع العادل الثاني وكافور الفائزي وبعض الأتراك والأمراء الكاملية «وكلما قبض على أحد منهم أعطى

---

(١) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص ٢٥٦-٢٥٧.

(٢) المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٢٩٤-٢٩٥.

(٣) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص٢٣٩.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥، ص٢٦٣-٢٦٤ وقارن محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ١، ص٦١ والمقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص٢٩٦.

(٥) أبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص١٦٧؛ ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٧، ص٣٤٣-٣٤٤ والمقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص٢٣٩-٢٤٠ وحسنين ربيع: النظم المالية، ص٣٢.

خبزه لمملوك من مماليكه وقدمه»[1].

وقيل أنه تغير عليهم لما تحقق من فساد نياتهم وغدرهم وأنهم أرادو انتزاع البلاد منه وتسليمها إلى عمه الصالح إسماعيل وقال «لابد هؤلاء الغدارين أن يفعلوا بي كما فعلوا بأخي الملك العادل»[2].

ولما استقر الصالح أيوب في مملكته أخذ ينظم شئون الدولة، ويهتم بتقوية نفوذه، فاستجلب أعدادًا كبيرة من المماليك الترك[3]، فقد عاني الملك الصالح من الجماعات الخوارزمية وهم الجنود الذين سلموا من جيش الدولة الخوارزمية بعد قضاء التتار عليها سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م، فقد هاجم المغول أملاك تلك الدولة وطاردوا جلال الدين منكبرتي وقبضوا عليه وتمكنوا في مدة وجيزة من اجتياح أملاك الدولة الخوارزمية[4]، حتى وصلوا إلى حدود أذربيجان سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م وهزم جلال الدين وقُتل[5] كانت تلك الدولة تتألف من عناصر عديدة شملتها الدولة السلجوقية وهم الفرس والعرب والترك فكانت كذلك صورة الجيش ولكن كان العنصر التركي يمثل الأغلبية فقد صاهر السلطان علاء الدين أحد فروع القبائل التركية فازداد عددهم في الجيش فأخذوا هؤلاء الزعماء والقادة المنهزمين يعرضون خدماتهم على ملوك الأيوبيين حتى انتهى بهم الحال إلى خدمة السلطان الصالح أيوب فكانوا مناسر حربية تدخل في طاعة من يريد استخدامها ومن يدفع أكثر ولا يهمهم سوى السلب والنهب[6].

---

(١) المقريزي: السلوك جـ١، ق٢، ص ٣٠٠، أنظر ابن واصل : مفرج الكروب جـ٥، ص ٢٧٥ - ٢٧٦، ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص ٢٤٨، وأبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص ١٦٧، وابن أيبك: كنز الدرر، جـ٧، ص٣٤٣ - ٢٤٤.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٥، ص٢٧٤ - ٢٧٥.

(٣) ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص٣٧٣.

(٤) عفاف صبرة: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ص ١٥٥ وما بعدها.

(٥) نفسه، ص ٢٥٨ - ٢٧٠.

(٦) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص ٢٧٩، حاشية ٢، ٣، الباز العريني: مصر في عصر الأيوبيين، ص ١٢٧ والعبادي: قيام دولة المماليك، ص ١٠٠.

وعندما كان الصالح أيوب حاكمًا على حصن كيفا [١] في عهد والده الكامل أرسل إلى أبيه سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٦م يستأذنه في ضم هؤلاء الخوارزمية إلى جيشه فأذن له[٢].

كما نجح الصالح أيوب بفضل مساعدتهم له في الإستيلاء على سنجار ونصيبين[٣] ثم ما لبثوا أن انقلبوا عليه وزادت أطماعهم وأرادوا القبض عليه ونهبوا أملاكه ففر إلى سنجار[٤] ثم لما انقلب عليه بدر الدين لؤلؤ أرسل الصالح أيوب للخوارزمية يستميلهم ويعدهم بالوعود والإقطاعات[٥] فتقوى بهم كما خلصوا المعظم غياث الدين تورانشاه [٦] ابنه من حصاره في أمد ومنحهم أقطاعات كثيرة منها حران والرها وجميع البلاد الجزرية مقابل خدماتهم له في أمتلاكه دمشق[٧] ثم صاهرهم بأن زوج أخته من أمه لمقدمهم حسام الدين بركة خان[٨] وساعدوه في الاستيلاء على بيت المقدس سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م واستخلاصه من الصليبيين فنهبوا القدس ودخلوا الكنيسة [٩] وضربوا القبور التي فيها وقاموا بإحراق عظام الموتى ثم نزلوا

---

(١) حصن كيفا: مدينة بأرض الجزيرة - العراق على الضفة اليمنى لنهر دجلة في منتصف الطريق بين ديار بكر وجزيرة ابن عمر. للمزيد أنظر دائرة المعارف الإسلامية، جـ٧، ص ٤٥٤.

(٢) المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص ٢٥٥، عفاف صبرة: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ص ٢٧٣.

(٣) نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة بينها وبين سنجار تسعة فراسخ وبينها وبين الموصل ستة أيام. ياقوت: معجم البلدان، جـ٥، ص ٢٨٨.

(٤) المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص ٢٥٧.

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٥، ص ١٨٧.

(٦) تورانشاه بن أيوب بن محمد بن أبي بكر بن العادل بن أيوب بن شادي الملك المعظم غياث الدين بن الملك الصالح بن الكامل بن العادل. مخطوط شفاء القلوب: مجهول، ص ١١٧، نزهة الأساطين: الملطي، ص ٦٣ - ٦٤، المقريزي: السلوك جـ١، ق٢، ص ٣٥١.

(٧) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق١، ص ٤ - ٧ ابن أيبك: كنز الدرر جـ٧، ص ٣٣٠ والمقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص ٢٧١.

(٨) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص ٢٣٢ - ٢٣٣.

(٩) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٥، ص ٣٣٧.

غزة وخلع عليهم الصالح أيوب الخلع والكساوي والأموال وانضاف إليهم العسكر المصري لمواجهة اتحاد الملوك الأيوبيين الصالح إسماعيل صاحب دمشق والناصر داود صاحب الكرك والمنصور صاحب حمص بالإضافة إلى الفرنج ضد الصالح أيوب فقد راسلوا الفرنج ووعدهم الصالح إسماعيل إن هو ملك مصر أن يعطيهم الأعمال الساحلية كلها واقتتل الفريقان عند[1] غزة في مكان يقال له الفرما[2]، واعملوا القتل والأسر في الفرنج وأرسلوا رؤوسهم والأسرى على ظهور الجمال إلى مصر[3]، فزينت البلاد بالقاهرة والقلعتان قلعة الجبل وقلعة الجزيرة «وضربت البشائر أياما متوالية »[4].

من ذلك نرى أن الصالح أيوب أمتلك غزة والسواحل والقدس بفضل مساعدة الخوارزمية له، كما أنه أمتلك دمشق أيضًا فبعد انتصارهم له في غزة أرسلوا إليه يستأذنونه في محاصرة دمشق ومحاربة الصالح إسماعيل فأذن لهم سنة ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م فقطعوا الطريق ونهبوا وأطاحوا بكل ما في طريقهم وزحفوا عليها من كل ناحية [5].

ثم تغيرت العلاقات بين الصالح أيوب وبينهم فقد ظنوا أن السلطان إذا دخل دمشق فستكون مناصفة بينه وبينهم[6] فبدت أطماعهم تتجلى واضحة خاصة بعد ذلك

---

(١) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص ٣٠٢ - ٣٠٣.

(٢) الفرما: قرية كانت تعرف زمن الصليبيين باسم لافوربي وهي تقع في منتصف الطريق بين غزة وعسقلان وتعرف بقرية حربيا الآن - محمد مصطفى زيادة: حملة لويس التاسع، ص ٧٥.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨، ق١، ص ٧٤١ - ٧٤٧، النويري: نهاية الأرب جـ٢٩، ص ٣٠٢ - ٣٠٣، ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٧، ص ٣٥٤، ابن خلدون: العبر جـ٥، ص ٣٥٧ - ٣٥٨.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٥، ص ٣٣٩.

(٥) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق١، ص٧٥٢ - ٧٥٥، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٥، ص ٣٣٧، ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٧، ص ٣٥٢ - ٣٥٣، ابن الوردي: تاريخه جـ٢، ص ٢٤٩، النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص ٣١٠ - ٣١١.

(٦) عفاف صبرة: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ص ٢٩٦.

النصر الذي أحرزه الخوارزمية فانعقدت آمالهم على أن يحصلوا على الإقطاعات من أراضي مصر مقابل مساعدتهم للملك الصالح، لكنه أدرك خطورتهم فلم يسمح لهم أن يجتازوا حدود مصر فاتفقوا مع الأمير ركن الدين بيبرس الصالحي وهو أكبر أمراء الصالح أيوب والذي كان معتقلا معه بالكرك وكاتبوه أن يكون معهم يدًا واحدة على الصالح وزوجوه امرأة منهم وتقوى بهم كما إتحدوا مع الصالح إسماعيل واتفقوا جميعًا على حرب الصالح أيوب فلما علم بذلك قبض على بيبرس واعتقله(١).

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق١، ص ٧٦٠ - ٧٦١، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٥، ص ٣٤٩، أبو الفدا: المختصر جـ٣، ص ١٧٦، عفاف صبرة: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ص ٢٩٦.

الصالح أيوب وتكوين فرقة المماليك البحرية

كان لكثرة ما لاقي الصالح أيوب من هؤلاء الخوارزمية وما عاني من خيانتهم له تارة وتحالفهم مع أعدائه ومماليكه تارة سببًا قويًا في أن يفكر في استجلاب أعداد كبيرة من المماليك الترك[1].

وقد وجد تجار المماليك الفرصة سانحة لزيادة ثرواتهم نظرًا للخلاف الدائم بين أبناء البيت الأيوبي واحتياجهم المستمر لشراء المماليك لاستخدامهم في حروبهم مع بعضهم فكان السلاطين يشترونهم بأعداد تصل إلى الآلاف فإذا كانوا صغارًا تولت الحريم تربيتهم وإذا كانوا شبابًا يتدربون ويتعلمون وينشأون في القصر السلطاني ثم يعتقون ويتولون أعلى المناصب حاملين صفات الولاء والإخلاص لسادتهم وقد جاءت طائفة من الأتراك القفجاق إلى الشام ومصر في أواخر الدولة الأيوبية بيعوا بأبخس الأثمان ليزينوا المواكب ويساندوا في الحروب[2].

كما أدت الظروف السياسية في تلك الفترة إلى ازدياد أعداد المماليك في العصر الأيوبي فقد كان لظهور المغول وانتصارات جنكيزخان ملك التتار سنة ٦١٨هـ / ١٢٢٠ في وسط آسيا على قزوين وهزيمتهم للقبجاق والروس سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٢م وتشريدهم في الآفاق واستيلاء باطوخان ابن جنكيزخان على طوائف الترك المختلفة وتمكنوا منهم قتلاً وسبيًا ونهبًا سببا في جلب سبايا هذه الطوائف إلى الشام ومصر[3] فتكونت منهم المماليك العادلية والكاملية والأشرفية والمعظمية والناصرية والعزيزية[4] فقد كان الأسيويون يبيعون أولادهم لكي يقتاتون بثمنهم[5].

وجدير بالذكر أن تجار الرقيق في العصر الأيوبي كانوا لا يقومون بعملية

---

(١) ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص ٣٧٣.

(٢) العيني: عقد الجمان، جـ١، ص ٦٤ - ٦٥، عبد المنعم ماجد: طومانباي، ص ١٤ - ١٥.

(٣) ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص ٣٧٢ - ٣٧٣.

(٤) السيد الباز العريني: المماليك، ص ٤٠ - ٤١.

(٥) عبد المنعم ماجد: طومانباي، ص ١٤.

الخصاء للرقيق كما كانوا يفعلون من قبل لاستخدامهم في قصور الحريم فقد تغيرت الظروف السياسية نظرا لحاجة السلاطين إلى رجال أقوياء ليكونوا جنودًا شجعان يزودون عنهم ويعاونونهم في منافساتهم وحروبهم(١).

اشترى الصالح نجم الدين أيوب من هؤلاء المماليك أعدادًا كبيرة(٢)، حتى قيل أن أحدًا لم يشترى من المماليك مثله فقد ذاق مرارة غدر الأكراد والخوارزمية(٣) وكان يدفع في شرائهم الكثير من الأموال للتجار بلغت في بعض الأحيان أضعاف ثمنهم(٤) وأصبح «أكثر أمراء العسكر مماليكه »(٥).

وقد انفق الصالح أيوب عليهم الكثير من الأموال وسموا بالبحرية نسبة إلى بحر النيل، وتعددت التفسيرات في إطلاق اسم البحرية عليهم فذكر النويري أن تسميتهم بالبحرية نسبة إلى بحر النيل وقيل أنهم سموا بالبحرية لجلبهم عن طريق البحر صحبة تجار الرقيق(٦).

ولم يكن إطلاق لفظ البحرية جديدًا على العصر الأيوبي فقد عرفت المماليك البحرية العادلية – مماليك العادل الكبير والبحرية الظاهرية نسبة إلى الظاهر بيبرس ثم جاء عصر الصالح ليشهد تكوين البحرية الصالحية ثم يستعمل فيما بعد على إطلاقه عندما تقوم دولة المماليك البحرية تمييزًا لهم عن المماليك الجراكسة.

وعرفت مماليك الصالح أيوب أيضًا بالجمدارية(٧)، لأنهم كانوا يبيتون في القلعة

---

(١) نفسه، ص ١٤.

(٢) محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ١، ص ٧١، ابن تغرى بردي: النجوم، جـ٦، ص ٣١٩.

(٣) ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٧، ص ٣٠٠.

(٤) ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص٣٧٢.

(٥) محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ١، ص ٧١ وانظر ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٧، ص٣٠٠.

(٦) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص ٣٦١، العيني: عقد الجمان، جـ١، ص ٦٥.

(٧) عرف القلقشندي الجمدارية بأنهم خواص السلطان من مماليكه الأمراء وأرباب الوظائف «يسهرون بالنوبة بقسمة بينهم على بناكيم الرمل كلما انقضت نوبة قوم أيقظوا أصحاب النوبة الذين يلونهم ويتعانى كل منهم ما يشغله عن النوم فقوم يقرأون في المصاحف وقوم يلعبون بالشطرنج والأكل وغير ذلك » القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٤٩.

وحول دهاليز السلطان في السفر ممثلين حرسه الخاص[1].

وكان هؤلاء المماليك كثيرًا ما يضايقون أهل القاهرة فكانوا يقومون بنهب البضائع من الدكاكين مما تسبب في دعاء الناس على الملك الصالح بسببهم من ذلك أن أحد الشعراء تغنى قائلاً:

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ... الترك بدولته يا شر مجلوب

لا آخذ الله أيوبا بفعلته ... فالناس قد أصبحوا في صبر أيوب[2]

فلما زاد تعديهم على الناس بنى لهم قلعة بالروضة بجزيرة[3] بالقرب من المقياس وأسكنهم بها وسماهم المماليك البحرية وكانوا لا يخالطون الناس بالمدينة ولهم النفقات وجعل حول هذه القلعة المراكب الحربية المشحونة بالسلاح استعدادًا لملاقاة الفرنج في أية لحظة فيستقلون هؤلاء المماليك المراكب ويخرجون لقتالهم[4].

---

(١) المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص ٦٥٥، حاشية ٢.

(٢) ابن دقماق: الجوهر الثمين، جـ٢، ص ٣٧.

(٣) جزيرة الروضة من الجزر التي تقع في وسط النيل وكان يطلق على النيل البحر وهو دائر عليها من جميع الجهات وهي بين الفسطاط والجيزة وبطرفها من الجنوب دار المقياس وكانت بها البساتين الغناء والثمار وتحصن بها الروم عند فتح عمرو بن العاص مصر فلما طال حصارها وهرب الروم منها حزب عمرو بن العاص بعض ابراجها وأسوارها ثم عمر حصنها أحمد بن طولون سنة ٢٦٣هـ ليحرز فيها حريمه وماله عند قدوم موسى بن بغامن العراق ليلى مصر - ابن دقماق والانتصار جـ١، ص ١٠٩ وأقام الآمر الهودج لإحدى حظاياه ثم عمرها الأفضل أمير الجيوش في العصر الفاطمي ثم اشتراها الملك المظفر تقي الدين عمر شقيق صلاح الدين الأيوبي ثم أوقفها بالكامل عند ميسرة إلى الشام كرغبة صلاح الدين إلى أن استأجرها الصالح أيوب لمدة سنتين واستولى على ما فيها وقطع النخيل وجعلها لمماليكه وأسكنهم بها (نفسه ص ١٠٠) وأخفت شجر الدر جثة الصالح بحصن الروضة إلى أن تمت هزيمة الفرنسيين عند المنصورة سنة١٢٤٩م - دائرة المعارف جـ١٠، ص٢٣٩ - ٢٤٠.

Neil D,. Mackenzie - Ayyubid, Cairo, p.p. ٢٧ - ٧٧و

(٤) ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص ٣٥٦، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١، ق١، ص ٢٦٩ - ٢٧٠، وليام موير: تاريخ دولة المماليك، ص٣٧، والعبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص ٩٤ - ٥٩، محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ص ٢٢..

وقد اختلف المؤرخون في أعداد المماليك البحرية الصالحية فبعض المصادر تقدرهم بسبعمائة وخمسون، وقيل أنهم ثمانمائة[1] وقيل ألف من المماليك الأتراك[2].

ويذكر المقريزي أنهم كانوا جميعًا من الأتراك وقد دربهم الصالح تدريبًا عسكريًا رفيع المستوى فنشأوا في طاعته وأخلصوا له ودانوا بالولاء[3].

ويروي القلقشندي أن البحرية كانوا من خيار الترك اتسموا بالشجاعة والوفاء وعدم الغدر وقال أن منهم معظم جيش الديار المصرية وأن مصر امتلأت بهم ومنهم «أقمار مواكبها وصدور مجالسها وزعماء جيوشها وعظماء أرضها»[4].

كما يعرفهم عندما عرف الأجناد وأنواعها فقال أن الأجناد على طبقتين، الطبقة الأولى المماليك السلطانية، أما الثانية فهم أجناد الحلقة وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند، ثم قال ومن الجند طائفة ثالثة يقال لهم البحرية يبيتون بالقلعة وحول دهاليز السلطان في السفر كالحرس، وأول من رتبهم وسماهم بهذا الاسم السلطان الصالح نجم الدين أيوب[5].

ومن الملاحظ أن ابن خلدون قد دأب على إطلاق لقب موالي على المماليك حتى تولية تورانشاه فقد بدأ يطلق عليهم لفظ مماليك فمثلا أنه قال «ثم اختط قلعة بين سعي النيل إزاء المقياس واتخذها مسكنًا وأنزل بها حامية من مواليه فكانوا يعرفون بالبحرية»[6].

ويبدو أن ذلك بسبب شدة موالاتهم وارتباطهم بسيدهم واستاذهم الصالح نجم الدين أيوب حتى إذا جاء عهد ابنه بدأ يلقبهم بلقبهم الحقيقي وهو المماليك.

وكان لهؤلاء المماليك البحرية دور كبير ومؤثر في ازدياد قوة ونفوذ الملك

---

(١) المقريزي: السلوك، جـ٢، ق٢، ص ٣٤١.

(٢) ابن دقماق: الجوهر الثمين، جـ٢، ص ٣٧.

(٣) المقريزي: الخطط جـ٢، ص ٢٣٦ الباز العريني: المماليك، ص ٢٥٣.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٤٥٨.

(٥) نفسه، ص ١٥، ١٦.

(٦) ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص ٣٥٦، أنظر ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص ٢٤٨.

الصالح نجم الدين أيوب فقد حرسوا ملكه وثبتوا دعائمه لذلك ظهرت بسالتهم في التصدي لحملة لويس التاسع في المنصورة[1].

وعلى الرغم مما تمتع به هؤلاء المماليك من القوة وشدة البأس فقد كان للصالح أيوب عندهم مهابة عظيمة فقد قيل عنه «لا يجسر أحد أن يخاطبه ولا يتكلم ابتداء ولا يستعمل أحد من أهل دولته بأمر من الأمور إلا بعد مشاورته وكان إذا شاهده الترك يرتعدون مخافة منه ولم تقع له في حالة غضبة كلمة هجر وأكثر ما يشتم به يا متخلف»[2].

وإذا جلس بين مماليكه «لا يقدر أحد أن ينطق بحرف ولا ينقل قدم عن قدم ولا يلتفت يمينا ولا شمالاً وهم يرعدون منه هيبة وجلالة»[3].

---

(١) محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك، ص ١٦، ١٧.

(٢) مجهول: مخطوط شفاء القلوب، ص ١٠٤ - ١٠٥.

(٣) ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٧، ص ٣٧١.

المماليك البحرية والتصدي للحملة الصليبية السابعة

٦٤٧هـ / ١٢٤٩م

ظهر دور المماليك واضحا في التصدي للحملة الصليبية السابعة التي قادها الملك لويس التاسع ملك فرنسا وقد كانت هذه الحملة من اخطر الحملات الصليبية، على الشرق خاصة وأن القديس لويس جاء محاولا إعادة هيبة أوربا المسيحية، كما وجه اهتمامه إلى ضرب مصر التي استطاعت استرجاع بيت المقدس وتقليص مملكة بيت المقدس الصليبية وحصرها في عكا(١).

وكان إخلاص هؤلاء المماليك لمولاهم الصالح أيوب وإحساسهم بالمسئولية تجاه مصر التي احتضنتهم وتربوا في كنفها وحماستهم الشديدة للدين الإسلامي دوافع أساسية وراء استبسال هؤلاء للدفاع عنها.

فلم ييأس الصليبيون مما حل بهم من هزائم متكررة في الشرق فبعد هزيمتهم في دمياط ٦١٨هـ / ١٢٢١م عادوا إليها مرة أخرى سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م بقيادة لويس التاسع بعد أن تطايرت أنباء هزيمتهم سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م في القدس وسقوطها في يد الملك الصالح أيوب والخوارزمية إلى أوروبا وكذلك هزيمتهم عند غزة وتسليم بيت المقدس وما جرى لهم على أيدي الخوارزميين مما أثار الروح الصليبية في نفس لويس التاسع ملك فرنسا فقامت الدعوة للحملة السابعة بقيادته(٢).

وكان الإعتقاد السائد لدى الغربيين أنه ليس من طريق إلى الإستيلاء على بيت المقدس إلا بالاستيلاء على مصر أولا، التي تزعمت العالم الإسلامي والجهاد ضد الصليبيين في تلك الفترة ومن هنا قامت الدعوة لتلك الحملة التي تعددت أسباب قيامها وتكاتفت العوامل الجوهرية والثانوية لأخراجها إلى حيز الوجود والتنفيذ فكان تدهور أوضاع الأراضي المقدسة والمعاناة التي تعرض لها النصارى في تلك الفترة وفقدانهم لبيت المقدس سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤ علي يد الصالح أيوب والمعارك التي

---

(١) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٦.

(٢) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ١٠٠.

تلتها بين المسلمين والفرنج وأخذ طبرية وعسقلان منهم سنة ٦٤٥هـ / ١٢٤٧م على يد الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ موفدًا من الصالح أيوب والعذاب الذي تعرض له النصارى على يد الخوارزمية واشعال النيران في قبر المسيح أثار شعورا بوجوب الثأر لنصرانيتهم كذلك كان شفاء لويس التاسع من مرض عضال ألم به حافزًا له على التوجه لتخليص الأرض المقدسة اعترافًا منه بفضل الله عليه في الشفاء(١).

وتوالت وفود الرسل إلى الغرب في طلب النجدة وأرسل روبرت بطريرك بيت المقدس إلى أمراء الغرب سفارة برئاسة واليران Walleran اسقف بيروت يستحثهم على النهوض بحرب صليبية ضد المسلمين.

وتأكد عزم أوربا على إرسال حملة جديدة إلى الشام في مؤتمر ليون سنة ١٢٤٥م بزعامة البابا أنوسنت الرابع حيث ناقشوا الأوضاع في الأراضي المقدسة، وبدأ مسيحي أوربا يسترجعون حماستهم وبدأت الحملة للجهاد ونادى البابا بالغفران لكل من يشارك في تلك الحملة حاملاً الصليب لنصرة دينه، وقوض دعاة الحملة ارجاء أوربا كلها وخاصة فرنسا فقد أخذ ملكها لويس التاسع لواء قيادة تلك الحملة وعقد سنة ١٢٤٥م مجمعًا كبيرًا دعا إليه كبار رجال الدولة وكبار رجال الدين واثار مشاعر الناس بخطبة حماسية مدوية دعاهم فيها إلى حمل الصليب وشاركه أخوته الثلاثة روبرت كونت أرتوا وشارل كونت انجو والفونس كونت بواتييه وجوانفيل مؤرخ تلك الحملة وأحد كبار فرسانها كما شاركته زوجته مرجريت دي بروفانس واستأجر لويس التاسع عدد من السفن من جنوه ومرسيليا واشترى من قبرص ما يحتاجه جيشه من المؤن التي أعدت له عند مروره بالجزيرة التي التقت بها الجيوش الصليبية المشاركة(٢).

وخرج لويس التاسع من فرنسا سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م بعد أن حشد جنوده

---

(١) جوزيف نسيم: لويس التاسع في الشرق الأوسط، ص ٢٤ - ٢٧.

(٢) نفسه، ص ٢٧ - ٣٠.

وحمل الأموال الكثيرة[1] وشتى في جزيرة قبرص[2] وأرسى بعكا وجاءته الحشود من كل مكان وساروا قاصدين دمياط[3].

وكان اختيار ميناء دمياط لرسو الحملة فيه لأكثر من سبب، فقد كانت دمياط تتمتع بمركز جغرافي وتجاري وصناعي متميز مما جذب أنظار أهل الغرب إليها كما وأنها أقرب موانئ مصر إلى بيت المقدس وهي الهدف الأساسي الذي قامت من أجله هذه الحملة كما أنه قريبًا من القاهرة قلب مصر [4].

وصل الملك لويس التاسع بعساكره وجنوده إلى دمياط وخرج السلطان الملك الصالح إلى المنصورة بجنوده ودار القتال بين الفريقين واستطاع ملك فرنسا الإستيلاء على دمياط بعد أن أخلاها فسنحت الفرصة للصليبيين لتملكها [5]، وكان الصالح على المنصورة فلما علم غضب أشد الغضب وشنق من أعيان دمياط ستين شخصا [6] وقيل أربع وخمسون شخصًا صلبوا مرتدين ثيابهم[7] وهرب الباقون وقيل أن مماليكه خشوا منه بعدما أمر بقتل هؤلاء وأرادوا قتله لولا أن ابن الشيخ أقنعهم بالعدول عن ذلك لمرضه ولكن تلك المقولة تحتمل الشك ولا يمكن قبولها حيث أن هؤلاء المماليك كانوا يحبون استاذهم ويدينون له بالولاء والإحترام والإخلاص لسيدهم فبعد وفاته نقلوا جثمانه من قلعة جزيرة الروضة إلى تربته التي بنيت له عند مدرسته بين القصرين وأقاموا له العزاء بالقاهرة وذكر العيني أنهم قطعوا شعورهم حزنًا عليه «وعملوا له عزاء جديدًا»[8].

---

(١) ابن العبري: مرآة الزمان، ص ٢٩٣.

(٢) محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ٢، ص ٧٠ - ٧٠.

(٣) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، جـ٢، ص ٢٥٨ - ٢٥٩.

(٤) جوزيف نسيم: لويس اتاسع في الشرق الأوسط، ص ٣٦.

(٥) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص٣٣٤.

(٦) الحنبلي: شذرات الذهب، جـ٥، ص ٢٣٤.

(٧) العيني: عقد الجمان، ص ٣٧.

(٨) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ق١، جـ٨، ص ٧٧٣، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول جـ٢، ص ٢٥٩، ابن الوردي: تاريخه جـ٢، ص ٢٦٣.

ولبس جميع العسكر البياض ونزل المكان الأشرف والمعز من قلعة الجبل إلى التربة الصالحية ومعهما سائر المماليك البحرية والجمدارية والأمراء والقضاة والأعيان واغلقت الأسواق بالقاهرة ومصر وأقيم المأتم بالدفوف بين القصرين(١)، لذلك فمن الصعب تصديق أنهم أرادوا قتله لولا تدخل ابن الشيخ.

وقد اشتركت المماليك البحرية في صد حملة لويس التاسع على مصر كأحدى الطوائف التي شاركت في الدفاع عن مصر فقد كان هؤلاء البحرية بالنسبة للصالح أيوب «شوكة دولته وعصابة سلطانة وخواص داره»(٢).

وقد وصفهم جوانفيل أنهم «كتائب يستحب النظر إليها فقد كانت أسلحتها من الذهب إذا وقعت عليها الشمس كان لها بريق يخطف الأبصار وكان صوت طبولهم وأبواقهم يبعث الرهبة في قلوب سامعيها»(٣).

أما عن جند الحلقة فقد وصفهم جوانفيل بأنهم شبان صغار يحملون نفس أسلحة السلطان ويطلق عليهم البحرية وعندما تبدأ لحاهم في الظهور ينصبهم السلطان فرسانًا ويتخذون رنوكًا تشبه رنوك السلطان من الذهب الخالص مع إضافة قضبانًا قرمزية اللون محلاة بالزهور أو الطيور لتميزها عن رنوك السلطان(٤).

وفي اعتراف ضمني لجوانفيل بشجاعة هؤلاء المماليك وقوتهم في حروبهم بأنهم لم يكونوا ليستطيعوا الإستيلاء على دمياط إلا بالمجاعة مثلما حدث لجان دي بريين ملك بيت المقدس الذي شارك في الحملة الخامسة على دمياط سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م ولكن خدمه الحظ عندما أخلاها أهلها واضمر الترك النيران في أسواقها بعد أن جمعوا فيها كل ما خف حملة وغلا ثمنه وذكر أن تلك الخسارة كانت

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق١، ص ٧٧٣، الحنبلي: شذرات الذهب، جـ٥، ص ٢٣٧، المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص ٣٧١.

(٢) ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص٣٧٣.

(٣) جوانفيل: القديس لويس، ص٩١.

(٤) نفسه، ص١٣٧ - ١٣٨.

كبيرة[1]، وذلك يعد اعترافًا بأنه لولا أن الحظ خدمهم لما استطاعوا الإستيلاء على دمياط من الأهوال التي لاقوها بعد ذلك في حربهم مع المماليك والمسلمين[2].

ولما توفي الصالح أيوب بالمنصورة في ليلة النصف من شعبان سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م، لم تظهر زوجته شجر الدر شيئا ودبرت الأمور ولم تعلن نبأ وفاته نظرًا للظروف العصيبة التي كانت تمر بها البلاد وتواجد الصليبيين في دمياط فكان يمد السماط كل يوم وهي تعلن أن السلطان مريض ولا يجب أن يزوره أحد[3]، وتكتب المراسيم وعليها علامة الصالح فلا يشك أحد أنها علامته[4].

وأحضرت فخر الدين ابن الشيخ والطواشي محسنًا وعرفتهم بموته وكتموا الخبر وأحضروا الأمراء وحلفوهم للصالح ولإبنه من بعده[5] وارسلوا أقطاي [6] أحد المماليك البحرية في استدعاء ابنه تورانشاه من حصن كيفا فوصل دمشق بعد معاناة وأهوال كثيرة تعرض لها أقطاي ثم قام حسام الدين الهذباني بمصر بجمع باقي الأمراء وتقوية جأشهم واستحلفهم على الولاء والطاعة لتورانشاه [7].

---

(١) نفسه، ص ٩٦ - ٩٧ وأنظر ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٤٠ - ٢٤١ وللمزيد عن الحملة السابعة أنظر عبد الرحمن زكي: الجيش المصري في العصر الإسلامي، ص١٨٠ وما بعدها.

(٢) جوانفيل: القديس لويس، ص ٩٦ - ٩٧.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق١، ص٧٧٣، أبو الفدا: المختصر جـ٣، ص ١٣٩.

(٤) ابن الوردي: تاريخه، جـ٢، ص ٢٦٠.

(٥) مخطوط شفاء القلوب: مجهول، ص ١٠٤.

(٦) هو الأمير فارس الدين التركي الصالحي النجمي اشتراه الصالح بألف دينار وقد كان من أكابر أمراء البحرية وعظمائهم وكان متصفا بالكرم والشجاعة ولما اعتلى المعز أيبك السلطنة كان يغار منه لميل البحرية إليه فاستفحل أمره وأخذ من المعز الأسكندرية إقطاعًا وتزوج ابنه صاحب حماه وكان يتصرف في بيت المال فاتفق المعز وزوجته شجر الدر على قتله وقتل بالفعل في القلعة سنة ٦٥٢هـ - الذهبي: العبر، جـ٣، ص٢٦، ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص ٣٧٥ - ٣٧٦.

(٧) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق١، ص ٧٧٣، ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص٣٦ وقد لقب ابن خلدون الصالح بلقب سيد ملوك الترك لاستجلابه لهم ورعايته اياهم حتى أصبحوا ملوكا. نفسه وأنظر عقاف صبرة: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٤٠٨.

فلما تسرب نبأ وفاة الصالح إلى الفرنج تجرأوا وتقدموا من دمياط إلى فارسكور وواقعوا العسكر ثم نزلوا بقرية شرمشاح بالبرمون [1]، ثم إلى المنصورة وجرى بينهم وبين المسلمين وقعات كبيرة برز فيها دور البحرية الذين استبسلوا في القتال حتى استطاعوا أن يردوهم على أعقابهم وكان القتال مشتدًا برًا وبحرًا[2].

واستخدم المماليك النار الإغريقية[3] في حروبهم ضد الصليبيين، كما ذكر جوانفيل أنه عندما تم دفع مشاه المماليك ارتدوا إلى كتيبة كبيرة من المماليك الفرسان الذين جاءوا أمام معسكر الصليبيين لمنعهم من مهاجمة جيش المسلمين المرابط خلفهم فقام ثمانية من المماليك بإقامة المتاريس من الحجارة المصقولة، حتى لا يتمكن رماة السهام الصليبيين من إصابتهم وأخذوا يطلقون النار على معسكر الصليبيين وجرحوا الكثير من رجالهم وجيادهم [4]، وهذا اعتراف من مؤرخ الحملة ببسالة وشجاعة هؤلاء في مواجهة الأعداء.

وتعددت صور شجاعة هؤلاء المماليك في التصدي لأعداء الإسلام وشهد التاريخ ببسالة الدور الذي لعبه المماليك في مقاومة الصليبيين فذكر جوانفيل أن الكونت بواتييه والكونت فلاندر وبعض قادة قواتهم كانوا يرسلون إلى الملك لويس يتوسلون إليه أن «يقصر عن الحركة لعجزهم عن متابعته لضغط المماليك الشديد عليهم » [5].

. . . .

ويقول: «.. ثم جاء للكونستابل سر جندي كان يحمل صولجانا ويرتجف خوفًا وأخبره أن الترك قد أحدقوا بالملك وأنه في خطر عظيم فرجعنا فأبصرنا بيننا وبينه

---

(1) والبرمون بليدة ذات أسواق في كورة الغربية من أرض مصر في طريق الإسكندرية من الفسطاط. ياقوت: معجم البلدان، جـ٢، وأنظر المقريزي: الخطط جـ٢، ص ٢٣٦.

(2) الحنبلي: شذرات، جـ٥، ص ٢٣٨.

(3) وصف جوانفيل النار الأغريقية أنها «كأنما هي الدنان المشتعلة وذيولها من خلفها مثل الحراب الطويلة ودويها يشبه الرعد وكأنها جارح يشق الهواء ولها نور ساطع جدا من جراء عظم انتشار اللهب الذي يحدث الضوء » جوانفيل ص ١١٠ – ١١٢، ص ١٢٢،

(4) جوانفيل: القديس لويس، ص ١٢٨.

(5) نفسه، ص ١١٩.

مالا يقل عن ألف مملوك. والملك قريبا من النهر والمماليك يدفعون قواته ويضربون السيوف والصولجانات وأرغموا القوات الأخرى على التقهقر [١].

وحين علم لويس التاسع بوفاة السلطان الصالح أيوب طمع في البلاد وتقوى وزحف إلى فارسكور فتحالف المماليك على أن يكونوا كلمة واحدة على الجهاد في سبيل الله وركب بيبرس البندقداري والأمير لاجين وفارس أقطاي وبقية الأمراء ومعهم العربان والعوام والفلاحين ودار قتالاً استشهد فيه ستين أميرًا غير المماليك السلطانية والعربان والعوام وقتل أثنى عشر ألف من الفرنج[٢].

وذكر ابن أيبك أن المماليك الصالحية المعروفين بالبحرية كان لهم بلاءًا حسنًا في تلك الحروب التي كانت في منتصف شوال سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م[٣] وقد هاجم الفرنج مخيم المسلمين نتيجة لخيانة أحد الجواسيس الذي دلهم على طريق يسلكونه عبر بحر أشمون[٤] فهاجموهم وقتلوا الأمير فخر الدين بن الشيخ ووصل ملكهم إلى باب القصر الذي كان للسلطان الصالح[٥] فقامت المماليك البحرية وركب فارس الدين أبو الهيجاء وركن الدين بيبرس البندقداري في عدة من الترك وبددوا شمل هؤلاء الفرنج وقيل «والله لقد كنت اسمع زعقات الترك كالرعد القاصف ونظرت إلى لمعان سيوفهم وبريقها كالبرق الخاطف فلله درهم لقد أحيوا في ذلك اليوم الإسلام من جديد بكل أسد من الترك قلبه أقوى من الحديد فلم تكن إلا ساعة وإذا بالإفرنج قد ولوا على أعقابهم منهزمين وأسود الترك لأكتاف خنازير الإفرنج ملتزمين»[٦].

وقتل في تلك الساعة الفين وخمسمائة فارس من شجعان الفرنج هذا غير

---

(١) نفسه، ص ١١٩ - ١٢٠.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ٢، ق١، ص ٢٨٠.

(٣) ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٧، ص ٣٧٦ - ٣٧٧، إنظر ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص٣٧٤.

(٤) المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٣٤٩، الحريري: الأخبار السنية في الحروب الصليبية، ص٢٥٢.

(٥) جمال الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، جـ٢، ص ١٣٣ - ١٣٤، جوزيف نسيم: هزيمة لويس التاسع، ص ٥٠ - ٥١.

(٦) ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٧، ص ٣٧٦ - ٣٧٧.

الرجالة[1] وانتهت المعركة بالقضاء على الكونت ارتوا قائدها وشقيق الملك[2].

فقد أعمل المماليك الحيلة للقضاء عليهم فهاجموهم في معسكراتهم فلما أخذوا في مطاردة المماليك فر المماليك في حيلة او خدعة فاتجهوا يمينًا تجاه المنصورة ثم إلى ما وراءها من المزارع المؤدية إلى القاهرة ولما حاول جنود الصليبيين العودة أخذ المماليك يرمونهم بالقسي والسهام في شوارع المدينة الضيقة[3].

وكان بيبرس البندقداري قد رتب جنوده في المراكز المنيعة داخل المدينة فلما وصل الفرنج عند أسوار القلعة التي كانت مقرًا لقيادة المصريين خرج عليهم المماليك في الشوارع والحارات والدروب وقاتلوهم فلم يستطيعوا الفرار وكانوا يلقون بأنفسهم في النيل فيموتون غرقى[4]، فكان لهذه الخطة أبلغ الأثر في هزيمة جيش الصليبيين[5].

كما أنهم لم يتركوا الصليبيين يعودون إلى دمياط سالمين فأنزلوا بهم الهزائم وأسروهم حتى أنهم أسروا ملكهم لويس التاسع نفسه وسجن في دار فخر الدين إبراهيم بن لقمان[6] ووكل به الطواشي صبيح المعظمي حتى يدفع الفدية[7].

وتضمنت انتصارات المماليك على الصليبيين أنهم استطاعوا الإستيلاء على ثمانين سفينة من سفن الصليبيين بعد أن قاموا بسحب بضعة سفن من سفن المسلمين إلى اليابسة ثم أنزلوها ثانية إلى الماء على بعد فرسخ من شمال معسكرهم فاستحالت عودة الفرنج الذين ذهبوا إلى دمياط لجلب المؤنة وتم قتل جميع بحارة الثمانين سفينة[8]، كما استولوا على اثنين وثلاثين مركبًا مما أضعفهم وطلبوا الصلح

---

(١) نفسه، أنظر المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٢٣٦ – ٢٣٧، السلوك، جـ١، ق٢، ص ٣٥٠.

(٢) جمال الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، جـ٢، ص١٣٤.

(٣) جوانفيل: القديس لويس، ص ١١٤ – ١١٥.

(٤) السيد الباز العريني: مصر في عصر الأيوبيين، ص ١٤٦ – ١٤٧.

(٥) قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الإجتماعي، ص ١٠.

(٦) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٩، ١٠، عفاف صبرة: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٤ – ٨.

(٧) محمد بهادر : مخطوط فتوح النصر، جـ١، ص ٧٢.

(٨) جوانفيل: القديس لويس، ص ١٤١ – ١٤٢.

على أن يتسلموا القدس وبعض الساحل مقابل تسليم دمياط إلى المسلمين فلم يجبهم أحد[1] ولما تم أسر الملك والقبض على أمراء الفرنج هربت مراكبهم في البحر فتبعهم المسلمون وتمكنوا منهم[2].

---

(١) أبو الفدا: المختصر جـ٣، ص ١٤٠.

(٢) ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٧، ص ٣٧٩.

المماليك وتورانشاه

بعد وفاة الصالح نجم الدين أيوب أخفت زوجته نبأ وفاته إلا عن فخر الدين ابن الشيخ والطواشي محسناً اللذين احضرا الأمراء وحلفوهم لتوران شاه ابن الصالح(١).

وحلف المماليك وأرسلوا أقطاي أحد المماليك البحرية لاستدعاء توران شاه من حصن كيفا فسار ومعه خمسين من الأمراء ودخل تورانشاه دمشق ونزل القلعة وأنفق الأموال وأحبه الناس ثم رحل إلى مصر ففرح الناس به ونزل في قصر أبيه وأعلن رسميا وفاة الصالح أيوب وتسلطن وتولي مملكة الديار المصرية والشامية في ذي القعدة سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م(٢).

تباينت الآراء واختلف المؤرخون حول شخصية تورانشاه وتعددت أسباب قتله في نظرهم ولكنهم اجتمعوا على قتله على يد مماليك أبيه البحرية(٣).

لقد وصلت انتصارات المماليك البحرية على الصليبيين في المنصورة ثم في فارسكور إلى أوجها مما أدى إلى ازدياد شوكتهم وشعورهم بأنهم أصحاب ذلك النصر العظيم وأنهم أنقذوا البلاد من ذلك الخطر الكبير(٤) فازدادت قوتهم وتطلعهم إلى السلطة وكان انتصارهم هذا «بمثابة صرخة الميلاد لدولة سلاطين المماليك»(٥). لذلك ظهرت خشيتهم واضحة من ضياع ذلك النصر من بين أيديهم.

وذكر ابن تغرى بردي عن تورانشاه أنه لما وصل إلى المنصورة «فتح الله علي يديه ونصر الله الإسلام في يوم دخوله فتيمن الناس بطلعته»(٦).

---

(١) ابن الوردي: تاريخه، جـ٢، ص ٢٦٠، مخطوط شفاء القلوب: مجهول، ص ١٠٤.

(٢) مخطوط شفاء القلوب: مجهول، ص ١١٧ وأنظر المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٢٣٦، والسلوك جـ١، ق٢، ص٣٥٢ وابن دقماق: الجوهر الثمين، جـ٢، ص ٤٠، محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ١، ص ٧١.

(٣) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٢٣٦، ابن تغرى بردي: النجوم جـ٦، ص٣٦٤.

(٤) سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين، ص ١٦٩.

(٥) قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الإجتماعي، ص ١١.

(٦) ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، جـ٦، ص ٣٦٤.

فقد خشي المماليك على أنفسهم أذن من القوة الجديدة التي تحقق النصر بوصولها، وانقسم المماليك على أنفسهم، قسم يؤيد تورانشاه، وقسم يؤيد شجر الدر ويبدو أن الفريق الثاني تشكك في نوايا تورانشاه.

ومن هنا بدأ صراع القوتين قوة السلطان تورانشاه سليل الأسرة الأيوبية وما تحمله من تاريخ سابق مجيد لأجداده وقوة شجر الدر والمماليك البحرية وتطلعهم إلى السلطة وتخوفهم من أن ينقلب عليهم هذا السلطان ولا يتمتعون بالمراكز التي كانت لهم في عهد أبيه.

وإذا قمنا بتفنيد الأسباب التي أدت إلى قتله فلن نجد بينها سببًا واضحًا يستدعى قتل هذا السلطان بتلك البشاعة.

واختلفت آراء المؤرخين وتعددت حول أسباب قتل تورانشاه ونفور المماليك منه ومن هذه الأسباب:

١) أن هؤلاء المماليك خدموه أتم خدمة وأنتظروا مجازاتهم واعتقدوا أنه سيملأ فراغ والده ولكنه قدم أمراءه وتوعد مماليك أبيه - الذين رباهم كأولاده - وقطع أخبازهم ونهب أموالهم ولم يعمل بوصية أبيه تجاههم(١).

ولكن من غير المعقول أن يكون هذا سببًا كافيًا لقتل ابن استاذهم وسلطان مصر، فمن غير المستبعد أن يكون تورانشاه قد شعر بطمعهم في الإستيلاء على البلاد فلم يطمئن إليهم وقدم بطانته التي يثق بها وهذا أمر طبيعي أن أي سلطان جديد يقدم بطانته مثلما قام أبيه بشراء هؤلاء وقدمهم على العادلية والكاملية وأسكنهم القلعة وأنفق فيهم الأموال.

٢) وقيل من أسباب قتله أنه قدم عبدًا أسود نوبي الجنس وجعله أمير جانداره وأقطعه الإقطاعات العظيمة والمنح الكثيرة ولم يراع ما قاساه مماليك أبيه وخدمتهم لأبيه وحمايتهم له وزودهم عن البلاد فاتفقت المماليك البحرية على قتله(٢).

---

(١) ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٧، ص ٣٨١، النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص ٣٥٢ - ٣٥٣.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨، ق/ ١، ص ٧٨٢، أبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص ١٤١ وابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٤٨ - ٥٠ والمقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٢٣٧ =

على أن هذا أيضًا ليس سببًا لمعاقبته بالقتل فلكل سلطان الحرية المطلقة في اختيار أو تقريب ما يروق له من مماليكه.

٣) ويبدو أن أهم الأسباب التي ذكرت في قتله أن مماليكه أشاروا عليه بصلح الفرنج بعد أن كان ملكهم في يديه حتى لا يحتاج إلى شجر الدر أو مماليك أبيه لأنهم مسيطرين على الحكم وسولوا له أن هؤلاء هم أعداءه وإن في «صلح الملك وتركه وأخذ الأموال والجواهر صلاح الحال وتسليم دمياط» فشعر أمراء أبيه بتغيره عليهم واستهتاره بما قاسوه حتى وصلوا إلى هذا النصر على الصليبيين فدبروا قتله[١].

كما أنهم أفرجوا عن الملك وتم رحيله تحت سمعهم وبصرهم ولو لم يوافقوا على أخذ الفدية وتركه لما تركوه بعد قتل تورانشاه.

٤) وقيل أيضًا في أسباب قتله أنه كان قد وعد أقطاي حين ذهب إليه يستدعيه من حصن كيفا أن يؤمره ولم يف بوعده فحقد عليه أقطاي[٢] ولما ذكره بوعده على لسان بعض خواصه رد قائلاً «أعطيه جبًا مليحًا يليق به»[٣] فمن الجائز أن يكون تورانشاه كان سيفي بما وعد به لولا شعوره بطمع أقطاي وزملائه في الملك وتغيرهم عليه. كما أنه من غير المعقول الأخذ بالرأي القائل بأن من أسباب قتل المماليك له أنه «تعرض لحظايا أبيه»[٤] فلماذا حظايا أبيه وقد كان في عصر من الممكن الحصول فيه على أكبر عدد من المماليك والجواري والحظايا وكان طبيعيا أن لكل سلطان حظاياه فلم تكن ثروة ثمينة لا يستطيع الحصول على مثلها.

٥) وقيل أن من أهم أسباب قتله أنه طالب زوجة أبيه شجر الدر بمال أبيه

= والسلوك جـ١، ق ٢، ص ٣٥٨ والعين: عقد الجمان، ص ٢٠٢، ٢٣.

(١) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، جـ٢، ص ٢٥٩ - ٢٦٠.

(٢) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص ٣٦٠، المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص ٣٥٨.

(٣) ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٧، ص٣٨١ - ٣٨٢.

(٤) مخطوط شفاء القلوب: مجهول، ص ١١٧.

والجواهر[1] وما قيل عن تهديده أياها فخافت منه وكاتبت الأمراء وحرضتهم على التخلص منه[2]، واعتبار ذلك ضمن أسباب قتله، فمن الطبيعي عند انتقال السلطة من سلطان لآخر أن يطالب بأموال من سبقه وخزائنه لأنها للدولة وليست ملكا خاصًا له وكان تهديده لزوجة أبيه ناتجًا عن رفضها تسليمه الأموال والإستيلاء عليها ولا ننسي أن السلطان هنا كان أبيه.

٦) وكان حبه لشرب الخمر أحد تصرفات تورانشاه التي أثارت حنق المماليك البحرية عليه وذكرها معظم من أرخ لتلك الفترة، فقد كان يشرب الخمر حتى تدور رأسه ويأتي بالشموع ويسميها باسم مماليك أبيه ويطيح بها بسيفه وقد حذره أبوه في وصيته بترك شرب الخمر ولكن يبدو أنه لم يسمع النصيحة وقد جاء في الوصية: يا ولدى قلدت إليك أمور المسلمين فافعل فيهم ما أمرك به الله ورسوله يا ولدى إياك والشراب فإن جميع الآفات وما تأتي على الملوك إلا من الشرب[3].

٧) وذكر ابن العبري[4] أن أحد تصرفات تورانشاه التي أثارت حفيظة البحرية ضده حين علم أن الملكة زوجة الملك لويس التاسع المعتقل لديه ولدت له ابنًا في دمياط فسير إليها المعظم عشرة آلاف دينار ذهبًا ومهدًا للطفل ذهبيا وحللاً ملكية[5]، ويبدو أن هذا كان فيه نوع، من المغالاة فمن الممكن أن يكون أهدى للطفل مهدا وحللاً ولكن مسألة العشرة آلاف دينارا ذهبًا مشكوك في صحتها فقد تم الإتفاق على إطلاق سراح الملك مقابل خمسمائة ألف دينار [6].

---

(١) المقريزي: السلوك جـ١، ق٢، ص٣٥٦.

(٢) ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٧، ص ٣٨١ - ٣٨٢، النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص ٣٥٩ - ٣٦٠.

(٣) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص ٣٤٧.

(٤) استعمل ابن العبري لفظ العبيد بدلا من المماليك وأطلق على مماليك تورانشاه لفظ الصغر ومماليك الصالح أيوب لفظ العبيد الشيوخ، ابن العبري: مرآة الزمان، امتداد الجزء.

(٥) ابن العبري: مرآة الزمان ص ٢٩٤ - ٢٩٥.

(٦) جوانفيل: القديس لويس، ص ١٦١.

ويبدو أنه أراد بإرسال تلك الهدية أن يظهر له كرم المسلمين في معاملة الأسرى من الملوك أخذًا بقول رسولنا الكريم «إرحموا عزيز قوم ذل».

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن ما هي مجموعة الأسباب الحقيقية التي أدت إلى نهاية تورانشاه مقتولاً بتلك البشاعة على أيدي مماليك أبيه؟

بداية يجب أن نذكر حقيقة هامة وهي أنهم شعروا باختلاف شديد في معاملة السلطان لهم ومعاملة تورانشاه المختلفة فقد كان الملك الصالح يحب مماليكه ويهتم بهم ويغدق عليهم الكثير من الإنفاق وقد بلغ من شدة اهتمامه بهم أنه ذكرهم في وصيته لإبنه تورانشاه «الولد يتوصى بالخدم محسن ورشيد والخدام المقدمين لا تغيرهم. فما قدمت أحد من الخدام ولا من المماليك إلا بعد ما تحققت نصحه وشفقته. وأستاذ الدار وآمير جاندار تتوصى بهم وكذلك الحسام لا تغيرهم فإني أعتمد عليهم في جميع أموري » (١).

«وقد عينت في ورقة عند الأخ فخر الدين عشرين من المماليك تقدمهم تعطى كل واحد كوس (٢) وعلم وتحسن إليهم وتتوصى بالمماليك غاية الوصية. فهم الذين كنت اعتمد عليهم واثق بهم وهم ظهرى وساعدي. تتلطف بهم وتطيب قلوبهم وتوعدهم بكل خير. ولا تخالف وصيتي ولولا المماليك ما كنت قدرت أركب فرسي ولا أروح إلى دمشق ولا إلى غيرها فتكرمهم وتحفظ جانبهم»(٣).

من هذه الوصية نستطيع التأكد من أن الصالح أيوب كان قد تنبأ مبكرًا بالصدام الذي من الممكن أن يحدث بين إبنه وبين مماليكه الذين درس شخصياتهم وعرف حجم طموحاتهم واستشعر طمعهم في الحكم والدليل على ذلك أنه كثيرًا ما كان يطلب

---

(١) النويري: نهاية الأرب جـ٢٩، ص ٣٥٠.

(٢) الكوس من شعارات السلطنة والإمارة وهي صنوج من نحاس يدق في المواكب. نفسه حاشية ٣، ص ٣٥١.

(٣) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص ٣٥١.

منه الأمراء إحضار إبنه من حصن كيفا وكان يرد غاضبًا: أجيبه أقتله؟![1] و« اجيبه لهم يقتلوه»[2].

فقد كان ابنه شابا طموحًا ليس له عقل الشيوخ الراجح لذلك لم يعهد إليه بالملك صراحة حتى لا يستثيرهم ولكن وصيته له كانت دليلا على أنه عهد به إليه شفاهة لزوجه شجر الدر وكتب الوصية واخفاها فكل ما في الوصية يؤكد أنه سيلى الأمر من بعده كما أنه لم يتوقع أن مرضه سيؤدي به إلى وفاة سريعة فخشي غيرة مماليكه وآثر أن يظل هو السلطان القوي الذي يدينون له بالولاء والطاعة حتى آخر لحظة وليس كما قال المقريزي أن أبوه الصالح نجم الدين أيوب كان يكرهه[3].

وعن ذكر بعض المصادر أنه كان به هوج وخفة [4] وأنه لم يكن عاقلاً أو مدبرًا للأمور نجد البعض الآخر يصفه بأنه كان عالمًا حتى أن الشعراء أنشدوه التهاني «وجرت بين يديه مباحثات ومناظرات في أنواع من العلوم وكان السلطان المعظم قد مهر في العلوم وعرف الخلاف والفقه والأصول وكان جده الملك الكامل يحبه لميله إلى العلم ويلقى عليه من صغره المسائل المشكلة ويأمره بعرضها وامتحان الفقهاء بها في مجلسه»[5]. كما قال عنه الحنبلي أنه «كان قوى المشاركة في العلوم ذكيًا»[6].

إذن فكيف لهذا العقل الراجح والتفكير الذكي الذي تجلى في خطة كسر الطريق على سفن الصليبيين ومنعهم من العودة من دمياط بالمؤن لتجويع الصليبيين وحملهم على الإستسلام والتي وضعها بدقة تورانشاه، كيف لهذا العقل البارع أن يوصف بأنه أهوج؟؟ وكيف كان يدير الأمور بحصن كيفا؟؟ لقد كانت خطته التي نفذها ضد هؤلاء

---

(١) نفسه، ص ٣١٦.
(٢) مخطوط شفاء القلوب: مجهول، ص ١١٧.
(٣) المقريزي: السلوك جـ١، ق٢، ص ٣٤٢ حاشية ٥.
(٤) نفسه، ص ٣٥٣.
(٥) المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص ٣٥٣.
(٦) الحنبلي: شذرات، جـ٥، ص٢٤١.

الصليبيين هي التي انقذت البلاد منهم واجهزت على البقية الباقية من هذا الأسطول وعجلت بفرارهم وطلبهم الصلح فكانت بمثابة الضربة القاضية إلى الجيش الصليبي استطاع بها أن يمنع وصول الأقوات إلى القوات المقيمة جنوبي بحر أشمون فقد كانت السفن الصليبية تجلب المؤن والإمدادات من دمياط إلى المعسكر عن طريق النيل فأمر المعظم بصنع عدة مراكب وأنزلها في بحر المحلة خلف المعسكر الصليبي حتى يتمكن من عرقلة الفاتحين بأسطولهم وحالت هذه السفن بين مراكب الفرنج الآتية من الشمال وبين الوصول إلى معسكرهم عند المنصورة (١).

ومما يدل على أن تلك الوصية كانت قد كتبت أثناء مرض الصالح أنه قال: «والوصية بجميع الأمراء وأكرمهم واحترمهم وارفع منزلتهم فهم جناحك الذي تطير به وظهرك الذي تركن إليه، وطيب قلوبهم وزيد في اقطاعهم، وزيد كل أمير على ما معه من العدة عشرين فارسًا وأنفق الأموال، وطيب قلوب الرجال يحبوك وتنال غرضك في دفع هذا العدو»(٢).

فمن جملة «في دفع هذا العدو» نستطيع أن نستنتج أنها كتبت أثناء مرض السلطان الصالح وكان يقصد بالعدو الصليبيين ومنها نستطيع أن نتبين أنه درس شخصية هؤلاء المماليك دراسة وافية وعلم أن طمعهم بالمال لا يفوقه أي حد لذلك أوصاه بزيادة الإنفاق عليهم حتى يطيعوه وهذا الأسلوب هو الذي كان يتبعه الصالح معهم.

إذن فمن الراجح أن هؤلاء المماليك توقعوا بعد الانتصارات التي حققوها والصعاب التي واجهوها في سبيل تخليص البلاد من ذلك الخطر الصليبي وحفظ البلاد للسلطان في غيابه وحتى مجيئه وحلفهم له وتنصيبهم إياه سلطانًا على البلاد أن يقدر ذلك الجميل ويكافئهم كما تعودوا من أبيه (٣).

ولكن يبدو أن الأمر كان مغايرًا تمامًا لما توقعوه وبعد أن كان لهم الحل والعقد

---

(١) جوزيف نسيم: وليس التاسع، ص ٥٣ - ٥٤.

(٢) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص٣٤١.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق١، ص ٧٨٢ - ٧٨٣.

والأمر والنهي آثر مماليكه ودأب على تهديد هؤلاء ووعيدهم [١] فلم يستطيعوا تقبل الأمر كما هو فقتلوه.

وكانت تلك هي عادتهم أو ردود أفعالهم تجاه مواجهتهم لأي مشكلة فليس لديهم إلا القتل وظاهرة العنف التي اتسموا بها، فقد قاموا بقتل العادل الثاني من قبل وادعوا أنه كان سيقتلهم وتآمر عليهم[٢]، كما هموا بقتل الصالح استاذهم - إن صحت الرواية - بعد ضياع دمياط وغضبه عليهم لولا نصيحة الشيخ فخر الدين بن الشيخ لهم بأنه مريض وأن يصبروا عليه فسوف يموت حتمًا[٣].

وكانت أكبر أخطاء تورانشاه أنه أقام بنيابة السلطنة الأمير جمال الدين أقوش النجيبي [٤] بدلا من الأمير حسام الدين أبي على الذي كانت له هيبة في عهد الصالح وهو الذي كان قد أمر الخطباء بالدعوة لتورانشاه على المنابر يوم الجمعة بعد الدعاء لأبيه وأن ينقش اسمه على السكة بعد اسم أبيه وهو الذي حرض على استدعائه في سرعة حتى لا يتغلب الأمير فخر الدين على البلاد عقب وفاة الصالح[٥] فكان من الممكن أن يسانده ويتقوى به.

---

(١) ابن أيبك: كنز جـ٧، ص ٣٨١ - ٣٨٢، النويري: نهاية، جـ٢٩، ص ٣٥٩ - ٣٦٠.

(٢) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص ٣٢٩.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق١، ص ٧٧٣، الحنبلي: شذرات، جـ٥، ص٢٣٧.

(٤) العيني: عقد الجمان، ص ٢٢.

(٥) المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص ٣٤٥.

مقتل تورانشاه ونهاية الدولة الأيوبية

اجتمعت الأمراء البحرية واتفقوا على قتله وكان يوم قتله هو يوم الثلاثاء السابع والعشرين من المحرم سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م(١) وبينما هو جالس على السماط في فارسكور جاءه الأمير عز الدين أيبك(٢) التركماني وطلب منه شيئًا فرد عليه السلطان ردا لا يرضيه فاستل سيفه وضرب السلطان ضربة اتقاها بيده(٣) فقطعت أصبعه ودخل إلى برج خشب كان في خيمته وأقسم ألا يبقى أحدًا من البحرية واستدعى الطبيب ليخيط له يده فاجتمع البحرية واتفقوا على قتله وهجموا عليه شاهرين سيوفهم فهرب إلى أعلى البرج وأغلق عليه بابه فحرقوه بالنار فنزل من البرج وهرب إلى البحر فتبعوه وضربوه بالسيوف(٤) فألقى بنفسه في ماء البحر وهو يستغيث و«تعلق بذيل اقطاي واستجار به فما أجاره»(٥).

وظل يصرخ دعوني أعود إلى الحصن فوالله ما أريد الملك وهم لا يلتفتون إلى

---

(١) أبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص ١٤١، النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص ٣٦٠ - ٣٦١.

(٢) هو أيبك التركماني الصالحي التركي الملك المعز عز الدين أبو العز صاحب المعزية بمصر وهو أول ذكر تسلطن بمصر ممن مسه الرق وهو مملوك الصالح نجم الدين أيوب وترقت به الأحوال حتى جعله جاشنكيره وكان قد اشتراه في حياة أبيه الملك الكامل محمد وكان تركي الأصل والجنس وانتقل إلى ملك السلطان الصالح نجم الدين أيوب مع بعض أولاد التركماني فعرف بابن أيبك التركماني وترقى في الخدمة حتى صار أكبر الأمراء الصالحية وكان مشهورا بدينه وكرمه وجودة رأيه وقتل سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م علي يد مماليك زوجته. ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٨، ص١٢-١٣، الذهبي: العبر، جـ٣، ص٢٧٥، المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٢٣٧ - ٢٣٨، السلوك، جـ١، ق٢، ص٣٦٧ - ٣٦٩ وابن أياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٢٨٨ - ٢٨٩ وكان يلقب بالصالحي النجمي نسبة إلى الصالح أيوب استاذه. ابن تغرى بردي: المنهل الصافي، جـ١، ص٦.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق١، ص٧٨٢، أبو الفدا: المختصر جـ٣، ص١٤١، النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص٣٦٠، المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص٣٦٠.

(٤) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص٣٦٠، أنظر ابن الغوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٤٦ - ٢٤٧، ومخطوط شفاء القلوب: مجهول، ابن تغرى بردي النجوم، جـ٦، ص٣٧١.

(٥) نفسه: نفس الصفحات.

كلامه وصراخه وقتلوه في الماء فمات «قتيلا حريقًا غريقًا» واختفي أصحابه الذين أتوا معه من الشرق[1].

وبقى ملقى على الأرض ثلاثة أيام انتفخ ثم دفن[2] بعد أن شفع فيه رسول الخليفة[3].

فكانت مدة سلطنته بالمنصورة نحو أربعين يوما لم يدخل فيها إلى القاهرة ولا طلع قلعة الجبل ولم يعتلى سرير الملك[4].

وقيل أن قتله كان قصاصا من أبيه الصالح الذي بعث إلى محسن الخادم أن يأخذ معه من المماليك من يخنق العادل أخيه ورفض جميع المماليك إلا هؤلاء الأربعة الذين باشروا قتل تورانشاه[5].

وقيل أن بعد قتله ثار أسرى الفرنج بمصر وفكوا قيودهم من أرجلهم واعملوا القتل في الكثير فأحاط بهم العسكر وقتلوا الكثير منهم وزاد عدد قتلاهم على ثلاثة عشر ألف أنسان[6].

وبوفاة تورانشاه انقضت دولة بني أيوب[7] بعد أن أقامت أحدى وثمانين سنة وسبعة عشر يوما وملك منهم ثمانية ملوك[8] وكان تورانشاه آخر من تولى السلطنة من بني أيوب[9] على أن بعض المصادر ذكرت أن الدولة الأيوبية انتهت بخلع شجر الدر[10].

---

(١) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص ٣٦٠ - ٣٦١، أنظر سبط ابن الجوزي مرآة الزمان جـ٨، ق١، ص٧٨٢، ابن العبري: مرآة الزمان، ص ٢٩٤ - ٢٩٥، ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص٣٦١، المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص٣٦٠.

(٢) الذهبي: العبر، جـ٣، ص٢٦١، ابن دقماق: الجوهر الثمين، جـ٢، ص٤٢ ابن تغرى بردي: النجوم، جـ٦، ص٣٧١، الحنبلي: شذرات الذهب، جـ٥، ص ٢٤١.

(٣) المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص٣٦١.

(٤) ابن أياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص ٢٨٥.

(٥) ابن تغرى بردي: النجوم جـ٦، ص ٣٧٢.

(٦) ابن الغوطي: الحوادث الجامعة، ص ٢٤٧.

(٧) العيني: عقد الجمان، ص ٢٧ - ٢٨، المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٢٣٦ - ٢٣٧.

(٨) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٢٣٦، ابن تغرى بردي: النجوم، جـ٦، ص٣٦٤.

(٩) ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٢٨٥.

(١٠) الجبرتي: عجائب الآثار، جـ١، ص٥١.

المرحلة الإنتقالية

سقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك الأولى

بعد وفاة تورانشاه أجمع المماليك على أن يقيموا شجر الدر سرية أستاذهم في السلطنة وحلفوا لها واتفقوا على اختيار الأمير عز الدين أيبك التركماني الصالح أحد البحرية أتابك لها وقالوا: «هذا متى أردنا خلعه أمكننا ذلك بسرعة» فدبرت الأمور وأنفقت الأموال على هؤلاء المماليك «حتى أرضت الكبير والصغير منهم بكل ما يمكن وساست الرعية أحسن سياسة»(١).

وخطب على منابر الإسلام لشجر الدر أم خليل حظية الصالح نجم الدين أيوب وللأمير أيبك التركماني أتابكًا لها وتحالف الأمراء على ذلك، وكانت «علامتها تخرج على التوقيع وهي مبجلة عند الجميع وكل من للبحرية لها مطيع»(٢).

وقد دعوا لها في الخطبة وكان الخطباء يقولون بعد الدعاء للخليفة المستعصم بالله واحفظ اللهم الجهة الصالحة ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح خليل أمير المؤمنين»(٣).

وضربت السكة باسمها وكان ينقش عليها «المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل فقد كانت ولدت للملك الصالح ولذا يدعى خليل

---

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ص٥١، العيني: عقد الجمان، ص ٢٩، المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٢٣٧، ابن تغرى بردي: المنهل الصافي، جـ١، ص٦، ابن اياس: بدائع الزهور جـ١، ق١، ص٢٨٦، علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص٢٩.

(٢) أبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص١٤٢، ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٧، ص٣٨٣، أنظر النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص٣٦٢، الذهبي: العبر، جـ٣، ص٣٦١، ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٢٨٥، بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية ص ٢٧.

(٣) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٢٤٧.

سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م ولكنه مات صغيرا وكانت توقع والدة خليل[١] تحرجا من ابراز اسمها مكشوفًا حتى لا تستثير شعور المسلمين الذين لم يتعودوا أن تحكمهم امرأة فقد اعتبر اسم المرأة عورة في ذلك العصر كما أن شعورها أنها دخيلة على البيت الأيوبي وليس لها حق شرعي في الحكم جعلها تحرص على التلقب بلقب «أم خليل الصالحية» فانتسابها إلى ابنها يظهر صلتها القوية بالبيت الأيوبي وكذلك انتسابها إلى الصالح يعطيها الشرعية[٢].

ولم يتقبل الناس تولية امرأة على السلطنة فأرسل أهل سوريا إلى الخليفة العباسي في بغداد يشكون إليه تولي إمرأة أمور الملك فكتب إليهم ما معناه «إذا لم يكن بينكم من يصلح للسلطنة أقدم إليكم فاقيم عليكم من يحكم فيكم» [٣].

وقال لهم «إن كانت الرجال عدمت عندكم فاعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً[٤]». وذلك لأن أمر المسلمين لا يناط بامرأة وخاصة إذا كان ذلك الأمر يتعلق بأمور الحكم والسياسة.

فاضطرت إلى التنازل عن الملك للمعز أيبك وتزوجها [٥] فكانت سلطنتها وليدة للظروف التي احاطت بمصر في ذلك الوقت ومساندة مماليكها ومماليك زوجها الصالح وليس لرغبة الناس الحقيقية في توليتها كما أنها جاءت عن غير رضا الخلافة العباسية لأن الأمامة من ولاية أمر المسلمين يجب أن تكون لرجل [٦].

---

(١) أبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص١٤٢، ابن الوردي: تاريخه، جـ٢، ص٢٦٢، النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص٢٧٦، وأنظر ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص٣٧٤، لينبول: سيرة القاهرة، ص١٧٥.

(٢) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ١٣.

(٣) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص٣٦٣، الحريري: الأخبار السنية في الحروب الصليبية، ص٢٥٥ – ٢٥٦، العبادي: قيام دولة المماليك، ص١٢٣، محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك، ص٢٥ – ٢٦.

(٤) المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٣٦٨ – ٣٦٩.

(٥) النويري: نهاية الأرب، جـ٩، ص٣٦٣.

(٦) العبادي: قيام دولة المماليك ص١٢٣، جمال الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، ص ١٥١.

وبعد زواجها من المعز أيبك اعتلى السلطنة سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م[١] وتعتبر فترة سلطنة شجر الدر بمثابة مرحلة انتقالية تمهيدية أو مرحلة وسط بين سقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك الأولى واعتبر المؤرخون المعز أيبك التركماني أول سلاطين هذه الدولة[٢].

ويذكر أبو الفدا أنه تزوجها سنة ٦٥٣هـ / ١٢٥٥م أو التي قبلها سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م على حين يذكر المقريزي أنه تزوجها سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م وذكر سنة ٦٤٩هـ / ١٢٥١م والأرجح أنه سنة ٦٥٢هـ كاتفاق أبا الفدا وابن أيبك المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة[٣].

وكان إجماع الأمراء على توليته السلطنة سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م إرضاءً للملوك الأيوبيين ومنهم الناصر صاحب الشام والمغيث صاحب الكرك اللذان اعترضا على تولية شجر الدر وقالوا بوجوب بقاء الملك في البيت الأيوبي فولوه السلطنة [٤]، على أن يكون اتابكًا للأشرف موسى ابن يوسف صاحب اليمن المعروف باقسيس بن الكامل بن العادل أبي بكر بن أيوب[٥].

لعب المماليك دورًا بارزًا في تسطير نهاية كل من المعز أيبك وشجر الدر فقد طمع المعز أيبك في السلطنة وأصبح له الأمر النافذ، وكان الظاهر بيبرس وفارس الدين أقطاي يخلصان في خدمته في الوقت الذي أضمر لهما الغدر هما وخوشداشيتها ولما شعر الظاهر بيبرس بذلك حذر فارس الدين أقطاي حتى وقع ما خاف منه فاتفق المعز مع الأمير سيف الدين قطز[٦] مملوكه وجماعة من مماليكه على قتل أقطاي

---

(١) بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية في الدولة التركية، ص ٢٦، أبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص١٤٣.

(٢) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ٢٩٥.

(٣) أبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص١٩٠ – ١٩١، ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٨، ص ١٣.

(٤) ابن أيبك: كنز الدر، جـ٨، ص١٣.

(٥) ابن الوردي: تاريخه، جـ٢، ص ٢٦٥.

(٦) هو محمود بن مودود ابن أخت خوارزم شاه من أولاد الملوك سمي سيف الدين قطز وكان مملوكا للمعز أيبك وقد تولى سلطنة مصر بعد قتل أيبك وكان سيق ضمن الرقيق بعد قضاء المغول على=

واستدعاه إلى القلعة فضربه قطز بالسيف وساعده جماعة من المماليك وهو خارج من قاعة العمد بالقلعة، وغضب الظاهر بيبرس وجماعته لما علموا بقتل أقطاي وذهبوا إلى القلعة فألقيت إليهم رأس أقطاي ففزعوا وفروا إلى الشام وقبض على مماليكهم الباقية وامتلأت بهم السجون(١).

ثم حدثت الوقيعة بين شجر الدر والمعز أيبك وكان للمماليك دور كبير في الوقيعة بينهما فلما قبض المعز أيبك على عدة من البحرية واعتقلهم بقلعة الجبل وفيهم أيدكين الصالحي فلما وصلوا تحت الشباك الذي كانت تجلس فيه شجر الدر تكلم معها أيدكين بشمقدار بالتركي قائلاً: «والله ياخوند ما علمنا ذنبا يوجب مسكنا إلا أنه لماسير يخطب بنت صاحب الموصل ما هان علينا لأجلك فإنا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم فلما عتبناه تغير علينا وفعل بنا ما ترين» فأومأت شجر الدر إليه بمنديل يعني «قد سمعت كلامك» فلما نزلوا بهم إلى الجب قال ايدكين «أن كان حبسنا فقد قتلناه»(٢).

وكان هذا المملوك وزملاؤه دارسين لشخصية شجر الدر ويعلمون تمامًا أنها لن تتركه ولن تقبل خيانته تمر دون عقاب فعلموا وتنبأوا مسبقًا أنهم انتقموا منه وأنه حتمًا مقضيًا عليه.

فلما تأكدت شجر الدر من خبر خطبته لأبنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل(٣)، وقيل لها أيضًا أنه أرسل يخطب ابنة الملك المنصور بن المظفر صاحب حماه(٤) فأرسلت إلى الملك الناصر يوسف بالهدايا وأبلغته أنها نوت قتل المعز والزواج منه

= الدولة الخوارزمية وجاء إلى مصر وترقى في سلك الجندية وكانت أمه أخت السلطان جلال الدين خوارزمشاه. السيوطي: حسن المحاضرة، جـ٢، ص٣٨ – ٣٩، وجمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، جـ٢، ص١٦١ – ١٦٢.

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الظاهر، ص ٥٢ – ٥٤.

(٢) المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص٤٠١ – ٤٠٢.

(٣) أبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص١٩٢، ابن دقماق: الجوهر الثمين، جـ٢، ص ٥٥.

(٤) المقريزي: السلوك جـ١، ق٢، ص٢٩٨، ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص٣٧٧.

وتمليكه مصر، ولكنه خاف أن تكون خدعة منها فلم يرد عليها وأرسل بـدر الـدين لؤلؤ صاحب الموصل يحذر المعز من شجر الدر ويعلمه بما جرى بينهما فغضب لذلك واضمر لها الشر وكان مستاءًا من تصرفاتها واستبدادها بأمور الملك وعدم مشاركته لها في الأمور الهامة [1] وعدم تمكنه من التصرف في شيء إلا بإذنها[2]، كما أنهـا أجبرته على طلاق زوجته أم ابنه علي وكان قد طلب منها الإطلاع على ذخائر الملك الصالح فرفضت[3].

ولما أحست شجر الدر من زوجها المعز أيبك الغدر أوعزت إلى مماليكها بقتلـه والتخلص منه فقتلوه في الحمام سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م[4] فلما علم مماليكه بـذلك صمموا على الانتقام منها فاحتمت بدار السلطنة وحماها الأمـراء الصـالحية مـن مماليك المعز ثم أخرجت إلى البرج الأحمر بقلعة الجبل والملك المنصور علـي ابـن المعز ووالدته يحرضان المماليك المعزية على قتلها حتـى تمكنـوا منهـا فقتلوهـا ورموها في خندق [5]. فأكلت منها الكلاب سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م[6] ثم حملت إلى التربة التي بنتها لنفسها قرب مشهد السيدة نفيسة فدفنت بها[7].

وبذلك أدى طموح تلك المرأة التي اعتلت سلطنة أكبـر دول العـالم الإسـلامي وأثرت في أحداثها وتمكنت بمقدرة فائقة من إدارة دفة أمورها في أحرج لحظاتها إلى القضاء عليها بطريقة مأساوية نتيجة اصطدام طموحها وشخصيتها القوية بمحاولـة زوجها إيجاد مكانا له على المسرح السياسي، تلك الشخصية الغريبة التي رفضت أن

---

(١) المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص٤٠١ - ٤٠٢.

(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، جـ٢، ص٢٦٠.

(٣) المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص٤٠١ - ٤٠٢.

(٤) ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص٢٧٩ - ٢٨٠، ابن تغرى بردي: المنهل الصافي جـ١، ص١١.

(٥) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، جـ٢، ص٢٦١، الذهبي: العبر، جـ٣، ص٢٧٦.

(٦) الذهبي: العبر، جـ٣، ص ٢٧٦.

(٧) أبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص١٩٢، ابن الوردي: تاريخه، جـ٢، ص٢٨٠، ابن تغرى بـردي: المنهل الصافي، النجوم: جـ٦، ص ٣٧٧.

تتنحى وتعيش في الظل وتترك العنان للرجل الذي جعلت منه صورة ولها الحكم والقوة فسطرت بذلك نهاية دولة وبداية دولة جديدة من الأرقاء أدت في نهايتها إلى تسليم حكم مصر للأتراك العثمانيين.

وقد اجتمع المؤرخون على أنها امرأة من طراز غير عادي ولها إمكانيات خاصة حيرت حتى أعداءها فقد فعلت ما عجز عنه «فحول الحاكمين»[١] وكانت مشهورة بجمال طبيعي أخاذ[٢] جعل منها أثيرة لدى زوجها الصالح الذي ذكرها في وصيته لإبنه أن لها «على من الحقوق والخدمة مالا أقدر أصفه أرعي جانبها وأكرمها واحترمها وأرفع منزلتها فهي عندي بمنزلة عظيمة. وكنت طيب القلب بصحبتها آمنا على نفسي من جهتها فاجعلها لك مثل الوالدة، واجتهد في اتصال الراحة إليها وطيب قلبها وأجعلها حاكمة على جميع أمورك وأموالك ولا يبدو منك كلمة تضيق صدرها ولا توجع لها قلبًا أبدًا ولا من يتعلق بسببها ولا من يضيق صدرها بسببه. ولا تخرج عن رأيها وتدبيرها. وهذه وصيتي فلا تخالف أمري واخدمها كما تخدمني وأحترمها كما تحترمني، ولا تجعل على يدها يد والوصية بجميع العيال أحسن إليهم فلهم على خدمة»[٣].

إذن فقد علم الصالح شخصيتها وتأكد أنه لا يمكن أن يأمن على أبنه إلا بإطاعته لها وقد صدق حسه فكانت «صعبة الخلق شديدة الغيرة قوية البأس ذات شهامة زائدة وحرمة وافرة»[٤].

فلما رأت أن تورانشاه سوف ينافسها - وقد كانت تعتقد أنها سوف تجعل منه صورة ليس أكثر وتسيطر عليه فخاب أملها وأوعزت إلى البحرية بقتله فكانت «داهية الدهر لا نظير لها في النساء حسنًا وفي الرجال حزمًا»[٥].

---

(١) جوزيف نسيم: هزيمة لويس التاسع، ص ٢٩.

(٢) ابن العبري: تاريخ الزمان ص ٢٩٥، الذهبي: العبر جـ٣، ص ٢٧٦.

(٣) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص٣٤١ - ٣٤٢.

(٤) ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ص٩١، أنظر ابن تغرى بردي: النجوم جـ٦، ص٣٧٤.

(٥) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، جـ٢، ص٢٥٩.

وقيل عنها كانت «سكرانة من خمرة العجب والتيه»[1]، «وقد نالت من الدنيا مالم تنله إمرأة قبلها ولا بعدها»[2].

وهكذا تضافرت العوامل المختلفة لإسقاط الدولة الأيوبية، فكان تقسيم صلاح الدين لتلك المملكة بين أولاده وإخوته واقاربه، قد أدى إلى تنافسهم وتحاسدهم، فتفككت عراهم وكان لتملك الصغار منهم وإقامة أوصياء عليهم من المماليك الأقوياء والإستكثار من هؤلاء المماليك لاتخاذهم أعوانًا وتدخلهم في شئون البلاد مما أتاح لهؤلاء أواخر أيام الدولة الأيوبية أن يصبحوا شوكة قوية في ظهر تلك الدولة، بعد أن كانوا سوسًا ينخر في عظامها ببطء حتى أنهم لم يستسيغوا أن يتولى توارنشاه السلطنة فقتلوه واستولوا على الملك، فكان شبابه وطموحه حجر عثرة في سبيل تحقيق حلم هؤلاء في الإستقلال بحكم البلاد فما لبث أن اصطدم بقوتهم وانتهى الصدام بمصرعه بطريقة مأساوية وهو ما تنبأ له الصالح أبيه من قبل فرفض مجيئه وابعده منذ البداية خوفًا عليه وتحسبًا لذلك الصدام.

فكان سقوط تلك الدولة وقيام دولة المماليك استجابة لظروف العالم الإسلامي في منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي).

لقد قامت دولة المماليك في مصر في ظروف سياسية شديدة التعقيد فحركة الجهاد كانت تتطلب مواصلة الجهود لتطهير البلاد من العدو الغاصب مما حتم ضرورة نقل السلطة من الدولة الأيوبية التي انهكت قواها خلال ظروف الجهاد والتنافس على السلطان حتى لم يبق بعد وفاة الصالح أيوب من يستطيع تحمل المسئولية، ومن ثم انفض المماليك ليجدوا لهم دورًا في مواصلة الدور الذي قام به الأيوبيون العظام فأقاموا دولتهم وأثبتوا جدارتهم في حمل الأمانة ومواجهة الأخطار التي داهمت العالم الإسلامي متمثلة في الصليبيين والمغول[3].

---

(١) ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٩١.

(٢) نفسه، ص٢٩٥.

(٣) فتحية النبراوي: العلاقات السياسية وصراع القوى، ص٢٧٧ - ٢٧٨.

الفصل الخامس

الفصل الخامس

الدور الإجتماعي للمماليك في العصر الأيوبي

- نظم تربية المماليك في العصر الأيوبي
- العلاقة بين المماليك
  - العتق
  - العلاقات والروابط بين المماليك
  - علاقة المملوك بالأغا
  - رابطة الخشداشية
  - النزاع بين الفرق المملوكية
- المماليك والمجتمع المصري
- الجواري في العصر الأيوبي
- الوظائف والمهن التي تقلدها المماليك
  - المماليك السلطانية – أجناد الحلقة
  - مراسم التأمير
  - أنواع الوظائف والمهن التي تقلدها المماليك
- دور المماليك في إقامة المنشآت والمؤسسات
  - المساجد – الخوانق – الأربطة – الزوايا – الدروب – الحمامات – المدارس – الخانات – القياسر والأحكار

الفصل الخامس

الدور الإجتماعي للمماليك في العصر الأيوبي

عاش المماليك في مصر، وتربوا على أرضها واهتم بهم السلاطين فتربوا تربية خاصة تركزت على الجانبين الديني والعسكري فنشأوا على الولاء والإخلاص لهم وأسهموا في تشكيل الجيوش من أجل ذلك أنفق السلاطين الأموال الطائلة في جلبهم وشرائهم من أسواق تجارة الرقيق بل أن السلاطين تنافسوا في شرائهم ليتقووا بهم ويدعموا مراكزهم في البلاد.

ولم يقتصر شراء المماليك على السلاطين فحسب بل شاركهم الأمراء في إستجلابهم والإستعانة بهم.

وتتحدث المصادر الإسلامية عن مماليك الأمراء ومماليك العوام، الذين اختلفوا عن المماليك السلطانية، ذلك أن مماليك السلطان كانوا يرتبطون به ويقيمون معه في القاهرة باعتبارهم حرسه الخاص.

وقد استمر ورود المماليك إلى مصر واعتماد السلاطين عليهم حتى خلال العصر الأيوبي كله وكثرت أعدادهم واشتركوا في الحروب التي خاضتها الدولة، ومع ذلك يظل الدور الإجتماعي لهم محدودًا وفي نطاق ضيق يتلمسه الدارس في حياة المماليك أنفسهم وعلاقاتهم بالدولة، ثم علاقتهم بالشعب، تلك العلاقة التي تأرجحت بين الحب والكراهية والإحترام والإزدراء والتعاطف والبغض.

ولا يزال أمام الباحثين جهدًا كبيرًا للكشف عما غمض من دور إجتماعي قام به المماليك في مصر على الرغم من طول الفترة الزمنية التي عاشوها بين أبنائها إلى أن تم القضاء عليهم أو على معظمهم إلى أن تلاشوا بذوبانهم في المجتمع المصري.

وفي البداية يجب أن نقرر أنه ليس من المتيسر دراسة عادات هؤلاء المماليك وحياتهم وتربيتهم دراسة عميقة فقد أغفلت مصادر تلك الفترة إلى حد كبير دراسة الناحية الإجتماعية لهؤلاء في تلك الفترة ولم تشرح لنا تلك المصادر الطرق التي نهجها الأيوبيون في تربية وتنشئة مماليكهم ولكننا يمكننا الإعتماد على ما أورده

المقريزي عن نظم الدولة المملوكية نفسها في تربية مماليكها وقيل «أن ترتيب الديار المصرية مأخوذ عن ترتيب الخلافة ببغداد وترتيب الخلفاء الفاطميين بمصر ثم ترتيب الدولة الأيوبية وقد انتقى ملوك الدولة التركية من مجموع مذهب أولئك أحسنه وأبهجه حتى صارت أحسن الممالك ترتيبًا وأبهجها منظرًا وأجملها هيئة»(١).

ويمكننا أن نستنتج أن ما استقر في دولة المماليك إنما أسس على ما كان سابقًا في مصر على عهد الأيوبيين، وبذلك تكون المعلومات التي أوردها المقريزي قوية بوجهة النظر الخاصة بذلك، وهي أن ما كان في دولة المماليك إنما يمتد أصله إلى دولة الفاطميين ومن بعدهم الأيوبيين(٢).

ويمكن القول أن الفاطميين هم أول من وضع نظامًا دقيقًا لتربية المماليك، تأسيسًا على ما كان معروفًا في دولة بني العباس أيام المعتصم كما استخدمهم بعد ذلك الطولونيين والأخشيديين إلا أنهم كانوا يشترونهم كبارًا مدربين لكي يستخدموا في تعضيد قوة جيوشهم، فكونوا منهم الفرق العسكرية المختلفة وبذلك اختلف الوضع مع الفاطميين الذين استخدموا أعدادًا ضخمة من المماليك ليلتحقوا بالخدمة في القصور وفي الجيوش، فمنهم من جاء بطريق الشراء ومنهم الأطفال الصغار أسرى الحروب وهم الذين يطلق عليهم المقريزي اصطلاح الترابي إذ يقول «يدفع بهم إلى الأستاذين فيربونهم ويتعلمون الكتابة والرماية ويقال لهم الترابي ومنهم من صار أميرًا من صبيان خاص الخليفة»(٣).

ويذكر القلقشندي أن الدولة الأيوبية عندما قامت على أنقاض دولة الفاطميين غيرت الكثير من نظمها وسارت على نظم الدولة الزنكية بالموصل والشام أي دولتي عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود(٤) اللذين سارا على أنظمة الدولة السلجوقية فقد ابتكر السلاجقة ذلك النظام حيث كان المماليك الأتراك يتولون قيادة

---

(١) مؤلف مجهول: مخطوط شرح اللمعة من أخبار المعز، ص١٢.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٩٤، ١٠٧، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص٥ - ٦.

(٣) المقريزي، جـ٢، ص١٩٤.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص٥ - ٦.

جيوشهم. هؤلاء الذين كانوا يشترونهم من الأسواق ويعتنقون الإسلام ويعيشون في بلاط الخليفة أو السلطان فينشأون نشأة إسلامية على يد أمـراء السـلاجقة نتيجـة اختلاطهم بهم وفي حال ظهور شيء من النجابة على أحد هؤلاء أو أظهر الإخلاص والولاء عمد سلاطين السلاجقة إلى تقليده أعلى المناصب ومكافأته بإقطـاع لأحـد أقاليم الدولة السلجوقية[1].

كما كانوا يعهدون إلى مثل هؤلاء بتربية أبنائهم وكان السلطان إذا عـين أحـد أبنائه على ولاية من الولايات أرسل معه هذا التركي ليرعاه ويسـدى لـه النصـح وسرعان ما أصبح هؤلاء من أصحاب النفوذ الفعلي في تلك الولايـات فيسـيطرون على مقاليد الأمور فيها[2] ويطلق على هذا المربي لفظ الأتابك[3].

فلما انتقلت السلطة إلى الأيوبيين أكثروا من شراء المماليك الترك فاستعان نور الدين وصلاح الدين بجنود مدربين من المماليك، واستكثر الصالح نجم الدين أيـوب من شراء المماليك الترك خاصة وبني لهم الثكنات في قلعة الروضة التي أنشأها سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م بتلك الجزيرة وقام بتجهيز هذه القلعة على مستوى عـالٍ جدًا وزودها بكثير من الأسلحة والآلات الحربية وأنشأ فيها جامعًا وحصنها بالأبراج التي بلغت ستين برجًا. ولما تم بناؤها انتقل للإقامة بها واصطحب معـه أفـراد أسـرته ومماليكه الذين أطلق عليهم اسم المماليك البحرية ومن ثم اتخذها مقرًا للملك[4].

وكان المماليك المستخدمين قبل عصر الصالح أيـوب مـن الجنـد المرتزقـة

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ١، ص ٩٤، القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص٥ - ٦، حافظ حمدي، الدولة الخورازمية ص ١٠٠.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٨٤.

(٣) حسن الباشا: الفنون الإسلامية، جـ١، ص٣، وفيه توضيح لكلمة أتابك التي تتألف من كلمتـين تركيتين هما «أطا& بمعنى أب و«بك» بمعنى أمير وأول من لقب بها الوزير نظام الملك حينْ عهد إليه السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوفي أمر تدبير المملكة.

(٤) المقريزي: خطط، جـ٢، ص١٨٢، ٢٣٥، ٢٣٦، محمد محمد أمين علي، السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، رسالة ماجستير جامعة القاهرة، ص ١٦٦، ستانلي لينبول، طبقـات سـلاطين الإسلام، ص ٧٨.

المحاربين كبار السن الذين أتقنوا فن الحرب نتيجة خوضهم الكثير من المعارك ولكن الصالح نجم الدين أيوب استجلب المماليك صغار السن فأقام لهم في جزيرة الروضة نظامًا يتضمن تربيتهم تربية خاصة وكان يغدق عليهم الكثير كلما تقدموا في تدريبهم ويشجعهم ثم يمنحهم العطايا بمقدار ما يظهرون من ولائهم له(١).

وعلى ذلك يمكن القول أن الصالح أيوب هو أول سلطان اهتم بتربية مماليكه منذ الصغر فنشأوا على الولاء والإخلاص له وأظهروا كفاءة عسكرية شهدت بها المصادر المعاصرة لموقعة فارسكور سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م عند انتصارهم على الصليبيين وأسر ملكهم لويس التاسع(٢).

وقد تطور ذلك النظام بعد الصالح أيوب فأصبح من حق كل من يتقدم من الأمراء أن يستجلب لحسابه الخاص مماليك ويدين هؤلاء وصاحبهم للسلطان بالولاء وعرفوا وانتسبوا لأسماء أصحابهم وإذا ما تحول صاحبهم الأصلي عن ولائه للسلطان تحول مماليكه معه لأنهم كانوا يجهلون ولاءهم الثاني فكانوا يحاربون في صف صاحبهم دون أن يعرفوا مع من أو ضد من يحاربون(٣) فقد كان يغرس في المماليك الإرتباط الشديد بأستاذهم أي شاريهم الأصلي(٤).

وقد نشط تجار الرقيق في استجلاب الكثير من الرقيق لإرضاء سلاطين مصر الذين كانوا يتهافتون على هذه البضاعة ويدفعون فيها الأموال الطائلة وكان كل سلطان وكل أمير يحاول تقوية مركزه بالإكثار من شراء المماليك(٥).

كان المماليك ينتسبون إلى أساتذتهم أي سادتهم الذين اشتروهم من التجار وأشرفوا على تربيتهم مثل المماليك الصالحية نسبة إلى الصالح أيوب، والظاهرية

---

(١) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، من المقدمة ص٣٥، ٣٦.

(٢) محمد محمد أمين علي: السلطان الملك الصالح نجم الدين، ص ١٦٦.

(٣) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، من المقدمة ص ٣٦، أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الإجتماعي ص٤٠٨ - ٤٠٩.

(٤) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الإجتماعي ص ٤٠٨.

(٥) سعيد عاشور، عبد الرحمن الرافعي: مصر في العصور الوسطي، ص ٤٢٨.

نسبة إلى الظاهر بيبرس، والأشرفية خليل نسبة إلى الأشرف خليل وأحيانًا ينسب المملوك إلى التاجر الذي جلبه أو الثمن الذي دفع فيه إذا كان ذلك الثمن كبيرًا من باب الفخر فقد كان يعني ذلك أن هذا المملوك يحمل الصفات المتميزة والمواهب المتعددة مثل قلاوون الألفي الذي اشترى بألف دينار فانتسب إلى الثمن الذي دفع فيه(١).

وكان عدد المماليك الذين يحق للأمير أن يلحقهم بخدمته محدودًا بحسب رتبته ومكانته، وليس من حق الأمير طرد المملوك من خدمته إلا بعد موافقة نائب السلطنة وبعد وفاة الأمير أو عزله ينتقل مماليكه إلى خدمة السلطان أو إلى أمراء آخرين أو يوزعون بين الفريقين(٢).

وكان مماليك السلطان يقيمون بالقاهرة وكانت أعدادهم تتكاثر حين يضم إليهم مماليك أسلافه من السلاطين أو من يغضب عليهم من كبار الأمراء، ولكننا نلاحظ أن العلاقة بين السلطان والمماليك الذين اشتراهم وأشرف على تربيتهم عادة ما تكون أقوى من العلاقة بينه وبين غيرهم من المماليك وكان السلاطين يهتمون اهتمامًا خاصًا بتربية هؤلاء لأنهم كانوا بمثابة الحرس السلطاني الخاص لهم ويعرفون بالخاصكية(٣) وكانوا «أعظم الأجناد شأنًا وأرفعهم قدرًا واشدهم إلى السلطان قربًا وأوفرهم اقطاعًا»(٤).

وكان السلطان يمنحهم في كل شهر راتبًا نقديًا أو عينيًا من اللحوم والتوابل والخبز والعلف والزيت وكلما ترقى الأمير المملوكي من أمير عشرة إلى أمير مائة

---

(١) نفسه، ص ٤٢٨.

(٢) عبد الكريم رافق، بلاد الشام ومصر ص ١٨.

(٣) المقريزي: السلوك، جـ٢، ق١، ص١٢٢، حاشية ٢، وقاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الإجتماعي، ص١٩-٢٠، وعبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر ص١٥.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ١٥.

أو أمير ألف أو غيرها من الرتب المختلفة يزداد اقطاعه[1]، ولم يكن ذلك متاحًا لمماليك الأمراء فقد كانوا يظلون أرقاء طوال حياتهم أما مماليك السلطان فلم يكن باب الترقي مفتوحًا أمامهم إلا إذا أعتقهم السلطان وانضموا إلى الحرس السلطاني أو إلى وظائف البلاط[2].

وكان الأمراء الكبار ولاة الأقاليم يمتلكون أعدادًا من المماليك تصل إلى عشرة مماليك لكل منهم[3].

ولم يكن الرق وحده كفيلاً بنجاح المملوك فقد تمتع مماليك السلاطين والأمراء بميزات لم تكن متاحة للمماليك الذين يمتلكهم العوام، ومع ذلك فكان مملوك الأمير أقل مكانة من مملوك السلطان، وكان من سبل معاقبة المماليك السلطانية نقلهم إلى خدمة الأمراء، وكان من المعروف أيضًا أن مماليك الأمراء يتحولون عادة إلى خدمة السلاطين إما نتيجة لمصادرة أساتذتهم أو تولية أحد هؤلاء الأساتذة السلطنة ومن الأمثلة على ذلك أن الظاهر بيبرس البندقداري الصالحي أصله من مماليك الأمير ايدكين البندقداري الصالحي وانتقل مع غيره إلى خدمة الصالح أيوب بعد مصادرة ايدكين[4].

وكان السلطان عندما يحصل على مماليك سلفه الذي توفي أو عزل أو قتل بالقسر أو بالشراء يطلق عليهم لفظة قرانصة أو قرانيص أو قرانص أو المماليك السلطانية[5]. أما مماليك الأمراء الذين يتوفون أو يغضب عليهم أو يقتلهم فيسمون سيفيه[6].

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٢١٥، قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الإجتماعي ص١٩، ٢٠، علي إبراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية ص ٣٣.

(٢) علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص٣٣، ٣٤.

(٣) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٢١٧.

(٤) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٣٠٠، السيد الباز العريني: المماليك، ص١٣٠ - ١٣١.

(٥) ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك ص ١٣.

(٦) نفسه، ص ١٣.

واختلف المؤرخون في تسمية أولاد الناس فقيل أنهم أبناء المماليك الذين ولدوا في مصر ولم يمسهم الرق فعرفوا في مصطلح ذلك العصر باسم «أولاد الناس» وكانت مكانتهم الإجتماعية أقل من المماليك وغالبًا ما كانوا بعيدين عن الحياة السياسية والعسكرية ويعيشون حياة عادية فلم يكن لآبائهم وقت لرعايتهم فكانوا ينشأون في حجور الحريم يلعبون الألعاب المختلفة كالفروسية والكرة ورمي الرمح والنشاب أو يحضرون مجالس العلم وكان بعضهم ينضم إلى الحلقة ليكون من جنود الجيش ويتجهون للناحية الثقافية فمنهم من برع في تدوين التاريخ مثل «ابن أيبك الدوادار» و«خليل بن شاهين الظاهري» و«صارم الدين بن دقماق» و«ابن تغرى بردي» و«ابن إياس» وغيرهم(١).

وجدير بالذكر أن تجار المماليك في تلك الفترة كانوا من الأجانب الأوروبيين من النصارى أو اليهود أو أحيانًا من الإيرانيين ويدلنا على ذلك اللقب الذي أطلق عليهم وهو «خواجه» أو «الخواجا» أو «الخواجكية» وفسره القلقشندي أنه يعني التجار الأجانب(٢).

نظم تربية المماليك في العصر الأيوبي:

يبدو أن الأيوبيين قد اتبعوا في تربية المماليك ما كان سائدًا في مصر في عصر الفاطميين ويمكن أن نستنتج أنهم أضافوا ما رأوه مناسبًا لعصرهم في تربية مماليكهم. فقد كان هؤلاء المماليك بعد أن تتم عملية شرائهم يوضعون في أماكن خاصة سميت بالطبق أو الأطباق ومفردها طبقة أو طبق وهي المدارس العسكرية، وكانت تلك الطباق أغلبها بالقلعة والبعض منها في أماكن متفرقة بالقاهرة وقد بلغ عددها اثنى عشر طبقًا أو أكثر.

وكان البعض منها يشبه حيًا كاملاً ويحتوي على ألف مملوك وكانوا يعرفون

---

(١) قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الإجتماعي ص ٢٥، أحمد الهواري: الرواية التاريخية في الأدب العربي ص ٨٩.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٦، ص١٣، ٦٩، ٧٣.

بإسم مماليك الطباق أو الكتابية أو كتابية ومفردها كِتابي وأطلق عليهم تلك التسمية لأنهم يتعلمون فنون الكتابة والحرب بها ولم يكن جميعهم يذهبون إلى الطباق بل منهم من يلتحق مباشرة بخدمة السلطان ويتربى مع أبنائه تربية خاصة وأحياناً كان السلطان نفسه وكبار الأمراء يرسلون أبنائهم إلى تلك الطباق ليتعلموا فيها(١). وكان لتعدد جنسيات المماليك أن وضع كل منهم مع من هم من نفس جنسه(٢).

وقد عنى السلاطين بتربية مماليكهم وفق نظام خاص حتى يضمنوا رقيهم في مختلف النواحي الثقافية بمدارس خاصة لتعليم القراءة والكتابة ومختلف العلوم بما فيها الفقه والفلسفة والرياضة بالإضافة إلى الفروسية وفنون الحرب ولكن من الملفت أن بعض هؤلاء المماليك بقي أميًا ولم يهتم بإستعمال اللغة العربية في حياته الخاصة والعامة حتى أن بعض السلاطين لم يكن يستطع كتابة اسمه(٣). وكان التعليم بهذه الطباق يمر بثلاثة مراحل: المرحلة الأولى وهي مرحلة الصغر إلى سن البلوغ وهي التي يوضعوا فيها في ثكنات بعيدة عرفت بالطباق تحت إشراف الأغوات فيلقنونهم تدريبات رياضية ويتعلمون القراءة والكتابة وآيات القرآن والفروض الدينية ويتعودون على تأدية الصلاة ويحفظون بعض الأدعية لتلاوتها في مناسباتها ويربون على التخلق بالأخلاق الحميدة(٤).

والمرحلة الثانية تبدأ من سن البلوغ وفيها يعامل المملوك بمنتهى الشدة فلا يغفر له أي خطأ ويعاقب عقابًا صارمًا ويقسمون إلى عدة طوائف يتولى كل طائفة أحد المعلمين المتميزين يمرنهم على السباحة في الماء واللعب بالسيف والضرب بالرمح(٥)، والقذف بالأطواق وركوب الخيل والعدو على ظهورها والمبارزة ورمي

---

(١) ماجد: طومان باي، ١٩ - ٢٠، عبد الرحمن زكي: الجيش المصري، ص ١٠.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٢١٣.

(٣) ويليام موير: تاريخ دولة المماليك في مصر، ص ١٨٨، علي إبراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية، ص ٣٨، قارن جوانفيل، حياة القديس لويس، ص١٣٧، ١٣٨.

(٤) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٢١٣، عبد الرحمن زكي: الجيش المصري ص ١٤.

(٥) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٢١٣، عبد الرحمن زكي: نفسه، ص ١٤.

النشاب ولعب الكرة وأحيانًا تكون على ظهور الخيل وفي وقت الفراغ من الممكن أن يدرس المملوك الأدب أو غيره من العلوم أو دراسة الشعر(١).

والمرحلة الثالثة ولا تتحدد بسن وتعتمد أساسًا على المواهب التي تبرز للمملوك والمهارات التي تلاحظ عليه من شجاعة وحسن البلاء فيكافأ بالعتق ويلحق بإحدى الوظائف ويكتب له إقطاعها - وهو عبارة عن جزء من الأرض يستغله كما يشاء أو يفرض له على مال معين، ويمنح خيلاً وقماشًا ليبدأ به حياة حرة جديدة ويترقى في سلك وظائف الجندية حتى يبلغ مبلغ الإمارة فيمنحه السلطان لقبها ثم يترقى إلى أن يصل إلى أعلى المناصب في الدولة وفي هذه الفترة وحتى يعتق لا يسمح له بالنزول إلى المدينة أو الإختلاط بأهلها ولا الزواج(٢).

وقد أثرت الحياة في تلك الطباق على شخصية المملوك تأثيرًا كبيرًا فقد جمعت تلك الطباق بين طوائف من المماليك اختلفت جنسياتهم برغم سيادة العنصر التركي الآتي من بلاد القفجاق ولكنها جميعًا حكمت تحت نظام تربوي صارم كان له أهمية كبيرة في حياة المملوك ومستقبله كما كان لتلقيهم أصول الدين الإسلامي في الطباق وابتعادهم عن أوطانهم ودياناتهم الأولى أثرًا كبيرًا في إخلاصهم لخدمة الدولة الإسلامية ودفاعهم عنها وقد تجلى ذلك في حروبهم مع الصليبيين والتتار كما كان لزمالتهم في الرق والتعليم والعتق أثره في إرتباط مماليك الطباق بعضهم ببعض دونًا عن المماليك الآخرين الذين لم ينشأوا في الطباق(٣).

وكانت تمنح المكافآت المجزية للمملوك الذي يتقن فنًا من الفنون أو عملاً من الأعمال وتكون تلك المكافأة بالترقي في الوظائف والرتب وما يترتب على ذلك من زيادة الرواتب والعطايا إلى أن يمنح إقطاعًا من الإقطاعات(٤).

وكان هناك أساتذة متخصصون يشرفون على تعليم هؤلاء المماليك في الطباق

---

(١) عبد الرحمن زكي: الجيش المصري في العصر الإسلامي، ص١٤ ١٥.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٣) السيد الباز العريني: المماليك، ص٢٥٦ - ٢٥٧.

(٤) نفسه: ص ٢٥٧.

وكان المماليك يدينون لهم بالإحترام الشديد وكان التصوف منتشرًا بين المماليك حديثي الإسلام وكذلك خدام الطباق أو الطواشي أو الأغوات الذين يشرفون على تربيتهم ويبدو أن الإشراف العام على الطبق يكون لشخص يطلق عليه مقدم الطباق من حقه أن يعاقب المتمردين منهم وكان يتمتع بشخصية قوية وكان الإشراف العام على كل الأطباق لأمير من أمراء المماليك وهو مقدم المماليك وله نائب يحاسب مقدموا الطباق(١).

وكانت هناك أنظمة دقيقة مفروضة على هؤلاء المماليك في الطباق فيمنعون من الخروج من الطباق(٢) وخاصة في الليل ويتعين عليهم ارتياد الحمام يومًا في الأسبوع وأكلهم عبارة عن اللحم والأطعمة والفواكه والحلوى والفول المسلوق ويتسلمون كسوات فاخرة وتصرف لهم رواتب شهرية تتراوح بين ثلاثة إلى عشرة دنانير في الشهر(٣). وكانت تفرض عليهم عقوبات صارمة إذا ارتكب أحدهم خطأ أو خرج عن الأنظمة الموضوعة لهم وكان السلطان يتفقد أحوالهم من حين لآخر(٤).

وكان لمماليك الطباق إسطبل خاص بهم لاهتمام السلاطين بالفروسية واستجلابهم أجود أنواع الخيول من البحرين أو من برقة(٥).

وكانت الدراسة في الطباق تمتد لأربعة أو خمسة عشر شهرًا أو أحيانًا إلى عدة سنين بعدها يعتق المملوك وكانت المماليك تعتق بالحلبة في احتفال خاص يحضره السلطان والأمراء ويمنح المملوك شهادة تسمى شهادة إعتاق أو عتاقة يسلم بعدها سلاحًا وفرسًا ولباسًا خاصًا واقطاعًا يبقى له مدى الحياة ويلقب بعدها عتيقًا أو معتوقًا ويطلق على معتقه أستاذه. أما رفاقه المتخرجون معه يسمون خشداشية مفردها خشداش. وكان هؤلاء المماليك المتخرجون يقسمون أقسامًا لكل جماعة منهم

---

(١) ماجد: نظم الدولة سلاطين المماليك، ص١٥ - ١٦.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٢١٣.

(٣) ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك، ص١٧.

(٤) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٢١٤.

(٥) ماجد: طومان باي، ص٢٠ - ٢١.

باش أو نقيب أو منهم الذي كان مقربًا من السلطان فيصل إلى مرتبة الإمـــارة دون التقيد بالرتب التي يجب أن يتدرج فيها قبل أن يصل إلى هذه المرتبة[١].

وكان السلاطين يعيشون مع مماليكهم في القلعة لذلك اشـتملت علـى الـدور السلطانية ودار العدل وقصور السلطان والبساتين وقصور الحريم فضلاً عن الطبـاق والإصطبلات[٢] وذلك في قلعة الجبل وكذلك كان الحل في قلعة جزيرة الروضة فقـد سكنها الصالح أيوب مع مماليكه البحرية مما يدل على تطابق الأنظمة في الـدولتين وكان بها المرافق الكاملة والقصور والبساتين، وأنشأ بها الصالح جامعًا وستين برجًا وجهزها بالأسلحة والآلات الحربية والدور السلطانية وكانت مقرًا للملك[٣].

وكانت مجموعات المماليك تشكل كل منها جماعـة منغلقـة لا تخـتلط ببقيـة المجموعات الأخرى، ويصبح كل هدفها حماية مصالحها الخاصة[٤] وكانت الجنـود السلطانية في العصر الأيوبي والمملوكي على طبقتين مماليك سلطانية وأجناد الحلقة وهم عدد كبير وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعممين وغيرهم بواسـطة النزول عن الإقطاعات[٥]، و« لكل أربعين نفسًا منهم مقدم فهو ليس له عليهم حكـم إلا إذا خرج العسكر في الحرب كانت مواقفه معهم وترتيبهم في مواقفهم إليه»[٦].

فكان هؤلاء المماليك نتيجة لاهتمام السلاطين بهم أنهم أصبحوا «سادة يدبرون الممالك وقادة يجاهدون في سبيل الله وأهل سياسة يبـالغون فـي إظهـار الجميـل ويردعون من جار أو تعدى»[٧].

كما ذكر الحسن بن عبد الله أنه «لما ركب الله فيهم من السر الإلهي والعنايـة الربانية ملكهم بلاده وعباده وجعهلم حضنة بيته وخدام حرمه ونصرة دين رسـوله

---

(١) ماجد: نظم سلاطين المماليك ص١٧ – ١٩.

(٢) الباز العريني: المماليك ص ٢٠٢.

(٣) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، من المقدمة ص ٣٥.

(٤) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الإجتماعي ص ٤٠٩.

(٥) المقريزي: السلوك، جـ١، قسم٢، ص٢٨١ حاشية٥.

(٦) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٢١٥-٢١٦.

(٧) المصدر السابق، ص٢١٤.

محمد ﷺ محافظين على كتابه وسنته منفذين أحكام شريعته ملازمين على طاعته وخصصهم بخصائص نالوا بها الحظ الأوفى فتقربوا بها إليه زلفى ومنهم المماليك الصالحية النجمية مثل الملك المعز أيبك وأقطاي والملك المظفر قطز»[١].

ومما يدل على أن هؤلاء المماليك كانوا موضع عناية وعطف ورعاية سلاطين مصر وصية كتبت عند بيع بعض المماليك من السلطان لمقدمهم جاء فيها «ليحسن إليهم، وليعلم أنه واحد منهم ولكنه مقدم عليهم، وليأخذ بقلوبهم مع إقامة المهابة التي يخيل إليهم أنه معهم وخلفهم وبين أيديه، وليلزم مقدم كل طبقة بما يلزمه عند تقسيم صدقاتنا الجارية عليه، وليكن لأحوالهم متعهدًا ولأمورهم متفقدًا، وليستعلم أخبارهم حتى لا يزال منها على بصيرة ويتعرف ما هم عليه مما لا يخفى عليه فإنهم إن لم يكونوا أهلاً فإنهم جيرة.. ليفرق فيهم ما لهم من الكساوي ويسبل عليهم رداء الشفقة.. وليحمل النظر في أمر الصغار منهم والكبار أصحاب الطبقات العالية.. وليوصي مقدميهم بتفقد ما يدخل إليهم فإن الغش أكثره من الطعام أو الشراب»[٢].

---

(١) الحسن عبد الله: آثار الأول في ترتيب الدول، ص ١١٧.

(٢) ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص٩٨ - ٩٩.

العلاقة بين المماليك

تأثرت شخصية المملوك تأثرًا كبيرًا بالرق والتطورات التي يمر بها أثناء استرقاقه وتحوله من ديانته الأصلية إلى الإسلام وانتقاله من مرحلة إلى مرحلة حتى يصل إلى سلك الجندية، وتسهم سنوات الرق في تكوين شخصية المملوك وبالتالي تحديد علاقته مع الآخرين لا سيما زملائه المماليك الذين ربطت بينهم ظروف الرق والعتق والتربية[1] والخدمة، وتحدد إطار علاقاته وخاصة علاقة المملوك الكبير والصغير والتي تتشابه كثيرًا مع روابط البنوة أو الأخوة ولم يتعود المماليك الحياة العائلية ولم يكن لهم أي روابط من ذلك النوع فانعدم لديهم الارتباط الأسري[2].

ومصطلحات المجتمع المملوكي تبين مدى تأثير سنوات الرق على علاقة المملوك بأستاذه الذي يعتبره والدًا له وكذلك ورد لفظ الأغا[3] بمعنى الأخ الأكبر والآني[4] بمعنى الأخ الصغير كما ورد لفظ خشداش[5] وهو يرادف لفظ أخ وكان يطلق على الزملاء في الرق والعتق.

---

(١) السيد الباز العريني: المماليك، ص٢٥٧، أحمد عبد الرازق: العلاقات الأسرية في المجتمع المملوكي، بحث منشور بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد الثالث والعشرون سنة ١٩٧٦م، ص ١٥٥ والمماليك ومفهوم الأسرة لديهم بحث في مجلة كلية الآثار جامعة القاهرة العدد الثاني، سنة ١٩٧٧م، ص ١٨٨.

(٢) قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر، ص٢٥، ٢٦، وأحمد عبد الرازق: العلاقات الأسرية، ص١٥٥.

(٣) أغا أصلها أقا وهي من كلمات اللغة المغولية ومعناها الأخ الأكبر وترد كثيرًا في تاريخ المغول وقد دخلت هذه الكلمة في اللغة الفارسية واستخدمها الكتاب الذين جاؤوا بعد غزو جنكيزخان وجمعها أقان أو أقايان، أحمد عبد الرازق، المماليك ومفهوم الأسرة ص ١٨٩ حاشية ٦، وكانت تطلق على المماليك بصفة عامة ونادرًا ما تطلق على الطواشيه رغم أن صاحب هذا اللفظ مميزًا بأنه خصيًا، أحمد عبد الرازق: المماليك ومفهوم الأسرة، ص ١٦٢.

(٤) كلمة آني أو آنى جمعها انيات أصلها ايناك أو ايناكا وهي من كلمات اللغة المغولية وتعني الأخ الصغير وهي من الكلمات المألوفة أيضًا في تاريخ المغول. نفسه ص ١٨٩، حاشية ٧.

(٥) خشداش وجمعها خشداشية وهو لفظ معرب من لفظ خواجاتاش الفارسي ويعني الزميل في الخدمة. المقريزي: السلوك، جـ١، قسم٢، ص ٣٨٨.

أدت كل تلك الروابط إلى إيجاد وحدة إجتماعية متماسكة بين هؤلاء المماليك وكونوا طبقة منفصلة عن المجتمع يؤدي كل فرد فيها واجباته تجاه طبقته(١).

ولما كان هؤلاء الرقيق بمثابة سلع تباع وتشترى، إلا أنهم عندما يعتقوا ويصبحون أحرارًا عند تحولهم إلى جنود أو عند ممارستهم للوظيفة العسكرية فكانت هنا تنتفي عنهم صفة السلعية و« يتحول هذا الإنتماء إلى لبنة في الهيكل البيروقراطي أي في التكوين الإجتماعي الاقتصادي الشرقي المبني على النمط الأسيوي للإنتاج» وظل الرق في العصر الأيوبي والمملوكي في مصر مرتبطًا بالخدمة الشخصية كما كان عليه الحال من قديم الأزل فلم يكن عنصر إنتاج على مدى هذين العصرين(٢).

وحفاظًا على كيان طبقة المماليك وخصائصها كان السلاطين يختارون زوجات مماليكهم(٣).

وإذا أنجب المملوك لا يخلفه ابنه في مركزه ولا يرثه عند وفاته ولكن المملوك هو الذي يرث أستاذه ويحل محله وأحيانًا يستولى على حريمه، وكان الواحد منهم لا يأكل مع أبنائه وحريمه وإنما يفضل أن يأكل مع مماليكه وإذا رأى نارًا توقد سأل عنها فيقال أن أحد المماليك أحب أن يأكل نوعًا من الطعام فيغضب ممن لا يأكل معه(٤).

ومن هذا يتبين لنا أن حياة طبقة المماليك العائلية لا تقوم على أساس العلاقة بين الرجل وزوجته وأبنائه بقدر ما تقوم على أساس العلاقة بين الأستاذ ومماليكه وبين المماليك وبعضهم البعض(٥).

---

(١) السيد الباز العريني: المماليك، ص ٢١٨، أحمد عبد الرازق: العلاقات الأسرية في المصطلح المملوكي، ص١٥٥-١٥٦.

(٢) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الإجتماعي الإقتصادي، ص ٤١٧ - ٤١٨.

(٣) الباز العريني: المماليك ص ٢١٩.

(٤) أحمد عبد الرازق: العلاقات الأسرية ص ١٥٦، المماليك ومفهوم الأسرة ص ١٨٩ - ١٩٠، قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الإجتماعي، ص ٢٦.

(٥) أحمد عبد الرازق: نفسه، ص١٥٦.

العتق:

كان المملوك الذي يتم تحريره يطلق عليه لفظ عتيق وجمعها عتقاء ويعرف باسم معتق جمعها معاتيق وكان دائمًا يرد لفظ عتيق مقترنًا بلفظ فلان أي يقال «عتيق فلان» أو «كان أصله من عتقاء فلان» وردت كذلك عبارة «أصله من مماليك فلان» ولم تكن تدل بالضرورة على الأستاذ الذي أعتق المملوك وإنما تشير أحيانًا إلى السيد الذي آل إليه هذا المملوك(١).

وإذا انتقل المملوك بعد عتقه إلى خدمة سيد آخر كان يطلق على هذا السيد الجديد اسم مخدوم ويصبح المملوك مستخدم ولكن ارتباط المخدوم بالمستخدم هنا لم يكن في قوة ارتباط المعتق وعتيقه ولكن كانت العلاقة بينهما أكثر سطحية بسبب تمييز المخدوم لمماليكه القرانيص الذين انتقلوا إلى خدمته بعد عتق سلاطينهم لهم فكان السلطان يعتبرهم أقل درجة من معاتيقه(٢).

العلاقات والروابط بين المماليك:

تعددت مسميات الروابط التي ربطت المماليك ببعضهم ولكن كانت أهمها وأقواها على الإطلاق تلك الرابطة المسماه برابطة الأستاذية وهي الرابطة التي تربط المملوك بسيده أي أستاذه الذي اشتراه صغيرًا ورباه وقام على رعايته حتى كبر واعتقه(٣) ولفظة أستاذ(٤) مصطلح تاريخي مملوكي يطلق على السيد الذي يشتري المملوك

---

(١) أحمد عبد الرازق: العلاقات الأسرية ص ١٥٧، المماليك ومفهوم الأسرة، ص ١٩٢.

(٢) السيد الباز العريني: المماليك ص٢٠٨ - ٢٠٩، أحمد عبد الرازق، العلاقات الأسرية، ص ١٦٠، المماليك ومفهوم الأسرة لديهم، ص ١٩٣.

(٣) سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص٢٤، السيد الباز: المماليك ص ٢٠٧.

(٤) لفظة أستاذ هي لفظة معربة لأنه يقال أنه ليس في اللغة العربية كلمة عربية أصيلة تجتمع فيها الذال والسين، أنظر القاموس المحيط مادة «سيده & وأستاذ معربة عن كلمة استاذ الفارسية وهي تعني السيد أو المشهور بعمله وكانت تستخدم في العصر الأيوبي والمملوكي للدلالة على تاجر المماليك أو السيد الذي يشتري المملوك ويربيه - أحمد عبد الرازق المماليك ومفهوم الأسرة ص ١٨٩، حاشية ٥.

بالمال ويقوم بتربيته وتعليمه ثم عتقه وكانت من أقوى الروابط التي عرفها تـاريخ المماليك(١).

ويبدو أن التاجر الذي جلبه هو بمثابة أول أستاذ له وبالتالي فهو أول من ينتمي إليه المملوك ثم يظل ينتقل من أستاذ إلى آخر ولكن أهمهم جميعًا هو ذلك الأسـتاذ الذي يشتري المملوك ويبقى في حوزته حتى يعتقه وهـو هـذا الأسـتاذ بـالمعنى الإصطلاحي المملوكي كما يقصد بذلك اللفظ أيضًا السيد الذي يكون في خدمة مملوك من المماليك أي أنه ليس من الضروري أن يكون هو الذي اشتراه واعتقـه وهنـا يترادف مع لفظ مخدوم وتجمع المملوك باستاذه الذي أعتقه رابطة قوية ويدين لـه بالوفاء والإخلاص مدى الحياة(٢).

ومن أروع أمثلة وفاء المملوك لأستاذه الذي اعتقه ما اشـتهر بـه السـلطان بيبرس البندقداري من حب وتقدير لأستاذه ايدكين البندقداري(٣) فقد جعله نائبًا لـه على الشام بعد اعتلائه عرش مصر وكان كثير التعظيم له ويذكره في الكثيـر مـن المناسبات بقوله «أنت أستاذي» ويقدر له حق تربيته له كما أظهر الاحترام والعرفان للأستاذ الذي اشترى ايدكين واعتقه في العصر الأيوبي وهو جمال الدين بن يغمـور الذي عاصر بيبرس في العصر المملوكي وأصبح محل تقديره واحترامه(٤).

علاقة المملوك بالأغا:

كانت تلك العلاقة أو الرابطة لا تقل أهمية عن رابطة الأستاذية وتتمثل في علاقة المملوك الصغير الذي عرف في المصطلح المملوكي باسم آني والأكبـر منـه سـنًا والذي لقب بالأغا وهو الذي يرعى الآني في الطباق وكانت تقع عليه مسئولية تأديبه ولكن كان بينهما نوعاً من الإرتباط الأسري والإحساس بالمسئولية تجاه هذا الصغير

---

(١) عبد العزيزي الشناوي: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، المجلد الثاني، بحث منشور عـن أروقة الأزهر، سنة ١٩٨٥، ص ٢٣.

(٢) السيد الباز: المماليك ص٢٠٧ – ٢٠٨، أحمد عبد الرازق: المماليك ومفهوم الأسرة، ص١٩١.

(٣) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٣٠٠.

(٤) السيد الباز: المماليك ص ٢١٧، أحمد عبد الرازق: العلاقات الأسرية ص١٦١ – ١٦٥.

وإذا حدثت مشكلة في الطباق بين المماليك الصغار الآنيات كان الأغا يسرع لمعاونة آنياته وفي المقابل كان هؤلاء الآنيات يدينون بالولاء لأغواتهم حتى ولو ارتقى بعد هذا الآني وأصبح أعظم من الأغا فكان دائمًا يحترمه ويبجله ويستجيب لكل مطالبه(١).

وليس من المؤكد أن هؤلاء الأغوات كانوا يختارون من بين المماليك الذين تم عتقهم إلا أنه كان هناك واحد لكل طبقة من بين المماليك الذين تم بالفعل عتقهم وكان يلقب باسم أغا الطبقة وهو ليس من بين الطواشية الخصيان وكان هناك مقدم الطبقة وعرف باسم طواشي الطبقة أو خدام الطبقة أو سواق الطبقة وكان من أهم الشروط التي تتوافر فيه أن يكون من بين الطواشية الخصيان من أجل الحرص على سلامة المماليك الأحداث الذين يدخلون الطباق صغارًا وخوفًا عليهم من الشذوذ الجنسي الذي ابتلى به المجتمع المصري في العصر المملوكي(٢).

ولكن هناك حقيقة يجب ألا نغفلها وهي أن هذا الأغا لم يرتقى أبدًا لدرجة الأستاذ ولم يتمتع بمكانته فكثيرًا ما كان يلعب دور الوسيط بين الخشداشية والأستاذ(٣).

رابطة الخشداشية:

ومفردها خشداش وهو لفظ معرب من لفظ خواجاتاش الفارسي وتعني الزميل في الخدمة والخشداشية أو الخواشداشية أو الخجداشية أو الخوجداشية في الإصطلاح المملوكي هم الأمراء الذين نشأوا مماليك عند سيد واحد فنشأت بينهم رابطة الزمالة القديمة ويقابلها في الفرنسية (Camarades) وكان لتلك الرابطة آثار واضحة على المماليك الذين اختلفت أماكن استجلابهم فعوضوا بتلك الرابطة وغيرها

---

(١) أحمد عبد الرازق: العلاقات الأسرية ص١٦١ – ١٦٥.

(٢) أحمد عبد الرازق: المماليك ومفهوم الأسرة، ص٢٠١ – ٢٠٢.

(٣) نفسه، ص ٢٠٠.

فقدانهم للحياة العائلية والدفء الأسري(١).

وكلما زادت خشداشية أمير من الأمراء ازدادت مكانته وكلما زاد ولاؤهم للسلطان منحهم الرتب والوظائف العالية(٢).

ومن الأمثلة على ذلك أن أصبح الأمير أقطاي زعيم البحرية وكانت أقوى فئات المماليك في ذلك الوقت أن لا يستطيع أحد الأمراء التكلم في شيء أو إبداء رأي إلا بحضوره لكثرة خشداشيته، ومن مظاهر ولاء السلطان للخشداشية ما فعله الظاهر بيبرس مع سنقر الرومي الصالحي النجمي أحد مماليك الصالح أيوب والذي ترقى عنده في الخدم حتى أصبح جامدار وكان من خشداشية بيبرس البندقداري وكان من خلصائه وخرج معه إلى الشام بعد قتل أقطاي زميلهم ثم اختلفا وجاء سنقر إلى مصر وأقام بها وترك بيبزس ولما عاد بيبرس إلى مصر وصار أميرًا لم يقدم له سنقر شيئًا كعادة الخشداشية(٣) الذين كانت من آدابهم أن يتهادوا من تقدم منهم في المناسبات المختلفة(٤).

ولمامك بيبرس قَدم سنقر ومنحه الإقطاعات الجليلة فلم يرضى وكان يرد كل تلك العطايا ويبدو أنه حدثت بينهما نوعًا من الغيرة فكان سنقر يتعمد أن يجذب إليه المماليك ويقربهم ويفرق فيهم المال وكان كل ذلك يبلغ بيبرس فيتغاضى عنه مراعاة للزمالة ولكن ما لبث أن زاد ضرر سنقر بقتله اثنين من المماليك بغير ذنب فاضطر بيبرس إلى اعتقاله(٥).

وكان من مظاهر وفاء الخشداشية وحبهم لبعضهم حرصهم على إنقاذ من يقع

---

(١) المقريزي: السلوك، جـ١، قسم٢، ص ٣٨٨ حاشية ١، محمد مطصفى زيادة، بحث منشور بعنوان بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك، مجلة كلية الآداب الجامعة المصرية المجلد الرابع، جـ١، مايو ١٩٣٦، ص٨١ - ٨٢، عبد العزيز الشناوي: دراسات في الحضارة ص ٢٣.

(٢) السيد الباز: المماليك ص٢١١ - ٢١٢، أحد عبد الرازق: المماليك ومفهوم الأسرة ص ٢٠٣.

(٣) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٨٢.

(٤) السيد الباز: المماليك، ص٢٣١.

(٥) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٨٣.

منهم في محنة ومناصرة كل جماعة لمن ينتمي إليها ويتجلى ذلك فيما حدث بين أيبك وأقطاي وبين بيبرس وقطز وتمليك بيبرس السلطنة[1] وكذلك وفاء خشداشية المعز أيبك له وقتلهم شجر الدر زوجته عندما تآمرت عليه وقتلته[2].

ومن الملفت أن شجر الدر اعتبرت نفسها خشداشًا للصالحية البحرية رغم كونها أمرأة وساعدوها على اعتلاء السلطنة[3] وحاولوا بكل الطرق حمايتها من الإغتيال على يد مماليك المعز أيبك إلا أنهم فشلوا في ذلك لإصرار مماليك أيبك على الأخذ بثأر أستاذهم، وكان هؤلاء الخشداشية رغم ارتباطهم الشديد ببعضهم البعض أحيانًا ينقسمون أثناء تولية سلطان جديد فينحاز كل فريق إلى الأمير الذي يريده وتنشب الحروب بينهم لمناصرة من يريدون فاعتلاء نصيرهم السلطنة سوف يعود عليهم بالمنافع الكثيرة[4]. وكانت الطائفة الأقوى من بينهم تنتخب للسلطنة أقدم زملائها أو أكبرهم سنًا[5].

ومن كل هذا يتضح أن العائلة المملوكة كانت تتألف أساسًا من الأستاذ وهو الأب والخشداش وهو الأخ والزميل والأغا وهو الأخ الأكبر والآني وهو الأخ الأصغر تلك كانت أسرة المملوك الحقيقية[6].

النزاع بين الفرق المملوكية:

وكثيرًا ما كان يقوم نزاعًا كامنًا بين الفرق والطوائف المختلفة للمماليك لعدة أسباب مختلفة وأحيانًا يكون بسبب توزيع الأسلاب التي استولوا عليها من عرق

---

(١) نفسه، ص٣٠٠ – ٣٠١ وابن العبري: تاريخ مختصر الدول، جـ٢، ص ٢٦١، الذهبي: العبر، جـ٣، ص ٢٧٦.
(٢) السيد الباز: المماليك، ص ٢١٦.
(٣) الذهبي: العبر، جـ٣، ص ٢٧٦.
(٤) السيد الباز: المماليك، ص ٢١٦، أحمد عبد الرازق: العلاقات الأسرية، ص١٣٣.
(٥) محمد مصطفى زيادة: بعض ملاحظات جديدة، ص٨١ – ٨٢.
(٦) أحمد عبد الرازق: المماليك ومفهوم الأسرة، ص ٢٠٧.

الشعب[1]. وبرغم انقسامهم الداخلي عند بروز أي مشكلة وإنقسامهم إلـــى أحـــزاب وشيع كل حزب يرأسه زعيم مثل البحرية بقيادة أقطاي وبيبرس والمعزية بقيادة أيبك وقطز[2] إلا أن هذا الإنقسام لم يؤثر على إرتباط المملوك الشديد بحزبـــه وبأســـرة زعيم هذا الحزب حتى بعد وفاته أدى النزاع بين تلك الفرق أو الأحزاب المملوكيـــة إلى إتسام هؤلاء المماليك بالعنف مما أوحش الناس منهم وخشوا بأسهم[3]. وكـــذلك لم يؤثر ذلك الإنقسام على وحدتهم إزاء الأخطار الخارجية التي تعرضت لها الـــبلاد وتصدوا لها مما يفسر إنتصاراتهم المتتالية على أعدائهم[4]، ولم تكن تلك العصـــبية العنصرية بين طوائف المماليك تتعارض مع شعور هؤلاء بعصبية ربطتهم جميعًا[5].

---

(١) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الإجتماعي والإقتصادي، ص ٤١٩.
(٢) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٣٠٠ - ٣٠١.
(٣) وليام موير: تاريخ دولة المماليك البحرية في مصر، ص ١٨٧.
(٤) علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ٣٢.
(٥) سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص ٢٤.

المماليك والمجتمع المصري

دائمًا ما تتميز الحياة الإجتماعية عن الحياة السياسية أو الحياة الإقتصادية بنوع من الثبات والإستقرار وبطء التغيير[1]. فتجرى الأحداث السياسية على السطح سريعة مهروله ويمضي تغير النمط الإجتماعي بطيئًا متثاقلاً[2]، وقد واصل المماليك السير على تقاليد الأيوبيين واحتفظوا حتى بألقابهم ولم يغيروا في أول الأمر شيئًا من ثقافة أسلافهم[3]، وكان المماليك يتحركون داخل إطار واحد ولابد أن النظم والعادات والتقاليد التي سادت مجتمعهم في العصر المملوكي لها جذورها التي ترجع إلى ما قبل ذلك والمستقاه من العصر الأيوبي.

وإذا كانت المصادر المعاصرة قد أغفلت إلى حد بعيد الإشارة إلى الأوضاع الإجتماعية لفئة المماليك في العصر الأيوبي فإن هذه الأوضاع حتمًا لها جذورها في عصر الأيوبيين، لذلك فمن الممكن الإستناد إلى علاقاتها بالمجتمع المصري في العصر المملوكي وخاصة في أوائله ونطبقها على حياتهم في العصر الأيوبي حيث أن الفترة بين العصرين قصيرة لدرجة لا تحتمل تكوين أنظمة معينة لكي تحكم تلك العلاقة، وقد كان لأصل هؤلاء المماليك وظروف نشأتهم وطريقة تربيتهم وعدم إختلاطهم بالأهالي سياج يحيط بهم جعل منهم طبقة منفصلة ذات خصائص مغايرة للمحيط الذي تعيش داخله[4].

إن هؤلاء المماليك عاشوا في مصر يكونون عنصرًا منفصلاً عن بقية سكان البلاد ولم يبذلوا إلا محاولات نادرة للتقرب من الشعب أو الإختلاط به والإمتزاج معه

---

(١) سعيد عاشور: صور من مجتمع القاهرة في العصور الوسطى، بحث بمجلة الجمعية التاريخية، مجلد ١٨، سنة ١٩٧١م، ص ١٦١.

(٢) عبد المنعم سلطان: المجتمع المصري، ص ٢٩٨.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية: جـ٣، ص ٢٢٥.

(٤) سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص١١ - ١٢.

وقصروا الوظائف العسكرية على بني جنسهم المستجلبين[1] فكان من أهم شروط اختيار عناصر الجيش أن يكونوا من الرقيق المستجلبين ويعتقون بعد تدريبهم بحيث يكونون منقطعين تمامًا عن كل علاقة أسرية أو قومية وليس لهم من سمة إلا الوظيفة القاهرة وهي القتال[2].

واعتمدوا على أبنائهم في الوظائف الإدارية ووظائف الدواوين فأصبحوا يكونون طبقة أرستقراطية حاكمة لا يملكون الأرض ولا يمتهنون الحرف ولم يسمحوا لأهل مصر الأصليين بالإرتقاء إلى مناصب الحكم[3].

وكان غالبية المماليك المجلوبين من قبل الأيوبيين من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز والقفجاق التي تشمل حوض الفولجا والأراضي الواقعة حول بحر قزوين وآسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ما وراء النهر فكانوا خليطًا من الأتراك والشراكسة والروم والروس وأقلية من بلاد أوربا وكانوا بمثابة السيل الذي لا يتوقف بسبب احتياج هؤلاء السلاطين المستمر لأولئك لإستخدامهم في مشاحناتهم وأطماعهم وحروبهم[4].

وقد احتفظ هؤلاء المماليك بجنسيتهم وعاداتهم وكانت حكومتهم أوليغريقية يرأسها الأمير أو السلطان، وليس معنى ذلك أن بقية المماليك لم يكن لهم سلطان بل على العكس تمتعوا بنفوذ قوى والملفت للنظر أنهم ابتعدوا عن أهل البلاد المصرية سواء من الأقباط أو المسلمين الذين يعتنقون دينهم ولا يوجد تفسير لتلك الظاهرة الغريبة وكانت تلك العزلة والترفع من أهل البلاد سمة من السمات التي تميز بها حكمهم، مما ساعد على قيام نظام طبقي أدى إلى تميز كل طبقة من طبقات المجتمع

---

(١) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، من المقدمة ص ٣٦، على إبراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية، ص ٣١.

(٢) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الإجتماعي والإقتصادي، ص٤٠٤ - ٤٠٥.

(٣) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٣٦ من المقدمة.

(٤) وليام موير: تاريخ دولة المماليك في مصر، ص ١٨٦.

بملامح تختلف عن مثيلاتها تبعًا للمركز الذي تتمتع به ونوع النشاط الذي تقوم به[1].

وكثيرًا ما كانوا ينقسمون فيما بينهم إلى شيع وأحزاب بإنقسام زعمائهم ولكن ذلك لم يكن حائلاً بينهم وبين شعورهم برابطة تجمعهم دائمًا وهي رابطة الأرستقراطية الحاكمة تلك الرابطة التي جعلت منهم طائفة منفصلة قائمة بذاتها[2]، وكان شعورهم بالأرستقراطية ناتجًا عن كونهم يمثلون الجهاز الحربي الذي كان له السلطة المطلقة في حكم البلاد والدفاع عنها[3].

وهكذا كان الحكم الأيوبي المملوكي يمثل سلطة البيروقراطية – وخاصة العسكرية – المعزولة عن الشعب إجتماعيًا وسياسيًا وثقافيًا وكانت هذه العزلة سببًا في شعور أبناء الشعب من الكادحين بالسلبية كرد فعل حتمي لما يحدث حولهم[4].

أدت هذه العزلة الإجتماعية التي عاش فيها المماليك إلى إحتفاظهم بأخلاقهم وطباعهم التي ميزتهم كطبقة خاصة على مر السنين دون أن يمتزجوا أو يتأثروا بأخلاق وطباع أهل البلاد وعاداتهم وتقاليدهم، وظل السيل المتدفق لهؤلاء المماليك من الخارج شريانًا متجددًا يحيى فيهم طباعهم الأولى ويذكرهم دائمًا بأصولهم[5]. فكان مماليك القرن السابع الهجري في نهايات العصر الأيوبي مشابهين في أخلاقهم لمماليك القرن العاشر الهجري مع وجود فروق بسيطة في مسلكهم راجعًا إلى خلل نظامهم الإجتماعي والحربي الذي نتج عن تغير نظم تربيتهم ونشأتهم فقد أصبح المماليك يأتون أجلابًا إلى مصر في سن الشباب ولم يعودوا يأتون صغارًا، فانتفت صفة الولاء لأساتذتهم واحترامهم لهم فبعد أن كانوا يخضعون لنظامًا صارمًا في التربية والتدريب ضعفت سيطرة السلاطين والأمراء على أولئك الجلبان الذين تخطوا

---

(١) سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص ١٠.

(٢) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، من المقدمة ص ٣٧.

(٣) سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبين، ص ١٦٨.

(٤) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الإجتماعي والإقتصادي، ص ٤٠٥.

(٥) قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الإجتماعي، ص٢٣ – ٢٤.

سن البلوغ مما أدى إلى الكثير من حوادث الشغب والإضطراب[1].

وفي بداية العصر الأيوبي لم تكن حياة المماليك مرفهة أو مترفة فقد كان الشغل الشاغل لسلاطين هذه الدولة منذ اعتلاها صلاح الدين هو درء خطر الصليبيين وبناء جيش قوي وإنفاق الأموال في بناء قلعة الجبل وسور القاهرة وتحصين الثغور لحماية البلاد فقد غلبت فكرة الحرب على هؤلاء السلاطين وبالتالي مماليكهم وتغلبت عقيدة الجهاد والزود عن الدين الإسلامي على أحاسيس الناس ومشاعرهم فلم يكن هناك مجالاً للترف أو إقامة الاحتفالات إلا في أضيق الحدود على عكس أواخر العصر الأيوبي وبداية العصر المملوكي وكانت كل الأموال تدخر لحراسة القوافل وإعداد الجيوش وبناء السفن والأساطيل وصناعة الأسلحة والآلات الحربية[2].

وتأرجحت علاقة المماليك بالشعب المصري تأرجحًا كبيرًا فكما كانت لهم الكثير من السلبيات كان لهم بعض الإيجابيات، ولم يكن الشعب المصري يحب هؤلاء المماليك وخاصة البحرية في نهاية العصر الأيوبي نظرًا لتجبرهم وقيامهم بالأفعال المنافية للأخلاق من سلب ونهب لممتلكاته ولكنه كان شعبًا مسالمًا يتوق لكل من يدافع عن دين الإسلام وكان المصريين هم الذين أقاموا شجر الدر للإبقاء على الدولة الأيوبية وحتى لا تسقط تلك الدولة في يد المماليك الأتراك المسيطرين على الدولة والجيوش في تلك الفترة فقد نظروا إلى هؤلاء الرقيق بإزدراء ورفضوا أن يحكمهم هؤلاء[3] فقد ذكر المقريزي في حوادث ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م أن «فيها كثر ضرر المماليك البحرية بمصر ومالوا على الناس وقتلوا ونهبوا الأموال وسبوا الحريم وبالغوا في الفساد حتى لو ملك الفرنج ما فعلوا فعلتهم»[4].

كما أن أقطاي أحد زعماء البحرية بالغ في «الإذلال والتجبر».، «كان يدخل

---

(١) أحد صادق سعد: تاريخ مصر الإجتماعي والإقتصادي، ص ٤٠٥.

(٢) سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين، ص١٤٣ - ١٤٤.

(٣) عبد المنعم ماجد: موقف المصريين من حكم المماليك في العصور الوسطى، حوليات آداب عين شمس، مجلد ١٢ سنة ١٩٦٩م، ص ٤٩.

(٤) المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص ٣٨٠ وأنظر: الخطط، جـ٢، ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

الخزائن ويتصرف في الأموال»[1].

كما ذكر المقريزي أن أقطاي وزملاءه من البحرية استفحل أمـرهم لدرجـة أن شجر الدر وأيبك لم يستطيعا إيقاف هؤلاء ومنعهم من إيذاء الناس فكانوا يأخـذون أموال الناس ونساءهم وأولادهم ولا يستطيع أحد منعهم، كما كانوا يهاجمون حمامات النساء ويأخذونهن بالقوة[2].

وكان «أقطاي إذا ركب يقتل بين يديه جماعة بأمره» [3] ومن أبلغ المظاهر التي تدل على كراهية العامة للمماليك ومنهم شجر الدر أنها عندما قتلت على يد مماليـك المعز أيبك زوجها الذي سبق وقتلته وألقيت من فوق سور القلعة إلى الخندق لم يكن عليها سوى سراويلها وقميص وبقيت أيامًا في الخندق لم يصعب حالها على العامة الذين قاموا بأخذ بعض تكة سراويلها[4].

وهذا يبين مدى استيائهم تجاه عجرفة هؤلاء وتعاليهم حتى أنهم لـم يقومـوا بدفنها وتركوها حتى نتنت ثم حملت في قفة ودفنت بتربتهـا[5]، وكـان إسـتئثارهم بوظائف الحكم والعسكرية والإدارة في بلد غريب عنهم جعلهـم يتصـرفون كأقليـة عسكرية تنأى بنفسها عن المشاركة في الحيـاة الإجتماعيـة للمصـريين لا سـيما المشاركة الظاهرية في المواكب السلطانية والأعياد الدينية والعامة.

ويبدو أن المصريين امتزجت مشاعرهم تجاه هـؤلاء فأصـبحت مزيجًـا مـن الكراهية لسياستهم والعداء الإجتماعي لتواجدهم بينهم والولاء الديني بفضل القنـاع الديني الذي تخفى وراءه هؤلاء لإضفاء نوع من الشرعية على وجودهم[6]، وكـان

---

(١) الذهبي: العبر في خبر من غبر، جـ٣، ص ٢٦٨، محمد بهادر: مخطوط فتوح النصـر، جـ١، ص٧٧.

(٢) المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص٣٨٩ - ٣٩٠، محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ١، ص٧٨.

(٣) محمد بهادر: مخطوط فتوح النصر، جـ١، ص ٧٧.

(٤) نفسه، ص ٧٧.

(٥) المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص ٤٠٤.

(٦) قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر، ص ٢٤.

لهذا القناع أثر كبير في بعض الأحيان حيث ينضم الشعب المصري إليهم مكونًا يدًا واحدة معهم للدفاع عن البلاد والزود عن الدين الإسلامي ويتضح ذلك فيما أبداه فلاحو مصر من معاونة للمماليك في موقعة المنصورة ومعهم المقاليع والحجارة للضغط على العدو وما تلاه من أسر لملكهم لويس التاسع نفسه فكان تضامن الشعب مع هؤلاء المماليك سببًا مباشرًا في توطيد سلطنتهم في مصر وظهور قوتهم حتى استطاعوا اقتناء الفرصة واعتلاء عرش البلاد(١).

ونتيجة لأعمال السلب والنهب ازدادت ثروات هؤلاء المماليك وكذلك نتيجة لمنح السلاطين وعطاياهم لهم والإغداق عليهم لضمان ولائهم، فقد ذكر النويري أن فارس الدين ميمون القصري عند وفاته سنة ٦١٠هـ/ ١٢١٣م «خلف أموالاً جمة»(٢).

كما يذكر المقريزي ثروة أحد هؤلاء المماليك وهو «بكتاش الفخري»(٣) أنه كان «كريمًا شجاعًا .. وكانت له رغبة في شراء المماليك والخيول بأغلى القيم وكان يبعث للأمراء المجردين معه النفقة ويقوم لهم بالشعير والأغنام وبلغت مماليكه الغاية من الحشمة وكان إقطاع كل منهم في السنة عشرين ألف درهم فضة عنها يومئذ ألف مثقال من الذهب ولكل من جنده خبز مبلغه في السنة عشرة آلاف درهم سوى كلفهم من الشعير واللحم»(٤).

---

(١) جوانفيل: القديس لويس ص١٢٩ – ١٣١، محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك، ص٢٤ – ٢٥.

(٢) النويري، نهاية الأرب، جـ٢٩، ص٦٤.

(٣) الأمير بدر الدين، أمير سلاح الصالحي النجمي .. كان أولاً مملوكًا لفخر الدين بن الشيخ فصار إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب وتقدم عنده من جملة من قدمه من المماليك البحرية الذين ملكوا الديار المصرية من بعد انقضاء الدولة الأيوبية وتأمر في أيام الملك الصالح وتقدم في أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري واستمر أميرًا لأكثر من ستين سنة لم ينكب فيها، المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٣٢.

(٤) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٣٢.

كما ذكر ثروة مملوك آخر يدعى بيسرى[1] أن كانت له «عدة مماليك راتب كل واحد منهم مائة رطل لحم وفيهم من له عليه في اليوم مبلغ ستين عليقة لخيله وبلغ عليق خيله وخيل مماليكه في كل يوم ثلاثة آلاف عليقة سوى علف الجمال وكان ينعم بالألف دينار مرة وبالخمسمائة مرة» . وقال أن بيسرى هذا «لم يعرف عنه أنه شرب الماء في كوز واحد مرتين وإنما يشرب كل مرة في كوز جديد ثم لا يعاود الشرب منه»[2].

ويبدو أن تصرفاتهم الهمجية مع عامة الشعب أن أصلهم مباعين في أسواق النخاسة وينقلون إلى مصر دون أن يكون لهم جذورًا أو رابطة تربطهم بتلك الأرض وأهلها فليس من العجب أن يعاملوا أهل هذا البلد معاملة الغالب للمغلوب على أمره ويبتزون الأموال وينعمون بحياة الترف والبذخ وكانوا يفعلون كل ما يحقق أغراضهم من الأفعال القبيحة القائمة على التوحش والهمجية لتحقيق أطماعهم الذاتية بما في ذلك الأفعال من عنف وإزهاق للدماء والأرواح[3].

وكان الرجل من العامة يمتلك عبدًا واحدًا وكان يعاني معهم من حياة البؤس والشقاء على عكس العبيد المملوكين للأغنياء فكانوا يقومون بتصريف أمور أسيادهم[4]. وقل اهتمام هؤلاء المماليك باللغة العربية حتى أن الذين أجادوها منهم احتفظوا بلكنة خاصة[5] ويبدو أن السلاطين الأيوبيين تأثروا بلغة مماليكهم فكانوا يتحدثونها بل كانوا يعرفون أيضًا بعض لهجاتها[6].

---

(١) الأمير شمس الدين الشمسي الصالحي النجمي أحد مماليك الصالح نجم الدين أيوب البحرية تنقل في الخدم حتى صار أجل الأمراء في أيام الملك الظاهر بيبرس البندقداري واشتهر بالشجاعة والكرم وعلو الهمة، المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٦٨.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٦٨.

(٣) أنور زقلمة، المماليك، ص ١٥، أنظر وليام موير: تاريخ دولة المماليك، ص٣٤.

(٤) كلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ص١١٣.

(٥) قاسم عبده قاسم؛ دراسات في تاريخ مصر الإجتماعي، ص٢٣، أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، جـ٥، ص ١٨٤.

(٦) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الإجتماعي، ص٤٠٤.

ومن الملاحظ أن المماليك عاشوا مغتربين بين المصريين ولم يتوطد الترابط بينهم على الرغم من تعلم بعضهم للعربية، وتجدر الإشارة إلى أن كثيرًا منهم لم يتعلم العربية على الإطلاق[1]، ولم يعرف المماليك في الغالب الحياة الأسرية، ولم يقبلوا على الزواج وممارسة الحياة العائلية، فقد كان ذلك يأتي في مرتبة تالية لإهتماماتهم ومن بينها الولاء لأسيادهم[2]، كما لم يتزوجوا إلا في حالات نادرة حيث ارتبط بعض المماليك ببعض بنات رجال الدولة من القضاه والعلماء، وكانوا يفضلون الزواج من الفتيات المسلمات من الجواري المستجلبات ولم نقع في مصادرنا على زواجهم من مصريات مسيحيات، ومع ذلك فلم يغير زواجهم من بعض المصريات من حياة العزلة التي كانوا يفضلونها، ولم يندمجوا في المجتمع ولم يختلطوا بغيرهم[3]، ولم يكونوا أسرًا كبيرة العدد حيث غالبًا ما ينتهي أمرهم بالموت في القتال أو الإغتيال وبالتالي تنتقل ممتلكاتهم بما فيها النساء إلى القاتل أو السلطان وإذا كان لهم أبناء أطلق عليهم مصطلح أولاد الناس أو مولدين فلم يكن لهم نفس المكانة التي كانت لآبائهم[4].

وقد تدخل السلاطين في اختيار زوجات المماليك للإبقاء على صفات وخصائص تلك الطبقة، ومن الجائز أن يتزوج أحدهم إذا ظهر أمره من عائلات السلاطين[5]، فقد ذكر المقريزي أن الأمير ركن الدين منكورش كان زوجًا لام الأوحد بن العادل[6].

وكان البعض منهم حريصًا على التسري واقتناء الجواري والمحظيات على حين حرص البعض الآخر على الزواج وإنجاب الأطفال[7]. وكما كان لهؤلاء المماليك

---

(١) قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الإجتماعي، ص ٢٣.

(٢) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، من المقدمة ص ٣٧.

(٣) وليام موير: تاريخ دولة المماليك في مصر، ص ١٨٧، أنظر علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ٣٢، أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، جـ٥، ص ١٨٤.

(٤) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الإجتماعي، ص ٤٠٥.

(٥) السيد الباز العريني: المماليك ص ٢١٩.

(٦) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٩٣.

(٧) أحمد عبد الرازق: العلاقات الأسرية في المصطلح المملوكي، ص ١٥٥.

سلبيات كان لهم إيجابيات أيضًا، فقد شارك البعض منهم في أعمال الخير فكانوا يتصدقون بالأموال ومن أمثلة هؤلاء قايماز النجمي الملقب بصارم الدين وكان من أكابر مماليك نجم الدين أيوب لما كان محل ثقة صلاح الدين الأيوبي، وكانت له صدقات كثيرة ولم يكن يتوانى عن القيام بأفعال الخير(١).

وكان المبارز بن يوسف بن خطلخ الذي كان مملوكًا لشمس الدولة محسنًا إلى الناس كريمًا شجاعًا(٢)، كذلك كان لؤلؤ الحاجب(٣) الذي تصدق على الفقراء بكل ما بقي معه بعد أن زوج بناته الأربع وأعطى ابنيه ما يكفيهما، فيقول المقريزي أنه كان «يفرق في كل يوم اثنى عشر ألف رغيف مع قدور الطعام، وإذا دخل شهر رمضان ضاعف ذلك وتبتل للتفرقة من الظهر في كل يوم إلى نحو صلاة العشاء الآخرة ويضع ثلاثة مراكب طول كل مركب أحد وعشرون ذراعًا مملوءة طعامًا ويدخل الفقراء أفواجًا وهو قائم مشدود الوسط كأنه راعي غنم وفي يده مغرفة وفي الأخرى جرة سمن وهو يصلح صفوف الفقراء ويقرّب إليهم الطعام» وكان يبدأ بالرجال ثم النساء ثم الصبيان ولم يكن الفقراء يتزاحمون رغم كثرتهم لعلمهم أن «المعروف يعمهم فإذا انتهت حاجة الفقراء بسط سماطا للأغنياء تعجز الملوك عن مثله»(٤).

واللافت للنظر أن هؤلاء المماليك في بداية العصر الأيوبي حيث تمتع السلاطين الأيوبيون بالقوة كان سلوكهم وأخلاقياتهم على مستوى أرفع من نهايات العصر الأيوبي الذي استفحل فيه أمرهم بعد شعورهم بقوتهم وانتصاراتهم على الصليبيين وإحساسهم بحقهم في إمتلاك واعتلاء عرش السلطنة في مصر فيذكر المقريزي أنه في عهد العادل الكبير الأيوبي شقيق صلاح الدين حدثت مجاعة لقصور النيل

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق٢، ص ٤٨٤.

(٢) نفسه، جـ٨، ق١، ص ٥٧٩.

(٣) كان أرمني الأصل من أجناد مصر أيام الفاطميين ولما استولى صلاح الدين على مملكة مصر خدم في أسطوله، «وكان حيثما توجه فتح وانتصر وغنم، المقريزي، خطط ، جـ٢، ص ٨٥.

(٤) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٨٥ – ٨٦.

وبلغ سعر أردب القمح ثمانية دنانير فكان أمراء المماليك يغـدقون علـى الفقـراء بالأقوات[1].

ولما فاض النيل وتوفرت المياه لم يوجد أحد يزرع الأرض لكثرة عدد المتوفين بسبب تلك المجاعة وذلك الوباء فخرج المماليك على الفور بغلمانهم وقاموا بزراعة ما استطاعوا زراعته[2].

كما كان للبعض منهم تصرفات إنسانية تنم عن أخلاق رفيعة تحلوا بها وخاصة البعض من البحرية الذين اهتم الصالح أيوب بتربيتهم وتأديبهم ومنهم الأمير فخـر الدين جهاركس الصلاحي[3].

فيذكر المقريزي حادثة تؤكد ذلك، فقد بلغ الأمير جهاركس أن أحد الأجناد يمتلك فرسًا عرض عليه فيه ألف دينار فأبى بيعه فأحب جهاركس أن يرى هـذا الفـرس واستدعى صاحبه وأخذ الأمير جهاركس الفرس وركبه ومضى بـه إلـى داره فلـم يعترض صاحبه ولم يطلب الفرس لعدة أيام لاحقة فتعجب جهاركس وطلب صـاحب الفرس وأجلسه معه على سماطه وسأله لماذا لم يطلب فرسـه؟ فكـان رد الرجـل «ياخوند وما عسى أن يكون من هذا الفرس وما ركبه الأمير إلا وهو قد صلح لـه، وكل ما صلح للمولى فهو على العبد حرام، ولقد شرفني مولانا بأن جعلني أهـلاً أن يتصرف في عبده، والمملوك يحسب أن هذا الفرس قد أصابه مرض فمات. وأما الآن فقد وقع في محله وعند أهله، ومولانا أحق به» ولما سأله جهـاركس عـن سـبب رفضه بيع الفرس رغم أنه عرض عليه فيه ألف دينار رد قـائلاً «يامولانـا، هـذا الفرس جعلته للجهاد، وأحسن ما جاهد الإنسان على فرس يعرفه وثيق بـه، ومـا مقدار هذا الفرس له أسوة، فاستحسن الأمير همته وشكره» وأمر بأن يخلـع عليـه

---

(١) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ٣١.

(٢) نفسه، ص ٣١.

(٣) مقدم الناصرية والحاكم بديار مصر في أيام الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين وكان له العديـد من أعمال البر وكان من أكبر أمراء الدولة الصلاحية وكان كريمًا عالي الهمة، المقريزي: خطط، جـ٢، ص٨٦ - ٨٧.

خلعة من أفخر ملبوسه وأعطاه ألف دينار والفرس[1].

وعلى الرغم من أن المماليك لم يختلطوا أو يندمجوا مع المصريين إلا أننا نستطيع أن نلمس أثرهم في الحياة الفكرية في ذلك الوقت فقد كان لإنتصاراتهم ضد الصليبيين ودفاعهم عن الدين الإسلامي أثر كبير انعكس على أدب تلك الفترة فقد تبارى الأدباء في وصف شجاعتهم ومآثرهم[2].

كما كان لتواجد العنصر التركي أثر كبير على أدب تلك الفترة فقد اشتهر الأتراك سواء النساء أو الغلمان بالجمال والحسن ووصف الشعراء عيون الأتراك الدعجاء بأنها جميلة رغم أن العرب كانوا يفضلون دائمًا العيون المتسعة التي شبهوها بأنها كعيون المها[3].

وكان الغلمان الأتراك يعملون كسقاه للخمر في المآدب فظهر الولع بالغلمان الترك السقاه وانعكس هذا على شعر الشعراء الذين ارتبط حديثهم عن الخمر ومجالسها بالحديث أيضًا عن سقاتها وما يتميزون به من جمال وظهر ذلك في شعر ابن النبيه عن أحد السقاة والذي انطلق يصف وسامة ساقيه وطول قامته وضخامة ردفيه ونعومة شعره المنسدل على جبينه فقال:

يسعى بها عبلُ الروادف أهيفُ	خنثُ الشمائل شاطر الحركات
يهوى فتسبقه ذوائب شعره	ملتفة كأساور الحيات
ساق كان جبينه في شعره	قمر تبلّج في الليالي السود
غصن ترنح ردفه في خصره	فعجبت للمعدوم في الموجود[4]

ومن ناحية أخرى نجد أن المصريين أصبحوا لا يخشون هؤلاء المماليك والذي يدل على ذلك سخريتهم التي اتسموا بها دائمًا من حكامهم الطغاه، وفي تلك الفترة سخروا من قراقوش الأسدي مملوك صلاح الدين ومن بعده والذي بالغ في القسوة

(١) المقريزي: خطط، جـ٢، ص ٨٦.

(٢) أحمد سيد محمد، الشخصية المصرية، ص ١٩٠.

(٣) نفسه، ص ٢٠٢.

(٤) ابن النبيه، ديوانه، ص ١٢٥.

على المصريين حتى أنه أراد هدم الأهرامات ليبني من حجرها قلاعًا، وحيث أنهم لم يكن لديهم ما يعبرون به عن إستيائهم من قسوته فلجأوا إلى المقاومة السلبية فقاموا بعمل صورًا مضحكة على شكله وهو ما عرف بإسم القراقوز الذي هو في الأصل صورة قراقوش والتي تضحك الأطفال والكبار وذلك في كتاب صنف في واقعته سمى الفاشوش(١).

وكذلك سخر المصريون من المماليك فخشوا بأسهم وأصبحوا لا يخرجون إلا وقد لبسوا دروعهم وأسلحتهم(٢).

وكان لأستغلال المماليك البحرية لسطوتهم في العبث بمصالح البلاد والشعب واستيلائهم على أموال الناس وممتلكاتهم أثرًا كبيرًا على الناحية الفكرية والثقافية عامة وعلى الشعر والشعراء خاصة فقال ابن النبيه المصري:

صنف من الترك والخدام قد بلغا	بأقبح الفعل فينا غاية الأمل
فسعدُ هذا بما قد قدّ من دُبرِ	فيه وهذا بما قد قدّ من قبلِ(٣)

كما اشتكى الناس منهم للصالح أيوب بعد مضايقتهم لهم واندفع الشعراء للتنديد بهم واضطر الصالح لبناء قلعة الروضة(٤)، لمنع أذاهم فقال الشاعر:

الصالح المرتضى أيوب أكثر من	تركٍ بدولته يا شر مجلوب
قد أخذ الله أيوبًا بفعلته	فالناس قد أصبحوا في ضر أيوب(٥)

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق٢، ص ٤٠٥، النويري، نهاية الأرب، جـ٢٩، ص ٣٠ – ٣١، الحنبلي: شذرات، جـ٤، ص٣٣١ – ٣٣٢، عفاف صبرة: بهاء الدين قراقوش، ص١٢٦ – ١٣٧.

(٢) ماجد: موقف المصريين من حكم المماليك، ص ٥٦.

(٣) ابن النبيه المصري: ديوان ابن النبيه، ص ٤٠٩.

(٤) ابن دقماق: الجوهر الثمين، جـ٢، ص ٣٧.

(٥) ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص ٣٥٦.

الجواري في العصر الأيوبي

زاد عدد الجواري والمحظيات في العصر الأيوبي زيادة بالغة وكان السلاطين الأيوبيون والمماليك يتميزون بالغنى الفاحش ويمتلكون الجواري والمحظيات رغم المجاعات والأوبئة التي تعرضت لها البلاد سنة ٥٩١هـ / ١١٩٤م(١).

ويروى الرحالة عبد اللطيف البغدادي أن هذه المجاعات سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م أثرت على التجارة حتى تجارة الجواري أيضًا فيقول «وأما بيع الأحرار فشاع وذاع عند من لا يراقب الله حتى تباع الجارية الحسناء بدراهم معدودة وعرض على جاريتين مراهقتين بدينار واحد ورأيت مرة أخرى جاريتين إحداهما بكر ينادى عليهما بإحدى عشر درهمًا»(٢).

مما يدل على بخس الثمن الذي ابتيعت به هذه الجارية لأن الناس كانوا جياعًا لا يملكون طعامهم فكيف يدفعون في شراء الجواري.

وقد كان لدى بعض سلاطين الأيوبيين ولع بالجواري فقد كان العزيز ابن صلاح الدين يهوى قينة شغلته عن كل اهتماماته فلما علم والده أمره أن يتركها، ومنعها من صحبته، فحزن العزيز لذلك حزنًا شديدًا ولكنه لم يستطع مخالفة والده فلما طال الوقت أرسلت له مع بعض الخدم كرة من العنبر فكسرها فوجد في وسطها زر ذهب فلم يعرف مقصودها من ذلك، وكان العزيز يثق في القاضي الفاضل وكان مقربًا إليه فأطلعه على الأمر ليستوضح ذلك فأرسل القاضي الفاضل له الرد في معنى ما فعلته الجارية في بيتين من الشعر وهما:

أهدت لك العنبر في وسطه ... زرٌ من التبر دقيق اللحام

فالزر في العنبر معناهما ... زر هكذا مستترًا في الظلام

فعلم العزيز أنها أرادت زيارته ليلاً(٣).

---

(١) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الإجتماعي، ص ٤٢٢.

(٢) عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والإعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، ص٥٤.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٣، ص ١٦١.

وحفلت مجالس الأيوبيين بالشعراء والأدباء والمغنيات من الجواري لغناء الأشعار على العود، فلما رحل الفرنج سنة ٦١٨هـ / ١٢٢١م اجتمع عند الملك الكامل أخواه المعظم عيسى والأشرف موسى وكان للأشرف جارية محببة تدعى ست الفخر فغنت على العود:

ولما طغى فرعون عكا ببغيه وجاء إلى مصرٍ ليفسد في الأرض
أتى نحوهم موسى وفي يده العصا فأغرقهم في اليم بعضًا على بعض

فطرب الأشرف وطلب منها تكرار ما قالت فغضب الملك الكامل وأمرها بالسكوت. وطلب من جاريته الغناء فغنت على العود:

أيا أهل دين الكفر قوموا لتنظروا لما قد جرى في وقتنا وتجددا
أعياد عيسى إن عيسى وقومه وموسى جميعًا ينصرون محمدا

فأعجب الكامل بها وأمر لها بخمسمائة دينار ولجارية أخيه الأشرف بخمسمائة دينار[١].

ومن ذلك يتبين لنا أن هؤلاء الجواري كن يطوعن الشعر والغناء لما يرضى هؤلاء السلاطين فيغنمن من وراء ذلك الثروات.

وتزوج بعض السلاطين الأيوبيين من الجواري والمحظيات وكانت غالبية نساء السلاطين من هذه الطائفة[٢]، فكانت أم السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب أم ولد تدعى ورد المنى[٣] وكانت زوجته شجر الدر جارية محظية لديه فاعتقها وتزوجها وأنجب منها ابنه خليل الذي توفي صغيرًا[٤].

---

(١) المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص ٢٠٩.

(٢) أحمد شفيق: الرق في الإسلام، ص ٩٩.

(٣) المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص ٣٣٩.

(٤) أبا الفدا: المختصر، جـ٣، ص١٩٢، ابن تغرى: النجوم، جـ٦، ص٣٧٣.

وانتشر نظام التسري وتعدد الزوجات والذي كان سببًا قويًا في إضعاف الربـاط الأسري في نهايات الدولة الأيوبية وبدايات دولة المماليك الأولى فقد كان من الصعب على زوج لأربع نساء وله العديد من الجواري والحظيات أن يهتم ببناته وأبنائه ومن هنا أصبحت الحياة الأسرية لطبقة المماليك تتميز بالتفكك والجمود والسطحية(١).

كما تدل قصة مريم الزنارية إحدى قصص ألف ليلة وليلة علـى أن الجـواري كثيرًا ما كن يتعرضن للأذى بإعتبارهن سلعة تباع وتشـتري مـن حـق صـاحبها التصرف فيها كيفما شاء، فتروى القصة أن مريم بيعت لأكثر من تـاجر وتعرضـت للضرب والإهانة والإغتصاب من قبل أحد التجار ثم قام ببيعها للآخر(٢).

كما تدلنا ما أشارت إليه بعض قصص ألف ليلة وليلة أن الزوجة كانت في تلـك الفترة قد اعتادت وتقبلت احتفاظ زوجها بالحظايا والجواري والسراري دون أن تبدى إعتراضًا رغم ما عرف عن المرأة من غيرة تدفعها في بعض الأحيان إلى قتل زوجها مثلما فعلت شجر الدر مع المعز أيبك(٣).

---

(١) أحمد عبد الرازق: المرأة في مصر المملوكية، ص١٠١ - ١٠٢.

(٢) رشدي صالح: ألف ليلة وليلة، حكاية على نور الدين المصري مع مريم الزنارية، جـ١٧، ص ١٢٨٨، وما بعدها.

(٣) نفسه: حكاية قمر الزمان ابن الملك شهرمان، جـ٦، ص ٤٢١، وما بعدها وحكاية علاء الـدين أبي الشامات، جـ٧، ص ٤٩٩، وما بعدها.

الوظائف والمهن التي تقلدها المماليك

ارتبطت الوظائف التي تقلدها المماليك في العصر الأيوبي بالسلاطين فقاموا على أمورهم من خدمة وحراسة بشكل كبير وتمكنوا من أن يحوزوا ثقتهم ويثبتوا جدارة فيما كلفوا به من مهام، فمنحهم السلاطين الرتب العالية وقلدوهم الوظائف الهامة مما جعلهم يشكلون عاملاً مهمًا وأساسيًا في إدارة شئون الحكم، بل أن يستقلوا به فيما بعد(١)، وذلك على عكس ما كان موجودًا في البلاط العباسي أو عند الطولونيين والإخشيديين، حيث عملوا جنودًا في الجيوش ولم يتمكنوا من الوصول إلى الحكم كما حدث بعد ذلك في عهد المماليك.

وكان المماليك في العصر الأيوبي مثلما كانوا فيما بعد في عصر المماليك فقد قسموا إلى:

أولاً : المماليك السلطانية :

وهؤلاء وصفهم القلقشندي بأنهم «أعظم الأجناد شأنًا وأرفعهم قدرًا وأشدهم إلى السلطان قربًا وأوفرهم إقطاعًا ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة وهم في العدة بحسب ما يؤثره السلطان من الكثرة والقلة»(٢).

ثانيًا : أجناد الحلقة :

«وهم عدد جم وخلق كثير وربما يدخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعممين وغيرهم بواسطة النزول عن الإقطاعات وقد جرت عادة ديوان الجيش عدم الجمع على الجند كي لا يحاط بعدته ويطلع إليه»(٣).

وقد ظهرت تلك التسمية في عهد صلاح الدين لتدل على الجنود الذين احترفوا الجندية وقيل أنهم سموا بذلك لأحاطتهم بالسلطان وقيل أنه اسم مشتق من تكتيك

---

(١) أحمد صادق سعد، تاريخ مصر الإجتماعي، ص٣٨٤ - ٣٨٥.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ١٥، وأنظر المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص٦٥٢.

(٣) نفسه، ص١٥ - ١٦.

عسكري استعمله الترك في الهجوم وذلك بالإحاطة بالعدو على شكل حلقة، هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا يشكلون مجموعة أساسية في الجيش لا تتغير بتغير السلاطين[١].

وكان أجناد الحلقة يقسمون إلى مجموعات فمنهم أمراء الألوف لوضعهم تحت إمرة أمراء الألوف، وكان يطلق عليهم أيضًا لقب الفرسان، والمئيين حيث يترأسهم أمراء المئات أو باش العسكر والأربعينات ويقوم على رأسهم مقدم الأجناد وتمتع الجميع بالتسجيل في ديوان الجيش والحق في الإقطاعات[٢].

وأشرف عليهم النقباء الذين كان عليهم تفقدهم ومعرفة أحوالهم من حيث الغياب والحضور والحياة أو الموت[٣].

وبالإضافة إلى المماليك السلطانية وأجناد الحلقة كانت هناك المماليك البحرية أو طائفة البحرية الذين كانوا يبيتون بالقلعة وحول دهاليز السلطان في السفر كالحرس وهم مماليك الصالح نجم الدين أيوب[٤].

وقد ذكر القلقشندي طائفة البحرية بعد المماليك السلطانية أجناد الحلقة مما يدل على أن هذا التقسيم كان من أنظمة العصر الأيوبي، فلم تقتصر مهمة المماليك من الأمراء على الناحية العسكرية بل كانت تسند لهم الوظائف المختلفة، وكان تقليد المملوك للوظيفة يأتي بعد تأميره، وكان التأمير من الأنظمة الأيوبية التي ورثها بعد ذلك المماليك في دولة المماليك البحرية وكان التأمير من حق السلطان وحده الذي يقوم به.

---

(١) أنظر ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك، ص ١٤٩، عبد الرحمن زكي، الجيش المصري من عين جالوت إلى رشيد، ص ١٠، عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر، ص ١٨.

(٢) عبد الرحمن زكي: الجيش المصري من عين جالوت إلى رشيد، ص ١١.

(٣) محمد كرد علي: الإسلام والحضارة، جـ٢، ص ٢٩٣.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص١٦ - ١٧، أنظر المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص٦٥٥.

مراسم التأمير:

١) كان السلطان يتفقد مماليكه فإذا ظهرت نجابة أحدهم أمره أي جعله أميرًا(١).

٢) كان التأمير يتم في حفل خاص.

٣) كان السلطان يمنح المملوك اللقب ويلبسه زيًا خاصًا.

٤) كان السلطان يضع على رأسه الشربوش(٢).

٥) تخلع عليه إحدى الوظائف الهامة.

٦) تعين له الإقطاعات.

٧) يمنح رنك خاصًا به(٣).

وكان الرنك يوضع على البيوت والأماكن المملوكة لصاحبه كما يوضع على قماش خيوله من جوخ ملون مقصوص وعلى قماش جماله من خيوط صوف ملونة تنقسم على العبي وربما نقش على السيوف والأواني والأدوات الخشبية والمعدنية والزجاجية وقد صار الرنك حقًا وامتيازًا خاصًا بالأمراء وحدهم في عصر الأيوبيين والمماليك فضلاً عن السلطان(٤).

وقد كان السلطان في أواخر العصر الأيوبي يمنح الرنك للمملوك عند تأميره فقد

---

(١) الأمير هو ذو الأمر أو المتسلط واستخدمت تلك اللفظة كاسم وظيفة أو للدلالة على طبقة أو رتبة أو كلقب فخري وقد وردت بهذه الدلالات المختلفة في الكتابات الأثرية على الأثار العربية، حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف، جـ٢، ص ١١٥.

(٢) كان السلطان يلبسه الشربوش وهو شيء يشبه التاج كأنه شكل مثلث يجعل على الرأس يعني عمامه ويلبس معه على قدر رتبته أما ثوب بخ أو طرد وحش أو غيره وقد عرف بذلك سوق الشرابيش. المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٩٩.

(٣) اتخذت الرنوك في مراسم تقليد الأمراء في العصر الأيوبي والرنك كلمة فارسية بمعنى اللون ولكن الرنك كالشارة أو الشعار التي يميز بها الأمير نفسه عن غيره، وكان الرنك عبارة عن رسم لشيء معين حيوان أو طائر أو أداه كالدواه أو السيف وقد يتألف من منطقة واحدة أو ينقسم إلى منطقتين أو ثلاث مناطق افقية وقد يكون من لون واحد أو من أكثر من لون، حسن الباشا، الفنون والوظائف، جـ١، ص ١٧٠.

(٤) حسن الباشا: الفنون والوظائف، جـ١، ص١٧٠ – ١٧٢.

ذكر ابن تغرى بردي أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب أمّر مملوكه أيبك ومنحه رنكًا على هيئة خونجا[1] (أي خوان).

ويبدو أن الرنك كان مرتبطًا بوظيفة صاحبه فحين أمّر أيبك كان يشغل وظيفة جاشنكير للصالح أي ذواقه وقد أعطى رنكًا على هيئة خوانجا أي خوان[2].

وكان يعين لكل أمير مماليك في خدمته ويكلف بقيادة عدد من جنود الحلقة وكان لكل أمير عدد من الجنود ليس له حق استبدالهم إلا بشروط معينة وكان هؤلاء الأمراء هم الذين يقومون على خدمة السلطان وحمايته في الداخل والخارج وإدارة شئون السلطنة[3].

وقد عرفت لفظة الأمير كدلالة على مرتبة أو طبقة في الدولة الأيوبية في مصر وسوريا وكانت انتقلت إليها عن الأتابكة والفاطميين فقد ورثت الدولة الأيوبية النظامين النوري الأتابكي والفاطمي وقد ذكر جرديك بن عبد الله النوري على أنه من أكابر أمراء نور الدين[4] وذكر الحنبلي أنه أحد أكابر أمراء الدولتين النورية والصلاحية[5] وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين أثناء حكمه لمصر «بالأمير الإسفهسلار» [6].

وقد شغل هؤلاء الأمراء المناصب والوظائف العسكرية المختلفة وكانوا على أربع طبقات:

---

(١) ابن تغرى بردي: المنهل الصافي، جـ١، ص ٥.

(٢) الذهبي: العبر، جـ٣، ص ٢٧٥، ابن تغرى بردي، المنهل الصافي، جـ١، ص ٥، حسن الباشا: الفنون والوظائف، جـ٢، ص ١٧٢.

(٣) حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف، جـ١، ص ١٧٥.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق٢، ص ٤٥٦، النويري، نهاية الأرب، جـ٢٨، ص٣٧٥.

(٥) الحنبلي: شذرات، جـ٤، ص ٣١٦، ابن تغري بردي، النجوم، جـ٦، ص١٤٣.

(٦) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٢١٣: ابا الفدا: المختصر، جـ٣، ص٤٧، النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٣٥٩.

الطبقة الأولى:

«أمراء المئيين مقدموا الألوف وعدة كل منهم مائة فارس قال في «مسالك الأبصار» وربما زاد الواحد منهم العشرة والعشرين وله التقدمة على ألف فارس ممن دونه من الأمراء وهذه الطبقة هي أعلى مراتب الأمراء على تقارب درجاتهم ومنهم يكون أكابر أرباب الوظائف والنواب»[1].

الطبقة الثانية:

«أمراء الطبلخاناه[2] والغالب أن عدة كل منهم أربعون قال في «مسالك الأبصار» وقد يزيد بعضهم على ذلك إلى سبعين فارسًا وألا يكون الطبلخاناه لأقل من أربعين وهذه الطبقة لا ضابط لعدد أمرائها بل تتفاوت بالزيادة والنقص»[3].

الطبقة الثالثة:

«أمراء العشرات وعدة كل منهم عشرة فوارس قال في «مسالك الأبصار»، وربما كان فيهم من له عشرون فارسًا ولا يعد إلا في أمراء العشرات وهذه الطبقة أيضًا لا ضابط لعدد أمرائها بل تزيد وتنقص»[4].

الطبقة الرابعة:

«أمراء الخمسات وهم أقل من القليل وأكثر ما يقع ذلك في أولاد الأمراء المندرجين بالوفاه رعاية لسلفهم وهم في الحقيقة أكابر الأجناد»[5].

وظل نظام التأمير معروفًا عند الأيوبيين فكان المملوك يؤمر ثم يولى المناصب

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ١٤، مجهول، مخطوط شرح اللمعة، ص ١٥.

(٢) هي طبول متعددة معها أبواق وزمر مختلف الأصوات على إيقاع مخصوص تدق في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب وصحبة الطبل في الأسفار والحروب وهي رسم قديم للملك، مجهول، مخطوط شرح اللمعة، ص ١٤.

(٣) مجهول: مخطوط شرح اللمعة، ص ١٦، القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص١٤ – ١٥.

(٤) نفسه، ص ١٦.

(٥) نفسه، ص١٥ – ١٦.

الهامة وقيادة الجنود ويمنح الإقطاعات كما كان متبعًا عند السلاجقة والأتابكة ومن أوائل الأمراء المماليك في الدولة الأيوبية منكورش الأسدي الذي توفي في شوال سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م[١] وكذلك يوجد كتابة آثرية بنص جنائزي بتاريخ ٥٩٨هـ/ ١٢٠١م على عمود من الرخام بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة باسم الأمير زين الدين ابن الأمير حسام الدين الحاجب لؤلؤ[٢].

كما تسمى به غالبية المماليك البحرية مثل الأمير فارس الدين أقطاي والأمير بيبرس النبدقداري والأمير قلاوون الألفي والأمير سنقر الأشقر والأمير بيسري[٣] والأمير علاء الدين البندقداري[٤] كما ذكر المعز أيبك أنه صار أميرًا في حياة أستاذه الملك الصالح[٥]، كما قيل عن شمس الدين ابن المقدم أنه أحد كبار الأمراء في دولة صلاح الدين[٦].

وكذلك ذكر شمس الدين على بن الدايه على أنه من أكبر الأمراء النورية[٧] وكذلك الأمير قراجا والأمير عز الدين أسامة والأمير فخر الدين جهاركس[٨].

---

(١) المقريزي: اتعاظ، جـ٣، ص ٣٢٢، حاشية ٣.

(٢) متحف الفن الإسلامي، سجل رقم ١١٧٠٣.

(٣) ابن تغرى بردي: المنهل الصافي، جـ١، ص٧، ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٢٩١ - ٢٩٢.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢٠، ص٤٤٠، المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص٣٩١ - ٣٩٢.

(٥) ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٢٨٨ - ٢٨٩.

(٦) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص ١٢٢، حاشية ٣.

(٧) ابن الأثير: الكامل، جـ١١، ص ٤٠٦.

(٨) المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص ١٧٥.

أنواع الوظائف والمهن التي تقلدها المماليك:

(١) النيابة:

ويلقب صاحبها بالنائب الكافل أو كافل الممالك الإسلامية[١] وهـو ينـوب عـن السلطان في كل شيء سواء التواقيع أو المناشير أي كل ما يعلّم عليه السـلطان[٢] بخلاف سائر النواب الذين لا يوقعون إلا على ما يخص نيابتهم وأحيانًا يلقب السلطان الثاني ويقوم بتعيين أرباب الوظائف كالوزارة وكتابة السر وهو يركب بالعسكر فـي أيام المواكب ويقوم الجميع على خدمته وعند وقوفه بين يدي السلطان يقف في ركن الإيوان فإذا انقضت الخدمة ذهب إلى دار النيابة بالقلعة والأمراء معه ويأتيه النـاس لقضاء حوائجهم وبين يديه أرباب الوظائف وأمامه الحجاب وتقرأ عليه القصص ثـم يمد السماط للأمراء كما يمد لهم السلطان فيأكلون وينصرفون وفي تلك الحالة لم يكن للسلطان اعتراض على قراءة القصص وسماع الشكاوي ويوقع على ما كتبه النائب بالعلامة الشريفة وكذلك كان النائب الكافل مشرفًا على كل أمـور الجـيش ويطلـع السلطان على الأمور الخطيرة فقط وهذا النائب غير نائب الغيبة وهو الـذي يتـولى الأمور في غياب السلطان والنائب الكافل ودوره ينحصر في إخمـاد الثـورات ورد الحقوق إلى أصحابها[٣].

أتابك العساكر:

وأتابك بمعنى كبير أو رئيس والعساكر جمع عسكر أي جيش[٤]. وأصـل تلـك الكلمة فارسية ومعناها الوليد الأمير وأول من لقب بها نظام الدولة وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي عندما فوّض إليه ملكشاه تدبير المملكـة سـنة ٤٦٥هـ/

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ١٧، حاشية ١، سمي بذلك تمييزًا له عن نواب السـلطان بالممالك الشامية.

(٢) مجهول، مخطوط شرح اللمعة، ص ١٧، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ١٧.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٧ – ٢٨.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٦، ص ٢٠٨، حسن الباشا: الفنون والوظائف، ص ١٣.

١٠٧٢م كما قيل أن أطابك معناه أمير أب أو أبــو الأمــراء[١]، أي أكبــر الأمــراء المقدمين بعد النائب الكافل وصاحب هذه الوظيفة هو أشبه بالقائد العــام للجيــوش وهي من أرقى الوظائف ومن أشهر أتابكة العساكر عز الدين أيبك في عهــد شــجر الدر[٢].

أمير مجلس:

وهي أحد أهم الوظائف العسكرية في العصر الأيوبي، ومن المحتمل أنها انتقلت إليهم من السلاجقة والأتابكة[٣].

ويعهد لصاحبها بترتيب مجلس السلطان وترتيب الحراسة الخاصة به سواء في داخل قصره أو حتى في حجرة نومه كما كان يشرف على أطباء القصر والكحالين[٤] وأمثالهم وكان دائمًا من بين أمراء المئيين مقدمي الألوف[٥].

أمير سلاح:

اسم وظيفة يتألف من لفظة أمير ولفظة سلاح أي آلة القتال[٦]. وهو المســئول عن حمل السلاح للسلطان في الإحتفالات (المجامع الجامعة) وصاحبها أحد مقــدمي السلاح داريه من المماليك السلطانية ويشرف على خزانة الأسلحة الســلطانية ومــا يستعمل لها وما يقدم إليها ويكون واحدًا من مقدمي الألوف[٧].

---

(١) مجهول: مخطوط شرح اللمعة، ص ١٧، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ١٨.

(٢) النويري: نهاية الأرب، جـ١٩، ص ٧٥، حاشية ٣، حسن الباشا: الفنون والوظائف، ص١٤ - ١٥.

(٣) حسن الباشا: الفنون الإسلامية، جـ١، ص ٢٥٩.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص١٩، جـ٥، ص٤٥٥، والكحالين هم أطباء العيون، نفسه، جـ٤، ص١٩، حاشية٣.

(٥) مجهول: مخطوط شرح اللمعة، ص ١٧، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ١٩.

(٦) حسن الباشا: الفنون والوظائف، جـ١، ص ٢٥٥.

(٧) مجهول، مخطوط شرح اللمعة، ص ١٧، القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص ١٨.

وكان من أشهر أمراء السلاح في العصر الأيوبي بكتاش الفخري[1] أحد المماليك البحرية في عهد الصالح نجم الدين أيوب[2].

أميراخور[3]:

وهو المشرف على الإسطبلات السلطانية والخيول والبغال والجمال ويسكن باسطبل السلطان وهو مقدم ألف ويساعده ثلاثة من أمراء الطبلخاناه ويتبعهم العديد من أمراء العشرات والأجناد[4].

ومن أشهر من ولى في هذه الوظيفة في عهد الأيوبيين رسول أميراخور الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب[5].

الدوادار:

وتتألف من كلمتين «دواة» العربية ومعناها ما يكتب منه و« دار» بالفارسية

---

(١) الأمير بدر الدين، أمير سلاح الصالحي النجمي، كان مملوكًا لفخر الدين بن الشيخ فصار إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب وتقدم عنده وتأمر في أيامه وكان كريمًا شجاعاً وكان وفاته سنة ٧٠٦هـ / ١٣٠٦م المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٣١ - ٣٢.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٣١ - ٣٢.

(٣) أميراخور من أسماء الوظائف المتفرعة من لفظة أمير وهو اسم مركب من لفظة أمير العربية ولفظة آخور الفارسية ومعناها المعلف وتطلق على أمراء الدواب والقائمين على خدمتها في إسطبلات السلاطين، ومن أشهر من ولى هذه الوظيفة في العصر الأيوبي رسول أميراخور الملك الكامل محمد بن العادل مؤسس أسرة بني رسول المعروفين بملوك اليمن وكانوا يقيمون بحصن تعز وانتقل هذا الاسم إلى الأيوبيين عن طريق الأتابكة والسلاجقة كما هو الحال في الكثير من الألقاب المماثلة المركبة من ألفاظ عربية وأخرى فارسية ولم يعرف هذا الاسم في دولة الفاطميين فقد كان القائم عليها يدعى رائص وانتقلت هذه الوظيفة من الأيوبين إلى المماليك، حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف، جـ١، ص١٧٤ - ١٧٥، وكان يطلق عليه أخورسالار أيضا وهي لفظة تركية تتألف من أخور بمعنى اسطبل وسلار بمعنى مشرف والمعنى الكلي مشرف الاسطبل وكان عليه الإشراف على الاسطبلات والعناية بالخيل وكانت تسند عادة إلى أحد المماليك اوانتقلت إلى الأتابكة ثم الأيوبيين، نفسه، ص ٢٩.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ١٨.

(٥) المصدر السابق، جـ٧، ص ٣٣٩.

وتعني ممسك أي ممسك الدواه أو الموكل بها وقد انتقلت هذه الوظيفة للأيوبيين عن طريق السلاجقة والأتابكة(١).

وصاحبها مسئول عن تبليغ الرسائل عن السلطان إلى العامة وتبليغ السلطان بكافة الأمور وتقديم القصص إليه والمشاورة على من يحضر إلى الباب الشريف وتقديم البريد مع أميرجاندار وكاتب السر ويأخذ الخط على كافة المناشير والتواقيع والكتب وإذا خرج عن السلطان بكتابة شيء بمرسوم حمل رسالته وعينت فيما يكتب(٢).

أمير جاندار(٣):

وتجمع جاندارية(٤) وصاحبها أحد المماليك السلطانية الملازمين للسلطان من حرسه أو حاشية قصرة(٥). وقد ظهرت هذه الوظيفة في عهد الأيوبيين أما في العصر الفاطمي فكانت «جاندار» فقط دون لفظة الأمير.

وكان من مهامه الإشراف على الزردخاناه وهو بمثابة معتقل (أي درجة أعلى من السجن) لأنه لا تطول به مدة المعتقل فإما يفرج عنه أو يقتل وكان هو المناط به تنفيذ العقوبة والقتل حسبما يأمره السلطان ومن هنا جاءت تسميته أمير جاندار أي الأمير الممسك للروح، وربما كانت تعني تلك اللفظة أن من مهامه حراسة السلطان في خروجه والطواف حوله في سفره صباحًا ومساءًا(٦) وتقع على صاحبها أيضًا مسئولية دخول الأمراء للخدمة والإستئذان في ذلك ويدخل أمامهم إلى الديوان ويقدم

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، حاشية ٦، حسن الباشا، الفنون والوظائف، جـ٢، ص٥٢٠.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص١٩ - ٢٠.

(٣) وتتألف هذه الكلمة من ثلاث كلمات «أمير» وهي وظيفة للدلالة على طبقة أو رتبة أو كلقب فخري و« جان » الفاسية والتركية ومعناها الروح، و« دار » الفارسية ومعناها ممسك أي أن معناها الكلي الأمير الممسك للروك، أنظر القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٠، ٥٩، جـ٥، ص ٤٦١، وحسن الباشا: الفنون الإسلامية، جـ١، ص١١٥، ١٩٦.

(٤) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص ٦٥، حاشية ٣.

(٥) مجهول: مخطوط شرح اللمعة ص ١٨، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٠.

(٦) حسن الباشا: الفنون الإسلامية، جـ١، ص ١٩٦.

البريد مع الدوادار وكاتب السر وجرت العادة أن يكون فيها أميـران: مقـدم ألـف وطبلخاناه وصاحب هذه الوظيفة هو المقدم[١].

استادار:

فسر القلقشندي معنى هذه الكلمة أنها فارسية الأصل مركبة من «استذ» بمعنى الأخذ و« دار» بمعنى ممسك، فيكون معناها «ممسك الأخـذ» أو «متـولي قـبض المال»[٢].

وكان شغلها في العصر الأيوبي أحد الأمراء العسـكريين وكـان مـن مهامـه الإشراف على حاشية القصر وخدمه وتنظيمهم في الخدمة، فكان يشرف على إعداد السماط وما يتعلق بالمطبخ والشراب والمحافظة على المـواد الغذائيـة المخزونـة والتأكد من صلاحية الأطعمة كما كان من مهامه الإشراف على خزائن القصر التـي تحوى الآلات والثياب كما كان عليه الإشراف على الخيام والفرش والإشراف علـى الاسطبل وغلمانه والحظائر كما كان من مهامه أيضًا الإشراف على جميع المماليـك والمستخدمين كما كان عليه تنفيذ أوامر الخليفة الشخصية وإليه أمر الجاشـنكيرية وإن كان كبيرهم نظيره في الإمرة من ذوي المئيين، وجرت العادة أن يكونوا أربعـة واحد مقدم ألف وثلاثة طبلخاناه وربما نقصوا، وكان صارم الدين قايمـاز النجمـي مملوك نجم الدين أيوب استادار للسلطان صلاح الدين وكان جهاركس الخليلي أحـد الأمراء الصالحية استادار للملك العزيز بمصر[٣].

الجاشنكير:

اسم وظيفة مركب من لفظين فارسيين: أحدهما «جاشنا أو جاشـني» ومعنـاه

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢٠، مجهول، مخطوط شرح اللمعة، ص ١٨.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٥، ص ٤٥٧.

(٣) مجهول: مخطوط شرح اللمعة، ص ١٨، ابن خلكان: وفيات جـ١، ص ٣٨١، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص ٢٧، النويري، نهاية الأرب، جـ٢٩، ص٢١ حاشية ١، ص ٤٥، حاشية ١، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ١٩، حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظـائف، جــ١، ص٣٩، ٤١.

الذوق والثاني «كبر» ومعناه المتعاطي لذلك أي إنها تعني المتذوق أو الذي يذوق(١) وقد حرفته العامة إلى كلمة شيشني(٢).

ومهمة صاحب هذه الوظيفة تذوق الطعام والشراب قبل تناول الخليفة له خوفًا من أن يكون هذا الطعام مسمومًا لذلك كان له حق الإشراف الكامل على إعداد الطعام والشراب ومراقبة صانعيه للتأكد من إخلاصهم، ويقف على السماط مع استادار الصحبة وأكبرهم يكون من الأمراء المقدمين ومن أشهر من تولى هذه الوظيفة المعز أيبك حيث تولاها للملك الصالح نجم الدين أيوب(٣).

خازندار:

اللفظ مكون من كلمتين الأولى «خزانة» العربية، والثانية «دار» الفارسية بمعنى ممسك، والمعنى الكلي ممسك الخزانة أو الموكل بالخزانة(٤).

ولصاحبها الإشراف على خزائن الأموال السلطانية بما تحويه من أموال وأقمشة وغيرها وكان يليها أمير طبلخاناه ثم أصبحت لأمير ألف(٥).

استادار الصحبة:

وهي إحدى الوظائف التي يليها الأمراء من العسكريين وصاحبها عادة أمير عشرة وربما وليها أيضًا أمير عشرين ومهمته الإشراف على الطعام والمشي أمامه والوقوف على السماط وتحت يده آخر يعبر عنه بالمشرف وله طباخ كبير يعبر عنه باسباسلار(٦).

---

(١) حسن الباشا: الفنون والوظائف، ص ٣٤٤.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٥، ص ٤٦٠.

(٣) مجهول، مخطوط شرح اللمعة ص ١٩، الذهبي: العبر، جـ٣، ص ٢٧٥.

(٤) النويري: نهاية الأرب، ص ١٥٩، حاشية ١، حسن الباشا، الفنون الإسلامية، جـ١، ص ٤٥٣.

(٥) مجهول: مخطوط شرح اللمعة، ص ١٩، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢١.

(٦) مجهول: مخطوط شرح اللمعة، ص ١٩، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص١٣، ٢٠.

مقدم المماليك:

كان لقب المقدم معروفًا في الدولة الأيوبية إذ كان يطلق على رؤساء طوائف الصناع وأصحاب الحرف كما أطلق على قائد الجيش[1] وكذلك على الأمراء الذين كانوا يتوجهون من الأبواب السلطانية لكشف الجسور والمساحة وقبض الغلال فقد لقب هؤلاء بالأمراء المقدمون[2].

وكانت لصاحبها الكلمة المطاعة على المماليك السلطانية والحكم فيهم ولا يكون صاحبها إلا طواشيًا وكان من أشهرهم في العصر الأيوبي، الطواشي شمس الدين الصواب المتوفي سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م[3] وهو الملقب بالزمام وعادته أنه يكون أمير طبلخاناه[4].

زمام الدور السلطانية:

ويكون صاحبها من أكبر الخدام الطواشية وهو المعبر عنه بالزمام وغالبًا ما يكون أمير طبلخاناه[5]. وكانت مهمته الإشراف على جميع حريم السلطان أو الأمير ومخاطبته بشأن ما يخصهن[6].

نقيب الجيوش:

وقد استخدمت تلك اللفظة لتدل على رتبة عسكرية في بعض الدول الإسلامية مثل الدولة العباسية والسلاجقة والأتابكة والأيوبيين[7].

وفي الدولة الأيوبية ودولة المماليك كان النقيب هو المسئول عن تحلية الجند

---

(١) حسن الباشا: الفنون والوظائف، جـ٣، ص ١١٢٤.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٨، ص ٢٣٠.

(٣) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٤٣١.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢٢.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢٢، المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٤٣١.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢٢.

(٧) حسن الباشا، الفنون والوظائف، جـ٣، ص ١٢٩٥.

عند عرضهم ومعه يمشي النقباء وإذا طلب السلطان أو النائب أو الحاجب أميرًا أو غيره أحضره وهو «كأحد الحجاب الصغار وله التطلب بالحراسة في المواكب والسفر»[١].

شاد الناحية:

وهي من الوظائف التي وجدت في عهد الدولة الأيوبية ومهمة صاحبها الإشراف على الناحية وتدبير أمورها والعمل على تثميرها وتعمير ما بها من ضياع[٢].

شاد الدواوين:

وكان يرافق الوزير ومهمته استخلاص الأموال على من يعسر استخلاصه منه وذلك إما بالشدة أو باللين[٣]. وقد عرفت هذه الوظيفة في الدولة الأيوبية حيث تولاها الأمير علاء الدين بن الحصني[٤].

أمير شِكار:

وهي كلمة فارسية بمعنى صيد ، وقد شاعت تلك الوظيفة عند العباسيين والسلاجقة وانتقلت منهم إلى الأيوبيين والمماليك[٥].

وصاحبها يكون مسئولاً عن الجوارح السلطانية من الطيور وغيرها وأعمال الصيد السلطانية وأحواش الطيور وغيرها وهو أمير عشرة[٦]، وأحيانًا يلقب بأمير الصيد[٧].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢٢.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١١،ص٤٧-٤٨، حسن الباشا، الفنون والوظائف، جـ٢،ص٦٠٥.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢٢.

(٤) نفسه، جـ١٢، ص ٣٢٤.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢٣، حاشية ١، حسن الباشا، الفنون الإسلامية، جـ١، ص٢٢٨.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢٣.

(٧) حسن الباشا: الفنون الإسلامية، جـ١، ص ٢٢٩.

أمير الطبر:

وطبر بالفارسية تعني فأس[1] وصاحبها يكون حاملاً الطَّبَر في المواكب، ويحكم على من دونه من الطَّبَردارية الذين يمشون في المواكب حاملين الفؤوس، وعادتها إمرة عشرة أيضًا[2].

أمير علم:

اشتهرت هذه الوظيفة في عصر السلاجقة فكانت تسمى أمير العلم السلطاني، ومنها انتقلت إلى الأتابكة والأيوبيين[3]. وكانت مهمته الإشراف على الأعلام السلطانيةوالطبلخاناه وأهلها وأدواتها وآلاتها من الطبول والأسواق، كما كان من مهامه أيضًا الوقوف على الطبلخاناه عند ضربها في كل ليلة وكذلك تولي أمرها في السفر والإحتياط عليها في الحرب وتحريك العساكر سواء بالإقدام والمبارزة أو بالإدبار حسبما تقتضى ظروف الحرب[4]. وصاحبها غالبًا ما يكون أمير عشرة[5].

حارس الطير:

ويكون صاحبها مسئولاً عن حراسة الطيور من الكراكي التي هي بصدد أن يصيدها السلطان في الأماكن التي تنزل بها الطيور من المزارع وغيرها ويكون صاحبها عادة أمير عشرة[6].

---

(١) نفسه، ص ٢٣٠.

(٢) مجهول: مخطوط شرح اللمعة ص ٢٠، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢٣.

(٣) حسن الباشا: الفنون والوظائف، جـ١، ص ٢٤٢.

(٤) مجهول: مخطوط شرح اللمعة، ص ٢٠، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص١٣، ٢٢، ٢٣، جـ٥، ص٤٥٦.

(٥) مجهول: مخطوط شرح اللمعة ص ٢٠، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢٣.

(٦) مجهول: مخطوط شرح اللمعة، ص ٢٠، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢٣.

أمير حاجب:

وهي صيغة لوظيفة «حاجب»(١) وهو من أركان الملك القديمة من الدولة الأيوبية(٢).

ومهمة صاحبها أن ينصف بين الأمراء والجند تارة بنفسه وتارة بمراجعته النائب وإليه تقديم من يعرض ومن يرد وعرض الجند وغيره وجرت العادة على خمسة حجاب اثنان من مقدمي الألوف وهما حاجب الحجاب(٣) وصاحب الميسرة وثلاث طبلخانات(٤).

اسباسلار:

وهو كبير الطباخين وقد عرفت هذه الوظيفة عند السلاجقة والأتابكة ومن بعدهم الأيوبيين، وكانت مهمته الإشراف على الطباخين في المطبخ السلطاني ومن مهامه إعداد الطعام للسلطان وحاشيته وتجهيز الأسمطة في أيام الإنتقالات وكذلك إعداد الولائم وكان يشرف عليه أمير يسمى استادار الصحبة وأميرًا آخر يسمى المشرف(٥).

أخورسلار:

وهي لفظة تركية تتألف من جزئين الأول آخور وتعني اسطبل وسلار وتعني مشرف والمعنى الكلي مشرف الاسطبل.

وقد عرفت هذه الوظيفة عند السلاجقة ومهمة صاحبها الإشراف على

---

(١) حسن الباشا: الفنون الإسلامية، جـ١، ص ٢٠٦.

(٢) مجهول، مخطوط شرح اللمعة، ص ١٨.

(٣) وهو المشار إليه من الباب الشريف والقائم مقام النائب في كثير من الأمور وأول من استخدم هذا الإسم عبد الملك بن مروان الأموي لحجب السلطان عن العامة واغلاق الباب دونهم أو فتحه لهم وقتما يشاء السلطان وتبعه العباسيون في إستخدام حاجب الحجاب، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢٠.

(٤) مجهول: مخطوط شرح اللمعة ص ١٨، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢٠.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ١٣.

الإسطبلات السلطانية بما في ذلك العناية بالخيول والسروج الخاصة بها، وكانت عادة تسند إلى أحد المماليك، وقد انتقلت إلى الأيوبيين بعد السلاجقة والأتابكة(١).

جمدار:

وهذا الاسم مؤلف من جزئين: أحدهما من اللغة التركية جاما ومعناها الثوب(٢)، والثانية دار الفارسية وتعني ممسك فيكون المعنى الكلي هو ممسك الثوب أو الوصيف الذي يلازم السلطان أو الأمير لإلباسه ثيابه ويشارك في حراسته كما اتخذ الأمراء أيضًا لكل منهم جمداريته يتعهدون إلباسه ويلازمونه(٣) ومن أشهر الجمدارية في العصر الأيوبي أقطاي الذي تولى هذه الوظيفة في عهد الصالح أيوب، فقد ذكر اسمه مقترنًا بلقب الجمدار(٤). وكذلك كان الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي النجمي من أكبر جمدارية الصالح أيوب، وكان الجمدارية يبيتون عند السلطان ويسهرون بالنوبة وكلما انقضت نوبة مجموعة أيقظوا أصحاب النوبة الذين يلونهم ويقومون بلعب الشطرنج والأكل أو يقرأون في المصاحف حتى لا يغلبهم النوم(٥).

الطشت دار:

وقد وجدت هذه الوظيفة في العصر الأيوبي فقد ذكر المقريزي أن العادل قد أعطى عبدًا أسود عمله طشت داره يعرف بابن كرسون منشورًا بخمسين فارسًا(٦) وهو المسئول عن تفرقة اللحم على المماليك السلطانية من الحوائج خاناه وإقامة قَبَّاض اللحم وتحت يده عدة غلمان عرفوا بالطشت داريه أو بالرختوانيه ويطلق على كل من غلمان الطشت خاناه وقَبَّاض اللحم بابا وهي لفظة رومية بمعنى الأب أطلقت

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٦، ص ١٧، وأنظر حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف، جـ١، ص ٢٩.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥، ص ٤٥٩.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص٤٩، ٦١، جـ٥، ص ٤٥٩.

(٤) ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص ٣٧٥، ابن تغرى بردي: المنهل الصافي، جـ١، ص ٧.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٤٩.

(٦) المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص ٢٩٤.

على مهتار الطشت خاناه تعظيمًا له وهؤلاء الغلمان يتدربون على ترتيب الأحمال التي تحمل على ظهور البغال للزينة في المواكب العظيمة ونحوها «ويأتون فيها من بديع الصنعة والتعاليق الغريبة بكل عجيب وهم يتباهون بذلك ويسامى بعضهم بعضًا فيه»(١).

الولاية:

ويتولاها الوالي، وكانت الولاية والولاة قسمين: القسم الأول ولاة الشرطة الذين لقبوا في مصر بولاة الحرب وهم ثلاثة بالقاهرة والفسطاط المعروف بمصر والقرافة فأما والي القاهرة فيحكم في القاهرة وضواحيها وهو أكبر هؤلاء الثلاثة وأعلاهم رتبة ويكون عادة أمير طبلخاناه ووالي الفسطاط ويشرف على الأمور الخاصة بمصر مثلما يحكم والي القاهرة فيها ويكون أمير عشرة ووالي القرافة فيحكم في القرافة والتي تعتبر تربة هاتين المدينتين ويراجعه في تصرفاته والي مصر ويكون أمير عشرة والقسم الثاني هم ولاة القلعة وهم اثنان أحدهما والي القلعة وهو أمير طبلخاناه يشرف على باب القلعة الكبير الذي يعبر منه عامة العسكر والثاني والي باب القُلة ويكون أمير عشرة ويشرف على هذا الباب وأهله(٢).

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ١١.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢٣، مجهول، مخطوط شرح اللمعة، ص ٢٠.

دور المماليك في إقامة المنشآت والمؤسسات

شهدت مصر في العصر الأيوبي نهضة عمرانية كبيرة بالرغم من تخصيص الجزء الأكبر من موارد البلاد لتدعيم القوة العسكرية لمواجهة الصليبيين[1].

وأهتم الأيوبيين بالقاهرة وأضافوا الكثير إلى عمارتها، فأقاموا المدارس وأسسوا المكتبات، وبنوا القلاع والحصون، كما اهتموا بالعلم والعلماء، وشجعوا الفنون ووجهوا عنايتهم إلى مجالات التطور المختلفة فأقاموا العديد من المؤسسات. منها ما اتسم بالطابع الديني كالمساجد والخانقاوات والأربطة والزوايا، ومنها ما كانت له صبغة إجتماعية كالدروب والحمامات ومنها ما استهدف الرقي بالعملية التعليمية كالمدارس ومنها ما تميز بالطابع الإقتصادي كالخانات والأحكار والقياسر وغيرها[2].

وقد أسهم بعض المماليك في أعمال الخير بإقامة المنشآت الحيوية فقد أقام المماليك الأسدية والصلاحية بعض المؤسسات واقتدى بهم المماليك الصالحية النجمية[3]، فقد كان من بين هؤلاء المماليك من يعظمون الدين ويعملون على تثبيته فحبسوا بعض أموالهم على أعمال الخير وبناء المدارس إسهامًا منهم في الحياة الإجتماعية في مصر[4].

وقد تباينت أخلاق هؤلاء المماليك تباينًا غريبًا أذهل الكثير من المؤرخين وجمعوا بين متناقضات كثيرة فرغم أن نشأتهم كأرقاء وبيعهم كالسلع أثر في شخصياتهم وجعل لهم ميلاً للعنف والظلم وسفك الدماء فقد كان لديهم ميلاً أيضًا للفنون والعلوم والأدب والدين فكانوا شديدي التمسك بالدين الإسلامي يؤدون فرائضه

---

(١) سعيد عاشور: مصر في عصر الأيوبيين، ص ١٦٢.

(٢) سعيد عاشور: العلم بين المسجد والمدرسة، ص١٥ – ١٦.

(٣) العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص ٩٦.

(٤) وليام موير: تاريخ دولة المماليك، ص١٨٨ – ١٨٩.

كاملة فأنشأوا المساجد والمدارس وغيرها من المنشآت(1).

ولما كان الناس في كل العصور على دين ملوكهم فكان هؤلاء المماليك يتبعون سنة سلاطينهم في بناء المساجد والمدارس وغيرها(2). ويؤكد ذلك ابن دقماق إذ يقول: «لما عمر السلطان الملك الصالح قلعة جزيرة الروضة وصار في كل سنة يحفر هذا النهر بنفسه وجنده ويطرح بعض رمله في هذه البقعة شرع خواص السلطان الملك الصالح في العمارة على شاطئ هذا البحر فعمر الأمير فخر الدين عثمان بن قزل وولده نور الدين دار الصاحب عماد الدين ولد الصاحب فخر الدين بن الخليلي المنقلة إليه بالإبتياع من ذريتهما وعمر الشمس الضفيدعة التي هي الآن لابن طيبرس الوزيري والربع المجاور لها وبني المعز أيبك التركماني الذي ملك بعد أولاد السلطان الملك الصالح دار الصاحب فخر الدين التي أوقفها خانقاه وبني التجيبي الدار التي هي الآن وقفًا على المارستان المنصوري وبني الطواشي شهاب الدين رشيد الدار التي عند الباب المجاور للفندق المذكور وعمر الأمير عز الدين أيدمر الصالحي في بعض بقعة هذا الجامع الآن منظرة بأيوان كبير أمامه بستان وعمر فوق الأيوان رواقًا عظيمًا وعمر بجوار سور البستان المعروف بالعالمة اسطبلاً كبيرًا وبجواره بيوتات»(3).

كما اعتمد صلاح الدين على مملوكه الأسدي الصلاحي بهاء الدين قراقوش في بناء قلعة الجبل والسور الذي أداره على مصر والقاهرة والقنطرة التي عند الأهرام(4) وكذلك كانت شجر الدر لها «بر ومعروف وإيثار وأوقاف على جهات بر وصدقة»(5).

---

(1) عبد الرحمن زكي: القاهرة، ص١٨٨ - ١٨٩.

(2) المرجع السابق: ص٨٦ - ٨٧.

(3) ابن دقماق: الإنتصار لواسطة عقد الأمصار، ق١، ص ٧٧.

(4) الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٢٠٩، حاشية ١، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٥٤، الحنبلي، شذرات، جـ٤، ص٣٣١ - ٣٣٢.

(5) ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص ٢٩٥.

وقد بنت شجر الدر التربة بطريق المشهد النفيسي(١) فكانت ضريحًا لزوجها الصالح أيوب(٢).

ومن الأسباب التي شجعت هؤلاء المماليك على إنشاء المدارس والمساجد غير إلتماس الأجر والثواب أنهم كانوا ينشأون في بلاط السلطان رقيقًا مبتاعين ولسلطانهم عليهم حق الولاء أو الرق فإذا توفي أحدهم وله مال أو ضياع فتؤول للسلطان دون أولاد هذا المملوك أو المولي ويحرم منها أبناءه فكان أحدهم إذا ولي منصب الإمرة وكثر ماله خشي أن تفاجئه المنية ويستولى السلطان على أملاكه ويتعرض أبناءه للفقر والحاجة فكان يبني المدارس أو الزوايا أو الربط ويقف عليها الأوقاف المغلة من ضياعه أو أبنيته ويجعل في شروط الأوقاف أن يتولاها بعض أولاده وله نصيب منها والأوقاف ثابتة فيطمئن بذلك على مستقبل أبنائه من بعده(٣).

المساجد:

أسهم بعض المماليك في العصر الأيوبي في بناء المساجد ومنها:

مسجد جهاركس الصلاحي:

وهو أبو المنصور جهاركس بن عبد الله الناصري الصلاحي عمر مسجدًا كبيرًا وربعًا معلقًا(٤).

مسجد فخر الدين بن قزل:

بناه فخر الدين أبو الفتح عثمان بن قزل البارومي استادار الملك الكامل الأيوبي أمام المدرسة الفخرية بين سويقة الصاحب ودرب العداس وقد ذكرها المقريزي عند ذكره للمدرسة الفخرية وليس في تصنيفه للمساجد في مصر في كتابه الخطط(٥).

---

(١) الملطي: نزهة الأساطين، ص ٦٨.

(٢) ستانلي لينبول: سيرة القاهرة، ص ١٨٤.

(٣) جرجي زيدان: تاريخ التمدن، جـ٣، ص ٢٠٢.

(٤) ابن خلكان: وفيات، جـ١، ص ٣٨١، المقريزي: خطط، جـ٢، ص ٨٥.

(٥) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٣٦٦، Niel D. Mackenzi, Ayyubid p.١٣٨.

مسجد صواب:

ويقع خارج القاهرة بخط الصليبة عرف بالطواشي شمس الدين صواب وكان مقدم المماليك السلطانية وتوفي ثمان رجب سنة اثنتين وأربعين وستمائة ودفن فيه(١)

مسجد لؤلؤ الحاجب:

ويقع بالقرافة الصغرى: بني بجانبه مقبرة وحفر عندها بئرًا(٢). فقد أحب هؤلاء المماليك المساهمة في بناء المساجد لأن المساجد كانت رمزًا لعزة الإسلام على مر الدهور.

ثانيا: الخوانق والأربطة والزوايا:

الخوانق:

«الخوانق أو الخوانك جمع خانكاه وهي كلمة فارسية معناها بيت وقيل أصلها خونقاه أي الموضع الذي يأكل فيه الملك والخوانك ابتدعت في الدولة الإسلامية حوالي سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م» (٣).

وقد جعلت ليتعبد فيها الصوفية(٤). والخوانق والأربطة والزوايا بمثابة معاهد

---

(١) المقريزي: الخطط جـ٢، ص ٤٢١، Niel D. Machenzie, Ayyubid, Cairo P.138.

(٢) المقريزي: خطط، جـ٢، ص ٤٥٤.

(٣) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٤١٤، أنظر السيوطي، حسن المحاضرة، جـ٢، ص٢٥٦، حاشية ١.

(٤) الصوفية: تيار فكري تميزت به جماعات خاصة من العباد والزهاد وكانت لهم مواقف سلبية أحيانًا وإيجابية أحيانًا أخرى، وكان الصوفية يعرفون باسم القراء والزهاد والنساك، والصوفية حركة أدبية إلى جانب كونها حركة دينية ينقطع أصحابها إلى العبادة والزهد في كل متع الحياه، أنظر فتحية النبراوي، النظم والحضارة الإسلامية، ص٢٤٩ - ٢٥٢، وللمزيد أنظر دولت عبد الله، معاهد تزكية النفوس، ص٣٨ - ٣٩.

دينية إسلامية خصص بها مكانًا للرجال وآخر للنساء(١) وأنشئت خصيصًا لينقطع فيها ذوي العلم والزهاد والعباد(٢).

ويعتبر تشييد الخوانق في بلد من بلدان الدولة الإسلامية تجسيدًا ماديًا وتعبيرًا خالدًا وتعريفًا بمبدأ وعقيدة فكانت الخوانق في العصر الأيوبي تعبيرًا صادقًا عن مدى ما وصل إليه الإسلام من سمو روحاني تمثل في هؤلاء الصوفية الذين اتقوا الله وصفت نفوسهم وكانت لهم أفكارهم الروحانية ذات الطابع الإسلامي الصادق فراعوا الله في تصرفاتهم الظاهرة والباطنة واقتدى بهم الكثير(٣).

ولم تعرف الخوانق بمصر قبل العصر الأيوبي وأول من ابتكر إقامة تلك الخوانق السلطان صلاح الدين الأيوبي فأول خانقاه أقيمت كانت الخانقاه الصلاحية المعروفة بسعيد السعداء وهو لقب خادم للمستنصر الفاطمي اسمه قنبر وكانت تلك الدار ملكًا له ثم سكنها الصالح طلائع بن رزيك ثم سكنها شاور السعدي وزير العاضد ثم ولده الكامل ولما ملك صلاح الدين جعلها خانقاه(٤) وكان إنشاؤها سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م(٥) وأنشئت للفقهاء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة وولي عليهم شيخًا .. وشرط أن من مات من الصوفية وترك عشرين دينارًا فما دونها كانت للفقراء ولا يحق للديوان السلطاني التعرض لها ومن أراد السفر يدفع له المال اللازم لسفره

---

(١) المقريزي: السلوك، جـ٢، ق١، ص ١٨٢، حاشية ٤، وأنظر Neil D Mackenzie, Ayyubid Cairo, p.140.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة، جـ٢، ص ٢٥٦، حاشية ١، وأنظر: Neil O. Mackenzie, Ayyubid Cairo, p.140.

(٣) دولت عبد الله: معاهد تزكية النفوس، ص ٢٩، وقد ذكرت تلك الخوانق في إحدى وثائق العصر المملوكي وهي وثيقة بيبرس الجاشنكير على أنها بيوتًا للصوفية وثيقة بيبرس الجاشنكير ٧٣ محكمة، دار الوثائق المصرية.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٦٨، وأنظر Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo, p.140.

(٥) المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص ١٨٢، حاشية ٤، دولت عبد الله: معاهد تزكية النفوس، ص٣٧.

ورتب للصوفية كل يوم طعامًا ولحمًا وخبزًا وبني لهم حمامًا بجوارهـا فكانـت أول خانقاه عرفت بمصر وسميت بدويرة الصوفية ولقب شيخها بشيخ الشيوخ[١].

وقد كانت نظرة صلاح الدين بإنشاء تلك الخانقاه بعيدة وثاقبة فإنما اراد توثيق الصلة بين مصر وغيرها من البلاد الإسلامية فكانت تلك الخانقاه مأوى للكثير مـن الغرباء المقيمين بمصر من أهل السنة المتصوفين[٢] وأقتدى المعز أيبك التركمـاني بصلاح الدين فبنى دار الصاحب فخر الدين ووقفها خانقاه[٣].

كما أنشأ الأمير علاء الدين ايدكين البندقداري الصالحي النجمي مملوك السلطان الصالح نجم الدين أيوب خانقاه بالقرب من الصليبة في مكان يعرف قـديمًا بـدويرة مسعود وقد جعلها مسجدًا لله تعالى وخانقاه ورتب فيها صوفية وقراء وهـو الـذي ينسب إليه الملك الظاهر بيبرس البندقداري لأنه كان أولاً مملوكه ثم انتقل منه إلـى الصالح نجم الدين أيوب[٤].

الأربطة:

مفردها رباط وجمعها أربطة أو رباطات أو ربط ويطلق لفظ الرباط، والذي هـو لفظًا عربيًا في الأصل، على مكان إقامة الحامية المرابطة عند ثغور العدو[٥].

وقد انبثقت فكرة الأربطة عن الخوانق فكانـت للصـوفية المتطـرفين الـذين يرفضون مواكبة التطور ولا يريدون التواجد مع الصوفية المعتدلين فـي الخوانـق فأنشئت لهم تلك الأربطة وكذلك الزوايا[٦].

---

(١) المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص ١٨٢، وأنظر: Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo, p.141.

(٢) دولت عبد الله: معاهد تزكية النفوس، ص ٣٧.

(٣) ابن دقماق: الإنتصار لواسطة عقد الأمصار، ق١، ص ٧٧.

(٤) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٤٢٠، العبادي: قيام الدولة المماليك، ص ٩٦.

(٥) المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، حاشية ٤.

(٦) دولت عبد الله، معاهد تزكية النفـوس، ص ٣٩، وأنظـر Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo, p.140.

تعددت مراحل تطور الرباط اختلف فيها دوره من مرحلة عسكرية حيث اعتبر بمثابة منشأة أقيمت للدفاع أو الإنذار ثم تحول إلى منشأة دينية وإجتماعية فقد كانت المرابطة نوعًا من الجهاد للزود عن حوزة الإسلام والمسلمين عملاً بما جاء في القرآن الكريم ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾(1).

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(2)، فقد أقام المسلمون الأربطة في ثغورهم ومواقعهم المتاخمة للعدو في الشام ومصر على طول سواحل الخليج العربي وذلك أيام الفتوحات الإسلامية، كما أقيم العديد من تلك الأربطة في مواجهة البيزنطيين على الحدود السورية وشمال العراق وخراسان وغيرها من بلاد العدو(3).

وبعد توقف حركة الفتوحات الإسلامية وسيطرة الأجناس غير العربية كالفرس والروم على الدولةالعباسية ضعفت حركة الجهاد وانتشرت حركات الزهد والتصوف وتحولت الأربطة من وظيفتها العسكرية في الثغور وتحول طابعها العسكري وانتقلت من الثغور لتنشأ داخل الأقاليم والمدن وظلت تحمل نفس التسمية مع تغير مدلولها فصارت المرابطة تعني المداومة على الطاعة وانتظار إقامة الصلاة بعد الأخرى على إعتبار أن المرابطين بالرباطات يدفعون بدعائهم البلاء عن العباد والبلاد(4).

وانتشرت الأربطة بهذا المفهوم الجديد في أنحاء العالم الإسلامي ومدنه بمصر وسوريا والعراق وغيرها وخضعت لإقامة الزهاد والمنقطعين وتحدثت عنها بعض الوثائق على أنها مأوى للجند البطالين الذين يصبحون بلا مورد للرزق بعد تبطلهم وانقطاع معاشهم أو سحب اقطاعاتهم وكذلك العتقاء(5).

---

(١) سورة الأنفال، آية ٦٠.

(٢) سورة آل عمران، آية ٢٠٠.

(٣) محمد سيف النصر أبو الفتوح، منشآت الرعاية الإجتماعية بالقاهرة حتى نهاية عصر المماليك، رسالة دكتوراه، جامعة أسيوط، كلية آداب سوهاج ١٩٨٠م، ص ٣٥٢.

(٤) السهروردي، عوارف المعارف، ص ٣٦٢.

(٥) وثيقة السلطان بيبرس الجاشنكير رقم ٧٣، محكمة.

كما يفهم دور تلك الأربطة الإجتماعي من وثيقة خاصة بالسلطان الناصر محمد ذكر فيها أن تلك الأربطة كانت بمثابة مكان يأوى إليه المسافرين القادمين إلى مصر من أنحاء العالم ويقيمون فيه للراحة من عناء السفر حيث يتمتعون بالإقامة المجانية لمدة ثلاثة أيام قابلة للزيادة بموافقة شيخ الرباط إذا رأى أن المسافر له ظروف خاصة يحتاج معها إلى مد مدة إقامته(١).

وكان لتلك الأربطة دور إنساني واجتماعي متميز حيث عكس مدى سبق الحضارة الإسلامية في مجال الرعاية الإجتماعية فقد تم تخصيص البعض منها للنساء الأرامل والمطلقات والمسنات ممن لا عائل لهن ولا مأوى حيث يتم توفير الرعاية الشاملة لهن من إقامة ومأكل وملبس ومشرب حتى لا يضطرون إلى الإنحراف مع مراقبتهن والتعرف على مدى مواظبتهن على آداء العبادات فتقيم الواحدة منهن في الرباط إلى أن تتزوج أو تعود إلى زوجها أو ينتهي أجلها، وانتشرت تلك الأنواع من االأربطة في المدن الإسلامية المختلفة وكان لمصر السبق في هذا المجال فانتشرت الأربطة بمصر والقاهرة فحمت الكثير من نساء مصر اللاتي تعرضن لتلك الظروف من مذلة السؤال أو الإنحراف مع العمل على تثقيفهم في الدين والمداومة على الطاعة والعبادات وانتشرت تلك الأربطة في الفسطاط والقاهرة وخارجها(٢).

وتسابق الناس في إقامة الأربطة وكان من المماليك من أقام الأربطة مثل قراقوش الذي عمر بالمقس رباطًا كما عرف أيضًا رباط الأمير عز الدين أيبك الصالحي النجمي المعروف بالأفرم وهو يقع بحارة المجانين فيما بين سوق القصاصين المتصل بالسوق الكبير والرحبة بالمدرسة المعزية وكان الفقيه رشيد الدين أبو عبد الله البهنسي إمامه وشيخه إلى أن توفي فناب عنه ولده ولهذا الرباط باب من ناحية المطابخ السلطانية(٣).

---

(١) وثيقة السلطان الناصر محمد، رقم ٢٥، محكمة.

(٢) محمد سيف، منشآت الرعاية الإجتماعية، ص٣٦٣ - ٣٦٤.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٤، ص٩١ - ٩٢، ابن أيبك، كنز، جـ٧، ص ١٥١، النويري:=

كما وجد رباط الآثار وقد عرف بالرباط الصاحبي أنشأه الصاحب تاج الدين ابن الصاحب فخر الدين فيما بين عام ٦٤٠ – ٧٠٧هـ / ١٢٤٢ – ١٣٠٧م بجوار بستان المعشوق الذي كان وقفًا عليه وكان به بعض من الآثار النبوية الشريفة التي اشتراها الصاحب تاج الدين من الشريف في ينبع بمبلغ مائتين وخمسين ألف درهم وجعلها في خزانة هذا الرباط للزيارة والتبرك وهي قطعة من العنزة وقطعة من القصعة ومرود وملقط ومخصف[١] وكذلك رباط ابن قزل وهو الأمير فخر الدين أبو الفتح عثمان بن قزل البارومي استادار الملك الكامل محمد بن العادل وعمر هذا الرباط بالقرافة[٢].

الزوايا:

كانت الدروس تقام في تلك الزوايا وكان الدارسون يلتفون حول الشيخ لينهلوا من العلوم ثم تطورت فأصبح لها طابع سياسي[٣]، وذلك بعد أن شاع التصوف وظهر من المتصوفين المتطرفين الرافضين للإعتدال الذي وصف به صوفية الخوانق وانشئت تلك الزوايا ليمارسوا فيها أفكارهم وعقائدهم في إنعزالية تامة عن المجتمع الذي يعيشون فيه[٤].

والزاوية هي في الأصل ركن البناء وكانت تعرف في بادئ الأمر في عهد الدولة الإسلامية على أنها مسجد صغير قد يلحق بمؤسسة أخرى وربما لا تقام فيه صلاة

= نهاية الأرب، جـ٢٩، ص ٣٠، المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٩٣، Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo, P.138.

(١) ابن دقماق: الإنتصار لواسطة عقد الأمصار، جـ٤، ص١٠٢ – ١٠٣، القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٤٧.

(٢) المقريزي: خطط، جـ٢، ص ٣٦٦، وأنظر Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo, p.138.

(٣) دولت عبد الله، معاهد تزكية النفوس، ص ٥٢.

(٤) دولت عبد الله، معاهد تزكية النفوس، ص ٧٥، Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo, p.140.

الجمعة وإمام الزاوية هو الذي يؤم المصلين فيها(١).

وكانت بعض الزوايا تنشأ بهدف إيواء الفقراء من طائفة معينة من الأغراب الذين كانوا يفدون إلى القاهرة كالأحباش والأعاجم وغيرهم، وقد ساهم بعض المماليك في إقامة زوايا في العصر الأيوبي ومنهم الطواشي بلال الفرّاجي الذي أنشأ زاوية لنفس الغرض أطلق عليها زاوية الخدّام خارج باب النصر فيما بين شقة باب الفتوح من ناحية الحسينية وبين شقة الحسينية خارج باب النصر وقد جعلها وقفًا على الخدّام الحبش الأجناد وكان ذلك سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م(٢).

كما أنشأ أحد المماليك الصالحية النجمية وهو عز الدين أيبك الدمياطي الصالحي النجمي أحد الأمراء المقدمين أيام الملك الظاهر بيبرس زاوية الدمياطي التي نسبت إليه فيما بين خط السبع سقايات وقنطرة السد خارج مصر إلى جانب حوض السبيل المعد لشرب الدواب(٣).

وكانت بعض الزوايا تنشأ لأفراد من الصلحاء وتحمل اسم ساكنيها أو منشئيها كزاوية الشيخ خضر التي بناها له السلطان بيبرس البندقداري الذي كان شديد الإعتقاد فيه وكان دائم التردد عليه حتى أنه كان ينزل إليه مرة أو مرتين في كل أسبوع وقد أوقف عليها السلطان بيبرس أحكارًا تغل في السنة نحو ثلاثين ألف درهم(٤).

وقد ذكر زين العابدين عبد القادر الأنصاري الخزرجي أن الزوايا كانت بمثابة مكان لإيواء الفقراء دون شرط إنتمائهم لمذهب معين على أن يداوموا على العبادات فكان الفقراء يجدون بها كل أنواع الرعاية من إقامة وطعام، ويعين للزاوية إمام وخادم وبواب ويوفر بها طعام دائم للفقراء المجاورين والمترددين من ذلك ما جاء بالوثيقة «ويصرف في مصالح الزاوية برسم السادة الفقراء المقيمين والمجاورين

---

(١) حسن الباشا: الفنون الإسلامية الوظائف، جـ١، ص٩٨، ١٠٨.

(٢) المقريزي، خطط، جـ٢، ص ٤٣٢.

(٣) نفسه، ص ٤٣٠.

(٤) نفسه، ص ٤٢٩.

والمترددين من المتعبدين في زمن الواقف، ومن غيرهم من المسلمين الكائنة بالرميلة تجاه الميدان السلطاني بالقرب من قلعة الجبل.. ويرتب إمامًا فقيهًا من أي مذهب من أهل الخير والدين يؤم بالفقراء المجاورين ومن حضر معهم في أوقات الصلاة المفروضات ... وأن يكون هذا الإمام المقرئ خادمًا لما بها من الربعات والشريفات ويتولى مصالحها ويتعهد خزانتها، ويصرف للقيام بجميع ذلك في كل شهر خمسون درهمًا ويرتب الناظر والمترددين والمقيمين ويصرف له خمسون درهمًا ويصرف في كل يوم عشرة دراهم يشتري بها للفقراء المجاورين من الطعام أو من يقوم مقامها ما يقوم بأودهم برسم الغدا والعشا بحسب الأوقات» [١].

الدروب:

وللمماليك الأسدية والصلاحية إلى جانب الخانات دروب ظل بعضها يحمل أسماءهم مدة من الزمان[٢]. ومنها:

درب الجاولي الكبير:

نسبة إلى الأمير عز الدين الجاولي الأسدي وكان يقع بجوار الجامع الأزهري[٣].

درب الوشاقي:

نسبة إلى الأمير حسام الدين سنقر الوشاقي الصلاحي ويقع بحارة زويلة[٤].

درب خاص ترك:

ويقع برحبة باب العيد وعرف بالأمير الكبير ركن الدين بيبرس المعروف بخاص الترك الكبير[٥]، وهو أحد أمراء الصالح نجم الدين أيوب أو بالأمير عز الدين أيبك المعروف بخاص الترك الصغير سلاح دار الملك الظاهر ركن الدين بيبرس

---

(١) وثيقة زين الدين عبد القادر الأنصاري الخزرجي، رقم ٥٦، محكمة، دار الوثائق المصرية.

(٢) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ٩٠.

(٣) المقريزي: خطط، جـ٢، ص ٤٢.

(٤) نفسه، ص ٤٣.

(٥) المقريزي، خطط، جـ٢، ص ٤٣.

البندقداري[١] وكل تلك المنشآت إنما تدل على مقدار ما بلغه مماليك الأيوبيين من نفوذ وكثرة[٢].

درب البنادين (درب أمير جاندار):

بحارة الروم بعرف بالبنادين وهم جملة من طوائف العسكر في الدولة الفاطمية ثم عرف بدرب أميرجاندار وهو ينفذ إلى حمام الفاضل المرسوم بدخول الرجال. وأمير جاندار هذا هو الأمير علم الدين سنجر الصالحي المعروف بأمير جاندار[٣].

درب الرصاصي:

بحارة الديلم: هذا الدرب كان يعرف بحكر الأمير سيف الدين حسين بن أبي الهيجاء صهر بن رزيك من وزراء الدولة الفاطمية ثم عرف بحكر تاج الملك بدران بن الأمير سيف الدين المذكور ثم عرف بالأمير عز الدين أيبك الرصاصي[٤].

الحمامات:

من أهم مظاهر الحياة في مدن الإسلام الحمام[٥]، فقد ارتبط الحمام العام منذ نشأته بخدمة العقيدة على مر العصور ففي مصر الفرعونية على الرغم من أنه

---

(١) نفسه، ص ٤٣.

(٢) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ٩١.

(٣) المقريزي: جـ٢، ص ٤٠.

(٤) نفسه، ص ٤٠.

(٥) الحمام: قال ابن سيده الحمام والحريم والحميمة جميعًا الماء الحار والحميمة أيضًا المخفي إذا سخن وقد أحمه وحمه وكلما سخن فقد حم، قال ابن الأعرابي والحمائم جمع الحميم الذي هو الماء الحار وهذا خطأ لأنه فعيلاً لا يجمع على فعائل وإنما هو جمع الحميمة الذي هو الماء الحار لغة في الحميم مذكر وهو أحد ما جاء من الأسماء على فعال نحو القذاف والجبان والجمع حمامات قال سيبويه: جمعوه بالألف والتاء وإن كان مذكرًا حيث لم يكسر جعلوا ذلك عوضًا عن التكسير والإستحمام الاغتسال بالماء الحار وقيل هو الاغتسال بأيّ ما كان والحميم العرق واستحم الرجل عرق وأما قولهم لداخل الحمام إذا خرج طاب حميمك فقد يعني به العرق أي طاب عرقك وإذا دعي له بطيب العرق فقد دعى له بالصحة لأن الصحيح يطيب عرقه، المقريزي، خطط، جـ٢، ص ٧٩.

ليست هناك أدلة على معرفة الحمام العام عند أفراد الشعب إلا أنه وجدت حمامات ملحقة بالمعابد يستخدمها الكهنة للتطهر قبل إجراء الطقوس ولإجراء طقوس التطهير(١).

وقد ارتبطت بالحمامات العامة الكثير من الخرافات والأساطير المتوارثة والتي تناقلتها الأجيال من أن الجان يتخذون من قباب الحمام سكنًا لهم وسيطر ذلك الإعتقاد على عقول الناس في العصور الوسطى فكان يوصى بعدم الصياح في الحمام فيما بين المغرب والعشاء لأنه وقت إنتشار أو تواجد الشياطين(٢).

وربما يكون هذا الإعتقاد راجعًا إلى العصر اليوناني حيث كان يقام نوع من الحمامات لعبادة الآلهة أفروديت آلهة الحب والجمال والعائلة وكان يطلق على تلك الحمامات اسم (Nymphium) أي مكان سباحة الجنيات فكانت تقوم الجواري المقدسات Nymphe بأداء الطقوس الدينية ومنها السباحة في هذه الحمامات وكان الحضور لمشاهدة هذه الطقوس بمثابة نوعًا من أنواع العبادة وقد اكتشف بمصر حمامات مماثلة لتلك(٣).

وعند الرومان كان الحمام العام هو المعبد الذي يقيمون فيه شعائر عبادة البدن والتي كانت من أقرب العبادات إليهم وكان من الشائع أن عمليات الإستحمام تحلل قوى البدن الحيوانية والطبيعية والنفسية ولإستعادة هذه القوى وتقويتها يقومون بالرسم على جدران الحمامات صورًا ونقوشًا ورسومًا معتقدين في قواه السحرية وكان من تلك الرسوم والصور مناظر الصيد والإستحمام والشرب والأبراج الفلكية وغيرها(٤).

وكان للحمامات العامة دورًا رئيسيًا وبارزًا في المجتمع المصري الإسلامي فقد

---

(١) محمد سيف النصر: منشآت الرعاية الإجتماعية، ص ١٦٠.

(٢) ابن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة، ص ٢٤١.

(٣) ارسطو: مخطوط سر الأسرار (السياسية والفراسة في تدبير الرئاسة)، ص١١٧ – ١١٨.

(٤) محمد سيف: منشآت الرعاية الإجتماعية، ص ١٦١.

كان الجامع والسوق والحمام نواة رئيسية لنشأة أية مدينة إسلامية(1).

وقد جعل الإسلام الطهارة شرطًا أساسيًا لإقامة شعائره فقد حث القرآن والسنة المسلمين على الإهتمام بالنظافة الشخصية والصحة العامة وتطهير الجسم ونظافته وتجلى ذلك في فرض الوضوء على المسلمين عند كل صلاة، فقد صار الحمام من المنشآت العامة وأصبح ضرورة من ضروريات الحياة اليومية(2).

وعرف العرب الإستحمام بالماء الساخن في صدر الإسلام وربما عرفوه من إختلاطهم بالمصريين والسوريين عند فتحهم لبلادهم(3).

وقد ذكر القلقشندي أن عمرو بن العاص كان مندهشًا بعد فتحه لمصر بما رآه من أبنيه وحمامات فقد بعث برسالة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قائلاً: «أما بعد، فإني فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أني أصبت فيها أربعة آلاف بنية وأربعة آلاف حمام ...» (4).

في حين ذكر المقريزي أن أول حمام أنشئ في الفسطاط بناه عمرو بن العاص بسويقة المغاربة وكان يسمى حمام الفأر لأنه كان ضيقًا ثم ازدادت عدد الحمامات بها حتى وصل ألف ومائة وسبعون حمامًا.

ويبدو أن عمرو بن العاص كان يقصد بقوله عدد الحمامات في مصر كلها وليس الفسطاط فقط، وهذا يدل على مدى اهتمام المصريين في ذلك الوقت بالحمامات لأن هذا العدد إذا قورن بتعداد السكان في تلك الفترة فإنه يدل على مدى اهتمام المصريين الشديد ببناء هذه الحمامات والحرص على التأنق في بنائها.

أما في القاهرة فالخليفة العزيز بالله أول من بني بها الحمامات التي أصبح عددها في نهاية القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي ثمانون حمامًا(5).

---

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص ٤٩٤.

(2) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، جـ٤، ص٥٦٦ - ٥٦٧.

(3) نفسه: ص٥٦٦ - ٥٦٧.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٢٣.

(5) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٨٠.

فقد زار المؤرخ العلامة عبد اللطيف البغدادي القاهرة في عهد الأيوبيين ووصفها وصفًا دقيقًا وأشار على ما حظت به الحمامات من عناية فائقة فذكر أن «أحواضها يسع الواحد منها ما بين روايتين إلى أربع روايا وأكثر من ذلك يصب فيه ميزابان بخاخان حار وبارد وقبل ذلك يصب الميزابان في حوض صغير جدًا مرتفع فإذا اختلطا فيه جرى منه الماء إلى الحوض الكبير وهذا الحوض يقع نحو ربعه فوق الأرض وسائره في عمقها ينزل إليه المستحم فيغتسل فيه، وداخل الحمام مقاصير بأبواب وبالحمام أيضًا مقاصير لأرباب التخصص حتى لا يختلطوا بالعوام ولا يظهروا على عوراتهم، وفي وسط الحمام بكرة مرخمة عليها أعمدة وقبة. وجميع ذلك مزوق السقوف مبيض الجدران وجرى ترخيم الأرض بأصناف الرخام المجزع، وهو مع ذلك كثير الضياء رائع الأصباغ بحيث إذا دخله الإنسان لم يؤثر الخروج منه»[1].

وفي إحدى الوثائق المنسوبة للملك العادل والمؤرخة في سنة ٦١١هـ/١٢١٤م نجد وصف لإحدى حمامات العصر الأيوبي وإن كان مختصر وهو حمام البيمارستان ورغم أن هذا الوصف يخلو من التفاصيل إلا أن له أهمية خاصة حيث أنه دون في وثيقة وقف الملك العادل ووصف بأنه حمام صغير كان مخصصًا للرجال ويشتمل إلى جانب الإيوانات الثلاثة في بيت الحرارة على أحواض ومطاهر ومستوقد وقدود ومجاري صرف الماء المستعمل[2].

العاملون بالحمام:

تعددت وظائف القائمين على الخدمة بالحمامات العامة في مصر كما تعددت مسمياتهم وألقابهم حسب تخصصاتهم والوظيفة التي يؤدونها داخل الحمام فمنهم:

الحمامي:

وهو مستغل الحمام ومديره ويسمى أحيانًا المدولب[3] وهو الذي يستأجر الحمام

---

(١) عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص٣٨ - ٤١.

(٢) وثيقة الملك العادل رقم ٢، محفظة ١، وثائق.

(٣) نفسه.

من ناظر الوقف أو صاحبه حيث كانت معظم الحمامات تنشأ لتوقف لصالح منشآت ومؤسسات أخرى كالمدارس والبيمارستانات وغيرها لتدر دخلاً ثابتًا من الأجرة التي يدفعها الحمامي فتنفق على تلك المؤسسات(١) كما أطلق عليه اسم التابوتي حيث يوجد بالمسلخ مصطبة خاصة لوضع التابوت كما خصص مقطع للتابوتي أي المشرف على التابوت الذي يتولى حفظ أمتعة الزبائن بالتابوت (الصندوق الذي يوضع به أمتعة الزبائن) وتسليمها لهم بعد إنتهائهم من الإستحمام كما يطلق عليه الآن معلم الحمام أو المعلم(٢).

القيم:

ويطلق عليه أيضًا القائم وهذه الوظيفة ليست خاصة بالحمامات فقد وجد قائم بيت المال وقائم دار العلم وقيم المدرسة وقيم الرباط(٣)، وهو يشبه المدلك في الحمام ويجب عليه أن يكون متقنًا لصنعته «يغض طرفه ويخشن كفه ويتعهد أرض الحمام بالكنس ويتردد لغسل الخاص العام يعم الرأس حكه والجسم دلكه وعليه أن يحرص ألا يجلس الكرام إلى جانب اللئام وكان يقوم بعمليات التجميل وإزالة الجلد الميت من القدمين بواسطة حجر الخفاف» .

وكان المحتسب يأمر المدلك بأن يدلك يده بقشور الرمان لتصير خشنة فتخرج الأوساخ ويستلذ بها المستحم(٤).

الناطور:

والناطور لغة هو الحافظ والحارس الناظر والناطور وهي حافظ الكرم والنخل أعجمي تجمع على نطار ونطراء ونواطير ونطر(٥) ويشترط فيه صفات معينة وهي

---

(١) محمد سيف عبد الفتاح: منشآت الرعاية الإجتماعية، ص ١٨٣.

(٢) نفسه، ص ١٨٣.

(٣) ابن سعيد المغربي: النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، ص٣١٨ - ٣٢٠.

(٤) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص ٨٩.

(٥) الشيرزي، القاموس المحيط، جـ١١، ص ١٢٠.

الأمانة والنظافة وحسن الخلق وبشاشة الوجه فعليه أن يقوم بتحية الداخلين إلى الحمام كما أن عليه أن يدعو للخارجين منه وهو الذي يقدم المناشف للمستحمين وعليه أن يحرص على أن تكون نظيفة كما يقدم أيضًا أحجار التخفيف لإزالة الجلد الزائد[1].

المزين:

وهو الذي يقوم بالحلاقة للزبائن كما يتولى أيضًا عمليات الختان[2].

الوقاد:

وهو الذي يقوم بإمداد جورة النار بالوقود لتسخين قدور الماء[3].

السواق:

يقوم بإدارة الساقية وسوق البقر كما يتعهدها بالإصلاح وإحضار السلب والدلاء وغيرها من الأدوات اللازمة لرفع الماء لملئ الصهريج لضمان استمرار إمداد القدور بالماء[4].

الزبال:

وعليه القيام بإحضار الوقود اللازم لبيت النار وهو غالبًا ما يكون من زبالة الحي[5].

وقد ساهم المماليك في إقامة الحمامات العامة ومن أشهر تلك الحمامات في العصر الأيوبي:

حمام تتر:

كانت تقع هذه الحمام بخط دار الوزارة الكبرى وتتر هذا أحد مماليك أسد

---

(١) محمد سيف عبد الفتاح: منشآت الرعاية الإجتماعية، ص١٨٤ – ١٨٥.

(٢) المرجع السابق: ص ١٨٥.

(٣) المرجع السابق، ص ١٨٥ – ١٨٦.

(٤) المرجع السابق، ص١٨٥ – ١٨٦.

(٥) المرجع السابق، ص١٨٥ – ١٨٦.

الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين الأيوبي وقد استولى على ذلك الحمام الـذي كان معدًا لدار الوزارة في مدة الدولة الفاطمية فعرف به وما حوله حتى يقـال عـن ذلك المكان خرائب[1].

حمام كرجي:

ويقع بخط خرائب تتر أيضًا وينسب إلى الأمير علم الدين كرجي الأسـدي أحـد أمراء الأسدية في أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وقد خرّب بعدهم[2].

حمام السلطان:

وكان موضعها قديمًا من جملة دار الديباج وقد أنشأها الأمير فخر الدين عثمان بن قزل استادار السلطان الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب[3].

حماما طغريك:

يقعا بجوار فندق فخر الدين بالقرب من سويقة حارة الوزيرية وقد قام بإنشائهما الأمير حسام الدين طغريك المهراني أحد الأمراء الأيوبية[4].

حمام عجينة:

وتقع هذه الحمام بخط الأكفانيين وقد أنشأه الأمير فخر الدين أخو الأميـر عـز الدين موسك في الدولة الأيوبية وظلت ملكيته تتنقل حتى آل إلى أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقداري[5].

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٨٠، وأنظر: Neil D. Mackenzie, Ayyubid, Cairo p96.

(٢) المصدر السابق، ص٧٩ - ٨٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٨١.

(٤) المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٨١، Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo p.97.

(٥) نفسه، ص ٨١.

حمام الرصاصي:

كان يقع هذا الحمام بحارة الديلم وأنشأه الأمير سيف الدين حسين بن أبي الهيجاء المرواني حامل السيف المنصور وأوقفه وما حوله على أولاده وذريته فلما زالت الدولة الفاطمية عرف بالأمير عز الدين أيبك الرصاصي(١).

حمام بن علكان:

ويقع بحارة الجودرية وقد أنشأه الأمير شجاع الدين عثمان بن علكان صهر الأمير الكبير فخر الدين عثمان بن قزل ثم انتقلت ملكيته إلى الأمير علم الدين سنجر الصيرفي الصالحي النجمي(٢).

حمام كتبغا الأسدي:

وهو أحد الأمراء الأسدية وكان يقع هذا الحمام بخط ما بين القصرين(٣).

حمام الرومي:

ويقع بجوار حارة برجوان وعرف بالأمير سنقر الرومي الصالحي النجمي أحد مماليك نجم الدين أيوب البحرية والذي ترقى عنده في الخدم حتى صار جامدار، وكان من خوشداشية بيبرس البندقداري وأصدقائه وقد أنشأ هذا الحمام بجوار اسطبله الذي يعرف باسطبل ابن الكويك وذلك تجاه رحبة داره التي عرفت بدار مازن(٤).

حمام الجويني:

ويقع بجوار حمام ابن الكويك فيما بينها وبين البندقانيين عرفت بالأمير عز الدين إبراهيم بن محمد بن الجويني والي القاهرة في أيام الملك العادل أبي بكر بن

---

(١) نفسه، ص ٨١، نفسه p.96.

(٢) نفسه، ص ٨٢، نفسه p. 98.

(٣) نفسه، ص ٨٢.

(٤) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٨٢، وأنظر: Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo, p.98.

أيوب توفي سنة ٦٠١هـ / ١٢٠٤م وأنشأه بجوار داره فعرف باسم حمام الجهيني[١].

حمام الأفرم:

أنشأه الأمير عز الدين الأفرم بظاهر باب القنطرة وأنشأ حمامًا آخر بجوار داره بخط دار الملك[٢].

وذكر المقريزي أن شجر الدر بنّت حمامات بالقرب من مشهد السيدة نفيسة[٣].

حمام الدود:

هذا الحمام خارج باب زويلة في الشارع تجاه زقاق خان حلب بجوار حوض سعد الدين مسعود بن هنس عرف بالأمير سيف الدين الدود الجاشنكيري أحد أمراء الملك المعز أيبك التركماني وخال ولده الملك المنصور نور الدين علي بن المعز أيبك[٤]، وجاء وصفه في وثيقة وقف السلطان قايتباي أنه كان مزدوجًا حيث يشمل حمامين أحدهما للنساء والآخر للرجال وهما ملاصقين ولهما مستوقد واحد وكان يدخل إلى حمام الرجال بواسطة دهليز يفتح على المسلخ وكان بالمسلخ ثلاثة مقصورات صغيرة (مقاطع) تعلوها ثلاثة أخر تطل عليه ويصعد إليها بسلم وعلى جوانب المسلخ أربعة مساطب ودرابزين من الخشب ويتوسط المسلخ نافورة (فسقية) تعلوها منور (شخشخية) على أربعة أعمدة من الرخام وأرض المسلخ مفروشة بالبلاط الرخام الملون وبأحد جوانب المسلخ يفتح بابين أحدهما باب دورة مياة والثاني يؤدي إلى دهليز مفروش بالرخام الملون بسقفه قبو به جامات مغشاه بالزجاج الملون يؤدي إلى بيت أول وبهذا الدهليز خلوة صغيرة تجاه الداخل

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٨٣.

(٢) ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ص١٠٤ - ١٠٥.

(٣) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٢٠.

(٤) نفسه، جـ٢، ص ٨٤.

مخصصة للأغراض العلاجية حيث نصت الوثيقة على أنها خلوة دواء[1].

حمام لؤلؤ:

ويقع هذا الحمام برأس رحبة الأيدمري ملاصقة لدار السناني من القاهرة أنشأه الأمير حسام الدين لؤلؤ الحاجب وكان أرمني الأصل من جملة أجناد مصر أيام الفاطميين فلما استولى صلاح الدين الأيوبي على السلطنة انضم إلى خدمته وكان كثير التصدق قائمًا على فعل المعروف[2].

المدارس[3]:

استحدثت المدارس في أوائل القرن الرابع الهجري ولم تكن تعرف زمن الصحابة والتابعين.

وكان أول من أنشأ مدرسة في الإسلام أهل نيسابور وهي المدرسة البيهقية كما أنشأ الأمير نصر بن سبكتكين مدرسة، وكذلك بني أخيه محمود بن سبكتكين مدرسة

---

(١) وثيقة السلطان قايتباي، رقم ٨٨٦، وقف دار الوثائق، وجدير بالذكر أن هذا الحمام لا زال موجودًا إلى وقتنا هذا ويقع في شارع محمد علي عند تقاطعه مع شارع الحلمية

(٢) المقريزي: خطط، جـ٢، ص ٨٥، وأنظر: Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo, p/97.

(٣) قال ابن سيده درس الكتاب يدرسه درسًا ودراسة ودارسه من ذلك كأنه عاوده حتى إنقاذ لحفظه وقد قرئ بها وليقولوا درست ودارست ذاكرتهم وحكى درست أي قرئت وقرئ درست ودرست أي هذه أخبار قد عفت وانمحت ودرست أشد مبالغة والدارس والمدارسة وقال ابن جني ودرسته أياه ولدرسته ومن الشاذ قراءة ابن حيوة وبما كنتم تدرسون والمدرس الموضع الذي يدرس فيه، المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٣٦٢، والمدرسة كما يتبين من مدلولها اللغوي تدل على أنها أخص من المسجد من حيث كونها موضع للتدريس وإن كانت تتسع للسجود أيضًا، وإن كان للسجود فكرة منبثقة من الفكرة الأصلية للمدرسة، وهو مكان تلقي فيه الدروس، دولت عبد الله: معاهد تزكية النفوس، ص٧ – ٦٢، وكانت المدرسة غالباً تسمى باسم منشئها وكان بانيها يوقف عليها من الأوقاف ما يكفي للإنفاق على مدرسيها وطلبتها وباقي مستخدميها وعلى إصلاحها والمستخدمون فيها هم ناظر وقفها ومدرسوها والمشرف على خدمها والخدم، أحمد بدوي، الحياة العلمية في عصر الحروب الصليبية، ص٧٥ – ٧٦.

إلى جانب المدرسة السعدية التي أنشأها إلى جانب مدرسة رابعة[1].

وقد أقام بعض المؤسسين المدارس الخاصة بهم لإملاء الحديث أو لإلقاء محاضرات الفقه من ذلك ما يقال أن أبا حاكم محمد بن حيان البستي – نسبة إلى بست – المتوفي سنة ٣٥٤هـ / ٩٦٥م اتخذ من داره مدرسة لأصحابه وأفرد فيها مكانًا ليسكن فيه الطلاب الغرباء الذين يدرسون الحديث والفقه وأنشأ بها خزانة للكتب وضع بها كل ما يملك من الكتب وأقام عليها خازنًا يقوم بمناولة الكتب لمن يريد القراءة أو النسخ وشرط عليه عدم إخراج أي كتب خارج المدرسة وكان للطلبة الدارسين بها بعض الجرايات الخاصة بنفقتهم[2]، ولكن كانت أشهر المدارس التي بنيت في تلك الفترة المدرسة النظامية ببغداد والتي اعتبرها بعض المؤرخين أول مدرسة في الإسلام[3] لأنها الأولى التي «قرر بها للفقهاء معاليم» [4] وسميت كذلك نسبة إلى منشئها وهو الوزير نظام الملك الطوسي[5] وقد بناها في مدينة بغداد سنة ٤٥٧هـ / ١٠٦٤م وانتهى من بنائها سنة ٤٥٩هـ / ١٠٦٦م وقام بالتدريس فيها الشيخ أبو إسحاق الشيرازي الفيروز أبادي صاحب كتاب «التنبيه في الفقه» على مذهب الإمام الشافعي واقتدى الناس به في المشرق وخاصة في العراق وخراسان وما وراء النهر وبلاد الجزيرة وديار بكر وقاموا بإنشاء المدارس وفي تلك الفترة كانت مصر بيد الخلفاء الفاطميين وكانوا يدينون بالمذهب الشيعي الإسماعيلي[6] وكان الطلاب يتلقون أصول المذهب الشيعي في الجامع الأزهر[7].

وقد تنافس الملوك والسلاطين في بناء المدارس بإعتبارها مراكز للعلم والثقافة

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٢٦٣.

(٢) عفاف صبرة: المدارس في العصر الأيوبي، ندوة المدارس، ص ١٤٢.

(٣) جرجي زيدان: تاريخ التمدن، جـ٣، ص ٢٠٠.

(٤) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٣٦٣.

(٥) ابن علي بن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي، وزير ملك شاه بن الب ارسلان بن داود بن ميكال بن سلجوق في بغداد، المقريزي: خطط، جـ٢، ص ٣٦٣.

(٦) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٣٦٣.

(٧) جرجي زيدان: تاريخ التمدن، جـ٣، ص ٢٠٣.

والإشعاع الحضاري، وحاولوا تقليد نظام الملك في إنشائه للنظامية فكانت المدرسة الأتابكية التي أنشأها سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي بالموصل في منتصف القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي كما أنشأ نور الدين محمود الكثير من المدارس في بلاد الشام(١).

وأول ما عرفت المدارس في مصر في العصر الفاطمي في عهد العزيز بالله نزار بن المعز في وزارة يعقوب بن كلس «وأول ما عرف إقامة درس من قبل السلطان بمعلوم جار لطائفة من الناس بديار مصر في خلافة العزيز بالله نزار بن المعز ووزارة يعقوب بن كلس فعمل ذلك بالجامع الأزهر ثم عمل في دار الوزير يعقوب بن كلس مجلس يحضره الفقهاء فكان يقرأ فيه كتاب فقه على مذهبهم وعمل أيضًا مجلس بجامع عمرو بن العاص من مدينة فسطاط مصر لقراءة كتاب الوزير ثم بنى الحاكم بأمر الله أبو علي منصور بن العزيز دار العلم بالقاهرة» (٢).

ورغم محاولات الفاطميين المتعددة للقضاء على دراسة المذهب السنى وفقهه في مصر إلا أن الظروف السياسية التي شهدتها مصر في أخريات العصر الفاطمي شجعت أهل المذهب السني على إقامة حلقات تدريس مذهبهم في جامع الفسطاط(٣)، ثم أنشئت مدرسة في الإسكندرية كان التدريس فيها على مذهب المالكية في أواخر القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي(٤).

كما أنشئت مدرستان سنيتان هما مدرسة الوزير رضوان بن الولخشي سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٨م وعرفت بالصوفية نسبة إلى الفقيه المالكي أبي طاهر بن عوف الذي قام بالتدريس فيها(٥).

---

(١) عفاف صبرة: المدارس في العصر الأيوبي، ندوة المدارس، ص١٤٢ - ١٤٣.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٢٦٣.

(٣) عفاف صبرة: المدارس في العصر الأيوبي، ندوة المدارس، ص١٤٦ - ١٤٧، أيمن فؤاد سيد: المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي، ص١١٦ - ١١٩.

(٤) أيمن فؤاد سيد: المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي، ص ١٢٠.

(٥) سعيد عاشور: العلم بين المسجد والمدرسة، ندوة المدارس، ص ٢٤.

وقد استمدت المدارس كيانها ونظامها من كيان المساجد الجامعة ونظمها فهي حلقات متصلة من التطور وقد اتخذت اسمها وتعريفها من البيوت المتخصصة لسكني الشيوخ والفقهاء لا من قاعات التدريس والمدرسين(1).

ولما سقطت الدولة الفاطمية وأقام صلاح الدين دولة الأيوبيين أبطل المذهب الشيعي وأقام المذهب السني مذهب الإمام الشافعي والمالكي وأقام أول مدرسة سنية بمصر سميت باسمه وهي المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق بمصر ثم تلتها المدرسة القمحية بجوار الجامع أيضًا ثم المدرسة السيوفية بالقاهرة(2).

فمنذ تولي صلاح الدين عرفت المدرسة كمؤسسة سنية رسمية(3)، فقد سار على نهج نور الدين في إقامة المدارس السنية تدعيمًا للمذهب السني وإبطالاً لمذهب الشيعة(4) وكان يعتبر إقامة تلك المدارس نوعًا من القربات إلى الله تعالى فإلى جانب المدرسة الناصرية(5) التي اهتمت بتدريس المذهب الشافعي كان هناك المدرسة القمحية(6) لتدريس المذهب المالكي والمدرسة الصالحية لتدريس المذهب الشافعي(7).

وقد احتل السلاطين الأيوبيين مكان الصدارة بين الحكام المسلمين في الإهتمام بالعلم والتعليم عملاً بمبدأ القرآن الكريم في حث المسلمين على العمل والتعلم واشتهر عن ملوك الأيوبيين حبهم وتقريبهم للعلماء وتباروا في إقامة المدارس

---

(1) أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها، جـ2، المقدمة ح، وأنظر Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo, p.109.

(2) ابن خلكان: وفيات، جـ 7، ص206 – 207، المقريزي: الخطط، جـ2، ص363 .

(3) أيمن فؤاد: المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي، ندوة المدارس ص 121.

(4) عفاف صبرة، المدارس في مصر في العصر الأيوبي، ص148 – 149.

(5) وقد كانت تعرف بابن زين التجار وكنت سجنًا فبناها صلاح الدين للشافعية ابن خلكان: وفيات جـ7، ص 206، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ3، ص 346.

(6) بنيت سنة 566هـ / 1170م وعرفت بذلك الإسم لأن معلومها كان يصرف للمدرسين والطلبة قمحًا، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ3، ص 346.

(7) ابن خلكان: وفيات جـ7، ص206 – 207.

لتدريس المذهب السني إلى جانب العلوم المختلفة مما ساعد على قيام نهضة فكرية وثقافية وأدبية ودينية في ذلك العصر، فأقام الملك العادل المدرسة العادلية لتدريس المذهب المالكي وأقام الكامل المدرسة الكاملية بين القصرين سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م وأقام الصالح نجم الدين أيوب المدرسة الصالحية سنة ٦٣٩هـ / ١٢٤١م لتدريس المذاهب الأربعة(١)، كما وجدت مدارس أخرى كالمدرسة الفاضلية درس بها المذهبين الشافعي والمالكي(٢).

وقد كانت المدارس في العصر الأيوبي يدرس بها مختلف العلوم النقلية كالتفسير والحديث والفقه وعلم الكلام واللغة والصرف والبلاغة والأدب كما كانت تعني أيضًا بتدريس العلوم العقلية مثل الفلسفة والمنطق وعلم النجوم والفلك والرياضيات(٣). فكان إدخال المدارس في مصر بمثابة انقلاب في الثقافة والبناء وأخذت الثقافات المختلفة تتدفق إلى القاهرة من كل أنحاء العالم الإسلامي بفضل إقامة تلك المدارس(٤).

ثم توالى إنشاء المدارس فقد اقتدى المماليك والأمراء بصلاح الدين وخلفائه في بناء المدارس بالقاهرة ومصر وبلادها كما اقتدى به ملوك الترك بعد قيام دولة المماليك وكذلك أمراؤهم(٥)، ولكن القلقشندي يذكر أنه كان هناك فارقًا كبيرًا بين المدارس التي بناها ملوك الأيوبيين وتلك التي بناها المماليك وذلك بعد وصفه للمدرسة الكاملية فيقول: «بني من بني من أكابر دولتهم مدارس لم تبلغ شأو هذه وشتان بين الملوك وغيرهم»(٦).

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٦٧، المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٣٦٩، ٣٨٣، وقارن عفاف صبرة: المدارس في العصر الأيوبي، ص١٣٩ - ١٤٠.

(٢) دولت عبد الله: معاهد تزكية النفوس، ص٦١ - ٦٢، عفاف صبرة: المدارس في العصر الأيوبي، ص١٤٨ - ١٤٩، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، جـ٤، ص ٥٧٠.

(٣) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، جـ٤، ص ٥٧١.

(٤) ستانلي لينبول: سيرة القاهرة، ص ١٦٧.

(٥) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٣٦٣.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص٣٤٦ - ٣٤٧.

وقد قام الأمراء المماليك في العصر الأيوبي بإنشاء العديد من المدارس وهي:

المدرسة القطبية:

وهناك مدرستان تحملان اسم القطبية إحداهما التي نحن بصدد ذكرها والأخرى أنشأتها عصمت الدين مؤنسة خاتون ابنة الملك العادل أبي بكر وشقيقة الملك الأفضل قطب الدين وكانت أديبة فاضلة سمعت الحديث وبنت تلك المدرسة وأوقفتها على الشافعية والحنفية، أما هذه المدرسة فقد أنشأها الأمير قطب الدين خسرو بن بلبان بن شجاع الهذباني سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م وجعلها وقفًا على الشافعية وهو أحد أمراء السلطان صلاح الدين الأيوبي وكانت تقع هذه المدرسة بالقاهرة في خط سويقة الصاحب بداخل درب الحريري[١].

المدرسة الأزكشية:

وقد أنشأها الأمير سيف الدين ايازكوج الأسدي مملوك أسد الدين شيركوه وأحد أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وبناها سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٥م وكان أيازكوج رئيسًا للأسدية بمصر أيام صلاح الدين وابنه العزيز عثمان وقد أوقفها على الحنفية فقط وتقع هذه المدرسة على رأس السوق الذي كان يعرف بالخروقيين ثم عرف بعد ذلك بسويقة أمير الجيوش[٢].

المدرسة العاشورية:

وقد أقامتها الست عاشوراء بنت ساروح الأسدي زوجة الأمير أيازكوج الأسدي وأوقفتها على الحنفية وكانت تقع بحارة زويلة بالقاهرة وقد اشترتها من الطبيب

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٣٦٥، ابن تغرى بردي: النجوم، جـ٦، ص ١٦، حاشية ١، وأنظر: زبيدة عطا: مكتبات المدارس «خزانة الكتب» ندوة المدارس، ص٢٠٩ - ٢١٠، وأنظر: .Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo, p118

(٢) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٣٦٧، وأنظر: Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo, .p.118

اليهودي ابن جميع الذي كان يكتب لقراقوش(1).

المدرسة الفخرية:

أنشأها الأمير فخر الدين أبو الفتح عثمان بن قزل البارومي استادار الملك محمد بن العادل وانتهى من عمارتها سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م وقد تنقل هذا الأمير في الخدم حتى صار أحد الأمراء بمصر وتقدم في أيام الملك الكامل حتى أصبح استاداره وتقع هذه المدرسة فيما بين سويقة الصاحب ودرب العداس(2)، وأطلق عليها البعض المدرسة التيمورية(3) ولم يحدد أحد من المؤرخين المذهب الذي قامت على تدريسه هذه المدرسة(4).

المدرسة الصيرمية:

وقد أنشأها الأمير جمال الدين شويخ بن صيرم أحد أمراء الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب وكانت وفاته سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م وتقع داخل باب الجملون الصغير بالقرب من رأس سويقة أمير الجيوش(5)، ولم يحدد المذهب الذي قامت عليه تلك المدرسة(6).

المدرسة المسرورية:

وتقع داخل درب شمس الدوله وعرفت بالمسرورية نسبة إلى شمس الخواص مسرور أحد خدام القصر في دولة الفاطميين وظل إلى دولة الأيوبيين واختص

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٣٦٨، وأنظر: Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo, p.116.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٣٦٧.

(٣) زبيدة عطا: مكتبات المدارس، ندوة المدارس، ص ٢١٠.

(٤) عفاف صبرة: المدارس في العصر الأيوبي، ص ١٦٠، وأنظر: Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo, p122.

(٥) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٣٧٨.

(٦) عفاف صبرة: المدارس في العصر الأيوبي، ص ١٦٠، وأنظر Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo, p122.

بالسلطان صلاح الدين وكان مقدمًا عنده فقدمه على حلقته ولا زال مقدمًا إلى أيام الكامل ثم توفي وكانت هذه المدرسة دارًا له في الأصل أوصى أن تجعل مدرسة بعد وفاته فعمل بوصيته وأوقف عليها الفندق الصغير ودرس فيها القاضي كمال الدين خضر[1].

وقد بناها من ثمن ضيعة له بالشام بيعت بعد وفاته لتحويل تلك الدار إلى مدرسة[2]، مما يدل على أن الخدام قد اقتدوا بأسيادهم.

المدرسة الغزنوية:

وقد أنشأها أحد مماليك الصالح نجم الدين أيوب وهو الأمير حسام الدين قايماز النجمي وقد نسبت إلى الشيخ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن يوسف بن علي بن محمد الغزنوي البغدادي المقرئ الفقيه الحنفي الذي قام بالتدريس بها وكان إمامًا في الفقه وسمع على الحافظ السلفي وغيره وهي من مدارس الحنفية وتقع في راس سويقة أمير الجيوش[3].

الخانات[4]:

كان أمراء المماليك يقومون ببناء الخانات لما تعود عليهم به من فوائد وكان بناء تلك الخانات مدعاة للفخر حيث كانت كل غرفة من غرف تلك الخانات تعود على الأمير صاحبها بإيجار شهري مناسب لمستواها، وقد ازدحمت القاهرة بالخانات.

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٣٧٨، السلوك، جـ١، ق١، ص ٦١٣، حاشية ٣، ج، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٥٦.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٣٧٨.

(٣) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٣٩٠، وقارن Neil D. Mackenzie, Ayyubid Cairo, p.119.

(٤) والخان كلمة فارسية معناها البيت وأصلها خُن يعني يحفر وخانة نطق حلقي لكلمة كن – دن وهي في فارس بمعنى المربع في رقعة الشطرنج. دائرة المعارف الإسلامية، جـ٨، ص ٢١١، عبد الرحمن زكي، القاهرة، ص ١٠٨

وقد أورد المقريزي في خططه معلومات هامة عن خانات القاهرة كما عددها ومنها:

خان مسرور:

كان خان مسرور جزآن أحدهما كبير والآخر أصغر منه، والكبير يقع على يسرة من سلك من سوق باب الزهومة، وهو أحد أبواب القصر الشرقي الكبير الذي بني في عهد الفاطميين سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م إلى الحريرية وكان موضعه خزانة الورق، والصغير على يمنة من سلك من سوق باب الزهومة إلى الجامع الأزهر، وكان مساحة مخصصة لبيع الرقيق بعد أن كان من قبل موضع المدرسة الكاملية(١).

وقد اشترى ثلثها من واحد والباقي من ورثة ابن عنتر وكان قبل ملك الفندق الكبير لغلامه ريحان وحبسه عليه، ثم من بعده على الأسدي والفقراء بالحرمين وكانت العبيد تباع بواسطة مسرور هذا وكان عبدًا محبوبًا لدى صلاح الدين الذي ترك المكان هبة لصالح الفقراء(٢).

خان السبيل:

وقد بناه الأمير بهاء الدين أبو سعيد قراقوش الأسدي الصلاحي مملوك أسد الدين شيركوه والذي وزر لصلاح الدين واعتقه وقد بناه لأبناء السبيل والمسافرين بغير أجر وبه بئر ساقيه وحوض، وكان يقع على باب الفتوح بظاهر القاهرة وله وقف كثير لا يعرف مصرفه(٣).

و«كان هذا الخان تنزله المارة وأبناء السبيل فعرف خطة به» (٤) وكان الفقراء

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٩٢.

(٢) مجهول، مخطوط شرح اللمعة، ص ١٠، وقارن ستانلي لينبول، سيرة القاهرة، ص ٢٢٠.

(٣) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٣٦، ٩٣، وراجع ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٤، ص٩١ - ٩٢، ابن أيبك، كنز الدرر، جـ٧، ص ١٥١، النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص ٣٠، ابن تغرى، النجوم، جـ٤، ص ٤٦.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٦٠.

من المسافرين يقيمون في هذا الخان دون مقابل[1].

خان منكورش:

يقع هذا الخان بخط سوق الخيميين بالقرب من الجامع الأزهر وقد بناه الأمير ركن الدين منكورش زوج أم الأوحد بن العادل الذي انتقل إلى ورثته، ثم انتقل إلى الأمير صلاح الدين أحمد بن شعبان الأربلي فوقفه[2].

خان بلال:

نسبة إلى بلال عبد الصالح نجم الدين أيوب وكان مقربًا جدًا منه حتى أن السلطان قلاوون كان يترحم على الصالح قائلاً: لقد اعتدت أن أحمل نعل هذا العبد «بلال» حينما كان يذهب إلى حضرته!! وكان يقوم بأعمال خير كثيرة وامتدحه الشعراء، ونالوا منه العطايا الكثيرة، وكان من أفضل أعماله بناء ذلك الخان الذي كان يضع التجار فيه صناديقهم التي تشتمل على الثروات القيمة فكانوا يأمنون عليها فيه[3].

القياسر والأحكار:

كانت القياسر والأحكار من المؤسسات الإقتصادية التي ساهم المماليك في أقامتها في العصر الأيوبي ومنها:

قيسارية سنقر الأشقر:

تقع هذه القيسارية على يسار باب زويلة فيما بين خزانة شمائل ودرب الصغيرة تجاه قيسارية الفاضل. وقد قام بإنشائها الأمير شمس الدين سنقر الأشقر الصالحي النجمي أحد المماليك البحرية ولم تزل إلى أن هدمت وأدخلت في الجامع المؤيدي[4].

---

(١) ستانلي لينبول: سيرة القاهرة، ص ٢٢١.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٩٣.

(٣) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٩٢، ستانلي لينبول: سيرة القاهرة، ص ٢٢٠.

(٤) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٨٥.

قيسارية جهاركس:

بناها الأمير فخر الدين جهاركس سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٥م وكانت قبل ذلك يعرف مكانها بفندق الفراخ ولم تزل في يد ورثته وانتقلت إلى الأمير علم الدين صرغتمش بالميراث عن زوجته والي بنت شومان من أهل دمشق، ثم اشتريت لوالدة خليل المسماه بشجر الدر الصالحية سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م ويذكر المقريزي(١) أن «صاحبها جهاركس نادى عليها حين فرغت فبلغت خمسة وتسعين ألف دينار على الشريف فخر الدين إسماعيل بن ثعلب وقيل عنها أن جماعة من التجار الذين طافوا البلاد ذكروا أنهم لم يروا مثلها في البلاد في حسنها وعظمها وأحكام بنائها وأن جهاركس بني بأعلاها مسجدًا كبيرًا وربعًا معلقًا وقد توفي جهاركس في دمشق ودفن في جبل الصالحية بتربته هناك».

قيسارية بيبرس:

هذه القيسارية على رأس باب الجودرية من القاهرة وقد اشتراها وما حولها الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكيري قبل أن يتولى السلطنة وكانت دارًا تسمى دار الأنماط هدمها وبني مكانها القيسارية والربع فوقها وعهد بعمارتها إلى مجد الدين بن سالم الموقع ولما اكتمل بناؤها ألزم سائر تجار قيسارية جهاركس وقيسارية الفاضل بإخلاء حوانيتهم من القيساريتين وألزمهم بالسكنى في هذه القيسارية وأجبرهم على ذلك وفرض عليهم أن يدفعوا أجرة عن كل حانوت منها مائة وعشرين درهمًا.

فأكره التجّار على إستئجار تلك الحوانيت بهذه القيسارية وفضل الكثير منهم الاحتفاظ بحانوته القديم إلى جانب هذا الجديد كما قام بنقل صناع الأخفاف وأسكنهم

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٨٦.

في الحوانيت التي خارجها فعمرت بالناس من الداخل والخارج في يومين، وجاء إلى مخدومه بيبرس وكان قد اعتلى السلطنة وتلقب بالملك المظفر وأخبره أنـــه أســـكن القيسارية في يوم واحد فرد عليه بيبرس قائلاً: «يا قاضي إن كنت أسكنتها في يوم واحد، فهي تخلو في ساعة واحدة» وحدث ما توقعه بيبرس فحين فر من قلعة الجبل لم يبت في هذه القيسارية لأحد من سكانها قطعة قماش، بل نقلوا كل ما كان لهم فيها وخلت الحوانيت مدة طويلة ثم سكنها صناع الأخفاف ووصل إيجار الحـــانوت فيهـــا عشرة دراهم بعد أن كانت تؤجر أولاً بمائة وعشرين درهمًا[1].

الأحكار[2]:

فالتحكير على هذا المنع فقول أهل مصر: فلان أرض فلان يعنون منع غيره من البناء عليها. وقد أسهم المماليك في بناء الأحكار ومنها:

حكر البواشقي:

عرف بالأمير ازدمر البواشقي مملوك الرشيدي الكبير أحد المماليـــك البحريـــة الصالحية، وممن قام على الملك المعز أيبك عندما قتل الأمير فارس الدين أقطاي في ذي القعدة سنة ٦٥١هـــ / ١٢٥٣م وخرج إلى بلاد الروم[3].

حكر جوهر النوبي:

ويقع هذا الحكر تجاه الحارة الوزيرية من بر الخليج الغربي في شرقي بســـتان العدة، ويسلك منه إلى قنطرة أمير حسين من طريق تجاه باب جامع أميـــر حســـين الذي تعلوه المئذنة.

وعرف هذا الحكر بجوهر النوبي أحد أمراء الملك الكامل وكان خصيًا وكان قـــد

---

(١) المقريزي: الخطط، جـــ٢، ص٧٨ – ٨٨.

(٢) «قال ابن سيده: الاحتكار جمع الطعام ونحوه مما يؤكل واحتسابه وانتظار وقت الغلاء به، والحكرة والحكر جميعًا ما احتكر، وحكره يحكره حكرًا ظلمه وتنقصه وأساء معاشرته.
المقريزي: الخطط، جـــ٢، ص ١١٣.

(٣) نفسه، ص ١١٤.

تقدم تقدمًا كبيرًا في أيام الملك الكامل وكان ممن ثاروا على الملك العادل بن الكامل وخلعه فلما مات الصالح نجم الدين أيوب قبض على جوهر سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م(١).

حكر بن الأسود جفريل:

ويقع هذا الحكر قبل حكرتكان، كان في الأصل بستانًا ثم حكر وعرف الأمير شمس الدين موسى ابن الأمير أسد الدين جفريل أحد أمراء الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب بمصر(٢).

حكر خطلبا:

ذكر المقريزي أن هذا الحكر حده القبلي إلى الخليج، وحده البحري إلى الكوم الفاصل بينه وبين حكر الأوسية المعروف بالجاولي، وحده الشرقي إلى بستان الجليس الذي عرف بابن منقذ والحد الغربي إلى زقاق هناك.

وكان هذا الحكر بستانًا في الأصل اشتراه جمال الدين الطواشي من جمال الدين عمر بن ناصح الدين داود بن إسماعيل الملكي الكاملي في سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م ثم اشتراه منه الطواشي محي الدين صندل الكامل في سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م وباعه للأمير الفارسي صارم الدين خطلبا الكاملي سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م فعرف به(٣).

---

(١) نفسه، ص ١١٧.

(٢) نفسه، ص ١١٨.

(٣) هو خطلبا بن موسى الأمير صارم الدين الفارسي التبتي الموصلي الكاملي، استقر في ولاية القاهرة سنة ٥٧٢هـ / ١١٨١م ثم عزل منها وسار إلى اليمن فولى بمدينة زبيد بها فأقام بها مدة ثم قدم إلى القاهرة وصار من أصحاب الأمير فخر الدين جهاركس وظل إلى أيام الملك الكامل وصار من أمرائه إلى أن مات سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م. المقريزي: جـ٢، ص ١١٨.

حكر شمس الخواص مسرور:

ويقع هذا الحكر فيما بين خليج الذكر وحكر ابن منقـذ كـان بسـتانًا لشـمس الخواص مسرور الطواشي أحد الخدام الصالحية مات في نصف شوال سنة سـتمائة وسبع وأربعين هجرية بالقاهرة ثم حكر وبني فيه الدور[١].

---

(١) المقريزي: جـ٢، ص ١١٩.

الخاتمة

وبعد هذا العرض خلصت إلى النتائج الآتية:

قد ينصرف الحكم عند الحديث عن المماليك من الجواري والغلمان إلى دولة المماليك بشقيها البحرية والشراكسة، لكن الحقيقة أن المماليك وقد استجلبهم الخلفاء والأمراء والحكام المسلمون إلى العالم الإسلامي واسندوا إليهم الكثير من المهام العامة والخاصة ظاهرة تستوقف النظر ومن ثم كانت هذه الدراسة.

تغلغل المماليك الأرقاء في الحياة العامة في مصر وسيطروا على الخلفاء واستطاعوا أن يثيروا القلاقل والفتن حسب غلبة طائفة على أخرى مما أثر على اقتصاديات البلاد.

وكان تفوق فرقة على أخرى يتم حسبما تقتضي المصالح وكان العنف والقتل وسفك الدماء سمة من السمات التي ميزتهم طيلة هذين العصرين.

تعددت الأسباب التي كانت تدفع تلك الطوائف إلى التصارع والتطاحن فكان الخلفاء أحيانا يقربون طائفة على حساب أخرى ثم يدفعون الثمن في النهاية تداعيا وانهياراً لدولتهم.

كان لاختلاف البيئات والجنسيات لهؤلاء المماليك أثر كبير في عادات وتقاليد كل منهم والتي عبرت في معظم الأحيان عن سمات المجتمعات التي أتوا منها مما أدى إلى التنافس للوصول إلى السلطة والتقرب من الخلفاء لتحقيق هذا الهدف مستخدمين كل الوسائل للوصول إلى غاياتهم، فقد سلبوا الخلفاء هيبتهم ومكانتهم وسيطروا على كل الأمور مما أشاع الفوضى والانهيار الاقتصادي الذي أدى إلى سقوط دولة أثرت العالم الإسلامي علماً وثقافةً ألا وهي الدولة الفاطمية.

لقد فتحت مصر قلبها واحتضنت هؤلاء فحفظوا لها الجميل وأسهموا في الحياة العامة والخاصة للمجتمع المصري.

كان للمماليك دور مؤثر في التاريخ السياسي للعصر الأيوبي في مصر فقد ساندوا صلاح الدين في إسقاط الفاطميين وقيام الدولة الأيوبية ومنهم النورية والأسدية والصلاحية والعادلية والأشرفية والكاملية والبحرية، لكل منهم بصمات واضحة في تاريخ مصر الأيوبية وخاصة في التصدي للصليبيين مع صلاح الدين أو مع خلفاؤه أو مع الصالح أيوب وخاصة تصديهم للحملة السابعة والذي كان انتصارهم فيها بمثابة صرخة الميلاد لقيام دولة المماليك الأولى أو البحرية كما نسبها البعض لهم.

كان لبعد نظر الصالح أيوب وحسه السياسي المرهف والذي تجلى في خوفه من اصطدام طموح ابنه تورانشاه وثورته كشاب بطموح هؤلاء المماليك – الذين تعودوا على نوع رفيع من السياسة يساسون به – والذي ظهر بجلاء في وصيته التي كتبها لابنه قبل وفاته يوصيه فيها بزوجة أبيه شجر الدر وبالمماليك البحرية والتي لم يتنبه إليها ذلك الشاب الثائر مما أدى إلى نهايته على أيديهم بطريقة مأساوية.

أسهمت عوامل مختلفة سياسية واقتصادية وغيرها في التعجيل بنهاية الدولة الأيوبية، من ذلك تصارع خلفاء صلاح الدين وأقاربه وتنافسهم على الاستئثار بالسلطة بالإضافة إلى جلب المماليك بكثرة ليعينوهم على الوصول إلى غاياتهم، مما جعل منهم شوكة قوية في ظهر تلك الدولة فبدلاً من أن يعملوا على الحفاظ عليها أسرعوا في وضع نهاية حاسمة إثر انقلاب عسكري قام به المماليك الذين جعلوا من أنفسهم أرستقراطية عسكرية سيطرت على مقاليد الأمور في مصر.

تغلغل هؤلاء المماليك في القصور وسيطروا على الخلفاء وخاصة الجواري فكانت الجارية التي تحظى برضى سيدها تكون سببا في استكثار هذا الخليفة من أبناء جنسها مكونين طائفة قوية تؤثر في المجتمع المصري سياسياً واجتماعياً واقتصادياً معتمدة على مساندتها لهم وولع الخلفاء بهن واقتنوهم مع الغلمان والخصيان بكثرة.

قامت الجواري بالكثير من الأعمال في القصور وكذلك الغلمان وكونوا الثروات وامتكلهم العامة شأنهم في ذلك شأن الخلفاء والوزراء والقواد، وكان لتواجد الرقيق آثار متعددة على الأسرة المصرية سلباً وايجاباً وذلك في العصر الفاطمي.

نلمس في العصر الأيوبي تأثيرات اجتماعية للمماليك في مصر فاستحدثت أنظمة تربية المماليك ورعايتهم والعناية بهم وترتب على ذلك قيام علاقات بين هؤلاء وبعضهم البعض وعلاقات ربطت بينهم وبين المجتمع المصري، ومع ذلك أحاط المماليك أنفسهم بسياج جعل منهم طبقة منعزلة ذات سمات خاصة لا تختلط بمن حولها كما قصروا الوظائف العسكرية عليهم وعلى أبناء جنسهم.

امتهن المماليك العديد من الوظائف في قصور السلاطين الأيوبيين نظرا للثقة التي حازوها لديهم.

وكان لهؤلاء المماليك دور بارز في الإقتداء بسادتهم في إقامة المنشآت الدينية والاجتماعية تقرباً إلى الله تعالى ومساهمة في النهضة الاقتصادية والاجتماعية لذلك العصر فأقاموا المساجد والخانقاوات والأربطة والزوايا والدروب والحمامات والمدارس والخانات والأحكار والقياسر.

من الملاحظ في النهاية أن هؤلاء المماليك كان لديهم إيمان مستقر بوجوب الدفاع عن البلاد ضد أي خطر يقترب منها وكان هذا الشعور نابعا من إيمانهم بالله سبحانه وتعالى وأن الإسلام يفرض عليهم الجهاد ضد المعتدين.

وقد شهد ذلك العصر بدايات التوسع في استخدام المماليك والذين نشط التجار في جلبهم وذلك عندما لمسوا تقدير السلاطين لبضاعتهم واستعدادهم لدفع الأموال الطائلة ثمناً لهم.

فقد ساد العبيد والأرقاء مواليهم بفضل قوة شخصياتهم وطموحاتهم اللانهائية ولكن يجب ألا نغفل في النهاية دورهم القوي والمؤثر رغم إسرافهم في العبث بمصالح الناس في أنهم دافعوا عن مصر وقاموا بدرء أكبر خطرين تعرضت لهما وهما الخطر الصليبي ومن بعده الخطر المغولي.

كانت تقود المماليك في دفاعهم عن مصر نزعتهم الدينية للدفاع عن الإسلام في وقت كان فيه التعصب الديني مسيطراً على عقول الناس وقلوبهم وتناسي الناس قومياتهم وأجناسهم وتلاشت حركة الشعوبية والقوميات أمام الروح الإسلامية التي تمكنت من شعوبها وطغت على أي شعور آخر في نفس الوقت الذي وجد فيه هؤلاء المماليك في الدين الإسلامي ملاذاً وملجأ يضفي عليهم شرعية لتواجدهم في المجتمع بحيث لا ينظر إليهم كأرقاء مستجلبين وإنما مسلمين ينصرون دينهم ويزودون عنه، وأرادوا إثبات ذلك بكل الطرق وبمنتهى البسالة في حروبهم ضد الصليبيين فكان لهم ما أرادوا واستطاعوا اعتلاء سلطة أكبر قطر من أقطار العالم الإسلامي دون أي اعتراض من شعب تلك الدولة.

ومن اللافت للنظر عند استعراض الذين اعتلوا سلطة الديار المصرية على مر تلك العصور بدءاً بالطولونيين ثم الإخشيديين ثم الفاطميين ثم الأيوبيين وأخيرا المماليك لم نلمس في كل مرحلة من تلك المراحل مقاومة ملموسة أو تصميم قوي من الشعب المصري على رفض اعتلاء هؤلاء سلطنته أو التحكم في مقاليد أموره أو إحساساً بأنه لا ينبغي لهؤلاء الغرباء الأجانب أن يحكموه، فإذا وجدنا له العذر في تقبل حكم الطولونيين والإخشيديين على اعتبار أنهم موفدين بموافقة الخلافة العباسية السنية. فماذا عن الفاطميين الشيعة هل لأن الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي واكبت مجيئهم قد سمحت بقيام دولتهم؟ واذا كان ذلك كذلك فلماذا لم يقاوم الأيوبيين الذين جاءوا لنصرة الفاطميين ثم ما لبثوا أن قاموا بالقضاء على دولتهم تحت سمع وبصر شعب مصر الذي لم يحرك ساكناً للدفاع عن الفاطميين، هل لأن الدولة الأيوبية جاءت بالمذهب السني الذي اعتنقه المصريون وابقوا عليه رغم تواجد الشيعة بينهم وتحكمهم في بلادهم لأكثر من قرنين من الزمان؟؟ مما قد يجعلنا نقول أن ظروف العالم الإسلامي وإحياء فكرة الوحدة الإسلامية قد تضاءلت أمامها الحدود الإقليمية الضيقة.

المصـــادر والمراجـــع

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

العهد القديم (التوراة)

العهد الجديد (الإنجيل)

ثانياً: المخطوطات

١) ابن بطلان ت ٤٥٥هـ/١٠٩٣ أبى الحسن المختار بن الحسن بن عبدون البغدادي «رسالة جامعة لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد» برقم ٢٣٣٢٧ - جامعة القاهرة - نسخة برلين أخذت ١٩٣٠م - عدد اجزائه (١).

٢) بيرس الدواداري ت ٧٢٥هـ/١٤٢٣م ركن الدين المنصور الدواداري المصري «زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة» جـ٦ برقم ٢٤٠٢٦ جامعة القاهرة.

نسخة مصورة بالفوتستات من نسخة محفوظة بمكتبة جامعة أكسفورد.

٣) ابن ظافر - جمال الدين أبو الحسن علي بن أبى منصور ظافر الأزدي ت ٦١٢هـ/١٢١٥م. مخطوط أخبار الدول المنقطعة رقم ٨٩٠ - دار الكتب

٤) المومني - محمد محمد بهادر المومني « فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر» رقم٢٦١٦٦ - جامعة القاهرة، كتب سنة ٨٧٧هـ/١٤٧٢م.

نسخة مأخوذة بالفوتستات تصوير مكتبة جامعة فؤاد الأول ١٩٤٣م عدد أجزائه ٢.

٥) النعمان «القاضي النعمان بن محمد بن حيون قسي» ت ٣٦٣هـ/٩٧٣م. «المجالس والمسائرات» نسخة مأخوذة بالفوتستات عن نسخة مكتوبة بالهند ١٢٢٧هـ/١٨١٢م رقم ٢٦٠٦٠ جزآن - جامعة القاهرة.

٦) مؤلف مجهول «مخطوط شفاء القلوب في تاريخ بـني أيـوب» رقم ٢٤٠٣١ – جامعة القاهرة – نسخة مأخوذة بالفوتستات من نسخة مخطوط بالمتحف البريطـاني تحت رقم OR. 7311.

٧) مؤلف مجهول «مخطوط شرح اللمعة من أخبار المعز» رقم ٢٤٠٢٢ – جامعـة القاهرة، نسخة مصورة بالفوتستات من مكتبة الأسكوريال عدد أجزائه١.

ثالثا: الوثائق

١) وثيقة بيبرس الجاشنكير، ركن الدين الجاشنكيري رقم ٢٣ وقف مؤرخه في ٢٦ شوال ٧١٧هـ/١٣١٧م – دار الوثائق المصرية.

٢) وثيقة زين الدين عبد القادر الأنصاري الخزرجي رقم ٥٦ وقف مؤرخه في ٦ جمادي الأول ٨٠٢هـ/١٣٩٩م دار الوثائق المصرية.

٣) وثيقة شرف خاتون كهارا رقم ٤ وقف والمؤرخة بتاريخ ذي القعدة ٦٣٧هـ/١٢٣٩، دار الوثائق المصرية.

٤) وثيقة الملك العادل الأيوبي رقم ٢ وقف والمؤرخة في ٢٩ رمضان ٦١٣هـ/١٢١٦م – دار الوثائق المصرية.

٥) وثيقة وقف السلطان قايتباي رقم ٨٨٦ أوقاف دار الوثائق المصرية.

٦) وثيقة السلطان محمد بن قلاوون الناصري رقم ٢٥ وقف المؤرخة في ١٦ جمادي الأول سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م. دار الوثائق.

رابعاً: المصادر العربية

١) ابن أبى أصيبعة، موفق الدين ابن العباس أحمد بن القاسم بن خليفة السعدي الخزرجي ت ٦٦٨هـ/١٢٧٠م.

- «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» ٣ أجزاء القاهرة ط١٨٨٢م.

٢) ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير الجزري ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م.

الكامل في التاريخ ١٣ جزء- ط بيروت ١٩٦٥م.

٣) ابن الأخوة، محمد بن أحمد القرشي ت ٧٢٩هـ/١٣٢٩م.

- «معالم القربة في أحكام الحسبة» تحقيق محمد محمود شعبان - صديق أحمد المطيعي - القاهرة - هيئة الكتاب سنة ١٩٦٧.

٤) ابن أمير حاج.

- «التقرير والتحبير».

٥) ابن إياس، أبى البركات الناصري محمد بن احمد ابن إياس الحنفي.

- «بدائع الزهور في وقائع الدهور» ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م، تحقيق محمد مصطفى ط١ القاهرة ١٩٧٥م.

٦) ابن أيبك، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري ت٧٣٢هـ/١٣٣١م.

- كنز الدرر وجامع الغرر الجزء السادس المعروف «بالدره المضية في أخبار الدولة الفاطمية»، تحقيق صلاح الدين المنجد القاهرة ١٩٦١م.

والجزء السابع المعروف «بالدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب» تحقيق د.سعيد عبد الفتاح عاشور القاهرة ١٩٧٢م.

والجزء الثامن المسمى «الدرة الذكية في أخبار الدولة التركية» تحقيق أولرخ هارمان ١٩٧١م.

٧) ابن تيمية: أبى العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحميد ت ٦٧٢هـ/١٢٧٣م.
- «الفتاوى الكبرى» تقديم حسنين محمد مخلوف ط- بيروت.
٨) ابن جبيرت (٦١٤هـ - ١٢١٧م)، أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسي.
- «رحلة ابن جبير» - بيروت ١٩٦٤م.
٩) ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر بن قزا وغلى التركي ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م.
- «مرآة الزمان في تاريخ الأعيان»، الجزء الثامن بقسميه نشر مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد - الدكن - الهند ١٩٥٢م.
١٠) ابن الجيعان، شرف الدين يحي بن المعز بن الجيعان ت ٨٨٣هـ/١٥٨٠م.
- «التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية»- القاهرة ١٩٧٤م.
١١) ابن حسول ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م ابى العلاء بن حسول.
- «تفضيل الأتراك على سائر الأجناد» تقديم عباس العزاوي - القاهرة - ١٩٥٠.
١٢) ابن الحنبلي: ابن العماد الحنبلي. عبد الحي بن أحمد بن محمد المتوفي ١٠٨٩هـ-١٦٧٨م.
- «شذرات الذهب» ٩ أجزاء بيروت ١٩٧٩م.
١٣) ابن حوقل، أبى القسم بن حوقل النصيبي ت بعد سنة ٣٣٦هـ/٩٧٧م.
- «صورة الأرض»، قسمين ط مطبعة بريل ليدن ١٩٢٩م.
١٤) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي ت ٨٠٨هـ - ١٤٠٥م.
- « العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر» تحقيق د. علي عبد الواحد وافى ط القاهرة ١٩٥٨م.

١٥) ابن خلكان، ابن العباس شمس الدين أحمد بن خلكان ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م.
- «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» ٨ أجزاء - تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨م.
١٦) ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن آيدمر العلائي ت ٨٠٩هـ-١٤٠٧م.
- «الإنتصار لواسطة عقد الأمصار» القسم الأول ط بيروت ١٨٩٣م.
١٧) ابن الزبير، رشيد الدين أبو الحسين أحمد بن علي بن إبراهيم الأسواني ت ٥٦٢هـ/١١٦٦م.
- «الذخائر والتحف» تحقيق محمد حميد الله - الكويت ١٩٥٩.
١٨) ابن الساعي ت ٦٧٤هـ /١٢٧٥م، « تاج الدين أبى طالب علي بن انجب المعروف بابن الساعي.
- نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء، الحرائر والإماء » جـ١ تحقيق د. مصطفى جواد - دار المعارف - القاهرة.
- «الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير» جـ٩تحقيق مصطفى جواد ط بغداد ١٩٣٤م.
١٩) ابن سعيد ،أبو الحسن على بن موسى بن سعيد المغربى ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م».
- «المغرب في حلى المغرب« القسم الخاص بتاريخ مصر المعروف «بالنجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة» تحقيق حسين نصار-القاهرة ١٩٧٠م.
٢٠) ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم ت ٦٣٢هـ/١٣٣٨م.
- «سيرة صلاح الدين الأيوبى المسماه بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية« تحقيق جمال الدين الشيال القاهرة ١٩٦٤م.
٢١) ابن شداد،عزالدين محمد بن على إبراهيم ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م.
- «الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة« الجزء الثانى بقسميه تحقيق سامى الدهان - دمشق ١٩٦٢م.

٢٢) **ابن الصيرفى**، أمين الدين أبو القاسم على بن منجب بن سليمان الكاتب ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م.

- «**الإشارة إلي من نال الوزارة**» - تحقيق أيمن فؤاد سيد القاهرة -١٩٩٠م.

٢٣) **ابن طباطبا** - محمد بن على طباطبا ت٧٠٩هـ-١٣٠٩م المعروف بابن الطقطقى.

- «**الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**» ط بيروت ١٩٦٠م.

٢٤) **ابن الطوير**، أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن القيسرانى ت ٦١٧هـ/١٢٢٠م.

- «**نزهة المقلتين في أخبار الدولتين**» تحقيق أيمن فؤاد سيد -القاهرة ١٩٩٢م.

٢٥) **ابن عبد الظاهر**، محيى الدين بن عبد الظاهر ت٦٩٢هـ/١٢٩٢م.

- «**الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**» تحقيق عبد العزيز الخويطر الرياض١٩٧٦م.

٢٦) **ابن العبرى**، العلامة غريغوريوس أبو الفرج بن اهرون المعروف بابن العبرى ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م.

-«**تاريخ الزمان**» ترجمة إسحق رملة ط بيروت ١٩٨٦م.

٢٧) **ابن العديم**، الصاحب كمال الدين أبى القاسم عمر بن هبة الله بن العديم ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م.

- «**زبدة الحلب من تاريخ حلب**» تحتقيق سامى الدهان - ٣أجزاء دمشق١٩٦٨م.

٢٨) **ابن عذارى**، أبو عبد الله محمد المراكشى ت٦٩٥هـ/١٢٩٥م.

- «**البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**» جـ-١-٤ تحقيق ج.سى.كولان وليفى بروفنسال - ليدن - ١٩٤٨م.

٢٩) **ابن الفرات**، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات ت٨٠٧هـ/١٤٠٥م.

- «**تاريخ ابن الفرات**» المجلد الرابع ق١ تحقيق حسن محمد الشماع ط البصرة ١٩٦٧م، المجلد الخامس تحقيق حسن الشماع ط البصرة ١٩٧٠ م.

٣٠) ابن فضلان، أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حمدان ت ٣٠٩هـ/٩٢١م.
- «رسالة بن فضلان في وصف الرحلة إلي بلاد الترك والخزر والروس» تحقيق سامى الدهان دمشق ١٩٨٧م.
٣١) ابن الفوطى، كمال الدين أبى الفضل عبد الرازق بن الفوطى البغدادى ت ٧٢٣هـ/١٣٢٣م.
- «الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة» تحتقيق مصطفى جواد بغداد ١٣٥١هـ.
٣٢) ابن القلانسى، أبي يعلى حمزة بن أسد التميمى القلانسى ت٥٥٥هـ/١١٦٠م.
- «ذيل تاريخ دمشق» نشر أمدروز ط ١٩٠٨م.
٣٣) ابن كثير، أبى الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقى ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م.
- «مختصر تفسير بن كثير» تحقيق محمد على الصابونى ٣ أجزاء - بيروت ط٧ - ١٩٨١م.
٣٤) ابن منظور، «لسان العرب» ط القاهرة ١٣٠١هـ.
٣٥) ابن ميسر، تاج الدين محمد بن على بن يوسف بن جلب راغب ت ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م.
- «أخبار مصر» - تصحيح هنرى ماسيه ١٩١٩م.
- «المنتقى من أخبار مصر» تحقيق أيمن فؤاد سيد طه القاهرة ١٩٨١م.
٣٦) ابن النبيه المصرى.
- «ديوان ابن النبيه المصرى» تحقيق عمر محمد الأسعد، دمشق ١٠٦٨م.
٣٧) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م.
- «مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب» جـ١، ٢، ٣ تحقيق جمال الدين الشيال ط. القاهرة ١٩٥٢م جـ٤، ٥ تحقيق د. حسنين ربيع مراجعة د. سعيد عاشور دار الكتب القاهرة ١٩٧٢م.

٣٨) ابن الوردى، زين الدين عمر بن مظفر ت ٧٥٠هـ/١٣٤٩م.
- «تتمة المختصر في أخبارالبشر» جـ١ تحقيق السيد محمد مهدى السيد حسن الخرسان ط١٩٦٩م، جـ٢ تحقيق أحمد رفعت البدراوى ط بيروت ١٩٧٠م.
-«خريدة العجائب وفريدة الغرائب» ط القاهرة ١٢٧٦هـ/١٨٥٩م.
٣٩) أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م.
- «الروضتين في أخبار الدولتين» نشر وتحقيق محمد حلمى محمد أحمد القاهرة ١٩٥٦م.
٤٠) أبو صالح الأرمنى، ت٦٠٥هـ/١٢٠٨م.
- «تاريخ ابى صالح الأرمنى المعروف بكتاب كنائس وأديرة مصر» أكسفورد ١٨٩٥م.
٤١) أبو الفدا، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ت٧٣٢هـ/١٣٣١م.
- «المختصر في أخبار البشر» المطبعة الحسينية المصرية د. ت.
- «تقويم البلدان» باريس ١٨٤٠م.
٤٢) أبو المحاسن، جمال الدين أبو المحاسن بن تغرى بردى الأتابكى ت٨٧٤هـ-١٤٦٩م.
- «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» ط ١٩٦٣ م.
- «المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى» تحقيق أحمد يوسف نجاتى جـ١ القاهرة، ط ١٩٥٦م.
٤٣) الأصطخرى، إسحاق بن إبراهيم بن محمد الفارس ت في النصف الأول من القرن الرابع الهجرى.
-«المسالك والممالك» تحقيق محمد جابر عبد العال الحينى - القاهرة ١٩٦١م.
٤٤) الأصفهانى، عماد الدين الكاتب أبو عبد الله محمد بن صفى الدين أبو الفرج ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م.
- «الفتح القسى في الفتح القدسى» تحقيق محمد محمود صبح.

- «دولة آل سلجوق» القاهرة ١٩٠٠م.
- «خريدة القصر وجريدة العصر» القاهرة ١٩٥١.قسم شعراء مصر تحقيق شوقى ضيف وإحسان عباس جزأن القاهرة ١٩٥١-١٩٥٢م.وقسم شعراء الشام، ١-٣ تحقيق شكرى فيصل المجمع العلمى العربى دمشق - ١٩٥٥- ١٩٦٤م.

٤٥) أمير ميتشاه.
- «تيسير التحرير» جـ٢.

٤٦) الأندلسى، أبى الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى ت ٥٢٨هـ/١١٣٢م.
- «الرسالة المصرية» تحقيق عبد السلام هارون - سلسلة نوادر المخطوطات مجلد ١ القاهرة ١٩٧٣ م.

٤٧) الانطاكى «يحيى بن سعيد » ت ٤٥٨هـ/١٠٦٦م.
- «تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى» تحقيق شيخو في جزأين ط بيروت ١٩٠٩م.

٤٨) الأيوبى، محمد بن تقى عمر بن شاهنشاه ت ٦١٧هـ/١٢٢٠م.
- «مضمار الحقائق وسر الخلائق» تحقيق د. حسن حبشى - القاهرة ١٩٦٨م.

٤٩) البغدادى، عبد اللطيف بن يوسف بن محمد ٦٢٩هـ/١٢٣٢م.
- «الإفادة والإعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» مطبعة وادى النيل القاهرة ١٢٨٦م.

٥٠) البغدادي، صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م.
- «مراصد الإطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع» تحقيق على محمد البجاوى - بيروت ١٩٥٤ م.

٥١) البلوى، أبو حمد عبد الله بن محمد بن عمير من علماء القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى.
- «سيرة ابن طولون» تحقيق محمد كرد على دمشق ١٣٥٨ م.

٥٢) **البنداري**، ابو إبراهيم الفتح بن على بن محمد الإصفهانى ت٦٤٣هـ/١٢٥٤م.

- «**سنا البرق الشامي**» - اختصره من كتاب البرق الشامى - تحقيق فتحية النبراوى القاهرة ١٩٧٩م.

٥٣) **بنيامين التطيلى** (ابن يونه التطيلى الأندلسى) توفى فى النصف الثانى من القرن السادس.

- «**الرحلة**» ترجمة وتحقيق عزرا حداد - بغداد ١٩٤٥ م.

٥٤) **بيبرس المنصوري** ٧٢٥هـ ١٣٢٤م.

- «**التحفة الملوكية في الدولة التركية**». نشر عبد الحميد صالح حمدان طبعة بيروت ١٩٨٧م.

٥٥) **تميم**، أبو على بن المعز لدين الله الفاطمى ت٣٧٤هـ/٩٨٤م.

- «**ديوان تميم**» القاهرة ١٩٥٨م.

٥٦) **الجاحظ** «ابى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ» ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م.

- «**رسائل الجاحظ**» تحقيق عبد السلام هارون طبعة ١٩٦٤ م- القاهرة.

- «**المحاسن والأضداد**» تحقيق فوزى عطوى، بيروت ١٩٦٩م.

- »**الحيوان**» - ٧ أجزاء تحقيق عبد السلام هارون القاهرة - ١٩٣٨م.

٥٧) **الجبرتى** عبد الرحمن الجبرتى ت ١٢٤١هـ/١٨٢٥م.

- «**عجائب الآثار في التراجم والأخبار**» تحقيق وشرح حسن محمد جوهر، عبدالفتاح السرنجاوى والسيد إبراهيم سالم جـ١ القاهرة ط ١٩٥٨ م.

٥٨) **الحسن بن عبد الله** ابن محمد بن عمر بن محاسن بن عبد الكريم.

- «**أثار الأول في ترتيب الدول**» ألفه سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨ م.

٥٩) **الحموى**، أبو الفضائل محمد بن على بن نظيف.

- «**التاريخ المنصوى**» نشر بطرس عز يازينويج أكاديمية العلوم الأتحاد السوفيتى موسكو ١٩٦٠ م.

٦٠) الدسوقى، العلامة شمس الدين الشيخ محمد، عرفة الدسوقى.
- «حاشية الدسوقى على الشرح الكبير» ت ١٢٣٠هـ/١٨١٤طبعة دار أحياء الكتب العربية - الحلبى وشركاه، ٤ أجزاء.
٦١) الدميرى، كمال الدين الدميرى.
- «حياة الحيوان الكبرى» جزآن د.ت.
٦٢) الذهبى، الحافظ شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أحمد ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م.
- «العبر في خبر من غبر»، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيونى بيروت ١٩٨٥م.
٦٣) الزبيدى - المرتضى الزبيدى ت ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م.
- «ترويح القلوب في ذكر ملوك بنى أيوب» تحقيق صلاح الدين المنجد دمشق ١٩٦٩م.
٦٤) ساويرس ابن المقفع أسقف الأشمونين.
- «تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة» تشريس عبد المسيح وعزيز سوريال - جمعية الآثار القبطية القاهرة جـ٢ ١٩٥٩ م، جـ٤ ١٩٧٤م.
٦٥) السهروردى «أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله».
- «عوارف المعارف» القاهرة ١٩٣٩ م.
٦٦) السيوطى، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى ت ٩١١هـ/١٥٠٥ م.
- «حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة» تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - جزآن - القاهرة ط ١٩٦٧م.
- «نزهة العمر في التفضيل بين البيض والسود والسمر» عن نسخة كتبها الشاعر الأديب إبراهيم بن المبلط ط/١ دمشق.

٦٧) الشافعي «أبي عبد الله محمد بن أدريس الشافعي» ت ٢٦٤هـ/٨٧٧م.

- «الشافعي الأم» ٧ أجزاء - ٤ مجلدات تقديم حسن عباس زكي - دار الشعب ط القاهرة ١٣٢١ هـ/١٩٠٣م.

٦٨) الشوكاني، محمد بن علي بن محمد الشوكاني ت١٢٥٥هـ/١٨٣٩م.

- «نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار» ٧ أجزاء دار التراث القاهرة ١٢٩٧هـ.

٦٩) الشيرازي، ابن إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروز أبادي، د.ت جزأن.

- «المهذب في فقه الإمام الشافعي» مطبعة عيسى البابي.

- «القاموس المحيط» ١٤ جزء - القاهرة ١٩٥٢ م.

٧٠) الشيزري، عبد الرحمن بن نصر الشيزري ت ٥٨٩هـ/١١٣٩ م.

- «نهاية الرتبة في طلب الحسبة» نشر السيد الباز العريني - أشراف محمد مصطفى زيادة طبعة القاهرة ١٩٤٦ م.

٧١) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠هـ/٩٢٢م.

- «تاريخ الأمم والملوك» - طبعة دي غويه - ليدن ١٨٨١م.

٧٢) عبد الله بن مسعود المشهور بـ (صبر الشريعة).

- «شرح التوضيح في متن التنقيح»

٧٣) العمراني - محمد بن علي بن محمد المعروف بأبن العمراني.

- «الإنباء في تاريخ الخلفاء» ت ٥٨٠هـ/١١٨٤م تحقيق د.قاسم السامرائي - ليدن ١٩٧٣م.

٧٤) العيني، بدر الدين محمود العيني ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م.

- «عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان» جـ١ تحقيق محمد محمد أمين القاهرة ١٩٨٧م.

- «السيف المهند في سيرة الملك المؤيد» تحقيق فهيم محمد شلتوت ود. محمد مصطفى زيادة - القاهرة ١٩٦٧ م.

٧٥) القلقشندى، أبو العباس أحمد بن على ت ٨٢١هـ/١٤١٨م.
- «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» القاهرة ١٩٦٣م ط ١٩١٣ م.
٧٦) الكاسانى، علاء الدين أبى بكر بن مسعود ت ٥٨٧هـ/١١٩١م.
- «بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع» ٦ أجزاء دار الكتاب - بيروت ط ١٩٨٢م.
٧٧) مالك، بن أنس الأصبحى ت ١٧٩هـ/٧٩٥م.
- «المدونة الكبرى» - ٦ أجزاء، دار صادر بيروت ط ١٣٢٣ هـ.
٧٨) الماوردى، على بن محمد حبيب البصرى الماوردى ٤٥٠هـ/١٠٥٨ م.
- «الأحكام السلطانية والولايات الدينية» ط ١٩٦٦م.
٧٩) المسبحى، الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد ت ٤٢٠هـ/١٠٢٩م.
- «أخبار مصر» تحقيق وليم ميلورد جـ٤٠ الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٠ م.
٨٠) المسعودى، أبو الحسن على بن الحسين بن على ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م.
- «مروج الذهب ومعادن الجوهر» جـ٤ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد بيروت ١٩٧٠ - ١٩٨٠ م.
٨١) المقريزى، تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م.
- «المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار» جزآن - بولاق ١٢٧٠ هـ.
- «السلوك لمعرفة دول الملوك» صححه ووضع حواشية محمد مصطفى زيادة جـ١ ق١ ط ١٩٥٦م جزء ١ ق٢ ط ١٩٥٧ م.
- «اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا» تحقيق جمال الدين الشيال القاهرة ١٩٦٧م جـ١، جـ٢، ٣ تحقيق محمد حلمى أحمد القاهرة ١٩٧٣ م.
- «النقود الإسلامية» نشرة القاهرة ١٩١٤ م.

٨٢) الملطى، عبد الباسط بن خليل بن شاهين الملطى ت ٩٢٠هـ/١٥١٤م.
- «نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين» تحقيق محمد كمال الدين عز الدين مكتبة الثقافة الدينية ط ١٩٨٧م.

٨٣) النويرى، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى ت٧٣٣هـ/١٣٣٢ م.
- «نهاية الأرب في فنون الأدب» جـ٢٨ تحقيق د.محمد محمد أمين ومحمد حلمى أحمد ١٩٩٢م جـ٢٩ تحقيق محمد ضياء الدين الريس، مراجعة د. محمد مصطفى زيادة القاهرة ط ١٩٩٢ م.

٨٤) اليافعى ، أبو محمد عبد الله ابن أسعد بن سليمان ت ٧٦٨هـ/١٣٦٦م.
- «مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة مايعتبر من حوادث الزمان» ط القاهرة ١٣٣٨هـ/١٩١٩م.

٨٥) ياقوت شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت الحموى الرومى» ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م.
- «معجم البلدان» ٥ أجزاء بيروت ١٩٧٧ م.

المصادر الأجنبية المترجمة

١) أرسطو، أرستتليس «السياسيات»، ترجمة الأب أوغسطبنس برباره البولسـى ط بيروت ١٩٥٧م الناشر اليونسكو.

- «سر الأسرار السياسة والفراسة في تدبير الرئاسة» ترجمة يوحنا ابن البطريق ويوحنا ابن ماسويه كتبه الشيرازى سنة ٨٧٦هـ/١٤٧١م ط بيروت ١٩٩٥م.

٢) أفلاطون.

- «جمهورية أفلاطون» ترجمة نظلة الحكيم ومحمد مظهر سعيد، القاهرة ١٩٦٩م.

٣) جروهمان.

-أوراق البردى العربية ،أدولف جروهمان ترجمة حسن إبراهيم حسن.

٤) جوانفيل.

- «القديس لويس» حياته وحملاته على مصر والشام ترجمة حسن حبشى ط ١ القاهرة ١٩٦٨ م.

٥) ناصر خسرو علوى.

- «سفر نامة»، ترجمة يحيى الخشاب القاهرة ط ١٩٩٣ م.

المصادر العربية والمترجمة

١) إبراهيم العدوى (دكتور)

- التاريخ الإسلامى آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية – القاهرة ط ١٩٧٦ م.

٢) ابراهيم مصطفى.

- المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية القاهرة ط ١٩٨٥/٣ م.

٣) إبراهيم هاشم الفلالى.

- لارق في القرآن القاهرة ١٩٦٢ م.

٤) أبو زيد شلبى (دكتور)

- تاريخ الحضارة الإسلامية – القاهرة ط ١٩٦٤م.

٥) أحمد أحمد بدوى (دكتور).

- الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، مكتبة نهضة مصر – القاهرة.

٦) أحمد أمين (دكتور).

- فجر الإسلام القاهرة ط ١٩٦٥ م.

- قاموس العادات والتقاليد المصرية – الطبعة الأولى القاهرة ١٩٥٣م.

٧) أحمد حسين (دكتور).

- موسوعة تاريخ مصر جـ٢، القاهرة ١٩٨٧م.

٨) أحمد السعيد سليمان (دكتور).

- تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، جـ١ دار المعارف القاهرة ط ١٩٧٢م.

٩) أحمد سيد محمد (دكتور).

-الشخصية المصرية في الأدبين الفاطمى والأيوبى – دار المعارف، القاهرة ١٩٩٢م.

١٠) أحمد الشامى (دكتور).

- صلاح الدين والصليبيون القاهرة١٩٩١م.

١١) أحمد شفيق.

- الرق في الإسلام، ترجمة أحمد زكى القاهرة ١٩٨٢م.

١٢) أحمد شلبى (دكتور).

- «موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية» مكتبة النهضة.

- «المجتمع الإسلامى أسس تكوينه -أسباب ضعفه» - وسائل نهضته القاهرة ١٩٨٦م.

١٣) أحمد الشنتناوى.

- دائرة المعارف الإسلامية ١٩٣٣م.

١٤) أحمد صادق سعد (دكتور).

- تاريخ مصر الأجتماعى - الأقتصادى، القاهرة ط ١٩٧٩م.

١٥) أحمد عبد الرازق (دكتور).

- المرأة في مصر المملوكية القاهرة ١٩٧٤م.

١٦) أحمد فكرى (دكتور).

- مساجد القاهرة ومدارسها جـ٢.

١٧) أحمد مختارالعبادى (دكتور).

- قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام بيروت ١٩٦٩م.

- في التاريخ العباسى والفاطمى القاهرة ١٩٨٢م.

١٨) إستارجيان.

- تاريخ الأمة الأرمنية - مطبعة الإتحاد - الموصل ١٩٥١م.

١٩) أدم متز.

-الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة، ط ٣ القاهرة ١٩٥٧م.

٢٠) أدولف أرمان، هرمان رانكه.
- مصر والحياة المصرية في العصور القديمة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال - مكتبة النهضة - القاهرة.
٢١) إسماعيل محمد أبو العينين (دكتور).
- مصر الإسلامية في العصور الوسطى.د.ت.
٢٢) الياس الأيوبى.
- تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربى إلي الفتح العثمانى - القاهرة.
٢٣) أمينة أحمد إمام الشوربجي (دكتورة).
- رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والإقتصادية لمصر في العصر الفاطمي - القاهرة ١٩٩٤م.
٢٤) أنور زقلمه.
- المماليك في مصر، القاهرة ١٩٦٧م.
٢٥) أيمن فؤاد سيد (دكتور).
- «الدولة الفاطمية في مصر»، الطبعة الأولى القاهرة ١٩٩٢م.
٢٦) جان أحمرانيان.
- «من هم الأرمن» - القاهرة ١٩٧٨م.
٢٧) جبور عبد النور.
- الجواري - دار المعارف، القاهرة ١٩٤٧م.
٢٨) جرجي زيدان.
- تاريخ التمدن الإسلامي جـ١، دار الهلال القاهرة ١٩٠٢، جـ ٣، القاهرة ١٩٠٤، جـ ٤، القاهرة ١٩٠٥، جـ ٥، القاهرة ١٩٠٦م.
٢٩) جمال الدين الشيال (دكتور).
- مجموعة الوثائق الفاطمية مجلد ١ القاهرة ١٩٥٨م.

- تاريخ مصر الإسلامية في العصران الأيوبي والمملوكي، القاهرة ١٩٦٣م.

٣٠) جوزيف نسيم يوسف (دكتور).

- هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل، مؤسسة المطبوعات الحديثة.

٣١) حافظ أحمد حمدي (دكتور).

- الدولة الخوارزمية والمغول دار الفكر القاهرة ١٩٤٩م.

٣٢) حسب الله محمد أحمد (دكتور).

- قصة الحضارة في السودان القاهرة ١٩٦٦م.

٣٣) حسن إبراهيم حسن (دكتور).

- تاريخ الإسلام السياسي ٤ أجزاء القاهرة ١٩٩١م.

- « تاريخ الدولة الفاطمية » القاهرة ١٩٥٨م.

٣٤) حسن أحمد محمود (دكتور).

- الإسلام والحضارة العربية في آسيا القاهرة ١٩٦٨.

٣٥) حسن الباشا (دكتور).

- الفنون الإسلامية والوظائف جـ١ القاهرة ١٩٦٥م.

٣٦) حسن حبشي (دكتور).

- نور الدين والصليبيون القاهرة ١٩٤٨م.

٣٧) حسنين محمد ربيع (دكتور).

- النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين القاهرة ١٩٦٤م.

٣٨) خودابخش مؤرخ هندي.

- الحضارة الإسلامية – ترجمة علي حسن الخربوطلي القاهرة ١٩٦٠م.

٣٩) دولت عبد الله (دكتورة).

- معاهد تزكية النفوس في مصر العصر الأيوبي والمملوكي مطبعة حسان القاهرة.

٤٠) رشدي صالح.

- ألف ليلة وليلة، أجزاء ١٧، ١٨، ١٩ القاهرة ١٩٦٩م.

٤١) زبيدة عطا (دكتورة).

- بلاد الترك في العصور الوسطى، أجزاء ١٧، ١٨، ١٩.

٤٢) ستانلي لينبول.

- « سيرة القاهرة » ترجمه حسن إبراهيم حسن - علي إبراهيم حسن وأدوار حليم دار النهضة المصرية - القاهرة " ١٩٥٠م.

- «طبقات سلاطين الإسلام»، ترجمه للفارسية عباس إقبال وترجمه عن الفارسية مكي طاهر الكعبي - تحقيق علي البصري ١٩٦٨م.

٤٣) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور).

- «مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك - دار النهضة».

- «المجتمع المصري» القاهرة ١٩٦٢م.

- «العصر المماليكي في مصر والشام» ١٩٧٦م.

- «مصر في العصور الوسطى» - القاهرة ١٩٧٠م.

٤٤) سهام مصطفى أبو زيد (دكتورة).

- تاريخ الأرمن في مصر الإسلامية، دار الكتاب الجامعي القاهرة ١٩٩١م.

٤٥) السيد الباز العريني (دكتور).

- مصر في عصر الأيوبيين، القاهرة ١٩٦٠م.

- المماليك، بيروت - ١٩٦٧م.

٤٦) سيدة إسماعيل الكاشف (دكتورة)، حسن أحمد محمود (دكتور).

- مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة.

٤٧) سيد قطب.

- العدالة الإجتماعية في الإسلام، القاهرة ١٩٥٢.

٤٨) سيد محمد خليفة.
- دليل متحف الفن الإسلامي – القاهرة ١٩٥٢م.
٤٩) الشاطر بصيلي عبد الجليل (دكتور).
- تاريخ وحضارات السودان ١٩٧٢م.
٥٠) شوقي الجمل (دكتور).
- تاريخ سودان وادي النيل – القاهرة – ١٩٦٩م.
٥١) صابر محمد دياب حسن (دكتور).
- أرمينية. دار النهضة العربية ١٩٧٨م.
٥٢) عائشة عبد الرحمن (دكتورة).
- مقال في الإنسان، طبعة القاهرة ١٩٦٩م.
٥٣) عباس محمود العقاد.
- المرأة في القرآن – دار الإسلام – القاهرة ١٩٧٣م
٥٤) عبده بدوي (دكتور).
- «السود والحضارة العربية» – الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٦م.
٥٥) عبد الرحمن زكي (دكتور).
- «القاهرة» القاهرة ١٩٤٣م.
- «الجيش المصري في العصر الإسلامي»
٥٦) عبد السلام عبد العزيز فهمي (دكتور).
- تاريخ الدولة المغولية في إيران القاهرة ١٩٨١م.
٥٧) عبد العزيز محمود عبد الدايم (دكتور).
- الرق في مصر في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٨٣م.
٥٨) عبد الفتاح عاشور (دكتور).
- منهج القرآن في تربية المجتمع – الطبعة الأولى القاهرة ١٩٧٩م.

٥٩) عبد الكريم الخطيب (دكتور).
- التعريف بالإسلام - الطبعة الأولى القاهرة ١٩٦٥م.
٦٠) عبد الكريم رافق (دكتور).
- بلاد الشام ومصر دمشق ١٩٦٩م.
٦١) عبد الله بن أحمد قادري (دكتور).
- أثر التربية الإسلامية في أمن المجتمع الإسلامي - ١٩٨٨م.
٦٢) عبد الله حسين (دكتور).
- الدولة الإسلامية.
٦٣) عبد الله عفيفي (دكتور).
- المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، مكتبة الثقافة - المدينة المنورة.
٦٤) عبد الله محمد جمال الدين (دكتور).
- الدولة الفاطمية «قيامها ببلاد المغرب وإنتقالها إلى مصر»، القاهرة ١٩٩١م.
٦٥) عبد المجيد عطيه.
- تميم بن المعز - تونس ١٩٧٧م.
٦٦) عبد المنعم سلطان (دكتور).
- المجتمع المصري في العصر الفاطمي القاهرة ١٩٨٥م.
٦٧) عبد المنعم ماجد (دكتور).
- نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر القاهرة ١٩٧٩م.
- ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر القاهرة ١٩٦٨م.
- طومان باي القاهرة ١٩٧٨م.
- تاريخ الحضارة الإسلامية القاهرة ١٩٧٢م.

٦٨) عثمان الترك.
- صفحات من تاريخ الأمة الأرمنية - القاهرة ١٩٦٠م.
٦٩) عطية مصطفى مشرفه (دكتور).
- نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين القاهرة ١٩٤٨م.
٧٠) عطية القوصي (دكتور).
- تاريخ دولة الكنوز الإسلامية طـ/٢، القاهرة ١٩٨١م.
٧١) عفاف صبره (دكتورة).
- التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية القاهرة ١٩٨٧م.
- دراسات في تاريخ الحروب الصليبية القاهرة ١٩٨٥م.
٧٢) علي إبراهيم حسن (دكتور).
- «تاريخ جوهر الصقلي» القاهرة ١٩٣٣م.
- دراسات في تاريخ المماليك البحرية القاهرة ١٩٤٤م.
٧٣) فايد حماد محمد عاشور (دكتور).
- الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي، دار الإعتصام.
٧٤) فتحية عبد الفتاح النبراوي (دكتورة).
- العلاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية في العصور الوسطى القاهرة ١٩٨٢م.
- إنشاءات القاضي الفاضل - دار النهضة القاهرة ١٩٨٠م.
- تاريخ النظم والحضارة الإسلامية دار الفكر القاهرة ١٩٩٧م.
٧٥) فؤاد حسن حافظ
- تاريخ الشعب الأرمني القاهرة ١٩٨٦م.
٧٦) قاسم عبده قاسم (دكتور).
- دراسات في تاريخ مصر الإجتماعي القاهرة ١٩٧٩م.
- الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث - القاهرة ١٩٧٧م.

٧٧) كلود كاهن.

- تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ترجمة بدر الدين قاسم، بيروت ١٩٨٣م.

٧٨) ماير – ل.أ. ماير.

- الملابس المملوكية – ترجمة صالح الشيتي – مراجعة وتقديم عبد الرحمن فهمي " – القاهرة ١٩٧٣م.

٧٩) محسن محمد حسين (دكتور).

- الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين – بيروت ١٩٨٦م.

٨٠) محمد أبو زهرة.

- تنظيم الإسلام للمجتمع القاهرة ١٩٦٥م.

٨١) محمد جمال الدين سرور (دكتور).

- الدولة الفاطمية في مصر – القاهرة ١٩٦٥م.

٨٢) محمد حسن عواد.

- محرر الرقيق – مطبوعات الشعب القاهرة ١٩٩٤م.

٨٣) محمد حميد المناوي (دكتور).

- الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي القاهرة ١٩٧٠م.

٨٤) محمد رمزي.

- القاموس الجغرافي للبلاد المصرية قسمان في ٥ أجزاء – القاهرة ١٩٥٣ – ١٩٦٣م.

٨٥) محمد عبدالله عنان (دكتور).

- الحاكم بأمر الله القاهرة ١٩٣٧م.

- مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية – دار الكتب القاهرة ١٩٣١م.

٨٦) محمد عمارة (دكتور).

- عندما أصبحت مصر عربية – بيروت ١٩٧٤م.

٨٧) محمد كرد علي (دكتور).

- الإسلام والحضارة العربية ١٩٦٨م.

٨٨) محمود رزق سليم.

- عصر المماليك وإنتاجه العلمي والأدبي - القاهرة ١٩٤٧م.

٨٩) محمود محمد الحويري (دكتور).

- الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين ١٢، ١٣ - دار المعارف القاهرة

- العادل الأيوبي - ١٩٨٠م.

٩٠) مصطفى محمد مسعد (دكتور).

- الإسلام والنوبه في العصور الوسطى مكتبة الأنجلو القاهرة ١٩٦٠م.

٩١) مكي شبيكة (دكتور).

- السودان عبر القرون - بيروت ١٩٦٥م.

٩٢) نظير حسان سعداوي.

- جيش مصر في أيام صلاح الدين - مكتبة النهضة القاهرة ١٩٥٦م.

٩٣) نعوم شقير.

- جغرافية وتاريخ السودان - بيروت ١٩٧٢م.

٩٤) هند إسكندر عمّون.

- تاريخ مصر - القاهرة ١٩١٣م.

٩٥) وفاء محمد علي (دكتورة).

- نفوذ النساء في الدولة الإسلامية - دار الفكر القاهرة ١٩٨٦م.

٩٦) ول ديورانت.

- قصة الحضارة جـ ٢، مجلد/ ٤، ترجمة محمد بدران.

المراجع الأجنبية

1) **Dozy – R:**

Dictionnaire detaille nome de vetements chez les Arabes, Amesterdam, 1845.

2) **Gibb:**

Hamilton A. R Gibb "Studies on the civilization of Islam".

The Armies of Saladin.

The Achievement of Saladin. London 1965.

3) **Goitein: S. D Goitein.**

Mediterranean Society Volum III.

4) **Levi – Provencal.**

Arabica – Slave and Slave Girls VIX

5) **Neil D, Mackenzie** – "Ayyubid Cairo" – American University in Cairo Egypt 1992.

6) **O,Leary De Lecy:**

A short history of the Fatimid Khalifate, London, 1923.

7) **William Muir:**

The Mameluke of Slave Dynasty of Egypt, 1968.

8) **Yaacov Lev.**

Arab History and Civilization "state and society in fatimid Egypt". Leiden New York, 1991.

9) **Encyclopedia Americana V.25.**

10) **La grande Encyclopedie, Tom 16.**

11) **Encyclopedia Britannica V.20**

الرسائل العلمية

١) سوزي أباظة محمد حسن داود، السودانيون في جيش مصر الإسلامية حتى سقوط الدولة الفاطمية ودورهم في الحياة السياسية والإقتصادية والإجتماعية، رسالة ماجستير – معهد الدراسات الأفريقية – جامعة القاهرة ١٩٨٩م.

٢) صلاح شمردل عطية شحاته، الرقيق وأثره في المجتمع العراقي من الناحيتين الإجتماعية والسياسية في العصر العباسي حتى منتصف القرن الرابع الهجري، رسالة ماجستير – كلية الأداب – جامعة القاهرة ١٩٩٤م.

٣) عاطف مرقص بطرس، الأرمن وعلاقتهم بالبيزنطيين، رسالة ماجستير – جامعة عين شمس – كلية الآداب ١٩٩٣م.

٤) عبد الرازق عبد المجيد سليم، العلاقات بين مصر والنوبة في العصر الفاطمي، رسالة ماجستير – معهد الدراسات الأفريقية – جامعة القاهرة ١٩٧٨م.

٥) عبد الحميد أحمد الدسوقي، موقعة عين جالوت وأثرها في حماية الحضارة الإسلامية، رسالة ماجستير – كلية دار العلوم – جامعة القاهرة ١٩٥٥م.

٦) علي أحمد بيومي، قيام الدولة الأيوبية، رسالة ماجستير – كلية الآداب – جامعة القاهرة ١٩٤٦م.

٧) لبيبة إبراهيم مصطفى محمد، الرقيق وتجارته في مصر والشام في عصر دولة سلاطين المماليك ماجستير – كلية الآداب – جامعة القاهرة ١٩٩٣م.

٨) محمد محمد أمين علي، السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، رسالة ماجستير – كلية الآداب – جامعة القاهرة ١٩٦٨م.

٩) محمد سيف النصر أبو الفتوح، منشآت الرعاية الإجتماعية بالقاهرة حتى نهاية عصر المماليك – رسالة دكتوراه – كلية آداب سوهاج – جامعة أسيوط ١٩٨٠م.

١٠) منى سعد محمد الشاعر، جهاد البيت الأيوبي في شمال الشام والجزيرة ضد القوى الصليبية والمسيحية المجاورة. ٥٩٦ – ٦٩٨هـ / ١٢٠٠ – ١٢٩٨م. رسالة ماجستير – كلية الدراسات الإنسانية – جامعة الأزهر ١٩٩٢م.

١١) ناريمان عبد الكريم أحمد، أحوال المرأة في مصر في العصر الفاطمي، رسالة ماجستير – كلية الآداب – جامعة عين شمس ١٩٨٤م.

١٢) نهلة أنيس محمد مصطفى، العلاقات بين مصر والممالك الأفريقية في عصر دولة المماليك الجراكسة – رسالة دكتوراه – كلية الدراسات الإنسانية – جامعة الأزهر ١٩٩٥م.

الدوريات

١) **أحمد عبد الرازق (دكتور)، المماليك ومفهوم الأسرة لديهم** - بحث منشور في مجلة كلية الآثار - جامعة القاهرة عدد ١٩٧٧/٢م، العلاقات الأسرية في المصطلح المملوكي - مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - المجلد ٢٣ سنة ١٩٧٦م.

٢) **أيمن فؤاد سيد (دكتور)، المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي**، ندوة المدارس في مصر الإسلامية التي أعدتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة وعقدت بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية، إبريل ١٩٩١م.

٣) **سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور)، البنية البشرية لجيوش صلاح الدين**، بحث منشور بالمجلة العربية للعلوم الإنسانية - مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت عدد ٣٧ المجلد العاشر ١٩٩٠م، العلم بين المسجد والمدرسة - ندوة المدارس - الجمعية التاريخية إبريل ١٩٩١م.

٤) **سهام مصطفى أبو زيد (دكتورة)، تاريخ الصقالبة في مصر الإسلامية**، بحث منشور في مجلة كلية الدراسات الإنسانية - جامعة الأزهر - العدد التاسع ١٩٩١م.

٥) **سيدة الكاشف (دكتورة)، دراسات في المجتمع المصري الإسلامي قبل العصر الفاطمي**، مجلة هيئة الآثار المصرية - قطاع المتاحف مجلد ١٩٨٠/٢م طبعة ١٩٨٢ - القاهرة.

٦) **عبد العزيز محمد الشناوي (دكتور)، دراسات في الحضارة الإسلامية بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري**، بحث عن أروقة الأزهر - المجلد الثاني ١٩٨٥م.

٧) **عبد المنعم ماجد (دكتور)، المصريون وحدهم إستردوا بيت المقدس من الصليبيين**، الموسم الثقافي - مجموعة المحاضرات العامة التي ألقيت بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٧٨ - ١٩٨٣م طبعة ١٩٨٤ - القاهرة.

- **موقف المصريين من حكم المماليك في العصور الوسطى**، حوليات كلية الأداب جامعة عين شمس - مجلد ١٢ ١٩٦٩م.

٨) عفاف سيد صبره (دكتورة) - المدارس في العصر الأيوبي، ندوة المدارس - الجمعية التاريخية - إبريل ١٩٩١م.

- بهاء الدين قراقوش الوزير المفترى عليه، بحث منشور بمجلة الدارة السعودية العدد الثاني، السنة الثالثة عشرة - محرم ١٤٠٩هـ / أغسطس ١٩٨٧م.

٩) علي إبراهيم حسن (دكتور)، عظمة الفاطميين، مجلة الكتاب - عدد ممتاز - دار المعارف نوفمبر ١٩٤٦م.

١٠) محمد عبد الهادي شعيرة (دكتور)، الرملة ورباطاتها السبعة - بحث بمجلة الجمعية المصرية، للدراسات التاريخية مجلد ١٥/١٩٦٩م.

١١) محمد مصطفى زيادة (دكتور) «بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك»، مجلة كلية الآداب - الجامعة المصرية المجلد الرابع جـ ١، مايو ١٩٣٦م.

المحتويـــات

المحتويات

الموضـــــــــوع	رقم الصفحة
مقدمة	٧
تمهيد	١٣
تاريخ الرق	١٧
الرق لغة واصطلاحاً	١٨
مصادر الرقيق	٢٠
الرق في الديانات السماوية	٢٥
الرق في الإسلام	٢٨
الفصل الأول	٣٧
المماليـــــــك	
مراكز تجارة الرقيق	
أنواع المماليك	٤١
دخول المماليك في خدمة الدولة الإسلامية	٦٨
دخول المماليك في خدمة حكام مصر	٨٤
الفصل الثاني	
دور المماليك السياسي في العصر الفاطمي	
استخدام الفاطميين للمماليك	٩٧
عناصر المماليك	١٠٦
الصقالبة	١٠٦
الأتراك	١٢٠
السودان	١٣٠

الموضــــــــــــوع	رقم الصفحة

الصراع بين طوائف المماليك ١٤٥

أبرز العناصر المملوكية في العصر الفاطمي ١٨٥

جوهر الصقلي ١٨٥

برجوان الصقبلي ١٩٨

بدر الجمالي ٢٠٥

يانس الأرمني ٢١٤

بهرام الأرمني ٢١٨

جوهر مؤتمن الخلافة ٢٢٥

الفصل الثالث

دور المماليك الاجتماعي في العصر الفاطمي

المجتمع المصري في العصر الفاطمي ٢٣٥

الخاصة: الأسرة الحاكمة – الأشراف – أرباب الوظائف ٢٣٧

العامة: التجار – أرباب الصناعات والحرف – العوام – أهل الذمة – العبيد

المماليك من الجواري والغلمان والخصيان ٢٥٦

الجواري ٢٧٦

الغلمان وحياة القصور ٢٩٤

الخصيان في العصر الفاطمي ٣٠٧

علاقة المماليك بالمجتمع المصري ٣١٤

إمتلاك العامة للرقيق ٣١٤

الآثار التي ترتبت على تواجد الجواري في الأسرة المصرية ٣١٨

عتق العامة للجواري ٣٢١

إيجابيات وسلبيات تواجد الرقيق في المجتمع الفاطمي ٣٢٢

الفصل الرابع

دور المماليك السياسي في مصر

في العصر الأيوبي

مساندة المماليك لصلاح الدين في إسقاط الخلافة الفاطمية ٣٣٢
استخدام صلاح الدين للمماليك ٣٤٥
مساندة المماليك لصلاح الدين في حروبه ضد الصليبيين ٣٥٣
خلفاء صلاح الدين والمماليك ٣٦٢
دور المماليك في الصراع بين العزيز والأفضل ٣٦٦
دور المماليك الصلاحية والأسدية في سلطنة العادل ٣٧٤
دور المماليك الأشرفية والكاملية في تولية الصالح أيوب ٣٨٥
الصالح أيوب وتكوين فرقة البحرية ٣٩٣
المماليك البحرية والتصدي للحملة الصليبية السابعة ٣٩٨
المماليك وتورانشاه ٤٠٧
مقتل تورانشاه ونهاية الدولة الأيوبية ٤١٥
المرحلة الإنتقالية: سقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك الأولى ٤١٧

الفصل الخامس

الدور الإجتماعي للمماليك في العصر الأيوبي

نظم تربية المماليك في العصر الأيوبي ٤٣٥
العلاقة بين المماليك ٤٤١
المماليك والمجتمع المصري ٤٤٩
الجواري في العصر الأيوبي ٤٦١
الوظائف والمهن التي تقلدها المماليك ٤٦٤
دور المماليك في إقامة المنشآت والمؤسسات ٤٨٢

الموضــــــــــــوع	رقم الصفحة
الخاتمة	٥١٧
قائمة المصادر والمراجع	٥٢١
المحتويات	٥٥٥

الجواري والغلمان